موسوعة الحروب الصليبية

صلاح الدين الأيوبي

وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

د. علي محمد الصلابي



دار المعرفة

بيروت - لبنان

موسوعة الحروب الصليبية

صلاح الدين الأيوبي

وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

د. علي محمد الصلابي



دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-151-4

الطبعة الثانية
1429 هـ ـ 2008 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ـ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ ـ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على اعزاز دين الله ونصرته

اهدي هذا الكتاب سائلاً المولى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا

ان يكون خالصاً لوجهه الكريم

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 111].

د. علي محمد الصَّلاَّبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، ودولة المرابطين والموحدين، وعهد الدولة العثمانية وقد صدر منها: السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن العزيز، وفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، والثمار الزكية للحركة السنوسية، والسلطان محمد الفاتح، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والإمام الغزالي، وحقيقة الخلاف بين الصحابة، وفِكْر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة، والوسطية في القرآن الكريم، وعقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. وقد سميت هذا الكتاب: **«صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس»** ويعتبر حلقة مهمة في سلسلة الحروب الصليبية والتي خرج منها: السلاجقة والزنكيون، والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى

أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة، ويطرح فيها القبول والبركة، ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية التي نسعى لإخراجها.

وهذا الكتاب يتحدث عن صراع المشاريع، بين المشروع الصليبي، والمشروع الإسلامي السني، فقد لخص **الفصل الأول**: الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية، فتكلم عن الجذور التاريخية للحروب الصليبية، كالصراع البيزنطي الإسلامي في صدر الدولة الإسلامية، والأسباني الإسلامي بالأندلس، وطبيعة الحركة الصليبية التي قادها أوربان الثاني، وحركة الالتفاف على العالم الإسلامي التي تصدى لها العثمانيون وحركة الاستعمار الحديث، وأشرت إلى أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي، كالدافع الديني والسياسي والاجتماعي، والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط في صقلية والأندلس، وأفريقية، واستنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا وشخصية أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي وحملته الدعائية، وعَقْلِيَّته التنظيمية، وشرحت بدء الحرب الصليبية الأولى واستراتجيتهم بعد الاحتلال، وظهور حركة المقاومة في العهد السلجوقي، والمشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد، وتحريضهم على القتال في ساحات المعارك، ودور الشعراء في حركة المقاومة، وترجمت لقادة الجهاد من السلاجقة الذين سبقوا عماد الدين زنكي، وجهودهم في التصدي للغزاة كقوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش أمير الموصل، وسقمان بن أنق حاكم ماردين وديار بكر، وقلج أرسلان أمير سلاجقة الروم، وشرف الدولة مودود بن التونتكين حاكم الموصل والذي تعتبر حملاته الجهادية مقدمة لحملات عماد الدين زنكي، وأشرت لمعوقات حركة الجهاد في عهد أمراء السلاجقة والتي كان من أهمها: الباطنية، التي أثبتت عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان في الشهادة ـ فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها، وأبرزت جهود عماد الدين التي استطاع من خلالها أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم

الإسلامي من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، ويعتبر فتح الرها عام (539هـ) من أهم إنجازات عماد الدين، وكان لسقوطها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، فقد جاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء في الشرق الأدنى، وقد تصدى نور الدين وسيف الدين غازي أبناء عماد الدين للحملة الصليبية الثانية على دمشق، وحققوا انتصاراً مع أهالي دمشق كبيراً على الحملة الصليبية الثانية.

لقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاد الصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية، بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قياداته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي امتدت من الفرات إلى النيل والتي تصدّت بحق لهذا الخطر الصليبي، وقد تحدثت عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية وعن جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية وعن أعمالهم البشعة في الشمال الأفريقي، كغلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي، والتسلط والجور، وتحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة ومنع التجمعات وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس وعطلوا الشرائع وأسقطوا الفرائض، وإجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد. وتكلمت عن أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية، كالمقاومة السلبية والجدلية، والمقاومة عبر التأليف، ودور شعراء أهل السنة، وبينت كيف زالت الدولة الفاطمية من شمال أفريقيا وكيف انتقلت إلى مصر، وذكرت جهود المدارس النظامية في حركة الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي، وجهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة، والحملات النورية العسكرية على مصر، كالحملة النورية الأولى، والحملة النورية الثانية، والحملة النورية الثالثة على مصر، وتحدثت عن إلغاء الخلافة الفاطمية، والتدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي، والاعتبار والاتعاظ من زوال الفاطميين من مصر والوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي، كإذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي، وقطع

الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية وإلغاء جميع الأعياد المذهبية الفاطمية، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي، وإضعاف العاصمة الفاطمية، وإحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن، وذكرت فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي، وجهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين، وحقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين.

وفي الفصل الثاني: كان حديثي عن قيام الدولة الأيوبية، فذكرت أصول أسرته ونشأته وولادته. ومتى بدأت الدولة الأيوبية والرصيد الخلقي لصلاح الدين، كتقواه وعبادته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه وحلمه، ومحافظته على أسباب المروءة، وصبره واحتسابه، والوفاء، وعقيدة الدولة، وتوسع الأيوبيين في إنشاء المدارس السنية، كالمدرسة الصلاحية، ومدرسة المشهد الحسيني، والمدرسة الفاضلية، ودار الحديث الكمالية، والمدرسة الصالحية، وجهودهم العلمية في الشام والجزيرة، وعناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأصول العقيدة السنية والدراسات الفقهية، واهتمام الأيوبيين بحماية طريق الحج والحرمين الشريفين، ومحاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن، وتكلمت عن مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين، كالقاضي الفاضل، الذي كانت له مساهمات في ديوان الإنشاء، وتطوير جيش صلاح الدين، والقضاء على المعارضة الفاطمية وإعادة التنظيم الإداري في مصر وجهوده في الإحياء السني في مصر وجهاده ضد الصليبيين، وعن توظيف الأدب في خدمة الإسلام وحرصه على وحدة العالم الإسلامي، فقد كان القاضي الفاضل المتحدث الرسمي بلسان السلطان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان على قول ابن كثير أعز عليه من أهله وولده، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل، وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين إذ جعله وزيره ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه ولا يحكم في قضية إلّا بتدبيره. وهذا العالم من فقهاء النهوض، والأمة في أشد الحاجة لمثل سيرته، فتعلمنا سيرته أهمية عدم الانعزال في الشأن العام والعمل الاجتماعي والحكومي والحرص على كسب الخبرات، وأهمية التميز في أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه في العقيدة الصحيحة، وتوظيف القدرات والإمكانات لخدمة المشروع السني، فقد قدّم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية، ولم يبخل على صلاح الدين برأي ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة في فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد، وبناء الدول وزوالها، وترك لنا منهجاً في التعامل مع الشيعة وأهمية معاملة عامتهم بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم،

وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدي معهم إلا استخدام القوة، كالدولة الفاطمية في مصر، فقد ساهم في وضع الخطط والأساليب والوسائل للقضاء عليها سياسياً وعسكرياً وفكرياً، وبيّنت جهود أبي الطاهر السِّلفي وأبي الطاهر بن عوف المالكي في خدمة الإسلام في الإسكندرية، وحرص صلاح الدين على زيارتهم والأخذ من علومهم، وتحدثت عن الفقيه عيسى الهكاري وإسناده لصلاح الدين في وزارته، وإصلاحه بين نور الدين وصلاح الدين ومساهمته في الصلح مع أهل الموصل، ونجاحه في تنفيذ المهمات الخاصة الموكلة إليه، وشجاعته في الحروب وقيادته الميدانية في المعارك، وترجمت للعماد الأصفهاني القاضي الإمام العلّامة المفتي، الوزير، وبيّنت جهوده في خدمة المشروع الإسلامي السني.

وخلاصة القول إن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانه عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية، والمعنوية وبينت الإصلاح الاقتصادي واهتمامه بالزراعة والتجارة والصناعات، وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية وبناؤه للمستشفيات، والخوانق «بيوت الصوفية» والخانات في الأماكن المنقطعة البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، واهتمامه بالإصلاح الاجتماعي ومحاربته للعوائد والتقاليد المنحرفة والأخلاق الرديئة، وأشرت للإصلاحات العمرانية والإدارية ورجال الإدارة في عهده، وشرحت النظم العسكرية في عهده، كتطور الإقطاع الحربي، وديوان الجيش وَزِي الأجناد، والتموين والتعبئة العسكرية، والفرق الملحقة بالجيش، كالهندسية، والطبية، وتنظيم البريد والاستخبارات، وإدارة شؤون القتال والسلم، والأسرى، ومجلس الحرب، وخطط وأساليب القتال، كأسلوب الحرب الخاطفة، وخطة القتال بالتناوب، وتخريب المدن، وتأمين الطرق، وتحصين الثغور والقلاع والحصون، والاستفادة من مواسم القتال، ومعاملة الأسرى والمعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين، وأسلحة الجيش الأيوبي والبحرية الإسلامية، ودور المغاربة في الأسطول الصلاحي، وبيّنت جهوده في توحيد الجبهة الإسلامية ومحاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء عليه عن طريق الاغتيالات، ولكنّها فشلت بحمد الله، وتوفيقه وأسلوب صلاح الدين لتأديبهم، وعلاقته مع الخلافة العباسية والدولة البيزنطية والصليبيين قبل حطين، وترتيبه للأمور الإدارية والعسكرية قبل المعركة الفاصلة.

وفي الفصل الثالث من الكتاب: كان الحديث عن معركة حطين، وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة، وشرعت في بيان أحداث معركة حطين وبداية الهجوم الإسلامي، والحرب الصليبية عند صلاح الدين، وخسائر الصليبيين وأسباب الانتصار في معركة حطين، من التعامل مع السنن، كسنة الإعداد والأخذ بالأسباب، وسنة التدرج، وبُعْد نظر صلاح

الدين وحنكته السياسية، وإخلاصه العظيم لله ﷻ، وتطبيق شرع الله في دولته وبركات ذلك، كالاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار والعز والشرف، والنصر والفتح، وأثر العدل في تحقيق الانتصارات، وإعداد جيل مقاتل فيه صفات جيل التمكين، وحسن الصلة بالله واللجوء إليه بعد الإعداد، ونجاح العمل الاستخباراتي، وردود أفعال العالم الإسلامي والصليبي من معركة حطين، وفتوحات الساحل قبل فتح القدس، ونتائج معركة حطين، ككونها معركة فاصلة، وحاسمة وأهمية الوعي الجغرافي في فقه الصراع وإدارته، والجهود التراكمية في تحقيق الانتصارات الكبرى للأمم، وتحدثت عن خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير بيت المقدس، كالبعد الإعلامي، وتحشيد الجنود والتعبئة الشاملة، والحصار والقتال والهجوم الحاسم والمفاوضات ثم تسليم بيت المقدس وتحرير القدس، ووفاء صلاح الدين بوعده ورحمته بالأسرى والشيوخ والنساء، وزوجات القتلى وبناتهم واحترامه مشاعر المسيحيين، وتنفيذ الوعود ابتغاء مرضاة الله، وبشعور إنساني فيّاض وبروح فروسية عالية، واقتداء رشيد بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ عندما فتح القدس في خلافته، فقد ظهرت للغربيين روعة الإسلام في ممارسات صلاح الدين في السلم والحرب واحترام حرية الرأي والمعتقد، والحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة والتعاليم الإسلامية السامية، قال الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلمّا ملكتم سال بالدم أبطح
وحَلَّلتُمُ قتل الأسارى وطالما عدونا على الأسرى نَمُنُّ ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل وعاء بالذي فيه ينضح

وذكرت إصلاحات صلاح الدين في بيت المقدس وإرساله البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامي، واختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسي، وحضور العلماء في فتوحات القدس وغيرها، ودوّنت بعض القصائد في مدح صلاح الدين وفتح بيت المقدس كقول أبي علي الحسن بن علي الجويني في فتح القدس:

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشُكرِ بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصِّيد في يده صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا

وقول أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

والناصر الملك المتوّج ناصري ... وعلاه قد خطت كتاب أماني
قد كنت أرهب صرف دهري قبله ... فأعاد صرف الدهر من أعواني
أنا جاره ويدُ الخطوبِ قصيرة ... عن أن تنال مجاورَ السلطان

إلى أن قال:

فلأهدينّ إلى علاه مدائحاً ... تبقى على الأحقاب والأزمان
مدحاً أفوق به زهيراً مثلما ... فاق المليك الناصر ابن سنان
يا ناصر الإسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعزّ الله حزب جنوده ... وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم ... الشيطان بالإلحاد والعصيان
جرّدت سيفك في العداة لا رغبة ... في الملك، بل في طاعة الرحمٰن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً ... بالسيف ما دفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذي أعطاك ... فصل الحكم غضبة ثائر حرّان

وذكرت أهم الدروس والعبر والفوائد في تحرير بيت المقدس، كأهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة، وتربية الجيل على عقيدة الإسلام الصحيحة، وتحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، ووحدة الأمة، ووضوح الرؤية الإسلامية للمعركة ووجود استراتيجية بعيدة المدى، وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً، وأهمية توبة الأمة وعودتها إلى الله ﷻ وبعدها عن المعاصي، ولا طريق لتحرير فلسطين وأراضي المسلمين المحتلة إلا بالجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الشامل: الجهاد السياسي، والإعلامي والروحي والعلمي والتخطيطي والقتالي ... إلخ.

وتعرضت للحملة الصليبية الثالثة وردّة فعل الغرب الأوروبي من تحرير بيت المقدس والتعبئة الشاملة التي حدثت وما ترتب عليها من حملة صليبية ثالثة، كان فيها الملوك والأمراء ورجال الدين المسيحي، وقد شارك في تلك الحملة إمبراطور ألمانيا، وملك إنجلترا، وملك فرنسا، إلا أنها لم تحقق هدفها بفضل الله ثم جهود صلاح الدين والأمة المسلمة الملتفة حوله من بلاد الشام ومصر والعراق والمغاربة وغيرهم، وتكلمت عن طبيعة المفاوضات بين الملك العادل أخي صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا التي استمرت خمسة

عشر شهراً واقتضت 42 وفداً توجت بصلح الرملة، وقد تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين، فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه، وحضور طبيب صلاح الدين لمعالجته، وكان من آثار هذا الاختلاط في حياة الفرنج ما يأتي:

ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بينهم في تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع القوانين في هذه العلوم.

ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والمعادن والزجاج، كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية.

ـ تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها وساعدته الحضارة الإسلامية على الخروج من بحر الهمجية الظلامية في تلك العصور وهذا باعتراف المستشرقين قبل مؤرخي المسلمين.

وذكرت مرض صلاح الدين وأيامه الأخيرة وملازمة أحد الشيوخ له وقراءة القرآن عليه ولما بلغ القارئ قول الله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد: 30] تبسّم وتهلّلَ وجهه وسلّم روحه إلى خالقها سبحانه، ولم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً وقيل: سبع وأربعين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك. وختمت الكتاب بقصيدة العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين والتي قال فيها:

شَمْلُ الهُدى والمُلْكِ عَمّ شَتاتُهُ ... والدّهرُ ساء وأقلعت حسناته

أين الذي مُذْ لم يزل مخشية ... مرجوّة هِبَاتُهُ وَهِبَاته

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربِّهِ طاعاته

بالله أين النّاصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نيّاتُهُ

أين الذي ما زال سُلطاناً لنا ... يُرجى نَدَاه وتُتّقى سَطَواته

إلى أن قال:

في نصرة الإسلام يسهر دائماً ... ليطول في روض الجنان سُبَاتُهُ

لا تحسبوه مات شخص واحدٌ   فَمَمات كل العالمين مماته

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا عليه وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وستظل بإذن الله تعالى سيرة صلاح الدين تمد أبناء المسلمين بالعزائم الصلاحية التي تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية وبهجتها وبهاءها، وترشد الأجيال إلى أهمية استيعاب المشروع الإسلامي الحضاري الكبير تحت راية أهل السنة والجماعة، وقد طُويت بوفاة صلاح الدين صفحة من أنصع صفحات التاريخ، وأنقاها، فقد عرف فيه التاريخ رجلاً فذاً من طراز نور الدين محمود الشهيد، لم يكن همُّه جمع المال، ولم تستهوه زخرفة السلطان ولم تمل به عن جادة الحقِّ سطوةُ الحكم، فقد كان همّه انتصار الإسلام وأعظم أمانيه سيادة الشريعة، وأقصى غايته تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين، وإرغامهم على الهزيمة والرجوع من حيث ما أتوا.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد صلاح الدين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهي المشروع الصليبي والذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني ،والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر، والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائه بعد نور الدين صلاح الدين، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة والتصدي لشبهات المذهب الشيعي وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم، إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعي بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل، ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه وتنشر مبادئه بين الناس وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب.

إن موسوعة الحروب الصليبية ـ والتي صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية وهذا الكتاب ـ قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول، والذكاء الواعي واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى عدل الإسلام.

هذا وقد انتهيت من هذه المقدمة في (15 شعبان 1428هـ ـ 28 أغسطس/2007م) الساعة الرابعة بعد صلاة العصر. والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: 2]. ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي وتركني للقلم الذي بين أصابعي لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة وليبست الأصابع ولجفت العواطف ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

إلهي: إنك لتعلم أن لي مع كل واحد ممن تحدثت عنهم في كتبي وقفة لها قصة أو خبر، وإنك لتعلم حرصي على إحياء سيرهم كوسيلة لنصرة دينك وأن أنال بذلك كريم مرضاتك يا أكرم الأكرمين، اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح له صدري وجنبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ولعبادك نافعاً، وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشاعر:

ومن عَجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ   وأسأل عنهم من لقيتُ وهم معي

وتطلُبُهم عيني وهُم في سوادِها   ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamad2@maktoob.com

الفصل الأول

الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية

المبحث الأول
الجذور التاريخية للحروب الصليبية

إن مما يجدر ذكره أن الحرب الصليبية بين المسلمين والنصارى الغربيين وغيرهم، لم تبدأ في نهاية القرن الخامس الهجري، ولم تنته في القرن السابع الهجري، بل هذه الحملات هي سلسلة في هذا الصراع الطويل، الذي بدأ بظهور الإسلام[1]، واستمر بصيغ دورية متعاقبة كادت تغطي المدى الزمني لظهور الإسلام والعصر الحديث، ويمكن تقسيمه على ستة من المحاور التي استمر عليها هذا الصراع، ولم يكن أدوار الصراع على كل واحد من هذه المحاور يفتر قليلاً حتى يشب ثانية في محور جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفاً واستنزافاً للطاقات الإسلامية في مساحات واسعة من الأرض[2] وهذه المحاور هي:

أولاً: البيزنطيون:

ترجع بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل، وذات السلاسل، ومؤتة، وتبوك، وانتهاءً بحملة أسامة بن زيد رضي الله عن الصحابة أجمعين، كان المعسكر البيزنطي يتحسس الخطر الإسلامي الجديد القادم من الجنوب لاسيما بعدما تمكنت الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالي الجزيرة من سادتهم القدماء الروم، وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء أو كرد فعل لتحرك إسلامي، فإن المحصلة الأخيرة هي أن هذا المعسكر بدأ يدرك أكثر فأكثر حجم التحدي الجديد ويعد العدة لوقفه، صحيح أن هذه العدة لم تكن ـ أحياناً ـ بالحجم المطلوب، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التي كانت القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها، إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا

---

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس، ص: 30.

(2) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، د.عماد الدين، ص: 26.

المحور وازدادت اشتعالاً بُعيد وفاة الرسول ﷺ وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون[1]، وبعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من أفريقيا على يدي القيادة الراشدة، والمراحل التالية من العصر الراشدي، التي شهدت محاولات التفاف، وردود أفعال عديدة وهجمات مضادة نفذها هذا المعسكر في البرّ والبحر، ولكنها آلت في معظمها إلى الخسران، ثم ما لبث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية، وبفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها الأمويون[2] ـ ابتداء من معاوية ﷺ مؤسس الدولة الأموية وعهد عبد الملك بن مروان وبنيه خصوصاً الوليد وسليمان ـ وقد تم شرح ذلك وتفصيله في كتابي «الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار».

واستمرت الملاحقة النشطة للبيزنطيين بعد الأمويين في الشام ومصر وشمال أفريقيا، وانحسروا بالكلية عن الشمال الأفريقي ومساحات واسعة من البحر المتوسط، وانزووا هناك في شبة جزيرة الأناضول، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوروبا نفسها، وهكذا وبمرور الوقت، أصبح خطر هجماتهم المضادة محدوداً؛ لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية دون أن تتعداه إلى العمق إلا نادراً بسبب يقظة القيادات الإسلامية، وتحصينها خط الحدود من جهة، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية، وتوغلها بعمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى، الأمر الذي لم يدع الإمبراطور البيزنطي ـ في معظم الأحيان ـ أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد، اللهم إلا عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت، إلا أن ظهور السلاجقة أعطى دفعة قوية لحركة الجهاد الإسلامي، وقد استطاعوا في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن يحققوا نجاحاً ساحقاً ضد العمود الفقري للقوات البيزنطية في معركة ملاذكرد عام (463هـ) وكان هذا الانتصار بمثابة نهاية لتحديات الدولة البيزنطية وهجومها المضاد، واستمر على تلك الحال حتى سقوطها بعد عدة قرون على يد العثمانيين [3]، وقد فصّلت ذلك في كتابي «الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط»[4].

ثانياً: الإسبان:

شهدت الساحة الأندلسية، منذ بدايات مبكرة هجمات مضادة متواصلة قادمة من الشمال

(1) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، د.عماد الدين، ص: 26.

(2) هجمات مضادة، ص: 26 ، 27.

(3) المصدر نفسه، ص: 37.

(4) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص: 125 – 140.

حيث يتحصن الإسبان في المناطق الأشد وعورة، ولقد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير قدرت القيادة الأموية عبره أن تجابه الهجوم المضاد لمدى ما يقرب من القرون الثلاثة، وأن تحتويه وترغمه على الانحسار في الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الأيبرية، ثم جاءت دفقة الحيوية الإسلامية الجديدة مرتين إحداهما على يد المرابطين القادمين من المغرب[1]، الذين سجلوا لنا في صفحات المجد انتصارهم العظيم في معركة الزلاقة على النصارى الإسبان في عام (479هـ)، والأخرى على أيدي الموحدين الذين جاؤوا من بعدهم الذين حققوا انتصاراً ساحقاً على النصارى في معركة الأرَك عام (591هـ) التي سجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي[2]، وبذلك تمكن الإسلام في الأندلس من الصمود بمواجهة التحدي ومقارعة الهجوم الإسباني المضاد بسلاح شبه متكافئ لمدى يقرب من القرون الأربعة[3]. لكن المسلمين هناك ما لبثوا أخيراً أن استنزفوا، وزادهم ضعفاً انقسامهم على أنفسهم وصراعهم الدموي الطاحن فيما بينهم، الأمر الذي حَوّل ميزان القوى لصالح القيادة النصرانية التي تمكنت في نهاية المطاف من إسقاط آخر كيان إسلامي هناك، مملكة غرناطة 897هـ لكي ما تلبث ـ تحت زعامة فرديناند وإيزابيلا ـ أن تنفذ أبشع مجزرة رهيبة في التاريخ البشري، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التفتيش واستطاعت بأساليبها التي تجاوزت القيم الإنسانية فضلاً عن الدينية على تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الإسبانية، ودمج الجماعات الإسلامية قسراً بالمجتمع النصراني ديناً وثقافة وسلوكاً[4].

ثالثاً: الحركة الصليبية:

إن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وهذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (488هـ ـ 690هـ/ 1095م ـ 1291م) إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد أن يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت

(1) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص: 28.
(2) المصدر نفسه، ص: 383، 384.
(3) هجمات مضادة، ص: 28.
(4) المصدر نفسه، ص: 28.

إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة[1]، وقد تصالح المؤرخون على إطلاق الحروب الصليبية على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول، ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من الدين وقوداً لتحقيق أهدافها[2]، فالغزو الصليبي ليس أمراً جديداً ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء[3]. ولذلك نقول: إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي (588هـ ـ 690هـ) هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور: لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى[4].

لقد كانت المقاومة الإسلامية لهذا الغزو تعبيراً فذاً عن استمرار تيار العقيدة في نفوس المسلمين، على مستوى القمة حيناً، وعلى مستوى القواعد معظم الأحيان، لقد صنعت الحقبة مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة، وقد انتشر هؤلاء المجاهدين في كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة في كل الفترات، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يتخلوا عن المقاومة ولم يستكينوا أو يضعوا السلاح، كانوا على استعداد في كل لحظة لركوب خيولهم والانطلاق سراعاً إلى الأهداف، والجهاد لا تضعه النظريات والأماني، والمجاهد لا يتحرك في الفراغ، ولكنها التحديات التاريخية الكبيرة هي التي تصنع الجهاد وتبعث المجاهدين، وتنفخ في المقاتل المسلم روح البطولة والتضحية والاستشهاد[5].

رابعاً: حركة التفاف الصليبيين:

ما لبثت أوروبا بعد سحق الوجود الإسلامي في إسبانيا أن بدأت بقيادة إسبانيا والبرتغال، ومن بعدهما بريطانيا وهولندا وفرنسا، عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على

---

(1) الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ص: 10.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، ص: 15.

(3) هجمات مضادة، ص: 32.

(4) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (1/ 26).

(5) هجمات مضادة، ص: 3.

عالم الإسلام عبر خطوطه الخلفية في إفريقيا وآسيا، والتي كانت بمثابة حركة الاستعمار القديم التي ابتلي بها العالم الإسلامي فيما بعد، والتي استمرت حتى العقود التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية، كان المماليك في مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء، وكان اكتشاف الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجّه لتجارتهم ـ التي هي بمثابة العمود الفقري لمقدرتهم المادية ـ ضربة قاصمة، أما العثمانيون فكان جهدهم منصباً على اختراق أوروبا من الشرق، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التي تمكنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك في بداياتها الأولى، ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف، ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية في المناطق التي ابتليت بالغزو دفاعاً مستميتاً، وضربت مثلاً صلباً في مقاومتها المتطاولة للعدوان، وألحقت بالغزاة خسائر فادحة على طول الجهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطئ قدم[1]، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي الإسباني الذي استهدف خنق التجارة الإسلامية، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربهن سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ماعدا مراكش، واستطاعوا مواجهة الإسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله، وأدالوا منهم، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطئ البحر المتوسط للإسلام والمسلمين، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر فأرهب ذلك الأوروبيين، واستطاع أحمد بن سعيد (1740م) أن يقف في وجههم في عمان حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام (1000هـ ـ 1250هـ) وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج، فأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والأفريقية . . ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا، فعملوا على مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها، وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل[2].

خامساً: الاستعمار:

وجاءت الموجة الأوروبية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة، لتعريف بضائعها والحصول

---

(1) هجمات مضادة، ص: 37.

(2) الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي، ص: 394 – 393.

على الخامات الضرورية، وتسخير الطاقات البشرية (الرخيصة) المستعبدة في إفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما يعرف بحركة تهجير العبيد التي كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء في تاريخ الصراع بين أوروبا والشرق، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعوب الإسلامية في أفريقيا، واستمرت هذه الموجة التي قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا إلى حد ما، حتى العقود الأولى من القرن العشرين، وكان العالم الإسلامي فريستها الأولى، بل إنه كان فريستها الوحيدة، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثرية غير إسلامية، وكانت أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبّرت عن نفسها في أكثر من واقعة، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل، إن «غلاد ستون» رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف: ما دام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبداً[1]، وعندما دخل القائد البريطاني الصليبي القدس بعد الحرب العالمية منتشياً وحلفاء بريطانيا يستقبلونه بحفاوة وتكريم إلا أنه لم يخف حقده الصليبي على الإسلام والمسلمين، وأظهر سروره وحبوره كقائد صليبي منتصر فتح القدس وفلسطين وجعلها تحت الانتداب البريطاني الصليبي فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية[2] يزعم بهذه العبارة أن هدف الحروب الصليبية باحتلال القدس وفرض السيادة الصليبية عليها وعلى فلسطين قد تحقق، وهو بهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان واحتلت القدس وفلسطين سنة (492هـ) وحررها المسلمون في عام (583هـ) لم تحقق هدفها، أما الحرب العالمية الأولى فقد حققت فيها الصليبية هدفها واستولت على فلسطين والقدس وكانت السيادة لها. وأما القائد الصليبي الفرنسي فقد ذهب إلى قبر صلاح الدين في دمشق وقال عند القبر: ها نحن عدنا يا صلاح الدين[3].

واستمرت الحرب الصليبية فلم تتوقف فقامت بريطانيا بإعطاء وطن لليهود على أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية، واتخذت من القرارات والإجراءات الإدارية والعسكرية ما تقيم هذه الدولة، بتدريب اليهود على السلاح وفنون القتال وتوفير السلاح لهم، بل إعطاء بعض أسلحة الجيش البريطاني لهم، وبخاصة عندما أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في (15/ 05/ 1948م) بل سلمت كثيراً من المدن والقرى الفلسطينية إلى اليهود ليعلنوا إقامة دولة يهودية عليها، وفي الوقت ذاته قد حرّمت على الفلسطينيين المسلمين التدريب على السلاح واقتناء السلاح، وشنت عقوبات ظالمة على كل فلسطيني يقتني السلاح أو

(1) هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص: 40.
(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 35.
(3) المصدر نفسه، ص: 434.

العتاد، فكانت عقوبة الإعدام هي الشائعة، ولقد علق من المجاهدين المسلمين على أعواد مشانق الصليبيين الإنجليز في تلك الفترة آلاف الشهداء، وزج في غياهب السجون عشرات الألوف[1]. هذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية وارتبطت عضوياً بحركة التبشير النصرانية، بجانبيها الكاثوليكي والبروتستانتي، والتي انتشرت مراكزها في طول بلاد الإسلام وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها المختلفة، وتفتح أمامه الطريق وتحظى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والميزات[2]، إلا أن هذا الهجوم الاستعماري الصليبي المضاد لم يمض بسلام ولم تركع الشعوب الإسلامية أمام إرادة القوة التي اعتمدها الغزاة، بل شمروا عن ساعد الجد واستجاشوا قدرات الإيمان الدافقة ووازنوا بتضحياتهم وعشقهم للموت، وركضهم إلى الشهادة، رغم نقص إمكانياتهم العسكرية والمادية وصنعوا بذلك الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلت استمرارية حركتهم، ألحقت بهم الهزائم والويلات ووضعت في طريقهم الأسلاك الشائكة والألغام، ليس هذا فحسب، بل إن الاستجابة للتحدي الاستعماري النصراني بعث حركات إسلامية أصيلة تخلّقت في مناخ جهادي قاس، واستهدفت مقارعة العدوان وتحرير الأرض والعقيدة والإنسان، وقدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث بها الغربيون قبل الشرقيين وملأت صفحات ناصعة بيضاء في معطيات التاريخ [3]، ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر مقاومة كل من محمد عبد الكريم الخطابي بالمغرب، وعبد القادر الجزائري، وجمعية علماء المسلمين بالجزائر التي قادها عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وعمر المختار بليبيا، وغير ذلك من حركات التحرر التي تحتاج إلى أقلام صادقة لبحثها وكتابتها، والأمة في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة. إن الحرب الصليبية لم تنته ولن تنتهي، وما يحدث في أفغانستان والعراق وفلسطين دليل على ما نقول.

المبحث الثاني
أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي

كان المجتمع الأوروبي الغربي في هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما يساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي[4]، كما كان للصراعات القائمة بين رأسي العالم المسيحي الغربي حينذاك، وهما:

---

(1) هجمات مضادة في التاريخ، ص: 41.

(2) المصدر نفسه، ص: 41.

(3) المصدر نفسه، ص: 41.

(4) الحروب الصليبية، ص: 21 ، 24 أرنست باكر.

البابا والإمبراطور أثر كبير في مجريات الأحداث الأوروبية، فلقد بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ في هذه الفترة، مما فتح أمامهما المجال لكي تصبح القوة العالمية بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء[1]، بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها وأن تكون لها الأولوية على الأخرى، ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثاني (471 ـ 491هـ) (1078 ـ 1097م) وجد في تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وإدماجها في الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين[2]. هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب في تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع في الغرب، وإنهاء الحروب المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة، عليها تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات[3]. وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة، ، فبعضهم يرى أنّ منها ما هو مادي والبعض الآخر يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الديني التي عرفت بها أوروبا في العصور الوسطى، وأن الباعث الحقيقي لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الديني الممزوج بأغراض أخرى كالميل إلى تأسيس ممالك جديدة والحصول على الثروات الطائلة، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والحديثين تلك الحروب أنها حروب دينية، وأن العامل الديني كان الدافع الأساسي وراءها من أجل استعادة قبر المسيح ـ على حد زعمهم ـ والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، والآخرون يعتبروها أحد مظاهر التوسع الاقتصادي الاستعماري في العصور الوسطى، وحقيقة الأمر أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، واتخذت الدين وقوداً أو وسيلة لإخفاء أغراضها المذكورة[4]، ولا يمكن التقليل من الدافع الديني في تلك الحروب بأي وجه من الوجوه، وإليك تفصيل تلك الدوافع والأسباب:

---

(1) الحروب الصليبية (1/32) سعيد عاشور.

(2) دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين في آسيا، نقلي، ص: 32.

(3) مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق، ص: 18 ـ 19 ، 32 – 33.

(4) العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، صلاح الدين نوار، ص: 22.

أولاً: الدافع الديني:

كان الدافع الديني من الأسباب الرئيسة التي دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة، فقد كان شعار الحروب الصليبية، ومما يظهر أهمية الجانب الديني أنهم قد وضعوا إشارة الصليب على أسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات[1]، وقد كانت حركة الإحياء الديني قد ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، قد أدت إلى تقوية مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، هذه الحماسة استغلتها الكنيسة في متنفس خارجي، وعندما ظهرت فكرة الحرب الصليبية اتخذت الكنائس الغربّ الأوروبي ميداناً واسعاً لاستغلال نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة[2]، وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدي المسلمين[3]، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو البابا «أوربان الثاني» والذي يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين والتحريض على إرسال الحملة الأولى إلى بلاد الشام، وقد كانت الظروف مهيأة، فسارع إلى عقد اجتماع في مدينة (كليرمنت) في فرنسا واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة[4]، كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وممثلون عن المدن الإيطالية. . واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين في «خطابه» فتجاوب في أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة «هكذا أراد الله» وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم[5]، كما أن البابا أشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أن النصارى في المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة، قد أصابها الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين[6]. والحقيقة إن ما أثاره البابا من تعرض نصارى المشرق إلى اضطهاد هو ادعاء باطل، لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط النصارى به من رعاية وعناية[7]. وكان من الشعارات التي رفعت في هذه الحرب أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم في طريقهم إلى بيت المقدس ـ قبيل الحروب الصليبية

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحد أبو زيد، ص: 17.

(2) الحركة الصليبية (1/ 20) سعيد عاشور الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري محمد حامد الناصر، ص: 80.

(3) الجهاد والتجديد، محمد حامد، ص: 80.

(4) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص: 81.

(5) الشرق الأدنى: السيد الباز العريني، ص: 13 ـ 14.

(6) قصة الحضارة (4/ 16).

(7) الجهاد والتجديد، ص: 81.

وهذا ادعاء باطل كذلك[1]، يقول أحد كبار المؤرخين الأوروبيين: إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سُمِحَ لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت[2]. كما أن الادعاء بتخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يقم عليه دليل: وإنما هي شائعات تظهر دور الدعاية الباطلة بفتح جبهة على المسلمين وأهمية إعطاء دور الإعلامي عنه ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية[3]. ويقرر أكثر من مؤرخ منصف أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما وجد أي دليل على اضطهاد السلاجقة للنصارى في المشرق[4]. إلا أن صيحات البابا كانت محمومة حاقدة لا تعقل ولا تفكر في العواقب الوخيمة لتصريحاته الرعناء، وإلا ماذا يعني قوله لأتباعه: اذهبوا وأزعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من الكفار، وامتلكوها لأنفسكم، فإنها كما تقول التوراة: تفيض لبناً وعسلاً[5]. وقد وعد الباب الجموع المشاركين بالحرب، برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وبإعفائهم من الضرائب، كما وعدهم برعاية الكنيسة لأسرهم مدة غيابهم[6]. ولعل ما يدخل ضمن الدافع الديني أيضاً أنه ذاعت في الغرب أخبار الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً ولا بد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح[7]، وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعا إلى القسم وبأن تؤدى الصلاة في كنيسة القيامة، وأشاع أن اللعنة (سيف النقمة) ستحل على كل من يستولي عليه الجبن والضعف أو نكص على عقبيه، وهدد بأن يتعرض كل من لا يلبي نداء الكنيسة بالتوجه صوب الديار الإسلامية بالحرمان من

---

(1) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د. علي عبد الحليم محمود، ص: 108.

(2) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (1/ 30).

(3) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص: 109.

(4) الحركة الصليبية (1/ 26، 28).

(5) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي (5/ 438).

(6) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص: 26.

(7) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص: 152.

الكنيسة[1]. وهذا من دهائه وقدرته على توظيف العواطف والمشاعر لخدمة مشروعه. لقد أثرت الكنيسة لما لها من سلطان على قلوب الناس في غرب أوروبا في تلك العصور على الدعوة لهذه الغزوة، وترتب على دعوة الكنيسة خروج الناس أفواجاً في حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى المشرق الإسلامي[2]. ولا ننسى الحقد الصليبي على الإسلام وأهله، فقد انتزع من أيديهم أرضاً كانت تحت سلطتهم وحرر منهم عبيداً كان يرزحون تحت وطأتهم، واستلب منهم ملكاً كان في قبضتهم، فغلت مراجل الحقد في صدورهم، وتأججت نار العداوة في قلوبهم، وأخذوا يتحينون الفرص ليستردوا ما فقدوا وينتقموا لأنفسهم ممن نكبوهم، ومزقوا مملكتهم[3]، وهذا المستشرق المشهور الأميرليون كايتاني (1869م ـ 1926م) الذي بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامي في كتابه المعروف «حوليات الإسلام» يوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين في مقدمة كتابه حيث يقول: إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كاتاستروفيكا إسلاميكا) التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد ويؤمنون به نبياً ورسولا[4].

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217].

ثانياً: الدافع السياسي:

كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها سواء قبل وصولهم إلى الشام وفلسطين أو بعد استقرارهم فيهما، والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع، وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له، مما يجعله

(1) الوسيط في تاريخ فلسطين، ص: 152.

(2) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص: 22.

(3) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، ص: 157، للوكيل.

(4) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، ص: 110.

عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وهذا ما أدى إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه[1]، وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع، وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب. أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون إقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم.

وبدراستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في الطريق أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية لرغبة كل واحد منهم في الفوز بها، وكيف من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع به وتخلى عن مشاركة بقية الصليبيين في الزحف على البيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة، وكثيراً ما دب الخلاف بينهم ـ بعد استقرارهم ـ حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض المنازعات بين الأمراء وتحذرهم بأن المسلمين يحيطون لهم، وأن الواجب الصليبي يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح، لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه، بل إن بعض الأمراء لم يحجموا عن مخالطة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية[2]. أما بالنسبة للإمبراطور البيزنطي (ألكسيوس) فإنه لم يعترض على أهداف أمراء الحملة، لأنه إذا تسنى للدولة البيزنطية استرداد ما كان لها من أملاك قبل غارات الأتراك عليها، جاز أن تقوم في تخومها إمارات مسيحية حاجزة، لها حق السيادة عليها، ولضمان الحصول على ذلك حرص الإمبراطور على الحصول على يمين الولاء من أمراء الغرب، وبذلك توافقت المصالح كلا الجانبين المسيحيين في القيام بالحرب والعدوان على الأرض الإسلامية، والواقع أنه من العسير الفصل بين العوامل المادية والعوامل المعنوية التي

---

(1) أوروبا في العصور الوسطى (2/ 49)، سعيد عبدالفتاح عاشور، الوسيط في تاريخ فلسطين، ص: 154.

(2) الوسيط في تاريخ فلسطين، ص: 155.

دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية، فالفقر والرغبة في الكسب، وروح المغامرة كانت عوامل هيأت الجو المناسب للحروب، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة للحرب «المقدسة» وتخليص الأرض، من حماس ديني، والواضح أن فكرة الحرب نبعت من السياسة البابوية، وسياسة الدولة البيزنطية والحروب الإسبانية الإسلامية، فمما سهل أمر إعلان الحرب على المشرق الإسلامي، ما درج عليه الإسبان والفرنسيون في قتال المسلمين في بلاد الأندلس، حيث اتخذ هذا القتال صفة الحرب المقدسة، سواء من جهة المسلمين، حيث أثار «المرابطون» في المغرب الإسلامي الجهاد الديني، أو من جهة المسيحيين في الحالة النفسية التي اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق، حتى أن المؤرخ الكبير «ابن الأثير» نظر إلى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أي عدوان على طرف من أطراف العالم الإسلامي ـ سواء في الشرق والغرب ـ رافد يصب في النهر الأكبر، وهو الغزو الأجنبي المنظم على أكبر قوة حضارية في العصور الوسطى، وهو الدولة الإسلامية[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف المؤرخ المذكور بوضوح عن أسباب نجاح هذا الغزو، ذي الشعب (الأندلس، صقلية، الشام ـ فلسطين) والتي تكمن في: الفرقة، والأطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميز بها الحكام والمسلمون الأوائل بناة الدولة الإسلامية[2]. وقد كان واضح للعيان أن الكنيسة الغربية كانت محمومة لتوسيع رقعتها الإقطاعية، والسيطرة على الكنائس الشرقية، إضافة إلى رغبتها في حرب المسلمين، ومن حقائق التعصب الديني وجود الجماعات الدينية التي كانت ترتبط بالكنيسة مباشرة وكانت ذات أثر فعال في تلك الحروب، منها فرسان الإسبتارية الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في المشرق، وحماية الأماكن المقدسة، وكانوا يرتبطون بالبابا مباشرة، وكانت كنائس بيت المقدس قد خصصت عشر دخلها لمساعدتهم في أداء رسالتهم الدينية المزعومة، وهناك هيئة الفرسان الداوية التي اتخذت مقرها في جزء من هيكل سليمان عليه السلام في المسجد الأقصى، وسميت باسم: فرسان المعبد، ثم حرفت إلى اسم الداوية[3] هذا وقد كانت للبابوية ورجال الكنيسة القدرة على التأثير والضغط والتهديد بالنسبة لمن لا ينفِّذ رغبة الكنيسة بإصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا[4] على حد زعمهم.

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الوسيط: في تاريخ فلسطين، ص: 156.

(2) الوسيط في تاريخ فلسطين، ص: 156.

(3) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور، ص: 86.

(4) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص: 24.

ثالثاً: الدافع الاجتماعي:

ساد المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى تمايز طبقي كبير، فقد سادت فيه طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان[1]، وكانت طبقة الفلاحين تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون، ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليين. كان الفلاح الأوروبي مغلوباً على أمره، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وقد كان البابا على دراية بأحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامي، فقد كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة في نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها بالطين والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولا يوجد داخلها أثاث، بل كان ما يجمعه الفلاح، يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي، كما يعتبر محروماً من الملكية الشخصية[2]. وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لأسيادهم الإقطاعيين في شتى المجالات إلى جانب حرمانهم من منتجاتهم، وبذلك يظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي، وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبي، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان، ونظروا إلى أخطار الاشتراك في هذا الغزو نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه، فإن ماتوا في هذه الحرب كان لهم الخلاص وإن نجوا كانت لهم حياة جديدة أفضل مما كانوا عليه[3]، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، وسيباركهم الرب، والبابا، لذلك لم يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبي ثواباً يوم الدينونة[4].

رابعاً: الدافع الاقتصادي:

يعتبر التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية، وقد عبر البابا (أوربان) نفسه في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا آنذاك فقال: لا تدعوا شيئاً يقعد بكم ... ذلك أن الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها البحار وقلل الجبال ضيقة على سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم

(1) الجهاد والتجديد، ص: 84.

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص: 24.

(4) أثر الشرق الإسلامي، د. عبد الله الربيعي، ص: 138.

من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج[1]، وإن جميع الوثائق تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث ألجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، فجاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين باباً جديداً للخلاص من أوضاعهم الصعبة وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي مروا في أراضيها[2]، كذلك اشترك عدد كبير من تجار المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحروب الصليبية بغرض استغلالي بحت من أجل السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسة في الشام، فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على أنطاكية سنة (490هـ ـ 1097م)، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء اللاتين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح والكسب المادي، ولم يكن يعنيها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها، ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان: لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين[3]، ولذلك قامت جمهوريات إيطاليا (جنوا ـ بيزا ـ البندقية) بعقد معاهدات مع أمراء الصليبيين بالمشرق حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة[4].

خامساً: تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط:

وذلك منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس، ممّا دفع بالمرابطين، ومسلمي

(1) أثر الشرق الإسلامي، د. عبد الله الربيعي، ص: 34.

(2) الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور (1/ 30-32).

(3) الحروب الصليبية المقدمات السياسية، د. علية الجنزوري، ص: 249.

(4) الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، ص: 83.

صقلية على الاستنجاد بأفريقية من ناحية ثانية، كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ صفة العالمية[1]. وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي، فهذه حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة (488هـ ـ 1095م)[2]. وتعتبر أفريقية بمدلولها التاريخي أحد هذه الميادين في الصراع الصليبي، فقد كانت الجبهة الأفريقية ميداناً نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يتمثل ذلك في حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى، ولم تفتر للصليبيين في ذلك همة ولم يُوهن الفشل لهم عزيمة، فكما أن بلدان المغرب الإسلامي كانت أول من اكتوى من البلاد الإسلامية بنار الاستعمار الأوروبي الحديث، كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها: قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة[3]، وبالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوروبا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من خطر هؤلاء إذا تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لكل ذلك كانت أوروبا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حال منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء، وما أشبه اليوم بالأمس، **لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم**، فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جبهات في آن واحد في الأندلس وصقلية وأفريقية[4].

---

(1) الحروب الصّليبية في شمال أفريقية، ص: 11 ـ 13.

(2) الحروب الصّليبية في شمال أفريقية، ص: 12.

(3) كلمة المغاربة كانت تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره، والذي كان يضم: الأندلس والجزر الإسلامية غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث يقصرها على أهل المغرب الأقصى.

(4) الحروب الصليبية في شمال أفريقيا، ص: 13.

1 ـ الأندلس:

فقد شهدت الجبهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قِبل النصارى الإسبان بزعامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة، وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة (478هـ) في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره، وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان قام مسلمو الأندلس بالاستنجاد بالمرابطين من العدوة المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوش المقاومة لدولته في المغرب، عبر البحر إلى الأندلس بجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة (479هـ) التي سطر المرابطون ومن ساعدهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وبانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

2 ـ صقلية:

وأما الجبهة الصقلية فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد يجدون موطئ قدم لهم في جنوب إيطاليا ويحصل جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفي سنة (1059م) حتى أعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية إرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده ببركتها النصر على المسلمين، وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح عليه السلام هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما[1]، وتَمَّ الاستيلاء على الجزيرة في سنة (484هـ) في عهد رجار الأول ثم وثبت قواته على مالطة في العام التالي واحتلتها، وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على أفريقية[2].

---

(1) الحروب الصليبية في شمال أفريقية، ص: 14.

(2) المصدر نفسه، ص: 15.

3 ـ إفريقية:

وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخليه، وأخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً: خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها، فبتشجيع البابا لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة (442هـ/ 1063م) حيث خرب أرباضها وميناءها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ 113 ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة تقدر بمبلغ 20 ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب[1]، وهاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات.

ونتيجة لتلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحريَّة، لمنعها من مدِّ يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو غيرها من ناحية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في أفريقية من ناحية ثانية، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفريق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدهما بها البابا بمهاجمة مدينة المهدية سنة (480هـ/ 1087م) أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقوى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية، ومنحهم امتيازات

(1) القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، أرشيبالد لويس، ص: 372.

تجارية في بلاده كما سيذكر في موضعه، ومما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها، ولا شك أن هذا الهجوم كان وجهاً من أوجه الحركة الصليبية، وهذا يؤكد أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة (491هـ)[1] إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية، إذ يقول: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس .. ثم قصدوا سنة (أربعة وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. وتطرقوا إلى إفريقية، فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ـ ثم ملكوا غيره غيره على ما تراه ـ فلما كان سنة (تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام»[2]، وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا أن ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية، وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى مدينة تونس غرباً في سنة (543هـ/ 1148م)، فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبد المؤمن بن علي زعيم دولة الموحدين بطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها سنة (555هـ/ 1160م)[3]، وعندما حدث نوع من تبدل ميزان القوى في المغرب الإسلامي نجد ذلك ساهم في جبهة المقاومة الإسلامية في المشرق في عهد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سادساً: استنجاد امبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني:

استنجاد الإمبراطور الكسيوس كومنين (1081 ـ 1118م) بالبابا أوربان الثاني ضد السلاجقة، لم يكن هذا الاستنجاد في الحقيقة الأول من نوعه بل سبقه استنجاد الإمبراطور (ميخائيل السابع) بالبابا (جريجورى السابع) عقب موقعة ملاذكرد (463هـ) السالفة الذكر،

(1) الحروب الصليبية في شمال أفريقية، ص: 16.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحروب الصليبية في شمال أفريقيا، ص: 17.

(3) الحروب الصليبية في شمال أفريقيا، ص: 18.

فالمعروف أن شن الحرب على الترك كان من الأغراض التي تنطوي عليها الدعوة البيزنطية، فالأناضول يعتبر أكثر أهمية من بيت المقدس عند الدولة البيزنطية[1]، ولذلك لما أصبحت عاصمة البيزنطيين مهددة من قِبل السلاجقة كان لزاماً على الإمبراطور أن يستنجد بالغرب في مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، وقد أرسل البابا جريجورى السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع رداً مرضياً بدافع العاطفة المسيحية من جهة، وبدافع سياسي من جهة أخرى، فما يحشده من جيش سوف يقضي على الانشقاق بين الكنيستين ويزيد من نفوذ البابوية في الشرق مثلما زاد في الغرب. غير أن الحرب التي نشبت بين جريجورى السابع والإمبراطور (هنري الرابع) منعته من المضي في مشروعه ولما خلف الإمبراطور (الكسيوس كومنين) الإمبراطور ميخائيل السابع: بعث برسالة إلى البابا أوربان الثاني وإلى كبار رجال الإقطاع سنة (478هـ) يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقي[2]، ولقد كان (الكسيوس) يرغب في أن يبعث له الغرب ببعض الجند المرتزقة، ولكن البابا أوربان لم يشأ أن يجعل نفسه في خدمة الدولة البيزنطية، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين في الشرق، وهذا التغيير في الفكرة يؤدي إلى أن يحشد العالم المسيحي اللاتيني جيشاً ضخماً، لا أن يبعث بجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء. وتصرف البابا مقابل طلب الإمبراطور ميخائيل السابع يبرز أهمية إبداع التفكير واقتناص الفرص وتسخير الوسائل في خدمة مشروعهم وعلينا أن نستفيد في هذا الدروس الكثيرة لخدمة المشروع الإسلامي، وأثار هذا الاختلاف في التفكير من المتاعب منذ البداية ما أساء العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، والثابت تاريخياً أن المسؤول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا أوربان الثاني، فهو الذي أنذر بقيام تلك الحروب[3] يؤيده في دعواه الجهاز الكنسي في الغرب، وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيس في تحقيق هذه الفكرة[4].

سابعاً: شخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي:

ولد أوربان الثاني عام (427هـ/ 1035م) في شاتيون سير مارن واسمه: أودو، وقد درس على يدي القديس برنو الذي أسس نظام الكارسوسيين، وفي عام (461هـ/ 1068م) أصبح راهباً في دير كلوني بالقرب من ماكون، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيماناً راسخاً بتفوق البابوية

(1) الحروب الصليبية، د. علية الجنزوري، ص: 253.

(2) الحرب والروم اللاتين (1/ 150).

(3) الحروب الصليبية، د. علية الجنزوري، ص: 254.

(4) المصدر نفسه، ص: 254، العرب والروم اللاتين (1/ 56).

على الإمبراطورية، ونعني به جريجورى السابع، وتم تعيينه كاردينالاً أسقفاً لاوستياً في عام (473هـ/ 1080م)، وخدم الكنيسة في ألمانيا خلال المرحلة من (477هـ/ 1084م) إلى (478هـ/ 1085م)، وقد ساند على نحو شرعي البابا جريجوري السابع في خلال صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع، وقد ارتبط أوربان الثاني بسينودس (مجمع كنسي) في ساكسوني الذي عقد عام (478هـ/ 1085م) وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في 16ديسمبر 1087م في مونت كاسينو تم السيطرة على روما عن طريق كايمنت الثالث، وتم انتخاب أوربان الثاني بعد تأخير طويل في تراكينا إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا، وحمل اسم أوربان الثاني (481 ـ 493هـ/ 1088 ـ 1099م)[1]. ونلاحظ من خلال سيرة هذا الرجل أنه اتسم بالنشاط الوافر، وإحكام سيطرته على كافة مناطق نفوذ الكنيسة الأم، ولعل موقفه من إسبانيا يمثل لنا بعداً مهماً، فقد أيد ذلك البابا الحرب ضد المسلمين، وعندما أمكن للأسبان إخضاع بعض المناطق التي كانت من قبل تحت سيادة أعدائهم سارع البابا بجعلها ضمن نفوذ كنيسة روما، ولا شك أن أوربان الثاني في دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدى البابا الكسندر الثاني، وهكذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهي وجود استراتيجية عليا للبابوية في روما تتجه نحوها وتنفذها بحرص في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الاستراتيجية هي توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذي لا مناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأي ثمن[2]، ومن الملاحظ أن من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وانشغال من سبق أوربان الثاني بأمور متعددة، جاءت الفرصة السانحة لهذا البابا، وفي مجمع بياكنزا بإيطاليا في مارس (1095م، 488هـ) اتجه إلى الاستجابة لدعوة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنينوس (474ـ 512هـ) (1081 ـ 1118م) غير أن مجمع بياكنزا أخفق فيه البابا في الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين في الشرق[3].

1 ـ أوربان الثاني يعقد مجمعاً كنسياً في جنوب فرنسا:

إن إخفاق مجمع بياكنزا لم يثن ذلك البابا العنيد الطموح عن تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، وقد اتجه إلى بلاده الأصلية فرنسا من أجل معاونته على نجاح مشروعه المرتقب، وقد دل ذلك الاختيار على ذكائه خاصة أن جنوب فرنسا التقليدي المحافظ كان بمثابة منطقة

(1) الحرب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، د.محمد مؤنس، ص: 63.

(2) المصدر نفسه، ص: 65.

(3) المصدر نفسه، ص: 65.

تماس مع الحرب التي شنها الإسبان ضد المسلمين في إسبانيا، بالإضافة إلى أن مجرد طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحاً فورياً من خلال أنها الموطن الأصلي للبابا، وهو أدرى بشعابها، خاصة أنها ـ في نفس الحين ـ ذات تاريخ خاص مع الإسلام خلال معركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة «بلاط الشهداء» عام (114هـ/ 732م) والتي فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامي وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس، وسوف ندرك من خلال تحليل خطاب البابا في مجمع كليرمنت أن كافة تلك الزوايا لم تغب عن ذهن ذلك الرجل الحاد الذكاء، القوي الإرادة منذ أن تربى في أحضان حركة الكارسوسيان الرهبانية الصارمة. مهما يكن من أمر، فإن البابا اتجه إلى كليرمنت فران بجنوب فرنسا وعقد مجمعاً كنسياً هناك وفي اليوم العاشر عقد المجمع الذي تناول فيه العديد من القضايا التي تهم الكنيسة: ألقى البابا على مستمعيه خطاباً بالغ الأهمية والخطورة وذلك في يوم (27 نوفمبر 1095م)[1].

2 ـ الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني:

كان للخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني في المجمع الديني الذي انعقد في كليرمونت عام (488هـ/ 1095م) أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين في هذا المجتمع، فقد ألهبت حماسهم وأصابتهم بحالة عَبَّر عنها المؤرخ جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: بأنها نوبة حادة من الجنون[2]، إذ قال البابا: يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين في الشرق، وقلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين، على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم؟ أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم ـ أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ـ الضريح الذي تمتلكه الآن أمم

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 66.

(2) حضارة العرب، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 237.

نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست ـ لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وقلل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها. هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقادها. فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السمٰوات[1].

وهكذا كان لهذه الكلمات الحماسية التي ألقاها البابا أوربان الثاني أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين، فبعد أن أنهى البابا خطبته مباشرة صاح المجتمعون صيحة رجل واحد قائلين: هكذا أراد الله[2] ولم يكد البابا أوربان الثاني ينتهي من خطابه هذا، حتى نهض إليه الأسقف أدهمير دي مونتيلن وركع أمام قدمي البابا، والتمس منه الإذن بأن يلحقه بالحملة المقدسة، وأمام هذا الموقف المؤثر تحركت مشاعر المجتمعين وتدافعوا بالمئات يركعون أمام البابا مثل أدهمير في حماس منقطع النظير وحملوا الصلبان وحلفوا جميعاً على تخليص المدينة المقدسة.

ويعقب المؤرخ المعاصر للأحداث وهو ـ روبرت الراهب ـ فيقول: يا له من عدد كبير من الناس، من كل الأعمار ومن مختلف المستويات الذين تقلدوا الصلبان خلال مجمع كليرمونت، وقد حلفوا على تخليص المدينة المقدسة وقد وصل عددهم إلى 300 ألف[3] وإزاء هذا الموقف المتحمس لأدهمير عينه البابا أوربان الثاني ممثلاً شخصياً ونائباً عنه ليوضح للجميع أن الحملة تحت إشراف الكنيسة، بل تحت إشرافه هو مباشرة[4].

3 ـ ما يستنتج من خطاب البابا أوربان الثاني؟

قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة واعية للحروب الصليبية واستفاد من مراجعهم وقام بتحليل لخطاب البابا من خلال أربعة نصوص لأربعة من المؤرخين المعاصرين، هم:

(1) قصة الحضارة (15/ 15، 16)، وثائق الحروب الصليبية، ص: 99، 100.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 237.

(3) المصدر نفسه، ص: 237.

(4) الحروب الصليبية، ص: 51، حسن حبشي، دور الفقهاء، ص: 238.

فوشيه الشارتري، وروبير الراهب، وجويرت النوجتي، ويودريك الدولي، وهناك تصور بأن فوشيه الشارتري كان من بين الذين حضروا مجمع كليرمنت، وبصفة عامة، من الممكن عقد مقارنة بين النصوص الواردة في مؤلفات المؤرخين الأربعة من أجل التوصل إلى حقيقة ما أعلنه البابا في خطبته الشهيرة، وعند مقارنة تلك النصوص يمكن استنتاج الآتي:

أ ـ وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجة: من أجل التركيز على البعد الإثني أو العرقي، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم، وبعقيدتهم الكاثوليكية، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخي من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة، على نحو عكس أهمية حافز «الذاكرة التاريخية» في تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى[1].

ب ـ أشار البابا إلى أن هناك أخباراً مؤسفة ومزعجة قدمت من الشرق مفادها أن جنساً ملعوناً وهم عرق ملعون، عرق غريب تماماً عن الله وهم حقاً جيل لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله[2]، (ويقصد بذلك الأتراك السلاجقة) ذبحوا المسيحيين الشرقيين، وحولوا الكنائس إلى أسطبلات لخيولهم، وأن دماء أولئك المسيحيين تنادي مسيحيي الغرب من أجل إنقاذهم من براثن أعدائهم الكفار.

ج ـ عمل البابا على إثارة مطامع سامعيه في ثروات الشرق فأوضح أن الأرض في الغرب الأوروبي ولاسيما في فرنسا ضاقت بسكانها، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً، وفي ذلك الدليل الجلي الذي لا يقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية كان موجوداً، وقد تم الإعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها.

د ـ وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه، وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسي، أما إذا استشهد المرء في سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء المسيحية الأبرار، وجميعها مغريات مهمة في عصر سادته ظاهرة الهوس الديني العاطفي في العالم المسيحي الأوروبي.

هـ ـ اتجه البابا إلى الإشارة إلى بيت المقدس، وهي الجنة الأرضية قلب العالم، التي شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته، وذكر لمستمعيه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار، وأود أن أقرر هنا أن تلك المدينة مثلت محوراً على قدر عظيم

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 67.

(2) الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ، ص: 35.

من الأهمية: من أجل إثارة الشعور الديني لدى مستمعي البابا، وفي أغلب النصوص التي وردت إلينا بشأن الخطاب المذكور نجد أن بيت المقدس تحتل مكاناً بارزاً ومحورياً، وهو أمر منطقي تماماً من خلال مكانتها وقداستها الدينية، كذلك أنها مثلت الحلم الجماعي الخاص بالحج المسيحي في ذلك العصر.

و ـ حرص البابا على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة في الكتاب المقدس من أجل إثارة الشعور الديني لمستمعيه، أو ربما من أجل أن يعطي لخطابه قداسة، خاصة مثل عبارات ذلك الكتاب في العقل الجمعي الأوروبي في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك العبارة الواردة في إنجيل متى وهي: من أحب أباً وأمًا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني[1]. كذلك العبارة القائلة: من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني[2]. والتي وردت في نفس الإنجيل المذكور.

ز ـ ترتيب الأولويات عند البابا أوربان الثاني: كان البابا أوربان الثاني بارعاً في عرض أفكاره وكذلك في إخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريقاً واحداً على الغرب الأوروبي السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه (وحدة الهدف) من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له في صورة البابوية، وعلى هذا الأساس، لم يرد في الخطاب المذكور أيّة عبارات عن رغبته العارمة في توحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم في روما، كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التنصيري وهو هدف محوري للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء، يكمن في أن البابوية أدركت أن هناك أولويات في طرح المشروع ينبغي عدم تخطيها، وأن وحدة العالم المسيحي تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لا يغيب الأمر منذ اللحظات الأول لميلاد المشروع، ويلاحظ هنا أن لغة البابوية في الخطاب ذات طابع متكتم في عرض الأهداف الأخرى لها، أما فيما بعد نجاح المشروع والاستيلاء على الرمز الديني المسيحي في صورة بيت المقدس، وجدنا ـ والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى ـ الإفصاح عن الأهداف الأخرى بوضوح وصراحة كاملتين، وفي هذا دليل واضح على أن تلك المؤسسة الدينية ذات التأثير الفعال رأت تحقيق أهدافها جزئياً وليس دفعة واحدة، وهو أخطر ما في المشروع برمته، وفي تقديري[3]، أن البابا أوربان الثاني لم يغب عن تفكيره ذلك الجانب بحكم أنه المهندس الأول للمشروع

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 68.

(2) الكتاب المقدس العهد الجديد، متى، الإصحاح (10، 27، 28).

(3) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 69.

والراعي الأصلي لفكرته، وفي واقع الأمر: أن الخطاب الذي ألقاه البابا في مجمع كليرمنت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع من قبل في تاريخ أوروبا القرون الوسطى أن خطاباً كان معبراً عن عصره بمثل هذه الصورة، كما لم نسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوروبية الغفيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق بمثل تلك الدرجة التي تُحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة، ولذلك لا ننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادي، بل أنه إعلان ما يشبه «الحرب العالمية» في العصور الوسطى من جانب الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي، وذلك دونما مبالغة أو قولية أو اعتساف في الأحكام، بل من خلال شواهد التاريخ التي وقعت في أعقابه. ويلاحظ أنه في أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهي: الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، واتخذوا الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين[1].

ح ـ **قدرة البابا أوربان الثاني على تقديم مشروع عام**: استطاع أوربان الثاني أن يوحِّد شعوب الغرب في مشروع عام، على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً. ولكن الفكرة الصليبية التي جمعت جماهير الغرب الأوروبي لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع، هذا التوافق بين الفكر والواقع، بين التبرير الأخلاقي للحرب، وحركة المجتمع هو الذي خلق الإيديولوجية التي تحركت الجماهير الأوروبية في إطارها، فعلى المستوى الشعبي كان تفكير الناس في أوروبا الغربية في القرن الحادي عشر يتوازى مع السياسة البابوية وفكرة الحرب المقدسة إلى حد ما، إذ أن أوروبا كانت قد بدأت حركة إحياء دينية مع مشرق شمس القرن الحادى عشر. ومع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من اكتمالها سرت موجة بالإحساس بالذنب والرغبة في التوبة في غرب أوروبا، فقد تعمق لدى الإنسان الغربي الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب، والحقيقة أن من يقرأ مصادر تاريخ القرن الحادي عشر في غرب أوروبا لا يمكن أن يغفل إصرار الناس في ذلك الزمان على أن يضمنوا لأنفسهم غفران خطاياهم، وكان هذا نتاجاً للمشاعر الألفية والأخروية التي ملكت على الناس وجدانهم وعقولهم مع توقعاتهم لمجيء الدينونة، وانتشر الوعاظ الجوالون في كل أنحاء الغرب الأوروبي يحثون الناس على الزهد والتوبة والتشبه بحياة الفقر التي عاشها الحواريون، وفي غمرة هذا التدين العاطفي الذي حكم تصرفات المجتمعات الغربية سادت مشاعر الكراهية والتعصب ضد أتباع الديانات الأخرى، بل وضد من يعتنقون مذهباً غير المذهب الكاثوليكي. وثمة دليل قوي على هذا في

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 69.

طيات الملحمة الصليبية المعروفة باسم: «أنشودة أنطاكية» التي تعكس، بشكل أمين، روح الانتقام التي سرت في المجتمع الكاثوليكي ضد «الوثنيين المخذولين» ـ على حد زعمهم ـ كما أن القصيدة لا تعتبر أن الأمة المعادية للمسيح هم المسلمون فقط، وإنما يصدق هذا الوصف أيضاً على كافة من لا يعترفون بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وهي بهذا تجسد التفكير الشعبي في أوروبا القرن الحادي عشر، هذا التفكير الشعبي كان هو الآخر واحداً من ملامح الإيديولوجية العامة التي أفرزت الحركة الصليبية، لقد تمثل نجاح أوربان الثاني في أن خطبته التي دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التي مثلت الإطار الإيديولوجي لحركة المجتمع الغربي آنذاك، على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد، وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا في كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذي مس أوتار الآمال التي كانت تداعب كلماتهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي، وبوسعنا أن نورد عشرات التعبيرات الواردة في المصادر التاريخية والحوليات المعاصرة تصف الصليبيين بأنهم «فرسان المسيح» و «رجال المسيح» «أولئك الذين يكونون جيش المسيح» و«الشعب المقدس» و «شعب الرب» وهي كلها تعبيرات تشير بأن فكرة الحرب الصليبية كانت قد رسخت في الأذهان بحيث كان الناس على اقتناع كامل بأنهم حين يشاركون في هذه الحملة لا يفعلون ذلك استجابة لأوامر أي مخلوق، ولا حتى البابا نفسه، وإنما هم يطيعون الرب[1].

4 ـ الاجتماع الاستشاري للبابا بعد خطابه:

كان البابا أوربان الثاني يجتمع مع رجال الدين النصراني ويستشيرهم في حشد الطاقات الرسمية والشعبية لغزو المسلمين، فقد اجتمع مع أساقفته وبعد هذا الاجتماع الاستشاري خرجوا بالقرارات الآتية :

ـ كل من ارتكب جرماً يعاقب عليه، يصبح في حل من العقوبة إذا اشترك في هذه الحرب المقدسة.

ـ كل مال من عقار أو متاع يتركه المحارب الذاهب إلى الأرض المقدسة يكون تحت حماية الكنيسة أثناء غيابه .. وترده كاملاً حين يعود المحارب إلى وطنه.

---

(1) الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، د.قاسم عبد الله، ص: 24 ، 25.

ـ ينبغي لكل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب.

ـ على كل من اتخذ الصليب أن يفي بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس فإذا رجع عن عزمه طرد من الكنيسة.

ـ كل بلد يخلص من أيدي الكفار «المسلمين» يجب أن يرد للكنيسة.

ـ ينبغي أن يكون كل فرد جاهزاً لمغادرة وطنه في عيد العذراء.

ـ ينبغي أن تلتقي الجيوش في القسطنطينية. ولقد قام البابا هذا فأرسل أساقفته بهذه القرارات لتبليغها لملوك العالم المسيحي وأمرائه في الغرب[1].

5 ـ حملة الدعاية الصليبية:

افتتح خطاب البابا أوربان الثاني مرحلة على جانب كبير من الأهمية في صورة الدعاية الصليبية، وهي دعاية قامت على أساس الانتقال الشخصي للعديد من المواقع، ومخاطبة قطاعات مختلفة من البشر، وقد كان لها دورها الفعال من أجل إنجاح ذلك المشروع، ومن الممكن ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى ـ على نحو خاص ـ تم الإعداد الدعائي لها بمنتهى البراعة والإتقان منذ الخطاب المذكور، وفي هذا الصدد تم حشد جيش من الدعاة هدفهم توسيع صوت دائرة الفكر من أجل مخاطبة كافة قطاعات المجتمع الأوروبي كلٌ على قدر تصوره، وقد قام البابا أوربان الثاني بعد عقد مجمع كليرمنت بالانتقال إلى مدن تور، وبوردو، ونيميز ومكث تسعة أشهر داعياً لمشروعه الجديد[2]، كذلك فإنه قام بإرسال العديد من الخطابات، من أجل الدعوة لمشروعه الصليبي، ومن ذلك الرسائل التي أرسلها إلى كافة المؤمنين ـ بالمسيحية ـ في الفلاندروز، وكذلك إلى بولونا وڤالو مبروز وكذلك إلى كونتات سردانيا وروسيللون، وبيسالون وامبورياس، ويلاحظ أن الخطابات المذكورة لا يمكن فصلها عن دور البابا في مجمع كليرمنت فهي تكملة ومواصلة حقيقية لدوره الدعائي للحروب الصليبية[3].

6 ـ العقلية التنظيمية لأوربان الثاني:

ويلاحظ أن الخطابات التي أرسلها البابا من أجل مشروعه الصليبي، تقدم لنا عدداً من

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 18.

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 69.

(3) المصدر نفسه، ص: 70.

التفصيلات التي لم ترد في خطاب كليرمونت، ومن بينها تقريره بدور المندوب البابوي أدهيمار أسقف بوى، ويذكر ضرورة طاعة أوامره كأنهما صادرة من البابا شخصياً، كذلك قرر أنه لا يسمح للرهبان أو القساوسة بالاتجاه إلى الشرق إلا بعد الحصول على إذن من أساقفتهم، وكذلك مقدمي الأديرة تجنباً للتمرد والفوضى، وينبغي أن ندرك: أن تلك المصادر الوثائقية التي بين أيدينا تكشف لنا عن العقلية التنظيمية الدقيقة لأوربان الثاني، ولذلك نراه امتلك رؤية شاملة للمشروع الصليبي ـ في تلك المرحلة المبكرة على الأقل ـ وقد حرص الحرص أجمعه على نصيحة من سيشاركون في الرحلة إلى الشرق بضرورة الطاعة العمياء لأوامره، وكذلك أوامر رؤسائهم المباشرين، كما نستشعر أن البابا ألح على فكرة وحدة العالم المسيحي، وكأن ما حدث في الشرق للمسيحيين ـ في زعم الدعاية الأوروبية المغرضة ـ هو أمر يدخل في صلب اهتمامات قاطني الغرب الأوروبي، وأن مساعدة الفرنجة وغيرهم للمسيحيين الشرقيين هو جزء رئيس من واجباتهم كمسيحيين[1]، على أية حالة، فإن الثمرة الطبيعية للدور التنظيمي والتخطيطي والدعائي الذي قام به البابا وكبار رجال الكنيسة الذين معه قيام الحرب الصليبية، ومما ساعدهم على ذلك اختيار التوقيت المناسب للحرب.

7 ـ بطرس الناسك:

تأثر بطرس الناسك بخطاب البابا أوربان الثاني وكان له تأثير شديد على الناس، وكان يركب حماراً ـ ينتقل به من بلد إلى آخر، وكان يسير حافي القدمين ويرتدي ملابس رثة، ويتحدث المؤرخ روبرت الراهب عنه فيقول: إن بطرس هذا هو رائد الحرب الصليبية، وأنه كان يفوق في ورعه القسيسين والأساقفة، وكان ممتنعاً عن تناول الخبز واللحم بل جعل غذاءه السمك، وكان لا يسمح لنفسه إلا بقليل من النبيذ وبعض الطعام الغليظ[2]. وعلى الرغم من مظهر بطرس الناسك وحالته الرثة إلا أنه كانت له قوة غريبة تثير حماس الرجال والنساء وتجذب الجماهير إليه، فاستطاع أن يجذب وراءه حوالي خمسة عشر ألف شخص من الفقراء الذين كانوا يتبعونه من بلد إلى بلد آخر بحماس شديد على الرغم من أن غالبيتهم كانوا لا يدرون شيئاً عن استعمال السلاح أو الفروسية، بل لم يشتركوا في أي حرب من قبل إلا أن تأثرهم بكلمات بطرس الناسك الحماسية ومظهره جعلهم يندفعون في حماس جارف وراءه دون التفكير في أي احتمالات أخرى، فلقد كانت خطبه نارية ممزوجة بالبكاء والعويل وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة،

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 70.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، ص: 239.

وتؤثر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع[1]. ومما نحب الإشارة إليه أن الوعاظ الذين قاموا بدور مماثل لبطرس الناسك في التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها إنما كانوا يعدون بالمئات والآلاف[2]، وقد تأثر الناس بهؤلاء الوعاظ، ويصف المؤرخ بودري بوصفه معاصراً لأحداث هذه الفترة الزمنية أن بعض العامة من المسيحيين كانوا يرسمون على صدورهم علامة الصليب بواسطة الحديد المحمي على النار ليتباهوا بإظهار حماسهم وليوهموا الآخرين بأن هذه العلامات إنما جاءتهم عن طريق معجزة[3]، وهكذا انطلق الجميع يتجهزون للذهاب للأراضي المقدسة بالشام بعد تلك الكلمات التي سمعوها، وكان معظمهم يبيعون ما يملكون ليجهزوا أنفسهم للرحيل طمعاً في محو ذنوبهم ورضاء الله عنهم، وكان الآباء سعداء برؤية أولادهم وهم يرحلون، كما كانت الزوجات في غاية الفرح لدى رؤيتهن لأزواجهن وهم يتأهبون للرحيل، فحماس الجميع كان منقطع النظير، واقتناعهم بهذا العمل كان شديداً[4]، وعلى قدر الفرحة الكبيرة التي شعر بها أولئك الذين غادروا بلادهم للالتحاق بالحملة الصليبية الأولى كان الأسى والحزن يخيم على أولئك الذين لم يخرجوا في تلك الحملة[5].

8 ـ غفلة المسلمين عما يدبر لهم:

كانت الدولة الإسلامية في العهد الأموي مثلاً لها جهاز استخبارات اخترقت به خصومها المحليين والدوليين، وكانت عيون معاوية اخترقت البلاط البيزنطي، وقد بينت ذلك في كتابي عن الدولة الأموية، وأما بالنسبة لعهد الدولة العباسية، فإننا لم نعثر في المصادر الإسلامية على أية خطبة حماسية لأي من الخليفتين العباسي أو الفاطمي كرد فعل على خطبة البابا أوربان الثاني، أو على الأقل نشعر من أن المسلمين علموا بما جرى في مؤتمر كليرمونت وما بعده. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى انشغال كل من الدولتين العباسية والفاطمية بالتنازع فيما بينهما، ومحاولة كل منهما التغلب على الأخرى لتكون لها السيادة، فظلوا في سبات عميق حتى وصلت الحملة الصليبية الأولى بالفعل إلى بلاد الشام[6]، ولعل ما يؤكد

(1) حضارة العرب، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء، ص: 239.
(2) دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 21.
(3) دور الفقهاء والعلماء، ص: 240.
(4) المصدر نفسه، ص: 240.
(5) المصدر نفسه، ص: 240.
(6) المصدر نفسه، ص: 241.

هذا ما جاء في كتابات ابن القلانسي من أن أخبار الصليبيين لم تصل للمسلمين في بلاد الشام إلا في سنة (490هـ/ 1097م)، فيقول في ذلك: وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق[1]، ومع ذلك فإن رد الفعل الإسلامي الوحيد الذي ظهر قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان من جهة السلاجقة في آسيا الصغرى عندما استطاعوا القضاء بكل سهولة على القسم الأول من القوات الصليبية المعروفة باسم: «حملة العامة» فضلاً عما قاموا به من عمليات دفاعية عن ممتلكاتهم في آسيا الصغرى[2]، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

كان الصليبيون يتحركون من خلال قيادة مؤهلة، ووضوح هدف، وحيوية ونشاط وطول نفس، موظفين القدرات الخطابية في التأثير على الناس، ومستخدمين عوامل متعددة، كالاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني لتحريك شعوب غرب أوروبا، كما كان للمكانة الروحية للبابا تأثير على تحرك الجيوش نحو المشرق، فقد تحرك البابا من خلال مشروع وظف فيه كافة الإمكانات والطاقات المتاحة.

المبحث الثالث
بدء الحرب الصليبية الأولى

بعد خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب إلى رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم، كيما يبشروا بالحروب، واجتهد رجال الكنيسة في ذلك، وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير الذي قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى والتي انقسمت إلى قسمين: **الأولى**: حملة العامة، **والثانية**: حملة الأمراء، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتماماً كبيراً لا نظير له من جانب المؤرخين المعاصرين لها سواء اللاتين أو البيزنطيين أو المسلمين، وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا في دراسة الحروب الصليبية، ولعل مرجع ذلك يكمن في النتائج الخطيرة التي نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس إمارات صليبية في الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان[3]. وقد نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية: **الأولى**: في أعالي الفرات

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 241.

(2) المصدر نفسه، ص: 241.

(3) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 71.

وهي الرها، والثانية: في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة: على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة: فكانت في قلب فلسطين، وهي بيت المقدس[1]، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى: هي صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت[2]، وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذي حققته يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها:

- انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي.
- الصراع على السلطة داخل البيت السلجوقي.
- وجود الدولة الفاطمية الرافضية.
- سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.
- دور النصارى الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام.
- موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي.
- دور الباطنية الإسماعيلية الرافضية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين.
- انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني.
- تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي.
- ضعف الدولة البيزنطية.
- تمرس فرسان الإفرنج على الحرب.
- الإمدادات الأوروبية المتواصلة للحملة الصليبية.
- الاستبداد السياسي وأثره على الدين والحياة.
- انشغال بعض فقهاء الأمة في معارك في فقه الفروع، وقد تحدثت عن كل سبب من

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 37.
(2) المصدر نفسه، ص: 27.

هذه الأسباب بالتفصيل في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»[1].

أولاً: استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال:

يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الفرنجية المحتلة والتي قُدر وخطط لها أن تعيش في بيئة غريبة كان لا بد لها من اتباع مجموعة من الاستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف في مجملها إلى الإبقاء على صيغة احتلالها لأمد طويل، ومن هذه الاستراتيجيات:

ـ المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامي مشتتاً بقدر الإمكان، لأن ذلك يلغي إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفي سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية استراتيجية تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقي والتوحد، وكان سبيلها في ذلك احتلال الرُها لتمنع أو تعيق الاتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لاحقاً بالسيطرة على مناطق جنوبي بلاد الشام مثل الكرك والشوبك بهدف إعاقة أو تعطيل الاتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية، أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدامة الصراع العرقي والمذهبي بين أطراف المحيط الإسلامي، وقد اتبعت في ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها في ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفي الصراع الإسلامي الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها الإسلامي.

ـ ركزت القوى الصليبية في احتلالها على مناطق تؤمن لها الاتصال بمركز انطلاقها في الغرب الأوروبي، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدي إلى زوالها.

ـ عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة في مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامي، أو رغبة في تحقيق امتيازات

(1) دولة السلاجقة، ص: 500 ـ 525.

اقتصادية، وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية[1] التي كانت فيما بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.

ـ حرصت القوى الصليبية منذ بداية تأسيس كياناتها في الشرق الإسلامي على معالجة المشكلة السكانية التي عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة للتطوير بحسب مقتضيات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك في فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما عملت في نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبي أم من مناطق أرمينيا أم من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبي ليكون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكاني، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية في المجتمع الصليبي كانت في مراحل من التواجد الصليبي أكثر الفئات تطرفاً في المجال العسكري مثل جماعات الداوية، والإسبتارية[2].

ـ ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التي وجدتها في المنطقة الإسلامية، وروعي في هذه التحصينات أن تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية، ولذا روعي في اختيار مواقعها في أن تكون في مقابلة التجمعات الإسلامية الهامة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التي أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.

ـ اعتمدت القوى الصليبية وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامي أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التي لا تحتاج إلى قوات كبيرة وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية محسوبة، كاعتماد أسلوب الإغارة على المناطق الزراعية في مواسم نضج المحاصيل مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة وفق هذا الأسلوب على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامي.

ـ لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف

---

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 27.

(2) المصدر نفسه، ص: 28.

الإسلامية في سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى، وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة في فترة التفكك الإسلامي، بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبي على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.

ـ عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية في الغرب الأوروبي لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية في الشرق، فقد حرصت على التواصل الدائم مع أوروبا مما كفل لها الإمدادات البشرية والمادية، وقد شعر ملوك أوروبا بالمسؤولية الكبيرة تجاه الإمارات الصليبية في المشرق، والتزموا بدعمها والدفاع عنها.

ـ ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبني استراتيجية مفادها: أن ضمان وجودها في بلاد الشام يقتضي السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأي شكل من الأشكال، وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزء منها موجهاً بدرجة رئيسية إلى مصر، والمتتبع لتاريخ الحركة الصليبية تجد أنهم حققوا بعض النجاحات في هذا الصدد مستغلين حالات عداء كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.

ـ لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين في مقدساتهم، كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى بالتعدي على الأماكن المقدسة في الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج، وقامت بهذا الدور في مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التي كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ـ لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا استراتيجية جاءت نتيجة لفشل الإستراتيجيات العسكرية التي تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكري، وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الاستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان إحدى البدائل التي سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.

ـ صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية في بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامي السلجوقي، كما صورت زحفها على أراضي المنطقة الإسلامية بأنه

يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية، وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف الأرمينية والسريانية .. في بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الاستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن[1]. إلى جانب التحالف مع الحركات الباطنية.

إن هذه الاستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام استراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها، مما يعني أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبنى سياسة تخالف هذه المبادئ العامة، ومن استعراض هذه الاستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس نجاحها في مقاومة هذا الخطر الصليبي بمدى تبنيها استراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الاستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبني استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبي من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع، وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدي الصليبي بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكي وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبي واستكمالاً لما تم في عهد الدولة المملوكية، على أن لا يُفهم من ذلك أن هذا التطور في رد الفعل الإسلامي في العهد الزنكي والأيوبي والمملوكي كان دائماً في الإطار الإيجابي، بل ما حصل أحياناً هو أن الطرف الإسلامي أو بعض قواه أو أفراده ساعد في نجاح الاستراتيجيات الصليبية[2].

ثانياً: حركة المقاومة في العهد السلجوقي:

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة والأمراء، وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد، فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية، ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو[3]، ولم يكن الاستجابة من قِبل الفقهاء والقضاة في بلاد الشام ضد الغزو الصليبي مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة،

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 31.

(2) المصدر نفسه، ص: 31.

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 68.

حيث نالت اهتماماً كبيراً من جملة الفقهاء، والعلماء، قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية، أصبحت من الأمور الأساسية آنذاك في وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياساً، ومذهبياً وعسكرياً انعكس على تدوين التاريخ في الشرق الإسلامي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة، وأحداث القتال والصراع ضد الصليبيين، ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، الذي جاء مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم خلال مجموعتين: **الأولى**: ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية به؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس، **والثانية**: التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين عليه وتركهم لأمور دينهم، لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام، والذي يهمنا هنا مؤلفات الفقهاء التي حرضت على الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين وتفقيههم بأمور دينهم للوقوف بوجه ذلك الغزو[1] ومن أبرز أولئك الفقهاء:

ـ الفقيه علي بن طاهر السلمي (431 ـ 500هـ/ 1039 ـ 1106م):

هو علي بن طاهر بن جعفر القيسي السلمي الدمشقي الشافعي، كان من علماء بلاد الشام، وعلى إثر مجيء ذلك الغزو تحول إلى واعظ ومحرض على الجهاد، بإلقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيث جسد ذلك في كتابه «الجهاد»، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس عام (492هـ/ 1098م). وذلك من خلال إحدى خطبه التي يحث فيها المسلمين على الجهاد ضد ذلك الغزو[2]. وركز السلمي في أبوابه الأولى من كتابه «الجهاد» على العديد من القضايا والأفكار الهامة التي كانت عليها. بلاد الشام، والعالم الإسلامي آنذاك. مبتدئاً بعرض سياسة صليبية عامة استهدفت الأندلس وصقلية وبلاد الشام. إذ أنه أول من نبه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام، تلك الفكرة التي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها. فقد ذكر ابن الأثير: وكان ابتداء دولة الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة، وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قعدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. فلما

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 93.

(2) المصدر نفسه، ص: 93.

كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام[1]. وأدرك السلمي أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيس وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم، وركز على التجزئة السياسية لبلاد الشام بصورة خاصة، لأنه عاش وأحس بالمعاناة هناك، وتثاقل السكان عن جهادهم[2]، وذكّر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، ففي كل عام يجب على الأمير المسلم القيام بحملة خارج ديار الإسلام لا لطمع، أو لغنيمة يبتغيها، وإنما للمحافظة على دار الإسلام من عدوان غير المسلمين، وإشعارهم بالرهبة وقوة المسلمين بالاستمرار تجسيداً للرأي القائل في العصر الحاضر بضرورة نقل المعارك إلى أرض العدو دوماً[3]، وذكر السلمي الأمراء المسلمين بأن ذلك الغزو لم يكن هدفه الأرض والعقيدة فقط وإنما هدفه هو إزالتهم من سلطاتهم، وإخراجهم من البلاد التي تحت أيديهم، وذلك بهدف إثارة حميتهم، وحثهم على الجهاد[4]، وطلب من عامة الناس مساندة أمرائهم وقادتهم المجاهدين الذين يتبعون السلف الصالح لمواجهة تلك المحنة، وطرد الصليبيين[5]، والقارئ لكتاب السلمي في الجهاد يدرك مباشرة عمق المعاناة التي كان يعانيها السلمي وهو الفقيه الذي يرى بيت المقدس تنتهك حرمته، وتداس قدسيته، ولذلك أول ما حث عليه هو تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك الغزاة[6]. «فاجتهدوا رحمكم الله في هذا الجهاد لعلكم تكونوا الظافرين بمزية هذا الفتح العظيم»[7]، ويعتبر السلمي أول من أدرك ضرورة الوحدة الجهادية بين بلاد الشام والعراق، ومدن آسيا الصغرى، قبل عصر الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة آل زنكي والأيوبيين[8] ويعتبر في هذا المجال من الرّواد، ودعا السلمي المسلمين إلى تطهير النفوس وإصلاحها، فهي الأساس في وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو، «وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 397).

(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 94.

(3) المصدر نفسه، ص: 95.

(4) المصدر نفسه، ص: 95.

(5) المصدر نفسه، ص: 96.

(6) المصدر نفسه، ص: 96.

(7) المصدر نفسه، ص: 97.

(8) المصدر نفسه، ص: 97.

فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عما هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفرون بما تؤملونه من النصرة عليهم»[1]. إن الغزو الصليبي لبلاد الشام من وجهة نظر السلمي لم يأت من فراغ وإنما أدرك ضعف المسلمين لعدم تمسكهم بدين الله الحنيف، ولذلك اجتهد في نصحهم بالعودة إلى الله وتطهير النفوس؛ بالرجوع إلى كتاب الله، والإقلال عما تقدم منهم، والنهوض إلى قرع باب الجهاد: «وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم، والذب عن أنفسكم، وعن غيركم من إخوانكم ليمحص لكم ثواب غزوكم»[2]، ولا يكون ذلك أمام تقدم الغزو الصليبي، وأخذه لمدن عديدة إلا المبادرة إليهم، والمرابطة على المدن التي لم تحصل في أيديهم[3]، فإن النفير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن النفوس، والأولاد والأهل والأموال والحراسة لما بقي في أيدينا من البلاد»[4]، وكانت دعوة السلمي للمسلمين عامة لوحدة القوى الإسلامية: شاميها وجزريها ومصريها. ونصحهم باتباع منهاجه في تطهير النفوس، والتعافي فيما بينهم والإقدام على الجهاد وحتى يحققوا مبتغاهم في النيل من ذلك الغزو[5]، حيث رأى: إن لم يتناس الحكام المسلمون أحقادهم وخلافاتهم فإنهم ما زالوا على جاهلية غير مقتدين بالمثل النابع من التراث «عند الشدائد تذهب الأحقاد»[6]، واستمر السلمي في مواضع عديدة من كتاب الجهاد يحث ويحرض ويعظ وينبه، ويعلم الحكام عامة على ضرورة الجهاد بخطبه ودروسه التي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق، وفي مدن بلاد الشام وفلسطين في اثنين وثلاثين باباً[7]، ولم يترك شاردة ولا واردة في الجهاد إلا وتطرق إليها[8]، ونلاحظ أن السلمي في كتابه «الجهاد» تطرق إلى توضيح التجزئة والتشرذم في المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإسلامية، وتفككها مع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطة استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحه قضية تطهير النفوس والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيما بينهم، والإقدام على الجهاد

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 98.
(2) المصدر نفسه، ص: 98.
(3) المصدر نفسه، ص: 98.
(4) المصدر نفسه، ص: 98.
(5) المصدر نفسه، ص: 98.
(6) المصدر نفسه، ص: 98.
(7) المصدر نفسه، ص: 98.
(8) المصدر نفسه، ص: 98.

لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية، لذا جاء كتابه الجهاد عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بلاد الشام مثلاً، وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السير والمغازي، والتفاسير وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بلاد الشام، وهذا دليل على مدى اطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات وتسخيرها في مكانها المناسب[1]، ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من محافل الفقهاء والعلماء المسلمين من أساتذة وعلماء وفقهاء وكتّاب، ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد ومن ضمن تيار الرفض العام الإسلامي المدعوم من قِبل الفقهاء والقضاة[2]، لقد كتب السلمي كتابه في فترة مبكرة من تلك الحروب وهذا دليل على ذكائه وفطنته في إدراكه لمشاكل بلاد الشام المعقدة، ولكن إن لم تتوفر الظروف العامة لإنجاح دعوته للجهاد في تلك الفترة المبكرة ذاتها، فهو قد ساهم في كتابه للتمهيد لمرحلة الزنكيين والأيوبيين. ولقد قام الأستاذ رمضان حسين الشاوش بدراسة وتحقيق كتاب «الجهاد» للسلمي وقدمه كرسالة ماجستير بجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام (1992م)[3].

ـ المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد:

إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف: بابن صليحة قاضي حصن جبلة، الذي تولى إمارة ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام (494هـ/ 1100م) وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته[4]، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (494هـ/ 1100م) واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء لنشر الذعر بين صفوف قوات الفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركياروق قد توجه إلى الشام[5] لمساعدته، مما أثار الفرنج، ونشر القلق بين عسكر الفرنجة، وسبّب رحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضي تلك الحيلة بصورة

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 99.

(2) المصدر نفسه، ص: 93.

(3) المصدر نفسه، ص: 93.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: موقف فقهاء الشام.

(5) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 120.

أخرى، ونشر بين صفوف الصليبيين: أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن[1]، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضي وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن في المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الإفرنجة لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان عام (494هـ)، إلا أن ذلك القاضي أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن: قرر مع النصارى الذين في الحصن، واتفق معهم على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن: يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرنجة على ذلك، ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم[2]: فلم يزالوا يرقون في الحبال واحد، بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة وهو على السور رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرؤوس إليهم[3]، ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذي نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاح، ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوباً في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً[4]، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهر بالهزيمة أمامهم. بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لم يفطنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حوله، فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين[5].

إن القاضي ابن صليحة لا بد له وأن اطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليست جديدة على التراث العسكري الإسلامي في الفترة الصليبية، إذ استخدم الرسول الكريم ﷺ ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن موقف فقهاء الشام، ص: 120.

(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 120.

(3) المصدر نفسه، ص: 121.

(4) المصدر نفسه، ص: 121.

(5) الكامل في التاريخ (8/ 425).

الخامس للهجرة عندما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول القائد خالد بن الوليد المعركة من الهزيمة إلى النصر على الروم وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم بوصول الإمدادات إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبق تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام (13هـ) عندما عمل على تقسيم قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام، وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أرهب جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم[1].

ـ تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك:

تبرز شخصية القاضي أبو الفضل بن الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما اشتد الحصار الصليبي على حلب عام (513هـ/1119م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حجر وبيده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها هممهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة[2]، ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام لم يتردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب عام (518هـ/1124م) وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب، ونزل الفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على قتال ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير آقسنقر البرسقي أمير الموصل وسيأتي بيان ذلك بإذن الله عند الحديث عن دور أمراء السلاجقة في الموصل ودمشق وغيرها في صد هجمات الصليبيين.

ثالثاً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة:

قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض، ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم[3]

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 122.

(2) المصدر نفسه، ص: 129.

(3) المراجم : جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شَبَّت نارها بالصوارم[1]

إنه، في هذا المطلع، يصرّح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم، ولكنه لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته، لن يغني في شيء في معركة لا يسعّر نيرانها إلا السيوف القواطع ومنها :

فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذُرا بالمناسم

أتهويمةً في ظلّ أمن وغبطةٍ ... وعيشٍ كنوّار الخميلة ناعم[2]

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كلّ نائم

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلُهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم[3]

تسومهم الروم الهوان، وأنتم ... تجرون ذيل الخفض، فعل المسالم[4]

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع إخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذه المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين: إيهاً بني الإسلام أنِ اصْحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون عيشاً ناعماً آمناً وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثياب النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء، ومنها :

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... تواري حياءً حسنها بالمعاصم[5]

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمرُ العوالي داميات اللَّهاذِم[6]

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم

---

(1) شُبَّت : سُعِّرت، اشتدت.

(2) الهوم: النوم الخفيف. نوّار : زهر . الخميلة : الشجر الملتف.

(3) المذاكي : مذكية وهي الفرس، قشاعم : جمع قشعم وهو النسر المسن.

(4) الخفض : الغنى.

(5) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريسي، ص: 26.

(6) المصدر نفسه، ص: 26.

سَلَلْن بأيدي المشركين قواضباً ستُغمد منهم في الطُلا والجماجم[1]

يكاد لهن المستجنُ بطيبة ينادي، بأعلى الصوت، يا آل هاشم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثير من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحرّ فيها القتل حتى بدت أسنّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى أن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب، ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهوّن من شأن الأعداء وأسلحتهم فيما استلّوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الآبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول ﷺ، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب[2].

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم، والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغفي على ذلٍّ كماة الأعاجم[3]؟

فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين، ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر، إذ حمي الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم ؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله، ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج للجهاد ونيل الشهادة. وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال

---

(1) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريسي، ص: 26.

(2) المصدر نفسه، ص: 26.

(3) المصدر نفسه، ص: 26، الصنديد: المقاتل الشديد، والكماة جمع كمي، وهو لابس السلاح.

الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والحين والقعود عن الجهاد، ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقن الفرنجة درساً قاسياً، كما تعوّدوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام :

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبُرَى ... فلا عطست إلا بأجدع راغم[1]

دعوناكم والحرب تدعو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم[2]

تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عَضّ الأباهم[3]

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم[4]

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس :

أحلَّ الكفر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب

فحقٌّ ضائع وحمىً مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب[5]

وكم من مسلم أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نُصبَ الصليب

دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ ... وتحريف المصاحف فيه طيب[6]

أمور لو تأملهن طفل ... لطفَّل في عوارضه المشيب[7]

أتسبى المسلماتُ بكل ثغر؟ ... وعيش المسلمين إذن يطيب

أما لله والإسلام حق ؟ ... يدافع عنه شبان وشيب

فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا[8]

---

(1) الخيشوم : أقصى الأنف، البُرى : جمع بُرة وهي حلقة من صفر أو غيره في أحد جانبي أنف البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة.

(2) القشعم : النسر المسن.

(3) الأباهم : جمع الإبهام، كناية عن الندم.

(4) الكامل في التاريخ (8/ 407).

(5) صبيب : أي سائل.

(6) الخلوق والخلاق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

(7) أي: برز وظهر، والعارضان : جانبا الوجه.

(8) البصائر : جميع بصيرة : وهي قوة الإدراك والفطنة، النجوم الزاهرة (5/ 151).

ـ **الشاعر ابن الخياط: أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن الخياط:** فقد حاول هذا الشاعر تحريك همة عصب الدولة زعيم الجيوش في دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها قوله:

فدتك الصَّواهل قُبًّا وجرداً   وشُمُّ القبائل شيباً ومرداً
وذلت لا سيافِك البيض قضباً   ودانت لأرماحك السُّمر مُلدا[1]

إلى أن يقول:

وإني لمهد إليك القريض   يُطوى على النُّصح والنُّصحُ يُهدَى
إلى كم وقد زخر المشركون   بسيل يُهال له السيل سدا
وقد جَاشّ من أرض إفرنجة   جيوش كمثل جبال تردا
أنوماً على مثل هدِّ الصفاة   وهزلاً وقد أصبح الأمر جِدًا
وكيف تنامون عن أعين   وترتم فأسهرتموهنَّ حقدا
بنو الشرك لا يُنكرون الفساد   ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفساً   ولا يتركون من الفتك جُهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت   تدق من الخوف نحراً وخدا
وأمّ عواتق ما إن عرفن   حرًا ولا ذُقن في الليل بردا
تكاد عليهنَّ من خيفة   تذوب وتتلف حزناً ووجدا

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض عصب الدولة على الجهاد فقال:

فحاموا عن دينكم والحريم   محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسُدُّوا الثغور بطعن النحور   فمن حق ثغر بكم أن يُسَدَّا
فقد أينعت أرؤس المشركين   فلا تغفلوها قِطافاً وحصدا
فلابد من حدِّهم أن يُفَلّ   ولابد من ركنهم أن يُهَدَّا[2]

---

(1) ديوان ابن الخياط، ص: 182.

(2) ديوان ابن الخياط، ص: 182 وما بعدها.

وكانت لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمراء السلاجقة، والتي سيأتي الحديث عنها بإذن الله في الصفحات القادمة.

رابعاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي:

من الحقائق المُسَلَّم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة، وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مُضر وديار بكر، وسميت: الجزيرة؛ لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة[1]، ومن الأسباب التي جعلت حركة المقاومة تبعث من منطقة الجزيرة هي:

ـ أن منطقة الجزيرة أول أقطار المسلمين في المشرق الإسلامي اكتوت بنار الخطر الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة (490هـ/ 1097م)، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.

ـ أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.

ـ شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السني، وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد في سبيل الله، بعكس القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الإسلامي التي خبت جذوة الحماس الديني في نفوسها وخمدت روح القتال لديها[2].

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 123، نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي، ص: 11.

(2) الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة، ص: 201.

- الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التي حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه، وخصوبة الأرض، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعي اللازمة للخيل والماشية، الأمر الذي مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفذ من المؤن والعتاد، هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التي انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مثل: الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن التي امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة، وبالتالي أصبحت في مأمن من الهجمات الصليبية المضادة، ولا يستبعد أن يكون قد اختمر في نفوس زعماء حركة الجهاد الإسلامي ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية في منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزهم بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد[1]. ومن هنا فلا غرو أن تنبعث فكرة الجهاد الإسلامي في منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدي الصليبيين[2].

1 - جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل:

وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملي منذ سنة (491هـ/ 1097م) حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين، ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لسلمه ياغي سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين[3]، ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاشي صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم في القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير[4]. وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوقا وسار بهم صوب أنطاكية في سنة (491هـ/ 1097م) التي كانت قلعتها لا تزال في أيدي المسلمين، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم،

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 137.

(2) المصدر نفسه، ص: 138.

(3) المصدر نفسه، ص: 138.

(4) الكامل في التاريخ (8/ 400).

إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر[1]، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم: لا تخرجون إلا بالسيف[2]، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه: بطرس «بورشلميوا» إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التي أدت إلى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم[3]، وهكذا فشل كربوقا في قيادة التحالف الإسلامي الذي أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين سنة (491هـ/ 1097م)، وقد ذكر المؤرخون أسباب فشل كربوقا في منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين في الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية، ومن أهم هذه الأسباب:

- ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع في حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية، أو من إخوانهم في بلاد الشام وغيرها[4].

- عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التي تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.

- عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا في السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضي إلا على مقدمة الصليبيين[5].

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 400).

(2) الكامل في التاريخ (8/ 400).

(3) المصدر نفسه (8/ 400).

(4) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 328).

(5) المصدر نفسه (2/ 350).

ـ سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كانت سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع بنوع من الاستعلاء عليهم: ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته[1].

ـ ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وإخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطي في شمال الشام[2]، ولا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حال اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده[3] على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته منيته عند مدينة خوى بأذربيجان سنة (495هـ/ 1102م) أثناء النزاع بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[4].

2 ـ جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر:

جعلت وفاة أتابك الموصل كربوقا الموقف مائعاً وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية. ذلك أن كربوقا أوصى بالولاية من بعده إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق[5]، واستغل شمس الدولة

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 140.

(2) المصدر نفسه، ص: 140.

(3) المصدر نفسه، ص: 140.

(4) دول الإسلام للذهبي (2/ 250).

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 62.

جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصّن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، قَبِل سقمان هذا العرض وقدّم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فك الحصار عن الموصل، ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق فتشتّت جيشه، وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جكرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها[1].

تولى جكرمش إمارة الموصل عام (495هـ ـ 500هـ/ 1101 ـ 1106م)، وعقد تحالف مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة في مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوية لإيقاف تقدُّم الصليبيين[2].

أ ـ معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين وتسمى: معركة «حران»: أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حرّان. ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحوّلا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهيمند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريرك

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 63.

(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدين خليل ص: 95.

أنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من الرجالة، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيي شمالي الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو «الرها»[1].

كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين بي بور، وبوهيمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسخين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم[2]، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات[3]، وكان بوهيمند أمير إنطاكية وابن أخته تانكر، قد كمنا خلف إحدى المرتفعات لينقضا على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسلّلا هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً، بينما تمكّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأوحال أعاقت تحرُكهم السريع، فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان[4].

ب ـ الخلاف بين جكرمش وسقمان: وعندما رأى أصحاب جكرمش أنّ قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائباً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه ما لبث أن ردهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[5]، ومن ثمّ تقدّم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس

---

(1) الحروب الصليبية وسمات... (2/ 71-72)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 96.

(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 96.

(3) المصدر نفسه، ص: 96.

(4) المصدر نفسه، ص: 97.

(5) الكامل في التاريخ (8/ 466).

أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر[1].

ج ـ هزيمة جكرمش: قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخَّرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها، وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين، إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع، وبذلك استطاع أن يردَّ أول هجوم قام به جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة، غير أن ما أحسن به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد ببوهيمند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلّا أنه رأى أن يجعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبدَّ اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقضَّ رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة، فانتقم الفرنج من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها[2]. وكان من بين الأسرى الذي وقعوا في يدي تانكرد: أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال 15 ألف بيزنت، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهمند بألّا يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاح سراح بلدوين. غير أن بوهمند وتانكرد احتاجا إلى المال على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية ـ كمسؤول على الرها ـ ليعود إلى إنطاكية، ولذا ردًا على رسالة الملك: أنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا تردّدا في القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الأسر[3].

---

(1) المصدر نفسه (8/466) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 97.

(2) الحروب الصليبية، ص: 98.

(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 99.

د: نتائج معركة البليخ أو حرّان: كانت لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها :

ـ أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

ـ تلاشت أحلام بوهيمند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

ـ قرّرت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسف هؤلاء مع الكنيسة الأرمينية، واضطهاد رجالها مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكاً[1].

ـ أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، وضُمّت إلى إمارة أنطاكية.

ـ أضحى تانكْرِد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيمند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

ـ أدّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك، وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين؛ لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلّت عدتهم، وفلّت شوكتهم وشكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

ـ حطّمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون[2].

ـ استغل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس فرصة ضعف مركز بوهيمند إثر تعرّضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التي كان عقدها مع

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 65.
(2) المصدر نفسه، ص: 65.

الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقلية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الصجيلي ـ عدو بوهيمند اللدود ـ الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذي أنطاكية من الجنوب في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهيمند ومساعدته في هذه المحنة[1].

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي، أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين[2].

هـ ـ مواصلة جكرمش للجهاد: ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام (499هـ ـ 1106م) أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين، وألبي تمر تاش صاحب سنجار والأصبهذ صاوا أحد كبار أمراء فارس، إلّا أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزان الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين، فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا أنّ نواب جكرمش هناك نجحوا ـ بتوجيه من سيدهم في الموصل ـ في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى حلب، وبدا تمزق هذا التحالف

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 100.

(2) المصدر نفسه، ص: 102.

قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين[1]، إلا أن ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ أنه ما إن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشادر (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان بن سليمان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش في حران الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا إليه البلد، فتقدَّم قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج[2]، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألمّ به تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها[3]، ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة، فضلاً عن أن المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلّموه البلد، مما يفسر لنا ـ كذلك ـ ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قِبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش[4].

3 ـ جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر:

لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حقّقته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 103.

(2) المصدر نفسه، ص: 103.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن المقاومة الإسلامية، ص: 104.

(4) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 104.

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.

- استئناف عملية التوسع.

- حراسة ما حقّقوه من مكاسب.

- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعث منه صحوة صليبية جديدة أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام (494هـ/ 1101م) بقيادة أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بياندرات، وجيوبرت كونت بارما، وهيوكونت مونتيبلو[1]، ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها، لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنّها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، وتألّفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الإمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جمادى الأولى/آذار)، واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى[2]، وفعلاً لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيوكونت بروي، وبلدوين كونت جراندبريه، وهيو بييرفون أسقف سواسون، بالإضافة إلى سرية ألمانية بقيادة كونراد وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند كونت تولوز، قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس[3].

أ ـ معركة مرسيفان: تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص: 96.

(2) المصدر نفسه، ص: 96.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ سلاجقة الروم، ص: 97.

الصغرى، لذلك أوصى الإمبراطور ستيفن بلوا بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمباردين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهيمند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى به وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصرّوا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية، ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كانت تخليص بوهيمند من الأسر[1]، وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء فقد توجّه أفراد الحملة إلى الأراضي الداشمندية عبر أنقرة التابعة لقلج أرسلان، فاستدلوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار، وحتى يعرقل التقدم الصليبي، عمد قلج أرسلان إلى الانسحاب التدريجي من أمام القوة الصليبية، واتّبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين، وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود[2].

وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة، لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك، واقترح ريموند حتى يجنّب الجيش الدمار المحقّق أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاذ المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعرّض الصليبيون لهجوم تركي مفاجئ فتفرّقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لمّ شعثهم، ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمباردين أصرُّوا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل في الأطراف على رأيهم مرغمين[3] واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمنديين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية[4]. وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أضحت منهكة تقدّموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص: 97.

(2) الحروب الصليبية (2/ 43) رنسيمان.

(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 98.

(4) المصدر نفسه، ص: 98.

تضعضع الصليبيون وفرُّوا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم، ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك[1]. تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش[2]، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً.

ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، الميناء البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلّته من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية[3]، ويشير المؤرخ اللاتين ألبرت أوف أكس، أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبع سير الحملة وما رافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمبارديين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمنديين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق الذي أوقع نفسه فيه ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلا نتيجة لما تعرّض له الجيش من متاعب، وأما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعدَ أن ولّى اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة[4].

ب ـ معركة هرقلة الأولى: محت الكارثة التي حلّت بالصليبيين في مرسيفان الشهرة التي اكتبسها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم، وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة، وحرص وليم على اللحاق بالمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلّا أن توجه نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل فتركها[5].

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 98.

(2) المصدر نفسه، ص: 98.

(3) المصدر نفسه، ص: 99.

(4) المصدر نفسه، ص: 99.

(5) المصدر نفسه، ص: 99.

كان السلاجقة وحلفاؤهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم قلج أرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند بقدوم العدو الجديد، وإذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة، وسارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبدَّ بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء الكونت وستة من أتباعه[1].

ج ـ معركة هرقلة الثانية: في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألَّفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، ويبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه بوهيمند من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طبَّقوها من قبل بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جرّدت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين[2]. ولم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقلة عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسون ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش، وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر، ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة[3]، وتربَّص المسلمون في هذا الوقت بالصليبيين، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وإذ اضطرب نظامهم، انقضَّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلَّة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية[4].

د ـ نتائج معارك قلج أرسلان السابقة: انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثَّرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى وأهم هذه النتائج هي:

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 99 ، 100.

(2) المصدر نفسه، ص: 100.

(3) المصدر نفسه، ص: 100.

(4) المصدر نفسه، ص: 100.

- ثأر السلاجقة لما حلَّ بهم في دوريليوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من الأناضول، كما رفعت الانتصارات المتالية روحهم المعنوية.

- ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء، على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه، فخشي المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، ما لم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطلّب ذلك من مصاريف إضافية لم يتمكّن من دفعها إلا القليل. وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام[1].

- ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلَّ بهم من مصائب وحمّلوهم مسؤولية ما حدث. وتردَّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفِّذ تعاليم الأمبراطور عندما أخرج الجيش الذي يقوده عن طريق المرسوم ليلقى أفراده حتفهم في كمين سبق إعداده، والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عمّا حلَّ بهم من كوارث[2].

- لم يلبث قلج أرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، تم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينية ببلاد الشام[3].

- أستأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها في (23 ذي الحجة 495هـ/ 18أيلول 1102م).

- أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام، الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملطية وفدية بوهيموند، فتفكّكت بذلك جبهة الأتراك في المنطقة[4].

* أثر وفاة قلج أرسلان: راسل زنكي بن جكرمش قلج أرسلان الأول يستنجد به،

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 101.

(2) المصدر نفسه، ص: 101.

(3) المصدر نفسه، ص: 101.

(4) المصدر نفسه، ص: 101.

وكان آنذاك في ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلج أرسلان السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لاسيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقلج أرسلان الأول من القوة ما لايستطيع مجابهته في معركة سافرة، لذلك قرّر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه[1]، لكن قلج أرسلان الأول تمكّن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية[2]، وأما جاولي، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق في نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية، وانتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور[3] في عام (500هـ/1107م)[4]، ويعتبر قلج أرسلان الأول من الشخصيات الفذّة التي أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته.

* فسلاجقة الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلج أرسلان تعرّضوا لضغط متزايد من جانب الإمبراطورية البيزنطية التي جدّدت تدخلها في شؤونهم الداخلية، واستطاع الكسيوس كومنين أن يعيد باطمئنان سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.

* أطالت وفاة قلج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشية والخطر الصليبي، شجّع قلج أرسلان على التدخل في شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحّد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق، وكان باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية مواتية، غير أن وفاته أنقذت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.

* تُعدُّ وفاة قلج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 68.

(2) المصدر نفسه، ص: 68.

(3) نهر الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.

(4) الكامل في التاريخ (8/502).

المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخُل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى، وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسميًا للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام (552هـ/ 1157م)[1].

* حرم موت قلج أرسلان سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلّص سريعاً، لأن ابني تتش، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكّنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي، وظهرت من تلك البيوت وحدات سياسة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك[2].

* أزالت وفاة قلج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الإمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيمند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام (501هـ/ 1107م) انطلاقاً من حصن دورازو المنيع، وقد ضحى الكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرّغ وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذي انهزم أمامه عام (502هـ/ 1108م)[3].

* جعلت وفاة قلج أرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً، إذ أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً في يد السلطان محمّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أولاد قلج أرسلان على بلاد الروم، أما الأخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قونية[4].

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 111.

(2) المصدر نفسه، ص: 111.

(3) المصدر نفسه، ص: 112.

(4) المصدر نفسه، ص: 112.

* لم يكن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شنِّ الغارات على أراضي الإمبراطورية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكَّن الأمبراطور البيزنطي من الاستيلاء على بعض الحصون في المناطق الحدودية[1]، على أنه لم يشأ أن يغامر بالذهاب إلى قيليقية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرَّغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية[2].

* جاولي سقاوة: بعد وفاة قلج أرسلان وغرقه في نهر الخابور عام (500هـ/1107م)، أضحى بوسع جاولي أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس، كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل[3]، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام (501هـ/شهر حزيران) عام (1108م) إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها[4]، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدَّداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة[5]. ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام (502هـ/شهر أيلول عام (1108)[6].

5 ـ شرف الدولة مودود بن التونتكين 501هـ ـ 507هـ/1108م ـ 1113م :

يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها ـ ولا ريب ـ الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته ـ بناء على ذلك كله ـ على تزعُّم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مرّة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 112.
(2) المصدر نفسه، ص: 112.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 68.
(4) المصدر نفسه، ص: 68.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 68.
(6) الباهر لابن الأثير، ص: 17.

وناضجاً إلاّ في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد.. وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم.. ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي قالها قبيل استشهاده جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين[1].

أ ـ حملة مودود الأولى ضد الرها: في عام (503هـ/ 1109م) بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل، وبعد أن تلقّى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسقمان القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن وعدد كبير من المتطوعين[2]. وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم[3]، وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ «تانكرد» صاحب أنطاكية، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها، وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها في آخر شهر ذي الحجة/ أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حرّان وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[4]، وقرّر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحّد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكْرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه

---

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 112.

(2) المصدر نفسه، ص: 113، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 69.

(3) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 123.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 271.

وبين أمير الرها[1]، وكان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي، فقد تضافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة لعل من أهمها:

ـ لقد تلقّى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حرّان، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرّر التخلّي عن الحملة[2].

ـ راجت شائعات في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

ـ وبناء على نصيحة الملك، بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية، في حصن الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها. أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل[3].

ب ـ حملة مودود الثانية ضد الرها: جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب، قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنِيَ بها مسلمو الشام والتي سقط على إثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء، وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها من خلفاء وسلاطين بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي، .. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الأسلامية لابنه الملك مسعود[4]، واجتمع تحت قيادة

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 70.

(2) المصدر نفسه، ص: 70.

(3) المصدر نفسه، ص: 70.

(4) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 115، نقلاً عن: الكامل في التاريخ.

مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط[1]، وتبريز[2]، وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة[3]، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي ابني بُرسُق أمير همذان[4].

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام (505هـ) شهر تموز عام (1111م) بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات ثم اتجه أفرادها لحصار الرها، أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيِّر الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر[5]، فتحولت قوات المسلمين إليها كي يجرّوا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم، إلا أن هذا كان خطأ من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها[6]. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء[7]. ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مودود تل باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم، ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن، ولم يسع مودود إلا أن يتحرّك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال، وفي شيزر اجتمع به طغتكين

(1) قصبة أرمينية الوسطى.
(2) تبريز : من أشهر مدن أذربيجان.
(3) مراغة : أعظم وأشهر بلاد في أذربيجان.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص : 278، 279.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص : 73.
(6) نهر الذهب للغزي (3/ 82).
(7) مرآة الزمان (8/ 35 ـ 36)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص : 116.

الذي كان قد توجّه إلى بغداد طالباً المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً، وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به، فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات أنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وأنطاكية وطرابلس، ورفض مودود أن يجرُّه أعداؤه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلّا بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية، وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان، ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها[1]. كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث مدى تفكُّك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين[2].

كانت سياسة رضوان في إمارة حلب شراً كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبي ضد صاحب الموصل جاولي عام (501هـ) وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشر رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب في وجهه، بل تحالف مع «تنكرد» الصليبي صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة في وجه الجيش الإسلامي[3]، ولم يحفظ له الصليبيون هذه المواقف فحاصروا حلب عام (504هـ) واشتد الحصار، حتى أكل الناس الميتة وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان

---

(1) مرآة الزمان (8/ 35ـ36)، المقاومة الإسلامية، عماد الدين، ص: 118.

(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 118.

(3) زبدة الحلب (2/ 159) الجهاد والتجديد، ص: 119.

يحمله إليهم سنوياً[1]، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة في حلب، بفضل تشيع رضوان لآرائهم ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم في اغتيال خصومه السياسيين[2]، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلي في بلاده، ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لها عامين في حلب، وكان ذميم السيرة، قرّب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة في حلب فكثروا، وهلك سنة (507هـ)[3]، وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة للرعية، وكانت الفرنج تغير وتسبي . . . ولا يخرج إليهم[4]، خلفه ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقية زعماء تلك الطائفة.

ج ـ حملة مودود الثالثة ضد الرها: ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد إلا أنه قام في شهر ذي القعدة 505هـ/ شهر أيار 1112م، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام (506هـ/ شهر تموز عام (1112م) بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسّم قواته، وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلّصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنّه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق وردُّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين[5].

د ـ حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس: معركة الصِّنَّبرة[6]: ظل مودود

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 544).

(2) الجهاد والتجديد، ص: 119.

(3) الكامل في التاريخ (8/ 552)، سير أعلام النبلاء (19/ 315).

(4) النجوم الزاهرة (5/ 205).

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 76.

(6) الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال.

متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام (507هـ/ شهر) حزيران عام (1113م) على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، وانضم: تميرك صاحب سنجار، وأباز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف[1] وكان هدف المسلمين منطقة فلسطين. فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن، وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية[2]، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[3]، ومضى المسلمون في زحفهم بعد المعركة حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرروا الانسحاب إلى دمشق[4]. وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس. وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه: أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة[5].

هـ ـ مقتل مودود: سيَّر مودود وحليفه رسولاً إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تمّ على أيديهما من فتح، وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم، إلا أن بعُد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 550).

(2) المصدر نفسه (8/ 550).

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 294 – 297.

(4) المصدر نفسه، ص: 297.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 77.

سيصدرها لهذا الصدد[1]، ودخل جامع دمشق يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رَحِمَهُ اللَّهُ[2]، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من كبار أبطال الجهاد، واشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطراباً لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما إن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا ـ ثانية ـ إلى ما كانوا عليه[3]، وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه: إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها[4] !! غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدوا التجاهل آنذاك.

إن ما هو أكثر عوناً لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها ـ فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد ـ إنما هي تلك الفرقة الباطنية الرافضية الحاقدة ـ التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأه في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح وقد تحدثنا عنه وقد دعمته الدولة الفاطمية الرافضية الباطنية ـ ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين[5]، وما نشاهده اليوم خير دليل على ذلك.

و ـ ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج: وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة في مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها في الآتي:

ـ إن إمارة مودود ـ على قصر مدتها ـ تعد نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ

---

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 122.

(2) الكامل في التاريخ (8/ 551).

(3) تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص: 187 – 188.

(4) الكامل في التاريخ (8/ 551).

(5) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، ص: 124.

الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة[1]، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها أمر إمارة الموصل[2].

ـ يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام (1144م/ 539هـ) حيث أن مودود وجّه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

ـ كشفت حملات مودود عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين[3].

وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين[4]، وفي هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية وواقع الأمر: أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي انبهروا بحجم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين زنكي من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام (1144م/ 539هـ) ولا نغفل أيضاً أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التي قدمها المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكي قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى، على نحو جعل سقوط عماد الدين زنكي في مثل ذلك ـ الموقف ـ من حيث تقويم دورهم التاريخي، ويكفي مودود فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين مُنذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبي، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامي كلٌ يكمل الآخر، ولا خصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد ـ فيما بعد ـ

(1) شرف الدين مودود، ص: 150، عبد الغني رمضان.

(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 156.

(3) المصدر نفسه، ص: 156.

(4) المصدر نفسه، ص: 157.

القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولذا فبالإمكان القول، اليوم الصنبرة وغداً حطين؛ وهذا ما أثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي.[1] وعلى أية حال عند مقارنة جهد مودود بسابقيه في صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوغا انحصر أمره في نجدة إنطاكية وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران (498هـ/ 1104م) أما مودود فإن دوره أكثر تعاظماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة عام (507هـ/ 1113م)، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كلٍّ من الانتصارين في اجتياح مناطق الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرائه، غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسي، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك[2].

6 ـ نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين:

ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطاً شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة، وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة (512هـ/ 1117م) إلى ازدياد تدهور أحوال السلاجقة في العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد[3]، الأمر الذي أفقد الموصل مكانتها القيادية في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، واستهل إيلغازي أعماله بالاستيلاء على حلب سنة (511هـ/ 1117م)، لأهميتها بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما: الرها وأنطاكية، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة. لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين إيلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد[4]. وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين إيلغازي على حلب سنة (511هـ/ 1117م) فقد

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 157.

(2) المصدر نفسه، ص: 158.

(3) الوافي بالوفيات (9/ 310) النجوم الزاهرة (5/ 214).

(4) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، ص: 234 – 235.

تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها حيث بلغت حداً من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم، ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازي وتسليمه حلب في السنة المذكورة، واستهل إيلغازي أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوحش منه أهل حلب وجندها ـ على حد قول ابن العديم ـ مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف على حلب ابنه حسام الدين تمرتاش. واستغل الجند المقيمون في بالس موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة (511هـ/1117م)، فأرسلوا إلى الصليبيين ليسلموها إليهم فاضطر إيلغازي إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازي للمرة الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أي منهما على ممتلكات الطرف الآخر[1].

* **نقض الصليبيين للهدنة**: ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازي وأغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التي كان قد عقدها معهم إيلغازي وأن يسلموهم ـ أي أهل حلب ـ تل هراق ويؤدوا لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر ومقدارها ألف دينار، ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً[2]. وغضب نجم الدين إيلغازي لما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وإنقاذها مما هي فيه لقلة عساكرها، فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر، في الوقت الذي أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته في الاجتماع به سنة (512هـ/1118م) واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما، الأمر الذي دفع الصليبيين إلى إحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم[3]، ولم يجد أهل حلب بداً من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية في بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لانشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة، وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

* **إعلان النفير ضد الصليبيين**: لم يتيسر لنجم الدين إيلغازي لقاء الصليبيين، فقد فارق

(1) زبدة الحلب (2/ 180) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 125.

(2) زبدة الحلب (2/ 185، 186).

(3) المصدر نفسه (2/ 186).

طغتكين وعاد إلى ماردين لجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين في معركة حاسمة[1] وفي ماردين حشد نجم الدين إيلغازي ما يزيد على عشرين ألفاً من التركمان[2]، بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوت. وأرسل إيلغازي رسله إلى بغداد لإعلان النفير ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير[3]، وكان نجم الدين إيلغازي قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة (512هـ/ 1118م) على ملاقاة الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية (513هـ/ 1119م) بالشام. وتوجه إيلغازي قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجودين بها، فأجابهم إيلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه فأجابوه، وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تمكن بموجبها من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مد يد العون للقوى الأخرى، وهذا دليل واضح على ضعف رضوخ الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين[4].

* **معركة ساحة الدم**: وبعد أن اطمأن إيلغازي إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف، توجه إلى بلاد الشام، وقد انضم إليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وارزن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الأثارب بأرض سرمدا في ربيع الأول سنة (513هـ/ 1119م) وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين، وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا في بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين إيلغازي سيباغتهم هناك لضيق الطريق، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الأثارب أو زردنا، حتى أن الغرور قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم، فأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له: لا تُتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك[5]. ولما طال انتظار إيلغازي لوصول حليفه، لبى رغبة الأمراء الذين كانوا معه في التعجيل بمباغتة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد أقبلت وأحاطت بهم من كل جانب،

---

(1) زبدة الحلب (2/ 186).

(2) المصدر نفسه (2/ 187 – 190).

(3) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 153.

(4) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، عماد الدين خليل، ص: 241.

(5) زبدة الحلب (2/ 190)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 154.

وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة (513هـ/ 1119م). وخرج قاضي حلب أبو الفضل ابن الخشاب وخطب في المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات فكانت السهام على الصليبيين كالجراد، في الوقت الذي أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير، بينما كان الباقون بين قتيل وجريح، وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذي كان قد تعجّل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها، ووقع في الأسر نيفاً وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين إيلغازي بل أمر بقتلهم جميعاً[1]، وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم: «ساحة الدم» لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتي لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل[2].

*** الأبعاد التي حققها الانتصار على الصليبيين في معركة ساحة الدم:** إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكري الذي حققه نجم الدين إيلغازي عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة، إضافة إلى أنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الأثارب في السنة نفسها، فضلاً عن أنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر وجيشها، مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية يتشككون في موقعهم إلى جانب الصليبيين، وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد[3]، وذكر ابن العديم أن نجم الدين إيلغازي نزل بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها، ولكنه رد جميع الغنائم إلى المقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ليبعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[4]، واستطاع إيلغازي أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت للمسلمين جواً من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 154، نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(2) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/ 473)، الإمارات الأرتقية، ص: 242.

(3) الاعتبار، ص: 40، 41، الحركة الصليبية (1/ 492).

(4) زبدة الحلب (2/ 190)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 155.

بالنجدة الصليبية التي أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب أنطاكية هزيمة ساحقة[1]، ولم يكتف نجم الدين إيلغازي بهذا بل اجتمع في أرتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الأثارب وزردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار إيلغازي إلى دانيث بِنَفَرٍ قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا، ودارت بين الطرفين معركة في جمادى الأولى من السنة (513هـ/ 1119م) أسفرت عن انتصار نجم الدين إيلغازي وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم[2]. ثم عاد نجم الدين إيلغازي إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبته قوة من الصليبيين، فهاجمتهم قوة إيلغازي مما اضطر من سَلِمَ من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذي وقع فيه الأبرص أسيراً في أيدي المسلمين فحملوه إلى إيلغازي بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبراً[3]، وفي أواخر جمادى الأولى سنة (513هـ/ 1119م) غادر إيلغازي حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها، إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها[4].

* **حصار أنطاكية وعقد الهدنة مع ملك بيت المقدس:** وبالرغم من انشغال نجم الدين إيلغازي ببعض الأمور الإدارية في ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام في سنة (514هـ/ 1120م) واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضرب عليها حصاراً، فلم يتمكنا منها، فدخلا إلى قنسرين، وحاصراها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين إيلغازي مشورة صاحبه، وعاد إلى حلب بعد أن أدرك ما عليه الصليبيون من القوة، وتفرق عساكره من التركمان، واضطر إيلغازي إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة[5].

* **نقض الهدنة:** لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 155.

(2) زبدة الحلب (2/ 190)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 156.

(3) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 245).

(4) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 156.

(5) المصدر نفسه، ص: 156.

في السنة نفسها (514هـ/ 1120م) على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: ما لي على جوسلين يد[1]. ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بأنطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية، مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم[2]. وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من إيلغازي فشنوا في صفر من سنة (515هـ/ 1121م) هجوماً على الأثارب وأحرقوا ما بها من الدور والغلال وأغاروا على حلب نفسها، وسار بلدوين الثاني وفرض عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في أيديهم ونجح الحلبيون في استنقاذ إخوانهم وأجبروهم على التراجع عنها إلى أنطاكية[3] وعلى ما يبدو فإن نجم الدين إيلغازي قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن إيلغازي النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب، والأثارب[4].

* **تمرد سليمان بن إيلغازي على أبيه:** وعلى الرغم من أن الصلح الذي عقده سليمان ابن إيلغازي مع الصليبيين لم يكن في صالح المسلمين، فإن سليمان بن إيلغازي لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قِبل سليمان بن إيلغازي الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادى الآخرة من سنة (515هـ/ 1121م)، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الأثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الأثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين، الأمر الذي أجبر بلدوين على التراجع إلى أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس[5].

* **القضاء على التمرد:** وأما نجم الدين إيلغازي، فإنه ما إن سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان ما حلّ بأعوانه من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق، وطلب من صاحبها طغتكين حق

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 156، 157.

(2) المصدر نفسه، ص: 157.

(3) زبدة الحلب (2/ 199)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 157.

(4) المصدر نفسه (2/ 199 ـ 205)، المصدر نفسه، ص: 157.

(5) المصدر نفسه.

اللجوء، ولما تم لإيلغازي القضاء على الفتنة بحلب استتاب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف إيلغازي من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم[1]، وفي ماردين استطاع نجم الدين إيلغازي أن يحشد أكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة (516هـ/ 1122م)، مستغلاً في ذلك الشقاق الذي حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس وبونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين إيلغازي لم يستطع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يمكّن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب[2].

* **وفاة إيلغازي وأثر ذلك على المسلمين:** في شهر رمضان من سنة (516هـ/ 1122م) أحس إيلغازي بتدهور صحته فعاد إلى ميافارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين إيلغازي خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة، فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته، لأن نجم الدين إيلغازي كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تقف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازي إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذي حصل على ماردين، وابنه سليمان الذي حصل على ميافارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن أرتق بقلعة خرتبرت وضم إليها حران فيما بعد[3]، ويضاف إلى ذلك أن حلب التي كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم إيلغازي من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشري الذي رجّح كفة المسلمين على الصليبيين في عهد إيلغازي مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبي الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على سليمان بن عبد الجبار أن يعقد مع

(1) الإمارات الأرتقية، ص: 60.

(2) زبدة الحلب (2/ 205)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 158.

(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/ 480، 481) للعريني.

الصليبيين صلحاً سنة (517هـ/ 1123م) تنازل بموجبه لهم عن حصن الأثارب[1].

7 ـ بلك بن بهرام بن أرتق:

بلك بن بهرام صاحب قلعة (خرتبرت) استلم راية الجهاد بعد عمه «إيليغازي ـ صاحب ماردين» كان خصماً عنيداً للصليبيين، وكان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة (516هـ/ 1122م) بحصار الرها، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الانسحاب عنها، لذا رأى الصليبيون الذين بالرها أنه لا بد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذي كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين في ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن أرتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبعة بمياه الأمطار، فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، في الوقت الذي سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة فارس وابلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة في سنة (516هـ/ 1122م). وقد ترتب على هذا الانتصار الذي حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية في بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية[2]، وحاول بلك بن بهرام بن أرتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا في الأسر على تنازل منهم على الرها، مقابل إطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن والبلاد كالجمال، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا[3]. عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة (517هـ/ 1123م) إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه[4]، وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس الذي أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على أنطاكية أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام، وإفهام المسلمين بأن قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة، وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه أحد روافد

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 632).

(2) نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي، ص: 20.

(3) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 160 .

(4) زبدة الحلب (2/ 206)، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 160.

الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذي كان قد رفع الحصار عن كركر، وعاد لمواجهة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين في التاسع عشر من شهر صفر سنة (517هـ/ 1123م)، انهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع في أسر بلك في بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم[1]. وهكذا خلت إمارات الصليبيين، الرها، وإنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام ولكن القوى الإسلامية في بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين[2].

* **محاصرة الصليبيين لحلب:** أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه في قلعة خرتبرت توجه إلى حران للاستيلاء عليها في ربيع الأول من سنة (517هـ/ 1123م)، بهدف التقوي بها، فتم له ذلك وكان بلك بن بهرام يطمع في الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبد الجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية، وأنه لن يحقق آية نتيجة حاسمة على الصليبيين ما لم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، وليتفرغ لقتال الصليبيين[3]، لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة (517هـ/ 1123م)[4]. إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضي قدماً في جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخرتبرت، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت في رجب من نفس السنة 517هـ/ 1123م)، واستطاع إعادة الأمن بها ونقل الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الأرمن الذين كانوا بها[5]. وأما جوسلين صاحب الرها الذي هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيي بيت

---

(1) نور الدين محمود والصليبيون، ص: 20.

(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 160.

(3) الإمارات الأرتقية، ص: 268.

(4) الكامل في التاريخ (8/ 632، 633).

(5) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 161.

المقدس وأنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل أقدم على نبش قبور الموتى من المسلمين في البلاد المحيطة بها وظل محاصراً لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها (517هـ/ 1123م)، ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر، على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيي أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية في الشام، تلك البلاد التي كانت تزودها بالمؤن[1].

وجد بلك بن بهرام بن أرتق أنه لا بد من الاستعانة بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة (517هـ/ 1123م) كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قواتهما يعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة (518هـ/ 1124م) وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج بإحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين، ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان من أجل الاطمئنان عليهم من أية محاولة لإنقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة (518هـ/ 1124م) لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه[2].

* **مقتل بلك بن بهرام:** لم يمهل الأجل بلك بن بهرام، وبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا، وبمقتله فقد المسلمون فيه رجلاً عظيماً أثبتت أعماله أنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين، ويمكن القول أنه بمقتل بلك بن بهرام سنة (518هـ/ 1124م) انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام، إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 161.

(2) زبدة الحلب (2/ 216، 217)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 164.

أمر المسلمين بها، حيث ألهاه الصِّبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام[1]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آقسنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق[2].

8 ـ جهاد أمير الموصل آقسنقر البرسقي لإنقاذ حلب:

أ ـ حلب تتصدى للصليبيين:

تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام، وكان أبرزها وأخطرها ولا ريب حصار عام (518هـ) وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين، هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وأنطاكية غرباً على البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وإنطاكية، ويعجِّل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة[3].

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوي، لذلك أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام (511هـ)، وتولى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها، وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام (516هـ) سعى الصليبيون لاستغلال فرصة انقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 162، 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 163.

(3) دراسات تاريخية، ص: 12 ، 13.

المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك ابن بهرام وتوليّه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقاله إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها، ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولّي تمرتاش الحكم، ويقول: فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك[1]. وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلسه؛ فأكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره[2]. ولم يلبث تمرتاش ـ بعدها ـ أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة، وبهذا أتيحت لهؤلاء الفرصة ـ كرة أخرى ـ لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام (518هـ) حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل[3].

ب ـ خيانة دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة:

بدأت المحاولة لإسقاط حلب بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب: دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد، ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، ويذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة[4] ووعد بلدوين أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم[5]. وتمكن ـ أخيراً ـ من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً

---

(1) زبدة الحلب (2/ 220).

(2) الاعتبار، ص: 103 ، 120 – 121.

(3) دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل، ص: 14.

(4) الكامل في التاريخ (8/ 642).

(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 212.

عن بعض المواقع القريبة من حلب[1]، وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان (518هـ)، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة دبيس بن صدقة[2] ـ وكان دبيس شيعياً كآبائه[3] ـ صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مئة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزل مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك (خونة) آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب: سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي . . وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها[4]. ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر[5]، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس[6].

ج ـ أعمال استفزازية صليبية ضد أهالي حلب:

بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمين أبصروا كتابكم !! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه . . وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[7].

د ـ المقاومة الحلبية الشعبية:

لم يكتف الصليبيون بهذا بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر

---

(1) الاعتبار، ص: 103، زبدة الحلب (2/ 222، 223).

(2) دراسات تاريخية، د.عماد الدين خليل، ص: 15.

(3) سير أعلام النبلاء (19/ 613).

(4) زبدة الحلب (2/ 225 ـ 226).

(5) الكامل في التاريخ (8/ 642).

(6) زبدة الحلب (2/ 224، 225)، دراسات تاريخية، ص: 15.

(7) دراسات تاريخية، ص: 15.

هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرّس على أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب، فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت . . . وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى[1].

هـ ـ استنجاد أهالي حلب بأمير ديار بكر:

ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش، وتسلّل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين ـ قاعدة ديار بكر ـ ليستغيثوا بأميرها علّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات، وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة[2] إلا أن مساعيهم فشلت، وفي نهاية المطاف تمكن الوفد الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجاد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آقسنقر البرسقي[3].

و ـ آقسنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب:

كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلّا الأطباء ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتم نصره؛ فكادت أنفس الحلبيين تزهق[4]، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا

---

(1) دراسات تاريخية، ص: 16 ، ذيل تاريخ دمشق، ص: 212.

(2) دراسات تاريخية، ص: 16.

(3) زبدة الحلب (2/ 227)، دراسات تاريخية، ص: 17.

(4) دراسات تاريخية، ص: 17.

عليه واستغاثوا به وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم. ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخيرخان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم ـ مسبقاً ـ تسليم قلعة حلب لنوابه لكي يحتمى بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما إن استتب الأمر لؤلاء النواب وأطمأن الرجل إلى وجود حماية أمينة في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوّق حلب[1].

وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة (518هـ) وما إن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوسن على الطريق إلى أنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدّمة إلى معسكراتها في حلب، وقال موضحاً خطته هذه: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم.

ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء الصادرات وعمّت عدالته الحلبيين جميعاً بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي[2]، ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث استأنف

---

(1) نهر الذهب، للغزي (3/ 86، 87)، دراسات تاريخية، ص: 18.

(2) زبدة الحلب (2/ 229 أ 230)، دراسات تاريخية، ص: 19.

المزارعون العمل في الأراضي التي شرّدوا عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار[1]، وهكذا استطاع البرسقي أن يحكم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلّص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الوصول لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة[2]، يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسمان: . . . سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبين والمماليك، ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة وإقطاعات متفرقة زادت من ضعفها، وما حدث ـ إذن ـ من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام[3]. ونلاحظ حرص عامّة المسلمين على الاندماج في كيان إسلامي سني بغض النظر عن القيادة سواء كانت تركية أو عربية أو غيرها وإنما المهم من يقوم بواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين تحت راية أهل السنة.

ز ـ مقتل البرسقي:

في سنة (520هـ) الثامن من ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل، بمدينة الموصل، قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلي الجمعة مع العامة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما قرأها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً[4].

---

(1) دراسات تاريخية، ص: 19.

(2) المصدر نفسه، ص: 20.

(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/ 345 ، 485، 486).

(4) الكامل في التاريخ (8/ 651)

ح ـ الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد:

أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان ـ في الشهادة ـ فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير، وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة، نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة[1] في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأعراضها وأوطانها.

هذا وإن كان آقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام (521هـ/ 1127م) عهد السلطان محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي، وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين[2]، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم اتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني صاحب الرها وبوهيمند الثاني صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادى الآخرة سنة (522هـ/ يونيو 1128م)[3]، واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعالى مَنّ على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على الشام جميعه[4].

خامساً: أهم أعمال عماد الدين زنكي فتح الرها:

استطاع عماد الدين زنكي أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذي

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 161.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، ص: 48.

(3) الكامل في التاريخ (8/ 663).

(4) الكامل في التاريخ (8/ 664).

أحاط بالعالم الإسلامي من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، وقد فصلت ذلك في حديثي عن عماد الدين زنكي في كتابي عن الدولة الزنكية.

ويعتبر فتح الرها من أهم إنجازات عماد الدين زنكي، فقد كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق سنة (491هـ/ 1097م) بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى سنة (494هـ/ 1100م) حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس[1]. وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه (485هـ/ 1092م)[2]، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بل إنها شكَّلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[3]، وعلى الرغم من أن الرها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين، فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، فقد كانت وفيرة الثروات ساعدت أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندان وعين ثانية غرباً إلى مشارق ومن بهنسي وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً[4]، واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة واستطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم من أن الرها كانت تعاني من نقطتين ضعف واضحتين أحدهما: الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة، وثانيها: عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق، ص: 230.

(2) سلاجقة إيران والعراق، وعبد المنعم حسين، ص: 84.

(3) إمارة الرها، علية الجنزوري، ص: 34.

(4) الحركة الصليبية (1/ 424)، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 230.

«السريان والأرمن اليعاقبة» ومن الصليبيين الغربيين فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا في مدن بكاملها كسروج والبيرة التي خضعت للصليبيين[1]، ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، ووصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الإسلامية حصنها مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق أو الشام ترغب في السيطرة عليها[2].

1 ـ أوضاع إمارة الرها الداخلية:

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية وانسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبعد نظر، والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية، وفضّلهم على النصارى الغربيين الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة. وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها، والجدير ذكره أن هذه الإمارة شكّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[3]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية[4] ودينية.

2 ـ عمليات الفتح:

استغل عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 231.

(2) التاريخ الباهر، ص: 66.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 149

(4) المصدر نفسه، ص: 149.

هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه ـ في الوقت نفسه ـ في منطقة الرها ليطلعوه ـ أولاً بأول ـ على تحركات أميرها الذي ما إن رأى انهماك زنكي بجيوشه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته[1]، بعد أن اتخذ إجراءاً احتياطياً بأن عقد هدنة مع فرار أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته[2]، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص هناك، من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[3]، جاءت عيون عماد الدين زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق إليه، فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب النجائب الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع، وحاول في البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالي الرها، باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء دياره، إلا أنهم أبوا قبول الأمان[4]. وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره، منعاً أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم ـ في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[5]، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك، وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة (539هـ) وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء

---

(1) الباهر، ص: 67، عماد الدين زنكي، ص: 151.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 151.

(3) المصدر نفسه، ص: 152.

(4) المصدر نفسه، ص: 152.

(5) الحركة الصليبية (2/ 605 ، 606)، عاشور، عماد الدين زنكي، ص: 152.

الحصن، إثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة[1]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي[2].

3 ـ سياسة عماد الدين زنكي في الرها:

رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله[3] وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فأعيدوا ولم يفقد إلا الشاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بإجمال السيرة وبسط العدالة[4] مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[5].

4 ـ العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها:

هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

ـ تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثّل موتاً بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

ـ ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكي العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجمهم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجّه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، 280، عماد الدين زنكي، ص: 152.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 153.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 153.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 280، عماد الدين زنكي، ص: 153.

(5) عماد الدين زنكي، ص: 153.

ـ زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية أثّر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً[1]، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثّرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هي ـ لحسن الحظ ـ إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

ـ ولا نغفل ـ من ناحية أخرى شخصية أمير الرها جوسلين الثاني الذي لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات، بل إن كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل[2].

ـ ويبدو أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون، بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثاني ـ دون أن يدري ـ في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي[3].

ـ وعلى أية حال: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدفهم من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام (539هـ/1144م)، ومهما كان أن شأن عوامل «النحر والانتحار» الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه[4].

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 162

(2) المصدر نفسه، ص: 162.

(3) المصدر نفسه، ص: 163.

(4) المصدر نفسه، ص: 163.

5 ـ موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية:

* **موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها:** كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها، حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام (539هـ/ 1145م) فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه فكرة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكون في أمره[1] فقال: فنزلت السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم[2] ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي: أصعد إلى المنارة، وأؤذن حتى يجري ما جرى، فصعدت وناديت: الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا على البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا على السور، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة[3].

* **ملك جزيرة صقلية:** كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سير هذا الملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى أفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي، وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها ـ أي أتباع رسول الله ﷺ ـ فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم، واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوّ منزلة الرّها عند النّصرانية[4].

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 22.

(2) المصدر نفسه، نقلاً عن: بغية الطلب في تاريخ حلب.

(3) بغية الطلب في تاريخ حلب (9/ 3851)، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 122.

(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 141).

* **رؤيا للشهيد بعد قتله:** ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا ؟ قال: بفتح الرها[1].

* **مؤامرة فاشلة من سكان الرها:** ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا ـ في العام التالي ـ مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يُتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[2].

6 ـ نتائج فتح الرها:

حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية، دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي، لا سيما مودود ـ وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس[3].

ج ـ زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 141).

(2) عماد الدين زنكي، ص: 157.

(3) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 164 ، 165.

إيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي ـ باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام (1124م/ 518هـ) بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائماً في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قِبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت ـ على المستوى الجغرافي ـ معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د ـ أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام حرب صليبية (1147 ـ 1149/ 542هـ ـ 544هـ) والتي اشتهرت بالحرب الصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامية حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين ـ عامة ـ في عهد الحروب الصليبية.

هـ ـ ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، ارتفاع شأن عماد الدين إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة[1]، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام[2] وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب، ص: 165.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 156.

الله، ودارت في المحافل الإسلامية أحاديث تَمَحْورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدَّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين[1]، وهذا إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

7 ـ رأي المستشرق جون لامونت في عماد الدين:

يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس، وفي هذه الدراسة اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية فقط، وذكر بأن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرها مُنذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وإلا بعد حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بين له سهولة احتلال المدينة[2]، ويستمر في تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين[3] وذكر أيضاً: أن استيلاء زنكي على حماه، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى في ذلك مصلحته[4]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

ـ كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي، خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 156.
(2) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 166.
(3) المصدر نفسه، ص: 166.
(4) المصدر نفسه، ص: 166.

معها ضد حصونها ومعاقلها، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً إذا لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل إنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين مُنذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها ـ على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية ـ يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية.

يبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيداً عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه[1]، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه مُنذ زمن بعيد، والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة[2].

ـ إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في أتون جبهتين: جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية، وجبهة الصراع مع الصليبيين، ثم إنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها[3].

ـ أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان سعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه، سواء المسلمين أو الصليبيين، فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر

---

(1) الباهر، ص: 17، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 167.

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 167.

(3) المصدر نفسه، ص: 167.

والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين، وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي، وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي ـ كما أشرت من قبل ـ يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى، بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة. غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي، وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد[1].

ـ من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك ثأراً ملازماً ذلك القطاع منهم لا سيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير ـ بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام ـ أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام، حيث أن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية[2]، إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً، ومن أشهر الكتب المعاصرة: كتاب «الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم» قالت صاحبة الكتاب كارين ارمسترونغ عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره[3]، وسيرة الرجل تكذب ما يقولون ووصفه مؤرخونا بالشهيد وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهلاً لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب، ص: 168.

(2) المصدر نفسه، ص: 168.

(3) الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ص: 245.

للأمور وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف[1]، وكان معظماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته، وقد كلف بذلك القضاة. إن من أهداف بعض المستشرقين:

* تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.

* إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.

* محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.

* كانت كتابتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي ولذلك حاول المستشرقين تشويه صورة عماد الدين زنكي.

* إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

8 ـ مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرها:

إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها: رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين ـ عرباً وأكراداً وأتراكاً ـ يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام، مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية وتجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة، وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم[2]. وهذه باقة طيبة من

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 157).

(2) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 10.

الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفُرسان حتى ... ظننت البرّ بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرّياح

وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرّته عمود للصباح

صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح

فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح[1]

أ ـ القيسراني يمدح عماد الدين في فتح الرها: قال الشاعر:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نجاده

لقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس، وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن، ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبيُ ... سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وذاد قسيمُ الدّولة ابنُ قسيمها ... عن الله ما لا يُستطاعُ ذيادة

لِيَهْنِ بي الإيمان أمنٌ ترفّعَتْ ... رواسيه عزًّا واطمأنّ مهادة

وفتحٌ حديثٌ في السماع حديثه ... سهيٌ إلى يومِ المَعَادِ مُعَاده

أراح قلوباً طِرْن من وُكُناتِها ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُه

لقد كان في فتح الرُّها دلالة ... على غير ما عند العُلُوجِ اعتقاده

يُرَجُّون ميلاد ابن مريم نصرة ... ولم يُغنِ عند القوم عنهم ولاده

مدينة إفك مُنذ خمسين حِجَّة ... يفِلُّ حديد الهند عنها حداده

تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها ... ترقت إليه خان طرْفاً سواده

وجامحةٌ عزَّ الملوكَ قِيادُها ... إلى أن ثناها من يعزُّ قياده

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 139).

فأوسعها حرُّ القِراع مُؤيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدادة
كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حوله ... شرارٌ ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين: حرباً وخدعة ... فما راع إلا سورُها وانهدادُه
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتماً سفاده[1]
فيما ظَفَراً عمّا البلاد صلاحه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فساده
فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدَّ وثاقه ... ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صِفاده
ولا مِنبرٌ إلا ترنّحَ عُوده ... ولا مصحف إلا أنار مداده
فإن يشكل الإبرنز فيها حياته ... وإلا فقل للنجم كيف سُهادُه
وباتت سرايا القمص تقمص دونها ... كما يتترى عن حريق جراده
إلى أين يا أسرى الضّلالة بعدها ... لقد ذلَّ غاويكم وعزَّ رشاده
رُوَيْدكُمُ لا مانع من مُظفَّر ... يعانِدُ أسباب القضاء عِنادُه
مُصيبُ سهام الرأي لو أن عَزْمَهُ ... رمى سَدَّ ذي القرنين أصمى سَدادُه
وقل لملوك الكُفر سُلِّم بعدها ... ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصُّبح أيتها الدُّجى ... فيا ظالماً غال الظلام امتدادُه
ومن كان أملاك السَّمواتِ جنده ... فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماءُ سيحان ورده ... وروضة قسطنطينية مستراده[2]

وله قصيدة هنّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزُوري أوّلُها: «هي جنة المأوى فهل من خاطب» يقول فيها:

إن الصّفائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشِّراً بتمامه ... كالفجر في صدر النَّهار الآيب
لله أيّة وقفة بدرية ... نُصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفرٌ كمال الدين كنت لقاحَه ... كم ناهض بالحرب غير محارب

(1) في رواية : نفاده.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 143).

وأمدكم جيشُ الملائك نصرةً ... بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تم ريح الصبا ... جندُ النبوة هل لها من غالب
أترى الرُّها الورهاء[1] يوم تمنعت ... ظنت وجوب السورِ سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها ... ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدًا إلى أرض الفرنجة بعدها ... إن الدُّرُوبَ على الطريق اللأحب
أفغرّكم والثأرُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لحظ الطُّالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه ... دون الفريسة فهو عينُ الواثب [2]

ب ـ ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرها:

صفاتُ مجدِكَ لفظ جلّ معناه ... فلا استردَّ الذي أعطاكه الله
يا صارماً بيمين قائمُهُ ... وفي أعالي أعادي الله حَدّاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيهٍ إذ الأملاكُ أشباه
فداك من حاولت مسعاك هِمتُهُ ... جهلاً وقصَّرَ عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي ألا موتوا به عمداً ... فالله خيّبكم والله أعطاه
مَلْكٌ تنام عن الفحشاء هِمتُهُ ... تقى وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يسمك والأيام تخدمه ... فيما ابتلاه وتُدْني ما توخّاه
حتى تعالت عن الشّعْري مشاعره ... قدراً وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس عن فتح أُتيح له ... مظلٌ أنف الدّنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه، أرج ... مقطوبة بفتيق المِسْك ريّاه
فتحٌ أعاد على الإسلام بَهجَتهُ ... فافترّ مبسمُه واهتزّ عِطفَاه
يُهْدَى بمتعصم بالله فتكته ... حَديثها نَسَخ الماضي وأنساه
إن الرُّها غير عمُّوريةٍ وكذا ... مَن رامها ليس مَغْزًا، كمغزاه

---

(1) الورهاء: الخرقاء.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 144).

أخذت الكواكب عِزًّا ما بغى أحدٌ ... من الملوك لها وَقْماً[1] فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ... رأيٌ يبيتُ قُوَيْقَ النجم مسراه
مشمّراً وبنو الإسلام في شُغلٍ ... عن بَدْءِ غرْس لهم أثمار عقباه
يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادبُه ... وعامر الجُودِ لما مخّ[2] معناه
يا نعمة الله يستضفي المزيد بها ... للشاكرين ويستقني صفاياه
أبقاك للدين والدُنيا تحوطُهما ... من لم يُتوِّجك هذا التاج إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيا مِلكاً ألقى على الشّرك كلكلاً ... أناخ على أماته كَلْكَلُ الثُكل[3]
جمعت إلى فتح الرُها سدّ بابه ... بجمعك بين النهب والأسْر والقتل
هو الفتحُ أنس كلّ فتح حديثه ... وتوّجَ مسطورَ الرّواية والنقل
فضضت به نقش الخواتمِ بعده ... جُزيتَ جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجردت للإسلام دون ملوكه ... تُبتّكُ أسباب المذلّةِ والخذل
أخو الحرب غَذْتُهُ القراع مفطّماً ... يشوب بإقدام الفتى حُنْكَة الكهل

وقال أيضاً:

بعماد الدين أضحت عروة الدين ... معصوباً بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدّولة ... القسم في ادحاض كيد المارقين
ملك أسهر عيناً لم يزل ... همُّها تشديد هَمّ الرّاقدين
لاخَلْت من كَحَل النصر فقد ... فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كلّ يوم مرّ من أيامه ... فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الرّاوون بل ما سطّروا ... مثل ما خَطّتْ له أيدي السنين

---

(1) وقماً : أي ذلاً.

(2) مخ : خلق ودرس.

(3) أماته : مفردها أم والجمع أمات أو المهات.

إذ أناخ الشرك في أكنافه ... بمثني ألف تلاها بمثين

وقعة طاحت بكلب الروم من ... قطعه التِّين إلى قطع الوتين[1]

إن حمت مصر فقد قام لها ... واضح البرهان أن الصِّين صينْ

والرُّها لو لم تكن إلا الرُّها ... لَكَفَتْ حسماً لشك الممُترين

درج الدّهر عليها مُعصِراً ... لم تدنس بمرام اللاّ مسين

هَمَّ قسطنطين أن يَفرَعَها ... ومضى لم يَحوِ منها قِسْطَ طين

ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها ... فتحلّى الحين وسما في الجبين

هي أخت النجم إلا أنها ... منه كالنجم لرأي المبصرين

مُنِيَتْ منه بليث قائدٍ ... بعران[2] الذُّلّ أساد العرين

زارها يزأرُ في أسد وغى ... تبدل الأسد في الزأر الأنين

صولجوا البيضَ[3] بضرب نثر ... الهام في ساحاتها نثر الكُرِيْن[4]

يا لها هَمَّةُ ثغرٍ أضحكت ... من بني القُلْفِ[5] ثغور الشّامتين

بَرْنَسَتْ رأسَ برنسٍ ذِلّةً ... بعدما جاست حوايا جوسلين

وسروج مُذ وعت أسراجه ... فَرَّقَتْ جُمّاعها عنها عِضين

تلك أقفال رماها الله من ... عزمه الماضي بخير الفاتحين

شامَ منه الشامُ برقاً ودْقُه[6] ... مؤمنُ الخوف مخيفُ الآمنين

كم كنيس كُنِسَتْ آرامها ... منه بعد الروح في ظل السُّفين

إلى أن قال:

---

(1) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(2) العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.

(3) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

(4) مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصلوجان.

(5) القُلْف: أي الذين لم يختنوا ويعني الصليبيين.

(6) ودقة: مطرة.

همة تمسي وتضحي عزمةً ليس حصن إن نحته بحصين
قل لقوم غرّهم إمهاله ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من فر منه فشجاً للغافلين
وهو يُحيي مُمسكي عُروته إنها حبل لمن تاب متين
من يطع ينج ومن يعص يكن من غداة عبرة للآخرين
أقسم الجد بأن تبقى لكي تملك الأرض يميناً لا يمين[1]
وتفيض العدل في أقطارها منسياً مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارُك كيف انتقلت كعبة محفوفة بالطائفين
كل يوم يتحلى جُيدها من نظيم المدح بالدُّرِّ الثمين
كلما أُخلص فيها دعوةٌ لك قالت ألسُنُ الخلْقِ أمين[2]

9 ـ الأحداث العسكرية بعد فتح الرها:

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة[3]، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى[4]، وجعل لا يمرّ بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلّم إليه في الحال[5]، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها: إلا أن صليبيي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام

---

(1) لا يمين : لا يكذب.
(2) كتاب الروضتين (1/ 149).
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 156.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 280، عماد الدين زنكي، ص: 156.
(5) المصدر نفسه، ص: 157.

الدين تمرتاش الأرتقي وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات[1]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز[2] واستطاع نور الدين محمود ـ فيما بعد ـ اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود[3].

10 ـ من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه ـ بالتالي ـ من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والانسحاب السريع، لا سيما في فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، **أولها**: إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، **وثانيها**: إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه ـ هذه الحروب ـ من قتل وأسر ونهب وتخريب، **وثالث** تلك النتائج: قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين[4]، وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم، وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان: أيتكين ولجة التركي والياروق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم، وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع

---

(1) مفرج الكروب (1/ 96)، عماد الدين زنكي، ص: 157.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 157.

(3) المصدر نفسه، ص: 157.

(4) المصدر نفسه، ص: 158.

وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون ـ بفضلها ـ خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم، ففي رجب من عام (524هـ) على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية[1]، وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيلهم ثم ما لبث، بعد عام واحد (526هـ) أن أوقع بصليبيي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثيراً[2]، ولم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام (527هـ) عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، إثر قيام بلدوين ملك بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً[3]، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[4]. وفي جمادى الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب[5]. وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار، وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سراياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب: فسر الناس بذلك بعد مساءتهم، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبيراً منهم، بينما وقع معظم الباقين في الأسر[6]، ثم ما لبث سوار أن قام ـ في نفس العام ـ بغارة

---

(1) مفرج الكروب (1/4)، عماد الدين زنكي، ص: 159.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 160.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 240، 241، عماد الدين زنكي، ص: 160.

(4) عماد الدين زنكي، ص: 160.

(5) المصدر نفسه، ص: 161.

(6) زبدة الحلب (2/252).

واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر[1]، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب[2].

وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام (530هـ) محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها[3]. والواقع أن ما شهدته أنطاكية، خلال عامي (529هـ، 530هـ) من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[4] الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال. وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب[5]، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، وأوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها[6] وفي عام (533هـ) هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[7]. واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامي

(1) الجزر : إحدى كور حلب، معجم البلدان (2/ 71).

(2) زبدة الحلب (2/ 254)، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 255ـ256، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(4) الحروب الصليبية، العريني (1/ 510)، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(5) عماد الدين زنكي، ص: 162، زبدة الحلب (2/ 263).

(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: عماد الدين زنكي، ص: 162.

(7) زبدة الحلب (2/ 271)، عماد الدين زنكي، ص: 162.

(534هـ ـ 535هـ). إثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده، إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن عادت من جديد في عام (536هـ) والسنين التي تلته، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم، أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب[1]، وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل[2]، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين[3]، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج ـ في العام التالي ـ للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. وتمكن جوسلين من الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها[4]، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية وفي جمادى الأولى من عام (538هـ) ـ تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة[5]، وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب[6].

وهكذا نرى بعض أساليب زنكي في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية كإمارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية

(1) زبدة الحلب (2/ 275)، عماد الدين زنكي، ص: 162.
(2) عماد الدين زنكي، ص: 163، زبدة الحلب (2/ 275).
(3) زبدة (2/ 276)، عماد الدين زنكي، ص: 163.
(4) عماد الدين زنكي.
(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 278، زبدة الحلب (2/ 277، 278).
(6) زبدة الحلب (2/ 278)، عماد الدين زنكي، ص: 163.

والتركمانية ـ مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه عام (522هـ) منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا إنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لا بد لزنكي إذن، من إخضاع هذا العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، منذُ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار **أولها**: احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء العادين وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقية، **وثانيها**: عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين مُنذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان. آنف الذكر بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف[1]، ولكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف ـ مُنذ البدء ـ أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولاستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، إنحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة.

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 165.

سادساً: حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الدين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين. هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه، وفي نفس الوقت عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لا سيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل[1]. ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي، إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين (502 ـ 507هـ) وإيلغازي وبلك الأرتقيين (512 ـ 518هـ)[2] ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل ـ وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين ـ لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق[3].

سابعاً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي، وباعثاً على

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) المصدر نفسه، ص: 166.

السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيّده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[1]، وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها[2] وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام (490هـ/ 1095م) أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى[3]، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا دعوة البابا، وخرجا كلٌ بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى[4].

1 ـ السلاجقة يقضون على الجيش الألماني:

كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام، وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقيه ـ نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً ـ وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم، ولمّا وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 171.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 94.

(3) المصدر نفسه، ص: 94.

(4) المصدر نفسه، ص: 94.

ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعرَّض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر، والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[1]، وقد حاول كونراد الثالث عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقيه، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[2]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، ظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور[3] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيىء على الحملة الصليبية الثانية[4].

2 ـ سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي:

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[5]، وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقيه، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته[6]. وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي فقد فاجأه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ودارت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر، عند ذلك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنج الجيش الصليبي من الفناء

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.

(2) المصدر نفسه، ص: 146.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 197.

(4) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.

(5) المصدر نفسه، ص: 147.

(6) المصدر نفسه، ص: 147.

الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان[1]، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفي الإمبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي[2]، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول: دمشق[3].

3 ـ الهجوم الصليبي على دمشق :

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر، أتابك الملك مجير الدين آبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم[4]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة، وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي[5]. كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية وتحليلها بعمق، ومن ثم يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية، وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام (543هـ/ 1148م)، وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام (541هـ/ 1146م)، والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام (539هـ/ 1144م)، على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 147.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 95.

(3) المصدر نفسه، ص: 95.

(4) المصدر نفسه، ص: 96.

(5) المصدر نفسه، ص: 96.

المسلمين في المنطقة، وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة التي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين[1] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق[2].

لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى والحالي في الحملة الثانية والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح ﷺ من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب، كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها؛ لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه، كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وأنهم لا يميِّزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين، فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لا بد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له كحلب تماماً، وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيس في فشل الهجوم الصليبي على دمشق، وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس:

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان، ص: 523.

(2) نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، ص: 212 – 213.

الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الإستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار[1].

4 ـ موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية:

أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها ـ في يد عماد الدين زنكي سنة (539هـ/ 1144م) يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوف وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة بالمسؤولين عن إمارة أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث (540هـ ـ 548هـ/ 1145 ـ1153م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة، فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين، وبادر البابا يوجنيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات، ولما لم يبد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد ـ رئيس دير كليرفو ـ الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة ـ على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رانسيمان ـ فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجنيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى[2]، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال (540هـ/ مارس 1146م) يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلباناً، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة[3]. وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في الناس ومدى طاعة الناس

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 151.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (2/ 407 ـ 409).

(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 254.

لهم في ذلك الوقت فيقول فيها: لقد أمرتهم، فأُطعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا يكاد يوجد رجل واحد لكل سبع نساء، ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزواجهن أحياء[1].

وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها[2]، واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها، واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق، فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره[3].

5 ـ انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية:

في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (543هـ) نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألفاً إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجّ الناس والنساء والأطفال ـ مكشوفي الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[4] وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]. وكان من أسباب الله تعالى التي جعل فيها النصر لأهل دمشق: وصول جيوش الموصل وحلب في

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 255.

(2) المصدر نفسه، ص: 255.

(3) المصدر نفسه، ص: 255.

(4) شذرات الذهب (6/ 219).

الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لا يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق، وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها[1].

قَبِلَ حكام القدس عرض معين الدين أنر؛ وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي «ملك الشرق»[2]، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، فانسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين، ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا[3].

وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيس من فشل الحملة الفرنجية الثانية «بعد حاكم دمشق» فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه الأكبر وأقوى الإمارات الفرنجية (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال[4].

(1) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 255).

(2) الباهر، ص: 89، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 96.

(3) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 96.

(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 97.

6 ـ مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق:

لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام (543هـ/ 1147م) للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبد الرحمٰن الحلحوني[1] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً، خرج راجلاً، فرآه معين الدين ـ حاكم دمشق ـ فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ شهيداً[2]. واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال[3]، ورؤي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين[4].

7 ـ ما قيل من شعر:

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَرّجْ على نَجْدٍ لعلّكَ مُنْجِدي	بنسيمها ويذكر سُعْدى مُسْعِدي
من قاتل الإفرنج ديناً غيره	والخيلُ مثل السيل عند المشهد
ردّ الأمانَ بكلِّ نَدْب باسل	ومن الجياد بُكلِّ نهد أجْرَد
ومن السيوف بكلِّ عَضْب أبيض	ومن العَجَاج بكلِّ نقع أسود
حتى لوى الإسلام تحت لوائه	وغدا بحمد من شريعة أحمد[5]

سابعاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمحضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 125.

(2) أخبار الروضتين (1/ 190).

(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 117.

(4) أخبار الروضتين (1/ 191).

(5) المصدر نفسه (1/ 193).

* **أجّجت العداء الغرب أوروبي: تجاه الإمبراطورية البيزنطية**؛ إذ أن المعاناة التي لقيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطة أكد العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طوال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

* **أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق**: فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي إستراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء، أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة تمكنهم من احتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود. لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي[1]، وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

* **عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام (539هـ/ 1144م)** وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء، بل من الآن فصاعداً سيأتي الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

* **بروز نجم نور الدين محمود**: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث[2]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفه الأمس[3].

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 184.

(2) المصدر نفسه، ص: 184.

(3) المصدر نفسه، ص: 185.

* **ضعف حكام دمشق**: والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق[1].

* **تدمير حصن العريمة**: استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى إذا صار بمحاذاة إمارة طرابلس نزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن عن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية، وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه وأسرا كل من كان فيه ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهم إلى مدينته[2]، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيىء الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي[3].

* **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين**: يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ المسيحي، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 185.
(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 97.
(3) المصدر نفسه، ص: 98.

لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية، بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي[1]. هذه هي أهم النتائج.

المبحث الرابع
فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثني عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[2]. قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل[3]. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه ـ أم إسماعيل ـ بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله ﷺ في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها[4]. فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها: الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم[5].

---

(1) السقوط، ص: 136.
(2) الدولة الفاطمية العبيدية للصّلاّبي، ص: 35.
(3) الفرق بين الفرق، ص: 62.
(4) الملل والنحل (1/ 191).
(5) المصدر نفسه (1/ 192).

وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام (296هـ/ 909م) في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبد الله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جماد الآخرة عام (296هـ)[1]، وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام (297هـ/ 910م) وانتهت ولاية أبي عبيد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[2].

1 ـ عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول:

هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليّة والجهلة[3]، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعيّ بحيث إنّ المعزّ منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غِمدِه فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبي[4]. وأما مفتي الديار الليبية رَحِمَهُ اللهُ الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة (260هـ) واختبأ في بلدة سلميّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَميّة مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[5]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه[6] ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل أفريقيا «يعني تونس»: أظهر التشيع وسب أصحاب النبي ﷺ وأزواجه حاشا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ﷺ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا[7]. وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في

---

(1) موسوعة المغرب العربي (2/ 60).

(2) المرجع السابق (2/ 70).

(3) سير أعلام النبلاء (15/ 141).

(4) المصدر نفسه (15/ 142)

(5) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: 253.

(6) الدولة الفاطمية العبيدية للصّلاّبي، ص: 47.

(7) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.

حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة[1] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسيناً الأعمى أعلن السباب في الأسواق والسب بأسجاع لقِّنها يتوصل منها إلى سب الرسول ﷺ في ألفاظ حفظها[2] مثل: العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى... وغير ذلك، والغار المقصود منه غار ثور الذي اختفى فيه الرسول ﷺ وأبو بكر ﵁ عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبي ﷺ وأبي بكر على حد سواء وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء[3]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومُثِّل به[4].

2 ـ من جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ ـ غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى أنه أنزله منزلة الإلٰه وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مُرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[5] وأما زعمهم بأنه إلٰه فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى: أحمد البلوي النحاس، يصلي إلى رقادة أيام كان عبيد الله بها، ـ وهي منه ـ إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية ـ وهي منه ـ إلى الشرق صلى إليها[6] باعتبار أنها مكة المكرمة ـ شرفها الله ـ وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنك أيها الملك الهمام ... قدوم فيه للدهر ابتسام
لقد عظمت بأرض الغرب دار ... بها الصلوات تقبل والصيام

(1) ترتيب المدارك (2/ 318).
(2) المصدر نفسه.
(3) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.
(4) المصدر نفسه، ص: 291.
(5) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 204 – 205.
(6) البيان المغرب (1/ 258، 259).

هي المهدية الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراص قصركم التثام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم فكلكم لها أبداً إمام[1]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه محمد بن البديل حيث يقول:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من أيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة[2]، ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: 65]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]، كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء[3].

ب ـ التسلط والجور وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش ـ الدالة في زعمهم ـ على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون بها[4] وكانوا يجبرون الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل وقد نفذوا حكم الإعدادم في أربعة آلاف رجل مرّة واحدة. قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر ـ سجن العبيديين ـ بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في

---

(1) البيان المغرب (1/ 221).
(2) المصدر نفسه (1/ 221).
(3) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ص: 90.
(4) جهود علماء المغرب، ص: 312.

العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح[1]. هذا عدا ما كانوا يقتلون دون سجن ويُمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ج ـ تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[2].

د ـ إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حي على خير العمل في الأذان وإسقاط صلاة التراويح[3]، بعد أن تُرِك الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصلاة في المساجد، ويا ويح من يسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروس المؤذن (ت 317هـ)، وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل[4]، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا «حي على خير العمل»: لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ (ت 359هـ)[5]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع فقد فطن لغرض العبيديين، فكان أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد، لَفِعلكُم هذا ـ وأنتم معذورون ـ خير من إخلاء المساجد[6].

---

(1) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).

(2) رياض النفوس (2/ 56).

(3) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 309.

(4) البيان المغرب (1/ 182 ـ 183).

(5) ترتيب المدارك (2/ 525 ـ 528).

(6) المصدر نفسه (2/ 526).

هـ ـ منع التجمعات: حرصت الدولة الفاطمية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[1]، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: 29].

و ـ إتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد ابن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها: ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه[2].

ز ـ منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد[3]..

ح ـ عطلوا الشرائع: وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا ضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر[4].

ط ـ إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس

---

(1) رياض النفوس (2/ 29).

(2) المصدر نفسه (2/ 423).

(3) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).

(4) رياض النفوس (2/ 504).

على الفطر قبل رؤية هلال شوال[1]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبُلى قاضي مدينة برقة، قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلى، أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أُفطر الناس، وأتقلّد إثمهم، فقال: لهذا جاء كتاب المنصور ـ وكان هذا من رأي العبيدية يفطّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنصّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فَعُلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين[2].

ي ـ **إزالة آثار خلفاء السنة**: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين، فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وجعل اسمه بدبلاً منهم، واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح[3].

ك ـ **دخول خيولهم المساجد**: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك[4].

إن المسلمين المعاصرين يقرؤون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة، ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر

(1) مدرسة القيروان (1/ 73).

(2) سير أعلام النبلاء (15/ 374).

(3) رياض النفوس (2/ 29).

(4) أيعيد التاريخ نفسه، محمد عبده، ص: 39.

الشيعي الرافضي، وبذلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا يزال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وإن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبيين رضي الله عنهم أجمعين.

3 ـ أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية:

لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثل عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر .. إلخ.

أ ـ المقاومة السلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة في مقاومة التيار الشيعي: الوسيلة السلبية، ونعني بها: المقاطعة الجماعية التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم، وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها[1]. ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر: فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان[2]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد[3]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته[4]. ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو 400هـ)[5] قام عليه فقهاء القيروان بصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم

---

(1) مقدمة حسين مؤنس على رياض النفوس، ص: 17.

(2) البيان المغرب (1/ 277).

(3) معالم الإيمان (3/ 237).

(4) معالم الإيمان (3/ 71).

(5) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 324.

وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت الحطيئة[1]:

أولـئـك قـوم إن بـنـوا أحـسـنـوا الـبـنـا وإن عـاهـدوا أوفـوا وإن عـقـدوا شـدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها، وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى صقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها[2].

ب ـ **المقاومة الجدلية**: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذابّ عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان المناظرة: الشيخ عبد الله بن التبان (371 ت)[3]، وقد اشتهر بسبب مناظرته لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة، وكان هذا الإمام ـ فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة ـ شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال[4]، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم[5]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه، وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم ولكنه أبى وقال: «شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما فارقت مذهبي»[6]، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس عن تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم[7]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب،

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 324.

(2) المصدر نفسه، ص: 324.

(3) ترتيب المدارك (2/ 517 ـ 524)، شجرة النور الزنكية (1/ 95 أ 96).

(4) أحد عمال دولة بني عبيد.

(5) معالم الإيمان (3/ 113).

(6) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 327.

(7) المصدر نفسه، ص: 327.

لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار[1]. وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية، أبو عثمان سعيد بن الحداد (302هـ) لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب قال عنه السلمي: كان فقيها صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة[2]. وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة «وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل»[3]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبيد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم[4]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إجبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال: قد أربيت عن التسعين، ومالي في العيش حاجة، ولا بد لي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك عذراً، ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة[5]، ومن أشهر هذه المناظرات:

* التفاضل بين أبي بكر وعلي ﷺ: وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي ﷺ فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرَهم ـ؟ يعني بأصحاب الكساء: محمداً ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، ويعني بغيرهم: أبا بكر ﷺ، فقال أبو عثمان: أيما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل ﷺ؟ أو اثنان الله ثالثهما؟[6] فبهت الشيعي.

* موالاة علي ﷺ: في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[7]. بمعنى العبودية: قال له: فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا؟ فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا

(1) معالم الإيمان (3/ 91).
(2) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 328.
(3) طبقات الخشني، ص: 199، معالم الإيمان (2/ 209).
(4) رياض النفوس (2/ 75).
(5) معالم الإيمان (2/ 298)، جهود علماء المغرب، ص: 329.
(6) سنن الترمذي، وتحفة الأحوذي رقم 3797، حسن غريب.
(7) المصدر نفسه.

عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: 79-80] فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي ﷺ لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ﷺ[1].

هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج ـ المقاومة المسلحة: لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك[2]. واستدل بقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت 309هـ) الذي كان من أوائل من خرج على العبيديين ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى أبا عبد الله السدري الذي كان من الصالحين، وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيده الله، فأمر بقتله[3].

ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية، وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة، قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمٰن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع شيوخ أفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول ـ ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد ـ: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة ـ يريد عسكر بني عبيد ـ فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من «هو» على غير القبلة ـ فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله ﷻ يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان نصروان وأبو إسحاق السبائي وأبو الفضل وأبو سليمان ربيع بن القطان[4] وغيرهم كثير[5]. وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد،

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 331.
(2) معالم الإيمان (2/ 185) جهود علماء المغرب، ص: 337.
(3) رياض النفوس (2/ 169 ـ 172).
(4) الدولة الفاطمية العبيدية، للصّلاّبي، ص: 78.
(5) المصدر نفسه، ص: 78.

ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم حرج، وكان ربيع القطان من طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك[1].

وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاء حسناً، وقدموا صوراً حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: إذا التقيتم مع القوم فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم[2]. وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة: الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء الله فيتبعونه[3] فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم 30 محرم سنة (336هـ)[4]، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم وسلبوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذاري في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورَهم وأموالهم[5]، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وإلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في أفريقية إلا من اختفى[6]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من البدع.

---

(1) معالم الإيمان (3/ 37 أ 42).

(2) البيان المغرب (1/ 218).

(3) المصدر نفسه (1/ 218).

(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 344.

(5) البيان المغرب (1/ 268).

(6) ترتيب المدارك (2/ 625).

د ـ المقاومة عبر التأليف: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

ـ المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل التي تتناولها: مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة، والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم، فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب[1].

ـ والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم: وهذا النوع من التأليف ـ كما سبق الحديث عنه ـ جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم، من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابيْ: «الإمامة» اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[2]، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة[3].

هـ ـ مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 349.
(2) المصدر نفسه، ص: 349.
(3) المصدر نفسه، ص: 349.

رغبوا عن الصديق والفاروق في ... أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابحاً ... وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
أمن اليهود ؟ أم النصارى ؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابئين أم من عصبة ... عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما
أم هم زنادقة معطلة رأوا ... أن لا عذاب غداً ولا تنعيما
أم عصبة ثنوية قد عظموا ... النورين عن ظلماتهم تعظيما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم ... وبشركهم حقباً وكان رحيما
يا رب فالعنهم ولقهم ... بأبي يزيد من العذاب أليما[1]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عجبت لفتنة أعمت وعمت ... يقوم بها دعي أو كفورُ
تزلزلت المدائن والبوادي ... لها وتلونت منها الدهور
وضاقت كل أرض ذات عرض ... ولم تغن المعاقل والقصور
فنجى القيروان وساكنيها ... إله دافع عنها قدير
أحاط بأهلها علماً وخبراً ... وميز ما اكتنه الصدور
وجللهم بعافية وأمن ... وأسبل فوقها ستر ستير
وأثبت جلة العلماء فيها ... بحار لا تعد ولا بحور
ومنها سادة العلماء قدماً ... إذا عدوا وليس لها نظير
وفيها القوم عباد خيارا ... فقد طاب الأوائل والأخير
هم افتكوا سبايا كل أرض ... وقادوا ما استبد به المغير
كفيناهم عظائمها جميعاً ... فزالت عنهم تلك الشرور
وسكّنا قلوباً خافقات ... أمات عروقها ضر ضرير

(1) رياض النفوس (2/ 494، 495).

وآوينا وآسينا وكنا ... لهم أهلاً وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعاماً ... هناك ودُورنا للقوم دور
وكان لنا ثواب الله ذُخراً ... وقام بشكرنا منهم شكور
ولولا القيروان وساكنوها ... لغاب طعامهم والمخ[1] ريرُ
وليس لنا كما لهم حصون ... ولا جبل أعاليه وعور
ولا سور أحاط بنا ولكن ... لنا من حفظ رب العرش سُورُ
ولا نأوي إلى بحر وإنا ... إذا قضى القضا تُنحَى البحُورُ
ولكنا إلى القرآن نأوي ... وفي إيماننا البيض الذكور
عقائق كالبوارق مرهفات ... بها تحمي الحرائم والثغور
وسُمر في أعاليهن شهب ... بها ظمأ مواردها النحور

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن ... نحب إذا تشعبت الأمور
رسول الله والصديق حبا ... به ترجى السعادة والحبور
وبعدهما نحب القوم طُرًا ... وما اختلفوا فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي ... محمد البشير لنا النذير
سأهدي ما حييت له ثناء ... مع الركبان ينجد أو يغور[2]

4 ـ المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر:

كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة (355هـ) اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة واختار جوهر الصقلي قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن

(1) رياض النفوس (2/ 493).
(2) المصدر نفسه (2/ 494).

يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الأفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية، وفي جمادى الآخرة سنة (358هـ) استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة (361هـ) ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني، وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال أفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها، فأسند زعامة الشمال الأفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري وضم المعز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة، وكان معه شاعره ـ الذي غالى في مدح المعز ـ محمد بن هانئ الأندلس الذي قال:

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار

ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

هذا الذي تجدي شفاعته غداً ... حقًا وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون

فارزق عبادك فضل شفاعة ... وأقرب بهم زُلفى فأنت مكين

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحا

أقسمت لولا أن دُعيت خليفة ... لدُعيت من بعد المسيح مسيحا

شهدت بمفخرك السموات العلا ... وتنزل القرآن فيك مديحا

ومنه:

وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يؤت في الملكوت ميكائيلا

لو كان آتى الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في عام (362هـ) وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة (362هـ) وهو في الثانية والأربعين من عمره، ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة، وتأسف المعز على قتله، وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[1]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة (362هـ) واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وامتد ملك المعز من سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة (365هـ) ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[2].

قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويَه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه، وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَس فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن[3].

5 ـ زوال الدولة الفاطمية من شمال أفريقيا:

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثّروا في بعض الوزراء والأمراء ـ الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة ـ واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز أفريقية في ذي الحجة سنة (406هـ)، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني، واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الأفريقي، وقد وصف الذهبي المعز باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وشجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بأفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع

(1) الفتح العربي في ليبيا، ص: 362.
(2) المصدر نفسه، ص: 362.
(3) سير أعلام النبلاء (15/ 113، 114).

طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آباءك وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم[2]، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام (435هـ) عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبِّ أصحاب رسول الله ﷺ، فأوعز للعامة وللجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الأفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الأفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه، وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض ... كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغتباط وجذل

أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقاً في الملاعين السفل

وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول[3]

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية، وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وحرم أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها 145 سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85] وقضى المعز بن

(1) سير أعلام النبلاء (18/ 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي، ص: 289.

(3) المصدر نفسه، ص: 289.

باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية. وفي سنة (443هـ) انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته: أبو الحسن المتوفى عام (432هـ)[1].

6 ـ جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني:

كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق، ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة (425هـ)، فاستجاب لهم كثير من الناس[2]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي: المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعُرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية، وقد استطاع البساسيري أن يستولي على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد، وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي، فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد ـ الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر[3]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي ـ صاحب حديثة ـ بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعترافه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام[4]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه[5]، وأنفذها إلى

---

(1) تاريخ الفتح العربي، ص: 290، 291.

(2) دولة السلاجقة، للصَّلاَّبي، ص: 54.

(3) أخبار الدول المنقطعة (3/ 430).

(4) الخطط للمقريزي (1/ 439).

(5) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.

الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة وجمع العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ ـ الشيعة ـ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السِّجلات والكتب الحكيمة وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحيّ على خير العمل، وأُذّن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعُات والجماعات، وخطب ببغداد للخليفة الفاطمي، وضربت له السّكة على الذهب والفضة وحُوصرات دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المُسْلمة، ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً وأعتقله مهاناً عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنَّفائس والدِّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُعدُّ ولا يُوصف، وفي يوم عيد الأضحى في سنة (450هـ) ألبس البساسيري الخطباء والمؤذّنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بحيّ على خير العمل، وانتقم البساسيريُّ من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرّق خلقاً ممّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا، ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً[1]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلْقان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه ـ وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان ـ وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26] فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلّق بكلّوب في شدقيه ورُفع إلى الخشبة حيًّا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً[2]. من الخصائص النفسية الشيعية الرافضية الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف، ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام، وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكّن لدولته، ولما قضى على الفتن كرّ بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره، واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية

(1) البداية والنهاية (15/ 759).

(2) دولة السلاجقة، للصَّلاّبي، ص: 82.

السنية من جديد، وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي». وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية[1] ودعاتهم بالحزم والشدة فتعقبوا دعاة الفاطمية ـ الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس ـ كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي على دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم[2].

7 ـ المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام (455هـ) فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح على المدى البعيد إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان[3] فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم في عام (378هـ)[4].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة[5]، لذلك كله فكر نظام

(1) دولة السلاجقة، للصّلاّبي، ص: 68.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) المصدر نفسه، ص: 291.
(4) المصدر نفسه، ص: 291.
(5) التاريخ السياسي والفكري، ص: 179.

الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومع ذلك رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً[1]، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنه الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة[2].

وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قلّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز أبادي المتوفى سنة (817هـ) حيث زالت في نهاية القرن التاسع الهجري[3] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي، وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء وهي من أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر وبلغوا الشمال الأفريقي ودعموا الوجود السني بها، ولقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك، فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون إلى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف، ونشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة، وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي ـ أول مدرس بنظامية بغداد ـ بقوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي[4]، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان من أبرز آثارها أيضاً: تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة[5]. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 179.
(2) المصدر نفسه، ص: 179.
(3) نظام الملك، ص: 401.
(4) طبقات الشافعية (3/ 89).
(5) دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، ص: 203.

أنشئت النظاميات، وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة، في تلك المرحلة، كالشام ومصر وغيرها[1].

إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها، فهل نستلهم الدروس ونستخرج العبر ونعمل بالسنن والقوانين الإلهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني وعلماء المغاربة الأفذاذ في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة، وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

8 ـ جهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة الباطنية:

كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني وهذا الأمر لم يكن بالأمر السهل، بل كان نتيجة لجهود مضنية وتضحيات رائعة وتكاتف للجهود، وقد كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية، إذ يذكر هو: أنه ألف في ذلك كتباً عدة أشهرها: فضائح الباطنية الذي كلف بتأليفه في (487هـ) من قبل الخليفة المستظهر[2]، على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع، وهددوا أمن الناس وسلامتهم، وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع، فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين، وعلى رأسهم نظام الملك نفسه، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة ـ مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبه في الدفاع عن الإسلام الحقيقي[3]، وهذا شيء جميل لما تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر

(1) دولة السلاجقة للصَّلاّبي، ص: 304.

(2) المصدر نفسه، ص: 380.

(3) رجال الفكر والدعوة (1/ 204) الغزالي للقرضاوي، ص: 57.

والنفوذ الشيعي الباطني، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت ـ كما يقول الأستاذ الندوي ـ أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور[1]، وأما الباطنية فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي، وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: **ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام**[2]، ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[3]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، أو بعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة ولذلك تركوهم يعبثون بعقائد الأمة ومقدساتها، وساهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم؟

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي ابن السلار السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل

---

(1) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، ص: 147.

(2) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص: 60.

(3) المصدر نفسه، ص: 62.

شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته[1]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام (546هـ/ 1151م) أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية وبلغ ذلك وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيّاً، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسِّلَفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف وجبروت[2]. وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن رزيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأتِ بعد، وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك مساجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حدُّه ... ولا حَكَّمت فيه الليالي الغواشُم
تجهز إلى أرض العدوّ ولا تهن ... وتُظهر فتوراً إن مضت منك حازم[3]

ومنها ما كتبه إلى أسامة بن منقذ:

يا سَيِّداً يسمو بهمَّته ... إلى الرُّتب العليَّة
فينال منها حين يُحرم ... غيره أوفى مزيَّه
أنت الصديق وإن بعدت ... وصاحب الشِّيَم الرَّضية
نُنبيك أن جيوشنا ... فعلت فِعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من ... أبطالها مئتا سَرِيَّة

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 83.
(2) اتعاظ الحنفا (3/ 202).
(3) سير أعلام النبلاء (20/ 282).

فتُغيرُ هذي بُكرةً ... وتُعاوِدُ الأخرى عَشِيَّة
فالويل منها للفرنج ... فقد لقوا جهد البَليَّة
جاءت رؤوسهُم تلوح ... على رؤوس السَّمهريَّة
وقلائع قد قُسِّمَتْ ... بين الجنود على السَّويَّة
وخلائقٌ كثرت من ... الأسرى تقادُ إلى المنية
فانهض فقد أنبيت مجد ... الدين بالحال الجليَّة
وألمم بنور الدين وأعلمه ... بهاتيك القضيَّة
فهو الذي ما زال يخلص ... منه أفعالاً ونيَّة
ويُبيدُ جمع الكفر بالبيض ... الرِّقاق المشرفية
فعساه ينهض نهضة ... يفني بها تلك البقيَّة
إما لنُصرة دينه ... أو ملكه أو للحميَّة[1]

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قل لابن منقذ الذي ... قد حاز في الفضل الكمالا
فلذلك قد أضحى الأنام ... على مكارمه عِيالا
كم قد بعثنا نحوك ... الأشعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين رامت ... من محاسنك الوِصالا
هلّا بَذَلْتَ لنا مقالاً ... حين لم تبذُل فعالا
مع أننا نُوليك صبراً ... في المودة واحتمالا
ونبثُّك الأخبار إن ... أصخت قصاراً أو طِوالا
سارت سَراياك لقصد ... الشام تعتسف الرِّمالا
تُزجي إلى الأعداء ... جُرد الخيل أتباعاً توالى[2]

إلى أن قال:

(1) أخبار الدولتين (1/ 366).
(2) كتاب الروضتين (1/ 368).

فلو أنّ نور الدين ... يجعل فعلنا فيهم مثالا

وَيُسَيِّرُ الأجناد جهراً ... كي يُنازِلَهم نِزالا

ووفى لنا ولأهل دولته ... بما قد كان قالا

لرأيت للإفرنج طُرًّا ... في معاقلها اعتقالا

وتجهّزوا للسّير نحو ... الغرب أو قصدوا الشّمالا

وإذا أبى إلّا اطّراحاً ... للنصيحة واعتزالا

عُدنا بتسليم الأمور ... لحكم خالقنا تعالى[1]

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يا أشرف الوزراء أخلاقاً ... وأكرمهم فعالا

نَبَّهْتَ عبداً طالما ... نَبَّهْتَه قدراً وحالا

وَعَتَبْتَه فأنلته ... فخراً ومجداً لن يُنالا

لكن ذاك العَتْبَ يُشْعلُ ... في جوانحه اشتعالا

إلى أن قال:

واشدُد يديك بودّ ... نور الدين والقَ به الرّجالا

فهو المحامي عن بلاد ... الشام جمعاً أن تُذالا

ومُبيدُ أملاكِ الفرنج ... وجمعهم حالاً فحالا

مَلِكٌ يتيه الدهرُ ... والدنيا بدولته اختيالا

جمع الخِلال الصّالحات ... فلم يَدَع منها جلالا

فإذا بدا للناظرين ... رأت عيونهم الكمالا

فبقيتما للمسلمين ... جميعاً وللدُّنيا جمالا[2]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات

(1) كتاب الروضتين (1/ 369).

(2) المصدر نفسه (1/ 370).

الدبلوماسية وقد وصلت في (552هـ/ 1157م) سفارة من جانب نور الدين وتكرر نفس الأمر في العام التالي أي (553هـ/ 1158م) وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[1] ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام (554هـ/ 1159م) ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام (555هـ/ 1160م) بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أدركوا أكثر من ذي قبل خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[2].

1 ـ دوافع فتح مصر عند نور الدين:

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة، وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين[3] ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر ما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاؤون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد. ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده «ضرغام» ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 84.

(2) المصدر نفسه، ص: 84.

(3) الجهاد والتجديد، ص: 195.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام (549هـ) شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر[1].

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية: العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم[2]. فكان لا بد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام[3].

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام (559هـ) الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين[4]. لكن نور الدين كان متردداً متريثاً: يقدم إلى هذا العرض رجلاً ويؤخر أخرى، حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمة ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي[5] ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر منذ عام (559هـ حتى 564هـ) بقيادة أسد الدين شيركوه[6].

2 ـ الحملة النورية الأولى: 559هـ:

قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

* الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمّها، وبخاصة أن شاور وعده

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 196.

(2) المصدر نفسه، ص: 197.

(3) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص: 13.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 198.

(5) المصدر نفسه، ص: 198.

(6) الجهاد والتجديد، ص: 198.

إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

* إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق[1]، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر، وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الآخرة 559هـ/ شهر نيسان 1164م بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، وسار على الطريق المحدَّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[2] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[3].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى: ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارد أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 328.

(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 76.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 329.

من قوة، لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة، وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة ـ المزعوم ـ في شهر رجب 559هـ/ شهر حزيران 1164م كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[1].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها ـ من المكر والخداع ـ ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود، بل سرعان ما ظهرت عليه أمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، ولكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية[2]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن :

* يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

* يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

* يتكفّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[3]. وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار ومحاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة، ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحّب بها، وبذلك لم يضع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء فكل ما يعنيه هو دخول مصر[4].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 329.

(2) الباهر، ص: 121، 122، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.

(4) المصدر نفسه، ص: 330.

3 ـ حملة عموري الثانية على مصر:

فشلت حملت عموري الأول على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس، وكانت في عام (558هـ/ 1163م) وعندما أتيحت الفرصة مرّة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنَّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهيمند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[1]، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام (559هـ/ شهر آب عام (1164م) واتصل فور وصوله إلى فاقوس[2] بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[3]، وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ ـ وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة فقد تلقّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرُّض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاذ فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد، وأن الوضع العسكري ليس في صالحه لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[4]. وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[5]. وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء، كما تخلَّص من ضرغام، وأضحى طوال

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.

(2) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى، الحموي (4/ 232).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.

(4) المصدر نفسه، ص: 331.

(5) المصدر نفسه، ص: 331.

العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكِّم في مقاليد البلاد[1]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر تحت تصرف نور الدين محمود وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها، وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها[2].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام، وارتفع شأنه في العالم الإسلامي وأصبح من القوى الإقليمية الكبرى في المنطقة، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم[3]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر، وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجِّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلِّصه منه[4].

4 ـ الحملة النورية الثانية:

أعدّ نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام (562هـ/ شهر كانون الثاني عام 1167م) بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء[5]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[6]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[7]، وسار أفراد الحملة في طريق

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 332.

(2) المصدر نفسه، ص: 332.

(3) المصدر نفسه، ص: 332.

(4) النجوم الزاهرة (5/ 348).

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.

(6) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 13).

(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.

محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيِّروا طريق سيرهم أحياناً للتخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد ،وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر. وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[1] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء[2] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر (ربيع الآخر/أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[3] ثم عبر إلى الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[4].

أ ـ حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية: خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام (562هـ/ شهر كانون الثاني) عام (1167م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، وارتاع شاور من ظهوره المفاجئ وساوره القلق لعدمَ التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك

(1) مفرج الكروب (1/ 149) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الزنكيين، ص: 344.

الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[1]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على ذلك[2]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صفة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قيسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتمّ التصديق على المعاهدة[3]. وكان من الطبيعي أن يرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتبعدُ أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد[4].

ب ـ **معركة البابين**: كان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من السّلامة، لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعبور النِّيل إلى الجانب الشّرقي والعَود إلى الشّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فأين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف مع أن كل أهل البلاد عدوٌ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزغُش ـ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرّف فيها الكُفّار ؟ قال أسد

(1) وليم الصوري (2/ 896).

(2) المصدر نفسه (2/ 899)، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.

(4) المصدر نفسه، ص: 344.

الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، وهذا يبين هيبة نور الدين في قلب وقادة عسكره وجنوده، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ـ وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيهم، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلفَّ من الفرنج الذين حملوا على القلب ـ المسلمين والفرنج ـ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديّار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرِّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السّاحل[1].

ج ـ حصار الإسكندرية: ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلّمها من غير قتال؛ سلّمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدّين ابن أخيه، وعاد إلى الصّعيد وتملّكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية ـ وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم ـ وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُلح[2].

د ـ المفاوضات النورية ـ الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين تمّ عقد صلح على الأسس التالية:

---

(1) الباهر، ص: 132، 133، كتاب الروضتين (2/ 13).

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 14).

* رفع الحصار عن الإسكندرية.

* تبادل الأسرى.

* إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.

* يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.

* عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي على:

* خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

* تبادل الأسرى.

* يتعهد شاور بألا يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[1].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال/شهر آب) في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[2]. على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأنِ يطلق سراح الأسرى[3]. وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر فيها شاور، وقد علّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام (564هـ/1168م)[4].

هـ ـ الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 350.

(2) المصدر نفسه، ص: 351.

(3) تاريخ الفاطميين، ص: 494.

(4) المصدر نفسه، ص: 495.

الدين مصر في شهر (ذي القعدة/شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبِّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

* دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

* بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.

* إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم[1].

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[2]. وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري[3].

5 ـ الحملة النورية الثالثة على مصر: عام (564هـ)

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم ـ عموري ـ في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى «الفسطاط» فأمر شاور بإحراقها، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال

---

(1) تاريخ الفاطميين، ص: 495.

(2) النجوم الزاهرة (5/ 349).

(3) تاريخ الفاطميين، ص: 495.

فلم يستطع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم[1].

أ ـ العاضد يستنجد بنور الدين محمود: كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذَهُنَّ من الفرنج[2] وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

* منحه ثلث بلاد مصر.
* منح قادته الإقطاعات.
* يسمح بشيركوه بأن يقيم في مصر[3].

ب ـ أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة: قانون الفرصة: شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتين ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن يأخذ حاجته فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء[4]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي[5]، وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة[6].

ج ـ مقتل شاور: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له: والله لئن عزمت

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجهاد والتجديد، ص: 202.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجهاد والتجديد، ص: 202.
(3) تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوش، ص: 504.
(4) الجهاد والتجديد، ص: 202، رأس الماء في منطقة حوران.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجهاد والتجديد، ص: 202.
(6) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 55).

على هذا الأمر لأُعرفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه[1]، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الثاني، عام (643هـ)[2].

د ـ تولي أسد الدين الوزارة للعاضد: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من انتصارات فقال العماد:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً فقل لنا: أعليٌّ أنت أم عمر

افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ما قد فعلت، فكلٌّ فيك مفتكِر

سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ قصروا[3]

هـ ـ وفاة أسد الدين: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة (564هـ) فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[4] وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة[5]، نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين، وكان شيركوه شجاعاً بارعاً قوياً جلداً في ذات الله، شديداً على الكفار، وطاعته عظيمة، في

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 56).

(2) الجهاد والتجديد، ص: 203.

(3) كتاب الروضتين، ص: 203 ، 204.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 204.

(5) المصدر نفسه، ص: 204.

ذات الله صولته، عفيفاً ديناً، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حدباً على أقاربه وأهله، وكان فيه إمساك، وخلف مالاً كثيراً وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الأسدية الذين ساهموا في بناء الدولة الأيوبية[1].

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره اختاره العاضد، لأنه كان أصغر الأمراء سناً، ولعله يكون أكثر طواعية له، إلا أن الملك الناصر ـ كما لقبه العاضد ـ خيب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة[2] تامة، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز القوة .

1 ـ مؤامرة مؤتمن الخلافة:

جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وبدا أنّه عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة ونفّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

* استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

* أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

* قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[3]. وقد أدّت

---

(1) الموسوعة الشاملة (ج 24/ 73).

(2) المصدر نفسه، ص: 205.

(3) تاريخ الفاطميين، ص: 509، البداية والنهاية (16/ 433).

التدابير التي نفَّذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد وبالتالي مركز الإمامة وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثبت على منصب الوزارة وتتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة، وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر[1]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره[2].

2 ـ وقعة السُّودان:

وذلك أنه لما قتل الطُّواشي[3]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الخُدّام غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر ـ صلاح الدين ـ شمس الدولة تورانشاه وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليشدَّ أزره ـ أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونُودِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم، فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جدًّا، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلُوهم بباب زويلة، فأحرقها فولُّوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الفاطميين، ص: 510.

(2) البداية والنهاية (16/ 434).

(3) الطواشي: جمعه طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

السيف فقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: 52][1] ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي العاضد كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب تعرضت وهي تصفي أطراف المؤامرة لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر[2].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محطات البريد أو محطّات الاتصال بين مصر والفرنج وقد كانت هذه العيون على اتّصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة حمام الزاجل[3].

3 ـ القضاء على الأرمن:

ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء على شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد[4]، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً[5].

(1) البداية والنهاية (16/ 435).
(2) الطريق إلى القدس، ص: 91.
(3) القاضي الفاضل، عبد الرحيم البيساني، العسقلاني، ص: 130، 131.
(4) المصدر نفسه، ص: 133.
(5) المصدر نفسه.

4 ـ اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه:

أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يخْفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة (559هـ) وسنة (564هـ/ 1163م ـ 1168م) وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق[1]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة، الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها، وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألمّ بهذه القوات وعرف دخائلها واطلع على كل فرقة منها وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضن بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج، وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدّة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج، وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة (570هـ/ 1174) والبدو[2] ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط (565هـ):

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك

(1) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ص: 126.

(2) القاضي الفاضل، ص: 127.

القدس «عموري» مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف[1]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخاوف ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي، فلا يبقى لنا باقية[2]. وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم فسير إلى صلاح الدين العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية، وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم، ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليتفرغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الاستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال[3] الفرنجي. وقد قامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية، إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيؤوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي هبت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً[4].

1 ـ أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً:

أ ـ فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

* صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

* سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 207.

(2) المصدر نفسه، ص: 207.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 160.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 208.

* التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

* القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق[1].

* موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوثاً كثيرة يتبع بعضها بعضاً، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط[2].

* استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم: فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرّاقة[3] والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب ـ فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

* لقد أخّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد[4].

* إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج[5].

ج ـ فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

* عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 379.

(2) البداية والنهاية (16/ 440).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 380، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، محمود سعيد عمران، ص: 330.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 380.

(5) المصدر نفسه، ص: 380.

* اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

* افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

* تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

* انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

د ـ هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

* سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.

* سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد، فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة .

* أدى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

* عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة[1].

2 ـ نتائج الحملة على دمياط:

* بعد فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط، أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 381.

* يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً ـ في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

* بات المسلمون يهدِّدون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين[1].

* إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير من التخلص في قبضته القوية، وأضحى سيد مصر دون منازع[2].

3 ـ وصول نجم الدين أيوب مصر:

طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي[3]. وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق[4]. ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، وخرج العاضد ـ صاحب القصر ـ لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ حين قدم على ولده

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 381.

(2) المصدر نفسه، ص: 382.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 115.

(4) المصدر نفسه، ص: 116.

ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: 99]. وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 100]. ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوّض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة[1]، فحكّمه في الخزائن بأسرها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة[2] وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

من شاكر والله أعظم شاكر	ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا	حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها	عزّ القوي وذلة المغلوب
وحلوا عن الإسلام فيها كربة	لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها	وعُتقاؤهم من نازح وغريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً	وهم اللباب فأنت غير لبيب
صحت به مصر وكانت قبله	تشكو سقاماً لم يُعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره	والدهر ولّاد لكلّ عجيب
رد الإله به قضية يوسف	نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى	مصر على التدريج والترتيب[3]

وحُكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى علي وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[4]. وقد توفي نجم الدين أيوب في (568هـ) فقد ركب نجم

(1) مفرج الكروب (1/ 186).

(2) المصدر نفسه (1/ 186).

(3) عيون الروضتين (1/ 301، 302).

(4) المصدر نفسه (1/ 304).

الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النّصر وسط المحجّة يوم الإثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود[1] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه[2]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت الدّار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصّلاة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل[3] وقد رثاه عمارة اليماني فقال:

صفوُ الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ	وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ
وما يزال لسانُ الدهر يُنذِرُنا	لو أثَّرت عندنا الآيات والنُّذُرُ
فلا تَقُل غرّت الدُّنيا مطامعنا	فما مع الموت لا غش وكدر
كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها	لم ينج من شُكرها أنثى ولاَ ذَكرُ
كم شامخِ العز لاقى الذُّل من يَدِها	ما أضعف القَدْرَ إن ألوى به القَدَرُ
في كلِّ جيل وعصر من وقائعها	شعوا يقطر منها النّاب والظُّفُرُ
أودى علي وعثمان بمخلبها	ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسّي في مصيبته	فللورى برسول الله معتبرُ[4]

وقد خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري، ومن البنات: ست الشام وربيعة خاتون[5].

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 248).

(2) المصدر نفسه (2/ 252).

(3) المصدر نفسه (2/ 249).

(4) عيون الروضتين (1/ 259).

(5) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (24/ 146).

خامساً: الغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين، فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها ـ فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء ـ فاعتذر صلاح الدين بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لا سيما وإمام الوقت ـ المستنجد ـ متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[1]. وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث أن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة، وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض[2]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك . . يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد[3]. ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي، واتفاق منه، صلاح الدين، وفقه الله فأنا شاكر له كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم[4]. فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم، وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبي طيئ الرافضي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

1 ـ التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي:

استفاد صلاح الدين من الرجل الفذ الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 209.

(2) الجهاد والتجديد، ص: 215.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 215.

(4) المصدر نفسه، ص: 215.

خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة (565هـ/ 1169م) أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة[1]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة (565هـ/ 1169 1170م) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك[2]. وولّى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السنية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة، وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة، منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم[3].

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهمّ والمرض[4]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد[5]. وفي بداية سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم (567هـ/ 1171 ـ 1172م) حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله: وقطعت الخطبة

---

(1) المقريزي (اتعاظ) (3/ 317)، القاضي الفاضل، ص: 137.

(2) القاضي الفاضل، ص: 137.

(3) الخطط للمقريزي، نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي، ص: 161.

(4) صلاح الدين الأيوبي ، قدري قلعجي، ص: 162.

(5) المصدر نفسه، ص: 162.

للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية[1]. والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي[2] وقد توفي العاضد في العاشر من محرم (567هـ/ 1171 ـ 1172م)[3] ويقال: إن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت[4]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه ومستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية[5].

2 ـ وفاة العاضد عام (567هـ):

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة: القاطع، قال رسول الله ﷺ عن مكة: **«لا يعضد شجرها»** أي: لا يقطع، فيه قطعت دولتهم، واسمه: عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوّل ملوكهم، وكان مولد العاضد في سنة سِتٍّ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلّ من قدر عليه من أهل السنة لفعل[6].

3 ـ فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية:

ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذه الأوانِ، وذلك مائتا سنة وثماني سنين[7]. وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني:

---

(1) القاضي الفاضل، ص: 137.

(2) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 59.

(3) القاضي الفاضل، ص: 139.

(4) المصدر نفسه، ص: 139.

(5) المصدر نفسه، ص: 139.

(6) البداية والنهاية (16/ 451).

(7) المصدر نفسه (16/ 450).

توفي العاضد الدعي فما يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا يوسفها في الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً بها وعقد السداد منتظما
لما غدا مشعراً شعار بني العباس حقًّا والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ومن دعاة الأشراك منتقما
وظل أهل الضُّلال في ظلل داحية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون في ظُلم لما أضاءت منابر العُلما
وعاد بالمستضيء ممتهداً بناء حقٍّ قد كان منهدِما
واعتلَّت الدّولة التي اضطهدت وانتصر الدين بعدما اهتُضما
واهتزَّ عطف الإسلام من جَذَلٍ وافترَّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهُدى فرحاً فليقرعِ الكُفْر سِنَّهُ نَدما
عاد حريمُ الأعداءِ منتهك الحمى وفيءُ الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سَمَا
أزعج بعد السُّكون ساكنها ومات ذُلّا وأنفه رَغَمَا[1]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الباطنيين.

4 ـ اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر:

كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا، كأمس الذاهب وكأن لم

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 195).

يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم: المهديّ وكان من أهل سَلَمْية حدّاداً اسمه سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمّى بعبيد الله، وادّعى أنّه شريف عَلوِيّ فاطميّ، وقال: إنه المهديُّ، وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكُبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاّني والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة .... والمقصود أنَّ هذا الدّعِيّ المُدَّعِي الكذّاب راج له ما افتراه في تلك البلاد وآزرَهُ جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكن إلى أن بنى مدينة سمّاها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز ـ وهو أوّل من دخل مصر منهم وبنيت له القاهرة ـ ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر مِلِكاً، ومدتهم مائتان ونيِّف وتسعين سنة ... وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلّ عندهم الصالحون من العلماء والعبّاد وكثر بأرض الشام النُّصيرية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّةَ وعسقلان وكَرَكَ الشّوبك وطبرية وبانياس وصور وعشليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية، وجميع ما وَالى ذلك إلى بلاد آياس[1] وسيس[2]، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله، وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنايته وسلّمها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين[3].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثروا في كل جوانب مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها، والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة،

(1) أياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.

(2) سيس: قاعدة بلاد الأرمن، صبح الأعشى (4/ 134).

(3) البداية والنهاية (16/ 457).

لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات[1]، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية[2].

وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل[3]، ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات: أولاهما: أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم[4]. وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح

(1) صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، ص: 168.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 282).

(3) المصدر نفسه.

(4) القاضي الفاضل، ص: 146.

الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين[1]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنمّ عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان[2].

وجاء في الكتاب الذين كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تمّت التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ويخص الكاتب بتركيز وشمول: بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم[3]:

1 ـ أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر جند مصر .. وأهل القصر الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده، ويتوقع منهم القيام بعمل ضِدّه، ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار، ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

2 ـ وأنهم كانوا ـ من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم ـ لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدَبِّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون، «وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل المطامع .. ويزينون لهم الإقدام والقدوم»[4]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمّلونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

3 ـ ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قوّاته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه، وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَوْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة، وعند ذلك تثور في القاهرة «حاشية القصر، وكافة الجند الفاطمي السابق في مصر» وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامّة

(1) المصدر نفسه، ص: 146، مفرج الكروب (1/ 244، 245).

(2) القاضي الفاضل، ص: 146.

(3) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 169.

(4) كتاب الروضتين (2/ 278).

الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته العاصمة[1]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أربكت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

4 ـ ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين، ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلّاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولًا إلى بعض الثغور، أنهض فلاناً من عنده، وبقي صلاح الدين في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة[2]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى[3].

5 ـ أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جِرْج» رسولاً إلى صلاح الدين: «ظاهراً إلينا، وباطناً إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين «الجند» في أثناء هذه المُدَد رسُل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد»[4].

6 ـ كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخَلّى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة[5].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).

(2) المصدر نفسه (2/ 288).

(3) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 170.

(4) كتاب الروضتين (2/ 287).

(5) المصدر نفسه (2/ 287).

7 ـ واتصل المتآمرون في ذات الوقت «بشيخ الجبل سنان»[1]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن نُصرة[2]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم، وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة[3]، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتجأوا إلى الصليبيين[4].

8 ـ ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قدم بعدم فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من 200 سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فمُني بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم[5].

9 ـ وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها «جرْج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان «ممن لا نرتاب به من قومه «الصليبيون» يذكرون أنه رسول مخاتلة «خداع» لا رسول مجاملة» فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه، وقام «جرج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود، عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعتهم «فَدَسسْنا إليهم من طائفتهم من داخلهم»[6]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم[7].

10 ـ وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر، وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقرّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطِعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[8].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).

(2) المصدر نفسه (2/ 289).

(3) المصدر نفسه (2/ 289).

(4) المصدر نفسه (2/ 289).

(5) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 172.

(6) صلاح الدين القائد وعصره، نقلاً عن: كتاب الروضتين، ص: 172.

(7) المصدر نفسه، ص: 172.

(8) المصدر نفسه، ص: 172.

11 ـ وقد تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزّيك أو آل شاور).

12 ـ استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: «وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم»[1]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره[2].

13 ـ وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة، وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: «فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه «القصر» حبالة للضلال منصوبة، وبيعة «مقامٌ» للبدع محجوبة»[3].

14 ـ وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا، أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد[4].

15 ـ وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى: «قُديد القفاص» في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش «الحرف والصناعات» في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن[5]. كما وُجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح[6]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين ـ بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة ـ من القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان[7].

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 289).

(2) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.

(3) كتاب الروضتين (2/ 290).

(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.

(5) كتاب الروضتين (2/ 290).

(6) المصدر نفسه (2/ 290).

(7) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.

عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكميُّ المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء السنة قال الذهبي: هذا حلم من الصالح على رفضه[1].

وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين : وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخولوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان ـ كما قيل ـ صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ثم لما تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شُنق[2]، كما مرّ ذكره ـ وقد ذكر عمارة ميوله لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم في الجود أفعال سُنَّةٍ ... وإن خالفوني في اعتقاد التشيع[3]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيّع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة[4]. وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد :

أسفي على زمن الإمام العاضد ... أسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحد

جالست من وزرائه وصحبت من ... أمرائه أهل الثناء الخالد

لهفي على حُجُراتِ قصرِك إذ خَلَت ... يا ابن النبي من ازدحام الوافد

وعلى انفرادك من عساكرك الذي ... كانوا كأمواج الخِضم الرّاكد

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 594، 595).

(2) مفرج الكروب (1/ 212).

(3) سير أعلام النبلاء (20/ 596).

(4) سير أعلام النبلاء (20/ 596).

قَلَّدتَ مُؤتَمِنَ الخلافة أمرهم ... فكبا وقصّر عن صلاح الفاسد

فعسى الليالي أن تَرُدَّ إليكم ... ما عوّدتكم من جميل عَوائِدِ[1]

وله من جملة قصيدة:

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصّرت في عذلي

بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معي ... عليهما لا على صفين والجمل

وقل لأهلهما والله ما التحمت ... فيكم قُروحي ولا جُرحي بُمندمل

ماذا ترى كانتِ الإفرنج فاعلة ... في نسل آل أمير المؤمنين علي[2]

وأنا أستغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم، وتحديه للدولة السنية الجديدة في مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليمني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكي على أطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية ؟ وينخرط في عمل تآمري ضد المشروع الإسلامي المقاوم للصليبيين في بلاد الإسلام ؟ إن هذا لشيء عجاب.

ـ حصار الإسكندرية: إن أهل الإسكندرية ساهموا في نجاح المشروع السني بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمو مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديماً وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصفاء الفطرة ما يجعلهم في مصاف من يتصدى للمشروع الشيعي الرافضي الباطني والمشروع الأمريكي الغربي، وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعي الباطني والحملات الصليبية وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، حتى تمّ القضاء على المشروع الشيعي الباطني، ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يحقدون على مصر ويقولون عن أهلها: أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام فجعل الله منهم القردة أبناء مصر؛ والخنازير[3]، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 293).

(2) المصدر نفسه (2/ 295).

(3) بحار الأنوار (60/ 208) تفسير القمي، ص: 596.

أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها[1]، وقالوا: بئس البلاد مصر، أما إنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل[2]، وقالوا: انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة[3]، وجاءت عندهم عدة روايات في ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله ﷺ، وإلى محمد الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلس الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم[4]، ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر، وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر وأهلها الأحبة من وصية حبينا محمد ﷺ بأهل مصر[5]؟

وإليك أيها القارئ الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام (569هـ/ نهاية تموز 1174م) وكان الأسطول النورماندي يتكون من مئتي[6] سفينة وقيل: من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذاً للمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية[7] في مصر ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه، وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في 16 ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضي على المتآمرين في الداخل من جهة، وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل[8] وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور «وأحسنوا القتال والصبر». وكان صلاح الدين

(1) تفسير العياشي (1/ 304)، البرهان (1/ 456).

(2) المصدر نفسه (1/ 305)، المصدر نفسه (1/ 457).

(3) بحار الأنوار (60/ 211)، أصول الشيعة (2/ 900).

(4) بحار الأنوار (5/ 208).

(5) مسلم (2/ 2970).

(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 382.

(7) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص: 80.

(8) المصدر نفسه، ص: 81.

غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها: «زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله»[1]. فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير[2]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرّة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[3].

ـ **مؤامرة كنز الدولة**: ومن المؤامرات التي واجهها صلاح الدين في مصر مؤامرة قامت في أسوان وقوص وكان ذلك سنة (570هـ)، فقد جمع كنز الدولة والي أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة، يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق في جموعه أموالاً جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوي هواهم، فقتل عشرة من أمراء صلاح الدين وخرج في قرية (طود) رجل يعرف بقياس بن شادي وأخذ بلاد (قوص)، وانتهب أمواله فجهز صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف . . فسار وأوقع بشادي وبدّد جمعه وقتله ثم سار فلقي (كنز الدولة) ناحية (طود)، وكانت بينهما حروب فرّ منها كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره، ثم قتل (كنز الدولة)، وقدم الملك العادل إلى القاهرة في الثامن عشرة من صفر[4]. وهكذا استطاع صلاح الدين أن يقطع دابر الفتن، وأن يقضي على شراذم البغي والعدوان، ومدبري المكائد والمؤامرات، وينطبق عليه بحق قول الشاعر المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم … وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها … وتصغر في عين العظيم العظائم[5]

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 383.
(2) المصدر نفسه، ص: 383.
(3) المصدر نفسه، ص: 383.
(4) سيرة صلاح الدين لابن شداد، ص: 47، 48، الكامل في التاريخ، صلاح الدين، علوان، ص: 38.
(5) صلاح الدين، عبد الله علوان، ص: 38.

والبطش فحسب[1]، ولذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[2] وإليك بعض هذه الوسائل :

1 ـ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد:

بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة «الولاية» التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس[3]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[4]، ثم ما فتىء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى أن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[5]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[6].

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 56.

(2) المصدر نفسه، ص: 56.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 56.

(4) المصدر نفسه، ص: 57.

(5) المصدر نفسه، ص: 57.

(6) المصدر نفسه، ص: 57.

2 ـ وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي:

عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها «بالدولة القصرية»[1] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة ففي سنة (566هـ/ 1170م) قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين[2].

3 ـ قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به:

ما لبث صلاح الدين في سنة (567هـ/ 1171م) أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية[3]، وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس[4]، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة بإزالة الشعائر الشيعية التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم، من الأذان، وإبان إقامة الصلوات، فأبطل من الأذان قول «حي على خير العمل» واستمر الأذان في مصر على المذهب السني[5]، ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان[6]، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة ﷺ، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ولعميه حمزة والعباس ﷺ، ويأتي للخطبة لابساً السواد على

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 57.

(2) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 60، 61.

(3) المصدر نفسه، ص: 93.

(4) الخطط للمقريزي (4/ 53).

(5) الخطط للمقريزي (4/ 46)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.

(6) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.

رسم العباسية[1]. ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر في العالم[2]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ـ مع هجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي[3].

4 ـ إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية:

عمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين[4] وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين[5]، واستولى على كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط[6] وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم، وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر[7].

5 ـ ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين:

لم يغب عن فكر صلاح الدين، خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى انقراضها من مصر منذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي ـ ومنطلق

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 94.

(2) المصدر نفسه، ص: 97.

(3) المصدر نفسه، ص: 97.

(4) كتاب الروضتين (2/210) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 61.

(5) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 61.

(6) المصدر نفسه، ص: 62.

(7) المصدر نفسه، ص: 62.

عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية ـ تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم[1].

6 ـ محو رسوم الفاطمية وعملاتهم:

واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله» كما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة[2].

7 ـ الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي:

احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرّق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم[3]، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يتحفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم[4].

8 ـ إضعاف العاصمة الفاطمية:

بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم مدينة ملكية، خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر يسكنون مدينة الفسطاط[5]، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 63، 64، 65.

(2) المصدر نفسه، ص: 66.

(3) كتاب الروضتين (2/ 210).

(4) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 66.

(5) العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص: 324 – 326.

خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم[1] ولكن ما فعله صلاح الدين في سبيل الله ونصرة لنبيه ﷺ.

9 ـ إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي:

ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياءهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي ـ المزيف للخلافة الفاطمية، ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل ابن خلكان، وابن أبي شامة وابن واصل وغيرهم، وأطلقوا على الفاطميين اسم «بني عبيد» إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القدّاح المجوسي، بل نجد أبو شامة يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين[2]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه الروضتين صفحات طوال في بيان ادّعاهم للنسب النبوي الشريف[3].

10 ـ الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن:

هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتَستر، وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام (564هـ/ 1168م) واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام، وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[4].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المد الشيعي الرافضي آتت أكلها، فانقرض من مصر المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل، وهو فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه، والدرس الكبير أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية تحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الإحياء الإسلامي الصحيح

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 68.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 70.

(3) كتاب الروضتين (2/ 214 إلى 223).

(4) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 76.

والتصدي للفكر الباطني، وتربية الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبيّين وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها: استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية، وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

عام (569هـ/ 1174م) شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأتمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الإستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، منذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين[1]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس[2]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية[3]، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك «جنوب الكرك» فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين، ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة إليها لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين[4]، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام، وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ:

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، نقلاً عن: دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(4) الباهر، ص: 158، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال ـ فهو صلاح الدين ـ يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر . . لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى الإمداد بالمال والرجال والمعونة . . لقلع الكفار من بلاد الشام[1]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد[2] وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الإستراتيجية، إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع، ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقيادته، وأحس صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي[3]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: «بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما ها هنا من يمتنع عليك»[4]، وقال للجماعة كلهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر[5]، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا المعسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرِّفونه قولي وتكتب أنت إليه

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 213.

(2) الجهاد والتجديد، ص: 213.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(4) كتاب الروضتين (2/ 228).

(5) المصدر نفسه (2/ 228).

وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي ؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده[1]. وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين زنكي ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين[2].

وفي بداية عام (568/ 1173م) وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر، وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها، وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين في دمشق بدوره ليلقاه، فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها، وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[3]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[4] ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين، فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي، وقد بينت ذلك فيما مضى، وفي عام (568هـ) شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له: كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة: وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُقِدت بنصرك راية الإيمان	وبَدَت بِعَصْرِكَ آية الإحسان
يا غالب الغُلْبِ الملوك وصائد	الصيد اللُيوث وفارس الفُرسان
يا سالبَ التِّيجان من أربابها	حُزت الفخار على ذوي التِّيجان
محمود المحمود ما بين الورى	في كلِّ إقليم بكلِّ لسان
يا واحداً في الفضل غير مُشَارَكٍ	أقسمت مالك في البسيطة ثان

(1) كتاب الروضتين (2/ 229).

(2) المصدر نفسه (2/ 228).

(3) المصدر نفسه (2/ 228).

(4) المصدر نفسه (2/ 228).

أحلى أمانيك الجهاد وإنّه	لك مؤذنٌ أبداً بكلّ أمان
كم بكر فتح ولّدته ظُباك من	حَزبٍ لقمع المشركين عَوان
كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها	قد سار في الآفاق والبلدان
قمّصت قومَصهُم رداءً من ردى	وقرنت رأس برنْسِهم بسنان
وملكت رِقّ ملوكهم وتركتهم	بالذُّل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم	وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تخطمُ السُمرُ القنا	والبيض تخضبُ بالنّجيع القاني
وعلى غِناءِ المشرفية في الطُلى	والهام رَقصُ عواليَ المُرّان
وكأن بين النّقع لَمْعَ حديدها	نارٌ تألّقُ من خلال دُخان
في مأزق وردُ الوريد مُكفلُ	فيه بريّ الصّارم الظمآن
غطّى العجاج به نجوم سمائه	لتنوب عنها أنجُمُ الخُرصان
أو ما كَفاهم ذاك حتى عاودوا	طُرُق الضّلال ومركب الطُغيان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظُلمةَ كفرهم	لمّا أتيت بواضح البُرهان
وهزمتهم بالرّأي قبل لقائهم	والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً	والكُفْر منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضّلال بعزمك	الماضي وشِدت مباني الإيمان
قل أين مثلُك في الملوك مجاهدٌ	لله في سرٍّ وفي إعلان
لم تلْقهم ثقة بقوة شوكة	لكن وثقت بنصرة الرّحمن
ما زال عَزمُك مستقلاً بالذي	لا يَستقِلُ بثقله الثّقلان
وبلغت بالتّأييد أقصى مَبْلَغ	ما كان في وسْعٍ ولا إمكان
دانت لك الدُّنيا فقاصيها إذا	حقّقته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشّام إلى ذُرا	مصر إلى قُوص إلى أُسوان
لم تُلهُ عن باقي البلاد وإنما	ألهاك فرض الغزو عن هَمَذان

للرُوم والإفرنج منك مصائب ... بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت ... لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون الملوكِ وجدته ... مَلآن من عُرْفٍ ومن عرفان
في بأس عمرو في بسالة حيدر ... في نطق قُسّى في تُقَى سلمان
سِرّ لو أنّ الوحي يَنْزل أنْزلت ... في شأنها سُوَرٌ من القرآن
فاسلم طويلَ العُمْر ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلطان[1]

أ ـ ضم المغرب الأدنى:

عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرة، وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى، فقد كانت شمال إفريقة مرتبطة عضوياً بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ففي عام (568هـ/ 1173م) أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش، غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس[2].

ب ـ ضم اليمن :

يدخل ضم اليمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي[3]، وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى :

أ ـ التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان رافضياً ينتمي إلى خليفة مصر الفاطمي.

ب ـ استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية

(1) كتاب الروضتين (2/ 243، 244).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 46.
(3) تاريخ اليمن الإسلامي، د.محمد عبده السروري، ص: 211.

ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ت ـ كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعي زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي بن مهدي وتغلّب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمَّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

ج ـ أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوىء التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم[1]. ومهما يكن من أمر، فقد: وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها، كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: «ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها»، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي[2]. وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها[3]، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له[4].

ج ـ فتح بلاد النوبة:

وكانت النوبة وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي، ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من ناحية الجنوب، وأرسل أخاه تورانشاه في شهر جمادى الآخرة عام (568هـ/ شهر كانون الثاني عام 1173م) إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 48.

(2) الطريق إلى بيت المقدس، ص: 96.

(3) المصدر نفسه، ص: 96.

(4) المصدر نفسه، ص: 96.

خيل المسلمين من قبل، وعين إبراهيم الكردي والياً عليها[1]، وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تؤول دون انتشار الإسلام[2] فيها.

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طيّىء أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة (سبع وستين وخمسمائة وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين[3]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طيىء عدد من المؤرخين[4]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما يخاف صاحبه وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين وما إلى ذلك[5]، وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن طيىء وابن الأثير :

فأما ابن أبي طيىء: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أذلّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوّى أهل السنة، وكان والد أبي طيّىء من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب ولذلك نجد أن ابن أبي طيّىء كثير التحامل على نور الدين ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه[6].

وأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين[7]، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه «الكامل في التاريخ» و«الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية» قد ذكر الآراء في

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 49

(2) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، د. فرستا، ص: 52.

(3) الباهر، ص: 158، 159، كتاب الروضتين (2/ 227).

(4) نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 116.

(5) نور الدين محمود في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، ص: 117.

(6) كتاب الروضتين (2/ 117، 118).

(7) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 62.

كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء[1] كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم، وترجع الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده[2]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[3]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى، خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ[4]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

1 ـ **قال العماد الأصفهاني**: أن صلاح الدين كان: لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين[5].

2 ـ **وأما أبو شامة**: فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[6] ويؤكد أبو شامة رأيه،

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 22.

(2) المصدر نفسه، ص: 22.

(3) مرآة الزمان (8/ 327، 328) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 22.

(4) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، ص: 38 – 49.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 23.

(6) المصدر نفسه.

بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر، وإعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل[1].

3 ـ والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية[2].

4 ـ وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد[3] وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُرِّرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهما في وجه[4].

5 ـ وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة (568هـ ـ 569هـ) لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين[5].

6 ـ لقد أدركت الخلافة العباسية، هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخلع الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خلَع سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[6]، تأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

7 ـ كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 23.

(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(4) السلوك للمقريزي (1/ 45)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(5) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

(6) مفرج الكروب (1/ 219)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 25.

صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[1].

8 ـ وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمّت بتوجيه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين، فإن ضمّ صلاح الدين لليمن تمّ بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك وضم اليمن لجبهة المقاومة، بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه للخليفة العباسي، وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة وبشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[2]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: «وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النَّوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُّوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب»[3].

9 ـ ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتبعيّة، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليمني[4]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الإستراتيجي في قتال الفرنج، فيذكر أبو شامة أنه في سنة (568هـ/ 1172م): تولى السلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ «جهاد السُّلطانين للفرنج»[5]، وهذا ما أكّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، في أن يتجاذبا طرفيّ الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[6].

10 ـ ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة (569هـ/

(1) السلوك للمقريزي (1/ 47)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 26.

(2) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(3) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(4) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(5) مفرج الكروب (1/ 228)، المصدر نفسه، ص: 27.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 27.

1173م)، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه[1]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين[2]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنّه حتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين[3] وما كان صلاح الدين إلا عاملاً له على مصر، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال:

بملك مصر أهنىء مالك الأمم فثق وأبشر بنصر الله عن أمم

فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا في عقد عز من الإسلام منتظم[4]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا مسوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب، وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات ويسدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة، وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة على استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام[5]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[6].

إن صلاح الدين سار على نهج نور الدين في التمكين للمشروع السني، والقيادة في الإسلام ليست حكراً على الأسرة الزنكية ولا الأيوبية أو عائلة معينة مهما علا شأنها، ولكنّ من تقدمه أعماله ـ بعد توفيق الله له ـ ويلقى من المسلمين المحبة والتقدير والدعم والتأييد فهو المقدم، فأبو بكر ﷺ قدمته الأمة بعد نبيها وبايعته وكذلك عمر فأكمل المسيرة وسار عثمان من بعده وعلي ﷺ، فخدمة الدين والمسلمين مقدمة على كل شيء في ثقافة صلاح الدين.

عاشراً: وفاة نور الدين محمود:

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رَحِمَهُ الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح

---

(1) السلوك (1/ 55)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(3) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(5) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.

(6) زبدة الحلب (2/ 339) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.

إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أياماً. قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عـيـدان: فـطـرٌ وطُـهـرُ ... فـتـح قـريـب ونـصـر
كـلاهـمـا لـك فـيـه ... حـقـاً هـنـاء وأجـر
وفـيـهـمـا بـالـتَّـهـانـي ... رسـمٌ لـنـا مـسـتـمـر
طـهـارة طـاب مـنـهـا ... أصـل وفـرع وذكـر[1]

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاشي قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وِذكَر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص[2]، . . وفي يوم الاثنين والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب وقد جرّب الدهر بحنكته . . فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خوّاصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له: باش[3]، فأحدث الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله والنّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح[4]. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين[5]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها[6] وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة، ودفن بقلعة دمشق ثم

(1) كتاب الروضتين (2/ 308).
(2) المصدر نفسه (2/ 308).
(3) المصدر نفسه (2/ 308).
(4) كتاب الروضتين (2/ 309).
(5) المصدر نفسه (2/ 310).
(6) المصدر نفسه (2/ 313).

نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى[1]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدركُها، وقال الذهبي: قد أدركها على فراشه وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد[2]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الدِّين في ظُلم لغيبة نوره ... والدهرُ في غُمم لفقد أميره
فليندُبِ الإسلامُ حاميَ أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المِقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ... قرّت نواظرُهُم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانياً ... لله طوعاً عن خُلُوصِ ضَميره
من ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذللاً لجماحها ... من للزمان مُسهِّلاً لوعُوره
من كاشفٌ للمعاضلات برأيه ... من مُشرقٌ في الدّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عِثاره ... من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أُموره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... بروَاحه غزوه وبكوره
من للعُلا وعهُودها من للنّدَى ... ووفوده من للحِجا ووفوره
ما كنت أحسب نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليَّ بليث غاب للهُدى ... يخلو الشَّرى من زوره وزئيره
أعْزِز عليَّ بأن أراه مُغيَّباً ... عن محفل متشرّقٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنّها ... مُذ غُيِّبت غاض النّدَى ببحوره
ولقد أتى من كنت تُجري رسمه ... فضع العلامة منك في منشوره

(1) كتاب الروضتين (2/ 313).

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 537).

ولقد أتى من كنت تكشف كُرْبَه … فارفع ظلامته بنصر عشيره[1]

ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهُ … وقع له بالأمن من محذوره

ولقد أتى من كنت تُؤثر قُرْبَه … فأَدِم له التَّقْرِيبَ في تقريبه

والجيش قد ركب الغَدَاة لِعَرْضِهِ … فاركب لتُبصِرهُ أوان عبوره

أنت الذي أحييت شرع محمد … وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أقمت من الشَّريعة مَعْلماً … هو مُنذ غبتَ مُعرَّضٌ لِدُثوره

كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقِل … حتى سكَنت اللَّحْدَ في محفوره

كم قيصرٍ للروم رُمْتَ بقسره … إرواء بيض الهند من تاموره[2]

أُوتيت فتح حصونه وملكت … عُقْر بلاده وسبيتَ أهل قصوره

أزْهِدْتَ في دار الفناء وأهلها … ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُوره

أوَمَا وعدت القُدْسَ أنك مُنجزٌ … ميعاده في فتحه وظهوره

فمتى تجير القُدْسي من دَنسِ العِدَى … وتقدُّس الرحمن في تطهيره

يا حاملين سريره مهلاً فمن … عَجَبٍ نهوضكم بحمل ثبيره[3]

يا عابرين بنعشه أنشقتُمُ … من صالح الأعمال نشر عبيره

نزلت ملائكة السماء لدفنه … مستجمعين على شفير حضيره

ومِنَ الجفاء له مقامي بعده … هلَّا وفيتُ وسرتُ عند مسيره

حَيَّاك مُعْتلُ الصَّبا بنسيمه … وسقاك مُنْهَلُ الحيا بدروره

ولبستَ رضوان المهيمن ساحباً … أذيال سُندس خزِّه وحريره

وسكنت علِّيين في فِرْدَوْسِهِ … حِلفَ المَسَرَّة ظافراً بأجوره[4]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الذكي وجنده المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسّسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها.

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 369).

(2) التامور: النفس ومهجتها.

(3) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.

(4) كتاب الروضتين.

الفصل الثاني

قيام الدولة الأيوبية

المبحث الأول
اسرة صلاح الدين ونشاته

أولاً: نسب صلاح الدين:

ينتمي صلاح الدين إلى عائلة كردية، كريمة الأصل، عظيمة الشرف، وتنتسب هذه العائلة إلى قبيلة كردية تعد من أشراف الأكراد نسباً وعشيرة، وهذه العشيرة تعرف بالرّوادية[1]، وهي تنحدر من بلدة دوين الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من مدينة تفليس في أرمينية، وينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي، ويعتبرهم ابن الأثير أشرف الأكراد لأنهم لم يجر على أحد منهم رق أبداً[2]، كما أن والد صلاح الدين نجم الدين أيوب، وعمه أسد الدين شيركوه، عندما قدما إلى العراق بلاد الشام لم يكونا من الرعاة وإنما كانا على درجة عالية من الخبرة في الشؤون السياسية والإدارية[3]، غير أن بعض الأيوبيين حاول أن ينكر أصلهم الكردي والالتصاق بالدم العربي عامة، وبنسل بني أمية خاصة[4]، ومهما كان أصل البيت الأيوبي، فإن ظهورهم على مسرح الأحداث في المشرق الإسلامي وضع منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حين تولى شادي جدهم الأكبر، بعض الوظائف الإدارية في قلعة تكريت، التي كانت إقطاعاً لبهروز الخادم أحد أمراء السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه[5] وكانت تكريت، الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي

---

(1) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص: 119.

(2) المصدر نفسه، ص: 119.

(3) الخطط للمقريزي (3/ 404).

(4) تاريخ بيت المقدس، د.محمد الحافظ النقر، ص: 132.

(5) المصدر نفسه، ص: 132.

سامراء، تتحكم في أغلب الطرق الرئيسة المارة بين العراق وبلاد الشام، وكان أغلب سكانها من الأكراد، وقد انتقل إليها شادي مع ابنيه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، وتدرج في المناصب الإدارية فيها حتى ولي وظيفة الشحنة، ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب[1]، ومن العجب أن بعض المؤرخين يتمحلون في بحثهم لينسبوا أسرة صلاح الدين في سلسلة من الآباء تنتهي عند مُضَر الذي ينتمي إلى عدنان، وكأنهم يريدون من وراء هذا البحث الذي لا يتفق مع منهج البحث العلمي ولا مع الحقيقة المجردة، أن يلحقوا كل شخصية فذة ليست عربية بسلسلة من النسب العربي، وكأن الفضائل كلها، والمكارم جميعها مقصورة على العرب وخاصة بهم، وكأن المسلم غير العربي ـ في نظرهم القاصر ـ لا يمكن بحال أن يبني مجداً، أو يشيد حضارة، أو يخلد ذكراً[2]، أو ينصر دينه بالسّنان واللسان، ونحن لو استقرأنا التاريخ، وبحثنا عن عظمائنا في بناء الحضارة الإسلامية، لوجدنا أن القوميات المتعددة التي دخلت في دين الإسلام ساهمت في الحضارة الإسلامية، فهذا محمد الفاتح ونور الدين وعماد الدين من الترك، وذلك نظام الملك من الفرس، وهذه الأسرة الأيوبية من الكرد، وذاك يوسف بن تاشفين من البربر، وقد أكرم الله العرب بنشر الرسالة الإسلامية، وقد أعز الله من أخلص لدينه، فنحن ضد التعصب الأعمى، والعنصرية الممقوتة، فمبدأ الإسلام﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] ومنهجه ثابت لا يتحول[3] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وقد قام نجم الدين بخدمة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه «فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة، فولاه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى عن أرضها المفسدين وقُطّاع الطرق حتى عمرت أرضها وحسن حالها»[4]. وكذلك يذكر أبو شامة بأن أسد الدين شيركوه كان من الأمراء المقدمين عند السلاجقة الذين أقطعوه إقطاعاً كبيراً في تكريت وما حولها حتى إن إقطاعه كانت تقدر قيمته بحوالي تسعمائة دينار سنوياً[5]، وهو مبلغ كبير بمقياس ذلك العصر[6].

---

(1) تاريخ بيت المقدس، د.محمد الحافظ النقر، ص: 132.

(2) صلاح الدين الأيوبي، عبد الله علوان، ص: 17.

(3) المصدر نفسه، ص: 18.

(4) كتاب الروضتين (2/ 252).

(5) المصدر نفسه (2/ 257).

(6) تاريخ بيت المقدس، محمد الحافظ النقر، ص: 133.

ثانياً: ولادة صلاح الدين:

ولد صلاح الدين الأيوبي عام (532هـ/1137م) في قلعة تكريت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل، وقد قامت في طرفها الأعلى قلعة حصينة راكبة على دجلة، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم، وجعلوها مخازن للذخيرة، ومرصداً لمراقبة العدو، ثم افتتحها المسلمون في السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب ﷺ[1]، ومن عجائب القدر أن ولادة صلاح الدين كانت في اليوم الذي أمر فيه «مجاهد الدين بهروز» والي بغداد نجم الدين أيوب وأخاه شيركوه بمغادرة مدينة تكريت لقتل شيركوه عم صلاح الدين أحد قواد القلعة، وذلك من أجل امرأة آذاها القائد في شرفها، فانتقم «شيركوه» للشرف والمروءة حين استغاثت به فقتله.

ولكن بهروز وقع في حيرة من نفسه: هل يبقيهما عنده؟ أم يأمر بمغادرتهما؟ فإن أبقاهما يخشى عليهما من انتقام القواد أن يصيبهما الأذى، فلم يجد بُدًّا سوى أن يأمرهما بالمغادرة، فجاء بهما مظهراً الخوف عليهما، وطلب إليهما أن يخرجا في ليلتهما من تكريت، فخرج الرجلان يقصدان (الموصل) وقد حملا أسرتيهما، وفي رحل نجم الدين وُلد يوسف ابنه الطفل المولود صلاح ويذكر صاحب وفيات الأعيان: «أن أيوب قد تشاءم بمولوده الجديد صلاح الدين، وقد همّ أيوب بقتل ولده عندما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة، ولكن أحد أتباعه حذره من هذا العمل قائلاً: يا مولاي، قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة والتشاؤم بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدر، ثم ما يدريك أنّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، ولعل الله جاعل له شأناً، فاستبقه فهو طفل، ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغمّ[2]. ولقد أثرت هذه الكلمات في نفس أيوب، وسرعان ما رجع إلى الحق، وثاب إلى الرشد، واتبع طريق الإسلام الصحيح[3].

ثالثاً: نشأة صلاح الدين:

هاجر الأخوان نجم الدين أيوب وشيركوه من بغداد إلى الموصل، حيث نزلا عند (عماد الدين زنكي) الذي رحب بالأخوين ترحيباً عظيماً، وأجرى عليهما المنح والعطايا وما

(1) معجم البلدان (2/ 491).

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، صلاح الدين لعلوان، ص: 20.

(3) صلاح الدين لعلوان، ص: 21.

هذا الترحيب والإكرام إلا مكافأة على موقفهما المخلص من إنقاذهما له من القتل أو الأسر، ذلك لأن عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند «تكريت» أيام كان «بهروز» والياً على بغداد من قبل السلجوقيين، وسبق أن ذكرنا أن نجم الدين أيوب، وشيركوه كانا قائمين على تكريت وقلعتهما من قبل بهروز، وكان من نتيجة حرب عماد الدين للسلجوقيين أن انهزم جيشه، أما جيش السلطان السلجوقي، وفي أثناء انسحابه ورجوعه إلى الموصل مرّ بتكريت وأصبحت حياته هو وجيشه في يد نجم الدين أيوب والي تكريت يومئذ إن شاء أبقاهم أحياء وإن شاء قتلهم، ففضل نجم الدين الإحسان على الإساءة فقام هو وأخوه شيركوه بمساعدة عماد الدين وسهلا له أمر النجاة والسلامة حتى وصل إلى الموصل، فكان لهذه المعاملة الحسنة والموقف النبيل أكرم الأثر، وأحسن النتائج في بناء ملك أيوب، وإقامة مجد الإسلام على يد صلاح الدين[1].

ولما وصل الرجلان إلى الموصل لقيهما عماد الدين ـ كما ذكرنا ـ بالترحاب وجازاهما على ما صنعا معه من الجميل له في تكريت، فأقطعهما أرضاً ليعيشا عنده معزّزين مكرمين[2]، وفي رحاب عماد الدين تطورت الأسرة الأيوبية، فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القادة، وقتل عماد الدين بعد ذلك وأصبح نور الدين صاحب اليد الطولى وكان ذلك بمساعدة الأيوبيين، واستطاع أن يضم دمشق لملكه، وفي دمشق ترعرع صلاح الدين وتلقى علومه الإسلامية ومارس فنون الفروسية والصيد والرمي بالسهام وغيرهما من ضرورات البطولة[3]، وعندما فتح نور الدين محمود زنكي بعلبك سنة (534هـ) ولى عليها نجم الدين أيوب، إلا أن صاحب دمشق مجير الدين، قام بحصار نجم الدين أيوب في بعلبك، وكاتب نجم الدين نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وطلب منهما النجدة، فاشتغلا عنه، وبعد حصار طويل تم الصلح بين الطرفين على الحال، وانتقل إلى دمشق وصار من كبار أمرائها[4]، وهكذا عاش صلاح الدين طفولته الأولى في بعلبك سنة (534هـ/ 1140م)، وكان يشاهد ويسمع بين حين وآخر، اعتداء الصليبيين على البلاد الإسلامية، ولما قام الصليبيون بالهجوم على سهل البقاع المجاور لبعلبك سنة (546هـ) تصدى لهم نجم الدين وأسد الدين شيركوه وهزمهما وأخذ منهم أسارى[5]، وفي السنة نفسها التحق صلاح الدين في

---

(1) صلاح الدين، علوان، ص: 21، الموسوعة الشاملة (ج 24/ 142).

(2) صلاح الدين، علوان، ص: 21.

(3) موسوعة التاريخ الإسلامي، شلبي (ج5/ 187).

(4) النجوم الزاهرة (6/ 5)، مفرج الكروب (1/ 8).

(5) كتاب الروضتين (1/ 48).

خدمة عمه أسد الدين شيركوه[1] وكان أسد الدين مرافقاً لنور الدين الذي تولى قيادة الزنكيين بعد مقتل والده، ويبدو أن نور الدين كان قد أدرك قدرات صلاح الدين العسكرية والإدارية، فقد ذكر أبو شامة أن صلاح الدين تقدم بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً[2]، وعوّل عليه ونظر إليه، وقربه، وخصصه، ولم يزل يتقدم تقدماً تبدو منه أسباب تقضي تقديمه إلى ما هو أعلى[3].

وكان نور الدين يكلفه بالذهاب إلى عمه لاستشارته في قضايا تخص الدولة والمكوس، والضمانات، فقد كان نور الدين يهتم بمشاورة كبار قواده[4]. وتسمى هذه الوظيفة ـ لصلاح الدين ـ في العصر الحديث كاتم الأسرار ضابط الركن الشخصي لنور الدين[5].

وأما عن كيفية تبوؤ صلاح الدين الأيوبي أعماله الرسمية فقد فصل لنا ابن الفرات ذلك بقوله: ولم يزل صلاح الدين في كنف والده حتى ترعرع، فلما تملك الملك العادل نور الدين دمشق لازم الأمير نجم الدين أيوب ولده يوسف بخدمته، وكانت مخايل السعادة على صلاح الدين لائحة، ومنه تعلم صلاح الدين طريق الخير، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى ظهر للسير مع عمه أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، ولم يزل أسد الدين آمراً ناهياً بالديار المصرية، وابن أخيه صلاح الدين يباشر الأمور بنفسه بكل عناية وحسن رأي وسياسة نقد[6]، وفي ولاية أبيه على بعلبك درس صلاح الدين العلوم الإسلامية، وفنون القتال، فضلاً عن فنون لعب الكرة والفروسية، وغيرها من فنون الطبقات الحاكمة إلى جانب براعته في لعبة الجوكان، وهي لعبة رياضية أصلها شرقي يمارسها اللاعبون وهم على ظهور الخيل التي ورثها عن أبيه، فضلاً عن اهتمامه بالعلوم الدينية[7]، ونستنتج من ذلك واستناداً إلى ما تقدم أن المرحلة التي عاش فيها صلاح الدين في الشام، وقبل أن يتبوأ منصباً عسكرياً مهماً، كان يراقب التطورات السياسية والعسكرية الموجودة على الساحة الإسلامية وأبرزها: الصراع مع الصليبيين واعتماد نور الدين على والده وعمه شيركوه، وكان لا بد أن يتأثر بهذه الأحداث وإن لم يشارك فيها، ولا بد أيضاً أن ينمو لديه

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 48)، الفكر السوقي الأيوبي، ص: 82.

(2) النوادر السلطانية، ص: 6، الفكر السوقي الأيوبي، ص: 82.

(3) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 43.

(4) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 83.

(5) المصدر نفسه، ص: 83.

(6) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص: 54.

(7) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 83.

شعور يحتم عليه أن يعد نفسه للمستقبل ولا سيما للمناصب المتقدمة في الدولة[1]، ويمكن القول أن صلاح الدين نشأ وتربى بين أحضان أسرته، وأخذ عن أبيه نجم الدين براعته في السياسة واكتسب من عمه شيركوه شجاعته في الحروب، فنشأ متشبعاً بالدهاء السياسي والروح الحربية، كما تعلم علوم عصره فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث، وتتلمذ على أيدي كبار العلماء وأساتذة منطقة الشام والجزيرة منهم الشيخ قطب الدين النيسابوري[2]، وقد تأثر صلاح الدين بالسلطان نور الدين محمود الذي قدّم النموذج الرائع للإخلاص المتفاني والشعور الجادّ بالمسؤولية الدينية وتعلم منه الإخلاص والفداء وكيف يناجي ربه في صلوات خاصة في محرابه يأخذ منها زاده القوي على الجهاد، وورث عنه قيادة المشروع الإسلامي وتعلم منه كيفية التصدي للمد الشيعي الرافضي، والغزو الصليبي وقد بينت ذلك مفصلاً في كتابي عن الدولة الزنكية وسيرة نور الدين محمود الشهيد.

لقد درج صلاح الدين على طريق العز، ونشأ على الفروسية، وتدرب على الحرب والجهاد ومارس السياسة وتدبير الأمور، وكما يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيات فينا ... على ما كان عوّده أبوه

وفي المدة التي قضاها في دمشق بعد استيلاء نور الدين ابن عماد الدين زنكي عليها، ظهرت شخصية صلاح الدين الفذة، فكان محل احترام وتقدير، بل كان له من الاعتبار والمكانة ما لابن حاكم دمشق نفسه، وقد ظهر أمام المجتمع بمظهر الشاب الهادئ المهذب المتدين، المتقد غيرة على الإسلام والمسلمين بما طبع في نفسه من أخلاق نور الدين الذي أنزله لديه منزلة خاصة، ومن المناصب التي أسندت إليه في دمشق ـ في عهد نور الدين ـ منصب رئاسة الشرطة وقد قام بهذا المنصب أحسن قيام، واستطاع أن يطهر دمشق من عبث اللصوص ومن شرور المفسدين، فأعاد الأمن والاستقرار في ربوع الشام، وبات الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم وينعمون بنعمة الحياة الهادئة المطمئنة الكريمة، ولعل حسان بن نمير المعروف «بعرقلة» الدمشقي يوضح في فرحته بيوسف صلاح الدين لتسلمه رئاسة شرطة بلده، وذلك حيث يقول :

رويدكم يا لصوص الشام ... فإني لكم ناصح في المقال

أتاكم سمي النبي الكريم ... يوسف رب الحجا والجمال

(1) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 84.

(2) القدس تاريخ وحضارة عبلة المهتدي، ص: 182.

فــذاك يــقــطــع أيــدي الــنــســاء وهــذا يــقــطــع أيــدي الــرجــال[1]

وأما المدة التي قضاها صلاح الدين في مصر فتعد من أعظم الأيام التي أظهرت بطولته الفائقة وحنكته الحربية النادرة، فقد لازم عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاثة على مصر، وكان من ضمن رجاله الأفذاذ، فقد أظهر البراعة العظيمة والعبقرية الفذة في فنون الحرب والقتال، فبتدبيره وذكائه وحسن تصرفه استطاع مع عمه أسد الدين أن يضم مصر إلى الدولة النورية بعد تخليص الشعب المصري العظيم من براثن الدولة الفاطمية الرافضية، وتلخص مما تقدم أن صلاح الدين نشأ في السنين الأولى من طفولته، وفي العقد الثاني والثالث من شبابه على الفضائل الكريمة، والخصال الحميدة، واكتسب في مجالسته للأمراء، ومن مصاحبته للقادة العادات الأصيلة، والمهارة الحربية، والغيرة الإسلامية، والشجاعة المادية والأدبية وهذا ما أهله باستحقاق وجدارة[2] لأن يكون من الشخصيات الفذة التي هزت الدنيا وساهمت في صناعة حقبة مهمة من التاريخ الإسلامي العظيم.

رابعاً: متى بدأت الدولة الأيوبية:

يختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة من الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سنة (564هـ/ 1169م)[3]، والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي التي تلاها وفاة العاضد لدين الله وانتهاء الخلافة الفاطمية (567هـ/ 1171م)، صحيح أن سلطة صلاح الدين بدأت منذ توليه الوزارة، ليدعمها بخطوة القضاء على الدولة الفاطمية، لكنه من الناحية الشرعية كان لا يزال تابعاً لسلطة نور الدين محمود الذي ما لبث وأن توفي سنة (569هـ/ 1174م)، ولذلك فإن سنة الوفاة هذه هي برأينا تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة (570هـ/ 1175م)[4].

المبحث الثاني
الرصيد الخلقي لصلاح الدين

تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي برصيد أخلاقي كبير ساعده على تحقيق

---

(1) صلاح الدين، عبد الله علوان، ص: 22.

(2) المصدر نفسه، ص: 23.

(3) السلاطين في المشرق العربي، د.عصام شبارو، الأيوبيون، ص: 139.

(4) المصدر نفسه، ص: 140.

أهدافه العظيمة والتي من أهمها: الشجاعة، والكرم، والوفاء والتسامح، والحلم، والعدل والعفو، والمروءة، وشدة لجوئه إلى الله، ومحبته للجهاد، وصبره واحتسابه، وحرصه على العلم، والتواضع .. إلخ. وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق.

أولاً: تقواه وعبادته:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96] وتقوى الله وتحقيق العبودية الشاملة لله تحفظ العبد من كيد الأعداء ومكرهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]، ولا شك أن تقوى الله وعبادته والخشية منه، وحسن الظن به والاعتماد عليه هي أول ما يجب أن يمتاز به المسلم، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به، لأن ذلك يجعل المسلم أسداً كاسراً لا يعرف الهزيمة، وبطلاً مقداماً لا يهاب المنية، وشجاعاً كراراً لا يخشى جباراً، ولا يهاب عدواً، وهذه السمة من الإيمان والعبادة قد تحققت في القائد البطل صلاح الدين[1]، وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره اجتمع به وعرف أخباره، فحدثنا عن ما رأى:

1 ـ عقيدته:

وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذّكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التّشبيه، غير مارق سهم النّظر فيها إلى التّعطيل والتّمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان رحمه الله قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدّين النّيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلّمها الصّغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصّغر، ورأيته وهو يأخذ عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه رحمه الله.

2 ـ الصلاة:

وأما الصلاة فإنه رحمه الله كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلّف نفسه القيام، ويصلّي جماعة، وكان يواظب على السّنن الرّواتب، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ

---

(1) صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس، علوان، ص: 139.

بوقت في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصُّبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته ـ قدَّس الله روحه ـ يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في أيامه الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى[1].

3 ـ الزكاة:

وأما الزكاة، فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما وجبت به عليه من الزكاة، وأما صدقة النَّفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه مَلَك ما ملك ومات ولم يخلّف في خزانته من الذَّهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجُرماً واحداً ذهباً صُورياً، ولم يخلِّف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه.

4 ـ صوم رمضان:

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدِّدة، وكان القاضي الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام، وشرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشّريف في السّنة التي توفي فيها، وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر، فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض ومُلازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصَّوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله تعالى الصَّوم بقضاء الفوائت[2]، فكان يصوم وأنا أُثبتُ الأيام التي يصومها، لأن القاضي كان غائباً، والطبيب يلومه وهو لا يسمع، ويقول: لا أعلم ما يكون فكأنه كان مُلهماً ببراءة ذمته ـ رحمة الله عليه ـ ولم يزل حتى قضى ما كان عليه[3].

5 ـ الحج:

وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صمَّم العزم عليه، وأمر بالتأهب وعُملت الرِّفادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المقبل، فقضى الله ما قضى، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاصُّ والعام[4].

---

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ابن شداد، ص: 58.

(2) المصدر نفسه، ص: 59.

(3) المصدر نفسه، ص: 59.

(4) المصدر نفسه، ص: 59.

6 ـ سماعه للقرآن الكريم:

وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم، حتى أنه كان يتخير إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه، وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرجه[1] الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرىء ـ في مجلسه العام ـ من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقرّبه، وجعل له حظاً من خاصّ طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جُزءاً من مزرعة، وكان رحمه الله تعالى رقيق القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته[2].

7 ـ سماعه للحديث الشريف:

كان رحمه الله تعالى شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممّن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه، والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخ ممّن لا يطرق أبواب السّلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سَعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية ـ حرسها الله تعالى ـ وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان رحمه الله يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُني في خلوته، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ودمعت عينه[3].

8 ـ تعظيمه لشعائر الدِّين:

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنّة والمسيء بالنار، مصدّقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسفة والمعطّلة، والدّهرية ومن يعاند الشّريعة. ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر، بقتل شاب نشأ كان يقال له: السّهروردي، قيل عنه: إنه كان معانداً للشرائع ومبُطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السّلطان به، فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله.

---

(1) سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد، ص: 59.

(2) المصدر نفسه، ص: 60.

(3) المصدر نفسه، ص: 61.

9 ـ حسن ظنه بالله:

وقال ابن شداد: وكان ـ قدس الله روحه ـ حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه: وذلك أن الفرنج ـ خذلهم الله ـ كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس الشريف ـ حرسها الله تعالى ـ يكون بينها بعض مرحلة وكان السلطان بالقُدس، وقد أقام يَزَكاً[1] على العدو محيطاً به، وقد سير إليهم الجواسيس والمُخبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصُعود إلى القدس ومحاصرته، وترتيب القتال عليه، واشتد خوف المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرّفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة، وشاورهم في الإقامة بالقدس، فأتوا بمجاملة باطنها غيرُ ظاهرها، وأصرَّ الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقيمون هم، ويخرج هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعكّا، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدّفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌ على أن يقيم بنفسه، علماً منه إن لم يُقم ما يقيم أحد. فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذين يأتمرون بأمره، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة، وضاق صدره، وتقسّم فكره، واشتدّت فكرته. ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة، وكان الزمان شتاء، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نُقسّم أقساماً ونرتّب على كل قسم مقتضاه، حتى أخذني الإشفاق عليه، والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليُبس[2]، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لعلك جاءك النوم؟ ثم نهض، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذّن المؤذن، وطلع الصبح، وكنت أصلّي معه الصبح في معظم الوقت، فدخلت عليه، وهو يمرُّ الماء على أطرافه، فقال: ما أخذني النوم أصلاً، فقلت: قد علمتُ، فقال: من أين؟ فقلت: لأني ما نمت، وما بقي وقت للنوم، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه، فقلت له: قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى، فقال: وما هو؟ فقلت له: الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه، والاعتماد في كشف هذه الغُمّة عليه فقال: وكيف نصنع؟ فقلت: اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرّواح، ويصلي على العادة وبالأقصى موضع مَسْرى النبي ﷺ ويقدّم المولى التصدُّق بشيء خفية على يد من يَثق به ويصلّي المولى ركعتين بين

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين، ص: 61. يَزكاً: طلائع.

(2) يبدو أن صلاح الدين كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني.

الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح، وتقول في باطنك: يا إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نُصرة دينك، ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، فإن الله أكرم من أن يخيّب قصدك، ففعل ذلك كله، وصليت إلى جانبه على العادة، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيته ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته وعلى سجادته، ولا أسمع ما يقول. فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُرديك ـ وكان على اليَزَك ـ يُخبر فيها أن الفرنج مختبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثم عادوا إلى خيامهم. وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا، فذهبت الفرنسيسيّة[1] إلى أنهم لا بدّ لهم من محاصرة القدس، وذهب الأنكتار[2] وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عُدْم المياه فإن السُلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهر الخيل، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم، ولما كانت بُكرة الاثنين جاء البشير يخبرُ أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة، فهذا ما شاهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى رَحِمَهُ اللَّهُ[3].

ثانياً: عدله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: 90] وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾ [النساء: 135]. وقد كانت صفة العدل من أبرز صفات صلاح الدين الأيوبي القيادية، وكان يؤمن بأن العدل أحد نواميس الله في كونه، وكان يقينه بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان وكان تعلم ذلك من أستاذه الكبير الذي جدّد معلم العدل وسار عليه صلاح الدين السلطان نور الدين محمود زنكي، فقد كان صلاح الدين عادلاً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره

---

(1) أي الصّليبيون اللاتين من الفرنسيين، الذين تألفت منهم غالباً الحملتان الصّليبيتان الأولى والثانية.

(2) المقصود بالأنكتار الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا.

(3) سيرة السلطان صلاح الدين لابن شداد، ص: 64.

الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، ثم يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو النهار، ويوقِّع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً وطالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة، ولقد كان رؤوفاً بالرعيّة، ناصراً للدين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً، رحمة الله عليه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ قصته، ولقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابن زُهير على تقي الدين ـ ابن أخيه ـ فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلّصه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين ـ قاضي حماة ـ في المخاصمة والمنازعة، فحضر الشاهدان، وأقاما الشهادة بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، وإنكار الخصم[1]، قال القاضي ابن شداد: فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه ـ وكان من خواص السلطان رحمه الله ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدّين، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحق[2].

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجاً أو غضاضة لأن الحق في نظره أحق أن يتّبع، وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى: (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى «سنقر» واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق، وعندما تقدم التاجر المدعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد، أظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى، وأحضر كلّ من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه، حتى اتضح في النهاية عند القاضي كذب الرجل وادعاءه الباطل على صلاح الدين، ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعي يخرج من عنده خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ من المال ليدلل على كرمه في مواضع المؤاخذة مع القدرة[3]. ومما يدل على عدله سهره على مصالح الرعية وإزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفاً عن الناس، ورفعاً للظلم عن كواهلهم، وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدّين والدنيا أنه أزال

---

(1) سيرة السلطان الناصر لابن شداد، ص: 66.

(2) المصدر نفسه، ص: 66.

(3) المصدر نفسه، ص: 69، صلاح الدين، علوان، ص: 143.

كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دقّ أو جلّ، حتى أنه كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس، فألغى صلاح الدين هذا كله[1]، وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة، ومساعدة الناس هناك، وقد اشتطّ الفاطميون في جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذاباً أليماً، ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة، ولاسيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لا يستطيعون دفع ما يؤخذ منهم، فكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطاباً أليما[2]، إن العدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته، لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الإلفة، وبه تصلح الأعمال وتنمي الأموال وتنتعش الرعية وتكمل المزيّة وقد ندب الله ﷻ الخلق إليه وحثهم عليه[3].

ثالثاً: شجاعته:

إن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي يلزم الملك أن يتصف بها ضرورة وأن تكون له طبعاً فيتطبع بها ليحسم بهيبته مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منه حماية (البيضة) ورعاية المملكة والذب عن الرعية[4]، ولقد كان صلاح الدين من عظماء الشجعان، قويّ النفس، شديد البأس عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته رحمه الله مرابطاً في مقابلة عدّة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكّا وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوّة نفس، ولقد كان رحمه الله يعطي دستوراً في الأوائل ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، يقول ابن شدّاد: وقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل ـ وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح ـ عن عِدّتهم، فقال الترجمان عنه إنه يقول: كنت وصاحب صَيْدا ـ وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم ـ قاصدين عسكرنا من صُوْر، فلمّا أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتهم أنا بستمائة ألف، أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هلك منهم؟

(1) رحلة ابن جبير، نقلاً عن: صلاح الدين، علوان، ص: 143.

(2) المصدر نفسه، صلاح الدين، ص: 144.

(3) النهج المسلوك في سياسة الملوك، ص: 103.

(4) المصدر نفسه، ص: 103.

فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل، وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان صلاح الدين، إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدوّ ويجاوره[1]، قال ابن شدّاد: ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشّريفة ولم يُنقل أنه سمع بين الصفّين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك، فأحضر جزءً وهناك أحضر من له به سماع، فقُرئ عليه ونحن على ظهور الدّواب بين الصّفين، ونمشي تارة، ونقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكّا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكُوس[2] والعَلَم[3] وهو ﷺ ثابت القدم في نفر يسير قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ويخجّلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس[4]، ولم يزل مصابراً لهم، وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجد، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها[5].

رابعاً: كرمه:

والكرم لباب الأخلاق الفاضلة، ومدارج الفضيلة وُصِفَت الأخلاق به وشرفت بالانتساب إليه من باب إضافة الصّفة للموصوف، فكُلُّ شيء يشرف في بابه يوصف به[6]، وعن أنس ﷺ

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين لابن شداد، ص: 73.
(2) الكُوس: صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير.
(3) كان العلم السلطاني الخاص بصلاح الدين أصفر وفي وسطه رسْم نسر أحمر.
(4) سيرة الناصر صلاح الدين، لابن شداد، ص: 74.
(5) المصدر نفسه.
(6) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 157.

قال: كان النبيُ ﷺ أحسن النّاس، وأجود الناس، وأشجع النّاس[1]، وعن جابر ﵁ قال: ما سئل النبي ﷺ عن شيء ـ قَطُّ. فقال: «لا»[2].

وقال الشافعي :

وإن كثرت عيوبك في البرايا وسرّك أن يكون لها غِطاء

تستر بالسّخاء فكل عَيْب يُغَطيه، كما قيل السّخاء[3]

ولقد كان كرم السلطان صلاح الدين الأيوبي أظهر من أن يُسطّر، وأشهر من أن يُذكر، لكن نُنَبِّه عليه جملة، وذلك أنه مَلَكَ ما مَلَك ومات، ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية، ومن الذهب إلا جُرم واحدي صُوْري[4]، وقد اشتهر صلاح الدين بالكرم ووزع ما احتوته قصور الفاطميين من جواهر وأموال على أمرائه وأصحابه، ولم يحتفظ لنفسه بشيء، وكان يهب الأقاليم، فعندما فتح آمد طلبها منه قرأ أرسلان، فأعطاها إياه[5]. يُعطي في وقت الشدة كما يُعطي في وقت السعة. وقال مرة وهو يُعبِّر عن كرمه: والله لو وُهِبَتْ الدنيا للقاصد الآمل، لما كنت أستكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي، لما كان عوضاً مما أراقه من حُرّ ماء وجهه في استمناحه إياي[6].

وكان من شدة كرمه: أنه إذا علم أن في خزائنه مالاً، لا يستطيب تلك الليلة حتى يفرّق هذا المال جوداً، وإذا منح إنساناً مالاً ثم قيل له إن هذا القدر لا يكفيه زاده الضعف[7]، ولا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، وما أُحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على والديه، وجبر قلبه ومصابه وأعطاه، وإن كان له من أهله كبيرة يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وقد وصف العماد الأصفهاني كرمه فقال: كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرماً. وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزائنه بالحوالات عن الوصول، فإذا عرف بالوصول حمل، وقع عليه بأضعافه، ولا يجيبه أحد بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه

(1) البخاري رقم 3040.

(2) البخاري رقم 6034.

(3) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 159.

(4) سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد، ص: 70.

(5) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 70.

(6) تاريخ الأيوبيين في مصر، محمد سهيل طقوش، ص: 221.

(7) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 221.

استمهله ويقول: ما عندنا شيء الساعة[1]. ويعطي فوق ما يؤمّل الطالب، ويبسط وجهه للمعطي بسط من لم يعطه شيئاً[2]، وقد قُدِّر ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين، منذ أن نزل الفرنج على عكا في رجب سنة (585هـ) إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة (588هـ)، باثني عشر ألف رأس من حصان وحجر[3]، وإكديش طمر[4]. ويعلّق ابن شداد على ذلك بقوله: ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر. هذا بالإضافة إلى ما كان يطلقه من المال من أثمان الخيل المصابة في القتال، لأنه ما عُقر في سبيل الله فرس أو جُرح إلا وعوّض مالكه بمثله، ولم يكن له فرس يركبه غلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه[5]. وقد توفي ولم يحفظ عنده ما يجب فيه الزكاة، لأن صدقة التطوع استنزفت جميع ما ملكه من الأموال. وقد ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلّف داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك وهذا دليل واضح على شدة كرمه[6] وقال القاضي ابن شداد: وسمعت منه يوماً يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر في التُّراب، فكأنه أراد بذلك نفسه[7].

خامساً: اهتمامه بالجهاد:

كان صلاح الدين شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا على من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه[8]، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة

(1) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص: 629.
(2) سيرة السلطان الناصر، لابن شداد، ص: 49.
(3) حجر: الأنثى من الخيل.
(4) الطمر: الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.
(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 222.
(6) المصدر نفسه، ص: 222.
(7) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين، ص: 71.
(8) المصدر نفسه، ص: 76.

ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على برج عكا، فلو لم يكن من البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً، وكان الرّجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثُّه على الجهاد أو يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد أُلّف له كتب عدّة في الجهاد، قال ابن شداد: وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً جمعتُ فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث رُوي فيه، وشرحتُ غريبها؛ وكان كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل وقال: ولأحكين عنه ما سمعته منه: وذلك أنه كان قد أخذ كوكب، في ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وأعطى العساكر دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقدّمه أخاه الملك العادل فسار معه ليودّعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف وسرنا في خدمته، ولما صلّى العيد في القدس وقع له أنه يمضي معهم إلى عَسْقَلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق السّاحل يتفقد البلاد السّاحلية إلى عكّا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدّة يسيرة، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته على السّاحل طالبين عكّا، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديثَ عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيِّل إليّ أنني لو قال لي قائل: إن جُزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاءً لكسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب، بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى قال: في نفسي؛ أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية السّاحل قسّمتُ البلاد، وأوصيت وودّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبّعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت. فعظمُ وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نُصرة دين الله. فقال: وكيف؟ فقلت: أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله، وأما نُصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم . . . ثم قلت: ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يُسيِّر في البحر العساكر، وهو سُور الإسلام ومنعته لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله. فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات[1]، ومن رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وهو بالشام يريد الجهاد وطرد العدو من ديار المسلمين، ولكنّ

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين، ص: 79.

أموراً عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد فتألّم السلطان لذلك ألماً شديداً، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عنه وَقْعَ هذا الألم، ومما كتبه إليه: وأما تأسف المولى على أوقات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، ويجدّد العوائق التي لا يُوصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّة رشده. أوَليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يَسْأل الفاعل عن تمام فِعْله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنّها محلُ تكليفِ الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطُرُق إلى المداد فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أصل في نجْح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عَظُم الحج لأجل جهده وبعد مشقته؛ ولو أنّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيام؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام؛ لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البرّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت[1].

سادساً: حلمه:

فالحلم آية حسن الخلق، وعنوان عُلُوّ الهمة، فهو من أشرف الأخلاق، وأحقّها بذوي الألباب، لما جعل الله فيه من الطُمأنينة، والسّكينة، والحلاوة وسلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد ورفعة النفس عن تشفيها بالانتقام؛ فلا ينبل الرّجلُ حتى يكون متخلقاً بهذا الخلق العظيم[2]، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199].

وقال الشاعر:

صفوح عن الإجرام كأنه	من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى	إذا ما الأذى لم يغشّ بالكره مسلما[3]

فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي حليماً كثيراً ما يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزه ـ أي حذاء ـ فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى

(1) بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد سُرّاب، ص: 112.
(2) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 138.
(3) المصدر نفسه، ص: 140.

يتغافل عنها[1]، وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوماً من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين سوى صرفهم[2]، قال القاضي ابن شداد: ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكّا، وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب. ثم ينزل، فيُمدُّ الطعام، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصلّي، ويجلس خلوة وأنا في خدمته، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ عليّ كتاباً مختصراً لسليم الرّازي[3]، يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس. وقال: نصلّي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أُخلي المكان إلا ممّن لزم، فتقدّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أخّرها ساعة، فلم يفعل، وقدّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال: رجل مُستحق فقال: يوقّع له المولى، ها هي. فقال: ليست الدّواة حاضرة الآن، وكان جالساً في باب الخَرْكاه[4] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدّواة في صدرها، فقال له المُخاطب: هذه الدواة في صدر الخَرْكَاه ! وليس لهذا المعنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت فرأى الدّواة، فقال: والله لقد صَدَق. ثم امتدّ على يده اليسرى، ومدّ يده اليمنى فأحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ما ضرّنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب، ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين[5].

لقد كان صلاح الدين يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول، وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملوك الإفرنج ـ خذلهم الله ـ بيافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبَعُدَ وتراجع إلى

---

(1) الموسوعة الشاملة (24/ 449).

(2) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (24/ 449).

(3) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 85.

(4) الخَرْكَاه : الخيمة الكبيرة كلمة فارسية، أو نوع من الخيام.

(5) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 86.

النّطرون، وجرد العسكر ومضى إلى قيساريه يتلّقى نجدتهم، عساه يبلغ منها غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك، وكان بها الأنكتار[1] ومعه جماعة، فجهَّز معظم من كان عنده في الرّكب إلى قيسارية، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده عنهم وبُعد العسكر، ولما وصل ـ صلاح الدين ـ إلى قَيْسَاريّة، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً، والأنكتار في سبعة عشر فارساً وتقدير ثلاثمائة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبَّحه العسكر صباحاً، فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر، ولم يدخلها البلد فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البلد، وتعبّى العسكر تعبية القتال. وأمر السُّلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة، فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونة حاصلة، تَعَتَّب لعدم التوفير في إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمُغضب، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلعت، وانفضّ الناس عن العدوّ، متيقّنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة ... ولم يزل السلطان سائراً حتى نزل بيازور وهي مرحلة لطيفة، فضُربت له خيمة لطيفة هنالك، ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم تحت صايوانات[2] لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال: ولم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفة حتى استدعاني. قال: قد خلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال: اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً. قال: فسُرّي عني ما كنت أجده، وطلبتُ الأمراء، فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطُّمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل، كأن لم يجر شيءٌ أصلاً[3]، ولم يكن حلمه رَحِمَهُ اللهُ قاصراً على أتباعه ورعيته وجنده، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم[4]، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سابعاً: محافظته على أسباب المروءة:

فالمروءة: هي جِماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وكمال الرُّجولة، فهي تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء الأعين بمهابته وحقيقة المروءة قوة للنفس، مبدأ لصدور

(1) الأنكتار : المقصود الملك ريتشارد قلب الأسد.

(2) الصابوانات : مفرد صيوان: كلمة فارسية تعني الخباء والخيمة.

(3) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 88.

(4) صلاح الدين الأيوبي، علوان، ص: 149.

الأفعال الجميلة عنها، المستتبعة للمدح شرعاً، وعقلاً وعُرْفاً[1]، وقال ابن القيم: وحقيقة المروءة: تجنُّب للدّنايا والرّذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال، فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه، ولينه، واجتناء الثّمار منه بسهولة ويسر، ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض، ومروءة المال: الإصابة ببذله في مواقعه المحمودة عقلاً، وعُرفاً، وشرعاً، ومروءة الجاه: بذله للمُحتاج إليه. ومروءة الإحسان: تعجيله، وتيسيره وتوقيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مُرُوءَة البذل، وأما مروءةُ الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة[2].

قال الشاعر:

إني لتُطربني الخِلالُ[3] كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق

وتَهُزّني ذِكرى المروءةِ والنّدى ... بين الشمائل هِزّة المشتاق[4]

ولقد كان السلطان صلاح الدين كثير المروءة، نديّ الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه، وكان يكرم الوافد عليه، وإن كان كافراً، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صَيْدا بالنّاصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثّه عليه، وكان يُكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه، ولقد مرّ بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصوّف وكان من ذوي الاقتدار، وكان مشتغلاً بالعلم، وحجّ ووصل زائراً لبيت الله المقدّس. ولما قضى لبانته منه، ورأى آثار السُلطان فيه، وقع له زيارته، فوصل إلينا في العسكر المنصور، وما أحسست به إلا وقد دخل عليّ في الخيمة، فلقيتُه ورحبتُ به، وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السُلطان لما رأى من الآثار الحميدة الجميلة فعرّفت السُلطان تلك الليلة وصول هذا الرّجل، فاستحضره وروى عنه حديثاً، وشكره عن الإسلام وحثّه على الخير، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلّما صلّينا الصبح أخذ يودّعني فقبّحت له المسير بدون وداع السُلطان، فلم يلتفت ولم يَلوِ على ذلك. وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، وانصرف من

---

(1) التعريفات للجُرجاني، ص: 111.

(2) تهذيب مدارج السالكين (2/ 697 -699)

(3) الخلال : جمع خلّة وهي الخصْلة والصفة.

(4) ديوان المروءة لأحمد بركات، الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 196

ساعته، ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السُلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التعتّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: وكيف يطرقنا مثل هذا الرّجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسُّه منا؟ وشدد النكير على في ذلك، فما وجدت بُدًّا من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين ـ قاضي دمشق ـ كلفته فيه السؤال عن حال الرّجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طيّ كتابي، وأخبرته فيها بإنكار السُلطان رَوَاحه من غير اجتماعه به وحسَّنتُ له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إليّ، فكتبت رقعة وأعلمته بذلك، فكتب إلي يقول: تحضره معك ففعلت ذلك، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوباً لائقاً وثياباً كثيرة، يحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه[1] قال ابن شداد: ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرق له، ومنَّ عليه، وأطلقه[2]. ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزكيَّة[3]، ومعه امرأة شديدة التحرُق، كثيرة البُكاء، متواترة الدَّقّ على صدرها، فقال اليَزَكي: إنّ هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيّتها، فقالت: إن اللُّصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسبوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم. ونحن نُخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك فَرقَّ لها، ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سُوق العسكر، يسأل عن الصغيرة: من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليهما، فخرّت إلى الأرض تمرِّر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول: فَسلِّمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم[4].

ولقد دخل عليه البِرَنْس أرناط ـ صاحب الكَركَ مع ملك الإفرنج بالسّاحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والواقعة مشهورة تجيء مشروحة

---

(1) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 91.

(2) المصدر نفسه، ص: 91.

(3) طلائع الجيش.

(4) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 92.

في موضعها ـ إن شاء الله تعالى ـ وكان قد أمر بإحضارها، وكان هذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جبّاراً شديداً، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها، وأخذها، ونكّل بهم، وعذّبهم، وأسكنهم المطامير والحُبوس الحرجة، وذكّروه بحديث الهدنة، فقال: قولوا لمحمّدكم يخلّصكم، فلما بلغه رَحِمَهُ اللهُ ذلك عنه، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه، فلما مكّن الله منه في ذلك اليوم، قوي عزمه على قتله ـ وفاءً بنذره ـ فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرْنَاط، فقال السُلطان للترجمان: قل للملك: أنت الذي سقيته، وأما أنا فما أسقيه من شرابي، وأطعمه من طعامي. فقال رَحِمَهُ اللهُ: أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أؤذيه. ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره وأخذ عكّا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كلاً منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله[1]، ويروي القاضي ابن شداد هذه القصة التي تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد: لما مرض الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد ـ أكبر خصوم صلاح الدين ـ بعث إليه صلاح الدين ورقّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج، وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم من المسلمين نحوهم[2].

لقد كان صلاح الدين حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره، وكان حسن الخُلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلّبات أحواله وكان طاهر المجلس، لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، طاهر اللسان، قال ابن شداد: فما رأيته ولع بشتم قط؛ وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط[3]. وكان حسن العهد والوفاء، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقُ له ويعطيه ويُحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله[4].

(1) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 92.

(2) صلاح الدين الأيوبي، علوان، ص: 151.

(3) سيرة الناصر صلاح الدين، ص: 93.

(4) المصدر نفسه، ص: 93، 94.

ثامناً: صبره واحتسابه:

الصبر سيد الأخلاق، ورفيق الدَّرب والطريق إلى الإمامة في الدِّين، والفوز العظيم، وما من خُلُق من الأخلاق الفاضلة إلَّا وهو يرجع إلى الصَّبر، فالصبر أساس الأخلاق الحميدة، وبذر الخير، وجماع الأمر وأصل كلمة الصَّبر هي المنع والحسن، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكِّي، والجوارح عن لطم الخدود، وشقِّ الجيوب، وحقيقة الصَّبر أنه خُلقٌ فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها[1]، وقيل: الصبر: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[2]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى: الصَّبر في كتابه العزيز في نيِّف وتسعين موطناً تدل على وجوبه، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصَّبر، وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور يجمعها لغيرهم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 157] وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتليَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»**[3].

وقال الشاعر:

اصبر قليلاً وكن بالله معتصماً ... لا تعجلن، فإن العجز بالعجل
الصبر مثلُ اسمه في كل نائبة ... لكن عواقبه أحلى من العَسَلِ[4]

وكان صلاح الدين رَحِمَهُ اللَّهُ صابراً على مُرِّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، وكان مثلاً رائعاً في الصبر والاحتساب في ميادين الجهاد، وتلقي الصدمات، والمصائب، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته، بمرج عكّا، وهو على غاية من مرض اعترضه بسبب كثرة دمَاميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مدِّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يُفرِّق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب

---

(1) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 197.
(2) المصدر نفسه، ص: 197.
(3) صحيح الجامع للألباني (1/992)، السلسلة الصحيحة، رقم: 143.
(4) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص: 197.

قريباً من العدو، وقد رتّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال. وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدّة الألم وقوّة ضَرَبان الدّمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية. ولقد مَرض رَحِمَهُ اللَّهُ ونحن على الخرّوبة وكان قد تأخر عن تلّ الحَجَل بسبب مرضه، فبلغ ذلك الفرنج، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً ـ بسبب مرضه، رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي نوبة النهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ، فأمر هو رَحِمَهُ اللَّهُ بالثّقل حتى تجهز للرحيل، والتأخر إلى جهة النّاصرة، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً، فأذن له، حتى يتأخر مع الثّقل، وأقام هو. ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا، فركب على مَضَض، ورَتّب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الأفضل، ونزل هو وراء القوم، وأوّل ما نزل من التلّ أحضر بين يديه إفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه، فضُرب عنقه بين يديه، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويتظلّل بمنديل على رأسه من شدّة وقع الشمس عليه، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدوّ برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تلّ مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محال المصابرة، وأن يبيتوا تحت السّلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً: الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر، وجميع من حضَر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خَلْقاً عظيماً، وليس تحتها إلا واحد يُعدّ بخلق عظيم، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم، وكلما قتل منهم شخص دفنوه، وكلما جُرح منهم رجل حملوه، حتى لا يبقى بعدهم مَنْ يُعلم قتله وجرحه، وهم سائرون ونحن نشاهدهم، حتى اشتدّ بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم؛ لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة، وبقي في موضعه، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدوّ إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية، فبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدوّ ورحل العدوّ، وسار على مضض من القتل والقتال، حتى دنا إلى خيامه، وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى

خيامهم، فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب، إلى أي غاية بلغ هذا الرجل[1] قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيته ـ وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى إسماعيل ـ فوقف على الكتاب ولم يُعرِّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه[2]، ولقد رأيته ليلة على صَفَد وهو يحاصرها، وقد قال: لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق[3]، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نصبه، وكنا طوال الليل في خدمته ـ قدّس الله روحه ـ في ألذّ فكاهة وأرغد عيشة، والرُسُل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها، ولم يبق إلا تركيب جنازيرها عليها، وكانت أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً، ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر ـ ابن أخيه ـ ونحن في مقابلة الإفرنج بالرّملة[4]، والعدو بيازور، بيننا وبينها شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل، ولعلم الدّين سُليمان ابن جندر وسابق الدّين بن الدّاية، وعز الدين المقدّم؛ وأمر بالناس فطُردوا من قريب من الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سَهْم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا، من غير أن نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدّين[5]، فاشتدّ بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، فيم أنتم، وأعرضوا عما سواه[6]. فقال رحمه الله: نعم، أستغفر الله. وأخذ يكرِّرها، ثم قال: لا يعلم بهذا أحد، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه، ثم استحضر الطعام وحضر الناس، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدوّ إلى يافا، وعدنا نحن إلى النّطرون، وهو مقر ثقلنا[7].

تاسعاً: الوفاء:

والوفاء من الأوصاف العلية والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به ومدحهم على فعله

---

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين، ص: 82.
(2) المصدر نفسه، ص: 83.
(3) آلة من خشب له دفّتان قائمتان بينهما سهم طويل.
(4) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين، ص: 84.
(5) المصدر نفسه، ص: 84.
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 7].

قال الشاعر:

إذا قلتَ في شيءٍ نَعَمْ فأتمه فإن نعم دينٌ على الحر واجبُ

وإلا فقلْ لا تستريحْ وتُريح بها لئلا يقولَ الناسُ إنكَ كاذب[1]

وكان صلاح الدين الأيوبي مضرب المثل في الوفاء بالعهود، وكان إذا عقد الصلح التزم به، وإذ عاهد وفّى بعهوده، وقد ذكر ابن واصل عن بطرك القدس حين خرج بعد استعادة صلاح الدين للمدينة ومعه من أموال البيع ما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقول ابن واصل، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح، وحين قيل له خذ ما معه لتقوي به المسلمين، أجاب بقوله: لا أغدر به، ولم يأخذ منه إلا ما كان قد فرضه على كل رجل عادي من الفرنج وهو مبلغ عشرة دنانير، ثم سيّر مع البطرك والذين خرجوا معه من المدينة من يحميهم ويوصلهم إلى مدينة صور، التي أصبحت معقل الفرنج ومكان تجمعهم بعد هزيمتهم في حطين واستعادة ما كانوا يسيطرون عليه من مدن ومواقع في بلاد الشام[2].

عاشراً: التواضع:

صفة من صفات عباد الرحمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والتواضع علامة حب الله للعبد، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]. قال ابن كثير: هذه صفات المؤمنين الكُمّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، متعززاً على خصمه[3]، وقد اتصف السلطان صلاح الدين الأيوبي بصفة التواضع، وكان قريباً من الناس، كثير الاحتمال، والمداراة، لم يتكبّر على أحد من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوبه وأصحابه، يسمع مع أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك

---

(1) النهج المسلوك في سياسة الملوك، ص: 117.

(2) مفرج الكروب (2/ 211) حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، ص: 46.

(3) تفسير ابن كثير (2/ 73).

ولا يتغير عليه، وكان بساطه يُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك، ويذكر ابن شداد أنه نفرت بغلته يوماً من الجمال وهو راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم[1]، وكان صلاح الدين قدوة حسنة لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به، وينمُّ تصرفه هذا عن إدراك سليم، وما ذلك إلا لأنه فَهِمَ أن المكان الأسمى في أي مجتمع إنما هو للعاملين والعمل هو أساس التقييم للأفراد والجماعات، وهو محور كل العلاقات الاجتماعية، وبسبب هذا فقد أحبه الناس العامة منهم والخاصة، وتفانوا في خدمته والتعاطف معه وكانت هذه المحبة هي سر نجاحه، وقوته، لأن ما كسبه غيره باستعمال أساليب القسوة والترهيب، حصل عليه هو بالمحبة والتعاطف والسلوك السليم[2]، وكان أصحابه، يتشبَّهون به، ويتسابقون إلى المعروف، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: 47]، فعندما قرَّر بناء سور القدس وحفر خندقه، تولى ذلك بنفسه، ونقل الأحجار على عاتقه، وتأسى به جميع الناس الفقهاء والأغنياء والأقرباء والضعفاء، فاحترمه الناس من أجل ذلك، وفي عام (587هـ/ 1191م)، قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، إلى السلطان صلاح الدين، فأكرمه وزوَّجه بابنة أخيه العادل، ولما ركب صلاح الدين ليودعه ترجَّل معز الدين له، فترجَّل صلاح الدين، ولما ركب السلطان، عضده معز الدين وأركبه وكان علاء الدين بن عز الدين صاحب الموصل مع السلطان آنذاك، فسوَّى ثيابه أيضاً، فقال بعض الحاضرين هامساً وهو يتعجب من هذا الاحترام الشديد لصلاح الدين: ما تُبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت، يُركِّبك ملك سلجوقي، وابن أتابك زنكي[3] فهذا شيء موجز عن الرصيد الخلقي لمؤسس الدولة الأيوبية.

وقد اتصف صلاح الدين بمجموعة من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، من علو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والقدرة على حل المشكلات، وعلى التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يوحد الشام والموصل ومصر، وغيرها من البلدان تحت زعامته وأن يحقق الانتصار الكبير على الصليبيين في حطين وأن يسترد بيت المقدس، فقد توج جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد، والمجتمع، والدولة وأصبح مشروعه المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد كشف صلاح الدين يوماً عن مصدر قوته في حديثه مع ابنه الملك الظاهر غازي، وهو في بيت المقدس بعد أن أجرى الصلح مع

(1) النوادر السلطانية، ص: 63.

(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 225.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الأيوبيين، ص: 225.

ريتشارد قلب الأسد، وقبل أن يأذن له بالذهاب إلى حلب إذ أوصاه قائلاً: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلُّد لها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي أحداً، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك إليه، فإنه كريم[1].

المبحث الثالث
عقيدة الدولة الأيوبية

كانت العودة إلى هوية الأمة المسلمة، وإلى عقيدة أهل السنة والجماعة، من أبرز معالم التجديد في العهد الزنكي والأيوبي، ولقد طال الانحراف وانتشرت البدع، تحميها دولة ظالمة وهي الدولة الفاطمية العبيدية بمصر، فكانت العودة إلى تحكيم الكتاب والسنة من أضخم منجزات الدولتين النورية والصلاحية، فقد أقيم العدل وقمعت البدع، وصبغت الدولة بالصبغة الإسلامية الصافية، وقد سار صلاح الدين الأيوبي على نهج نور الدين زنكي بتطبيق الشرع في سائر أمور الدولة، وتنفيذ العدل وقضى على المظالم، وكان يشرف بنفسه لرفع المظالم واعتمد في ذلك على القضاة والفقهاء، كان صلاح الدين قد اتصف بالإيمان والعبادة والتقوى والخشية من الله والثقة به، والالتجاء إليه، وكان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وصبغ دولته بعقيدة أهل السنة والجماعة التي بينها رسول الله ﷺ وسار على نهجها الخلفاء الراشدون واستمر الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين على هذه العقيدة، وكان صلاح الدين كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله، ولقد حارب المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي واستطاع أن ينفذ المخطط الذي وضعه نور الدين زنكي للقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية الرافضية وعمل على محاربة العقائد الفاسدة في مصر، وإعادة الفكر الإسلامي الصحيح إليها عبر إستراتيجية واضحة، وقد استفادت الدولة الأيوبية من الجهود العلمية والوسائل الدعوية من الدولة السلجوقية والزنكية والغزنوية، فالدولة الأيوبية جاءت بعد دول سنية ساهمت في نشر الكتاب والسنة في الأمة الإسلامية، وقد اهتم صلاح الدين الأيوبي بالمحافظة على

---

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 352، 353.

أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة، ونهجوا نهج المذهب الأشعري وحرصوا على محاربة أي انحراف عنها، والقضاء على مظاهره، وكان معظم الأيوبيين علماء بأصول هذه العقيدة[1]، يقول ابن شداد عن صلاح الدين: وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ العلم، وأكابر الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ... وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع ما يحتاج إليه في هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر، ورأيته وهم يقرؤونها بين يديه[2]، ولقد سعت الدولة الأيوبية إلى نشر عقيدة أهل السنة في مصر وكافة أرجائها، وقد حرص صلاح الدبن على أن تكون عقيدة أهل السنة هي ذات النفوذ في المؤسسات الفكرية التي أنشأها[3].

أولاً: توسع الأيوبيين في انشاء المدارس السنية:

بدأت هذه المرحلة في عام (572هـ/ 1176م) أي بعد تمكن صلاح الدين من إخضاع معظم الشام لسلطانه ثم عوده إلى مصر لتدبير شؤونها، ففي هذا العام أمر ببناء مدرستين: **إحداهما**: للشافعية عند قبر الإمام الشافعي عرفت بالمدرسة الصلاحية، **والثانية**: للحنفية وتوالى بعد ذلك إنشاء المدارس السنية في أماكن متعددة من القاهرة وغيرها من البلاد من قبل أمراء الأيوبيين وأعوالهم، ولن نستطيع الحديث عن كل هذه المدارس لكثرتها، إذ أصبح إنشاء المدارس سنة متبعة من قبل أعيان الدولة في هذه الفترة رجالاً ونساء[4]، وإنما سنركز حديثنا حول أشهر المدارس .. التي كان لها دور في عملية التحويل الكبير للبيئة المصرية من المذهب الشيعي إلى المذهب السني[5].

1 ـ المدرسة الصلاحية:

بدأ بناء هذه المدرسة في عام (572هـ/ 1176م) عند ضريح الإمام الشافعي وكان وقفاً على الشافعية ويصفها السيوطي بقوله: إنها تاج المدارس، ثم يذكر أن التدريس بها أسند

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 246.
(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 7.
(3) التاريخ السياسي والفكري، ص: 246.
(4) المصدر نفسه، ص: 233.
(5) المصدر نفسه، ص: 233.

للعالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وقد زار ابن جبير هذه المدرسة في أواخر ذي الحجة من عام (578هـ/ 1183م)، وكان العمل في توسعتها ما يزال مستمراً، وذكر ابن جبير أن هذه المدرسة لم يعمر مثلها في هذه البلاد وليس لها نظير في سعة المساحة والحفاوة بالبناء: يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته والنفقة عليها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الخبوشاني، وسلطان هذه الجهات: صلاح الدين يسمح له بذلك ويقول: زد احتفالاً وتأنقاً، وعلينا القيام بمؤونة ذلك، وذكر ابن جبير أنه حرص على لقاء الخبوشاني، لأن أمره كان مشهوراً بالأندلس[1]، ولعل في إشارة ابن جبير ما يؤكد أن صلاح الدين كان يتخير أساتذة مدارسه من أهل العلم والفضل والصلاح، ومن بين من ظهرت شهرتهم في العالم الإسلامي، حتى تتحقق على أيديهم الأهداف التي يسعى إليها، وحتى يكونوا عنصر جذب لطلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي[2].

2 ـ مدرسة المشهد الحسيني:

وبنى صلاح الدين مدرسة بالقاهرة بجوار المشهد المنسوب ـ ظلماً وزوراً ـ إلى الحسين، وجعل عليها وقفاً كبيراً[3]، كما أشار المقريزي إليها أثناء حديثه عن المشهد الحسيني فقال: ولما ملك السلطان الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء، فوضها للفقيه: البهاء الدمشقي وكان يجلس عند المحراب الذي الضريح خلفه، فلما وزر معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ (للملك الكامل) .. جمع من أوقافه ما بنى به إيوان التدريس الآن، وبيوت الفقهاء العلوية[4] وإذا كان الهدف العام الذي ابتغاه صلاح الدين من زرع المدارس السنية في مصر هو التمكين لمذهب السنة والقضاء على المذهب الشيعي، فإن لإنشاء هذه المدرسة في داخل المشهد الحسيني مغزى خاصاً، فقد كان من المعاقل الأخيرة التي يلجأ إليها بقايا الشيعة في مصر، ومن استطاع الفاطميون أن يستميلوا عواطفهم من عوام السنة، ولذا كان من الضروري أن توجد مدرسة في هذا المكان لتعليم الدين الصحيح، ومحاربة ما نشره الفاطميون من بدع[5].

3 ـ المدرسة الفاضلية:

ومن المدارس الهامة التي أنشئت في هذا العصر: المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل سنة (580هـ/ 1184م) ووقفها على الشافعية والمالكية، وخصص إحدى قاعاتها لإقراء

---

(1) رحلة ابن جبير، ص: 21.

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 234.

(3) الوفيات لابن خلكان (6/ 206).

(4) المواعظ والاعتبار (1/ 427، 428).

(5) التاريخ السياسي والفكري، ص: 235.

القرآن الكريم وتعليم علم القراءات على الإمام القاسم أبي محمد الشاطبي (صاحب الشاطبية ت 596هـ/ 1294) ووقف على هذه المدرسة عدداً كبيراً من الكتب قيل: إنها بلغت مائة ألف كتاب، وجعل إلى جانبها كتاباً وقفه على تعليم الأيتام، ووصف المقريزي هذه المدرسة بقوله: وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها[1]، كما بنى السلطان العادل: أخو صلاح الدين مدرسة للمالكية، وكذلك فعل وزيره صفي الدين عبد الله بن شاكر (ت 630هـ/ 1232) إذ أقام مدرسة للمالكية في موضع دار الوزير الفاطمي يعقوب بن كلّس، وكان ابن شاكر عالماً متفقهاً على مذهب الإمام مالك[2].

4 ـ دار الحديث الكمالية:

وكان للملك الكامل بن العادل شغف بسماع الحديث الشريف، كما كان معظماً للسنة وأهلها، راغباً في نشرها، فأنشأها بالقاهرة أول دار لتدريس الحديث، وهي: المدرسة الكاملية وذلك في عام (622هـ/ 1225م)[3]، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، وأسند مشيختها إلى الحافظ عمر بن حسن الأندلسي (المعروف بابن دحية (ت 633هـ/ 1235م) وكان بصيراً بالحديث معتنياً به، وتأدب الملك الكامل على يديه[4].

5 ـ المدرسة الصالحية:

أما المدرسة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فقد أقامها مكان قصر الفاطميين الشرقي، وشرع في إنشائها في عام (639هـ/ 1241م) مستوحياً فكرتها من المدرسة المستنصرية، حيث وقفها على المذاهب الأربعة ورتب فيها دروساً لهذه المذاهب في عام (641هـ/ 1243م) يقول المقريزي عنه: وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان[5]. وتأتي أهمية هذه المدرسة في أنها أتاحت الفرصة للحنابلة كي يسهموا بجهودهم في حركة الإحياء السني في مصر، ذلك أنهم حتى تاريخ إنشاء هذه المدرسة كانوا الفئة الوحيدة ـ من بين طوائف السنة ـ التي لم يهتم الأيوبيون الأولون بإنشاء مدارس لها، ولعل السر في عدم الاهتمام بأمرهم أنهم كانوا قلة نادرة، يؤكد هذا ما يقوله السيوطي عنهم وهو بصدد ذكر

---

(1) المواعظ والاعتبار (2/ 366).

(2) المصدر نفسه (2/ 365 ، 371).

(3) المصدر نفسه (2/ 375).

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 236.

(5) المصدر نفسه، ص: 236.

فقهائهم في مصر: هم بالديار المصرية قليل جداً، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده. ويوضح السر في هذا بقوله: إن مذهب أحمد لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع الذي ملك فيه العبيديون مصر، وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة: قتلاً ونفياً وتشريداً، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة، حتى إذا ما سقطت دولتهم تراجع العلماء إليها من سائر المذاهب[1]. ولم تكن جهود الأيوبيين ـ في إنشاء المدارس ـ مقصورة على القاهرة وحدها، وإنما امتدت إلى مدن أخرى في مصر، ففي الفيوم أنشأ تقي الدين عمر مدرستين: **إحداهما**: للشافعية، **والأخرى**: للمالكية[2]، وأنشأ صلاح الدين مدرسة للشافعية بمدينة الإسكندرية في عام (577هـ/ 1181م)[3]، وكانت الأوقاف الكثيرة وتيسير سبل المعيشة في هذه المدارس للأساتذة والطلاب إحدى الوسائل الهامة التي أسهمت في جذب العلماء وطلاب العلم إلى مصر، وقد كان من المتبع عند تأسيس أي مدرسة أن يوقف عليها ما يكفي لاستمرار الحياة العلمية بها، يقول ابن جبير: ومن مفاخر هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة إلى سلطانه: المدارس والمحارس[4] الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم[5]. وأشار ابن جبير إلى كثرة مساجد الإسكندرية حتى إن المكان الواحد به أربعة أو خمسة مساجد وربما كانت المساجد مركبة، (أي مكونة من مسجد ومدرسة) وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان؛ فمنهم من له خمسة دنانير مصرية في الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه، وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان[6]. وهذه الصورة المشرقة التي رسمها ابن جبير لجهود صلاح الدين في الإسكندرية توحي بعظم جهوده في هذا المجال بالنسبة لبقية البلاد، ذلك أن الإسكندرية ظلت معقلاً لأهل السنة في العصر الفاطمي، وكان بها في أواخر هذا

---

(1) حسن المحاضرة (1/ 480).

(2) المواعظ والاعتبار (2/ 365).

(3) الحافظ السلفي، محمود زيتون، ص: 140.

(4) المحارس: الواحد: محرس: مأوى مخصص للزهاد والمسافرين والفقراء، انظر: التاريخ السياسي والفكري، ص: 237.

(5) رحلة ابن جبير، ص: 15.

(6) المصدر نفسه، ص: 16، 17.

العهد مدرستان سنيتان إحداهما للمالكية: وهي مدرسة الحافظ بن عوف الزهري، والأخرى للشافعية: وهي مدرسة الحافظ السلفي، واستطاعت هاتان المدرستان أن تقوما بدور كبير في الحفاظ على التراث السني في مصر الفاطمية، حتى أن القاضي الفاضل قد ذكر هذه الحقيقة في إحدى الرسائل التي بعث بها صلاح الدين إلى نور الدين إثر اكتشافه لأحد دعاة الفاطميين في الإسكندرية، فيقول: ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة[1]. فإذا كانت أوقاف صلاح الدين في الإسكندرية التي حافظت على سنيتها بهذه الكثافة فلا شك أنها في البلاد الأخرى التي لقيت دعوة الفاطميين فيها رواجاً كانت أكثر وأكبر، يدلنا على ذلك ما قرره صلاح الدين لنجم الدين الخبوشاني مدرس الصلاحية، فقد خصص له أربعين ديناراً في الشهر عن التدريس، وعشرة دنانير عن النظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلاً من الخبز في كل يوم وراويتين من[2] ماء النيل. وقد أكمل ابن جبير لنا الصورة حينما تابع رصده لجهود صلاح الدين في القاهرة، كي ييسر أسباب العلم للراغبين فيه فيقول: ومن العجيب أن القرافة كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر، والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفي دينار مصرية في الشهر[3].

ومن هذا يتضح أن صلاح الدين وهو يتابع مسيرة الإحياء السني في مصر لم يكتف بإنشاء المدارس، وإنما كان حريصاً أيضاً على جذب علماء السنة إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي كي يشاركوا بجهودهم في هذا الإحياء الفكري، بعد أن كرس الفاطميون جهودهم للقضاء على علماء السنة في مصر، وقد مر بنا قبل قليل ما سجله عليهم السيوطي من أنهم أفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة؛ قتلا ونفياً وتشريداً، حتى إذا سقطت دولتهم تراجع العلماء من سائر المذاهب السنية إليها، وكانت جهود صلاح الدين أكبر مشجع لهذه الهجرات التي قام بها العلماء السنيون إلى مصر، وكما اهتم صلاح الدين بجذب العلماء إلى مصر فإنه اهتم كذلك بجذب الصوفية، فأنشأ لهم أول «خانقاه» للصوفية في مصر، وجعلها «برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة» ووقف عليهم أوقافاً جليلة، وولى عليهم شيخاً يدبر أمورهم عرف بشيخ الشيوخ، ويذكر المقريزي أن سكانها من الصوفية

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: التاريخ السياسي والفكري، ص: 238.

(2) حسن المحاضرة (2/ 57).

(3) رحلة ابن جبير، ص: 22.

كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة، وقد رتب لهم السلطان الخبز واللحم والحلوى في كل يوم، وأربعين درهماً من العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته[1]. وهذه العناية الزائدة بأمور الصوفية كانت تستهدف ـ في ظني ـ غرضاً معيناً يتعلق بحركة الإحياء السني، فعلى الرغم من أن التصوف المعتدل كان اتجاهاً له احترامه من قبل الحكام وعامة الناس في هذا العصر، إلا أن الاهتمام به على هذا النحو في مصر بالذات كان عملاً مقصوداً، ويهدف إلى تحقيق غاية معينة، ولعل السر في هذا هو أن الفاطميين في مصر قد عجزت أساليبهم المتعددة ـ في الدعوة إلى مذهبهم ـ عن أن تتسلل إلى عقائد معظم المصريين، ولكنها بسهولة أثرت في عواطفهم، فمظاهر الحزن والبكاء على الحسين، والاحتفال بموالد أهل البيت، واحتفاء الفاطميين بهذه الاحتفالات وغيرها، كل ذلك ترك تأثيره في عواطف المصريين، وما تزال بقية من آثاره موجودة إلى اليوم، وإذا كان صلاح الدين حاول جذب علماء السنة إلى مصر في كل مكان، ليشاركوا بعلومهم وفكرهم في حركة الإحياء السني، فإن هناك جانباً هاماً كان لا بد من العمل على إشباعه وتحويله من الوجهة التي اتجه بها الفاطميون إلى وجهة أخرى، هذا الجانب الهام هو الجانب العاطفي في الناس والذي سيطر عليه الفاطميون بسهولة، وكان الصوفية من الفئات القادرة على إشباع هذا الجانب يومها: بأخلاقهم السهلة السمحة، وزهدهم في متاع الدنيا، وقدرتهم على مخاطبة عواطف الناس عن طريق مجالس الوعظ والذكر وغير ذلك، وفعلاً نجح الصوفية في العصر الأيوبي في لفت أنظار الناس إليهم وإلى رسومهم، وطقوسهم. فيحكي المقريزي: أن الناس كانوا يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه «سعيد السعداء» وهم متوجهون إلى جامع الحاكم لأداء صلاة الجمعة، حتى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم[2]. وقد تمكن صلاح الدين وخلفاؤه بفضل جهودهم في جذب علماء السنة إلى مصر من أن يخرجوها من عزلتها الفكرية، وأن يعيدوا صلتها الوثيقة بمراكز الثقافة السنية في العالم الإسلامي: كبغداد ودمشق وقرطبة بعد أن قطع الفاطميون كل صلة لها بهذه المراكز، وتخلف عطاء مصر في مجال الفكر السني ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان[3].

ثانياً: جهود الأيوبيين في الشام والجزيرة:

وهذه العناية الزائدة بحركة البعث السني في مصر لا تعني أن الأيوبيين أهملوا البلاد

(1) المواعظ والاعتبار (2/ 415، 416).

(2) المواعظ والاعتبار (2/ 415).

(3) سيرة القاهرة، التاريخ السياسي والفكري، ص: 240.

الأخرى التابعة لهم والتي لم تمر بظروف مصر، بل وجدناهم لا يألون جهداً في نشر الثقافة السنية في كل بلد يحلون به سواء في السلاطين، والأمراء من الرجال والنساء، والأعوان من الوزراء والقواد والعلماء والكتاب . . وحرص كثير من هؤلاء على بناء المدارس وتشييدها في بلاد الشام والجزيرة: فصلاح الدين أنشأ مدرسة للشافعية بمدينة القدس وبنى مدرسة للمالكية بدمشق وجعل داره في دمشق عندما انتقل إلى مصر خانقاه للصوفية، وأنشأ تقي الدين عمر مدرسة بمدينة الرها، وأتم العزيز عثمان ابن صلاح الدين مدرسة بدمشق كان أخوه الأفضل قد شرع في عمارتها، وعرفت بالمدرسة العزيزية، وشيد المعظم عيسى ابن العادل مدرسة للحنفية بدمشق عرفت بالمعظمية[1]، وأوقف سيف الإسلام أخو صلاح الدين على الحنابلة مدرسة بدمشق[2] وأقام الأشرف موسى ابن العادل دار الحديث الأشرفية بهذه المدينة[3]، وأنشأ القاضي الفاضل دار الحديث الفاضلية قرب الجامع الأموي[4]، وبنت ست الشام (أخت صلاح الدين) مدرسة للشافعية بدمشق[5]، وكذلك فعلت أختها ربيعة خاتون فبنت مدرسة وقفتها على الحنابلة بدمشق أيضاً[6]، إلى غير ذلك من المدارس التي كثرت وانتشرت حتى إن عز الدين بن شداد عد منها في دمشق وحدها ثنتين وتسعين مدرسة، موزعة بين المذاهب السنية الأربعة، وذلك عدا من الأماكن الأخرى التي كانت تشغل في التعليم والدرس: كالجامع الأموي[7]، وقد نقل ابن جبير ـ أيضاً ـ صورة عن الحياة العلمية في دمشق، وخاصة داخل مساجدها، ومشاهدها وذلك عندما زار هذه المدينة في عام (580هـ/ 1184م) فيقول عن الجامع الأموي: وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيه إجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة[8] ويقول عن المشاهد: ولك مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقة (خانقاه) يعين لها السلطان أوقافاً تقوم

---

(1) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 579).
(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 241.
(3) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 19).
(4) التاريخ السياسي والفكري، ص: 241.
(5) المصدر نفسه، ص: 241، نقلاً عن: مرآة الزمان.
(6) المصدر نفسه، ص: 241.
(7) المصدر نفسه، ص: 241.
(8) رحلة ابن جبير، ص: 220.

بها وبساكنيها، والملتزمين لها .. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة(1)، وحظيت حلب هي الأخرى بقسط كبير من جهود الأيوبيين وأعوانهم، فأنشأ بها الظاهر غازي ابن صلاح الدين مدرسة مشتركة للشافعية والحنفية، وتولى النظر والتدريس بها القاضي بهاء الدين بن شداد الذي وكل إليه الظاهر النظر في أوقاف حلب كلها(2)، وبنى ابن شداد المدرسة الصاحبية للشافعية، وبجوارها أقام داراً للحديث ظلت مجمعاً لأهل الحديث يسكنون بها، ويقرءون، ويسمعون ويكتبون حتى محنة التتار، ووقف عليها قرية من قرى حلب وبالقرب من هذه الدار بنى داراً للصوفية(3) وبقيت حلب طيلة عهد الأيوبيين منارة للعلم، يقصدها الطلاب من أنحاء شتى بفضل الله ثم الجهود العلمية التي نهض بها ابن شداد، حيث اعتنى بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، فعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وقصدها الفقهاء من البلاد المختلفة، وكثر الاشتغال بالعلم والإفادة منه، ويذكر ابن خلكان أنه التحق بالمدرسة التي أنشأها ابن شداد هو وأخوه، وكان ابن شداد يدرّس فيها بنفسه، ويرتب معه أربعة من الفقهاء الفضلاء للإعادة، كما يشير ابن خلكان إلى أن العلماء بحلب في أيام ابن شداد كانت لهم حرمة تامة ورعاية كبيرة وخصوصاً جماعة مدرسته فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان، ويفطرون في رمضان على سماطه، وكان للقاضي عقب صلاة الجمعة درس في الحديث يسمعه المصلون(4) ويذكر ابن واصل أنه توجه إلى حلب في أواخر عام (627هـ/ 1230م) ليدرس الفقه والأصول والنحو واللغة ويتبرك بلقاء ابن شداد، وكان نزوله بالمدرسة الصاحبية(5).

ثالثاً: عناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي:

كانت عناية صلاح الدين الأيوبي والسلاطين الذين جاؤوا بعده للتمكين لمذهب أهل السنة في البلاد التي حكموها عناية شاملة ومكثفة في المدن التابعة لهم، كالقاهرة والإسكندرية، ودمشق، وحلب، وغيرها، ومن أهم عناصر الثقافة السنية التي اهتم بها الأيوبيون :

---

(1) رحلة ابن جبير، ص: 223.

(2) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (4/ 355 أ 356).

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 242.

(4) وفيات الأعيان (6/ 87، 89).

(5) مفرج الكروب (4/ 311، 312).

1 ـ القرآن الكريم:

اهتم الأيوبيون بتلقين القرآن الكريم للصغار، وتحفيظهم إياه في البلاد التابعة لهم، فابن جبير يذكر: أن صلاح الدين أمر بعمارة أماكن متعددة في مصر، ورتب فيها معلمين للقرآن الكريم: يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجري عليهم الجراية الكافية لهم[1]، ويصور القاضي بهاء الدين بن شداد مدى عناية صلاح الدين بالقرآن فيذكر أنه مر يوماً على طفل صغير يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقربه إليه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة. وكان يشترط في إمامه أن يكون عالماً بعلوم القرآن، متقناً لحفظه[2]، وقد مر بنا أن القاضي الفاضل جعل إلى جانب مدرسته في القاهرة كُتاباً وقفه على تعليم الأيتام القرآن الكريم، وأنه خصص إحدى قاعات هذه المدرسة لإقراء القرآن وتدريس علم القراءات، وعندما زار ابن جبير دمشق وجد الجامع الأموي لا يخلو من تلاوة القرآن الكريم لا صباحاً ولا مساءً، ولهؤلاء القراء إجراء يومي يعيش منه أكثر من خمسمائة إنسان وعند فراغ القراء من التلاوة الصباحية يجلس أمام كل منهم صبي يلقنه القرآن الكريم، وللصبيان على قراءاتهم جراية معلومة أيضاً تصل إليهم عدا أبناء ذوي اليسار، فإن آباءهم ينزهونهم عن أخذها[3]، كما رأى ابن جبير مكاناً آخر بدمشق، يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم، وعليه وقف كبير يأخذ منه المعلمون ما يفي بحاجات الصبيان وكسوتهم وينفقونه عليهم[4]، وكان علم القراءات يدرس بدار الحديث الأشرفية بدمشق[5]، وبالمدرسة القاهرية بحلب[6].

2 ـ الحديث الشريف:

واهتم الأيوبيون بالحديث الشريف اهتماماً عظيماً، وكان هذا الاهتمام تلبية لحاجتين ملحتين واجههما المجتمع الإسلامي في مصر والشام، **إحداهما**: عامة، **والأخرى**: خاصة ببعض البيئات. أما العامة: فهي أن المسلمين كانوا يواجهون عدواً يتربص بهم الدوائر،

(1) رحلة ابن جبير، ص: 25.
(2) سيرة صلاح الدين، ص: 9، التاريخ السياسي والفكري، ص: 243.
(3) رحلة ابن جبير، ص: 220.
(4) المصدر نفسه، ص: 220، التاريخ السياسي والفكري، ص: 243.
(5) حسن المحاضرة (2/ 506).
(6) أعلام النبلاء (4/ 355، 356)، التاريخ السياسي والفكري، ص: 244.

ويعبث بمقدساتهم، وكان الاهتمام بتحريض المؤمنين على قتالهم يتطلب عناية كبيرة بالحديث الشريف، وخاصة ما يتعلق منه بهذا الباب، لذا وجدنا صلاح الدين شغوفاً بحديث رسول الله ﷺ يردده ويسمعه بل ويسعى لسماعه، ويشجع على التأليف فيه، ويذكر العماد الأصفهاني أنه تردد معه أثناء زيارته للإسكندرية في عام (572هـ/ 1176م) على الحافظ السلفي، وسمعوا منه الحديث الشريف[1]، كما سمع هو وأولاده موطأ مالك من فقيه الإسكندرية: ابن عوف الزهري، وذلك في عام (577هـ/ 1181م)[2]، ويصف بهاء الدين بن شداد صلاح الدين: بأنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث وأنه كان يسعى إلى علمائه إذا كانوا ممن ينزهون أنفسهم عن حضور مجالس الحكام، ويستطرد ابن شداد قائلاً: أنه كان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، ويستحضرني في خلوته، ويحضر بعضاً من كتب الحديث ويقرؤها[3]، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه حثه على الجهاد أو ذكر له شيئاً من أخباره يقول ابن شداد: ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث ورد في فضله، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل[4]، ولم تكن العناية بالحديث مما اختص به صلاح الدين، بل إن كثيراً من أمراء الأيوبيين سعى إلى سماع الحديث وروايته، ومنهم تقي الدين عمر الذي سمع من السلفي بالإسكندرية[5]، والملك الكامل الذي نهج سبيل نور الدين وأنشأ بمصر أول دار للحديث الشريف ووصفه السيوطي بأنه كان معظماً للسنة وأهلها، وأنه سمع من السلفي وأجازه[6]، كما وصفه سبط ابن الجوزي بأنه كان يتكلم في صحيح مسلم بكلام مليح[7]، أما الأشرف بن العادل فقد سمع صحيح البخاري في دار الحديث الأشرفية التي أنشأها بدمشق[8].

هذه الجهود التي نهض بها الأيوبيون للعناية بالحديث كانت استجابة لحاجة عامة تتعلق

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: التاريخ السياسي والفكري، ص: 245.
(2) طبقات الشافعية (4/ 226).
(3) سيرة صلاح الدين، ص: 10، التاريخ السياسي والفكري، ص: 245.
(4) التاريخ السياسي والفكري، ص: 245.
(5) المواعظ والاعتبار (2/ 265).
(6) حسن المحاضرة (2/ 33، 34)، التاريخ السياسي والفكري، ص: 245.
(7) التاريخ السياسي الفكري، ص: 245.
(8) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 19 أ 21).

بمتطلبات الجهاد في سبيل الله والحض عليه، ورفع إمكانات المسلمين عن طريق تربيتهم، وتثقيفهم بعنصر هام من عناصر الثقافة السنية، وأما الحاجة الخاصة التي تطلبت مزيداً من الحفاوة بالحديث الشريف، فكانت تتعلق بالبيئات التي ساد فيها النفوذ الشيعي فترة من الزمن، ذلك أن الشيعة لا يصححون من الأحاديث إلا ما رواه أهل البيت فقط، وما ينسبونه إلى أهل البيت لا يخلوا من الوضع والأكاذيب، كروايات زرارة وجابر الجعفي وغيرهم من الكذبة، ويطعنون فيما سواه ويتخذون من ذلك وسيلة إلى الطعن في رواتها[1]، ولذا كانت العناية بالحديث الشريف في مصر إحياء لهذا الجانب من جوانب الثقافة السنية[2].

3 ـ أصول العقيدة السنية:

اهتم الأيوبيون بالمحافظة على أصول العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينه وصنوفه، ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتى المعارف والعلوم والفنون[3] قال عنه الذهبي: العلامة إمام المتكلمين أبو الحسن . . وكان عجباً في الذكاء وقوة في الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كره وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوراتهم[4] وذكر الذهبي أيضاً: ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله أشياء حسنة وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم[5]، ويقول: رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها: تمر كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول وبه أدين، ولا تؤول[6].

وقال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط، والميزان، والشفاعة، والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 246.

(2) المصدر نفسه، ص: 246.

(3) شعبة العقيدة لأبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه، ص: 21.

(4) سير أعلام النبلاء (15/ 86).

(5) المصدر نفسه (15/ 87).

(6) المصدر نفسه (15/ 86).

والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة الرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة[1]، وأما ابن عساكر فقد أفرد كتاباً في الدفاع عنه، ومدحه كثيراً، وجعله من المجددين، وذكر الروايات الواردة في مدح قومه وأسرته[2]، وكذلك السبكي في طبقات الشافعية، وكان مما قال فيه: شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين، سعياً يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، إمام حبر، تقي برّ، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى، وقام في نصرة الإسلام فنصره نصراً مؤزراً[3]. وغيرهم من العلماء الذين مدحوه وأثنوا على ما قام به من نصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم[4].

أ ـ المراحل التي مرّ بها: مرّ أبو الحسن الأشعري بأطوار ثلاثة في حياته الاعتقادية.

الطور الأول: تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال وأنه بقي فيه ملازماً شيخه وزوج أمه الجبائي حتى بلغ أربعين سنة من عمره[5].

الطور الثاني: بعد خروجه على المعتزلة، سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري[6]، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب[7]، يقول ابن تيمية رحمه الله: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع من الاعتزال سلك طريق أبي محمد بن كلاب[8]، وهذا الطور يمثله كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع[9]، وكان ابن كلاب يرد على المعتزلة والجهمية ومن تبعهم بطريقة يميل فيها إلى

(1) ترتيب المدارك (5/ 24).

(2) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (1/ 339).

(3) طبقات السبكي (3/ 347).

(4) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (1/ 340).

(5) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمتسبين إليه، ص: 39.

(6) سير أعلام النبلاء (11/ 174).

(7) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمتسبين إليه، ص: 42.

(8) الفتاوى (5/ 556) (3/ 103).

(9) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص: 42.

مذهب أهل السنة والحديث، ولكن لما كثر جداله معهم ورده عليهم ومناظرته لهم بالطرق القياسية، سلَّم لهم أصولاً هم واضعوها، فمن هنا دخلت البدعة في طريقته[1]، وكان ابن كلاب قد أحدث مذهباً جديداً، فيه ما يوافق السلف وفيه ما يوافق المعتزلة والجهمية[2]، وفي هذا يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين:

فأهل السنة والجماعة يُثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها[3]، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري[4]، وهذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب دفع الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السلف إلى أن يحذروا منه ومن أتباعه الكلابية[5]، وهذه الطريقة التي أحدثها ابن كلاب البصري لم يسبقه إليه غيره، ووافقه عليها الأشعري وردَّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة[6].

الطور الثالث: مكث الأشعري زمناً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة، ولكن الله تعالى مَنَّ عليه بالحق فنُور بصيرته وذلك بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتزام طريقتهم، واتباع منهجهم ومسلكهم، وكان هذا هو الذي أراد أن يلقى الله تعالى عليه، متبرئاً من المذاهب التي عاشها، وداعياً إلى طريقة السلف ومذهبهم، ومنتسباً إلى الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا الطور نظراً لأهميته في المجال الاعتقادي فقد أثبتناه له ـ بعد توفيق الله ـ بثلاثة وجوه[7]:

الوجه الأول: أقوال العلماء: لقد شهد كثير من العلماء والأئمة برجوع الأشعري الرجوع التام إلى مذهب السلف الصالح، وهؤلاء الأئمة ما قالوا هذه الشهادة إلا بعد أن سبروا حياته وعرفوا ما كان عليه وما استقر عليه. ومن هؤلاء العلماء[8]:

---

(1) المصدر نفسه، ص: 43.

(2) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه، ص: 44.

(3) الفتاوى (13/ 131 أ 154).

(4) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (2/ 4، 5) على هامش منهاج السنة.

(5) مجموع الفتاوى (12/ 368).

(6) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري، ص: 45.

(7) المصدر نفسه، ص: 47.

(8) المصدر نفسه، ص: 47.

* شيخ الإسلام ابن تيمية[1].
* تلميذه الحافظ ابن القيم[2].
* الحافظ الذهبي[3].
* الحافظ ابن كثير، وقد قال رحمه الله: ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وتأويل الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك.

الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً[4].

* الشيخ نعمان الألوسي[5].
* الشيخ أبو المعالي محمود الألوسي[6].
* العلامة محب الدين الخطيب. وقال رحمه الله في بيان أطوار الأشعري ورجوعه التام إلى مذهب السلف: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل من كبار أئمة الكلام في الإسلام، نشأ أول أمره على الاعتزال، وتتلمذ فيه على الجبائي. ثم أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور نشيطاً يؤلف ويناظر ويُلقي الدروس في الرد على المعتزلة، سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل، وطريقة السلف، ثم محض طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها. وكتب بذلك كتبه الأخيرة ومنها في أيدي الناس كتاب «الإبانة» وقد نص مترجموه على أنها آخر كتبه، وهذا ما أراد أن يلقى الله عليه، وكل ما خالف ذلك مما يُنسب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فإن الأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب الإبانة وأمثاله[7].

---

(1) الفتاوى (6/ 53).

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: 112.

(3) سير أعلام النبلاء (15/ 86).

(4) إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي، ص: 48.

(5) جلاء العينين، ص: 213.

(6) غاية الأماني في الرد على النبهاني (2/ 408).

(7) انظر المنتقى للذهبي تعليق محب الدين رقم 2، ص: 41.

الوجه الثاني: التقاؤه الحافظ زكريا الساجي: بعد خروجه من الاعتزال ومن التخلص من طريقة ابن كلاب لجأ إلى الأئمة من أهل الحديث ممن عُرفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء منهجهم ليأخذ منهم مقالة السلف وأصحاب الحديث، ومن أشهرهم الحافظ الثبت محدث البصرة زكريا الساجي[1]، يقول ابن تيمية عن الأشعري: وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى، وذلك آخر أمره، كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم[2]، وقال الذهبي عندما ترجم للحافظ الساجي يقول: وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف[3]، وقال في مكان آخر عن الساجي: أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تآليف[4]، ومن الذين أثبتوا للأشعري هذا اللقاء مع المحدث الحافظ زكريا الساجي، وجعلوه نقطعة تحول كبيرة عند الأشعري[5]: الإمامان: ابن القيم[6] وابن كثير[7]، وغيرهما[8].

الوجه الثالث: تأليفه كتاب الإبانة وإثباته له: إن آخر الكتب التي ألفها الأشعري رحمه الله هو كتاب الإبانة، وقد ذكر في هذا الكتاب انتسابه للإمام أحمد رحمه الله، والتزامه بعقيدة السلف الصالح، واتباع أئمة الحديث، وذكر بعد هذا عقيدة السلف الصالح في أمور الدين، ولقد أثبت هذا الكتاب للأشعري جمع كثير من الأئمة، من المتقدمين والمتأخرين[9]، وأقرب العلماء زمناً بزمن الأشعري هو ابن النديم (ت 385هـ) فقد ذكر في كتابه الفهرست ترجمة للأشعري وذكر جملة من كتبه التي ألفها، ومنها كتاب «التبيين عن أصول الدين» وجاء بعده ابن عساكر وانتصر للأشعري، وأثبت له كتاب «الإبانة» ونقل منها كثيراً في كتابه «التبيين» للإشادة بحسن عقيدة الأشعري. قال ابن عساكر عن الأشعري: وتصانيفه بين أهل العلم مشهورة معروفة، وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة، ومن وقف على كتابه

---

(1) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص: 49.

(2) الفتاوى (3/ 288).

(3) تذكرة الحافظ الذهبي (2/ 709).

(4) سير أعلام النبلاء (14/ 198).

(5) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمتسبين إليه، ص: 50.

(6) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: 97.

(7) البداية والنهاية (11/ 131).

(8) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري، ص: 50.

(9) كتب الشيخ حماد الأنصاري رسالة أثبت فيها رجوع الأشعري إلى مذهب السلف.

المسمى «الإبانة» عرف موضعه من العلم والديانة[1]، ثم جاء ابن درباس (ت 659هـ)، وألف كتاباً في الذب عن الأشعري وأثبت له كتاب الإبانة. وقال: أما بعد .. فاعلموا معشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم وهدانا جميعاً للصراط المستقيم بأن كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده، وبما كان يدين لله ﷻ بعد رجوعه عن الاعتزال بِمَنِّ الله ولطفه، وكل مقالة تُنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها، وتبرأ إلى الله ﷻ منها. وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين، وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، فهل يسع أن يُقال: أنه رجع إلى غيره؟ فإلى ماذا يرجع تراه، يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله، خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، وأئمة الحديث الماضيين، وقد علم أنه مذهبهم ورواه عنهم. هذا لعمري ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين كيف بأئمة الدين وقد ذكر هذا الكتاب، واعتمد عليه وأثبته عن الإمام أبي الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأثنى عليه بما ذكره فيه، وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منه إلى تصنيفه، جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام، وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم[2] ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جماعة من هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا كتاب «الإبانة» للأشعري ومنهم:

* إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي (ت 446هـ).
* الحافظ أبو عثمان الصابوني (ت 449هـ).
* الفقيه الحافظ أبو بكر البيهقي (ت458هـ).
* الإمام الفقيه أبو الفتح نصر المقدسي (ت 490هـ).
* الفقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب الذخائر في الفقه (ت 550هـ)[3].

وهناك جمع كثير من العلماء ممن أثبت كتاب «الإبانة» للأشعري، غير الذين ذكرهم ابن درباس ومنهم:

* الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت 728هـ).
* الحافظ الذهبي (ت 748هـ) وقال: وكتاب «الإبانة» من أشهر تصانيف أبي الحسن،

---

(1) تبيين كذب المفتري، ص: 28.

(2) رسالة الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن درباس، ص: 107، تحقيق د. علي ناصر الفقيهي.

(3) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه، ص: 52.

شهرة الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي[1].

* الإمام ابن القيم (ت 571هـ)[2].

* الحافظ ابن كثير (ت 774هـ).

* العلامة ابن فرحون المالكي (ت 799هـ)[3]. وهناك جمع كثير لا يُحصى عددهم من العلماء والأئمة من الذين أثبتوا كتاب «الإبانة» للأشعري وأنه آخر ما صنف[4].

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب في سبب رجوع أبي الحسن إلى مذهب أهل السنة وترك الاعتزال وأهمها رحمة الله به وهدايته له.

ب ـ سرّ عظمة الأشعري في التاريخ: نهض أبو الحسن الأشعري بعد هذا التحول العظيم، يدعو إلى عقيدة أهل السنة، ويدافع عنها في حماسة وإيمان، ويرد على المعتزلة ويتَّبعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة، ومذاهب السلف، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم، فكُلِّم في ذلك فقد قيل له: كيف تُخالط أهل البدع وتقصُدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أولو رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إلي، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة[5]؟ وهذه الجهود العظيمة والمثابرة الصابرة في مناصرة مذهب أهل السنة تستحق الثناء والتقدير وكان أبو الحسن الأشعري مستواه العقلي أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه، وكان صاحب نبوغ وابتكار في العقليات وكان يرد على حُجج المعتزلة وعقائدهم في سهولة وينقُضها بمقدرة وثقة، كما يرد الأستاذ الكبير على شبه تلاميذه، ويحل مشاكلهم، وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في علم الكلام، وأحد مؤسسيه وقد خضع كلُّ من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته، وعمق كلامه، ودقة نظره وإصابة فكره[6].

ج ـ أبو الحسن الأشعري يشرح عقيدته التي يدين بها: فيقول: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي نَدين بها، التمسك بكتاب ربنا ﷻ، وبسنة نبينا ﷺ، وما رُوي عن

---

(1) مختصر العلو، ص: 239.

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص: 113.

(3) الديباج المذهب، ص: 195.

(4) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري، ص: 53.

(5) تبيين كذب المفتري، ص: 116.

(6) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1/ 143، 144).

الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشَكَّ الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقَدَّم، وخليل معظم مضخَّم[1]. ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييداً إجمالياً، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائمين به غير مقصِّرين فيه، إن عبقريته تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يألفونه ويُجلونه وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيَّدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصحيح، ولا صراع بينهما[2] ولا تناقض.

ـ **مصدر العقيدة عن أبي الحسن الأشعري**: كان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة هو الكتاب والسنة، وما جاء به الأنبياء وليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية، ولكنه لم يكن يرى السكوت والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل، وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضرُّ بالإسلام، ويُفقد مهابة السنة ويحمل على ذلك ضعف السنة العلمي والعقلي، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات، ويَهتبلُ أهل الفرق الضالة، فينفذون في أهل السنة والعقيدة الصحيحة، فينفُثون فيهم، ويزرعون الشكوك، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم، وكان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة ﷺ، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة، ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة، وغَرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة، واستعمال المصطلحات العلمية، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي، ولم يكن يسوغ ذلك فقط، بل يَعدُّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر، وهذا مفترق الطرق بينه وبين ـ بعض ـ من الحنابلة والمحدِّثين الذين كانوا يتأثّمون ويتحرجون من النزول في هذا المستوى[3].

---

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص: 5.

(2) المصدر نفسه (1/ 147).

(3) المصدر نفسه (1/ 148).

د ـ بعض مؤلفات أبي الحسن الأشعري: لم يقتصر أبو الحسن الأشعري على المناظرة والمعارضة، بل خلَّف مكتبة كثيرة من مؤلفاته في الدفاع عن السنة، وشرح العقيدة الحسنة، وقد ألَّف تفسيراً للقرآن، أقل ما قيل في أجزائه أنه في ثلاثين مجلداً، وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ إلى ثلاثمائة مؤلف[1]، أكثرها في الرد على المعتزلة، وبعضها في الرد على مذاهب وفرق أخرى ومنها كتاب «الفصول» الذي رد على الفلاسفة والطبيعيين، والدهرية، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب «اللمع» و«إيضاح البرهان» و«التبيين عن أصول الدين» و«الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل». وله ـ عدا العلوم العقلية والكلام ـ مؤلفات في علوم الشريعة منها: كتاب «القياس» وكتاب «الاجتهاد» و«خبر الواحد» وكتاب في الرد على ابن الراونديِّ في إنكاره للتواتر، وقد ذكر في كتابه «العمد» مؤلفاته التي فرغ منها سنة (320هـ) يعني قبل وفاته بأربع سنوات، وهي ثمان وستون مؤلفاً، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر، وقد ألَّف في آخر حياته كتباً كثيرة ويدل كتابه «مقالات الإسلاميين» على أنه لم يكن متكلماً، فحسب، بل كان مؤرّخاً أميناً لعلم العقائد، وقد اعترف بدقته وأمانته وتحرّيه للصدق في النقل المستشرقون[2]، وكتب الفرق والديانات تدلُّ على أمانته ودقته في النقل[3].

هـ ـ اجتهاده في العبادة: لم يكن أبو الحسن الأشعري رجل علم وعقل وبحث ونظر فحسب، بل كان ـ مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل ـ مجتهداً في العبادات متحلياً بالأخلاق الفاضلة، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإن اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات والحرص على الطاعات، وكانوا يجمعون بين الدراسة والإفادة والعبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه: خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ فلم أجد أورعَ منه، وأغضَّ طرفاً، ولم أر شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة[4]. ويحكي أبو الحسين السُّروي من عبادته في الليل واشتغاله، ما يدل على حرصه وقوته في العبادة[5]، قال

(1) تبيين كذب المفتري، ص: 136.

(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 150).

(3) المصدر نفسه (1/ 150).

(4) تبيين كذب المفتري، ص: 141.

(5) رجال الفكر والدعوة (1/ 150).

ابن خلكان: وكان يأكل من غَلةِ ضيعة وقفَها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عَقَبِهِ، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، هكذا قاله الخطيب[1].

و ـ عقيدة أبي الحسن الأشعري التي مات عليها:

قال أبو الحسن الأشعري: هذه حكاية جملة ما عليه أهل الحديث والسنة:

1 ـ الإقرار بالله وملائكته ورسله وأن محمداً عبده ورسوله.

2 ـ وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

3 ـ وأن الله ﷻ على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

4 ـ وأن له يدين بلا كيف كما قال ﷻ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75].

5 ـ وأن له عينين بلا كيف كما قال ﷻ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: 14].

6 ـ وأن له وجهاً كما قال ﷻ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: 27].

7 ـ وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.

8 ـ وأقروا أن الله سبحانه عالماً كما قال ﷻ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: 166] وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: 11].

9 ـ وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.

10 ـ وأثبتوا لله القوة كما قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: 15].

11 ـ وقالوا: إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله.

12 ـ وأن الأشياء تكون بمشيئة الله، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: 29]. وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون.

13 ـ وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله.

---

(1) وفيات الأعيان (1/ 412).

14 ـ وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله وأن أعمال العباد يخلقها الله ﷻ وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً.

15 ـ ويقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق.

16 ـ ومن قال باللفظ أو الوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق.

17 ـ ويقولون إن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: 15] وأن موسى ﷺ سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكًّا فأعلمه أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة.

18 ـ ولا يكفّرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر، وهم مؤمنون، وإن ارتكبوا الكبائر.

19 ـ والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم.

20 ـ والإسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث، والإسلام عندهم غير الإيمان.

21 ـ ويقرون بأن الله سبحانه مقلب القلوب.

22 ـ ويقرون بشفاعة رسول الله ﷺ وأنها لأهل الكبائر من أمته، وبعذاب القبر، وأن الحوض حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق.

23 ـ والمحاسبة من الله ﷻ للعباد حق والوقوف بين يدي الله حق.

24 ـ ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق.

25 ـ ويقولون: أسماء الله هي الله.

26 ـ ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين، حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء، ويقولون: أمرهم إلى الله إن شاء

عذبهم وإن شاء غفر لهم، ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله.

27 ـ وينكرون الجدال والمراء في الدين والخصومة في القدر والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة والآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا يقولون كيف ولا لم لأن ذلك بدعة.

28 ـ ويقولون: إن الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه وأمر بالخير ولم يرض بالشر وإن كان مريداً له.

29 ـ ويعرفون حق الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم.

30 ـ ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضوان الله عليهم.

31 ـ ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي ﷺ.

32 ـ ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ: «**إن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر؟**» كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ.

33 ـ ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

34 ـ ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين لا يبتدعون في دينهم ما لم يأذن به الله.

35 ـ ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: 22].

36 ـ وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

37 ـ ويرون العيد والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر.

38 ـ ويثبتون المسح على الخفين سُنة ويرونه في الحضر والسفر.

39 ـ ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى آخر عصابة تقاتل الدجال وبعد ذلك.

40 ـ ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة.

41 ـ ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى ابن مريم يقتله.

42 ـ ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج والرُّؤيا في المنام.

43 ـ وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم.

44 ـ ويصدقون بأن في الدنيا سحرة وأن الساحر كافر كما قال الله، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.

45 ـ ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وموارثتهم.

46 ـ ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان.

47 ـ وأن من مات مات بأجله وكذلك من قتل قتل بأجله.

48 ـ وأن الأرزاق من قِبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراماً.

49 ـ وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه.

50 ـ وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله بآيات تظهر عليهم.

51 ـ وأن السنة لا تنسخ القرآن[1].

52 ـ وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد.

53 ـ وأن الله عالم ما العباد عاملون وكتب أن ذلك يكون وأن الأمور بيد الله.

54 ـ ويرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين، ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة بجماعة

(1) مسألة فيها خلاف يطول عند أهل السنة.

المسلمين، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر والكبر والازدراء على الناس والعجب.

55 ـ ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة.

56 ـ ويرون التشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع وحسن الخلق وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المأكل والمشرب.

57 ـ فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكر من قولهم نقول وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير[1].

هذه عقيدة الإمام الأشعري التي استقر عليها وصرح بها، وهي من الآثار التي تركها بعد وفاته، وقد ساهمت بلا شك في توعية الأمة وتربيتها على أصول أهل السنة والجماعة سواء في المدارس النظامية في عهد السلاجقة، أو في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وإلى يومنا هذا، ومن الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري، بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث أن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة، ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري في بعض المسائل: أبي بكر الباقلاني، وابن فورك، وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي والقشيري، والجويني والغزالي وغيرهم على درجات متفاوتة بينهم في ذلك، وقد قام الدكتور عبد الرحمٰن بن صالح بن صالح المحمود بتتبع هذا التطور بنوع من التفصيل في كتابه القيم «موقف ابن تيمية من الأشاعرة».

وفاته:

وكانت وفاته سنة (324هـ) ودفن ببغداد في مشروع الزوايا[2]، ونودي على جنازته: اليوم مات ناصر السنة[3]. هذه هي العقيدة السنية التي سارت عليها الدولة الأيوبية، ولقد قام علماء السنة بتفنيد فكرة النص التي قال بها الشيعة الرافضة وبنوا عليها مذهبهم في الإمامة، وأوضحوا تهافتها اعتماداً على ما تم من اختيار أبي بكر ومبايعة المسلمين له في

---

(1) اعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث شرح جملة ما حكاه عنهم أبو الحسن الأشعري وقرّره في مقالاته، د.محمد عبدالرحمٰن الخميس، ص: 11 إلى 171، وقد قام الدكتور بشرح هذه الأصول.

(2) وفيات الأعيان (1/ 412).

(3) رجال الفكر والدعوة (1/ 151).

يوم السقيفة[1]. وفي نفس الوقت، راح دعاة السنة يؤكدون شرعية خلفاء بني العباس السنيين في الخلافة، وحكم جميع بلاد المسلمين، ويظهرون مثالب الفكر الباطني الإسماعيلي وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس، ويبينون بطلان النسب الفاطمي وانتسابهم لعلي بن أبي طالب ﷺ، ولقد استفاد الأيوبيون من السلاجقة والزنكيين في وسائل نشر العقيدة السنية الإسلامية بمصر وفي أنحاء الدولة الأيوبية، وقد كانت العقيدة الإسلامية السنية ووسائل نشرها من ناحية والفقه الشافعي السني من ناحية أخرى، كانت تمثل في العصر الأيوبي إحدى شقَّي الدعوة السنية التي نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الشيعية الإسماعيلية[2].

4 ـ الدراسات الفقهية:

اهتم الأيوبيون بهذا الفرع من فروع الثقافة السنية اهتماماً كبيراً، وذلك من خلال المدارس الكثيرة التي أنشؤوها، وجعلوها وقفاً على فقهاء مذهب بعينه أو وقفاً مشتركاً بين أكثر من مذهب، كما هو الحال في المدرسة الفاضلية التي أوقفت على الشافعية والمالكية، والمدرسة الظاهرية بحلب التي أوقفت على الشافعية والحنفية، وكذلك المدرسة الصالحية بالقاهرة التي وقفها الصالح نجم الدين أيوب على المذاهب الفقهية السنية الأربعة، إلا أن عناية الأيوبيين بمدارس الشافعية كانت أكثر على اعتبار أن مذهب الشافعي كان المذهب الرسمي للدولة، وهو الذي عليه القضاء ويعتنقه جميع الأيوبيين لم يشذ عنهم في ذلك سوى الملك المعظم عيسى بن العادل الذي كان حنفي المذهب، واقتدى به بَنوه في اتباعه، ويضاف إلى هذا أن الذين تولوا المناصب الرئيسة في دولة صلاح الدين كانوا من الشافعية، منهم على سبيل المثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، ويؤكد هذا ما أشرنا إليه من قبل وهو أن نور الدين الحنفي المذهب كان معظم رجاله من الشافعية وكثير منهم تخرج من المدارس النظامية، كالقاضي كمال الشهرزوري، وابن أبي عصرون[3]، وغيرهما.

هذه هي العناصر الأساسية للثقافة السنية التي حفلت بها المؤسسات الفكرية في عصر الأيوبيين. اعتنى الأيوبيون بنشرها، والتمكين لها وبخاصة في مصر، نتيجة لظروفها التاريخية

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 150.

(2) المصدر نفسه، ص: 136، 163.

(3) التاريخ السياسي والفكري، ص: 244.

السابقة، حيث كانت المعقل الرئيس للدعوة الشيعية الإسماعيلية، فقد تركزت عناصر الثقافة السنية حول القرآن الكريم، والحديث الشريف والدراسات الفقهية السنية، وأصول العقيدة، ثم تعدت ذلك إلى كل ما يخدم هذه الثقافة من نحو، وأدب، وعلوم لغة، ولم تكن للدراسات العقلية الفلسفية فيها نصيب بل إن من كانوا يسعون لتحصيل هذا النوع من الثقافة كانوا يحصلونه على استحياء، بسبب استهجان الاشتغال بهذه العلوم من الأوساط العلمية السنية وكان المشتغلون بها لا يلقون تقبلاً اجتماعياً ومرفوضين من البيئات العلمية السنية، التي يحلون بها[1]، والأمثلة على هذا كثيرة منها: أن صلاح الدين كان: مبغضاً للفلاسفة والمعطلة والدهرية[2]. وعلى ما يبدو أن العداء للعلوم الفلسفية في هذه البيئة كان له سببان:

الأول: أن هذا الموقف كان رد فعل ضد المذهب الشيعي الذي اعتمد اعتماداً كبيراً على الفلسفة في تكوين عقائده وفي الدعوة إليها، ومن ثم أنكرها علماء السنة، إيماناً منهم بأن المذهب السني واضح بسيط يسهل على الناس فهمه وإدراكه دون حاجة إلى الاستعانة بالفلسفة أو المنطق كما ذهب إلى ذلك ابن الصلاح في فتواه[3].

الثاني: أن الفلسفة كانت فقدت بريقها، ونزلت من عليائها منذ أن وجه إليها الإمام الغزالي وابل سهامه في كتابه: تهافت الفلاسفة، وكان تأثير الغزالي ما يزال قوياً مسيطراً على البيئات السنية في العصور التي تلت عصره[4].

رابعاً: إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية:

استطاعت الدولة الأيوبية في نهاية القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الهجري إحياء النفوذ السياسي لدولة الخلافة العباسية في أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامي؛ بعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر سنة (567هـ/ 1171م)، وقد نجحوا في سنة (569هـ/ 1173م) في فتح بلاد اليمن وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية، واستطاعوا القضاء على الداعي الفاطمي بها عبد النبي بن مهدي، وخطبوا لبني العباس على

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 248.

(2) سيرة صلاح الدين، ص: 10.

(3) الحياة العلمية في مصر والشام، ص: 6.

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 251.

منابر اليمن؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين، وخطبوا على منابرهما لخليفة بغداد[1]، الذي اكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحي في العالم الإسلامي لكونه أصبح حامي حمى الحرمين الشريفين، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا الأمر دون بني العباس لفترة طويلة[2]، وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرين للفتح الأيوبي لليمن[3]، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة، ثم الزنكيين ونفذها بنو أيوب، ولم يكن بحال من الأحوال تأييداً لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكي[4]، وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة السنية مع جيوشهم، والعمل على نشرها في بلاد اليمن، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التي كانت قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الديلم في عهد أئمة اليمن الزيدية وإبان النفوذ الفاطمي على بلاد اليمن[5]، ومن ناحية أخرى حاول الأيوبيون ضم المغرب الإسلامي وانتزاعه من الموحدين لصلاح العباسيين، ولقد حرص صلاح الدين على احترام الخلفاء العباسيين، وكان منهجه امتداداً لمنهج نور الدين الذي وصفه سبط ابن الجوزي بأنه: كان يتدين بطاعة الخليفة[6]، وكان هذا الاحترام نابعاً من إيمانه بوجوب الطاعة للخلفاء العباسيين، ويظهر هذا بوضوح في إحدى رسائل القاضي الفاضل إلى الخليفة الناصر بعد استيلاء صلاح الدين على حلب إذ جاء فيها: وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمة من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا يريد إلا هذه الأمور التي توسم أنها تلزم[7]، وعندما أرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى صلاح الدين يعاتبه في تلقبه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين، أرسل إليه يعتذر بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء وأنه إن لقبه

(1) رحلة ابن جبير، ص: 73، تاريخ مصر الإسلامية زمن بني أيوب، ص: 183.
(2) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، جمال سرور، ص: 183..
(3) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 183.
(4) المصدر نفسه، ص: 183.
(5) المصدر نفسه، ص: 183.
(6) مرآة الزمان (8/ 213)، التاريخ السياسي والفكري، ص: 251.
(7) كتاب الروضتين (2/ 48)، التاريخ السياسي والفكري، ص: 252.

أمير المؤمنين بلقب آخر فهو لا يعدل عنه: وتأدب مع الخليفة غاية الأدب[1]. وسار على هذا النهج ـ تجاه الخلفاء ـ معظم الأيوبيين[2].

خامساً: حماية سلاطين بني أيوب لطريق الحج والحرمين الشريفين:

يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعي السلاجقة لنزع الأماكن المقدسة من هيمنة الدولة الفاطمية الشيعية، وفي عهد نور الدين زنكي ظهرت جهوده الميمونة في الإحسان لأهل مكة والمدينة، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية، وأقطع أمير مكة إقطاعاً، وأقطع أمراء العرب إقطاعات لحفظ الحج فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعي له بالحرمين على منبريهما بعد اسم الخليفة العباسي[3]، وثمة معلومة على جانب كبير من الأهمية لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها، تشير إلى أن تولي مؤسس هذه الأسرة لإمارة لواء الحج الشامي، إبان خدمتها لنور الدين زنكي، وكان من أهم عوامل استقواء هذه الأسرة الطموحة، فنعرف أن نجم الدين أيوب، كبير البيت الأيوبي، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة (551هـ/ 1156م) وقد ورثه في هذا المنصب أخوه أسد الدين شيركوه الذي وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي، وبعثه أمير الحاج من دمشق[4]. وكان شيركوه في حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة في سبيل إقامة الشعائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوي بالمدينة المنورة[5]، وقد حرص ملوك بني أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر، وأعادوا دفنهما بالمدينة، طبقاً لوصيتهما[6]. واستمرت السيادة العباسية على الحجاز، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية، وبدت مظاهر عودة هذه السيادة في الخطبة للخليفة العباسي بالحرم المكي، قبل

---

(1) حسن المحاضرة (2/ 20)، طبقات الشافعية (4/ 341).

(2) التاريخ السياسي والفكري لمذهب أهل السنة، ص: 252.

(3) الذهب المسبوك، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 203.

(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 204.

(5) مرآة الزمان (8/ 250)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 204.

(6) المصدر نفسه (8/ 278)، المصدر نفسه، ص: 204.

أمير مكة، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر، وملك اليمن من بني أيوب، وفي إرسال التقاليد الخليفية بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة، صُحبة أمير الحاج العراقي، وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء عهدهما يقرأ بجوار المسجد النبوي[1]، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بني العباسي وهو السواد وبطُرُز حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له[2]، كما تولى خلفاء بني العباس، عمارة الحرم المكي، والمسجد النبوي. كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لوائه يوم الوقوف بعرفات[3]، وتأكيداً لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكي، كان أمير الحج العراقي يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه[4]، كما كانت خلع الخليفة شعار السواد العباسي ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكي، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير، وذلك كي يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة[5].

1 ـ صلاح الدين الأيوبي خادم الحرمين الشريفين:

ورث صلاح الدين الأيوبي عن أستاذه نور الدين زنكي السلطنة العامة، ورسالته في توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين، عن طريق إحياء الخلافة العباسية، ونصرة الدعوة السنية، وورث عن أستاذه أيضاً مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج، فأمر في سنة (572هـ) بإبطال الغفارة، التي كانت تؤخذ بجدة من المسافرين على طريق البحر الأحمر، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف[6]، وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة[7]، كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وباليمن[8]، وأيضاً أوقف على أمير المدينة الأمير جماز وأولاده أوقافاً بصعيد مصر، لم تذكرها المصادر الأيوبية وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية المحفوظة اليوم بسجلات

(1) مرآة الزمان (8/ 524، 611)، تاريخ مصر، ص: 205.
(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 205.
(3) النجوم الزاهرة (6/ 105)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 205.
(4) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 206، رحلة ابن جبير، ص: 157 – 158.
(5) المصدر نفسه، ص: 206.
(6) مرآة الزمان (8/ 338)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 207.
(7) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 207، رحلة ابن جبير، ص: 30 – 31.
(8) المصدر نفسه، ص: 207.

مصلحة الشهر العقاري[1]؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس، وهي ضرائب غير شرعية كانت تجبى من التجار عن الحجاج، فتسهل سبيل الحج بعد أن كاد ينقطع، ولم يعد في استطاعة الحجاج أداء فريضة الحج[2]، وكل هذه الأيادي البيضاء التي أسداها صلاح الدين لحجاج بيت الله الحرام جعلت منه حامي حمى الحرمين الشريفين، وهو مظهر من مظاهر الزعامة السياسية في العالم الإسلامي كله[3].

وقد تأثر العالم الإسلامي بجهود صلاح الدين ولذلك عندما يذكر صلاح الدين بالدعاء على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان، وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة الناس، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم[4]، ويقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء الخطيب لصلاح الدين: أنه ذو المآثر الشهيرة، والمناقب الشريفة، فإذا انتهى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفتين بالتأمين، بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقاً، يذيب القلوب خشوعاً، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهدائه في أرضه[5]. يقول ابن جبير: أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله: التوجيه بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأنيسهم، ورفع أيدي الاعتداء عنهم وإلا يعاز في ذلك إلى الخدام والأتباع. وقال: إنما نحن وأنتم متقلبون في بركة الحاج، فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم. وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده واعتناؤه موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم، والله ﷻ كفيل بجزاء المحسنين[6]. والواقع أن صلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طريق الحج بحيث جعل هذا الأمر هجيراه، ودام على مكاتبة أمير مكة يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكي[7]، كما كاتب أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته[8]، كما حرص

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 208.

(2) المصدر نفسه، ص: 208.

(3) المصدر نفسه، ص: 209.

(4) رحلة ابن جبير، ص: 73، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 210.

(5) المصدر نفسه، ص: 80، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 210.

(6) رحلة ابن جبير، ص: 74.

(7) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 210.

(8) المصدر نفسه، ص: 210.

على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة النبوية وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة[1].

2 ـ حماية صلاح الدين لطريق الحج البري لحجاج مصر والمغرب، والأندلس:

أدرك الصليبيون خطورة فريضة الحج، كركن أساسي من أركان الإسلام يحقق للمسلمين الوحدة الروحية، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية كفيلة بتعضيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة، وكيان اجتماعي واحد؛ فعمدوا أحياناً إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية، المارة عبر صحراء سيناء، وفي طريق الحجاج الشهير ونهبها[2]، مما أدى إلى تعطيل الطريق البري للحجاج الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر، واضطرارهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى الفسطاط، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ «الجلاب» حتى ميناء جدة؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرّين[3]، وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البري عبر سيناء، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهداف نور الدين زنكي[4]، ثم صلاح الدين الأيوبي حين كان نائبه بمصر، قبل استقلاله بالسلطنة؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصاراً مزدوجاً من ناحية الشام ومن ناحية مصر في نفس الوقت، وكاد يتم له استرداده[5]. وحين استقرت السلطنة لصلاح الدين، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء، بين مصر والشام، ويؤمن طريق الحج المصري البري بعد انقطاعه، ولا شك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجارية، واختطاف جثمان النبي الكريم ﷺ، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية، وزيارة المدينة النبوية والمسجد النبوي الشريف. ولم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول المصري في أسر هؤلاء الفرنج، وإدخالهم إلى القاهرة في هيئة مزرية، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل

(1) صبح الأعشى (1/ 59، 61)، تاريخ مصر، ص: 210.
(2) مرآة الزمان (8/ 415، 416).
(3) رحلة ابن جبير، ص: 38 – 53.
(4) الباهر، ص: 158، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 212.
(5) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 212.

لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة، حيث ذبحوا ذبحاً[1]، فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـ «خادم الحرمين الشريفين» و«منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين»[2]؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التي أولاها العالم الإسلامي لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة وحرص الأيوبيين على إنجازها مما صرح به العماد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة من أهم دوافع صلاح الدين لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين[3].

3 ـ الإشراف المباشر لملوك بني أيوب على موسم الحج:

داوم ملوك بني أيوب على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامي، وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبي اليمن وذلك حتى في حياة صلاح الدين، فكان يخطب لهم بالحرمين بعد صلاح الدين سلطان مصر[4]، ففي سنة (582هـ/ 1186م) وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبي بنفسه إلى الكعبة، ليمنع الأذان الشيعي بها بحي على خير العمل، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة، ليكون هو الحامي للحرم المكي من الناحية الفعلية؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بني شيبة، الذين ذكر الرسول ﷺ أنه سيبقى في أيديهم إلى يوم الدين، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة، فهدد طشتكين بأخذه قصراً، وهنا أذعن أمير مكة، وسلم المفتاح لطشتكين، الذي سلمه بدوره لبني شيبة[5]. ومما يؤكد اهتمام سلاطين بني أيوب بموسم الحج ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين من استحداثه رسوماً خاصة باستقبال موكب الحج الشامي، وذلك خلال إقامته بدمشق، فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً، مرتدياً الزي العسكري الكامل، ويخرج في احتفال عام، ويقطع به شوارع دمشق، سالكاً طرقاً محددة[6]، وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا أن أحداً من سلاطين مصر الأيوبية لم يحج بنفسه لانشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين، فقد حج من أيوبي اليمن الملك

(1) مفرج الكروب (2/ 127، 132).

(2) النوادر السلطانية، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 213.

(3) الفتح للعماد، ص: 191، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 213.

(4) رحلة ابن جبير، ص: 80.

(5) مرآة الزمان (8/ 388)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 213.

(6) النوادر السلطانية، نقلاً عن: تاريخ مصر الإسلامية، ص: 226.

المعظم شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين، وفاتح اليمن، وأول ملوكها[1]؛ ثم الملك المسعود المعروف باقسيس، ابن الملك الكامل سلطان مصر[2]، وحج من أيوبي الشام: الملك المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر، صاحب دمشق، والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك[3]، لقد حاز الأيوبيون منذ عصر صلاح الدين، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الحرمين الشريفين وتعضيد النفوذ السياسي لأمير لواء الحج العراقي على بلاد الحجاز، كما أصبحت السلطنة الأيوبية هي حامية الدعوة العباسية والعاملة على نشر دعوتها في جميع ديار الإسلام، سواء في ممتلكات الدولة الفاطمية في نفوذ دولة الموحدين بالمغرب، وفوق ذلك في البلاد الإسلامية بالشام التي يتم استردادها من الصليبيين، ولا ريب أن تفرد سلاطين بني أيوب بالنهوض بأعباء الدعوة العباسية، وحماية الخليفة العباسي، وإلزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعي، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامي[4] والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج، قبل نور الدين زنكي وتلامذته سلاطين بني أيوب، كان السلطان محمود الغزنوي أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهوراً في تاريخ المشرق الإسلامي[5]، ثم ورثه السلاجقة، فالسلطان ملكشاه السلجوقي، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين، فبنى أحواض الماء على طريق الحجاز، ورفع المكوس ورسوم الحفاوة عن طريق الحج، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاوري الكعبة بالإنعامات الطائلة[6].

سادساً: محاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب بمجرد تغير النظام السياسي في بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدبير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل

---

(1) الذهب المسبوك، ص: 70 ـ 73، تاريخ مصر، ص: 227.
(2) تاريخ مصر، ص: 227.
(3) الذهب المسبوك، ص: 76 -79.
(4) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 232.
(5) المصدر نفسه، ص: 232.
(6) المصدر نفسه، ص: 233.

القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[1]، وكان للقاضي الفاضل دور بارز في رسم هذه الإستراتيجية، وقد تحدثت عن هذه الوسائل عند حديثنا عن زوال الدولة الفاطمية والتي كان من أهم أسبابها: إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانته وهيبة قصر الدولة الفاطمية، وقطع الجمعة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وإلغاء جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية، وإحياء قضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن[2]، ويبدو أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر قد فروا إلى صعيد مصر، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية، وكان يلقب كنز الدولة إلا أن صلاح الدين بعث أخاه الملك العادل على جيش، استطاع القضاء على هذه[3] الفتنة، وكانت الدولة الأيوبية تتصدى بحزم لكل المحاولات الفاطمية لإرجاع مصر إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي، واستمر الأيوبيون في الانتصار للعقيدة السنية وإبادة التراث الشيعي الرافضي، وتتبعوا أتباعه في القاهرة والصعيد، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها، فانقرضت دعوتها من مصر[4]، واستمروا في ملاحقة أتباع الدعوة في الشام واليمن حتى استطاعوا القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام[5]، ولقد أدركت الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طول تاريخها على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة بمثل النكبة التي نكبوا بها بسقوط الدولة الفاطمية، وهي أعظم دولة شيعية قامت في التاريخ الإسلامي استحوذت الخلافة وكادت تضم العالم الإسلامي كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 181.

(2) المصدر نفسه، ص: 53 ـ 77.

(3) المصدر نفسه، ص: 75.

(4) المصدر نفسه، ص: 77.

(5) المصدر نفسه، ص: 78.

(450هـ/ 1058)[1] فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين على أساس أنه هو الذي أزال دولتهم الكبرى من مصر[2]، ولهذا فالأقلام الشيعية الرافضية عبر التاريخ لا تكل ولا تمل في تشويه سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي. ولقد ظل التشيع في مصر يضعف شيئاً فشيئاً، حتى كاد يمحى منها، وأصبحت مصر تدين بمذهب أهل السنة والجماعة.

سابعاً: من العوامل التي ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السني:

من العوامل التي ساعدت على نجاح الأيوبيين في حركة الإحياء السني عوامل متعددة منها: لم يكن المذهب الشيعي الإسماعيلي راسخ القدم، وكان للمصريين تجاهه موقفان، **الأول**: موقف الإعجاب بأصحاب هذا المذهب نتيجة ما بذلوه من جهود في الدعوة إلى مذهبهم، كان من بينهم: الإكثار في الاحتفالات والدعوات والولائم، والسخاء في منح الهدايا والأعطيات، ومظاهر الترف والبذخ التي كانت تحيط بهم في شتى مناشط الحياة ومظاهر الأبهة والعظمة التي كانوا يحرصون دائماً على الظهور بها[3] والموقف الثاني: موقف من قبل دعوتهم وانخرط في سلكها ومعظم هؤلاء دخلوا في الدعوة إما طمعاً في المال أو الجاه أو المنصب وإما خوفاً من التنكيل والعقاب، وكلا الفريقين لم يعتنق المذهب عن عقيدة وإيمان. وقد سلك الفاطميون طريق الترغيب والترهيب في الدعوة إلى مذهبهم ضمن ما سلكوا من الأساليب والوسائل: فيعقوب بن كلس لما تولى الوزارة للعزيز رتب في داره العلماء وأجرى لجميعهم الأرزاق[4]، وألزم الفاطميون جميع الموظفين ـ بعد فترة من استقرارهم في مصر ـ بأن يعتنقوا مذهب الدولة، فأصبح الحفاظ على المنصب أو الترقي في سلكه يتطلب التظاهر باعتناق عقيدتهم، ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعي[5]، أما مواقف الإرهاب التي اتبعها الفاطميون لفرض المذهب على الناس فكثيرة :ففي عام (381هـ/ 991هـ) ضرب

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 75.
(2) المصدر نفسه، ص: 77.
(3) المصدر نفسه، ص: 412 – 413.
(4) المواعظ والاعتبار (2/ 341)، التاريخ السياسي والفكري، ص: 254.
(5) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، ص: 218.

رجل بمصر وطيف به في المدينة، لأنه وجد عنده موطأ مالك[1]، واضطهد السنة في عهد الحاكم بأمر الله سنة (395هـ/1004م) وألزموا بكتابة سب الصحابة على دورهم، فانصاعوا للأمر مكرهين[2]، وترتب على هذه الموجة من الاضطهاد في عهد الحاكم أن الناس سارعوا إلى الدخول في الدعوة خوفاً، فجلس لهم قاضي القضاة . . . فقدموا من سائر النواحي والضياع وازدحم الناس . . فمات عدة من الرجال والنساء[3]، وفي عهد الظاهر كان نفوذ المالكية ما يزال قويًا، فاضطر الخليفة إلى إخراج فقهائهم من مصر في عام (416هـ/1025م) وأمر الدعاة أن يحفّظوا الناس كتاب دعائم الإسلام في أصول العقيدة الإسماعيلية وغيره من كتبهم وجعل لمن يحفظ ذلك مالاً[4] ومن هذا، يتضح لنا أن هذا المذهب لم يقم على دعائم راسخة في مصر، ولذلك عندما جاء صلاح الدين، وأنشأ المدارس السنية، وفوض القضاء للشافعية، ثم أتبع ذلك بإسقاط الخلافة الفاطمية، استعاد الشافعية والمالكية نفوذهم في مصر، واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها[5]: ولله الحمد والمنة، ولا يزال الشيعة الروافض يسعون لإيجاد موطن قدم في مصر الحبيبة العزيزة إلا أن حب المصريين الأبطال لدينهم العزيز، وثباتهم المستميت على مر العصور على ثوابته من عقيدة سنية صحيحة، وفهم سليم لكتاب الله، ومحبة صادقة لسنة رسول الله، واقتداء رشيد بهدي الخلافة الراشدة جعلت محاولات الشيعة تضيع في مهب الرياح، ولقد كانت المدارس السنية تعين الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، وتذكرها بما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في النهي عن البدع والتحذير منها، كتلك الآيات المصرحة بإطاعة الله ورسوله[6] قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: 54]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

ومما ساعد الأيوبيين على تحقيق أهدافهم: ـ أيضاً ـ في مصر أنها أصبحت في عهدهم

---

(1) المواعظ والاعتبار (2/ 341) التاريخ السياسي والفكري، ص: 254.
(2) المواعظ والاعتبار (2/ 341) التاريخ السياسي والفكري، ص: 254.
(3) المواعظ والاعتبار (2/ 341) التاريخ السياسي، ص: 254.
(4) المصدر نفسه (2/ 341، 342).
(5) المصدر السابق (2/ 343) التاريخ السياسي، ص: 255.
(6) تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين، ص: 25.

منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً في العودة بمصر إلى رحاب السنة، وذلك عن طريق التدريس في المدارس التي أنشئت، أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التي تنتصر للسنة، وظلت هذه الجهود مستمرة تلاحق الجيوب المتبقية للشيعة الإسماعيلية في مصر، وكان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين في جهودهم على مستوى المسؤولية التي ألقيت على عاتقهم: علماً وخلقاً وديانة، كما كان للكثير منهم مشاركة في الحياة السياسية الاجتماعية، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين بن أبي عصرون، والعز بن عبد السلام، بل كان لبعضهم مشاركة فعالة في ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه: عيسى الهكاري، وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة في مواجهة الحكام، والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً[1] كما أن كثيراً من الأيوبيين كانوا علماء وأسهموا في التمكين للمذهب السني ـ سيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

ثامناً: مضامين تربوية في توجيهات صلاح الدين:

من هذه المضامين التي نلمسها في توجيهات صلاح الدين في رسائله كقائد سياسي وزعيم إسلامي الآتي :

1 ـ **التدين بطاعة ولي الأمر**: يقول في صدد الحديث عن طاعته للخليفة العباسي: ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام، ويقول: وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع رداؤها[2].

2 ـ **تصفية الرموز البدعية من منابر الدعوة**: ويقول حول تطهير المنابر من دعاة الشيعة: وتطهير المنابر من رجس الأدعياء ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدنيا، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى فتوقع في العقبى، غير أن التحدث بنعم الله واجب[3].

3 ـ **النهي عن التعصب للمذاهب**: حيث قال في رسالة إلى أخيه العادل الذي كان نائباً عنه في مصر وقد حصل بعض الشغب من بعض الأفراد: انتهى إلينا بالديار المصرية والحضرة العلية أن جماعة من الفقهاء، قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى البغيضة

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 255، 256.

(2) مضمار الحقائق، ص: 62 ـ 65، أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغيير واقع المجتمع المصري، ص: 82.

(3) أثر جهود صلاح الدين التربوية، ص: 83.

وأحيوا بها ما أماته الله من أصل حمية الجاهلية، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعاً مطيعاً ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103]. ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق، إلا أن يقال أحسنها، وما علمنا أن في ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الأدب، وليعلم العبد أن يكتب كتاباً إلى ربه، فليفكر فيما كتب وإلى من كتب[1].

4 ـ **الحث على فضيلة العدل والإحسان للرعية:** وكان يحرص على توجيه ولاته بقوله: فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع ليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسان الضائع فإذا أسند هذا الأمر إلى ولاته، فليكونوا نقاة لا يجد الهوى عليهم سبيلاً ولا يجد الشيطان عندهم مقيلاً وإذا حملوا ثقلاً لا يجدون حمله ثقيلاً[2]، حيث يقول: وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهي محق أمر رسول الله ﷺ بنبذه، ونهى عن أخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كأخذ الربا الذي قرنت اللعنة بمؤلكه وآكله[3].

5 ـ **الاهتمام بأمر القضاء:** حيث يقول: وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ولإمضاء حكامها أجناد ،ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق إليها النفاذ فينبغي أن يعول فيهم على الواحد دون الاثنين، وأن يستعان بهم في الفصل بذي الأيدي وفي اليقظة بذي اليدين، وأمر الحكام لا يتولاه من سأله وإنما يتولاه من غفل عنه وأغفله[4].

لقد حرص صلاح الدين على العودة إلى الأصول المتمثلة بالكتاب والسنة، وحافظ على هذه الأصول من خلال الجهود وذلك بتصفية البدع والمخالفات الشرعية، وقام بصيانة المناهج وعمل على وحدتها، ونشر مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة، فانطلقت لتحقيق الانتصارات العظيمة والرائعة: من تحرير بيت المقدس وغيرها من الفتوحات.

المبحث الرابع
مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين الأيوبي

استوعب صلاح الدين الأيوبي أن من أسباب تحقيق الانتصار ضد المد الشيعي الباطني

(1) كتاب الروضتين (2/ 178).

(2) صبح الأعشى، القلقشندي (3/ 144، 148).

(3) المرجع السابق (3/ 144، 148)، أثر جهود صلاح الدين، ص: 84.

(4) المصدر نفسه.

والغزو الصليبي وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فصلاح الدين الأيوبي يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل إنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، وإنه بدون تأصيل «الذات العقائدية» للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبدّل، كما يحدث دائماً، وما يقتضيه «الموقف» هذا ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديساً كمياً يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار ـ فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها[1].

فالنشاط العلمي في عهد صلاح الدين والاهتمام بالعلماء في حقيقته، امتداد طبيعي لعهد نور الدين محمود، ولم يكن النشاط العلمي أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة ولكنه تصميم هادف يسعى إلى عملية التأصيل العقائدي، وقد كان الأيوبيون يهتمون بالعلماء وأسهموا في حركة التمكين للمذهب السني، فقد كان صلاح الدين الأيوبي: قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء[2]، وكان يحرص على أن يختلي ببعض المقربين إليه من العلماء فيقرأ عليه شيئاً من الحديث أو الفقه، ويشارك الفقهاء في مجلس القضاء[3]، وقد مر بنا في مناسبات عدة حرصه على سماع الحديث الشريف، وسعيه إلى كبار المحدثين ليأخذ عنهم وحرص صلاح الدين على أن يشب أبناؤه على احترام العلم والعلماء، فكان يصطحبهم معه إلى مجالس العلم، ويأخذهم بدراسة بعض الكتب الدينية، فنشأوا محبين للعلم مكرمين لأهله[4]، وقد احتفظ صلاح الدين بعلماء العهد الزنكي وأكرمهم وتعاون معهم، وكان الوزراء والأمراء في دولته

---

(1) عصر الدولة الزنكية للصَّلَّابي، ص: 249، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 249.

(2) سيرة صلاح الدين لابن شداد، ص: 256.

(3) سيرة صلاح الدين، ص: 13 ، 28.

(4) التاريخ السياسي والفكري، ص: 256.

من كبار العلماء ومن أشهرهم وزيره وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. ولقد كان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعاً يكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء[1] وإليك ترجمة أهم العلماء ودورهم السياسي والعلمي والجهادي والتربوي في عهد صلاح الدين:

أولاً: القاضي الفاضل:

الإمام العلّامة البليغ، القاضي الفاضل محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفُصَحَاء، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني، صاحب ديوان الإنشاء الصلاحيّ ولد سنة 529هـ، سمعَ في الكهولة من أبي الطاهر السِّلفي، وأبي محمد العثماني، وأبي القاسم بن عساكر، وأبي الطاهر بن عوف، وعثمان بن فرج العبدري[2]. انتهت إلى القاضي الفاضل براعة الترسُّل وبلاغة الإنشاء، وله في ذلك الفَنِّ اليدُ البيضاء، والمعاني المبتكرة، والباع الأطول، لا يُدْرَكُ شأوه، ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ، مع الكثرة[3]. أخذ الصنعة عن الموفَّقِ يوسف بنِ الخلَّال صاحب الإنشاء للعاضد، ثم خدم بالثغر مدة، ثم طلبهُ ولد الصالح بن رُزِّيْك واستخدمه في ديوان الإنشاء[4] قال العماد: قضى سعيداً، ولم يُبق عملاً صالحاً إلّا قدّمه، ولا عهداً في الجنة إلّا أحكمه، ولا عقد برّ إلّا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب وأوقافه متجاوزة الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتّاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، ما افتتح الأقاليم إلّا بأقاليد آرائه ومقاليد غِناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتابتهُ كتائب النُّصر، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبّر، وعبارته نافثة في عُقَدِ السحر، وبلاغته للدولة مُجمِّلةً وللمملكة مُكَمِّلة، وللعصر الصلاحيّ على سائر الأعصار مُفَضلة، نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرّر دعاء في مكاتبة، ولاردَّد لفظاً في مخاطبة[5]. وقال عنه في كتابه الخريدة: وقبل شروعي في أعيان مصر أُقدِّم ذكر من جميع أفاضل العصر كالقطرة في بحره المولى القاضي الفاضل. إلى أن قال: فهو كالشريعة المحمدية نسخت الشَّرائِعَ، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، هو ضابط الملك بآرائه، ورابط

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 262.

(2) سير أعلام النبلاء (21/ 339).

(3) المصدر نفسه (21/ 339).

(4) المصدر نفسه (21/ 339).

(5) سير أعلام النبلاء (21/ 340).

السّلك بآلائه إن شاء، أنشأ في يوم ما لو دوِّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قُسّ من فصاحته، وقيس في حصافته، ومَنْ حاتم وعمرو في سماحته وحماسته[1]، لا منٌ في فعله، ولا مَيْنَ في قوله، ذو الوفاء والمروءة والصفاء والفتوّة، وهو من الأولياء الذين خُصُّوا بالكرامة، لا يفتر مع ما يتولاه من نوافل صَلاتَه، ونوافل صِلاتِه[2]. وقال عنه الحافظ المنذري: ركن إليه السلطان ركوناً تاماً، وتقدم عنده كثيراً، وكان كثير البِّر، وله آثار جميلة[3]. وقال الموفق عبد اللطيف: القاضي الفاضل كان ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، له الدين والعفاف والتُّقى، مواظب على أوراد الليل والصيام والتلاوة، لما تملك أسد الدين أحضره، فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجُّد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دُربة قوية، كتب من الإنشاء ما لم يكتبه أحد، أعرف عند ابن سناء الملك من إنشائه اثنين وعشرين مجلداً، وعند ابن القطّان عشرين مجلداً، وكان مُتَقلِّلا في مَطْعَمه ومَنْكِحِه وملبسه، لباسه البياض، ويركب معه غلام وركابيُّ، ولا يُمَكِّنُ أحداً أن يصحبه، ويكثر تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف معروف في السِّرّ والعلانية، ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حَدْبَةٌ يغطِّيها الطيلسان، وكان فيه سوء خلق يُكْمِد به نفسَهُ ولا يضرُّ أحداً به، ولأصحاب العلم عنده نفاق، يُحسنُ إليهم، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان أو الإعراض عنهم، وكان دخله ومعلومه في العام نحواً من خمسين ألف دينار سوى متاجر الهند والمغرب[4]، توفِّي مسكوتاً[5]، أحوج ما كان إلى الموت عند تولِّي الإقبال، وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن الله به عناية[6]، وقال عنه أبو شامة: كان ذا رأي سديد وعقل رشيد، معظماً عند السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، وكانت كتابته كتائب النصر[7]، وقد تولى القاضي الفاضل وساهم في أعمال كثيرة في عهد صلاح الدين والتي منها:

1 ـ رئاسة ديوان الإنشاء:

عندما كان صلاح الدين وزيراً للدولة الفاطمية في مصر كان يعتبر بمنزلة السلطان ويُلقَّب

---

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 342).

(2) المصدر نفسه (21/ 342).

(3) المصدر نفسه (21/ 342).

(4) المصدر نفسه (21/ 343).

(5) يعني : فُجاءة ، وهو ما يعرف في عصرنا بالسكتة القلبية.

(6) سير أعلام النبلاء (21/ 343).

(7) كتاب الروضتين (2/ 241).

بلقبه، بينما كان القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء ويعتبر بمثابة وزيره[1]، ظل القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء رئيساً له، مع أنه حافظ على لقب نائب رئيس ديوان الإنشاء احتراماً لأستاذه وراعيه ورئيسه الشيخ الموفق أبي الحجّاج يوسف بن الخلال. ولم يُشِعر ابن الخلال يوماً بأنه حل محلّه، مع أن ابن الخلال ربما رغب في ذلك لتقديره للقاضي الفاضل وتعلّقه به، وتطلّعه إلى الاستمرارية في الأسلوب والآراء. ولم يخب ظنه في تلميذه الذي عامله في أواخر سني حياته معاملة الابن البارّ للوالد[2].

وكانت رئاسة ديوان الإنشاء أقصى ما تمنّاه القاضي الفاضل من مناصب، فبعد صراع دام واحداً وعشرين عاماً في مصر تعرّض خلالها لشتى أنواع المعاناة، توصّل إلى المنصب الذي كان بعض الكتّاب المصريين يحاول الحيلولة دونه. وقد أصبح بعدما تولى المنصب يلقب بالسيد الأجلّ وبالشيخ الأجل، كاتب الدّست الشريف، وصاحب ديوان الإنشاء[3]، وغلب عليه لقب القاضي الفاضل، الذي أصبح يعرف به أكثر من اسمه الأصلي عبد الرحيم البيساني العسقلاني، الذي يشير إلى موطنه ومسقط رأسه، ولا سيّما في الكتابات عنه، وهو وإن تقبّل اللقب شكلياً ورسمياً، فقد تبنّى الصراع المستمدّ من موطنه ومسقط رأسه. وتولى القاضي الفاضل ديوان الإنشاء في مصر، وعلى الرغم من وجود كتّاب أكبر منه سناً قابلهم عند أول دخوله الديوان تلميذاً، وتدرّب على يد بعضهم، مثل القاضي الأثير بن بيان، وعاصرهم، ثم عمل معهم وهو يقفز في ترفّعه وهم ثابتون في أماكنهم، وهو ما أثار حفيظة بعضهم، وواضح أن شخصية القاضي الفاضل الجيّاشة وقدرته على التكيّف، وذكاءه الحادّ، وحدسه الشديد في معرفة مواطن القوة والضعف في القادة، من العوامل التي أدّت إلى ارتقائه السريع، ولكنّ أسلوبه الفني فسح أمامه مجالات وآفاقاً وهذا يدلّ على أهمية الأدب في السياسة، وعلى تقدير رجالات الدولة في ذلك العصر للأدب والأدباء، ورعايتهم لذوي المواهب منهم[4] وحالما تولّى القاضي الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء، راح يعمل مع صلاح الدين على الإعداد المتدرج للقضاء على الدولة الفاطمية، وكانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه إعداد جيش أيوبي ينفّذ به مخطّط الانقلاب[5].

(1) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، ص: 124.

(2) القاضي الفاضل، ص: 125.

(3) المصدر نفسه، ص: 125.

(4) المصدر نفسه، ص: 125.

(5) المصدر نفسه، ص: 126.

2 ـ القاضي الفاضل وجيش صلاح الدين:

أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن مصر من الغزو الإفرنجي، ولم يخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي، لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة (559هـ) وسنة (564هـ) وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفِرقَ[1]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزّيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة، الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها، وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل؛ فألّم بهذه القوات، وعرف دخائلها واطّلع على كل فِرقة منها، وعلى كل قائد من قوّادها، ولم يضنّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجّهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، يراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، يصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعدّ وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج[2]، ومع أن القاضي الفاضل كان رئيساً لديوان الإنشاء ووزيراً لدولة صلاح الدين، إلا أنه كان يلّم بكل صغيرة وكبيرة في الجيش بحكم علاقة ديوان الإنشاء بديوان الجيش، وكان يساهم في إعداد الخُطط الحربية، ويُشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما، وتجهيزهما للجهاد، وقد واظب على هذه المسؤوليات طوال مدة عمله مع صلاح الدين[3].

3 ـ القاضي الفاضل والقضاء على المعارضة الفاطمية:

استمد القاضي الفاضل أسس تحرّكاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين من خبرته في القصور الفاطمية، وضمن الجيوش، ومع الوزراء والمديرين. وأدرك أن هذه المؤسسات

---

(1) القاضي الفاضل، ص: 126.

(2) المصدر نفسه، ص: 127.

(3) المصدر نفسه، ص: 129.

وما تضمّه من شخصيات وَكْرٌ للمؤامرات التي لا تنتهي، ومعينٌ للدسائس التي لا تنضب، وقد تعامل معها جميعاً وشاهدها من قبل، وأيقن أيضاً أنها لن تتوانى عن الاستنجاد بالفرنج على الرغم من كل ما مرّ بها وبالشعب المصري من مصائب ومِحَن، في سبيل الحفاظ على نفوذها، ولا سيّما إذا رأت في سلطة صلاح الدين، أو في سلطة الأيوبيين عامّة، خطراً عليها، ومن ثَمّ فإنه أخذ ـ حالما خوّله صلاح الدين ما خوّله من مسؤوليات مطلقة في الإدارة ـ يبثّ عيونه ضمن هذه المؤسسات والمجموعات والأفراد الذين عرفهم وخاف شرّهم. وأمّا المؤسسات والمجموعات هذه فقد أخذت تخطّط بدورها للقضاء على حكم صلاح الدين، وقد تزعّم مؤتمن الخلافة تلك المجموعات، وبدأ تحرّكاته مُذ تولّى صلاح الدين. وقد كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي ظل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء، والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وقد ساهمت جهود القاضي الفاضل في كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة وتمّ القضاء على شوكته وفلّ صلاح الدين شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد[1]. ولقد تمّ إضعاف شوكة الفاطميين، بل كسرها، خلال الأشهر الخمسة الأولى من وزارة صلاح الدين، ثم تلاها عامان تمّ خلالهما تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيّوبي جديد سنّي، ولقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهّد لحكم صلاح الدين المطلق في مصر، وتوليته هو (القاضي الفاضل) وزارة صلاح الدين، والقضاء على الخلافة الفاطمية[2].

4 ـ إعادة التنظيم الإداري في مصر:

شرع القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط قلب نظام الحكم الفاطمي بالتخلّص من أصحاب الدواوين والكتّاب الموالين للفاطميين، وكان بحكم عمله في الدواوين على علم برجالات الدولة وأصحاب دواوينها وكتّابها، وبولائهم السياسية وميولهم المذهبية، ولقد صاحب بعضاً منهم وعادى أو نافس بعضاً آخر، وقد واتته الفرصة للتخلص ممّن يستطيع التخلصّ منه ففعل، وتخلص من عدد كبير من الكتّاب الشيعة الإسماعيلية والمسيحيين واليهود وغيرهم

(1) القاضي الفاضل، ص: 130 إلى 133.

(2) المصدر نفسه، ص: 134.

خوفاً من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو أن يتّصلوا بالفرنج باسم الدواوين التي يعملون فيها. ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتّاب في أكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين. ففي إحدى رسائله عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء (570هـ/ 1174 ـ 1175م) يصف أحوال مصر في ظل الفاطميين بقوله: ولهم «للفاطميين» حواشٍ لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله وتصيب القلوب مخالته، ومن بين كتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل. ولقد ثبت صدق ظنّه فيما بعد عندما راح هؤلاء يدبّرون مؤامرة لإحباط حكم صلاح الدين. وكما أنه سرّح الكتّاب والإداريين الذين شك في ولائهم فإنه أبقى الإداريين الذين ضمن ولاءهم، والذين كان بحاجة إلى إدارتهم ومعلوماتهم ومساعدتهم في تطبيق مخطط الانقلاب، وكان في مقدم هؤلاء: الخطير بن مماتي رئيس ديوان الجيش وأحد أصدقاء القاضي الفاضل، فقد خدم ابن مماتي في ديوان الجيش في عهد شاور، ودخل المذهب السنّي على يد أسد الدين شيركوه، وظل قريباً من القاضي الفاضل محبّباً إليه حتى وفاته سنة (578هـ)[1]، وعين بعده ابنه الأسعد بن مماتي في الديوان، ولقد أخلص الأسعد كوالده للقاضي الفاضل الذي كان يعتمد على إدارته وولائه في أثناء غيابه عن مصر، ورعى القاضي الفاضل أيضاً الأثير بن بيان، صاحب ديوان النظر، وأبقاه في منصبه وهو سني أيضاً، وابن بيان هذا أكبر من القاضي الفاضل سنًّا، وكان يعمل في ديوان الإنشاء عندما دخله القاضي الفاضل طلباً للعلم فيه، ودافع عنه عندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة، وظلّ القاضي الفاضل يعمل مع ابن بيان ويعتمد عليه حين تقدّم ابن بيان في السنّ وعجز عن العمل، فقرّر له القاضي الفاضل معاشاً يستعين به[2]، وأبقى أبا الحسن المخزومي، وهو سنّي، ناظراً لديوان المجلس، بينما أمسك هو برئاسة ديوان الإنشاء بالإضافة إلى الإدارة العامة كوزير، وشرع القاضي في توجيه هذه الدواوين بمساعدتهم إلى خدمة أهداف صلاح الدين ودولته[3] ومشروعه الإسلامي الكبير.

5 ـ القاضي الفاضل والإحياء السني في مصر:

كانت الإسكندرية مركزاً للإحياء السني في مصر، وقد تمّ ذلك على يد علماء قصدوها من المغرب مثل أبي بكر الطرطوشي، ومن المشرق مثل السلفي، وأسسوا فيها مدارس كان لها أثر كبير في الإحياء السني وفي حركة الجهاد ضد الفرنج، وهذا يفسر مساندة أهالي الإسكندرية لأسد الدين ـ وصلاح الدين ـ وأمّا القاهرة فلم تحظ كالإسكندرية بمدارس وفقهاء

(1) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص: 80 – 93.

(2) القاضي الفاضل، ص: 135.

(3) المصدر نفسه، ص: 135.

للسنة، ولكن الوضع تغير مع ظهور صلاح الدين على المسرح السياسي. فمع أن نور الدين وأسد الدين كان قد استفاد من بعض أهل السنة قبل وزارة صلاح الدين للحصول على مؤازرة شعبية لحركتهما داخل مصر، فإن هذه العناصر وحدها لم تكن كافية، وكان هناك حاجة إلى ثورة ثقافية في مصر يتم من خلالها إعادة مصر إلى المذهب السني بالتدريج، وقد بدأ صلاح الدين إصلاحاته في مصر، وحتى قبل القضاء النهائي على الفاطميين بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة بني أولها للمذهب الشافعي على أنقاض حبس المعونة، السجن الذي ضم الكثير من قادة مصر سنة (566هـ/ 1170 ـ 1171م) ولعلها أصبحت أول مدرسة من نوعها في مصر، كما أنشأ سنة (566هـ/ 1170م) مدرسة للمالكية في جوار جامع عمرو بن العاص عُرفت بالقمحية، وأسس تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، مدرسة للشافعية أوقف عليها عدة أماكن[1].

كانت هذه المدارس بداية حركة بنائية سنية ساهم فيها كثيرون من الأيوبيين وأمرائهم خلال حكم صلاح الدين في مصر فيما بعد، كما ساهم فيها القاضي الفاضل بمدرسة من أغنى هذه المدارس، إذ رصد فيها قسماً كبيراً من خزانة كتب الفاطميين، وإن تكن فكرة إنشاء المدارس السنية مستوردة من الشام على غرار ما فعله نور الدين فيها من إنشاء مدارس شبيهة بمناهجها وموضوعات تدريسها في المدرسة النظامية ببغداد، فإن تمويل هذه المدارس واختيار المدرسين فيها كان ضمن مسؤوليات القاضي الفاضل، فمن ضمن إصلاحاته الإدارية في فترة وزارة صلاح الدين فصلُ: ديوان الأحباس الفاطمي الذي كان يشرف على إدارة المؤسسات الدينية وتمويلها وتزويدها عن ديوان الأموال، وجعله ديواناً مستقلاً تحت إدارة الوزير مباشرة، أي صلاح الدين، قبل القضاء على الفاطميين وتحت إدارته هو بعد القضاء عليهم، ومن ثم فقد كان المسؤول الأكبر عن إدارة هذه المؤسسات المهمة، وعن اختيار المدرّسين فيها وقرّاء القرآن والحديث والوعّاظ والأئمة[2]، وكان هؤلاء جميعاً من وسائط التغيير وكان من المعروف أن صلاح الدين كان يعتمد على خبرة القاضي الفاضل في اختيار هؤلاء وهو في مصر، وظل على ذلك عندما انتقل إلى الشام، إذ كان يستشيره في الناحيتين التربوية والدينية وبعد أن هيأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، كما ذكرنا، بدأ بالإعداد للقضاء نهائياً على شعائر الخلافة الفاطمية ـ ففي سنة (565هـ/ 1169م) أبطل الأذان «بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر» ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة[3].

* ثم أمر بعد ذلك في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة (565هـ/ 1169 ـ 1170م)، بأن

(1) الخطط (2/ 364).

(2) القاضي الفاضل، ص: 136.

(3) اتعاظ الحنفاء (3/ 317).

يُذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي[1].

* وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك[2].

* وولّى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري، وهو كردي من أقرب المقرّبين إلى صلاح الدين، وقد فعل هذا كبداية لتحويل الولاء في القاهرة التي كان أغلب أهلها من الإسماعيلية[3].

* كما عزل قضاة مصر من الشيعة، واستولى بعدها على ممتلكات العاضد وعلى القصور وسلّمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فتحكم في مصر وصار يراقب كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى أصبح الخليفة العاضد كالمعتقل في قصره[4].

* وفي بداية سنة (567هـ،1171 ـ 1172م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى في محرم (567هـ/ 1171 ـ 1172م) حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الخطبة الثانية خُطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله. وقطعت الخطبة الفاطمية[5]. وقد توفي العاضد في العاشر من محرم (567هـ/ 1171 ـ 1172م)[6]. وقد اختلفت هذه العاشوراء عما تَعَوَّد المصريون عليه من أشراف الدولة الفاطمية على البدع في يوم عاشوراء، من خطب مدمية للقلوب إلى مراث مؤثرة في آل عليّ ﷺ تثير في نفوسهم الكثير من الأحقاد بواسطة القصص الموضوعة والأكاذيب المفضوحة، ويسبون الخلفاء من راشدين وأمويين، ثم ينصرفون إلى بيوتهم ليأكلوا القمح المسلوق والعدس وغيرها من المأكولات التي توارثتها أجيال بعدهم، وعرفت بعاشوراء حتى وقتنا الحاضر، ثم يصبحون في اليوم التالي ليبدأ عاماً جديداً من حياتهم، وأنظارهم موجهة إلى حكامهم، وكان الخليفة يحتجب في قصره يوم عاشوراء وعند الضحى يركب قاضي القضاة والشهود في لباس خاص ويذهبون إلى مشهد الحسين المزعوم،

---

(1) اتعاظ الحنفاء (3/ 317).
(2) المصدر نفسه (3/ 318).
(3) القاضي الفاضل، ص: 137.
(4) اتعاظ الحنفاء (3/ 325-326).
(5) المصدر نفسه (3/ 325).
(6) القاضي الفاضل، ص: 137.

فيجلسون ومعهم قرّاء القصر والخطباء، فيدخل الوزير في صدر المجلس وعلى جانبيه القاضي والداعي، ويشرع القرّاء في تلاوة القرآن نوبة نوبة والجميع خشوع، وما إن ينتهون من قراءتهم حتى يقوم الشعراء، وهم عادة من غير شعراء القصر، فينشدون أشعاراً أعدّوها لهذه المناسبة المهمة، وكانت أشعارهم رثاء أهل البيت، فإن كان الوزير رافضياً تغالوا، وإن كان سنّياً اقتصدوا. ويظلون على هذه الحال مدة ثلاثة ساعات، وبعد الانتهاء من القراءة والإنشاد كانت تأتيهم رسل الخليفة تستدعيهم، فيغادر أول من يغادر الوزير وهو بمنديل صغير إلى بيته، وأما قاضي القضاة والداعي ومن رافقهما فيذهبون إلى باب الذهب من القصر، حيث يرون منظراً يختلف عمّا تعوّدوا عليه، فالسجاجيد الثمينة قد طويت لتحل محلّها حصر بسيطة، وصاحب الباب جالس ينتظرهم. فيجلسون، والناس من وجهاء البلد والعلماء والفقهاء والعسكر حولهم أو بجانبهم، فيقرأ قرّاء القرآن ثانية، كما ينشد المنشدون فيُبكون الحاضرين ثانية، ثم يفرش سماط الحزن وفيه نحو ألف زبدية من العدس والملوحات والمخلّلات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد. ووقت الظهر يقف صاحب الباب وصاحب المائدة فيُدخلان الناس للأكل، فيكون أول الداخلين القاضي والداعي ويجلس بقربهما صاحب الباب نيابة عن الوزير، ثم يدخل من يريد أن يأكل من الناس، وبعد الانتهاء من الأكل يغادر الجميع القاعدة ويطوف النائحون في القاهرة، ويغلق التجّار حوانيتهم حتى العصر ثم يفتحونها[1]. وتعود الحياة إلى طبيعتها بعد هذه البدع.

وَلَكم اشترك القاضي الفاضل في هذه الاحتفالات بحكم عمله وقربه من المؤسسة الفاطمية، لكنَّ هذه العاشوراء اختلفت عما تعود المصريون عليه، فليس هناك قاضي قضاة، ولا داعي دعاة لأنهما عُزلا، وليس هناك منشدون ولا نائحون يطوفون في شوارع القاهرة، لأن اليوم كان معدّاً لنوع آخر من الاحتفال، وهو الاحتفال بالقضاء على هذه الطقوس والمراسيم التي مارسها المصريون أكثر من مائتين عام، والقضاء على واضعي هذه الطقوس والمراسيم بشتى رموزها ومفاهيمها، ولم يذهب صلاح الدين إذاً إلى المشهد الحسيني ـ المزعوم ـ كعادة الوزير، بل ذهب إلى جامع عمرو بن العاص للصلاة فصلّى ومعه عدد من أهالي الشام ومصر، وجلس بعد الصلاة جانباً وبقربه القاضي الفاضل يتباحثان فيما أنجزاه منذ الجمعة السابقة التي تمّ فيها إلغاء الخلافة الفاطمية، وأثبتت فيها الدعوة للخليفة العباسي فدخل أحد الجنود مسرعاً وتوجّه إليهما وقال لهما شيئاً وخرج، فنظر كل من صلاح الدين والقاضي الفاضل أحدهما إلى الآخر فغمز القاضي الفاضل إليه وابتسما ابتسامة ارتياح وحبور، ثم سرعان ما غيّر صلاح الدين تعبير وجهه، وقال: لو عرفنا أنه ـ أي الخليفة

(1) الخطط (1/ 431-432-490).

العاضد ـ يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فضحك القاضي الفاضل وردّ عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت[1]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية، بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية، فقد توفي العاضد آخر الخلفاء في هذا اليوم، يوم عاشوراء سنة (567هـ/ 1171م) أي يوم ذكر مقتل الحسين بن علي[2].

6 ـ القاضي الفاضل والقضاء على الدولة الفاطمية:

لقد أشار المؤرخ المصري المقريزي إلى الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الانقلاب على الفاطميين بقوله: واستعان صلاح الدين به (أي بالقاضي الفاضل) على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تمّ مراده، فجعله وزيره ومستشاره[3]. وإن كلمة استعان تشير إلى دور القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية، كما أن اختيار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيراً له ما هو إلا تعبير عن تقدير صلاح الدين لدور القاضي الفاضل في هذا المخطّط الخطير، وفي تأسيس قواعد الدولة الأيوبية التي سبقت هذا المخطط، وهذا الاختيار يشير أيضاً إلى اعتراف واضح من صلاح الدين بدور القاضي الفاضل في إطاحة الفاطميين، وبأهمية القاضي الفاضل لخطط صلاح الدين المستقبلية، ولقد ظل صلاح الدين يجني ثمرة اختياره القاضي الفاضل وزيراً له حتى وفاته، ولقد كانت أعمال القاضي الفاضل في الإدارة المصرية منذ عهد أسد الدين، وأقواله في كتاباته في عهد صلاح الدين تشير إلى دوره الكبير في دعم الوجود السني في مصر، ولقد سعى من خلال مخطط سنّي واسع للقضاء على عوامل الانقسام الديني في العالم الإسلامي وحماية مصر من الاجتياح الفرنجي واستعادة فلسطين، وقد واتته الفرصة لتحقيق هذه الأهداف مع صلاح الدين وسارع إلى تحقيقها[4]، فقد رأى في صلاح الدين مثالاً للقائد القادر على أن ينقذ مصر من الخطر الفرنجي من ناحية، وأن يُقدّم لأمته الكثير ـ ولذلك منح صلاح الدين مصادره الوافرة من معلومات وتجربة وإدارة وأدب وشعر، وأسس بمساعدته والتعاون معه شيئاً من الاستقرار الداخلي لمصر، بعد كل ما دهاها ودهى شعبها من محن ومصائب، وأدرك صلاح الدين أن القاضي الفاضل إنسان عظيم عقلاً وعلماً ومكانة وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه

(1) أخبار الدولتين، نقلاً عن: القاضي الفاضل، ص: 139.

(2) القاضي الفاضل، ص: 139.

(3) الخطط (2/ 266).

(4) القاضي الفاضل، ص: 141.

في مصر من خلال مصادره الوافرة، وهكذا تضافر الرجلان على تحقيق غاية كبرى أحسّا بها، كلٌ في ميدانه، وعملاً على تحقيقها[1]. لقد كان القاضي الفاضل سياسياً ورجل دولة عظيماً، جمع بين واقعه السياسي ومرونته ودهائه، وبين هدف كبير نذر نفسه له وصبر مع الأيام لتحقيقه، واستنشق رياح التاريخ حين هبّت، واعتقد أن طريق الإسلام هو طريق أهل السنّة، وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد الإيمان والقوى، وما غابت أرض فلسطين عن باله، وعندما لاحت فرصة استعادتها، وأيقن بصدق صلاح الدين في الجهاد من أجلها، اشتدّت عزيمته وشدّت رحاله، ولئن أوصله اختياره إلى سدّة عالية، فأصبح في دولة صلاح الدين وزير الدولة والرجل الثاني فيها، فإنه حقق بذلك كل ما يطمح رجل السياسة إليه من نجاح أهدافه وقضيته، بمساهمته في التخطيط والعمل، كما حقّق نجاحه هو وعلوّ أمره، وتلك مطابقة تشهد له بالمواهب العريضة والدهاء الفائق[2].

كان القاضي الفاضل المتحدث الرسمي بلسان السلطان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان على حد قول ابن كثير: أعز عليه من أهله وولده[3]، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل[4]، وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين، إذ جعله: وزيره، ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئاً إلّا عن رأيه، ولا يحكم في قضيته إلا بتدبيره[5]. إن هذا العالم الرباني يعلمنا دروساً مهمة منها: عدم الانعزال عن الشأن العام والعمل الاجتماعي والحكومي، والحرص على كسب الخبرات وأهمية التميز في أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه في العقيدة الصحيحة، وتوظيف القدرات والإمكانات لخدمة المشروع السني، وقدّم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية ولم يبخل عليه برأي ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة في فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد، وبناء الدول وزوالها، كما نتعلم منه وهو الرجل المفكر والمفتي الكبير في دولة صلاح الدين، أهمية معاملة عامة الشيعة بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم، وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدي معهم إلا استخدام القوة.

---

(1) القاضي الفاضل، ص: 157.

(2) المصدر نفسه، ص: 159.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن: دور الفقهاء والعلماء، ص: 132.

(4) النجوم الزاهرة (6/ 157).

(5) الخطط (2/ 366)، دور الفقهاء والعلماء، ص: 132.

7 ـ القاضي الفاضل والجهاد:

صحب القاضي الفاضل صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، وبعدئذ عاد إلى بلاد الشام بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير ووفاته مع القاضي ابن شداد سنة (589هـ/ 1193م)[1] وهناك مواقف حاسمة للقاضي الفاضل تؤكد مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية، فعندما كان السلطان صلاح الدين مقيماً على مرج الصفر في بلاد الشام عام (571هـ/ 1176م) طلب الصليبيون الهدنة منه فأجابهم إلى ذلك مضطراً «لأن الشام كان مجدباً» ثم أرسل جيشه في صحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية، حتى يستريح أفراد الجيش بها من ناحية ولخوفه من حدوث أي اضطرابات في مصر أثناء غيابه عنها من ناحية أخرى، ولذلك كان إرساله للجيش بصحبة القاضي الفاضل: غاية الحزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفاً عليه ممن هنالك[2]، وإلى جانب ذلك كان القاضي الفاضل دائماً يلازم السلطان صلاح الدين في جهاده، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى السلطان صلاح الدين يعتذر فيها عن عدم مشاركته في الجهاد ضد الصليبيين على حارم سنة (573هـ/ 1177م)، لرغبته في أداء فريضة الحج، فيقول ابن واصل: وتخلف القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة، ووصل منه كتاب إلى السلطان يذكر فيه: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخرها حبلها، فللمولى نية راشدة، أوَ ليس الله بعالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، وهو في طاعة قد منّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول الأيام، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت[3].

8 ـ القاضي الفاضل والأديب:

برز القاضي الفاضل في عصره كأديب، ونُسبت إليه مدرسة نثرية عُرفت بمدرسة القاضي

---

(1) وفيات الأعيان (7/ 202، 203).

(2) الكامل في التاريخ (10/ 79).

(3) مفرج الكروب (2/ 68) القاضي الفاضل، ص: 349.

الفاضل في النثر، خلّدته بين الأدباء، وكإداري قدير، وضعته إدارته في صفّ الوزراء النابغين؛ وكإنسان كرّس حياته لخدمة الشعوب التي احتكّ بها، وفي الجهاد لتحرير مناطق إسلامية اغتصبتها شعوب غريبة قسراً، وقد أجاد القيام بأدواره العديدة كل الإجادة، حتى أن المؤرِّخين اعتبروه نموذجاً للإنسان المثالي في عصره، ويقف الكثيرون في حيرة أمام أسلوب القاضي الفاضل، وإن صعب على البعض فهمه، فهو يدلّ على ثقافة واسعة واطلاع دقيق على الأدب، والحديث والفقه وغيرها من العلوم، وعلى فهم عميق للقرآن، فالقاضي الفاضل كان يملك أكبر مكتبة في عصره، تغنّى المؤرخون بها وأشادوا بمحتواها، كما ذكروا أن ما فيها بلغ المئة ألف، فكيف يوصف إنسان أو عصره بانحطاط التعبير؟ وهذا الإنسان لم يكن إدارياً أو سياسياً فحسب، بل كان أيضاً أستاذاً كبيراً من أساتذة عصره، أمضى فترة تقاعده في التدريس وتثقيف الأجيال المقبلة، يمثل أسلوب القاضي طريقة ثالثة في التعبير اختصت اللغة العربية بها، إلى جانب الطريقتين الشائعتين في الآداب الأخرى، وهما الشعر والنثر المرسل، لكن التعبير الأدبي العربي يحتوى على ثلاثة نماذج: أولها وأقدمها النموذج الشعري الذي تصل منابعه إلى الشعر الجاهلي ويمتد تدفّقه إلى عصرنا الحالي، والأسلوب الثاني أسلوب النثر المرسل، وهو الذي كُتبت به كتب التاريخ والفلسفة والفقه والأصول والتفسير والعلوم، وغيرها ممّا أبدعه العقل العربي والإسلامي، وأما الأسلوب الثالث فهو أسلوب النثر الفني ونجد في هذا الباب: أدب المقامات، وأدب الرسائل الذي يعود إلى بداية التغيير الأدبي النثري متمثّلاً في عبد الحميد الكاتب، وكان هذا الأسلوب في عصر القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره هو الأسلوب المقبول في التعبير لا من ناحية بلاغته فحسب، بل من ناحية تأثيره أيضاً. فالرسائل التي كتبها القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره كانت بيانات سياسية واجتماعية، ومقامات تحمل مختلف المعاني[1]، ومما ينفي عن هذه الرسائل أية شبهة بالنسبة إلى مستوى الأسلوب والتعبير اللغوي، ما تحتويه في صلبها من إشارات إلى الأدب والحِكم والأمثال والأحاديث الشريفة، واقتباس من كتاب الله، فضلاً عن الصور التي تستخدمها لتواكب الأحداث[2].

9 ـ دعوته إلى الوحدة بعد وفاة صلاح الدين:

ظلّ القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتّخذ منه ناصحاً ومشيراً، إلا أن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتاً أو اندفاعاً على التدخل في أمور الدولة، فقد آثر الانعزال عن العالم السياسي

(1) القاضي الفاضل، ص: 349 ، 350.

(2) المصدر نفسه، ص: 350.

وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية، ولا شكّ في أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة منها: أنه فقد بوفاة صلاح الدين الرجل الذي فيه وضع كل آماله وتوصل في عهده إلى مركز عالٍ لم يكن غيره يحلم بالوصول إليه في عهده، كما كرس قسماً كبيراً من حياته في نصحه وإرشاده ووهبه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص، حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته، فكيف بعد موته؟ وافتقاده صلاح الدين ويأسه من الحياة بعد موته ظاهران في عدد من رسائله التي أشار فيها إلى أمنيته بلقاء صلاح الدين في الآخرة «وما بايعنا الدنيا على أنّا خالدون فيها مع الأحبّة ولا أن الموت غير زايرنا وإن أطال الغيبة، والأحبّة الراحلون عنّا، إن اشتقنا إليهم فإنّ الأيام مراحلنا التي تدنينا منهم، والأنفاس خطواتنا التي تخطو بنا نحوهم، فنحن في كل يوم سايرون إليهم، وفي كل يوم قادمون عليهم، فكيف لا ينقص الحزن بمقدار ما ينقُص من المسافة»[1]، ولم يترك مناسبة تمر من دون ذكر صلاح الدين، فقد كان إذا رأى معارفه تذكّره، وإذا رأى الناس من حوله وردت صورته لخاطره، ذكر لعماد الدين في إحدى رسائله قوله: وَلِسَلْوة الأيام موعد هو الحشر، وأن ليلة لقائه هي ليلة القدر، ولقد حيي فطابت الحياة، وتوفاه الله فطابت الوفاة وإن امرءاً يحسن به الظن وَهُما ما هما، ومولى يطيب به الطوران، والحياة بالطيب أولاهما، لمعزوره فيه القلوب إذا خضعت تحت وطأة الخفقان، والجفون إذا أمردت عليها مؤرة الهملان[2]. كما أنه لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صلاح الدين، فقد تقسمت الدولة وتقسّم العمل الذي كان يقوم به زمن صلاح الدين بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاص لم يكن راضياً عن تصرفاتهم، زمن تنفّذه، كصفي الدين بن شكر وزير الملك العادل، وضياء الدين وزير الملك الأفضل، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه منذ البداية، ولقد أدرك القاضي الفاضل نهاية مسيرته بوفاة صلاح الدين، وعبّر عن مشاعره ببعض رسائله الإخوانية، يذكر في إحداها: وقد تبرّمت بالحياة، فبعد أن كنت ممن أخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة، والأعمار أكثرها الأكدار إلّا إن أشدّها مؤونة ما كان في أواخر المدد حيث يكون المرء في أواخر الجلد[3]. ويمكن القول أنه تبدّد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرّس القاضي الفاضل له قسطاً كبيراً من حياته، فقد تقسّمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها وتقويتها بين أبناء صلاح

(1) القاضي الفاضل، ، ص: 344.
(2) المصدر نفسه، ص: 344.
(3) المصدر نفسه، ص: 345.

الدين الذين راحوا يتنافسون في شأنها ويتناحرون مدفوعين بأنانيتهم مُغفلين أمر العدوّ الرابض على حدودهم، فراح يدعوهم إلى التحالف ويحاول التقريب بينهم، ولم يترك مناسبة تمر دون أن يذكّرهم بضرورة توحيد الصف «فكتب للملك الظاهر بن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء بوالده يقول: وأمّا لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما فقدتم إلا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم[1]، وقد قام القاضي الفاضل بدور في الصلح بين العزيز عثمان ابن صلاح الدين ملك مصر، والأفضل ابن صلاح الدين ملك الشام[2]، وعمل على شدّ أزر العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، أكبر أقارب صلاح الدين وأكثرهم خبرة لكي يقف وقفات صامدة كأخيه ضد الخطر الصليبي فكتب له في إحدى رسائله سنة (593هـ/ 1196م): وما تجدّد من وصول العدو اللعين إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم وإنْ زلّت زلّ، وهمّة وإن ملّت فإن النصر منه ملّ، وتلك القدم قدم العادلية وتلك الهمّة الهمّة السابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودقّوا ذلك المهاد، واسهروا في الله، فليست بليلة رقاد، ، ولا يُنظر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلاناً نفع وضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر انظروا إلى أنكم الإسلام كله برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله، فإن صمّمتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظلّه، واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهونوا، وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي وهَيْعة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح[3]. لكنّه شاهد بعض المدن تسقط ثانية في يد الفرنج، فراح يتحسّر على انفراط العقِد الذي جمعه مع صلاح الدين، ويزداد يأساً وانعزالاً وكان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده عن الجوّ السياسي، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض، وكان هذا يؤخّره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حياً، وفي رسائله كثير من الإشارة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين[4]، وقد ذكر في إحداها إلى صديقه العماد الأصفهاني قوله: وسيدنا يعلم كيف حال الكبير إذا فقد الصغير، والضعيف المتثاقل إذا نودي للنفير، ما كأني عرفت الأيام، إلا في هذه الأيام، ولا كأن الدنيا لبستها إلا

---

(1) وفيات الأعيان (7/ 205) القاضي الفاضل، ص: 345.

(2) القاضي الفاضل، ص: 345.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: القاضي الفاضل، ص: 346.

(4) القاضي الفاضل، ص: 346.

على أن يخلعني الحِمَام، فقد توقعت أمر الله أن يطرقني بياتاً وأنا نائم، أو ضحى وأنا هائم[1]، كما كتب إليه في إحدى رسائله يصف حالته الجسمانية قائلاً: وأصدرت هذه الخدمة ورجلاي قد عام النقرس إلى تقييدهما وتصفيرهما بالألطخة وتسويدهما، جنبي طريح، وما فيّ صحيح إلّا سقمي فإنه صحيح وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح[2]. وكتب إليه رسالة أخرى قائلاً: وأما أحوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية، المفاصل مذهبة، والأسنان مضمدة، والنقرس يغلي، وزيادة كالنقص زيادة العصا في ظليّ[3]. ووصف أوجاعه في آخر حياته للعماد أيضاً بقوله: وأخلاق الغلمان وما أدراك ما هي نار حامية، وقد صرت أرى الصبر على الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة، فأجوع ولا أقول أطعموني، وأظمأ ولا أقول اسقوني، وألقيت بيدي وقلت مرّوا، ومددت رجلي وقلت جرّوا[4].

10 ـ وفاته:

توفي القاضي الفاضل بعد كل هذه الآلام الجسمية والمعنوية في السادس من ربيع الأول (596هـ/ 1199م). قال العماد الأصفهاني في حوادث هذه السنة ناعياً إيّاه: تمت الرزية الكبرى والبليّة العُظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة[5]، وذكر في وفاته أنه عمل ليلة العشاء السابقة لوفاته في مدرسته، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرّسها وتحدّث مع ما شاء وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان، وقال لغلامه: رتّب حوائج الحمّام وغرفتي حين أفضى مني المنام، فوافاه سحراً للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كَلِم الحمام حَمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه من الحمّام، فبادر إليه والده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت، فلبث يومه لا يُسمع له إلا أنينٌ خفيّ علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً[6]، وعلق عماد الدين الأصفهاني على وفاته بقوله: ومضى شهيداً حميداً،

---

(1) القاضي الفاضل، ص: 347.
(2) المصدر نفسه، ص: 347.
(3) المصدر نفسه، ص: 347.
(4) المصدر نفسه، ص: 347.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن: القاضي الفاضل، ص: 347.
(6) المصدر نفسه، ص: 347.

فوفّاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأوّلين والآخرين أسوة، وإن تردّى عن رده العمر فله من حُلل البقاء في عليين كسوة، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلا قدّمه ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عَقداً في البرّ إلّا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة على الحساب لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتّاب، والخيرات الدارّة على الأيام، فكانت له حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، إلى أن قال: والسلطان رحمه الله - أي صلاح الدين - من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، مبادئ أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلاّ بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَنائه[1].

ثانياً: الحافظ السلفي:

هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السِّلفي الأصبهاني[2]، وهو من علماء المشارقة الذين هاجروا إلى مصر واستقروا بالإسكندرية ونفع الله بهم نفعاً عظيماً في نشر مذهب أهل السنة.

1 ـ قدومه إلى الإسكندرية:

نزل السِّلفي الإسكندرية سنة (511هـ)، وكان عمره قد بلغ السادسة والثلاثين عاماً، وكان تجمع لديه خبرات واسعة وحصل على علم وفير، وبلغ من النضج الفكري والتخصصي في ميدان علم الحديث مبلغ العلماء المتخصصين، فهو قد رحل إلى بلاد كثيرة، فأتيح له أن يلتقي بأعداد كثيرة من العلماء وكبار المحدثين أتقن على أيديهم الرواية وقواعد التحديث وعلوم المصطلح، وانتخب من كتبهم كثيراً من المختارات الجيدة والفوائد النادرة، ونسخ بخطه السريع الأجزاء الكثيرة[3]، وكان أيضاً ذا خبرة وتجربة في الكتابة والتأليف فقد سبق له أن ألف معجماً لشيوخه في أصبهان، ومعجماً آخر لشيوخه في بغداد[4]. وكانت له دراية سابقة بالتحديث والتعليم، فهو قد زاول ذلك فعلاً في أوائل سنة (492هـ) في بلده بأصبهان، . . وكذلك أثناء إقامته في دمشق حيث اشتغل بالتدريس من سنة (509هـ) إلى (511هـ) ولم تكن ثقافة «السلفي» حين قدومه مقتصرة على الحديث وحده، وإنما كان أيضاً

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: القاضي الفاضل، ص: 348.

(2) وفيات الأعيان (1/ 225)، الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 16.

(3) سير أعلام النبلاء، نقلاً عن: الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 16.

(4) أبو الطاهر السلفي، ص: 96.

فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، فهو قد درس الفقه في نظامية بغداد على يد شيخه ألْكيا الهرّاسي وفخر الإسلام الشاشي ويوسف ابن علي الزنجاني، وكان السلفي أيضاً متقناً لعلم القراءات عارفاً بحروفها ووجوهها، قد تتلمذ في ذلك على علماء القراءات المشهورين في عصره[1]، يقول الذهبي: نقلت من خط الحافظ عبد الغني المقدسي نقل خطوط المشايخ للسلفي بالقراءات وأنه قرأ بحرف عاصم[2]، على أبي سعد المطرز، وقرأ برواية حمزة[3]، والكسائي على محمد بن أبي نصر القصار، وقرأ لقانون[4] على نصر بن محمد الشيرازي وقرأ برواية قُنبل[5] على عبد الله بن أحمد الخرقي، وقد قرأ على بعضهم في سنة (491هـ) وفضلاً عن إلمام السلفي بالحديث ومعرفته بالفقه وعلم القراءات قبل أن يستقر في الإسكندرية، فقد كان ملماً أيضاً بالأدب واللغة العربية فقد درس ذلك كله أيام كان في بغداد على يد العالم اللغوي المشهور أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي شيخ الأدب في «النظامية» وكان شاعراً ينظم الشعر ويتذوقه ويحب سماعه ويختم كل مجلس من مجالسه التي أملاها على طلاب الحديث في سَلْماس بأبيات من شعر الحكمة النصيحة[6] أحب السلفي الإسكندرية وأهلها، فقد أكرموا وفادته، ورأى أنها المكان المناسب لإقامته حيث يمكنه فيها أن يفيد ويستفيد، فأقلع ـ مؤقتاً ـ عن نية مغادرتها إلى بلاد الأندلس، وقرر أن يتخذها دار إقامته، ولو إلى حين وكان قراره هذا يرجع في حقيقته إلى عدة أسباب بالإضافة إلى إكرام وحب أهل الإسكندرية له ـ منها ما يلي:

* موقع الإسكندرية الجغرافي المتوسط لبلدان العالم الإسلامي ـ وبخاصة بين الحجاز في المشرق وبين المغاربة والأندلس في المغرب ـ جعلها أشبه بملتقى الحجاج الأندلسيين والمغاربة الذين كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر أياماً، أثناء توجههم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وكذلك أثناء عودتهم منه إلى بلادهم، فكانوا ينتهزون فرصة استراحتهم فيها فيلتقي علماؤهم وأدباؤهم بعلمائها وأدبائها فيُسمعون ويَسمعون منهم، ويتبادلون معهم ضروباً من المعرفة والثقافة فيفيدون ويستفيدون.

---

(1) أبو الطاهر السلفي، ص: 97.

(2) هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود توفي 127هـ، وفيات الأعيان (2/ 224).

(3) هو حمزة بن حبيب بن عمارة المعروف بالزيات.

(4) هو عيسى بن وردان الزرقي الملقب بقانون قارئ المدينة.

(5) هو قُنبل عبد الرحمٰن بن خالد المكي، كان يلي الشرطة بمكة.

(6) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 99.

* كانت الإسكندرية في مطلع القرن السادس الهجري ملتقى كثير من علماء الشام الذين كانت بلادهم مسرحاً للحروب الصليبية، والتي سقط بعض مدنها في أيدي الصليبيين كالقدس والرملة وكثير من مدن الساحل الفلسطيني[1]، مما اضطر أولئك العلماء إلى هجرتها والنزوح عنها.

* نزوح عدد كبير من علماء صقلية المسلمين إلى الإسكندرية بعد أن احتل النورمان جزيرتهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ونزوح عدد آخر من علماء الأندلس على أثر الهزات السياسية المتلاحقة التي أصيب بها بعض المدن الأندلسية، مما دفع الكثيرين من العلماء إلى الهجرة وطلب الأمن، كما فعل الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي وغيره.

* تمتع أهل الإسكندرية بحرية الاعتقاد الديني ـ إذا قورنوا بأهل القاهرة ـ رغم انضوائهم رسمياً تحت نفوذ الخلافة الفاطمية الشيعية، فقد كانوا سنيين على مذهب الإمام مالك، وهذه الحرية النسبية جعلت الوافدين إلى مصر يتوجهون إلى الإسكندرية ـ بدلاً من القاهرة ـ للإقامة فيها بعيدين عن ضغوط المذهب الفاطمي الشيعي الذي يتنافى مع اعتقادهم السني، هذه الأسباب وغيرها رغّبت الحافظ السِّلفي في البداية أن يقيم في الإسكندرية، ثم ما لبث أن رسخت فيها قدمه، وتقدمت به سنه، وأخيراً تزوج ـ وقد قارب الستين عاماً ـ من «ست الأهل» الإسكندرانية، فثقل بذلك حمله، ثم ألقى عصا الترحال بعد ذلك نهائياً عندما بنى له والي الإسكندرية العادل ابن السلار «مدرسته العادلية» وعهد إليه بالإشراف عليها والتدريس فيها، فاستقر به المقام وطاب له الحال، ولم يبرح تلك المدينة التي أحبها إلى أن توفاه الله تعالى[2].

2 ـ نشاطه العلمي ومدرسته:

بدأ الحافظ السِّلفي تدريسه للحديث منذ وصل إليها سنة (511هـ) حتى إذا ما توفي ـ محدث الإسكندرية آنذاك ـ الشيخ أبو عبد الله الرازي المعروف بابن الخطاب سنة (525هـ)، جلس مكانه وأصبح بذلك شيخ الإسكندرية ومحدثها المتفرد دون منازع، ثم أخذت شهرته وسمعته تتزايد يوماً بعد يوم، وراح حجاج الأندلس يتناقلون أخباره في كل مكان نزلوا به، فتسامع به طلاب الحديث في مصر وخارجها، فشدوا إليه الرحال، وتوافدوا على الإسكندرية

(1) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 100.
(2) المصدر نفسه، ص: 101.

من كل حدب وصوب ليلتقوا بمحدثها الكبير وحافظها المتقن، فنشطت بذلك دراسة الحديث وروايته فيها، وأصبحت لها مكانتها المرموقة في هذا الميدان من الدراسة، يقول: والإسكندرية تبع لمصر، ما زال بها الحديث قليلاً حتى سكنها «السلفي» فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات[1].

3 ـ المدرسة العادلية «السِّلفية»:

ظل السِّلفي يلقي دروسه في المسجد حيناً وفي منزله حيناً آخر، زهاء ربع قرن إلى أن ولي المدينة أبو الحسن علي بن السلار الملقب بالملك العادل، فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة سميت «المدرسة العادلية» نسبة إلى منشئها «العادل» ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة السِّلفية نسبة إلى مدرسها السلفي[2]، وقد بين الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أعلام الإسكندرية، أنها أنشئت في سنة (544هـ)[3]، وكذلك ذكر الدكتور حسن عبد الحميد صالح بأن المدرسة بنيت سنة (544هـ)[4]، وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن ابن السلار كان سنياً من أصل كردي[5]، وأنه أظهر اعتناقه لعقيدة أهل السنة أثناء ولايته لثغر الإسكندرية، ثم أخذ يراسل نور الدين محمود حاكم حلب طمعاً في مساندته ضد السلطة الفاطمية، فتوطدت بينهما صداقة وود، وأمده بالعون المادي لأن ابن السلار كان سنياً مثله ولأن نور الدين كان يطمع أن يفتح مصر أيضاً[6]، وربما أشار نور الدين محمود على ابن السلار في مراسلتهما أن يطبق نفس التجربة التي طبقت في سوريا بشأن تقويض المذهب الفاطمي الشيعي والقضاء عليه عن طريق بناء المدارس، فبنى ابن السلار هذه المدرسة، ووكل رعايتها والتدريس فيها إلى محدث الإسكندرية السني الحافظ «السلفي»[7]، وكان طبيعياً أن يكون هذا كله أثناء ولاية ابن السلار على الإسكندرية وقبل أن يستولي على الوزارة في 15 شعبان سنة (544هـ) وقد تخوف الخليفة الفاطمي «الظافر» وأحس بخطورة ابن السلار وآثار مدرسته السنية واستقطاب أهل السنة حوله فتخوف منه وأخذ يكيد له، وعهد بالوزارة

---

(1) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص: 294.
(2) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 104.
(3) أعلام الإسكندرية، ص: 137.
(4) الحافظ أبو الطاهر، ص: 105.
(5) وفيات الأعيان (2/ 76).
(6) تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، ص: 183.
(7) الحركة الفكرية في مصر، ص: 158.

إلى نجم الدين ابن مصال الوزير الشيعي، الذي ينحدر من أصل مغربي، فأغضب ذلك ابن السلار الرجل السني، فجمع أنصاره من أهل الإسكندرية السنيين وسار بهم إلى القاهرة، فدخلها بعد أن هزم ابن مصال عند الجزيرة في 14 رمضان سنة (544هـ)[1]، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن السبب الحقيقي بين ابن السلار وبين ابن مصال إنما هو نزاع بين عقيدة أهل السنة التي يساند الدعوة إليها نور الدين محمود، وبين المذهب الفاطمي الشيعي الذي يمثله الخليفة الفاطمي[2]. لقد كان لإنشاء هذه المدرسة فرحة عظيمة في نفوس أهل الإسكندرية واعتبروا بناءها هدية كبيرة من واليهم ابن السلار من واجبهم أن يشكروه عليها، فانبرى شعراؤهم يمدحونه ويثنون عليه، ويعبرون له عما في نفوسهم من الغبطة والابتهاج[3].

وقد تولى الحافظ «السِّلفي» الإشراف على هذه المدرسة، فجعل منها مركز إشعاع لإعادة أهل مصر لعقيدة أهل السنة، ومنتدى لأهل الفكر والثقافة، فكان يلتقي فيها علماء الحديث وطلابه، ورجال الفقه والقراءات والأدباء والشعراء ورجال التاريخ وأصحاب الحكايات، فنمت وازدهرت وكثر روادها والمتأثرون بما يلقى من دروس، وما يعقد فيها من لقاءات وندوات ومحاضرات، وقد تجلى تأثيرها واضحاً في أهل الإسكندرية بالذات من موقفين واضحين: **أولهما**: يوم خرجوا مع واليهم ابن السلار للاستيلاء على الوزارة في القاهرة، **وثانيهما**: يوم وقفوا يحاربون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي (شاور) وحلفائه الصليبيين فلم يخذلوه أو يتخلوا عنه رغم الحصار الشديد الذي فرض عليهم ثلاثة شهور، بل حاربوا معه جنباً إلى جنب وبذلوا له كل ما يملكون من قوة ومال ورجال، إلى أن فك شاور والصليبيون الحصار[4]، وقد احتفظ صلاح الدين الأيوبي لأهل الإسكندرية بهذا الجميل، فلما أزال الدولة الفاطمية وأقام على أنقاضها دولته الأيوبية، أولى الإسكندرية اهتماماً خاصاً ورعاية كبيرة وذلك لأهمية موقعها الإستراتيجي في الدفاع عن مصر من ناحية، ولما كان لأهل الإسكندرية من مكانة طيبة عنده لما ساندوه في وقفتهم البطولية حين حاصره «شاور» في مدينتهم سنة (562هـ)، فوقفوا يذودون عنه ويقدمون له كل ما يملكون من رجال ومال وسلاح، ولهذا ليس بمستغرب أن نرى صلاح الدين يأمر منذ اللحظة الأولى لتوليه

(1) الكامل لابن الأثير، نقلاً عن: الحافظ أبو طاهر السِّلفي، ص: 106.

(2) تاريخ الدولة الفاطمية، ص: 184.

(3) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 106.

(4) المصدر نفسه، ص: 107.

سلطنة مصر بإصلاح سور الإسكندرية وتحصين أبراجها وقلاعها وإدخال بعض المنشآت فيها. وليس هذا فحسب بل نراه يسافر بنفسه في سنة (572هـ) إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها[1]، في هذه الزيارة تفقد صلاح الدين الأسطول الحربي، ورأى ما آل إليه من خراب وإهمال فأمر بتجديده وتعميره، وبناء سفن جديدة تضاف إليه، وأفرد له ميزانية خاصة، وأنشأ له ديواناً خاصاً، وعين له قائد سماه «صاحب الأسطول»[2]، وظلت الإسكندرية محل رعاية صلاح الدين وعنايته، يوصي بالإنشاءات فيها ويتفقد أحوالها ويتابع الاهتمام بها إلى أن وافته الفرصة لزيارتها مرة ثانية في سنة (577هـ)، فزارها ووقف بنفسه على ما تم فيها من إصلاحات وتفقد المنشآت التي أمر ببنائها، وأمر بسرعة إنجازه، يقول العماد الأصفهاني في وصف هذه الزيارة: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان سنة (577هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام[3]. وفي هذه الزيارة حظيت الإسكندرية من صلاح الدين بتأسيس كثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة، فأنشأ فيها مدرسة كبيرة للطلاب الغرباء، يتعلمون فيها مختلف العلوم والآداب، وبنى لهم دار يقيمون فيها وحمامات يستحمون فيها، ومارستاناً يعالجون فيه بالمجان ويشرف عليه أطباء متفرغون[4]، ثم تتابع بناء المدارس في الإسكندرية في عهد صلاح الدين تتابعاً سريعاً، وفقاً لسياسته العامة في الإكثار من تشييد المدارس كوسيلة فكرية للقضاء على الفكر الفاطمي الشيعي، وقد كثر عدد المدارس في سنوات قليلة، كثرة لفتت أنظار المؤرخين الذين زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها، يقول ابن خزيمة الذي زار الإسكندرية سنة (561هـ ـ 1164م) وأقام فيها وكتب وصفاً لها: وبها مائة وثمانون مدرسة لطلب العلم بها[5]، وأمر صلاح الدين في هذه الزيارة الثانية بإنشاء مسجده الجامع الكبير ونقل الخطبة إليه، بعد أن كانت تقام في عهد الفاطميين في مسجد العطارين أكبر مسجد في المدينة[6]، ثم تبع ذلك بناء عدد كبير من المساجد بالإضافة إلى ما كان فيها من مساجد من قبل. وقد بلغ عدد المساجد في هذه الفترة

---

(1) مفرج الكروب (1/ 56).

(2) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 60.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 61.

(4) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 61.

(5) المصدر نفسه، ص: 62.

(6) تاريخ المساجد الأثرية، ص: 67، حسن عبدالوهاب.

رقماً عالياً لفت أنظار المؤرخين الذين زاروا المدينة فأخذوا يقدرونها تقديرات مختلفة يصلون فيها أحياناً إلى حد المبالغة[1]، وقد وصف ابن الجبير الذي زار الإسكندرية في سنة (578هـ) ـ أي في زمن صلاح الدين ـ فيصف كثرة المساجد بها فيقول: وهي أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقل دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع واحد، وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان[2]. وظلت عناية الأيوبيين بتعمير الإسكندرية مستمرة بعد صلاح الدين على نفس السياسة حتى نهاية القرن السادس الهجري[3].

4 ـ مميزات شخصية أبي الطاهر السلفي:

أ ـ جديته في الحياة: كرّس الحافظ السلفي حياته كلها للتدريس والمطالعة والكتابة وإلقاء المحاضرات دون أن يؤثر عنه ملل أو سأم، وكانت حياته كلها جادة صارمة كما وصفها تلميذه الحافظ عبدالقادر الرهاوي بقوله: وبلغني أن مدة مقامه بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فرجة سوى مرة واحدة بل كان لازماً مدرسته، وما كان ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء . . . وأنه ما رأى منارة الإسكندرية إلا من طاقة كانت في داره[4]، ووصفه ابن العماد أيضاً بقوله: واستوطن «السلفي» الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الاشتغال بالعلم والمطالعة وتحصيل الكتب[5].

ب ـ احترامه لمجلسه: كان رَحِمَهُ اللهُ حليماً متواضعاً، موطأ الأكناف يألف الناس ويألفونه، ويتحمل الإساءة، ويصبر على جفوة الغرباء، يحب رواده، ويقبل على الجميع منهم بكل وجهه ومشاعره، لا يدخر وسعاً في إفادتهم والتلطف معهم والإخلاص لهم، وصفه خليل الصفدي بقوله: وكان لا يكاد تبدو منه جفوة في حق أحد، وإن بدأته بادرها

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 62.

(2) رحلة ابن جبير، ص: 43.

(3) الحافظ أبو الطاهر السلفي، ص: 63.

(4) المصدر نفسه، ص: 114.

(5) شذرات الذهب (4/ 255).

حتى لا ينفصل عنه أحد إلّا طيب القلب، ومع ذلك كله فلم يكن يسمح أثناء الدرس الواحد من الحاضرين أن يلهو أو يعبث أو يتحدث مع جاره، أو يشغل غيره عن الإصغاء والمتابعة مهما كان شأنه ومكانته، حتى إذا ما انتهى من عبارته أو فكرته التي يتحدث فيها أتاح للحاضرين الاستفسار والتعليق. روى الحافظ الذهبي أن السلطان صلاح الدين وأخاه حضرا يوماً عنده لسماع الحديث وأنهما تحدثا معاً بصوت منخفض، فالتفت إليهما وزيرهما وأظهر لهما عدم الرضا، وقال: أيش هذا؟ نحن نقرأ حديث النبي ﷺ وأنتما تتحدثان؟ فأصغيا عند ذلك[1].

ج ـ حبه للمطالعة وجمع الكتب: وكان رحمه الله كثير المطالعة، واسع المعرفة، مجداً في التحصيل، كثير البحث عما يشكل، لم يكن يشغله بعد الفراغ من التدريس إلا القراءة في كتاب أو النسخ من كتب الآخرين أو التحقيق والتعليق عليها. وقد وصفه تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي فقال: ما نكاد ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء. وكان يحب الكتب حباً جماً ويحرص حرصاً شديداً على جمعها وتملكها، حتى لقد تجمع لديه منها مجموعات كثيرة منوعة لم يسعفه الوقت للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظمها قد عفنت ولصق بعضها ببعض، نتيجة لرطوبة جو الإسكندرية مما أدى إلى تلف الكثير منها[2]، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه.

5 ـ علاقته مع المثقفين:

كانت حلقات الدرس في المسجد أولاً ثم في المدرسة بعد ذلك هي همزة الوصل بينه وبين كافة فئات المثقفين من الناس، وقد استطاع من خلال تلك الحلقات أن يكوّن له صلات واسعة مع عدد كبير جداً من من علماء الحديث وطلابه، ومع رجال الفكر والأدب، كالكتاب والأدباء والشعراء، ومع كبار موظفي الدولة كالولاة والقضاة، وغيرهم ومع أرباب المهن والحرف المختلفة كالأطباء والمهندسين والتجار والورّاقين ومجلدي الكتب وأئمة المساجد والوعاظ والنسّاخ والمؤذنين، ومع كثير من حجاج المغرب والأندلس الذين كانوا يفدون إلى الإسكندرية في طريقهم إلى الحج، وأما علاقته مع الشعراء، فقد كانت طيبة متميزة يسودها الود والتعاطف، فقد كان يأنس بهم ويحب مجالستهم والاستماع إليهم

(1) الحافظ أبو الطاهر، ص: 118

(2) المصدر نفسه، ص: 119.

ويقارضهم القصيد أحياناً، فقد كان شاعراً مثلهم، يقول الشعر ويتذوقه وينقده، وصفه الحافظ الذهبي بقوله: وكان يستحسن الشعر وينظمه ويثيب من امتدحه[1].

6 ـ علاقته مع العوام:

كانت طيبة للغاية، فهم قد أنزلوه من نفوسهم منزلة عالية، وكان يحضرون عنده في بعض الأوقات ليتبركوا به لتقواه وصلاحه، بل لقد كانوا يبالغون في تقديرهم واحترامهم له وأخذوا يعتقدون فيه البركة[2]، ومن لطيف ما رواه الحافظ الذهبي في هذا المقام أن العامة من أهل الإسكندرية كانوا يهرعون إليه ـ إذا تعسرت امرأة في ميلادها ـ ليكتب لهم بعض الأدعية في ورقة، وكان يكتب لهم ولا يمنع وكان نص ما يكتب: اللهم إنهم قد أحسنوا ظنهم بي، فلا تخيب ظنهم فيّ[3].

7 ـ علاقته مع الدولة الفاطمية:

تجنب السلفي الاصطدام بالدولة الفاطمية ما أمكنه حتى لا يؤذوه كما آذوا غيره من علماء الإسكندرية، أو يمنعوه من التحديث كما فعلوا من قبل مع المحدث أبي إسحاق الحبال المصري[4]، فتجنب نقدهم والإساءة إليهم بشكل يثير حفيظتهم عليه، فابتعدوا عنه وتركوه وشأنه، بل إن بعضهم كان يذهب إلى حلقة درسه ويستمع إليه، ومما ساعد الحافظ السِّلفي في نجاحه في تأدية رسالته أن الدولة الفاطمية في تلك الفترة في (511هـ ـ 567هـ) قد أخذ نجمها ينحدر نحو الأفول والزوال، وأن الخلفاء أنفسهم كانوا ضعافاً مَسْلوبي الإرادة والإدارة، يتحكم في أمورهم ومصائرهم الوزراء المتصارعون على كرسي الحكم ومركز القوة والسلطان، وأن أولئك الوزراء لم يكونوا حريصين على رعاية المذهب الفاطمي والمحافظة عليه بقدر ما كانوا حريصين على السيطرة والبقاء في سدنة الحكم، بل كان بينهم وزراء سنيون[5]، وهؤلاء الوزراء جميعاً على اختلاف مذاهبهم لم يكن يهمهم أمر المذهب الفاطمي في كثير أو قليل[6]، وكانت صلته بولاة الإسكندرية السنيين الذين لم يتمذهبوا بالمذهب

---

(1) سير أعلام النبلاء، نقلاً عن: الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 128.
(2) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 130.
(3) المصدر نفسه، ص: 130.
(4) المصدر نفسه، ص: 132.
(5) المصدر نفسه، ص: 134.
(6) المصدر نفسه، ص: 135.

الفاطمي حسنة طيبة، فهم كانوا يحبونه ويجلونه، ويعرفون له قدره، ويحضرون دروسه، ويقرأون عليه، فالوالي قسطة الآمري كانت بينه وبين «السلفي» مودة ومكاتبة. قال عنه في معجم السفر: وقسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين، وكانت بيني وبينه مودة ومكاتبة[1]، وأما نائب والي الإسكندرية أبو الرضا عبد الله بن الفضل بن دُليل الحضرمي فقد قال في ترجمته: .. وكان يلازمني ويراجعني في المسائل التي يتشكك فيها، وقرأ عليّ «البخاري لابن بطال» قراءة دراية لا رواية[2]. وأما والي الإسكندرية العادل ابن السلار، فقد أكرمه، ووضعه في مكانة عالية تليق به، وبنى له المدرسة «العادلية» وعهد إليه إدارتها والتدريس فيها، وكفاه الإنفاق عليها بأن وقف لها أوقافاً تدر عليها وتسد نفقاتها واحتياجاتها. هذه أمثلة لصلة الحافظ السِّلفي برجال الدولة الفاطمية الرسميين، وهي كما تبدو علاقة طيبة، واضح فيها التقدير والاحترام رغم أنه لم يزر واحداً منهم في بيته أو مقر عمله[3].

8 ـ علاقته مع رجال الدولة الأيوبية :

فرح الحافظ السِّلفي فرحاً عظيماً لزوال الدولة الفاطمية الشيعية، وقيام الدولة الأيوبية السنية على أنقاضها، الذين شرعوا منذ اللحظة الأولى من قيام دولتهم يدعون إلى إعادة اعتناق عقيدة أهل السنة، وإلى إزالة كل مظهر من مظاهر الاعتقاد الفاطمي وإلى تخويف كل من يحاول إعادة المذهب الفاطمي أو الدعوة إليه. ومع هذا فإن الحافظ السِّلفي لم يقرع باب أحد من السلاطين الأيوبيين أو أمرائهم لا مهنئاً ولا شاكراً، تماماً كما كان يفعل مع حكام الفاطميين وأمرائهم من قبل. وأكبر سلاطين بني أيوب وأمراؤهم في السِّلفي هذا السلوك وأخذو يسعون هم إليه ويحضرون حلقات دروسه، فيستمعون إليه كما يستمع غيرهم، بكل تقدير وإجلال وإكبار، فالسلطان صلاح الدين على مهابته وجلال قدره وعلو مكانته كحاكم لمصر كلها، ذهب بنفسه من القاهرة إلى الإسكندرية ـ يصحبه ولداه الأفضل «علي» والعزيز «عثمان» وأخوه «العادل» وسكرتيره «العماد الأصفهاني» وكبار رجال دولته لزيارته وسماع الحديث منه[4]، يقول القاضي ابن شداد في وصف تلك الزيارة أثناء حديثه عن أخلاق السلطان صلاح الدين وعن حبه لسماع الحديث الشريف: وكان السلطان شديد الرغبة في

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 136.

(2) المصدر نفسه، ص: 136.

(3) المصدر نفسه، ص: 136.

(4) السلوك للمقريزي، نقلاً عن: الحافظ أبو الطاهر، ص: 137.

سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع منه ... وقد تردد إلى الحافظ «السِّلفي» بالإسكندرية، وروى عنه أحاديث كثيرة[1]. وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين عن العماد الأصفهاني، وصفاً تفصيليًا لتلك الزيارة، فقال: ثم خرج السلطان من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واصطحب معه ولديه الأفضل «علياً» والعزيز «عثمان» ... ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلفي وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر[2]. ومن ألطف ما حدث في تلك الزيارة أن الملك العادل كان يجلس في أحد تلك الأيام الثلاثة بجوار أخيه السلطان، فمال عليه، وهمس في أذنه بكلام غير مسموع، فلما رآهما الحافظ «السِّلفي» زبرهما، وأظهر لهما عدم الرضا، فأصغيا[3].

9 ـ السِّلفي الشاعر وعلاقته بالشعراء:

كان الحافظ السلفي ـ رحمه الله ـ شاعراً، ينظم الشعر ويتذوقه وينقده عن دُربة ودراية وكان يحب الاستماع للشعراء والمنشدين، ويجزل العطاء لمن يمدحه[4]، وكان يحب حفظ الشعر وروايته والاستشهاد به في مجالسه، وترديد ما كان يعجبه على مسامع جلاسه، فهو كثيراً ما كان يردد قول الشاعر:

قالوا نفوس الدار سكانها ... وأنتم عندي نفوس النفوس

وقول الشاعر:

نحن نخشى الإله في كل كرب ... ثم ننساه عند كشف الكروب

كيف نرجو استجابة لدعاء ... قد سددنا طريقَهُ بالذنوب

وقول الشاعر في المشيب:

حل المشيب بعارضي ومفارقي ... بئس القرين أراه غير مفارقي

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 7 الحافظ أبو الطاهر، ص: 138.

(2) الحافظ أبو الطاهر، ص: 138.

(3) المصدر نفسه، ص: 139.

(4) المصدر نفسه، ص: 170.

رحل الشباب فقلت: قف لي ساعة ... حتى أودع. قال: إنك لاحقي

وقال الشاعر في عزة النفس:

منزلي منزل الكرام ونفسي ... نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعت بالقوت دهري ... فلما أزور زيداً وعمرا[1]

وكان يعجبه قول أبي إسحاق الشيرازي في الصديق الوفي:

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ ... فقالوا ما إلى هذا سبيل

تمسّك إن ظفرت بودِّ حُرٍّ ... فإن الحُرَّ في الدنيا قليل[2]

وقد حفظت لنا بعض الكتب حكايات حدثت له مع بعض الشعراء، نروي منها هذه الحكاية، لما كان لها من أثر في تحريك عواطفه وإثارة مكامن الشوق والحنين لأهله وبلده أصبهان . . يقول أبو محمد عبد الله بن محمد التجيبي الأندلسي المعروف بابن المليح: إن أبا الحجاج ابن الشيخ أنشد أبا الطاهر «السِّلفي» هذه الأبيات:

أيا من حلّ نور عيني ... ويا من حاز كلّ عُلاً وزينِ

أنا مُذْ صرت عبدك زدت فخراً ... وزال بملككم نقصي وشَيْني

أتيتكم لأقرأ أو لأروي ... فعدت لمنزلي صِفر اليَدَين

قريح القلب لم أظفر بشيء ... كأني لم أكن أهلاً لذينِ

يروح الناسُ عنك بكل خير ... وأرجع لابساً خفَّيْ حُنَيْنِ

وما ذنبي سوى أني غريب ... وقومي حيل بينهُمُ وبَيْني

يقول أبو محمد ابن المليح: قال لي أبو الحجاج: لما وقف الشيخ أبو طاهر على هذه الأبيات وبلغ قولي:

وما ذنبي سوى أني غريب ... وقومي حيل بينهم وبيني

تواجد وبكى، وصاح بأعلى صوته: «وقومي حيل بينهُمُ وبيني» حنيناً إلى وطنه أصبهان، وشوقاً إلى ما خلف من القرابة والإخوان وأغشي عليه، فجعل طلبته يلومونني

(1) الحافظ أبو الطاهر، ص: 173.

(2) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 173.

ويقولون لي: ما هذا الذي جنيت علينا اليوم؟ وأدخل الشيخ داره فلم يخرج إلا بعد أربعة أيام[1].

وكان يقرض الشعر ومما قاله:

إن علم الحديث علم رجال ... تركوا الابتداع للاتباع

فإذا جنّ ليلهم كتبوه ... وإذا أصبحوا غدوا للسماع[2]

وقال معتزاً بما أكرمه الله به من معرفة بعلم الحديث:

إذا ذُكرت بحار العلم يوماً ... فقول المصطفى لا غيْر بحري

هو البحر المحيط وما عداه ... فأنهار صغار منه تجري[3]

ومدح الإمام الشافعي في قصيدة طويلة جاء فيها:

فعليك يا من رام دين محمد ... بالشافعي وما أتاه وقالا

أعني محمد بن إدريس الذي ... فاق البرية رتبة وكمالا

وعلا على النظراء طرّاً واغتدى ... شمس الهدى والغير كان هلالا

وأبحث كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جلالا

وتجملَنْ بهمُ وكنْ من حزبهم ... فهُمُ الجَمَال لمن أردْت جمالا

ورد في هذه القصيدة على أصحاب التجسيم والمعطلة وتناول فيها مشاهير المذهب الشافعي واحداً إلى أن وصل إلى قوله:

وأعلم بأن أعزهم وأجلهم ... شيخ الأنام سجية وفعالا

من لم يخف في الله لومة لائم ... وبما رآه من الأذى ما بالا

ذاك ابن حنبل الإمام المقتدى ... من فاق بين العالمين خصالا[4]

10 ـ وفاته:

في صباح يوم الجمعة ـ وقيل ليلة الجمعة ـ الخامس من ربيع الثاني سنة (576هـ) غربت

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 173.

(2) سير أعلام النبلاء (21/ 36).

(3) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 180.

(4) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 183، 184.

شمس حياة السلفي من الوجود وأفل نجمه من سماء الإسكندرية إلى الأبد، فانتهت بذلك حياة طويلة عامرة، دامت قرناً من الزمن، قضاها صاحبها في رحاب العلم والتدريس، والمطالعة والكتابة والتحصيل والإفادة، لم يتوقف عن ذلك يوماً من الأيام ولم يمنعه مانع، وإنما ظل يتابع ويفيد حتى آخر أمسية من أمسيات حياته[1]، وصلى عليه صاحبه أبو طاهر بن عوف، فقيه الإسكندرية المالكي بعد ظهر الجمعة بجامع عبد الله بن عمرو بن العاص، ودفن في مقبرة «وعلة» التي ذكرها ابن خلكان بقوله: وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر[2]، فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره[3].

وقد زار قبره من المؤرخين المشهورين أبو شامة صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. وذكر ذلك في أحداث سنة (576هـ) فقال: وفيها توفي الحافظ السِّلفي، وقد زرت قبره داخل الباب الأخضر[4].

إن الحافظ أبا الطاهر السِّلفي من علماء الأمة الكبار، وقد أكسب الإسكندرية بوجوده بها شهرة عالمية في علم الحديث والقراءات طول القرن السادس الهجري، وعلى أهل الإسكندرية أن يفتخروا بهذا العالم الجليل ويردوا له الجميل فيعرّفوا الأجيال بمكانته أو يعيدوا للأذهان اسمه بإطلاقه على أحد المعاهد أو المدارس، أو أن ينشروا تراثه[5].

ثالثاً: أبو طاهر بن عوف الإسكندراني:

الشيخ الإمام، صدر الإسلام، شيخ المالكية، إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف بن يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن حميد ابن صاحب النبي ﷺ، القرشي الزهري العوفي الإسكندريُّ المالكي، من ذرية عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه[6]، ولد سنة خمس وثمانين وأربع مئة، وتفقّه على الأستاذ أبي بكر الطرطوشي وبرع، وفاق الأقران، وتخرّج به الأصحاب. وروى عن الطرطوشيّ «الموطّأ» وعن أبي عبد الله الرازيّ. وكان إمام

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 254.
(2) أحد أبواب الإسكندرية القديمة، كان يقع في الناحية الغربية.
(3) وفيات الأعيان (1/ 221).
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 255.
(5) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي، ص: 255.
(6) سير أعلام النبلاء (21/ 122).

عصره، وفريد دهره في الفقه، وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهادة وكثرة العبادة[1]، والتواضع التام، ونزاهة النفس[2]، وقد شهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام الدولة الأيوبية، وقد زار صلاح الدين الإسكندرية في سنة (577هـ)، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار دولته دروس أبي الطاهر بن عوف، وسمعوا عليه جميعاً «موطأ مالك» بروايته عن أستاذه الطرطوشي، روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهاني، فقد كان مصاحباً لصلاح الدين فيهما، قال: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (577هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السواري وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهّدها وأمر بالإتمام والاهتمام، وقال السلطان: نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف. فحضرنا عنده، وسمعنا عليه موطأ مالك ﷺ بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخيرة من شوال، وتمّ له ولأولاده ولنا به السماع[3]، واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصّل خيراً كثيراً بتتلمذه عن ابن عوف وسماعه منه، فقد أرسل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك، وفيما يلي نص الرسالة: أدام الله دولة المولى الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أغر محجل.

والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت عَلَمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى ﷺ فيجعل أثره عيناً لا تستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثراً لا يظهر، وقد استغرق الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه، والرفع من أقدار أهله والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان وسار زيد إلى عمرو على بُعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياماً مع أنه

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 123).

(2) الديباج المذهب ابن فرحون، ص: 95

(3) كتاب الروضتين (2/ 24).

في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون ـ رحمة الله عليه ـ على أنه خلط زيارة نبوية بطلب، ورحل بولديه إلى مالك ـ رحمة الله عليه ـ لسماع هذا الموطأ، الذي اتفقت الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سأل مالكاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يجعل له ولولديه: الأمين والمأمون مجلساً خاصًا لإسماع مصنفه، فقال له ما معناه: إنها سنة ابن عمك ﷺ وغيرُك من سترها، ومثلُك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد، ويقوم عليُّه وعثمانه[1] مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك ـ رحمة الله عليه ـ في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة وإلا فليلتمس وكذلك خطُّ موسى بن جعفر في فتيا المأمون ـ رحمهما الله ـ كان أيضاً فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم، لا خلا المولى ـ أبقاه الله ـ من فضله، وقف المملوك على ما بشر من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دم، واسترواح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذا الطريق بكل فال، مباركة الكبر والفأل، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه، فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشام ينقطع به الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله[2].

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة، يجله ويحترمه، ويقدره، ويوقره، وإذا اعترضته مشكلة الدين أو الدولة، أرسل إليه يسأله الرأي والفتوى ويؤكد هذا قول ابن فرحون: وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظِّم ابن عوف ويراسله ويستفتيه[3]، وقد روى الصفدي في كتابه «نكت الهميان» قصة مراسلة من هذه المراسلات عن ترجمته للقاضي شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون، فقد أضرَّ هذا القاضي آخر عمره أثناء توليه القضاء وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته بالعمى، وكان ابن أبي عصرون نفسه حريصاً على أن يظل قاضياً، فألف رسالة أيَّد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأي تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ويبدو أن

---

(1) يقصد ولدي صلاح الدين : الأفضل علي والعزيز عثمان.

(2) كتاب الروضتين (2/ 24أ 25).

(3) أعلام الإسكندرية، ص: 119.

صلاح الدين كان حريصاً على إرضاء ابن أبي عصرون وعدم المساس بشعوره في شيخوخته، فأرسل يستفتي ابن عوف في الأمر، قال الصفدي: وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر ابن عوف الإسكندري وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى[1]. وكان صلاح الدين يستجيب لرأي ابن عوف ومشورته، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهي ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر[2]، وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف، فقد قال السيوطي: وله مؤلفات[3]، وللشيخ أبي الطاهر تذكرة التذكرة في أصول الدين وغير ذلك في التأليف[4]. وفي سنة (581هـ) توفي ابن عوف ودفن في الإسكندرية وله ست وتسعون سنة[5].

إن ما قام به أبو الطاهر السِّلفي وأبو الطاهر ابن عوف من طلب العلم ونشره بين الناس والعمل على إحياء المذهب السني من أعظم الجهاد، فإن الاشتغال بطلب العلم وتعليمه من أعظم الجهاد لمن صحت نيتُه ولا يوازنه عمل من الأعمال لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه[6].

فالعلم عبادة تجمع عدة قربات منها: التقرب إلى الله بالاشتغال به، فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات، وذلك في أوقاته الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى بها وكاد أن يضمحل، والاستكثار من ميراث النبي ﷺ وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونَفْعه واصل لصاحبه، ومتعدٌ إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انْتُفع بإرشادهم واهتُدي بأقوالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجوهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته[7].

---

(1) الوفيات (2/ 256) نكت الهيمان، ص: 185.

(2) أعلام الإسكندرية، ص: 120.

(3) المصدر نفسه، ص: 120.

(4) المصدر نفسه، ص: 121.

(5) سير أعلام النبلاء (21/ 122)، السنة النبوية في القرن السادس، ص: 677.

(6) الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب، ص: 74.

(7) المصدر السابق، ص: 74.

رابعاً: عبد الله بن أبي عصرون:

الشيخ الإمام العلامة، الفقيه البارع، المقرئ الأَوْحَدُ، شيخ الشافعية، قاضي القضاة، شرف الدين، عالم أهل الشام، أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله ابن المطهَّر بن علي ابن أبي عصرون بن أبي السَّرِيّ، التَّميميُّ الحديثيُّ الأصل، الموصليُّ، الشافعي[1]، وقد تولى ابن أبي عصرون في عهد نور الدين قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه[2]، فقد ولد بالموصل سنة (492هـ) أو (493هـ) وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة (545هـ ـ 1150م)، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام (549هـ ـ 1154م) ودرس في جامع حلب، وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب، ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك، وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه صلاحيات واسعة[3]، كما اعتمده عام (566هـ ـ 1170م) رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[4].

1 ـ عبد الله بن أبي عصرون وصلاح الدين الأيوبي:

كان صلاح الدين على معرفة تامة بعبد الله بن أبي عصرون منذ أيام نور الدين محمود زنكي، فكلاهما نشأ في ظله وتحت رعايته خاصة صلاح الدين، وكان الاثنان من رجاله الأكفاء أحدهما: يشتغل بالقضاء والحكم والفتيا والتعليم والعلم، والآخر: يشتغل بالأمور العسكرية ويوليها اهتماماً زائداً، وتدل مجريات الحوادث منذ أيام نور الدين محمود زنكي على أن العلاقات بين الرجلين كانت سليمة تسودها روح الود والمحبة والتقدير، فقد عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبادله الاحترام بمثله، والدليل على ذلك الرسالة التي بعثها صلاح الدين من مصر للشام إلى ابن عصرون، ولعل اختياره بالذات تفضيل له على غيره واعتراف بقدرته على التأثير في الأحداث، لذا كانت رسالته تحمل في طياتها نوعاً من العتب عليه وأملاً في أن يعمل بجد لإفشال تلك الاتفاقية الغادرة، وكان عبد الله بن أبي عصرون لا يحبذ تلك الاتفاقية، ولم يوافق عليها مع من وافق، ولعله كان يعاني الألم النفسي لما حل

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 126).

(2) عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي، ص: 241.

(3) عصر الدولة الزنكية، ص: 242، وفيات الأعيان، ص: 242.

(4) مرآة الزمان (8/ 283)، عصر الدولة الزنكية، ص: 243.

بالمسلمين من الضعف، بل كان يحبذ مجيء صلاح الدين من مصر ليعملا سوياً وبانسجام تام لتحطيم مثل هذه الاتفاقية، والانطلاق إلى تحقيق الهدف المعلن، وهو طرد المحتل الصليبي الجاثم فوق الأرض الإسلامية في بلاد الشام[1]، ويبدو أن ابن أبي عصرون كان يُحبِّذ قدوم صلاح الدين من مصر إلى الشام ـ بعد وفاة نور الدين واختلاف الأمراء من بعده ـ ويؤيد هذا القول أنه لم يوقع أولاً على الاتفاقية شأنه في ذلك شأن أمراء الشام وقضاته خاصة، وأنه كان من الشخصيات الكبيرة في المجتمع وثانياً أنه وقف ضد الأمراء الذين طلبوا الاستمرار في معاداة صلاح الدين الأيوبي والعمل ضد قدومه إلى بلاد الشام الأمر الذي جعل صلاح الدين يوليه قضاء مصر[2]، ومع ذلك ذهب عبد الله بن أبي عصرون من دمشق إلى حلب مع الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي قبل قدوم صلاح الدين إلى دمشق، ولم يمكث طويلاً بل عاد إلى دمشق ثانية، وكان بها صلاح الدين الأيوبي عام (572هـ)، وذلك عندما أشرف كمال الدين الشهرزوري قاضي الشام أيام صلاح الدين على الموت، بل كان من الذين غسلوه وكفنوه وسار على رأس المشيعين بجنازته بعد الموت[3].

2 ـ تعيين ابن أبي عصرون على القضاء:

عندما شعر كمال الدين الشهرزوري بدنو أجله فوّض القضاء في بلاد الشام إلى ابن أخيه، أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الملقب ضياء الدين، ولم يسع صلاح الدين سوى الموافقة على هذا التفويض لأن ضياء الدين أهل للقضاء ليس إلّا، ولأن القضاء من الرتب العليا التي لا ينفع فيها توريث[4]، وقد كانت لكمال الدين الشهرزوري جهود في تهيئة الأمور بدمشق لاستقبال صلاح الدين لأنه اعتقد أنه أكفأ من باقي الأمراء لمنازلة العدو الصليبي، وهذا العمل من الأعمال المجيدة التي تحسب لكمال الدين الشهرزوري، حيث وضع المصلحة العامة للمسلمين فوق كل اعتبار وفضّل صلاح الدين على باقي مجموع الأمراء في بلاد الشام الذين أمضوا الصلح مع العدو الصليبي[5]، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في حينه بإذن الله تعالى.

إلا أن صلاح الدين بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري كان ميله لتعيين ابن أبي عصرون على القضاء للأسباب التالية :

---

(1) المدارس العصرونية في بلاد الشام، د. صادق أحمد، ص: 29.

(2) السلوك للمقريزي، نقلاً عن: المدارس العصرونية، ص: 29.

(3) مفرج الكروب (2/ 50) المدارس العصرونية، ص: 29.

(4) المدارس العصرونية في بلاد الشام، ص: 31.

(5) المصدر نفسه، ص: 34.

1 ـ قوة شخصية عبد الله بن أبي عصرون العلمية والأدبية، ومكانته كشيخ للمذهب الشافعي في زمنه، وقد شهد له معظم المعاصرين بهذا[1].

2 ـ حب صلاح الدين الأيوبي لأتباع مذهب الشافعي وتقديرهم لا سيما وأنه كان شافعياً إلى درجة التعصب أحياناً، وأنه أراد أن يوحّد الدولة على أساس المذهب الشافعي.

3 ـ احتضان صلاح الدين لعبد الله بن أبي عصرون عندما قدم إليه إلى دمشق لا بل تفويض قضاء مصر له كما روى المقريزي عام (570هـ)، وتوجيه كتاب له يحضه على إبطال مفعول معاهدة دمشق مع الصليبيين في نفس العام[2]، لدليل على أن صلاح الدين يُكِنّ له الحب والتقدير ويتمنى أن يكون قاضيه، بل تعتبر الرسالة تمهيداً لاختياره في المستقبل.

4 ـ ثم إن علاقات صلاح الدين وابن أبي عصرون كانت على درجة كبيرة من المتانة وكان ابن أبي عصرون هو الذي تولى الإشراف على تزويج صلاح الدين بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر وزوجة السلطان نور الدين ـ قبل وفاته ـ التي كانت تقيم بقلعة دمشق عام (572هـ)[3].

5 ـ وجود شخصيات هامة في دولة صلاح الدين الأيوبي تحبذ أن يسند قضاء قضاة الشام إلى عبد الله بن أبي عصرون أمثال القاضي الفاضل الذي كانت علاقاته به متميزة، وكان ابن أبي عصرون كثيراً ما يخاطبه في مراسلاته بمجير الدين القاضي الفاضل دليلاً على احترامه وعلو شأنه[4]، وكذلك الفقيه عيسى الهكاري أحد أمراء صلاح الدين والذي تتلمذ على يدي عبد الله بن أبي عصرون والذي كان يميل إلى أستاذه ويتمنى أن يراه قاضياً لقضاة الشام[5]، ولا شك في أن لهاتين الشخصيتين أثراً كبيراً في جعل صلاح الدين يميل إلى عبد الله بن أبي عصرون ويسند إليه القضاء، فالناس فيما يذهبون ويهوون مشارب ومذاهب[6].

6 ـ خطة عبد الله بن أبي عصرون وأعوانه الذين بدأوا يذيعون أن ضياء الدين سيعزل

---

(1) مفرج الكروب (2/ 50)، المدارس العصرونية، ص: 34.

(2) كتاب الروضتين (1/ 231)، المدارس العصرونية، ص: 35.

(3) المصدر نفسه (1/ 231)، المصدر نفسه، ص: 35.

(4) المصدر نفسه (1/ 231)، المصدر نفسه، ص: 35.

(5) وفيات الأعيان (3/ 163)، المدارس العصرونية، ص: 36.

(6) المدارس العصرونية، ص: 36.

وربما يناله المكروه فتحرّج موقف الرجل ودفعه هذا العمل إلى تفضيل السّلامة وقدم استقالته من القضاء والتي قبلت بسرعة[1] ودون تردد، مما يفسر لنا أن صلاح الدين يميل إلى عبد الله ابن أبي عصرون مع أنه لا يريد الإحراج لضياء الدين وإقالته[2]، ومهما قيل فإن مجمل هذه الأسباب مجتمعة هيأت الظروف لأن يتولى شرف الدين بن أبي عصرون قضاء القضاة في جميع ممالك بلاد الشام الخاضعة لصلاح الدين الأيوبي عام (573هـ)[3]، وكان شرط صلاح الدين على هذا التعيين أن يكون محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود نائب كمال الدين الشهرزوري في الحكم والقضاء قاضيان يحكمان وهما عن منابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان نفسه[4].

3 ـ إنتاج ابن أبي عصرون العلمي:

كان ابن أبي عصرون شخصية متميزة لها سماتها الفريدة، فقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان: إماماً فاضلاً مصنفاً[5] ووصفه السبكي، صاحب طبقات الشافعية بقوله: نزيل دمشق وقاضي القضاة بها وعالمها ورئيسها[6]، وقال عنه موفق الدين ابن قدامة المقدسي: كان إمام أصحاب الشافعي في عصره، ونعته ابن الصلاح بأنه أفقه أهل عصره وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام[7]، ووصفه العماد الأصفهاني بقوله: حجة الإسلام مفتي العراق والشام شيخ العلم العلامة وبفتياه توطدت للشرع الدعامة وله الفخار والفخامة، وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي عنه مثله وقد أشرق في الآفاق فضله وصنف في المذهب تصانيف مفيدة قواعدها في العلم مهيدة[8]، ومما صنفه ابن أبي عصرون: «صفوة المذهب في نهاية المطلب» وهو سبع مجلدات «الانتصار» في أربع مجلدات «المرشد» في مجلدين «الذريعة في معرفة الشريعة» مجلد «التيسير» في الخلاف في أربعة مجلدات، «مآخذ النظر»

---

(1) المدارس العصرونية، ص: 37.

(2) مفرج الكروب (2/ 50)، المدارس العصرونية، ص: 37.

(3) سنا البرق الشامي، ص: 113، المدارس العصرونية، ص: 38.

(4) سنا البرق الشامي، نقلاً عن: المدارس العصرونية، ص: 39.

(5) النجوم الزاهرة (6/ 109)، المدارس العصرونية، ص: 122.

(6) طبقات الشافعية (7/ 132)، المدارس العصرونية، ص: 122.

(7) المدارس العصرونية، ص: 122.

(8) خريدة القصر، شعراء الشام (2/ 351)، المدارس العصرونية، ص: 122.

و«مختصر الفرائض» و«الإرشاد المغرب في نصرة المذهب» ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب[1]، وله مؤلفات أخرى منها «التنبيه في معرفة الأحكام» « فوائد المهذب» في مجلدين[2]. «والموافق والمخالف»[3]، و«فوائد المنذري» في مجلدين. وجمع جزءاً في جواز قضاء الأعمى[4].

وأضاف البغدادي في هداية العارفين[5] فتاوى ومسلسلات في الحديث[6].

4 ـ إنتاج شرف الدين ابن أبي عصرون الأدبي:

اشتهر شرف الدين في علوم الفقه والأصول والخلاف والفتاوى والقضاء وكذلك بالجانب الأدبي، فقد كان شاعراً أديباً أورد له العماد الأصفهاني وغيره مقطوعات شعرية كثيرة تنم عن إحساس متدفق وخيال خصب واسع ونفس مجربة عركتها الحياة[7] ومن أشعاره:

كل جمع إلى الشتات يصير ... أي صفو ما شابه تكدير

أنت في اللهو والأماني مقيم ... والمنايا في كل وقت تسير

والذي غرّه بلوغ الأماني ... بسرابٍ وخُلّب مغرور

ويك يا نفسي أخلصي إن ربي ... بالذي أخفت الصدور بصير[8]

ومن شعره:

أستخبري عن حَنِيني إليه ... وعن زَفَراتي وفرط اشتياقي

لك الخير إنَّ بقلبي إليك ... ظمأً لا يُروِّيه إلّا التلاقي

وقال أيضاً:

---

(1) المدارس العصرونية، ص: 123.

(2) المصدر نفسه، ص: 123.

(3) المصدر نفسه، ص: 123.

(4) المصدر نفسه، ص: 124.

(5) المصدر نفسه، ص: 124.

(6) المصدر نفسه، ص: 124.

(7) المدارس العصرونية، ص: 124.

(8) المدارس العصرونية، ص: 126، النجوم الزاهرة (6/ 110).

يا سائلي كيف حالي بعد فُرْقَتِهِ   وحاشاك ممَّا بقلبي من تَنَائيكا
قد أقسم الدّمعُ لا يجفُو الجُفُون أسىً   والنوم لا زارها حتى ألاقيكا[1]

هذه شخصية ابن أبي عصرون المتميزة فهي متكاملة الجوانب لها أثرها في مجال القضاء والفتيا والسياسة والإدارة، والدبلوماسية والسفارة، تمتعت بقدر كافٍ من العلم والأدب أهّلها إلى أن تتسلم أرقى المناصب وأرفعها وهي قضاء القضاة والسفارة ومشيخة الشافعية في عصرها[2].

5 ـ حمله البشارة إلى الخلافة العباسية:

من المهام الجليلة التي قام بها القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون هي حمل البشارة إلى الخلافة العباسية سنة (567هـ/ 1171م)، بقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بالله، وكتب معه نسخة لهذه البشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها، فسار إلى بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده، ونثرت عليه دنانير الأنعام وحبي بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين[3]، واستمر القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون مشاركاً في الحياة السياسية بعلمه وآرائه، وسفيراً لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية ببغداد حتى كانت موقعة حطين سنة (583هـ/ 1187م). وأكد المؤرخون مشاركته لصلاح الدين في هذه الموقعة العظيمة التي فتح الله بها معظم مدن الساحل الشامي وبيت المقدس[4].

6 ـ عبد الله بن أبي عصرون يصاب بالعمى:

ظل شرف الدين ابن أبي عصرون قاضياً يحكم بالشرع حتى عام (577هـ)، حيث أصيب آنذاك بالعمى وفقد بصره فتكلم الناس في عدم أَهْلِيّته للقضاء وطعنوا بها[5]، وهنا وقع صلاح

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 128، 129).
(2) المدارس العصرونية، ص: 128.
(3) السلوك (1/ 64، 65).
(4) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 135.
(5) وفيات الأعيان (3/ 54)، المدارس العصرونية، ص: 39.

الدين في حرج شديد، وورطة فقهية، فهو لا يريد أن يمس مشاعر صاحبه الذي فقد بصره ويعزله عن منصب القضاء وهو في نفس الوقت يتعرض لأقوال الفقهاء التي تطعن في بقاء ابن أبي عصرون في منصبه لعدم أهليته، وقد تصدى شرف الدين ابن أبي عصرون لهذه المشكلة بنفسه وأصدر كتاباً في جواز قضاء الأعمى مخالفاً في هذا مجموع الفقهاء، وكان سند ابن أبي عصرون فيما ذهب إليه من جواز قضاء الأعمى وجه ورد في جمع الجوامع للروياني اختاره شرف الدين ابن أبي عصرون وصنف فيه جزءاً في جواز قضاء الأعمى وظل هو قاضياً لما أصيب بالعمى، وكانت حجة الجمهور أن الأعمى لا يعرف الخصوم، ولا الشهود، فكيف يحسن قضاؤه فيما يعرض عليه، وحجة من جوّز هذا أن شُعيباً نبي الله كان أعمى فما دام هذا نبي مرسل فالقاضي بطريق أولى أن يكون قاضياً؛ لأن النبي أشرف من القاضي لتفضيل الله له على غيره، وقيل: إن شعيباً لم يثبت عماه، فلو سلمنا بعمى شعيب فإن الذين آمنوا به كانوا قلة فربما إنهم لم يحتاجوا إلى من يحكم بينهم، ولو فرضنا أنهم احتاجوا فإن الوحي ينزل على النبي شعيب يزوده بالحكم الفاصل ولا يتسنى هذا للقاضي إذ لا وحي ينزل عليه[1]. وأمام هذه المشكلة التي يقف فيها شرف الدين ابن أبي عصرون لوحده في جانب وجميع الفقهاء في الجانب الآخر بالشام، انتابت صلاح الدين الحيرة فماذا عساه صانع ؟ فالتفت صلاح الدين إلى القاضي الفاضل، وكان في مصر آنذاك فأرسل إليه يستعين به على حل هذه المشكلة بأنه يتوجب عليه أن يتصل بالشيخ أبي طاهر ابن عوف الإسكندري ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى[2]، علّه يجد له حلًا لما استعصى عليه، ثم لم تلبث أن وردت إجابات القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي وجاء فيها: لن يخلو الأمر عن قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ولاينسى له هذا التخريج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام: إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليه المجازاة لأول زلة وترك الإقالة لأقل عثرة، فطالما بعث حب المناقشة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصالحة، وإما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ، وصدر الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه[3]. وفي هذا الجواب وجد صلاح الدين المخرج بلا حرج، فأبقى شرف

(1) مفرج الكروب (2/ 51)، نكت الهميان، ص: 60.
(2) وفيات الأعيان (3/ 54)، المدارس العصرونية، ص: 41.
(3) مفرج الكروب (2/ 67، 68)، المدارس العصرونية، ص: 41.

الدين على رأس القضاء وفوّض الأمر إلى ولده محيي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين على أن يكون والده هو الحاكم الحقيقي، ويظهر للناس على أنه نائب عن أبيه بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء، وهكذا بقي شرف الدين ابن أبي عصرون يمارس قضاء القضاة في بلاد الشام وولده نائب عنه، بفضل دفاعه عن نفسه والغوص في أعماق الفقه واستخلاص ما يجيز قضاء الأعمى، ثم تضامن صلاح الدين معه ومساندة صاحبه القاضي الفاضل له بالحق[1].

7 ـ وفاة ابن أبي عصرون:

توفي القاضي ابن أبي عصرون في حادي عشر رمضان سنة خمس وثمانين وخمس مئة[2]، ولما بلغ الخبر القاضي الفاضل بمصر كتب رسالة بهذه المناسبة يعَزي بشرف الدين ويرد على الرسالة التي وردته بالخبر من الشام: وصل كتاب الذات الكريمة جمع الله شملها وسر بها أهلها ويسر إلى الخيرات سبلها وجعل في ابتغاء رضوانه قولها وفعلها، وفيه زيادة هي نقص الإسلام وثلم في البرية يتجاوز رتبة الانثلام إلى الانهدام وذلك ما قضاه الله تعالى وقدّره من وفاة الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون رحمه الله تعالى، وما حصل بموته من نقص الأرض من أطرافها ومن مساءة أهل الملة ومسرة أهل خلافها، فلقد كان علما للعلم منصوباً وبقية من بقايا السلف الصالح محسوباً، والعلم بالشام زرعه وكل من انتفع فعليه كان واليه ينسب نفعه ﷺ وأرضاه ونفع بماء الرحمة مثواه، وما مات من أبقى تلك التصانيف التي هي المعنى المغني بل ما مات من ولده المحيي، . فإنه والله لآثاره ولعلمه والحضرة تنوب عني في تعزيته والقيام بحق تسليته وقد ساءتني الغيبة عن مشهده، وتغيير القيام وراء سريره والتوسل إلى الله في ساعة مقدمه، ولقد علم الله اغتمامي لفقد حضرته واستيحاشي لخلو الدنيا من بركته واهتمامي بما عدمت من النصيب الموفر (كان) من أدعيته. وما مات بحمد الله حتى أحرز غيبته بأولاد كرام بررة وأنشأ طلبة للعلم نقلة وللمدارس عمرة وحتى بنى لله المدارس والمساجد وأحيا نهاره وليله بين راكع وساجد فهو حي لمجده وإنما نحن الموتى بفقده[3].

خامساً: الفقيه عيسى الهكاري:

هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، أحد أمراء الدولة

---

(1) المدارس العصرونية، ص: 41.

(2) سير أعلام النبلاء (21/ 129).

(3) المدارس العصرونية، ص: 192.

الصلاحية معولاً عليه في الآراء والمشورات، وقام بتدريس الفقه في المدرسة الزجاجية بمدينة حلب، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان عيسى في صحبته، وكان صلاح الدين يستشيره ويتبع نصحه، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام وكان واسطة بين صلاح الدين والناس بما ينفعهم[1].

ـ **إسناده لصلاح الدين في وزارته** : بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة صلاح الدين وخدمته[2]، وكادت تحدث فتنة بين قوات نور الدين في مصر لولا الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري ـ وهو من الأكراد ـ فقد أخذ يسعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء إلى أن جمعهم حوله بأنواع من الترغيب والترهيب، إلا أن عين الدولة الياروقي فَضّل العودة إلى الشام لخدمة نور الدين محمود على أن يظل تابعاً لصلاح الدين[3]، وهكذا يتضح الدور العظيم الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في دعم صلاح الدين في وزارته، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه حتى يتيح له الفرصة للتفرغ لما هو أهم من هذه الصراعات، ونعني بذلك الجهاد الأعظم ضد الصليبيين[4].

ـ **إصلاح الموقف بين صلاح الدين ونور الدين**: كان الفضل للشيخ عيسى الهكاري في إصلاح الموقف بين صلاح الدين والسلطان نور الدين محمود عندما اعتذر صلاح الدين عن الزحف إلى حصن الكرك، كما طلب نور الدين الذي قبل وساطة الهكاري وحمّله رسالة إلى صلاح الدين مفادها: أن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[5]. وكان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى واحداً من كبار الأمراء الصلاحية، وكان صلاح الدين يحترم علمه وعقله وآراءه، ويستشيره كثيراً في أمور الحكم ولم يكن يخرج عن رأيه[6].

---

(1) وفيات الأعيان (3/ 497)، طبقات الشافعية (7/ 255).

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 123.

(3) الباهر، ص: 142.

(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 124.

(5) دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص: 62.

(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 124.

ـ **مساهمته في الصلح مع أهل الموصل:** وتتوالى الأحداث والمواقف بعد ذلك لتؤكد أهمية ومكانة هذا الفقيه في دولة صلاح الدين الأيوبي، وذلك يتضح عندما أراد صلاح الدين في عام (578هـ/ 1182م) أن يحاصر الموصل ويستعيدها من صاحبها الأتابك عز الدين مسعود ويضمها إلى الجبهة الإسلامية ويضمن وقوفها معه ضد الصليبيين في معركته الفاصلة معهم، ولكن بعد مناوشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي في الأمر وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الطرفين[1]، فأرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين، فتقدم السلطان إلى الأجل القاضي الفاضل، وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منه، فمضيا وحضر عند شيخ الشيوخ، وقام كل من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث في الأمر نيابة عن صلاح الدين حتى استقر الصلح بين الطرفين، ورحل صلاح الدين عن الموصل وحقنت بذلك دماء المسلمين[2].

ـ **التفاوض مع وزير خلاط:** قام الفقيه عيسى الهكاري في سنة (581هـ/ 1185م) بمهمة دبلوماسية أخرى أوفده بها السلطان صلاح الدين الأيوبي للتفاوض مع وزير خلاط كنائب عنه، لأنه بعد وفاة شاة أرمن سكمان صاحب خلاط تولى مملوكه سيف الدين بكتمر البلاد، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن إيلدكز صاحب العجم لأخذ خلاط منه، وطمع وزير خلاط أيضاً في الاستيلاء عليها وهو مجد الدين بن الموفق بن رشيق الذي أرسل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي طالباً منه التدخل لحسم تلك الأطماع، فبعث السلطان الفقيه عيسى الهكاري في هذه المهمة الدبلوماسية ليمهد الطريق ويناقش الأطراف، وتحدث وزير خلاط مع الفقيه عيسى طالباً استعجال السلطان في الوصول قبل وصول البهلوان، وكان السلطان بالفعل قد غادر الموصل في طريقه إلى خلاط، ولما علم البهلوان بتلك التطورات وذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الفقيه عيسى في مساندة وزير خلاط، ورسالته العاجلة إلى السلطان، ودخل البهلوان الخوف وطلب الصلح مع وزير خلاط والعودة إلى بلاده فتم الصلح وانقضى الخلاف، وذلك بحكمة الفقيه عيسى الهكاري الذي نجح في هذه المهمة وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة بين الفئتين[3].

ـ **رجل المهمات الخاصة:** في سنة (582هـ/ 1186م) قام السلطان صلاح الدين بعدة

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء، ص: 126.
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 127.
(3) مفرج الكروب (2/ 168، 169).

تعديلات في مصر والشام خاصة بنوابه في البلاد لرغبته في الاطمئنان على مستقبل البلاد بعد وفاته من ناحية، وعدم حدوث خلاف بين أبنائه بالإضافة إلى تدريبهم على سياسة الملك في حياته وصيانة البلاد من الانشقاق من ناحية أخرى، لا سيما وأنه كان يعد نفسه للدخول في معركة فاصلة من معارك جهاده ضد الصليبيين، فلما وصلته الأخبار بأن ابن أخيه تقي الدين عمر ـ نائبه في مصر مع ولده الملك الأفضل ـ قد صدرت عنه تصرفات أثناء مرض صلاح الدين بحران تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر، أرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعاً في الجند إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها والمقام بمصر[1]، فأسرع الفقيه عيسى بتلبية الأمر وتوجه إلى مصر ونفذ ما أمر به وظل بها حتى يصل العادل أخو صلاح الدين إليها وبصحبته ولده العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهذا يدل على الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري واطمئنانه إليه خاصة وأنه يعلم مدى تأثير الهكاري في جند مصر[2].

ـ **شجاعته في الحروب ضد الصليبيين**: بعد أن استتب الأمر لصلاح الدين وبدأ جهاده في جبهة الشام يشاركه الكثير من المتطوعين من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم الفقيه عيسى الهكاري الذي يشاركه في جهاده ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك مجاهداً في سبيل الله، وكان يلبس زي الأجناد بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين[3]، وقد أثبتت المصادر الإسلامية هذه المشاركة الفعلية التي قام بها هذا الفقيه في الجهاد، فعندما خرج مع صلاح الدين في سنة (573هـ/1177م) لمحاربة الصليبيين في عسقلان، قام بالإغارة عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر الكثير وأحرق ما حولها، ثم واصل صلاح الدين بمن معه إلى الرملة فسبى وغنم ولكن لما تشاغل الجيش بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها وبقي صلاح الدين في طائفة قليلة من جنده، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فارتبك المسلمون وأخذوا يقاتلون الصليبيين ولكن حلت بهم الهزيمة وقتل منهم أعداداً كثيرة وأسر الكثير منهم، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين ممن وقعوا في الأسر، ويذكر ابن الأثير في هذا المجال أن الفقيه عيسى الهكاري: كان أشد الناس قتالاً في ذلك اليوم[4]، ومما يدل على المكانة العظيمة التي كانت

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 128.

(2) المصدر نفسه، ص: 129.

(3) وفيات الأعيان (3/ 498).

(4) مفرج الكروب (2/ 59، 60).

للفقيه عيسى الهكاري عند صلاح الدين الأيوبي، هو ما ذكره المؤرخون، من أن صلاح الدين افتداه من الأسر بعد سنتين بمبلغ ستين ألف دينار[1]، ويضيف المؤرخون بأن صلاح الدين لم يقتصر في فك أسر الفقيه الهكاري على فدائه بالأموال، فقط بل أطلق كثيراً من أفراد جماعة الداوية[2]، ممن كانوا عنده في الأسر، وهذا يدل على عظم وقدر الفقيه الهكاري لدى صلاح الدين الأيوبي[3]. هذا وقد توفي الفقيه عيسى سنة (585هـ)[4].

سادساً: زين الدين علي بن نجا:

ومن المواقف الجديرة بالذكر التي قام بها بعض الفقهاء والعلماء في بداية قيام الدولة الأيوبية ما بدر منهم من حرص شديد سنة (569هـ/ 1174م) على سلامة وأمن الدولة وعدم تفككها حتى لا يطمع فيها أعداء الإسلام والمسلمين، وكان ذلك عندما قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية بمصر بعد أن أسقطها صلاح الدين سنة (567هـ/ 1171م)، وكانت خطتهم في ذلك أن يستدعوا الصليبيين من صقلية وبلاد الشام إلى مصر لمساعدتهم مقابل أن يمنحوهم شيئاً من المال والبلاد. وكانت خطتهم أنه في الوقت الذي تصل فيه القوات الصليبية ويخرج صلاح الدين بقواته للقائهم يقوم المتآمرون بإشعال نيران الثورة في الداخل فيقع السلطان بين نارين: نار ثورة بالداخل ونار وجود الصليبيين خارج البلاد، الأمر الذي يعمل على تشتيت قواته ويساعد على هزيمته أمام الصليبيين من ناحية وسيطرة المتآمرين على مقاليد الحكم من ناحية أخرى، وكان على رأس هؤلاء المتآمرين من الشيعة الفقيه الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني[5]، وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله ابن عبد الله العويرس، وغيرهم من جند المصريين ورجالاتهم السودان وحاشية القصر ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده[6]، ولا شك أن هذا المخطط خيانة صريحة من قبل جماعة من الشيعة الذين استعانوا بالصليبيين لقتال المسلمين من أجل تحقيق المصالح الشخصية، ومن أجل تحطيم دولة صلاح الدين الإسلامية السنية التي

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء، ص: 125.

(2) جماعة دينية مسيحية حربية وهم من أصل فرنسي.

(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 125.

(4) وفيات الأعيان (3/ 497).

(5) وفيات الأعيان (3/ 431 أ 436).

(6) مفرج الكروب (1/ 243 -244).

تجاهد ضد أعداء الدين، بل لقد بلغت هذه الخيانة حداً كبيراً لدرجة أنهم يغرون الصليبيين بالأموال للقدوم إلى مصر بدلاً من صدهم ومحاربتهم[1].

وقد أراد الله أن يكشف خيوط المؤامرة على يد أحد رجال الدين من الفقهاء المخلصين الواعين والمقدّرين للمصلحة الإسلامية الغيورين على تماسك وحدة الجبهة الإسلامية وهو زين الدين علي. ويذكر ابن الأثير: وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصرية أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية[2]، ورتبوا الخليفة والوزير والداعي والقضاة[3]، فلما ضموا إليهم القاضي ابن نجا وشعر بخطورة ما يدعون إليه، قام بإخبار صلاح الدين بكل تفاصيل المؤامرة فطلب منه أن يظهر تعاطفه معهم وتواطئه على ما يريدون فعله، وإخباره بما يتجدد من أخبار، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه[4]. وبناء على ذلك استطاع صلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة، وفي تلك الأثناء وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر إليه (أي صلاح الدين) والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته[5]. وعندئذ تأكد صلاح الدين من حقيقة الأخبار التي وصلته من القاضي ابن نجا وتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة، فأمر بالقبض على هؤلاء المتآمرين جميعاً وقضى عليهم وسكنت الفتنة[6]. ثم قرب السلطان إليه زين الدين علي بن نجا وأحسن إليه بالأعطيات والإقطاعات، وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته[7]، وكان صلاح الدين يسمي ابن نجا عمرو بن العاص ويعمل برأيه لسداد رأيه وسعة حيلته، وأن كثيراً من أرباب الدولة وأهل السنة في مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين ابن نجا وأن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له: إذا رأيت

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 130.
(2) وفيات الأعيان (2/ 530).
(3) السلوك (1/ 74 ، 75)، دور الفقهاء والعلماء، ص: 130
(4) مفرج الكروب (1/ 244 ، 245).
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: دور الفقهاء والعلماء، ص: 131.
(6) كتاب الروضتين (1/ 219 ـ 224).
(7) دور الفقهاء والعلماء، ص: 131.

مصلحة في شيء فاكتب إليّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك[1]، ويذكر سبط بن الجوزي أن ابن نجا نشط في الوعظ والتحديث وأن صلاح الدين وأولاده كان يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة[2]، وعندما خرج صلاح الدين لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام كان يكاتب زين الدين بن نجا بوقائعه[3]، من ذلك أنه عندما فتح قلعة حمص عام (570هـ ـ 1174م) كتب إليه يصف القلعة برسالة مطوّلة[4]. وعندما قرّر رأي صلاح الدين على الاستقرار في بلاد الشام كتب له ابن نجا عام (580هـ/ 1184م) كتاباً يشوّقه إلى مصر ونيلها وخيراتها ومساجدها ومشاهدها ثم ذكر فضيلة مصر واستدل عليه بالآيات والأخبار والآداب والآثار، فرد عليه صلاح الدين في رسالة ـ أوردها كل من سبط ابن الجوزي وأبو شامة ـ يخبره بأن سكن الشام أفضل ومناخها أجود وأن الله أقسم بها في القرآن، ويعاتبه على عدم حنينه إلى وطنه دمشق ويدعوه للانتقال إليها إلى أن ختمها بقوله: وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوي حتى شرع في ذكر المساوىء، ولعله يرجع إلى الحق ويعيد سعد أسعاده ورفاقه إلى الوفق إن شاء الله[5]. ومهما يكن الأمر، فقد استمر ابن نجا يعمل مع صلاح الدين حتى دخل معه بيت المقدس فاتحاً وألقى في المسجد الأقصى أول مجلس[6] للوعظ كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى، وقد توفي أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الملقب بزين الدين عام (599هـ)[7].

سابعاً: العماد الأصفهاني:

القاضي الإمام، العلّامة المفتي، المنشىء، والوزير، عماد الدين، أبو عبد الله محمد ابن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الأصبهاني الكاتب يعرف بابن أخي العزيز، قدم بغداد، فنزل بالنظامية، وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد ابن الرّزاز وأتقن العربية والخلاف، وساد في علم الترسل، وصَنّف التصانيف واشتهر ذكره[8]، واتّصل

(1) الطبقات لابن رجب (1/ 437، 438).

(2) مرآة الزمان، نقلاً عن: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 282.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 283.

(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 283.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 284.

(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 284

(7) وفيات الأعيان (2/ 530).

(8) سير أعلام النبلاء (21/ 345).

بابن هبيرة، ثم تحوَّل إلى دمشق سنة اثنتين وستِّين، واتَّصل بالدولة، وخدم بالإنشاء الملك نور الدِّين، وكان يُنْشِئُ بالفارسي أيضاً فنفذه نور الدين رسولاً إلى المستنجد، وولاه تدريس العمادية سنة سبع وستين، ثم رتَّبه في إشراف الديوان، فلما توفي نور الدين أُهمِل، فقصد الموصل، ومرض، ثم عاد إلى حلب، وصلاح الدين محاصر لها سنة سبعين، فمدحه، ولزم ركابه، فاستكتبه، وقرَّبه، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمَّات فيسدُّ العماد في الخدمة مَسَدَّه[1]، وصار العماد معاون القاضي الفاضل في كل الأمور واستعاد مقامه القديم وصار كاتب سر صلاح الدين[2]، واستكتبه صلاح الدين ووثق به وقرّبه إليه وصار من خاصته يصرف الأمور ويقسم الأموال التي سلمها إليه السلطان، ويوقع على ما يوقع عليه دون مراجعة ويقضي حاجات من يلجأ إليه من الناس ويزاحم الوزراء وأعيان الدولة وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين، وقد لزم العماد صلاح الدين بعد هذا أكثر من القاضي الفاضل الذي كان يتخلف عن السلطان كثيراً ويقيم في القاهرة ودمشق ليشتغل بالأعمال السلطانية . . . وأنشأ في عهد صلاح الدين الرسائل والمناشير والتبشيرات الكثيرة ودخل مجالس المشورة[3].

ولما مات السلطان صلاح الدين سنة (589هـ) أفل نجم العماد فاختلت أحواله وساءت أموره ولم يعامله أولاد صلاح الدين معاملة أبيهم له وأقصوه عن مركزه، وفي ذلك يقول العماد في مقدمة البرق الشامي: ولما نقله الله الكريم إلى جناب جنانه اقتسم أولاده ممالكه، وقلت: سلكوا مسالكه ونسكوا مناسكه وإنهم يعرفون مقداري، ويرفعون مناري ويشرحون صدري ولا يضعون قدري، فأخلف الظن حتى قطعوا رسومي ومنعوا مرسومي، وغوروا منابعي وكدّروا مشارعي[4]، وبعد موت صلاح الدين لا يذكر المؤلفون الذين ترجموا للعماد شيئاً من أخباره فيقول ياقوت: إنه لزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة[5]، كما يذكر ابن خلكان أنه: لزم بيته وأقبل على الاشتغال والتصانيف[6]، ويبدو أن العماد عاد بعد هذه الفترة إلى الدرس والتأليف ويتضح ذلك من رسالة بعث له بها القاضي الفاضل من مصر سنة

---

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 346).
(2) العماد الأصفهاني ، د. حسين عاصي، ص: 21.
(3) المصدر نفسه، ص: 21 ، 22.
(4) سنا البرق الشامي، ص: 52، العماد الأصفهاني للعاصي، ص: 24.
(5) إرشاد الأديب (7/ 85).
(6) وفيات الأعيان (5/ 152).

(595هـ) يشكو فيها حياة العزلة في مصر ويعد مقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف نعمة يتعين شكرها فيقول: وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا أنها بلا سكون وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية في الزمان المجنون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر وحاشا ذمة الوعد به أن تخفر، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء[1].

ومما قاله من شعر:

وللناس بالملك الناصر الصّلاح	صلاح ونصر كبير
هو الشمسُ وأفلاكُهُ في البلاد	ومطلعُه سَرْجُهُ والسرير
إذا ما سَطَا أو حبا واحتبى	فما الليث؟ من حاتم؟ ما ثَبِير[2]؟

وارتحل في موكب فقال في القاضي الفاضل:

أمّا الغبارُ فإنّه	مِمّا أثارته السَّنابِك
فالجوُّ منه مُظلِمٌ	لكن تباشير السَّنابك
يا دهرُ لي عبد الرحيم	فلستُ أخشى مَسَّ نابك[3]

وقد توفي العماد في الاثنين مستهل شهر رمضان سنة (597هـ/ 5 حزيران 1121)، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر[4].

ثامناً: الخَبُوشاني:

الفقيه الكبير، الزاهد، نجم الدين أبو البركات محمد بن موفَّق بن سعيد الخبُوشاني، الشافعي الصوفي، تفقه على محمد بن يحيى وبرع[5]، وكان يستحضر كتابه المحيط وهو ستة عشر مجلداً، وأصله من نيسابور وكان السلطان صلاح الدين يُقرِّبُهُ ويعتقد فيه وقد اشتهر بالفضل والديانة وسلامة الباطن، وكان متقشفاً في العيش، صلباً في الدين وكان يقول ـ قبل

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: العماد الأصفهاني، ص: 26.
(2) سير أعلام النبلاء (21/ 249).
(3) المصدر نفسه (21/ 350).
(4) العماد الأصفهاني، ص: 27.
(5) سير أعلام النبلاء (21/ 204).

نزوله إلى مصر ـ أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي، فنزل بالقاهرة، وصرّح بثلب أهل القصر، وجعل سَبَّهم تسبيحهُ، فحاروا فيه فنفذوا إليه بمال عظيم قيل: أربعة آلاف دينار، فقال للرسول: ويلك ما هذه البدعة؟ فأعجله، فرمى الذّهب بين يديه، فضربه وصارت عمامته حِلقاً وأنزله من السلم[1]، وعندما نزل مصر عام خمس وستين وخمسمائة، نزل ببعض مساجدها، فاتّفق أن الخليفة العاضد لدين الله رأى في منامه أنه بمدينة مصر، وقد خرج إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغه، فانتبه مذعوراً، واستدعى عابر الرؤيا وقصّ عليه ما رأى، فقال: ينال أمير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد، فألزم الوالي بإحضار من في المسجد، فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً: فسأله العاضد من أين هو، ومتى قدم مصر وفي أي شيء جاء، فأجابه عن ذلك، ولم يظهر للعاضد ما يريبه، بل تبيّن منه ضعف الحال مع الصدق، فدفع إليه مالاً. وقال له: يا شيخ ادع لنا، وخلّاه لسبيله فعاد إلى مسجده ولم يزل به حتّى قدم شيركوه من دمشق، وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وشرع في إزالة الدولة، فاستفتى فقهاء مصر، فكان أشدُّهم مبالغة في الفُتيا، وعدّد مساوئ القوم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال القول في الحطّ عليهم[2].

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فقد جاءه حاجب نائب مصر المظفر الدين عمر، وقال له: تقيُّ الدين يُسلِّمُ عليك. فقال الخبُوشاني قل: بل شِقيُّ الدين لا سَلَّم الله عليه، قال: إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضعٌ لبيع المِزْرِ[3]. قال: يكذب. قال: إن كان ثمّ مكان، فأرناه قال: ادنُ. فدنا، فأمسك بشعره، وجعل يلطم على رأسه ويقول: لستُ مزّاراً، فأعرف مواضع المِزْر، فخلّصوه منه[4]. وعاش عمره لم يأخذ درهماً لمِلَكٍ ولا من وقْفٍ ودفن في الكساء الذي صحبه من بلده، وكان يأكل من تاخر صَحِبَهُ من بلده[5]. هذا وقد مات الخَبُوشانيُّ في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمس مئة[6].

فهذه التراجم لسير بعض العلماء في عهد صلاح الدين، وكانت مكانة هؤلاء العلماء والفقهاء عند صلاح الدين بالغة الرفعة ونالوا حظاً وافراً عنده، فكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والفضل، ويذكر العماد في هذا الشأن أنه كان: يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم

(1) طبقات السبكي (7/ 15)، سير أعلام النبلاء (21/ 205).

(2) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (25/ 427 ، 428).

(3) المزر : بكسر الميم : نبيذ يتخذ من الذرة، وقيل: من الشعير أو الحنطة.

(4) سير أعلام النبلاء (21/ 207).

(5) المصدر نفسه (21/ 207).

(6) المصدر نفسه (21/ 207).

العلماء عنده بالعلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية[1].

كما يذكر ابن شداد عنه: ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضره عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده، ومماليكه المختصين به . . . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم، يسعى إليه، وسمع عليه[2]، وقد كانت علاقة صلاح الدين بالإمام قطب الدين النيسابوري علاقة وطيدة، لأنه كان دائم المناقشة والبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء فيما يحتاج إلى تفهمه[3]. وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانة عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والمعنوية، وكانت آراؤهم موضع اعتبار وتقدير من هؤلاء الملوك، واستشاراتهم واجبة في كل الأمور الشرعية التي تمس كل نواحي الحياة في الدولة، بل أصبح لهؤلاء العلماء والفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس وبلغت مكانتهم حداً كبيراً من الرفعة لدرجة أنهم أثروا تأثيراً بالغاً في الشعوب والحكومات، ولا أدل على ذلك من أن الحكومات قد أسلمت زمام الدفاع والقتال لرجال العلم والفقه أمثال الفقيه عيسى الهكاري الذي أجاد وبرع في الناحيتين الدينية والحربية في عصر صلاح الدين[4].

المبحث الخامس
الإصلاح الاقتصادي وأوجه الإنفاق

كانت الدولة في عهد صلاح الدين تعيش في سعة من الرزق وبحبوحة من العيش، ذلك لأن مواردها كثيرة، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة، ويمكن أن نحصر هذه الموارد:

* وضع يده على كنوز الفاطميين الكثيرة بعد أن أصبحت مصر تحت سلطانه.

* موارد الجزية التي كانت تأتيه من غير المسلمين.

* موارد للفدية التي كانت تصله من الأسرى.

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 138.

(2) النوادر السلطانية، ص: 7؛ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 138.

(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 138.

(4) المصدر نفسه، ص: 139.

* موارد الغنائم التي كان يحصل عليها أثناء الحروب.

* موارد الخراج الذي كان يؤخذ من أصحاب الأراضي التي فتحت صلحاً... إلى غير ذلك من هذه الموارد المشروعة ومنابع الثروة المسنونة، ولم يكن صلاح الدين من السلاطين الذين ينفقون الأموال في غير وجهها ويضعونها في غير موضعها، وإنما كان ينفقها في سبيل الله وإقامة الحصون، وتشييد القلاع، والإصلاح العمراني وفي كل ما يعود على الدولة بالنفع[1].

أولاً: اهتمامه بالزراعة والتجارة:

لأجل أن يُجنب صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التي تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الري اعتناء بالغاً، لتنبت الأرض أطيب الثمرات، وتنتج من كل زوج بهيج، وقد تعاونت مصر والشام في تبادل المحاصيل الزراعية، وتعزيز المصالح الاقتصادية، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة، ووقف الإقليمان جنباً إلى جنب أمام اعتداءات الفرنج الغادرة، وتزويد الجيش الإسلامي بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد، كما عني صلاح الدين بالتجارة عناية كبيرة، فكانت مصر في عهده حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، وقد انتعشت مدن أوروبية كثيرة بسبب هذه التجارة مثل مدينة «البندقية وبيزا» الإيطاليتين، وقد سمح البنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية كان يطلق عليه «سوق الأيك» وأولى صلاح الدين الأسواق التجارية كل اعتنائه واهتمامه حتى يزدهر الاقتصاد ويزداد الإنتاج في دولته، فكثر عددها في مصر والشام، واهتم بإصلاحاتها وتوسيعها، ومر الرحالة «ابن جبير» ببعض هذه الأسواق في رحلته أيام صلاح الدين سنة (578هـ) فسجل إعجابه بنظامها فقال في معرض الحديث عن مدينة حلب: أما البلد فموضوعه ضخم جداً، جميل التركيب، بديع الحسن، وواسع الأسواق كبيرها متصلة بالانتظام، مستطيلة، تخرج من سماط[2] صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف الخشب، فسكانها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار وتستوقف المستوفز تعجباً وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة[3]، كما وصف «ناصر خسرو» في كتابه «سفر نامه» مدينة طرابلس الشام في عهد صلاح الدين فقال: إنها بلد جميل، حوله المزارع والبساتين، وكثير

---

(1) صلاح الدين الأيوبي، عبد الله علوان، ص: 175.

(2) السماط: الجانب.

(3) صلاح الدين الأيوبي، ص: 176.

من قصب السكر، وأشجار النارنج والموز والليمون، وبها مغازل ذات أربع طبقات أو خمس أو ست، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين، وفي وسط المدينة جامع عظيم، نظيف جميل النقش حصين، وفي ساحته قبه كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فوارة من النحاس الأصفر، وفي السوق مشرعة[1]، ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم[2].

ثانياً: الاهتمام بالصناعات:

اهتم صلاح الدين بصناعة السلاح والمنسوجات والأقمشة والملابس الحريرية المزركشة وسروج الخيل المطهمة، وصناعة الزجاج، كما انتشرت في عهده صناعة الخزف والسفن والأساطيل إلى غير ذلك مما يزهر الاقتصاد، ويضاعف الإنتاج ويُمَكّن للدولة أسباب القوة[3]، ولقد كان أصحاب الحرف والصناع في عهد الدولة الأيوبية من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة، فقد بقيت طوائف العمال والحرف تسير على نفس النظم والطرق الصناعية التي كانت مستعملة في العهود التي سبقتها، وكان الصنّاع ينتظمون في نقابات تحمي حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل، بحيث كان لها نظمها وتقاليدها التي يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها[4]، وكان من تقاليد نقابات وطوائف الحرف والصناع الحفاظ على أسرار تلك الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم، ولعل هذا ما يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض الأسر في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فضلاً عن صعوبة دخول الغرباء على الطائفة في صفوفها[5]، ومن أشهر مراكز الصناعة في العصر الأيوبي:

1 ـ مدينة القاهرة:

لم يكن القصد من بناء مدينة القاهرة أن تكون عاصمة للدولة، وبيتاً لكل سكان مصر، بل قصد أن تكون سكناً خاصاً للخليفة وحرمه، وجنده، وخواصه بعيداً عن مصر الفسطاط وامتدادها، وقد أصبحت القاهرة بعد قرن واحد على الأكثر مركزاً عمرانياً هاماً سرعان ما أسست فيه حياة مجتمع ما بكل طبقاته، ومتطلباته، فانتشرت في أرجائه أنشطة حرفية

(1) صلاح الدين الأيوبي، ص: 177، مشرعة : مورد الشاربة للماء.

(2) المصدر نفسه، ص: 177.

(3) الفنون الإسلامية للعصر الأيوبي (1/ 54).

(4) المصدر نفسه (1/ 55).

(5) الفنون الإسلامية للعصر الأيوبي (1/ 55).

وصناعية مختلفة راجت رواجاً كبيراً خلال العصر الأيوبي[1]، ومن الواضح أن أسواق القاهرة قد ازدهرت في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي حيث تعرضت المدينة لمتغيرات اقتصادية واجتماعية ترتب عنها زيادة في الطلب على منتجات الأسواق بشكل عام، كما أن هذه التطورات هي التي أوجدت أغلب المتغيرات التي شهدتها أسواق المدينة في تلك الأثناء، ومن أبرز هذه المتغيرات ظهور التخصص في الأسواق أي أن يكون لكل نوع من أنواع السلع سوقاً متخصصة بها وهو إجراء تنظيمي بدأ باتخاذه منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، حيث يلاحظ أن غالبية الأسواق الرئيسة التي ظهرت في العصر الأيوبي كانت متخصصة ببيع فئة واحدة من السلع والبضائع، وهذه ظاهرة لم تكن معروفة قبل العصر الأيوبي. ومنها أسواق تباع فيها الثياب المخيطة والفرش ونحو ذلك كما أن سوق الجملون الكبير قد أنشىء في عهد صلاح الدين وكان هذا السوق مخصصاً ببيع الأقمشة الحريرية، كما اختصت بعض الأسواق ببيع جهاز العروس وأساورهن، وأيضاً ظهر سوق بين القصرين الذي كان يوجد به سوق للسلاح، والقسي، والنشاب، والزرديات وغير ذلك، مما يحتاجه الجند من أنواع الأسلحة المختلفة، كما ظهرت أسواق أخرى مثل الشرابشيين والخوائصيين حيث كانت تباع في هذين السوقين ملابس الأجناد وأزيائهم علاوة على الخلع التي يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة، وقد حدث انتقال بعض الأسواق والصناعات من الفسطاط إلى القاهرة، وكانت هذه الظاهرة طبيعية لإباحة القاهرة لسكنى العامة والجمهور في عهد صلاح الدين حيث سيجد العديد من التجار والصناع في ذلك فرصة للانتقال للقاهرة لممارسة نشاطهم بالقرب من رجال الدولة وأمرائها بعد تخلص الدولة من الجهاز الصناعي الذي كان قائماً في الحاصلات «في العصر الفاطمي وأدى إلى تحول عدد كبير من هؤلاء الصناع إلى الأسواق المختلفة للعمل فيها، مما أسهم على وجه التأكيد في زيادة النشاط الصناعي وتطوره في القاهرة، والذي ساهم بدوره في ازدهار التجارة القائمة على الصناعات في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي[2].

2 ـ مدينة الفسطاط:

يمكن القول أن الحريق الذي قام به شاور عام (564هـ) كاد أن يأتي على الفسطاط نهائياً لولا أن تداركتها عناية بني أيوب، فمنذ أن ولي أسد الدين شيركوه الوزارة أظهر الحرص على إعادة عمارتها، ثم واصل المهمة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الذي وجه اهتماماً كبيراً نحو الفسطاط فقام بإصلاح جوامعها ومنشآتها الرئيسة وبنى بها المدارس وتوج أعماله

(1) الفنون الإسلامية للعصر الأيوبي (2/ 139).

(2) عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين، ص: 227 – 333.

هذه بضمها مع القاهرة في سور واحد يضمن من خلاله توفير الحماية لهما، وترتب على هذا الاهتمام: أن أخذ العمران يعود إلى المدينة بشكل تدريجي، وكانت فرصة البناء بالفسطاط مؤاتية منذ عهد الناصر صلاح الدين حيث جرى إنشاء المباني والأسواق والمصانع في هذه المنطقة[1]. وسميت مصانع الفسطاط بـ «المسابك» فقيل: «مسابك النحاس» «ومسابك الفولاذ» ونحو ذلك، والذي لا شك فيه أن المسابك كانت قائمة بالفسطاط وتنتج الخامات المعدنية المصهورة والمسبوكة ما كان صناع المعادن في مصر في حاجة إليه لعمل العديد من الأسلحة والآلات الحربية، علاوة على الأدوات المنزلية، والتحف المختلفة[2].

3 ـ تنيس[3]:

تعتبر تنيس من أهم المراكز الصناعية للمنسوجات في العصر الأيوبي فقد أطنب كثير من المؤرخين والرحالة في صناعة منسوجاتها[4]، فكان ينسج مثل هذا القصب في جهة أخرى غير تنيس ومن الجدير بالذكر أن مدينة تنيس بقيت عامرة بنشاط أهلها الصناعي والتجاري إلى حين خربها الملك الكامل محمد بن أيوب وهدم سورها وبيوتها في سنة (624هـ/ 1226م)[5].

4 ـ ومن المدن التي اشتهرت، كمراكز صناعية في العهد الأيوبي: مدينة دمياط، وأخميم، والإسكندرية، وجزيرة الروضة، ومدينة دمشق ومدينة حلب[6]، وغيرها.

ثالثاً: إلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية:

لم يكن غريباً ألا يوجد في خزانة صلاح الدين بعد وفاته سوى 46 درهماً فضة وديناراً ذهبياً واحداً؛ فقد كانت واردات دولته ضخمة، كما كانت نفقاته الحربية ضخمة، وكلما كانت البلاد التي تقع في يده تزداد، كانت وارداته منها ونفقاته من أجلها تزداد بصورة مطردة، وكانت قاعدته الدائمة:

1 ـ إلغاء المكوس والضرائب غير الشرعية في جميع البلاد التي فتحت.

2 ـ الاكتفاء بالموارد الشرعية من زكاة وجزية وخراج وغنائم وعشور التجارة.

---

(1) عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين، ص: 249 ـ 252.

(2) الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي (2/ 143).

(3) من أجمل المدن وهي جزيرة قريبة من البحر في مصر بين الفرما ودمياط.

(4) الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي (21/ 145).

(5) المصدر نفسه (2/ 146).

(6) المصدر نفسه (2/ 146 إلى 148).

وكانت واردات مصر هي مصدره الأول، لأنه اعتبرها مملكته، ولذلك ألغى ما كان يأخذ فيها من رسوم الحج على المغاربة، وألغى المكوس على تجار اليمن، والضرائب المماثلة في دمشق حين فتحها، وفي حلب وسنجار والرقة، وتظهر سياسته المالية في المنشور الذي نشره عند إسقاط مكوس الرقة: إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عُوِّضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه، ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا على سمن يؤكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها . . . وقد أمرنا أن تسد هذه الأبواب، وتبطل ويعفى خبر هذه الضرائب في الدواوين، ويسامح بها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة مستمرة الأيام[1].

وهكذا كان إسقاط الضرائب التي كان يحصلها الصليبيون من الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان، وكان الفرنج يأخذون نصف حاصلها، وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة ـ التي كان الفاطميون قد ألغوها ـ إيذاناً بعودة مذهب أهل السنة، وجعلها البديل على المكوس والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها وأقام لها ديواناً تسلّمه «متولي الزكاة» وكانت حصيلته زهيدة[2]، وكانت الزكاة تؤخذ على الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية والمزروعات، مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم وبذور الكتان والزيتون والخضار[3]، وكانت ضريبة الخراج تجبى بنظامها وأوقاتها في مصر، فلما اقتضى الأمر تحويل السنة الشمسية القطبية إلى الهجرية سنة (567هـ) لأن موعد الجباية صار يسبق موعد الإنتاج عدّل صلاح الدين ذلك، وأما المناطق الأخرى في الشام والجزيرة، فكان الخراج يؤخذ على مساحة الأرض بالفدان، وضريبة القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد، ويجمع المنتفعون الضريبة ثم يسددونها لديوان السلطان، وكان على الفول والحمص مثل ذلك، وثَمَّ ضرائب نقدية على بعض الحاصلات كالكروم وثمار الشجر، وتتراوح بين دينار وخمسة على الفدان، وفي السنة الثالثة لا تزيد على ثلاثة دنانير، ويدفع أهل الذمة الجزية ويُعفى منها الصبية والنساء، والرهبان، وتسمى ضريبة الجوالي (ج: جالية) وتختلف حسب أحوال الشخص، من دينار واحد إلى (4,5) دينار، إضافة إلى درهمين ونصف الدرهم على الجميع كل سنة، ولما كانت المعادن والأخشاب لازمة لصنع الأسلحة، فقد منع صلاح الدين أن يكون لأحد دخل فيها، وشدد على احتكار الدولة لها، فهو في حالة حرب مع

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 388.

(2) المصدر نفسه، ص: 388.

(3) المصدر نفسه، ص: 388.

الفرنجة، وعقوبة من يهرب بشيء منها كبيرة[1]، وكانت معظم واردات الدولة تنفق على الحرب، والحصون، والأسوار والقلاع، والمدارس والمساجد والأربطة، وخانات في الطرق وزوايا، ورواتب للعاملين في الدولة[2]، ... إلخ.

رابعاً: المستشفيات في عهد صلاح الدين:

لم يكن في عهد صلاح الدين مدارس خاصة لدراسة الطب، بل كان هذا النوع من الاختصاص يُدرَّس في المستشفيات، ثم ينساب الطالب بعد المحاضرة بين المرضى ليعاين الأمراض ويعالج المرض[3]، وقد قام صلاح الدين ببناء مجموعة من المستشفيات في عصره منها:

أ ـ المستشفى الناصري في القاهرة: بنى صلاح الدين المستشفى الناصري بالقاهرة، فقد اختار أحد قصوره الفخمة وحوّله إلى مستشفى ضخم كبير، وانتقى في اختياره ذاك قصراً بعيداً عن الضوضاء[4]، يقول الدكتور أحمد عيسى: البيمارستان الناصري أو الصلاحي أو بيمارستان صلاح الدين: لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية سنة (567هـ/ 1171م) واستولى على القصر، قصر الفاطميين، كان في القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة (384هـ/ 994م)، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستاناً وهو البيمارستان العتيق داخل القصر[5]، قال القاضي الفاضل في متجددات سنة (577هـ / 1181م): أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكاناً بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية، مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلّات جهتها الفيوم واستخدم له أطباء وكحّالين وجرائحيين وشارفاً وعاملاً وخدّاماً ووجد الناس به رفقاً وبه نفعاً[6]. وكان المستشفى الناصري مؤثثاً بأثاث جيد ممتاز وهو من القصور الرائعة وفيه كل ما يحتاجه لمداواته وراحته[7]، وقد وصف ابن جبير الرحالة المستشفى الذين بناه صلاح الدين في

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 389.
(2) المصدر نفسه، ص: 389.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 214.
(4) المستشفيات الإسلامية، عبد الله، عبد الرزاق، ص: 236.
(5) تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص: 76 -77.
(6) المستشفيات الإسلامية، ص: 236.
(7) المصدر نفسه، ص: 236.

القاهرة قال: ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان البيمارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعين قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى بكرة وعشية فيقابلوَن من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد كل يوم من أحوالهم ويقابلهم بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء والمثابرة عليها غاية التأكيد[1]. وقال علي مبارك باشا: لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها، جعل موضعاً منها مارستاناً، وهو المارستان المشهور بالعتيق وجعل بابه من حارة ملوخية، وهي حارة قائد القواد قديماً وموضعه الآن الدار المعروفة بدار غمري الحصري مع ما جاورها من الدور، كما وجدنا ذلك في حجج الأملاك وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذي من جهة قصر الشوق ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق[2]. وأما عن الأطباء الذين عملوا في البيمارستان الناصري، فمن أشهرهم: رضي الدين الرحبي، وإبراهيم بن الرئيس ميمون، ابن أبي أصيبعة، والشيخ السديد بن أبي البيان، والقاضي نفيس الدين بن الزبير[3].

ب ـ بيمارستان الإسكندرية: بناه صلاح الدين عندما دخل الإسكندرية سنة (577هـ)، وشرع في قراءة الموطأ على الشيخ أبو الطاهر بن أبي عوف، وأنشأ بها داراً للمغاربة ومدرسة موقوفة على أخيه توران شاه[4].

ت ـ البيمارستان الصلاحي بالقدس: أقام هذا المستشفى صلاح الدين الأيوبي وذلك عام (583هـ الموافق 1187م)، وذلك بعد أن حرّر القدس من الصليبيين وطردهم منها[5]. وتقول الموسوعة الفلسطينية عن البيمارستان الصلاحي في القدس: هو من مآثر

(1) المستشفيات الإسلامية، ص: 237.
(2) المصدر نفسه، ص: 337.
(3) المصدر نفسه، ص: 338.
(4) المصدر نفسه، ص: 339.
(5) المصدر نفسه، ص: 250.

السلطان صلاح الدين الأيوبي[1] وقد وقفه صلاح الدين وعين له كبار الأطباء، ووقّف عليه أوقافاً كثيرة، وأصبح ذلك البيمارستان من أشهر البيمارستان في تلك الفترة وكان علم الطب يدّرس فيه إلى جانب ممارسته عملياً[2].

ث ـ بيمارستان عكا: في سنة (583هـ) بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس واستنفذه من أيدي الصليبيين انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا، ولما وصل إليها نزل بقلعتها وَوَكّل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش ووقف دار الإسبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً دارّة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً[3].

وبغض النظر عن سعة البيمارستان فقد يختلف من بيمارستان إلى آخر ومقدار الزخرفة ومساحة الحدائق الملحقة وعدد النوافير الذي قد يختلف أيضاً، فإن البيمارستانات كان لها مخطط أساسي يحتوي على:

أ ـ أقسام خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء مفصولة عن الأولى.

ب ـ عنابر (قاعات) مرضى حسب التخصصات، فهناك عنابر مخصصة للمرضى المصابين بالحمى والأخرى للأمراض العقلية، والنفسية وغيرها لمرضى الرمد وهكذا[4].

ج ـ عنابر مفصولة للناقهين من المرضى إلى أن يشفوا.

د ـ عنابر للأطباء للكشف على المرضى غير المنومين.

* غرف لرئيس الأطباء وبقية الإداريين.

ـ قاعة محاضرات يلقي فيها رئيس الأطباء دروسه ويجتمع بها مع تلاميذه.

* مكتبة.

---

(1) المستشفيات الإسلامية، ص: 251.

(2) المصدر نفسه، ص: 253.

(3) المصدر نفسه، ص: 255.

(4) تنظيم صناعة الطب خلال الحضارة العربية الإسلامية، ص: 522.

* مطبخ لطبخ الأغذية الصحية حيث كان الغذاء أحد طرق العلاج وكذلك لطبخ الأشربة وغيرها من المواد العلاجية.

* صيدلية لتحضير الأدوية.

* مخازن.

* قاعة لغسل الموتى.

* مصلى (مسجد).

* مراحيض وحمامات.

بالإضافة إلى الباحات والأفنية والحدائق التي تحتوي على الأشجار والشمومات والمأكولات، وكثير من هذه البيمارستانات كانت تحتوي على سكن للعاملين فيها[1].

خامساً: خانقاوات الصوفية:

لفظ خانقاه هو لفظ فارسي معناه في الأصل المائدة أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلق بعد ذلك على الخوانق أو الخانقاوات أو الدور التي قام على إنشائها الملوك والأمراء الراغبون في عمل القرب والمبرات لأغراض كثيرة أهمها إيواء الغرباء من المسلمين الوافدين إلى ديارهم والقيام بمعيشتهم وتثقيفهم، ومع أن الصلوات الخمس المفروضة كانت تؤدى في إيوان خاص للصلاة بهذه الخانقاوات إلا أن صلاة الجمعة لم تكن تقام فيها[2]، والخانقاه وهي بيت الصوفية كانت أشبه ما تكون بالمدرسة، لأنها كانت فعلاً مدرسة العامة ممن نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف، سواء كانوا من أبناء الشعب أو من أرباب الحرف والصناعات الذين عملوا على حمل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الطرق والأسواق فتشابهت الخانقاه بذلك مع المدرسة من حيث الشكل والوظيفة[3]، والخلاصة أن الخوانك في الإسلام كانت عبارة عن دور للعلم والعبادة قامت بأدوار دينية اجتماعية وثقافية هامة في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها، فقد كانت أولاً معاهد للمذاهب الفقهية والحديث، وكانت ثانياً مراكز إشعاع ثقافي بما احتوته بعض مكتباتها من الكتب المصنفة في

(1) تنظيم صناعة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، ص: 523.

(2) خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي (1/ 22).

(3) المصدر نفسه (1/ 22).

كثير من العلوم والمعارف[1]، وكانت وظائف الخانقاه كثيرة ومتعددة، منها شيخ الخانقاه إمامها وناظر وقفها، ومدرسو المذاهب ومعيدوهم والكحال والجرائحي والطبائعي وخازن الكتب وكاتب الغيبة والشاهد والمؤذن والمزملاتي، ومشرف الحمام، ومشرف المطبخ والطباخ وخادم الشيخ وخادم الربعات الشريفة والبواب والفراش وسواق الساقية والوقاد ونحوهم، وإن دل هذا الكم من الوظائف على شيء، فإنما يدل على حجم ما كان في هذه الخانقاوات من وظائف متنوعة. كان كل واحد من أربابها يتقاضى نظير عمله بالخانقاه أجراً نقدياً راعى فيه الوقف أن يتناسب مع ثرائه المالي ومقامه الاجتماعي، علاوة على ما كانوا جميعاً يشتركون فيه من أجر عيني انحصر في المأكل من الخضروات واللحوم والأرز واللبن والعسل والحلوى ونحوها، وفي الملبس والصابون وغير ذلك من الأرزاق الوافرة التي كانت توزع عليهم[2]، وقد سار صلاح الدين على نهج أستاذه نور الدين فاهتم بهذه المؤسسات وروّادها من الصوفية، وأحسن إليهم واستشارهم في كثير من الأمور وأجل علماءهم وجلس إليهم واستمع إلى نصحهم، ووقفوا معه في حروبه ضد الصليبيين في مواقع كثيرة[3]، فقد نشأ صلاح الدين وترعرع مع أبيه نجم الدين أيوب الذي كان خيراً، حسن السيرة، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم[4]، قال ابن كثير: كان شجاعاً، كثير الصلاة، وله خانقاه بالديار المصرية، وله بدمشق خانقاه[5]، وقد رأى ابن خلكان في بعلبك خانقاه للصوفية، يُقال لها: النجمية، وهي منسوبة إليه، ومدحه بأنه كان كثير الصلاح[6]. إلا أن التأثير الكبير في أخلاق وشخصية صلاح الدين، جاء من سيّده نور الدين، الذي تعلّم منه طرائق الخير، ومحبة أهل الله، والاجتهاد في أمور الجهاد، وقد سار على الدرب نفسه الذي سلكه سلفه، فقبل أن يشرع بتخليص البلاد من براثن الصليبيين بقي اثنتي عشرة سنة (570 ـ 582هـ) يعمل من أجل تحقيق الوحدة، وإعداد قوّة الإسلام المادية الروحية، فزاد من إنشاء الرُّبَط والخوانق والزوايا، وجعل منها مدارس عسكرية وتربوية، قال الصفدي: وأربى على نور الدين في جميع ذلك، وأردف كلامه هذا شعراً :

---

(1) خانقاوات الصوفية في مصر (1/ 23).

(2) المصدر نفسه (1/ 23 ، 24).

(3) صلاح الدين والصليبيون أحمد الشامي، ص: 81.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن البطولة والفداء عند الصوفية، ص: 103.

(5) البداية والنهاية، نقلاً عن البطولة والفداء، ص: 103.

(6) وفيات الأعيان (1/ 257).

أحيا الذي قد سنّ نور الدين وزاد ما أمكن من تحسين[1]

ويُعَدُّ صلاح الدين أوّل من أدخل مثل هذه المواضع على مصر. قال القلقشندي: وأما الخوانق والربط، فممّا لم يُعهد بالديار المصرية، قبل الدولة الأيوبية، وكان المبتكر لها صلاح الدين بن أيوب[2]، ووافقه في ذلك المقريزي والسيوطي وغيرهما: إن صلاح الدين أوّل من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، ووقّف عليها أوقافاً كثيرة، وكان سكّانها يُعرفون بالعلم والصلاح، ووُلّي مشيختها الأكابر، وممن تُرجى بركتهم مع ما كان لهم من الوزارة، والإمارة، وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش، وتقدمة العساكر[3]، وقد استرعت هذه الأمور الرحّالة الأندلسي ابن جبير أثناء رحلته إلى المشرق فقال: ومن مناقب هذا البلد (مصر) ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سُلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطلب والتعبد .. وهذا السلطان الذي سنّ هذه السنن المحمودة هو صلاح الدين، هو صلاح الدين المظفر وَصَل الله صلاحه وتوفيقه[4].

وكان رَحِمَهُ اللهُ أينما حلّ ونزل يبني المدارس الشرعية والخانقاوات، جنباً إلى جنب، فخلال فتح صلاح الدين القدس سنة (583هـ) أمر المسلمين بالمحافظة على كنيسة القيامة، وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، ووقف عليها وقوفاً، وأسدى بذلك على الطائفتين معروفاً[5]. وفي فتحه لعكّا، وقف نصف دار «الإسبتار» رباطاً للصوفية، ونصفها الآخر مدرسة للفقهاء[6] ولا نجد غرابة من صلاح الدين في فعل مثل هذه الأشياء، لا سيما إذا علمنا أنّ الفريقين قد رافقوه في معاركه وفتوحاته، ويبرز المؤرخون لنا هذا الحضور، وخاصّة فتح القدس، قال ابن خلكان: وكان فتحه عظيماً، شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق والزهد عالم[7]. ويُعزّز هذا الكلام، قول ابن الوردي في تاريخه: وشهد فتحه كثير من أرباب الخرق والزهد والعلماء في مصر والشام، بحيث لم يتخلّف منهم أحد[8]، وقد كان صلاح الدين يصحب معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة، فضلاً عن أنّ وجودهم يُعتبر حافزاً قوياً للمريدين

(1) البطولة والفداء عند الصوفية، ص: 104.
(2) صبح الأعشى (3/ 417).
(3) الخطط (2/ 415)، البطولة والفداء، ص: 104.
(4) رحلة ابن جبير، ص: 46، البطولة والفداء، ص: 105.
(5) الفتح القسي والفتح القدسي، ص: 145.
(6) وفيات الأعيان (7/ 179).
(7) تتمة المختصر في أخبار البشر (2/ 147).
(8) البطولة والفداء عند الصوفية، ص: 106.

على القتال ببسالة وشجاعة[1] نادرة، وقد كانت شخصية صلاح الدين محببة لأهل التصوف، فقد سلك طريق الزهد، كما أنه لم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ولم يُخلّف في خزانته إلا سبعاً وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً، ولم يخُلّف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وقنع من الدنيا في ظلّ خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة[2]، وكان صلاح الدين يستوي عنده الذهب والمدر (الطين) فقد قال ابن شداد: وسمعت في معرض حديث جرى: يُمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه[3]، والروايات كثيرة تؤكّد زهد صلاح الدين وتقشُّفه في مأكله وملبسه بينما يُغدق كرمه على الفقهاء والصوفية، ويوقف القُرى بما تملك من موارد وأرباح خدمة للزوايا ودور الفقراء[4]، وبنى صلاح الدين الخانات في الأماكن المنقطعة، البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن، وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، وقد شاهد ابن جبير الخان الذي بناه صلاح الدين في الطريق بين حمص ودمشق، وكان يسمى بـ «خان السلطان،» كذلك بنى الأمير بهاء الدين قراقوش خان السبيل[5].

وقد اهتم صلاح الدين بجذب العلماء وكذلك بجذب الصوفية فأنشأ لهم أول «خانقاه» للصوفية في مصر وجعلها «برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة» ووقف عليهم أوقافاً جليلة وولى عليهم شيخاً يدبر أمورهم عرف: بشيخ الشيوخ، ويذكر المقريزي: أن سكانها من الصوفية كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة، وقد رتب لهم السلطان الخبز والحلوى في كل يوم، وأربعين درهماً في العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر، أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته[6]، وهذه العناية بأمور الصوفية، كانت تستهدف أهدافاً منها ما هو متعلق بحركة الإحياء السني، فعلى الرغم من أن التصوف المعتدل كان اتجاهاً له احترامه من قبل الحكام وعامة الناس في ذلك العصر، إلا أن الاهتمام به على هذا النحو في مصر بالذات كان عملاً مقصوداً، ويهدف

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 6 ، 16.
(2) البطولة والفداء، ص: 107.
(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 215.
(4) البطولة والفداء، ص: 108.
(5) المواعظ والاعتبار (2/ 415، 416).
(6) التاريخ السياسي والفكري، ص: 240.

إلى تحقيق غاية معينة، ولعل السر في هذا هو أن الفاطميين في مصر قد عجزت أساليبهم المتعددة ـ في الدعوة إلى مذهبهم ـ عن أن تتسلل إلى عقائد معظم المصريين، ولكنها بسهولة أثرت في عواطفهم، فمظاهر الحزن والبكاء على الحسين، والاحتفال بموالد أهل البيت، واحتفاء الفاطميين بهذه الاحتفالات وغيرها . . كل ذلك تأثيره في عواطف المصريين، وما تزال بقية من آثاره موجودة إلى اليوم، وإذا كان صلاح الدين حاول جذب علماء السنة إلى مصر من كل مكان، ليشاركوا بعلومهم وفكرهم في حركة الإحياء السني، فإن هناك جانباً هاماً كان لا بد من العمل على إشباعه وتحويله من الوجهة التي اتجه بها الفاطميون إلى وجهة أخرى، هذا الجانب هو الجانب العاطفي في الناس، والذي سيطر عليه الفاطميون بسهولة[1] وكان التصوف السني، وأهله من الفئات القادرة على إشباع هذا الجانب يومها: بأخلاقهم السهلة السمحة، وزهدهم في متاع الدنيا، وقدرتهم على مخاطبة الناس عن طريق مجالس الوعظ والذكر وغير ذلك[2]، وقد استطاع صلاح الدين ونور الدين من قبله الاستفادة من جموع المتصوفة السنيين في حركة الإحياء السني والتصدي للتشيع، والغزو الصليبي.

سادساً: الإصلاح الاجتماعي:

كانت الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين تتسم بطابع الجدية ومناهضة الفرنج، ومكافحة العدو . . وكانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة، والعظمة الكاذبة، والبذخ المفرط، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعطي لجنوده ورعيته القدوة الحسنة في اللباس العادي، والطعام الخشن، والمجالسة المتواضعة، يقول العماد الأصفهاني في وصف ملبسه ومخالطته: كان لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه[3]. وكان صلاح الدين رياضياً يحب الفروسية ولعب الكرة ويشجع عليها ،وكان يركب لمشاهدة مباريات الكرة والصولجان، بعد صلاة الظهر ومعه رجاله، حتى إذا ما وصل إلى الميدان نزل ليشاهد اللعب، ويستمر المتبارون في لعبهم حتى أذان العصر وكان يشترك في هذه المباريات مع خاصته وينطلق للعب مع بعض رفاقه، وكان الصيد من أحب الهوايات عند الناس، فكانوا ينطلقون زرافات ووحداناً لصيد الطيور والأسماك

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 240.

(2) المصدر نفسه، ص: 240.

(3) صلاح الدين الأيوبي، عبد الله ناصح، ص: 178.

والإوز، والأرانب، وكانوا يستخدمون الكلام في صيدهم. وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على التأهب الكامل والاستعداد التام لخوض المعارك في شجاعة فائقة، وبسالة منقطعة النظير، ومن الإصلاحات الكبيرة التي حققها صلاح الدين في المجتمع المسلم، إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون التي كانت شائعة في عهد الفاطميين ولاسيما في المواسم والأعياد كعيد النيروز، وإذا أردنا أن نعرف مبلغ هذه الخلاعة التي كانت متفشية في المجتمع المصري قبل عهد صلاح الدين فلنسمع إلى ما يقوله المقريزي في خططه: «كانت المنكرات ظاهرة في عيد النيروز ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس في طلب رسم رَتَّبه على بيوت الأكابر، ويقنع بالميسور من الهبات، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمور في الطرقات، ويتراش الناس بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجاً بالقاذورات، فإن غلط مستور، وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته، فإمّا فدى نفسه، وإما فضح»[1]، وأبطل صلاح الدين هذه المظاهر الفاسدة، والمنكرات السافرة ومكن من الحياة البريئة النظيفة، وأعاد لهم أخلاق الإسلام، وآدابه السامية، ومن المظاهر الفاسدة التي أبطلها: بدع المناسبات والمواسم، مثال ذلك بدع يوم عاشوراء، الذي كان يوم حزن وأسى عند الفاطميين، ففي هذا اليوم كان يكثر النحيب، ويرتفع البكاء، وتتعطل الأعمال، وتتوقف الأسواق، وترى الناس في هرج ومرج، كأنما فقد كل واحد منهم أعز الناس لديه، وأحبهم إليه فاستطاع أن يقضي على هذه العادات الذميمة والبدع[2] السيئة.

وأما إنعامه على الرعية وتوزيعه العطاء على الناس، فحدّث عنه ولا حرج، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة لأن نظرته إلى المال كمن ينظر إلى التراب، وسبق أن ذكرنا أنه حين مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجُراماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وإنما أنفق أموالاً طائلة على المشاريع الإصلاحية وإعداد الوسائل الحربية، وللمستحقين من أبناء الرعية.. حتى يتحقق للمجتمع تكافله الكامل، وللدولة قوتها المنيعة وللأفراد معيشتهم المثلى، وهذا ما مكن له هذا السلطان العادل والقائد البطل، ومن الأعمال الخالدة التي خلدت لصلاح الدين ذكره: إبطاله الكثير من الضرائب التي كانت تثقل كاهل المجتمع، وتقضّ مضاجع الناس، كالضرائب التي كان يفرضها أمير مكة على الحجاج، فقد كان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدي الحجاج مكوس مكة مقدماً في جدة، فوقع على الحجاج

(1) صلاح الدين الأيوبي، علوان، ص: 179.

(2) المصدر نفسه، ص: 180.

الظلم فيها، فأبطل صلاح الدين كل هذا النظام، وعوض صاحب مكة عنها جملة، فحمل إليه في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً، واشترط أن تفرق في أهل الحرمين، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقاتها عن الناس، وأفاد بجملتها التي أداها من بيت المال أهل الحرمين[1]، ومما يدل على حسن طويته، وحرصه على سلامة المجتمع ووحدة الأمة، والتحذير من الظلم: وصيته لابنه الملك الظاهر الذي أُسند له ولاية حلب، يقول في هذه الوصية كما رواها عنه قاضيه ابن شداد: أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يُبقي في أحد، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، أما ما بينك وبين الله تعالى يغفره بتوبتك إليه فإنه كريم[2].

هذه أهم ما قام به صلاح الدين من إصلاح اجتماعي وتقويم أخلاقي، ليزهو المجتمع الإسلامي في عهده بأكرم الخصال وأحسن العادات، وأفضل الآداب[3].

سابعاً: الإصلاح العمراني:

من هذه الإصلاحات أنه اهتم بسور القاهرة، فلما كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً، فقد سوّرها، وانتدب للإشراف على عمارة السور «الطواشي بهاء الدين قراقوش». وقياس هذا السور من أوله إلى آخره يمتد حول المدن التي كونت مدينة القاهرة في عهده وهي «مدينة الفسطاط» التي أنشأها عمرو بن العاص، ومدينة العسكر التي أنشأها صالح بن علي العباسي، ومدينة القاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي، والهدف من إقامة هذا السور حماية البلاد من كيد المعتدين، وبالإضافة إلى بناء السور بنى قلعة الجبل ليرد عن القاهرة غائلة الأعداء الغادرين، غير أنه لم يستطع أن يكمل البناء جميعاً لانشغاله بالحروب في شتى الميادين، وتعد هذه القلعة من الآثار الحصينة في تاريخ مصر، وقد تناولتها يد التغيير في فترات عديدة من التاريخ، ومن القلاع التي بناها صلاح الدين: قلعة سيناء بناها في شبه جزيرة سيناء على بعد 57 كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من مدينة السويس، كما بنى في الجهة

---

(1) صلاح الدين، علوان، ص: 181.

(2) المصدر نفسه، ص: 181.

(3) المصدر نفسه، ص: 181.

الجنوبية من القلعة مسجدين متجاورين، وصهريجاً للمياه ليُرويَ العطاش، وعلى أحد بابي الصهريج كتب هذه الأسطر: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين، ملك الإسلام والمسلمين خليفة أمير المؤمنين، عمَّر هذا الصهريج الملك علي بن الناصر العادل المظفر، وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمسمائة هجرية[1]، ويقول الأستاذ «نعوم شقير» في كتابه تاريخ سيناء والعرب: أنه مر بهذه القلعة وبالمسجدين، ورأى للقلعة باباً كبيراً في الجهة الشمالية الغربية منها، وفوق عتبة الدار حجر تاريخي عربي كبير مربع الشكل، نقش عليه بحروف ظاهرة اسم صلاح الدين: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد. خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدين، سلطان الإسلام، والمسلمين، يوسف العادل الناصر في جمادى الآخرة سنة (583هـ)[2].

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بإقامة التحصينات العسكرية هو كل شيء، فقد اهتم بتعمير جزيرة الروضة والجيزة، وبناء المقاييس وحفر الترع، كما اهتم ببناء المستشفيات ـ والمدارس، والخانقاوات ـ وكانت مدينة الجيزة والروضة في أيام صلاح الدين من أهم البلاد، ويقول ابن جبير في رحلته: إنه كان يُنصب في الجيزة كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة، ويقطع بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسنة، وبيوت وأماكن للهو والنزهة، كما يوجد بينها وبين مصر خليج في النَّيل وبه مسجد جامع يخطب فيه، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعين زيادة النيل ونقصه، كما كان يوجد به أحجار ورخام .. وغيرها من ضروب الجمال والفن[3]، وبنى صلاح الدين السقى وعمّر الأسطول، وجعل للأسطول ديواناً مخصوصاً كان يسمى «ديوان الأسطول» سلمه لأخيه العادل، وقد كانت الإسكندرية ودمياط أهم الموانىء البحرية في ديار مصر وكانت الفسطاط، وقوص، من أعظم الموانئ النيلية، وكان فيها إنشاء السفن الحربية التي ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو في البحر لإعلاء كلمة الإسلام، وجَعْل رايتها خفاقة في العالمين، ونظر صلاح الدين إلى الإسكندرية، إلى أهميتها الاستراتيجية في مقاومة المشروع الصليبي، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وبنى فيها مستشفى واهتم بالجسور والترع ليصلح حال المزارعين[4].

وقد ساهمت عوامل عديدة في التطور العمراني في عهد صلاح الدين منها: الدينية، والجغرافية، والسياسية والإدارية والاقتصادية والحربية، والاجتماعية والثقافية، وقد قام

(1) صلاح الدين الأيوبي، ص: 168.

(2) المصدر نفسه، ص: 169.

(3) المصدر نفسه، ص: 170.

(4) صلاح الدين، علوان، ص: 170.

الدكتور عدنان محمد فايز الحارثي بشرحها وتفصيلها في كتابه القيم «عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي»[1]، وقد تحدث الدكتور عز الدين فرّاج عن مميزات العمارة في الطراز الأيوبي فقال: وكانت أهم الظواهر المعمارية في العصر الأيوبي تلك التحصينات وما اشتملت عليه من أبراج وأبواب زودت بها أسوار مصر وقلعتها، فالأبواب التي أنشأها صلاح الدين من النوع المنكسر الذي يسمى «الباشورة» وهي من الابتكارات المعمارية التي تزيد الحصون مناعة، إذا أن طريق الدخول فيها لا يخترق الجدار في خط مستقيم مثل الأنواع العادية، بل يضطر العدو أن يجتاز الباب بين برجين مزودين بفتحات يضرب منها بالسهام في جوانبه المكشوفة بغير واق أو درع، كما أن هناك عنصراً معمارياً جديداً استعمله صلاح الدين في التحصينات، وهي شرفة حجرية بارزة عن حائط السور يطلق عليها اسم «السقاطة» ومزودة بفتحات رفيعة يرمي منها الجند سهامهم على العدو المهاجم من الأمام والجوانب، وقد أثبت الأستاذ كريزويل أن العنصر المعماري شرقي، كما أثبت أن نظام المدارس ذات الأيوانات المتقاطعة نظام نشأ وتطور في مصر، ولم تأت فكرته من الخارج، وفي هذا العصر استمر ازدهار الزخارف الجصية وأشغال النجارة، كما ظهرت الكتابة النسخية، وسارت جنباً إلى جنب مع الكتابة الكوفية[2].

ثامناً: الإصلاح الإداري:

كان لظهور الدولة الأيوبية أثر كبير في إحداث تطورات إدارية رئيسة، تخالف تقاليد الجهاز الإداري الفاطمي، فيذكر القلقشندي بأن الدولة الأيوبية عندما ورثت حكم الفاطميين خالفتها في كثير من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها[3]، إذ أن قدوم الأيوبيين من مشرق العالم الإسلامي حمل معه روحاً جديدة في الإدارة، كان مصدرها النظم السلجوقية والزنكية والعباسية، ولقد تعددت أوجه التغيير التي أدخلوها في الإدارة، من أبرزها ظهور مناصب إدارية جديدة مثل منصب نائب السلطنة[4]، الذي يعكس ظهور ضرورة خروج السلطان من البلاد نتيجة الحروب الصليبية، فكانت الحاجة إلى وجود من ينوب السلطان أثناء غيابه[5]، وقد قسّم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة

---

(1) عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين، ص: 40 ـ 69.

(2) فضل المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص: 228.

(3) صبح الأعشى (4/ 50)، عمران القاهرة وخططها، ص: 224

(4) عمران القاهرة وخططها، ص: 224.

(5) الحركة الفكرية في مصر، عبد اللطيف حمزة، ص: 48.

وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز، وقضى أكثر سني حكمه في ميادين القتال، يُمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف، وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية، في الاستعداد والدفاع، للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبِّر عنه مفهومنا الحديث «اللامركزية». والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده، على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقِّق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[1]. وكانت القاهرة مركز حكومته، يقيم فيها نوابه، ووزراؤه، ومنها تصدر أوامره إلى مختلف الأقاليم، وكانت بلاد الشام محور حروبه وجهاده ضد الصليبيين[2].

وقد أسند مهام مناصب الدولة القيادية إلى أولاده وأقربائه وأخلص الناس إليه، وذلك لحماية نظامه ومنهجه في الحكم، والقيادة. وكان يعتمد في اختيارهم على العقل، حتى أنه عزل ابنه الملك الظاهر غازي عن إمارة حلب وأعطاها لأخيه العادل حينما استدعت مصلحة الدولة ذلك، وإذا ضمَّ إمارة إسلامية يُبقي على حاكمها إذا وافقوا على الدخول في تبعيته، وتنفيذ سياسته التي تخدم أهدافه، بل الأهداف الإسلامية العامة، ومن يرفض يتركه يذهب حيث يشاء، وكان يستعمل الأساليب السلمية للتفاهم معهم، وإذا خرج أحد الولاة على حكمه، يتغاضى عن أخطائه، ويستقبله ببشاشة، ويبالغ في إكرامه، مثلما فعل مع تقي الدين عمر حينما أراد الخروج على طاعته والتوجه إلى المغرب بسبب عزله عن ولاية مصر، وكان يراعي المصلحة العامة في تعيين وعزل الولاة؛ بالإضافة إلى الظروف السياسية والعسكرية للدولة، واتسمت سياسته بالعدل والتواضع، ولا يجرح شعور أحد، ولا يتعالى على أحد، ولا يتغطرس على أحد، ولم يكن الاستبداد من طبيعته[3].

- **بهاء الدين قراقوش : من رجال الإدارة الأيوبية:** كان بهاء الدين قراقوش عبداً رومياً، فرّ من إحدى قرى آسيا الوسطى وانتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى بلاد الشام، ثم التحق في خدمة أسد الدين شيركوه الذي توسم فيه النَّجابة والشجاعة، فقرَّبه من نفسه،

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 211.
(2) المصدر نفسه، ص: 211.
(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 212.

وطفق يدربه على أعمال الفروسية وينمّي فيه المواهب الحربية، وتسمّى في دمشق باسم بهاء الدين بن عبد الله الأسدي، ووصف بالأسدي نسبة إلى أسد الدين شيركوه الذي اشتراه وقام على تهذيبه وتعليمه، وكان سبباً في اعتناقه الإسلام، وما لبث بهاء الدين أن ارتقى في سلّم الجيش حتى وصل إلى مرتبة الإمارة، وكان على رأس هذا الجيش قائده البطل أسد الدين شيركوه وهو الذي دخل مصر في أواخر الدولة الفاطمية، ثم انتهى الأمر على يد القائد صلاح الدين الأيوبي فيما بعد إلى إزالة هذه الدولة وإنهائها وإقامة الدولة الأيوبية مكانها: ومعنى قراقوش في اللغة التركية «العقاب» وهو الطائر الأسود المعروف، وبه سمي الإنسان لشهامته وشجاعته، واللفظ مكوّن من كلمتين هما: (قره) بمعنى أسود (قوش) بمعنى طائر أو نسر[1]. وذكر ابن خلكان شيء من سيرته فقال: وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، ولما استقلّ صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدّة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعود وصاحب همّة[2] عالية، وترجم له ابن كثير في «البداية والنهاية»: كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالماً فقيهاً، إلا أنه كرّس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية[3]. وكانت حياة الأمير بهاء الدين قراقوش حافلة بالإنجازات العظيمة والبطولات والإخلاص للإسلام والمسلمين خلال ملازمته القائد صلاح الدين الأيوبي وكذلك بعد وفاته مما جعله محط كيد الحاسدين وأعداء الإسلام والمسلمين[4]، ومن الأعمال التي أسندت إليه وقام بها خير قيام:

* **حراسة القصر الفاطمي**: حيث أسند إليه صلاح الدين أن يحرس القصر الفاطمي حتى لا يصل من ذخائره شيء إلى خصوم أهل السنة، فقام الأمير قراقوش بهذه المهمة خير قيام، وحرس القصر الفاطمي بعين لا تنام، وعبثاً حاول المتآمرون أن يحصلوا على المال اللازم لهم في الإنفاق على هذه المؤامرة فلم يفلحوا، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على إحباط المؤامرة[5]، وهي مؤامرة مؤتمن الخلافة وقد تم الحديث عنها. وكان قصر الدولة الفاطمية يضم من الذخائر ما لا عين رأت، كسوة فاخرة وعقوداً ثمينة وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة من ياقوت وزمرد ومصوغات ذهبية وأوان فضية وقلائد ودرراً، فقام الأمير

(1) حكم قَراقُوش، ص: 14.
(2) وفيات الأعيان، نقلاً عن: حكم قَراقُوش، ص: 15.
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن: حكم قَراقُوش، ص: 15.
(4) حكم قَراقُوش، ص: 15.
(5) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي، عبد اللطيف حمزة، ص: 34.

قراقوش بحراسة هذه الذخائر على خير وجه إلى أن أظفر الله القائد صلاح الدين ومكّن له في الأرض[1].

* **بناء قلعة الجبل** : لما رجع القائد صلاح الدين من الشام وشاهد ما أنجزه الأمير بهاء الدين من إنجازات خلال غيابه أظهر فيها الأمير براعة وخبرة هندسية واسعة، أمره أن يبني له قلعة تحمي مصر وترك له الخيار في مكانها وحجمها، وقد اختار الأمير بهاء الدين قطعة مرتفعة في جبل المقطّم، تشرف على القاهرة كلها، لتكون مكاناً للقلعة وباشر بعمارتها عام (572هـ) وكانت عمارة القلعة ضمن مجموعة تحصينات وتدابير عسكرية اتخذها الأيوبيون لتأمين مدن مصر كالفسطاط والقاهرة، ولذا حفلت عمارتها في الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة، فيما اشتملت منشآتها الداخلية على أبنية سلطانية رفيعة كانت محل إعجاب كل من زارها أو وصفها من رحالة ومؤرخين، وشيّد بناء القلعة على هضبة صخرية مرتفعة مما زاد في صلابتها ومنعتها[2]. ويقول ابن جبير في رحلته: وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة، حصن حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكنه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة، والمسخرون في هذا البناء والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور والعظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار ... العلوج الأسارى من الروم عددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم[3].

* **بئر يوسف**: جعل الأمير بهاء الدين داخل القلعة بئراً عجيباً نقر في الصخر نقراً عميقاً جداً، ولايزال البئر حتى يومنا هذا ويُدعى بئر «يوسف» وقد سميت هكذا نسبة إلى يوسف صلاح الدين[4]، وقد ذكر الأستاذ علي باشا مبارك: والبئر المعروفة بالحلزون الموجودة بالقلعة هي من عمل قراقوش في أيام صلاح الدين، عملت لأجل وجود الماء في داخل القلعة بواسطتها إذا حصل لها حصار من عدو[5].

---

(1) حكم قراقوش، ص: 19.

(2) حالمصدر نفسه، ص: 22.

(3) رحلة ابن جبير، ص: 52.

(4) حُكم قَرقُوش، ص: 24.

(5) المصدر نفسه، ص: 23، الخطط التوفيقية (1/ 69).

* **سور القاهرة والقلعة ومصر**: قام الأمير بهاء الدين بعد بنائه للقلعة في عام (567هـ) بمد سور القاهرة الفاطمي الشمالي إلى الغرب حتى يلتقي بميناء المقسي على النيل وموضعه الآن مسجد الفتح الجديد بميدان رمسيس وهو نفس الموضع الذي كان يشغل مساحته جامع أولاد عنان قبل نقله، كما قام بمد سور من الشرق حتى يتصل بالسور الفاطمي الشمالي القديم الذي كان يقع شرقي حي الدرب الأحمر، وقام بمد سور ثالث من جنوب القلعة حتى يتصل بباب القرافة إلى مدينة الفسطاط بمسافة قدرها خمسة كيلو مترات ونصف[1]. وقد كان هذا السور الذي بناه الأمير قراقوش ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهده. **أما الأول**: فكان قد بناه القائد الرومي جوهر الصقلي. **وأما الثاني**: فكان قد بناه الوزير لأمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي وكان هذان السوران الأولان قد بنيا من اللبن، **وأما الثالث**: فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة[2]. وامتد السور حول المدن الأربعة التي كونت مدينة القاهرة في عهده وهي: مدينة (الفسطاط) التي أنشأها الفاتح عمرو بن العاص ﷺ ومدينة (العسكر) التي أنشأها صالح بن علي العباسي ومدينة (القاهرة) التي أنشأها جوهر الصقلي، ومدينة مصر، ويعتبر سور القاهرة العظيم من أعظم المنشآت الحربية التي بنيت في عصره، وكان المتصدي للإشراف على هذه الأعمال الأمير بهاء الدين قراقوش، فقد أظهر براعة وخبرة واسعة وهمّة عالية في بناء المنشآت الحربية فكان صلاح الدين كلما احتاج إلى عمارة أي منشأة حربية استعان على بنائها بالأمير بهاء الدين[3].

* **قناطر الجيزة وقلعة المقسي**: ومن العمارات والمنشآت الحربية التي شادها الأمير بهاء الدين: قناطر الجيزة الواقعة تحت الجسر الموصل بين النيل والأهرام تجاه مدينة مصر[4]، وذكر أنه هدم الأهرام الصغيرة المبعثرة في الجيزة وأخذ أحجاراً لبناء القناطر[5]، ومنها قلعة المقسي وهي عبارة عن برج كبير بناه الأمير بهاء الدين في محل قنطرة الخلفاء بجوار الجامع في نهاية سور القاهرة عند باب البحر ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان في الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد[6].

* **توليته على عكا وترميم سورها**: في شهر المحرم من سنة خمس وثمانين

---

(1) حكم قراقوش، ص: 26.

(2) الفاشوش في أحكام قراقوش، ص: 40.

(3) حكم قراقوش، ص: 27.

(4) المصدر نفسه، ص: 27.

(5) شذرات الذهب (4/ 331، 332)، حكم قراقوش، ص: 28.

(6) النجوم (4/ 39)، حُكْم قراقوش، ص: 28.

وخمسمائة (585هـ) سار القائد صلاح الدين إلى عكا وأقام بها يصلح أحوالها: ورتب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش وأمر بعمارتها وعمارة سورها[1]. وسيأتي الحديث بإذن الله عن عكا وما حدث بها.

* **أصل المثل القائل (حُكم قراقوش):** كان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم، ولقد وقع مرّة في الأسر فافتدي بعشرة آلاف دينار وفرح به صلاح الدين فرحاً شديداً . . ويبدو أن سياسته في القاهرة كانت حكيمة وحازمة في إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم، لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته إلا بالإشاعات وتشويه السمعة حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» وهي الإشاعات التي يرددها معاصرونا بغباء[2]، وذكر ابن خلكان أن الناس ينسبون للأمير بهاء الدين قراقوش «أحكاماً عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتى أن الأسعد بن مماتي في كتاب له سمّاه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» يذكر فيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه»[3]. لقد كان كتاب الأسعد بن مماتي «الفاشوش في حكم قراقوش» هو أصل المثل الذي انتشر في كل الأمصار من تاريخ صدوره حتى تاريخنا المعاصر، وهو كتاب صغير الحجم تضمّن حكايات ونوادر ساخرة كتبت باللغة العامية، تنال من الأمير بهاء الدين قراقوش وتظهره على عكس مظهره الحقيقي، وتجعل منه شخصية فكاهية على نمط شخصية «جحا» في التراث الشعبي الفكاهي. وقد أراد مؤلفه ابن مماتي النيل من الأمير بهاء الدين قراقوش[4]، وقد ذهب ابن خلكان إلى أن كتاب «الفاشوش» كله موضوع وذلك لأن الأسعد بن مماتي كان مقرباً بل جزءاً، من البلاط الأيوبي فكيف يستنكر ويشنّع على النظام الذي هو جزء منه[5].

وفي حقيقة الأمر أن الدافع من كتابة هذا الكتاب الذي يمس الأمير بهاء الدين، وصلاح الدين والدولة الأيوبية برمتها، وراءه حملة دعائية وسياسية دبرت للنيل من السلطان صلاح الدين والدولة الأيوبية في أوج انتصاراتها، وأريد بنشره الإساءة لهذه الدولة التي كان لها دور بارز في القضاء على الدولة الفاطمية ودحر الصليبيين الغزاة، ومما يمكننا الجزم به أيضاً أنّ كتابة الكتاب بصيغة رسالة «نصيحة» إلى السلطان صلاح الدين وباللغة العامية يدل على دهاء كاتبها وسوء طويته، وقد استطاع أن يحقق مأربه ويشهد على ذلك سرعة انتشار ما تضمنه

---

(1) حكم قَراقوش، ص: 29.

(2) المصدر نفسه، ص: 41.

(3) المصدر نفسه، ص: 41.

(4) المصدر نفسه، ص: 41.

(5) المصدر نفسه، ص: 47.

الكتاب من أكاذيب وتردادها على ألسنة الناس على أنها حقائق، حتى أن السيوطي تأثر بها ورواها لطلابه ـ كما ظهر في مخطوطة باريس ـ مع اعترافه بأن الأمير بهاء الدين قراقوش كان رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير[1]. إن هدف كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش» وهو هز الثقة في الأمير بهاء الدين وهو من قادة صلاح الدين البارزين ومساعديه الأمناء الذين استعان بهم في الملمات، وبالتالي تأليب الناس وتحريضهم على الدولة الأيوبية «السُّنية» التي أنهت بمجيئها الحكم الفاطمي الشيعي، وما الكتاب إلا وسيلة من وسائل الدعاية السياسية ضد المشروع السني.

المبحث السادس
النظم العسكرية في عهد صلاح الدين

شرع صلاح الدين في تحصين المدن وبناء القلاع وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليه، وركز آنذاك على بناء قوات بحرية لأنه أدرك أن قوة الفرنج في البحر وضعفهم في البر، وأنه لا بد من بناء أسطول حربي لمنع القوافل الفرنجية البحرية التي كانت تعزز الممالك الصليبية في ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليهم الضغط البري، وبالإضافة إلى ذلك اكتشف صلاح الدين أن بُنْية الدولة في مصر ضعيفة ومخلخلة وكان لا بد له من إعادة تنظيم أمورها الإدارية والشرعية قبل المباشرة في مواجهة الفرنج، وقد لاحظ صلاح الدين خطورة اتصال خطوط التجارة والمواصلات بين البحرين المتوسط والأحمر، واختلاف مصالح تجار مدن أوروبا المتوسطية عن طموحات أمراء الممالك اللاتينية في وسط أوروبا وغربها وشمالها، فأقدم على توقيع اتفاقات تجارية معهم مقابل فك ارتباطهم مع أمراء الممالك، والثانية اكتشافه محاولة الفرنج مد سلطاتهم من ساحل الشام وفلسطين إلى البحر الأحمر واحتمال تهديد قوافل التجارة من الخلف بالإضافة إلى تعريض قوافل الحجاج المسلمين إلى الحجاز للخطر، فأمر بإرسال جيشه إلى اليمن لتأمين خطوط التجارة البحرية، وقطع الطريق إلى أعمال القرصنة والاعتداءات ضد قوافل الحجاج[2].

أولاً: تطور الإقطاع الحربي في عهد صلاح الدين:

كان الإقطاع الأيوبي يمنح مقابل الخدمات الحربية غير أنه لم يكن إقطاعاً وراثياً، كما

---

(1) قراقوش ونوادره، ص: 69، حكم قَرَاقُوش، ص: 53.

(2) صلاح الدين الأيوبي، سقوط القدس وتحريرها، ص: 94، 95.

أن منح الإقطاع بواسطة السلطان الأيوبي، ليس معناه منح ملكيات الأرض الزراعية لهذا المقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل إن منح الإقطاع يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التي كان ملزماً بأدائها، وقد بدأ صلاح الدين بتوزيع أراضي مصر على هيئة إقطاعات فمنح بعضها لأهل بيته، والبعض الآخر وزعه على أمرائه وقادة جيشه، فأقطع والده نجم الدين الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع أخاه شمس الدين توران شاه قوص وأسوان وعيذاب، ومما يؤيد ذلك ما ذكره المقريزي في الخطط حيث قال: وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها سارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده[1]. ولم يقتصر توزيع الإقطاعات الحربية في عهد صلاح الدين على أرض مصر، بل تعدى ذلك إلى كل البلاد التي تَمَكَّن صلاح الدين من ضمها إلى مشروع الوحدة الإسلامية، واتبع عدة طرق لتوزيع تلك الإقطاعات على أمرائه وأجناده، منها ما كان غرضه منه تثبيت أقدامه في البلاد التي تخضع له مثلما حدث عندما استولى على حمص وحماه سنة (570هـ/ 1174م) حيث أقطع لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، والثانية لخاله شهاب الدين الحازمي[2]، كما استخدم صلاح الدين توزيع الإقطاعات وسيلة لتحقيق الوحدة الإسلامية، يدلنا على ذلك النداء الذي وجهه عند نزوله على البيرة، حيث كاتب ملوك الأطراف، قائلاً: من جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان، وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة[3]، وكذلك مع فعله مع عماد الدين زنكي، وعز الدين مسعود صاحب الموصل، ومع صاحب عينتاب الذي قام بمراسلة السلطان معلناً دخوله في طاعته ونزوله على خدمته، فلما فتحها أقرها عليه إقطاعاً وذلك سنة (579هـ/ 1183م)[4].

كما كان صلاح الدين يمنح رجاله الإقطاعات مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة، يدلنا على ذلك ما فعله صلاح الدين مع أمير حصن كيفا الذي أقطعه آمد مكافأة له نظير ما قدمه لصلاح الدين من خدمات[5]. وكذلك ما فعله مع سيف الدين المشطوب،

---

(1) الخطط للمقريزي (1/ 97).

(2) صلاح الدين والصليبيون، عبد الله الغامدي، ص: 102.

(3) مفرج الكروب (2/ 139).

(4) المصدر نفسه (2/ 139).

(5) النجوم الزاهرة (6/ 94).

عندما أطلقه الصليبيون من الأسر، إذ أحسن صلاح الدين استقباله، وأقطعه نابلس وأعمالها وذلك في سنة (588هـ/ 1192)[1]، كما يلاحظ أن صلاح الدين في توزيعه للإقطاعات قد راعى الجوانب الأمنية في دولته، فوزع الإقطاعات على القبائل العربية التي كثيراً ما خانه أهلها وحملوا الغلات إلى الصليبيين، فأقطع قبيلتي جذام وثعلبة إقطاعات متفرقة في الديار المصرية، وذلك للحفاظ على الأمن وحث أولئك العربان على الاشتراك معه في الجهاد[2].

ومن خصائص الإقطاع الأيوبي أنه يجيز أن ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر، ولكن ذلك الانتقال لم يكن عن طريق الوراثة ولم يحدث توريث الإقطاع في عهد صلاح الدين سوى ثلاث مرات[3]، وفي مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع، كان على المقطع مجموعة من الالتزامات التي كان يجب عليه أن يؤديها، وهي التزامات حربية مثل تقديم العساكر وقت الحرب، فضلاً عن عدد من الواجبات غير الحربية[4]، كتنفيذ المراسيم السلطانية التي كان صلاح الدين يصدرها، وإقرار الأمن داخل الإقطاع، والنظر في مصالح الرعية داخل الإقطاع[5]، بالإضافة إلى ذلك كان على المقطع عدد من الواجبات المدنية، أهمها تلك التي تختص بري وزراعة الإقطاع وبعض الخدمات الخاصة بالسلطان[6]، وكان الإقطاع أحياناً يحتوي على أراضي مستصلحة نتيجة شق قنوات وجسور، وكان على المقطعين أن يبذلوا كل جهدهم لكي يحسنوا هذه الأراضي المستصلحة، فضلاً عن قيام المقطع بإقامة الجسور البلدية وصيانتها، وهي السدود الزراعية الصغيرة، التي كان لها أهمية كبيرة في ري الإقطاع. أما عن الجسور السلطانية وهي السدود الزراعية الكبيرة التي شيدت لمنفعة الأقاليم فلم يكن المقطع مسؤولاً عنها من الناحية النظرية ولكن من الناحية العملية، كان المقطعون يساعدون السلطان في تشييد هذا النوع من الجسور وذلك بإمداده بالرجال والبقر والآلات وغيرها، يضاف إلى ذلك أيضاً أن المقطع كان يشترك في حفر وتطهير الترع والقنوات[7]، لقد لجأ صلاح الدين إلى نفس الأسلوب الذي اتبعه أسلافه الزنكيون في دفع رواتب الجيش، فوزع الإقطاعات

---

(1) مفرج الكروب (2/ 381)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 102.

(2) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص: 29.

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 103.

(4) المصدر نفسه، ص: 103.

(5) المصدر نفسه، ص: 104.

(6) المصدر نفسه، ص: 105.

(7) الخطط (1/ 101)، النظم المالية، ص: 34.

على أمرائه ليكون بديلاً عما يتطلب منه من دفع رواتب للجند، فقد كان صلاح الدين يكتفي بمخاطبة المقطع عند عزمه على الجهاد ضد الصليبيين، فيسير بدوره إليه ومعه جيشه مزوداً بالعتاد والمؤن[1]، ولما كان صلاح الدين هو المصدر الأصلي لمنح الإقطاعات، فقد كان يستطيع إلغاءه في أي وقت وذلك متى تقاعس المقطع عن أداء واجبه، أو بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية ما حدث سنة (573هـ/ 1177م) من أن صلاح الدين قطع أخباز جماعة من الأكراد لأجل أنهم كانوا السبب في هزيمة الجيش الإسلامي في وقعة الرملة عند تل الصافية أمام الجيش الصليبي الذي كان يقوده أرناط[2]، والواقع أن نظام الإقطاع الحربي كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لجيش صلاح الدين[3]، كما أن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات، يعاقب المقطع بالإعفاء من إقطاعه متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الجند واستماتتهم في القتال، فضلاً عما كان يقوم به بعض المقطعين من أعمال حربية ضد الأعداء، فيذكر كل من ابن واصل، وابن كثير في حوادث سنة (575هـ/ 1179م)، أن عز الدين فرخ شاه الذي كان إقطاعه بعلبك آنذاك، أغار في هذه السنة على صفد، وعاد سالماً بعد أن فتك بعدد كبير من مقاتليهم، وغنم منهم غنائم كثيرة[4]، ويضاف إلى ذلك أن نظام الإقطاع الحربي، يعد من أولى موارد الدولة الأيوبية لأنه مصدر الإيراد الدائم اللازم للصرف على الجيش السلطاني، وجيوش الأمراء الإقطاعيين، فضلاً عن النفقات العسكرية الهامة للجيش زمن الحرب[5]، وبهذا يمكن القول بأن صلاح الدين بتطبيقه لنظام الإقطاع الحربي في دولته، قد وفر على نفسه مهمة تزويد جيشه كله بالسلاح والعتاد والمؤن[6].

ثانياً: ديوان الجيش الصلاحي:

كان هذا الديوان مسؤولاً عن الشؤون الخاصة بالجيش، ويتولاه أحد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة شرط أن يكون مسلماً وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة[7]. وكان هذا

(1) النجوم الزاهرة (6/ 29)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 106.
(2) السلوك (1/ 64 ، 65)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 107.
(3) صلاح الدين، ص: 107.
(4) مفرج الكروب، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 107.
(5) النظم المالية في مصر، ص: 40.
(6) صلاح الدين والصليبيون، ص: 110.
(7) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 120.

الديوان بمثابة وزارة الدفاع في الوقت الحاضر، والمتولي له مسؤول عن معرفة أحوال الأجناد وتسجيل الأمور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية وموتهم[1]، وكان من اختصاصات ديوان الجيش إصدار إحصاءات دورية بعدد الجيوش والمبالغ المقررة لهم، ومن خصائص ديوان الجيش ما ذكره ابن خلكان في ترجمته للملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين من أنه جلس يوماً لغرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، فكان كلما حضر جندي أمامه، سأله عن اسمه ليثبتوه في القوائم[2]، وقام الموظفون بديوان الجيش بتسجيل أسماء أصحاب الإقطاعات على اختلاف طبقاتهم، وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل إقطاعه، وأمام كل اسم مقطع عبر إقطاعه «رمزاً لا تصريحاً» ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرية التي توخاها موظفو الديوان، لذا تجنب الديوان ذكر عبر الإقطاع أو متحصله، إلا بناء على مرسوم من السلطان[3]، ويبدو أن ديوان الجيش قد قام بالصرف على العمائر، والتحصينات التي كان صلاح الدين يهتم بها خاصة في مصر خوفاً من هجوم الصليبيين عليها أثناء وجوده ببلاد الشام، ولعل خير شاهد على تلك التحصينات التي أنفق عليها الأموال الطائلة بناؤه للسور الأيوبي بالقاهرة وتأسيس قلعة الجبل على طرف جبل المقطم[4]. وكذلك تحصين مدينة دمياط التي يذكر المقريزي أن تحصينها قد كلف «ألف ألف دينار»[5]، وأما أهم موظفي ديوان الجيش في عهد صلاح الدين، فيشمل الناظر، وهو الذي يعد المسؤول الأول عن كل ما يجري في الديوان، ويلي الناظر متولي الديوان ومهمته الإشراف على تنفيذ تعليمات الناظر، والمستوفي ووظيفته مطالبة الموظفين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته، وموظفين آخرين[6].

ثالثاً: زي الأجناد:

إن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية، وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيَّرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية في عهد عماد الدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 120.
(2) وفيات الأعيان (4/ 6، 7).
(3) النظم المالية، ص: 62، صلاح الدين والصليبيون، ص: 110.
(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 110.
(5) الخطط (1/ 215)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 110.
(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 122.

بالشام ومن معه، وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات[1] الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها سواء في ذلك المماليك والأمراء وغيرهم[2] وعلى العموم فزي الأجناد في الدولة الأيوبية امتداد طبيعي لزي الأجناد في الدولة الزنكية.

رابعاً: التموين:

كانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة، أي في الساقة وكانت تسمى: «الثقل» ولكن حدث في بعض الحملات أن وضعوا الثقل في وسط الجيش، أي بالقرب من قلب العسكر، ويحتمل أن يكون بسبب ذلك خشيتهم من استيلاء العدو عليه والظفر به، ففي أواسط جمادى الأولى سنة (584هـ/ 1188م): رحل السلطان إلى تعبئة لقاء العدو ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين، وسار الثقل في وسط المعسكر[3]، ونجد أن الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم بعض مواد التموين الضرورية في الجراب ـ الصولق ـ المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف، ولدى التهيؤ للسير يتعبأ الجند بنزولهم إلى السوق والتزود بالضرورات ولعلها لم تتعدى الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المجففة، وشيء من الحبوب والبقول والأثمار والتمور[4]. فلدى الاستعداد للقيام بنوبة الرملة التي انتهت بهزيمة صلاح الدين (573هـ/ 1177م) يتحدث العماد الكاتب بأسلوبه المسجع الذي اشتهر به ويقول: نودي في الجنود: خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، فكتب إلى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر في الارتفاع[5]. وفي الغزوات التي أعقبت موقعة حطين، وقيام الجيش الأيوبي بالإغارة على الساحل في منطقة إمارة طرابلس الصليبية سنة (584هـ/ 1188م) نودي في الجنود: أنّا داخلون إلى الساحل، وهو قليل الأزواد، والعدو بنا في بلاده من سائر الجوانب، فاحملوا زاد شهر[6]، وحين اشتدت الضائقة على أهل عكا في الحصار الشديد الطويل، بعث الأمير بهاء الدين قراقوش من داخل المدينة يشكو إلى السلطان قلة الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة (سفينة ضخمة) كبيرة وأرسلها، ولكي يتم دخولها إلى عكا بسلام

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 122.

(2) المصدر نفسه، ص: 122.

(3) مفرج الكروب (2/ 256)، الجيش الأيوبي، ص: 127.

(4) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 127.

(5) سنا البرق (1/ 253).

(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 127.

وضع على البطسة بعض النصارى من أهل بيروت الذين كانوا قد أسلموا، لكي يستطيعوا التفاهم مع الأعداء المحاصرين ويُموهوا عليهم بلغتهم ولباسهم، وللزيادة في التمويه أمرهم أن يرفعوا الصلبان على سارية البطسة، ووضعوا الخنازير على سطحها، وساروا نحو عكا، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون، إلا أنهم استطاعوا تمرير الخديعة وإيهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر[1]، ومعهم الميرة وهي أربعمائة غرارة قمح وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون إليه[2]، وقد تكرر إرسال المؤن إلى عكا نظراً لطول مدة الحصار، وكانت تأتيها من مصر، ذات الثروة الطائلة، إضافة إلى ما كان يرسل إليها من بيروت[3]، وابتدع المسلمون من أجل ذلك مختلف السبل للحيلولة دون سقوطها ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا، وكانت صعوبة التموين أهم أسباب سقوطها، وحدث لبعض المدن التي كانت بيد الصليبيين أن سقطت بيد الجيش الأيوبي بسبب انقطاع الميرة عنها[4]، ونجد أن الجيش الأيوبي كان يلجأ في الحروب إلى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه، ومن ثم إضعافه وتسليمه، كما قام بإفساد زرع الصليبيين وكرومهم، وقطع أشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لإضعاف صاحبها رينودي شاتيون[5]، وقام بحصد غلات العدو، حتى جف زرعهم[6].

خامساً: التعبئة العسكرية:

تعني التعبئة مجموعة الأعمال التي يقوم بها القائد في مجال تحشيد القوات في ميدان المعركة، وسوقها إلى خطوط القتال أو تنسيق قواته للرد على هجمات العدو والانتصار عليه[7]، ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً أو حديثاً، إلا أن أساليبها وصنوف جيشها والآلات، والمعدات التي يستعملها وغيرها هي التي تغيرت، وأما النظام الذي سار عليه الجيش الأيوبي فهو نظام التخميس[8].

---

(1) الفتح القسي، ص: 417، الجيش الأيوبي، ص: 128.

(2) مفرج الكروب (2/ 330).

(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 128.

(4) المصدر نفسه، ص: 129.

(5) المصدر نفسه، ص: 129.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 129.

(7) الجغرافية العسكرية، طه الهاشمي، ص: 83.

(8) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 143.

1 ـ نظام التخميس:

نرى أن صلاح الدين لم يكن مبتكراً لهذا النظام، بل إنه كان موجوداً قبله، ولم يختلف عمن سبقه من القادة المعروفين الذين طبقوا هذه الطريقة من حيث الأساس[1] وتنظيم الجيش الأيوبي كان على نسق كتائب يشبه ترتيب أعضاء جسم الإنسان الرئيسة، أو يشبه الصليب، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر أو المقدمة واليدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة، ثم الساقين معاً في الخلف بمثابة مؤخرة أو ساقة الجيش، ومن هذا ترى أن التنظيم على هذا النسق قائم على خمسة أجزاء ومنها تسمية الجيش بالخميس[2].

وكان موقع السلطان في القلب عادة ومعه الأعلام حتى يراه جميع الأمراء لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه، لتقويته، أو لإعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما، وفي بعض الأحيان كان يتحول إلى المقدمة لإثارة حماس الجند، وليلقي الرعب في نفوس العدو، وكان صلاح الدين يضع القادة والأمراء المعروفين على رأس الجناحين أما على رأس المقدمة «الطلائع» فكان يضع أصحاب الخيول والسيف والرمي والخفة في الطراد والمقابلة[3].

2 ـ الحلقة الخاصة والمماليك السلطانية:

تكونت الحلقة السلطانية من جماعة من العساكر، تحيط بصلاح الدين، كانت بمثابة حراسة وكانت للحلقة مكانة ظاهرة في المعارك المختلفة، واضطلعت بدور واضح في فتح الساحل وقلاع الصليبيين المنيعة، ويشير ابن الأثير إلى فتح قلعة برزية المعروفة بوعورة المنطقة التي تقع فيها وحصانتها، وكيف قسم صلاح الدين جيشه إلى ثلاثة أقسام للقتال بالتناوب، وحين جاء دور قوات صلاح الدين الخاصة، قاتلوا قتالاً شديداً رغم الحر الشديد[4]. وكذلك كان للحلقة الخاصة دور مشرف أثناء حصار عكا، إذ كانت تنقل مع صلاح الدين حين انتقاله بين تل الخروبة وشفعمر وتل كيسان، المواضع المحيطة بعكا، وكانت هذه الحلقة هي الوحيدة التي ظلت مع صلاح الدين بعد عودة العساكر إلى مواطنها

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 144.

(2) المصدر نفسه، ص: 144.

(3) مفرج الكروب (2/ 295)، الجيش الأيوبي، ص: 146.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 148.

للراحة ولقدوم فصل الشتاء في سنة (588هـ/ 1192م) وكان أكثر من في الحلقة من العساكر المصرية[1]. ومما يؤكد على أهمية هذه الحلقة، أنها وحدها كانت في قلب الجيش الأيوبي، حسب رواية ابن شداد الذي كان ضمن الحلقة[2]، وحدث أن السلطان سار إلى جهة العدو ولم يكن معه سوى الحلقة[3]، ولعل رجال الحلقة الخاصة كان يشكلون الفرقة التي سميت باسم السلطان «الفرقة الصلاحية أو الناصرية» وقد كان المحاربون الذين ينضوون تحت إمرة قائد كبير كانوا يسمون باسمه، لأنهم كانوا من مماليكه أو غلمانه، فالنورية مماليك نور الدين محمود والأسدية مماليك أسد الدين شيركوه، وقد ذكر أبو شامة أن من ضمن تركات أسد الدين في مصر سنة (564هـ/ 1168م) أنه: خلف جماعة من الغلمان، خمسمائة مملوك، وهم الأسدية[4]. وهذا يعني أن الجيش الأيوبي عرف نظام المماليك، فالجيش المصري في عهد المماليك تكون من بقايا الجيوش الأيوبية التي جاء معظمها من المماليك الترك وبقايا الأكراد[5]، وأطلق على خاصة مماليك السلطان اسم الحلقة[6]، وقد سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم ـ عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين ـ بالإكثار من المماليك الترك واستخدامهم في الجيش، على الرغم من أن الأيوبيين أو مؤسسي الأسرة الأيوبية، لم يكونوا أتابكة ولم يكونوا مماليك لأحد، ولا جرى على أحد من بني أيوب رق[7].

3 ـ الأطلاب وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف:

كان الجيش الصلاحي قائم على أساس تقسيم الجيش إلى مجاميع، كانت بمثابة كتائب، يكون على رأس كل مائتي فارس أو مائة أو سبعين فارس أمير مقدم[8]. فكان يقال: إن الحملة الفلانية تضم كذا من الأطلاب[9]، وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة خواص، تتميز بها عن الصنوف الأخرى، وهذا التمييز يظهر بنوع السلاح والأعتدة التي يتجهز بها، والواجبات الملقاة على عاتقه، ولا يمكن للجيش أن يتحرك بنجاح في

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 149.
(2) المصدر نفسه، ص: 149.
(3) المصدر نفسه، ص: 149.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 149.
(5) النجوم الزاهرة (6/ 124)، الجيش الأيوبي، ص: 149.
(6) الجيش الأيوبي، ص: 150.
(7) المصدر نفسه، ص: 151.
(8) المصدر نفسه، ص: 153.
(9) المصدر نفسه.

العمليات العسكرية ما لم يعمل بوفاق وتنسيق تأمين، وساعد بعضها البعض الآخر في حالات الاشتباك وكان ثمة صنفان أساسيان في الجيش الأيوبي إضافة إلى الأصناف الجانبية وهما:

أ ـ صنف الفرسان (الخيالة): وهو عصب الجيوش في ذلك، وكانت مهماته الرئيسة القتال والاستطلاع أو الاستكشاف، نظراً لما تتطلب هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود من القوت والمؤن وكانوا يختارون عادة أهل النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب، وكانوا يتفادون الاشتباك بالعدو عن القيام بالاستكشاف، فالهدف من عملهم هو تقدير قوة العدو، وكشف مواطن الضعف فيه، وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجئ. إلا أنهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف، كما يذكر الطرسوسي بقوله: ولتكن الخيالة والأبطال من وراء الرجالة ينتظرون الحملة، فإذا هموا بها فتح لهم باب يحملون منه بالتعاون مع الرجالة[1]، وأما المزايا التي كانت تبتغي أن تكتمل في الفارس الحق، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والإلمام بفن مواجهة العدو، كفن المصارعة (المنازلة) ومعرفة استعمال الرمح وفن الرماية[2]. وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والحراب الطويلة، ويرتدون الزرد والترس والخوذ، أما خيولهم فمن المحتمل أنهم كانوا يضعون عليها التجافيف والسروج[3].

ب ـ صنف المشاة (الرجالة): وكان يؤلف القسم الأعظم من قوة الجيش ويقوم بأعباء القتال ويتحمل مشقاته ونتائجه، وكانت الأسلحة التي يحملها أفراد هذا الصنف أسلحة خفيفة لأنهم يسيرون على أقدامهم، فكانوا يستعملون السيوف والأقواس والرماح القصيرة، وكان المشاة يقومون بإخراج أفراد العدو من خنادقهم ويقضون عليهم[4]، ولعل أهم ما كان المشاة يكلفون به هو: حماية الجيش أثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد أثناء تنقلها[5]، وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الأمامية، وخلفهم الخيالة والأبطال[6].

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 154.
(2) المصدر نفسه، ص: 155.
(3) الحياة العسكرية عند العرب، إحسان هندي، ص: 166.
(4) دروس في المعلومات الجغرافية، طه الهاشمي، ص: 18.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 155.
(6) المصدر نفسه، ص: 155.

ج ـ **أما الصنوف الأخرى المساعدة**، فكانت تعرف بأسماء الأسلحة والأعتدة التي كانت تستعملها، والواجبات التي يقوم بها كل صنف، كصنف المنجنيقيين والدبابين والنفاطين وصنف المخابرة وصنف التموين وغيرها[1].

وكان صلاح الدين قبل التوجه إلى ساحة القتال يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الأطلاب وسد الثغرات والخروق والتأكد من صلاحية الأسلحة التي يحملها المحارب، فقبيل التوجه إلى حطين وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويبوبه توبيباً ويعبه بعيداً وقريباً، وقرر لكل أميراً ولكل مقداماً مقاماً، ولكل موفق موقفاً ولكل كمين مكاناً، وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعاً ولا يبرح أحد منه، وأخرج الجاليشية[2]، والرماة الكماة من كل طلب، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب. وقال: إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا[3] وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال وشحذ الهمم، وكان موضعه قريباً من صلاح الدين، فكل ما يصدر منه من أوامر يبلغه بصوت عال إلى عموم الجيش ويسمى: بالجاووش[4]. وينادي بالقوم أن يستعدوا، أو أن الحاجة تدعو الأمير الفلاني بالانتقال بأطلابه لتقديم المساعدة إلى الجهة الفلانية أثناء القتال، بعد أن أحدث العدو ثغرة فيها، أو يذكي حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة في مثل «يا للإسلام وعساكر الموحدين»[5].

سادساً: المتطوعون في الجيش الأيوبي:

إضافة إلى المقاتلين من الفرسان والمشاة النظاميين المسجلين في ديوان الجيش الأيوبي وإلى جند الإقطاع التابعين إلى الأمراء الأيوبيين والأمراء الآخرين الذين دخلوا في تبعية صلاح الدين تباعاً، والذين كانوا يزودون الجيش الأيوبي بالمحاربين وقت الحاجة وإضافة إلى المماليك السلطانية، كان ثمة من تطوعوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيش حباً بالجهاد في سبيل الله، ورغبة منهم في تحرير الأرض الإسلامية من الاحتلال الصليبي،

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 156.
(2) الجاليشية : الأصل في معناها: الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر.
(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 156.
(4) الجاووش : الجاوش : الشاويش : لفظ تركي.
(5) مفرج الكروب (2/ 295 ، 326) الجيش الأيوبي، ص: 157.

والواقع أن عهد الإفاقة الإسلامية بدأ بوضوح بظهور المجاهد عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية وفي عهد ابنه نور الدين محمود الشهيد، بلغ هذا العهد ذروته أيام صلاح الدين، لقد أعاد عهد صلاح الدين إلى الأذهان أيام التطوع والجهاد الأولى في صدر الإسلام، فلا غرابة إذا وجدنا جيش صلاح الدين يضم الكثير من المتطوعين في معركة، لا سيما في حطين وفتح بيت المقدس، والمعارك اللاحقة مما استرعى انتباه المؤرخين، فذكر ابن كثير أن السلطان حين عزم على فتح بيت المقدس، قصده العلماء والصالحون تطوعاً[1].

وكان المتطوعون ينتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية من المسلمين، من أبناء القبائل والقرويين وأهل المدن، من الفقراء والأغنياء، لا سيما من الفقهاء والصوفية[2]. يقول: إن نور الدين محمود أمر بالنداء: في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلدان والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجابهة الفرنج أولي الشرك والإلحاد[3]. وكان لفظ الأحداث يستخدم للدلالة على المتطوعين، ثم اختفى اللفظ لتحل محله كَلمة المتطوعين، والكلمتان تدلان على أن أفراد تلك الجماعتين لم يكونوا قوة نظامية، بل كانوا من المتطوعين[4]. وفي المساجد كان الخطباء يحثون الناس على التطوع في الجيش الإسلامي فإذا ما نزل الخطباء من على منابرهم ردد المصلون الهتافات والدعوات، مقبلين زرافات ووحداناً، من جميع الجهات إلى معسكر الجيش، وكان صلاح الدين يوكل إلى المتطوعين أحياناً أمر قتل الأسرى بأيديهم لا سيما من المرتدين، أو الرماة الصليبيين، كما حصل في بيت الأحزان (575هـ/ 1179م)[5].

وإثر انتصار حطين طلب صلاح الدين من المتطوعة المتودعة والمتصوفة، أن يقتل كل واحد منهم أحد الأسرى المنتمين إلى الفرقتين الصليبيتين الداوية والإسبتارية[6]، بل إن المتطوعة قاموا بعمل مجيد يوم حطين وأسهموا في إحراز النصر بسرعة على الصليبيين، حين اندفعوا ليضرموا النار في الحشيش اليابس المحيط بالصليبيين، فتأجج عليهم استعارها وتوهج نار الضرام[7]. وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 158.
(2) الجيش الأيوبي، ص: 160.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 340، الجيش الأيوبي، ص: 160.
(4) سنا البرق الشامي (1/ 336) الجيش الأيوبي، ص: 161.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 161.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 162.
(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 162.

العطش وحر الزمان وحر النار والدخان، وحر القتال على حد تعبير ابن الأثير[1].

سابعاً: الفرق الملحقة بالجيش:

1 ـ الفرقة الهندسية:

كانت تصحب الجيش عادة فرقة هندسية، وأخرى طبية، وكانت الأولى تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة بشؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال، لا سيما قتال الأسوار والخنادق، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة، كالمنجنيق والدبابات الأقواس الثقيلة مثل قوس الزيار والجرخ والقوس المتعددة الاتجاه، وقاذفات النفط، ثم بناء المعسكرات والأسوار لا سيما في الأماكن ذات الميزة العسكرية الحساسة، وتشييد الجسور ونسفها، وردم الخنادق وحفر الآبار، وتعيين مواقع ضرب الحصار حول أسوار المدينة المنوي فتحها، وتهشيم هذه الأسوار، وتغيير مجاري الأنهار، وغيرها من الأعمال الهندسية التي هي ضمن واجبات هذه الفرقة، فلدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة أيام، وأخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الأسوار العثور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور، نحو باب عموداً وكنيسة صهيون، فأمر صلاح الدين بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع[2]. وفي عام (581هـ/ 1185م) ولدى حصار الموصل التي عجز جيش صلاح الدين من إحراز نصر عسكري مباشر عليها، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة أسوارها، أشار عليه بعض رجاله إلى تعطيش المدينة بتحويل مجرى نهر دجلة، وعرض الفكرة على رأي الفقيه العالم فخر الدين بن الدهان البغدادي وكان مهندس زمانه . . قال: هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر[3]، وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، والذي كتبه مستشاره المعروف القاضي الفاضل: وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنه، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضييق ولا نزال[4]. إلا أن صلاح الدين لم ينفذ المشروع، ولعل ذلك لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت واهتمامه بمشاريع أكثر أهمية[5].

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 161.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 163.

(4) مفرج الكروب (2/ 167)، الجيش الأيوبي، ص: 163.

(5) الجيش الأيوبي، ص: 163.

2 ـ الفرقة الطبية:

ومصاحبة الفرقة الطبية للجيش إلى ميدان القتال لمعالجة الجرحى والمرضى كان أمراً ضرورياً، وكان الأطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفاً متنقلاً فيه ما يحتاجونه من أدوية وأدوات ونقالات لحمل الجريح أو المريض، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهر الحيوان، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج إلى العلاج، والظاهر أن عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون المتعلقة بالطب وذلك لكثرة الحاجة إليها، وإغداق صلاح الدين والأمراء المال عليهم بسخاء، والواقع أن صلاح الدين بدأ يهتم بشؤون الطب ويشجع القائمين منذ وقت مبكر من حكمه، وقد أولى الأطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر، أو البلاط النوري الأتابكي في الشام اهتماماً كبيراً[1]، ومن الأطباء الذين شاركوا في الحملات العسكرية التي يقوم بها الجيش الصلاحي، أبو زكريا أمين الدولة يحيى بن إسماعيل الأندلسي أحد تلامذة الحكيم مهذب الدين، فقد كان يصاحب جيش صلاح الدين في القتال، ثم استقر في دمشق، كأكثر أطباء عصره، ويبدو لنا أن سبب هذا الاستقرار في هذه المدينة يعود إلى وجود المستشفى النوري الكبير فيها؛ وقد اختيرت دمشق لقربها من ميدان القتال فكان جرحى ومرضى الحرب يرسلون إليها بيسر، هذا وقد عجز أبو زكريا عن العمل في أواخر حياته، فأطلق له السلطان جامكية استمرت حتى وفاته[2]، كما فعل صلاح الدين مع أطباء آخرين أمثال ابن الدهان البغدادي، والكحال أبي الفضل سليمان المصري[3]، ومن أشهر أطباء صلاح الدين موفق الدين أبو نصر أسعد المعروف بابن المطران الدمشقي الذي عرف عنه مشاركته في غزوات السلطان وكان يعمل في البيمارستان النوري بدمشق، وله مجموعة من المصنفات الطبية منها: المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية[4]، وغيرها كثير، يقول العماد الكاتب عن هذا الطبيب إنه كان بارعاً ظريفاً ويشيد بإخلاصه كثيراً، وأنه قد حظي بتقدير صلاح الدين كثيراً، فكان له شأن كبير لديه، وكانت له دراية وذكاء وفراسة[5]. هذا وكان للسلطان طبيبه الخاص يصحبه في حملاته، لأنه كان يعاني في بعض الأوقات من آلام والتياث مزاج وتظهر دمامل في ظهره حتى لامه أصحابه على قلة اعتنائه

(1) الجيش الأيوبي، ص: 164.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 165.
(3) المصدر نفسه، ص: 165.
(4) المصدر نفسه، ص: 165.
(5) الفتح القسي، ص: 576، الجيش الأيوبي، ص: 165.

بصحته وعدم أخذ قسط كاف من الراحة، فكان يرد عليهم بقوله: إذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل[1]، وكان الطبيب الخاص لا ينفرد بعلاج السلطان، بل يعالج كبار قادته وأمراء جيشه أيضاً، فحين مرض صاحب أربيل زين الدين يوسف نيالتكين بالحمى التي أودت بحياته في سنة (586هـ/ 1190م) أثناء حصار عكا، ذهب طبيب صلاح الدين لمعالجته[2]. وكان السلطان يشرف بنفسه أحياناً على معالجة الجرحى، كما حصل بعد هزيمة المسلمين في موقعة أرسوق في شعبان 587هـ/ أيلول 1191م حين جلس وطلب بإحضار الجرحى، فقام بمداواتهم[3].

3 ـ فرقة الموسيقى العسكرية:

بعد أن ينادي الجاويش بالعسكر أن يستعدوا، تشد الرايات، وتبدأ الكوسات[4] بالضرب وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية، أو المارشات في الوقت الحاضر كجزء من عملية إثارة حماس المقاتلين[5]. وتثبت وقائع التاريخ الأيوبي أن الموسيقى العسكرية كان لها شأن كبير في الجيش حتى خصص لها مكان خاص يسمى: «الطبلخاناه» أي «مكان الطبل» ويذكر المقريزي بهذا الصدد أنه بعد استقرار صلاح الدين في مصر وانتهاء الدولة الفاطمية «رتب نوبة الطبلخاناه»[6] ونظم شؤونها، ويشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول: «ومعناه بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات» وقد كانت هذه الآلات تضرب في أوقات القتال، وفي بقية الأيام «ثلاث مرات في كل يوم»[7]، وكان الذي ينقر على الطبل يسمى: «دبندار» والنافخ في البوق يسمى: «منفر» أما الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض، فكان يسمى: «كوسى»[8]، وكانت العادة أن تضرب على الكوسات أيضاً لدى قدوم شخصية عسكرية هامة، وتنشر معها الأعلام والبيارق وتنعر البوقات، كما كان لكل مناسبة إيقاعها الخاص، تمرن على عزفها العازفون، وعلى سماعه المقاتلون، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة إلى عدم التوقف على القتال، رغم الهزيمة

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) مفرج الكروب (2/ 368) الجيش الأيوبي، ص: 166.

(4) الكوسات: صنوج تشبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص.

(5) النوادر، ص: 149، الجيش الأيوبي، ص: 166.

(6) الجيش الأيوبي، ص: 167.

(7) المصدر نفسه، ص: 167.

(8) صبح الأعشى (4/ 13).

التي ألحقت بهم فكان «الكوس يدق ولا يفتر»[1]. وكذلك ضربات خاصة ببشائر النصر، فحين وصل الخبر في شوال (587هـ/ 1191م) بأن الأسطول الإسلامي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل أكثر من خمسمائة صليبي: سر المسلمون بذلك، وضربت بشائر النصر، ونعق بوق الظفر[2].

4 ـ حملة أعلام الجيش:

كان ضمن الجيش جماعة مهمتهم حملة الراية السلطانية والحفاظ عليها، والراية أو العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة عن جماعة أخرى، ودولة عن أخرى، فكان لكل دولة إسلامية وغير إسلامية علمها الخاص الذي يتخذ من لون أو رنك[3]، وكان لون العلم الصلاحي أصفر وفي وسطه صورة طير النسر علامة القوة والثقة في النصر[4]. وكان بين الرايات: راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمى: العصابة وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى: الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى: السناجق[5]. وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان[6]. وعن الراية الصلاحية يتحدث العماد لدى فتح الجيش الأيوبي لصيدا سنة (583هـ/ 1187م) يقول: جاء رسل صاحبها بمفاتيحها وأذهبنا ظلماتها من العزائم العز بمصابيحها، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها[7]. هذا وقد ورد ذكر الراية الصلاحية في مجموعة من قصائد شعراء ذلك العصر في المناسبات التي أحرز فيها الجيش الأيوبي نصراً على الصليبيين ورفع فيها العلم الأيوبي، فلدى انتصار المسلمين عليهم وتخريب بيت الأحزان سنة (575هـ/ 1179م) هنأه جماعة من الشعراء بالفتح منهم بهاء الدين أبو الحسن علي الساعاتي الخراساني الذي قال في قصيدة له:

وما رفعت أعلامُك الصفرُ ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجفُ
كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ ... وساد به دين حنيف ومصحفُ

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 167.
(2) مفرج الكروب (2/ 373، 374).
(3) الجيش الأيوبي، ص: 168، رنك: أي لون بالفارسية.
(4) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 168.
(5) صبح الأعشى (4/ 8)، الجيش الأيوبي، ص: 168.
(6) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 168.
(7) الفتح القسي، ص: 103، الجيش الأيوبي، ص: 169.

أتسكن أوطان النبيين عصبةٌ ... تمين لدى أيمانها حين تحلف
نصحتكمُ ـ والنصح في الدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف[1]

وقال «العلم الشاتاني» الذي مدحه بقصيدته الرائية التي مطلعها:

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا ... فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى[2]

وكانت الراية رمز السيادة، فكانت ترفع في الأماكن كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية الرئيسة، وحين يهزم أحد الطرفين، فإن أول ما كان يفعله المنتصر هو نزع راية المنهزم وإنزالها ورفع رايته مكانها، كما فعل المسلمون في الحصون التي فتحوها والتي كانت بيد الصليبيين[3]، وأما الراية الصليبية فيصفها ابن شداد الذي رآها محملة على عربة ويقول: وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنارة خرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل الصلبان[4]. أي أن العلم الصليبي كان يشبه علم منظمة الصليب الأحمر الدولية الآن[5].

ثامناً: البريد والاستخبارات:

1 ـ تنظيم أمور البريد:

كان تنظيم أمور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض، سمي: بديوان البريد، وضع تحت إشراف بعض الموظفين، وكلت إليهم إدارة شؤون هذه المؤسسة[6] وكانت مؤسسة البريد والاستخبارات الأيوبية قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين، ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة (573هـ/1177م) بجنوبي فلسطين والتي انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، أثبتت أحداثها اللاحقة أن صلاح الدين يملك بريداً فعالاً، استطاع بسرعة تحركه أن يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر، والتي أفادت بمقتل صلاح الدين، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدّوا أعناقهم للانقضاض على الحكم الأيوبي في مصر، وكان ذلك حين أرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسله

---

(1) مفرج الكروب (2/ 83، 84)، الجيش الأيوبي، ص: 169.
(2) وفيات الأعيان (7/ 211)، الجيش الأيوبي، ص: 170.
(3) الجيش الأيوبي، ص: 170.
(4) المصدر نفسه، ص: 170، مفرج الكروب (2/ 343).
(5) الجيش الأيوبي، ص: 170.
(6) المصدر نفسه، ص: 171.

على الهجن إلى القاهرة ليؤكدوا لكل من سوّلت له نفسه التمرد على حكمه، أنه ما زال على قيد الحياة، وحمل الحمام الزاجل لطائف البشرى بعودته إلى القاهرة[1]، وفي سنة (578هـ/ 1182م)، وحين كان صلاح الدين في مصر، قام بغارة على الكرك، وضرب حصاراً عليها لمدة عشرة أيام، ولما رأى قلة أزواد جيشه أمر بالرحيل، والعودة إلى مصر، ويقول المؤرخ الأيوبي محمد بن تقي الدين عمر الذي كان مع الركب السلطاني: بينما نحن سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عمّه عز الدين فرخ شاه في غزوة دبورية[2]. وكانت مخابرات صلاح الدين من الدقة والسرعة حتى أن: أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح[3]، لا سيما خلال حصار عكا. وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين أستأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفونه لغة العدو، ولا يشك بهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به: من كبس العسكر الإسلامي ليلاً[4]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً والذي أعدوه للهجوم على عكا[5]، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، وقد استعمل في البريد في حصار عكا كافة السبل للاتصال بالمحاربين المحاصرين، للاطلاع على أوضاعهم الصعبة وكذلك لإرسال المال اللازم إليهم، فكان يتصل بهم بواسطة الحمام الطائر والسباحين، ولعل من أشهر قصص البطولة في البريد الأيوبي قصة العوام عيسى، فقد اعتاد هذا الرجل الدخول إلى عكا، رغم الحصار البحري، ومعه توجيهات السلطان في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال. ولدى وصوله إلى عكا كانوا يطلقون طائراً لإعلام السلطان بسلامة وصوله إلى المدينة، وذات ليلة نزل إلى البحر وشد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار مع كتب للعسكر، إلا أنه لم يستطع الوصول، فغرق في ساحل عكا[6]، وعرفوا أن مكروهاً حدث له، حال دون إطلاق الطائر، وبعد أيام عثروا على جثته وعلى

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 175.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 175.

(3) المصدر نفسه، ص: 176.

(4) المصدر نفسه، ص: 176.

(5) النوادر، ص: 134، الجيش الأيوبي، ص: 176.

(6) الجيش الأيوبي، ص: 176.

وسطه قطع الذهب وشمع الكتب، ويعلق ابن شداد على ذلك بقوله: فما رؤي من أدى الأمانة في حياته، وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل[1].

2 ـ اليزك «فرق الاستكشاف»:

لفظ اليزك فارسي، معناه «طلائع الجيش» واليزك هم جماعة الاستكشاف التي ترسل إلى جبهة العدو قبل توجه الجيش نحوه ،والمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات، وإيصال المعلومات العسكرية الآتية إلى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة، إذن فبوسعنا أن نقول: إن اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها أفراد مختصون يكونون تحت الطلب، ليذهبوا ويتعرفوا عن كثب على ما يفعله العدو أو ينوي القيام به، وكان أفراد اليزك يختارون من بين أهل النصح والنجدة في الحرب للقيام بهذا الواجب، وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع، لأن الهدف من واجبهم هو: تقدير قوة العدو وكشف مواطن الضعف فيه، لذلك فإنهم كانوا لا يلبسون الدروع أو التروس وغيرها من الأثقال التي تعيق حركتهم، ويختارون الجياد الهادئة السريعة الجيدة الحوافر والظهر، التي لا تتهيج بسهولة[2]، والواقع أن المؤرخين المعاصرين ـ وخاصة ابن شداد ثم العماد الأصفهاني ـ يذكرون لليزك في سياق رواياتهم، مهمات كثيرة كان يقوم بها، وصار إرسال الأخبار إحدى تلك المهمات[3]. ولا أدل على أهمية وخطورة اليزك في عهد صلاح الدين حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة أمثال الملك العادل أخي السلطان[4] وابنه الأكبر الملك الأفضل وكبار أمرائه مثل بدر الدين دلدرم الياروقي وعز الدين ابن المقدم وعز الدين جورديك وعلم الدين سليمان بن جندر وغيرهم، وكان هؤلاء الأمراء يقودون اليزك بالتناوب، فكل منهم له نوبته، ومن المهمات التي أوكلت إلى اليزك تفقد أحوال المدن لا سيما بيت المقدس حين هددها الصليبيون بإعادة احتلالها ثانية بعد تحريرها في سنة (583هـ/ 1187م)، فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث أخاه الملك العادل على رأس يزك للاطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية، فسار العادل في ذلك لهذا الغرض في رمضان (587هـ/ 1191م)[5]، كذا ما فعله حين أرسل الأمير عز الدين جورديك، وجمال الدين

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 178.

(2) المصدر نفسه، ص: 178.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 178.

(4) النوادر، ص: 192، الجيش الأيوبي، ص: 178.

(5) الجيش الأيوبي، ص: 179.

فرج وغيرهما بالمسير حتى يكونوا قريبين «من يافا» في صورة يزك يستعرفون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك، فساروا[1]. وحدث أن قام من كان في اليزك بمهمة الكمين، كما حدث في طريق يافا، وأوكلت المهمة إلى بدر الدين دلدرم، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة، فمرّ بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة[2]. وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو، وقتل ثلاثون نفراً وأسر جماعة[3]، وصار اليزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة، وكاد اليزك في إحدى مصادماته أن يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الأسد بعد أن أصابته طعنة، وحال دون اعتقاله أحد المقاتلين الصليبين، ففداه بنفسه وشغل طاعنه بما عليه من حسن لبسه، فاشتغل به وأسره، وأفلت اللعين وأخفي أثره، وقتل وأسر من خيالته جماعة، وانهزموا من تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة[4]. وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الأيوبي من هجوم مباغت قد يقوم به الصليبيون، كما حصل عند أنطاكية[5]. إن تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي أنيط تنفيذها إلى اليزك، لتدل على مكانة اليزك في الجيش الأيوبي. وهذا يعني أن هذا التنظيم العسكري كان يضم في صفوفه خيرة جنود الجيش الأيوبي وأشجعهم، وكان حجم اليزك يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها، ولهذا ـ وكما هو متوقع ـ فإنه كان يحوي عدداً كبيراً من الفرسان، وقد يصل إلى ألف فارس أحياناً، كاليزك الذي عينه صلاح الدين للمرابطة على عكا، حين قرر هو أن ينتقل بقواته إلى جبل الخروبة[6]، وهكذا نرى أن اليزك قد تطور بتطور مهماته في خضم المواجهة الدامية المستمرة مع المحتلين، وتطور من فرقة خاصة باستطلاع أخبار العدو أي كجزء من أعمال البريد والتجسس، إلى تنظيم حربي نشط له أهدافه في الدفاع عن قواعد الجيش الأيوبي أو المدن الإسلامية، أو الهجوم المباغت على معسكرات العدو، وكذلك في وضع الكمائن[7].

3 ـ حمام البريد:

من أبرز سبل الاتصال البريدي في العهد الأيوبي: استعمال الحمام الزاجل، أو ما

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 179.
(2) الجيش الأيوبي، ص: 179.
(3) النوادر، ص: 212.
(4) الفتح القسي، ص: 552.
(5) النوادر، ص: 93، الجيش الأيوبي، ص: 179.
(6) الجيش الأيوبي، ص: 180.
(7) المصدر نفسه، ص: 180.

يسمى بالحمام الهوادي لقدرته العجيبة على الاهتداء إلى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة[1]، وقد وصف القاضي الفاضل هذا الطير بأوصاف لطيفة وقال: إنه «ملائكة الملوك» يشير إلى نزوله على الملك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيه من الأمانة، لا يتوهم من جهتها خيانة[2]. إن هذا النوع من الحمام إضافة إلى اهتدائه إلى وكره، اشتهر بسرعة طيرانه[3]، وربما اصطيد وغاب عن موطنه عشر سنين فأكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه، حتى يجد فرصة ليطير إليه[4]. ولهذا بلغت أثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً، وصل إلى سبعمائة دينار، وأحياناً إلى ألف دينار، وبلغ[5] ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين ديناراً[6]، وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي أوكارها وقد عين عليها براجون أو حراس برعوا في الاعتناء بشؤونه في تدريبه وإطعامه وراحته، وإطلاقه واستقباله، ولكن جرت العادة أن الطائر إذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده، بل يأخذه إلى الخليفة أو السلطان، خشية أن يكون في البطاقة سر ينبغي عدم اطلاع أحد عليه، حتى ولو كان الوقت غير مناسب كأن يكون السلطان يتناول طعامه أو نائماً، فيترك طعامه أو يوقظه من نومه، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الأمور الهامة العاجلة، فيفك الرسالة بنفسه[7]، أو يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة[8].

لقد اتخذ نور الدين محمود الحمام منذ توليه حكم حلب والشام على غرار والده عماد الدين زنكي، إلا أن ما فعله في سنة (567هـ) هو أنه نظم شؤون الحمام على أسس جديدة وشدد على الاهتمام بأمره، إذن فكيفية رعاية الحمام وتنظيم مهابطه في أنحاء الدولة النورية، وورثتها الدولة الأيوبية، وتعيين البراجين، وتقاليد كتابة الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام، وفك وقراءة الرسالة، كل هذه الأمور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الأمور، وكل ما فعله هو أنه زاد من ربط مصر بالشام بواسطة البريد الجوي، حتى صارت هناك شبكة من المهابط «المطارات» في مصر والشام تمتد من أقصى جنوبي مصر من أسوان إلى القاهرة فالسويس وإلى

(1) الجيش الأيوبي، ص: 180.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 180.
(3) الجيش الأيوبي، ص: 181.
(4) دائرة المعارف (7/ 168)، الجيش الأيوبي ص181.
(5) صبح الأعشى (14/ 390).
(6) المصدر نفسه.
(7) حسن المحاضرة (2/ 166)، الجيش الأيوبي، ص: 181.
(8) الجيش الأيوبي، ص: 181.

بلبيس كل على حدة، ثم من بلبيس إلى الشام، ومن بلبيس أيضاً إلى الصالحية وإلى قطيا[1]، ومن قطيا إلى الواردة في الطريق إلى غزة، ثم غزة، أي أن بلبيس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر، ومثلها غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط إلى الخليل، وإلى اللد، ومنها إلى قاقون[2]، ثم جنين فصفد فبيسان فإربد فطفس، ومنها الضمين[3]، فدمشق، ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاورها من المدن، فمن بيسان إلى أذرعات[4]، ومن دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك وكذلك إلى قارة[5]، ومن قارة أيضاً إلى حمص ومنها إلى حماة فالمعرة فحلب فالبيرة، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية[6]. إن هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولا شك عدداً كبيراً من الحمام، وقد قدر في وقت لاحق، عدد الحمام الذي كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي ألفي طائر[7]. وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مربحة، نظراً للإقبال الشديد عليه لا سيما أثناء حصار الصليبيين لعكا. يقول العماد الكاتب: صرنا نحبو صاحب الطيور بالإطراء، ونخصه بالمدح والثناء، ونأمره بالاستكثار، ونطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الإرسال[8]، وقد استفاد الجيش الأيوبي من الجهاز البريد النوري واستعمله صلاح الدين ونوابه في حالات الشدة، فالحمام الزاجل أرسلت البشائر من فلسطين إلى مصر بنجاة السلطان في موقعة الرملة التي هزم فيها الجيش الأيوبي. ويقول العماد: وسيَّرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف[9]، وكان الجيش الأيوبي يصحب معه حمام الجهة أو الجهات التي ينوي الاتصال بها، أو حين كان يبغي طلب المعونة منها، كما حدث في سنة (574هـ/ 1178م) حين اجتمع الصليبيون، وساروا نحو دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها ونهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه عز الدين فرخ شاه في جمع من العساكر إليهم وأمر أنه إذا قاربهم يرسل إليه بخبره على جناح طائر يسير إليه،

---

(1) قطيا: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما.

(2) قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة على مسافة نصف يوم من قيسارية.

(3) الضمين: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران.

(4) أذرعات: بلدة في أطراف الشام يجاور أرض البلقان وعمان.

(5) قارة: قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص.

(6) صبح الأعشى (14/ 493).

(7) تاريخ المدن الإسلامية (1/ 233)، الحياة العسكرية، ص: 217.

(8) الفتح القسي، ص: 360.

(9) سنا برق الشامي (1/ 260).

فسار فرخ شاه في عسكره يطلبهم[1]. ولعل ما يؤكد على قوة تنظيم البريد الجوي في هذا العهد، تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف أنحاء البلدان أثناء مرابطته الطويلة على عكا، فمما يذكره ابن شداد أنه أثناء رمضان (586هـ/ 1190م) أرسل حمام من حلب إلى حماه ومن حماه إلى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود إمارة أنطاكية الصليبية من حلب، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها بقيادة الملك الظاهر إلى عكا، إلا أن القوات الباقية في حلب استطاعت من وضع الكمناء الذين استطاعوا دحر المعتدين الذين لم يشعروا إلا والسيف قد وقع فيهم فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً وأسر منهم خلق عظيم [2]، وقد تفنن المسلمون في إخفاء أسرارهم، لكي لا يطلع عليها العدو، لا سيما أثناء حصار عكا، حتى أنهم استعملوا رموزاً خاصة، أو تسمى بالشفرات، تدل على أمور متفق عليها مقدماً، فقد ذكر العماد أن رجل البريد كانوا: يحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور[3].

4 ـ الكمائن:

لعل من أكثر فترات التاريخ الإسلامي نشاطاً للكمائن هي فترة الحروب الصليبية لا سيما أيام صلاح الدين نظراً لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين القوى الإسلامية والمرتكزات الصليبية التي أقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام، أو القريبة منها وتعني الكمائن إرسال جريدة[4] أو سرية من المحاربين الفرسان إلى جهات العدو ومباغتته والإيقاع به في مناوشات محدودة لا تصل إلى حد القتال الواسع النطاق. أي أن العملية كانت تبدأ في السر، ولهذا كان ينبغي أن تتوفر في رجال الكمين جملة من المواصفات لكي يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم بالصورة المطلوبة[5]، ويبدو أن صلاح الدين رأى بعد سنة (585هـ/ 1189م) أن من الأفضل سلوك طريقة إرسال الكمائن، والتحرش بقوى العدو وعدم

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 187.
(2) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 188.
(3) المصدر نفسه، ص: 188.
(4) الجريدة: تعني أقل العسكر وهي قطعة جردت من سائرها.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 189.

فسح المجال له ليخلد إلى الراحة، ويجمع قواته حول عكا، فصار على الجيش الأيوبي أن يدافع عن عكا من جهة ويفرض الحصار على الصليبيين الذين يحاصرون عكا من جهة أخرى، ويرسل الكمائن للتحرش بالجماعات الصليبية هنا وهناك من جهة ثالثة[1]، ونجد أن الظروف التي مر بها الجيش الأيوبي في تلك الفترة وصلاحية أرض الشام ـ ولاسيما أرض فلسطين ـ لوجود الأحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل هذه العمليات العسكرية المحدودة الأثر والتي كانت الغاية منها إحراج العدو وجعله لا يشعر بالأمان، وهذا الأسلوب في القتال شبيه بما نسميه بحرب الأنصار، أو المغاوير[2].

تاسعاً: ادارة شؤون القتال والسلم والأسرى:

1 ـ مجلس حرب جيش صلاح الدين:

كان من الطبيعي أن يكون لصلاح الدين مساعدون يعينونه على توجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وإدارة شؤون الدولة، وكان هؤلاء يشكلون مجلساً شبيهاً بما يطلق عليه «أركان الجيش»، ويتكون من صلاح الدين، وكان يرأس الاجتماعات عادة، وعضوية إخوته لا سيما الملك العادل، وأولاده الكبار خاصة الملك الأفضل علي والملك الظاهر غازي، وأولاد أخيه مثل تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وكبار الأمراء والقادة القدامى الجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل، وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ، وبهاء الدين قراقوش وسيف الدين المشطوب الهكاري، وقادة آخرين مثل أبو الهيجاء الهذباني، وعلم الدين سليمان بن جندر وأمير الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ، وأصحاب المدن والقلاع المعروفين من أمثال: مظفر الدين كوكبري وشمس الدين ابن المقدم وعز الدين جورديك والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وكان لكل من هؤلاء حق إبداء الرأي في صراحة تامة، ما داموا يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة دولة صلاح الدين وجيشه[3]، وكان المجلس يجتمع كلما رأى صلاح الدين ضرورة في ذلك[4]، وسوف نلاحظ بإذن الله من خلال الأحداث في هذا الكتاب أن صلاح الدين شاور أصحابه في كل

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 191.

(2) المصدر نفسه، ص: 193.

(3) المصدر نفسه، ص: 197.

(4) المصدر نفسه، ص: 203.

المناسبات والأحداث الخطيرة ووافق على رأيهم عن رضا حيناً، وعن كره حيناً آخر، حفاظاً على مصلحة المسلمين وإيثاراً لرضائهم وحرصاً منه على احترام رأي أمرائه[1].

2 ـ خطط وأساليب القتال:

كان الهدف الأسمى للجيش الأيوبي في قتاله هو طرد المحتلين الصليبيين الذين استقروا في الساحل الشامي الممتد من أقصى الشمال من أنطاكية إلى أقصى الجنوب في عسقلان وكذلك في بعض الأجزاء الداخلية مثل بيت المقدس والكرك والرها وطبرية وغيرها[2]، فالهدف الإستراتيجي في القتال الأيوبي هو استعادة الأراضي التي يحتلها الصليبيون منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ومن أجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الإسلامية مختلف السبل وشتى الأساليب سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، أو عن طريق إضعافه اقتصادياً ومعنوياً وحصره في نقاط الارتكاز فالمسلمون ـ لا سيما في عصر صلاح الدين ـ اتبعوا مختلف التكتيكات للإيقاع بالصليبيين[3] ولم تكن الخطط العسكرية في الجيش الأيوبي يصنعها صلاح الدين وحده بل كان يعينه مجلسه الاستشاري، على الرغم من أن قيادة الجيش المركزية ظلت بيد صلاح الدين والنجاح يكون في الغالب مضموناً، إذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالأعداء، وقد تحل الهزائم به، إذا فقد ذلك الاتصال[4]. وكان اليزك (الفرقة الاستطلاعية) يقوم بدور أساسي في هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو، ومن الأساليب التي استعملها الجيش الأيوبي نجد أنفسنا أمام جملة من الأعمال والإجراءات التي يمكن إدراجها تحت اسم الأعمال التكتيكية ومن هذه الأعمال:

أ ـ قطع الأشجار:

ومن الأعمال التي قصد منها إضعاف العدو أنه أوعز إلى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الأردن في موقعة بيت الأحزان التي حدثت سنة (575هـ/ 1179م)[5]، وأمر بحصد غلاتهم وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو وجعله لا يستفيد من الكروم وأخشابها، ومن

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 205.
(2) المصدر نفسه، ص: 206.
(3) المصدر نفسه، ص: 206.
(4) المصدر نفسه، ص: 208.
(5) سنا البرق الشامي (1/ 331)، الجيش الأيوبي، ص: 208.

الحبوب التي حصدها الجند[1]، وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة، فيذكر المؤرخ محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي أن السلطان سار بمن انتخب من عساكره وتوجه بهم إلى الكرك في مطلع سنة (578هـ/ 1182م)، ووصل إليها بعد أيام، فوجد بها جمعاً عظيماً من الفرنج، فنزلنا قريباً منهم، فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالجدار، فاستولينا عليهم فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم[2]، وكذلك فعلوا حين تهيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا إلى حصن الكرك، وأخافوا أهله وأخذوا ما كان حوله ورعوا زرعهم وقطعوا أشجارهم وكرومهم، ثم ساروا إلى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك[3].

ب ـ قطع المياه:

كان لتكتيك قطع الماء أثره العميق في إضعاف العدو وهزيمته، فالمعروف أن سيطرة الجيش الأيوبي على منابع الماء يوم حطين كان أحد أسباب هزيمة العدو، كما هو معلوم، حين حجز بينهم وبين الماء[4]، حتى قتلهم العطش[5]، ولجأ الجيش الأيوبي إلى إفساد مياه بعض ينابيع القدس سنة (587هـ/ 1191م) للحيلولة دون وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا[6]. وكان إفساد الماء يتم عن طريق إلقاء الزرنيخ أو طرح الجيف فيه[7].

ج ـ أسلوب الحرب الخاطفة:

ومن الخطط التي اتبعها: تطبيقه لأسلوب الحرب الخاطفة، ومباغتة العدو، والانتصار عليه قبل أن يستطيع تجميع قواه، وهذه الخطة تظهر معالمها بوضوح أكثر في سنتي (583هـ ـ 584هـ/ 1187 ـ 1188م) حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين، بل إنه أتبع الانتصار بانتصارات لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة أخرى، فإثر فوزه في حطين هجم الجيش الأيوبي على التوالي على عكا وصفورية والناصرة وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً، وحين استعصت عليه مدينة

---

(1) مفرج الكروب (2/ 80).

(2) الجيش الأيوبي، ص: 208.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 208.

(4) المصدر نفسه، ص: 209.

(5) الجيش الأيوبي، ص: 209.

(6) المصدر نفسه، ص: 210.

(7) مفرج الكروب، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 209.

صور بسبب استحكاماتها، اضطر إلى تركها، واستأنف فتوحه في البقاع الأخرى وتوجه بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ففتح هونين[1]، وجبلة واللاذقية وصهيون، ثم توجه شمالاً فاستولى على حصون بكاس والشغر وبرزية ودربساك وبغراس المحيطة بإمارة أنطاكية الصليبية، ثم اتجه قسم من جيشه مرة أخرى إلى الجنوب، ففتح في أواخر سنة (584هـ/ 1188م) حصن الكرك المتين التي سميت بصخرة الصحراء، وأخيراً فتح صفد وكوكب قبل أن يعود إلى دمشق لقدوم فصل الشتاء، ولأخذ قسط من الراحة[2].

د ـ خطة القتال بالتناوب:

أعاد صلاح الدين الكرة على صور وعند أسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح بعض القلاع مثل برزية، وهي خطة القتال بالتناوب[3] وذلك بأن قسم عسكره إلى ثلاثة أقسام، يقاتل كل قسم منها فترة محددة، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث، وقد قصد باتباعه لهذه الأسلوب، إنهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، إلا أن الأسلوب اصطدم بمتانة أسوار صور، إضافة إلى وضع المدينة الطوبوغرافي[4].

هـ ـ خطة شق صفوف الصليبيين:

اتبع صلاح الدين خطة شق صفوف الصليبيين، والإيقاع بينهم، وكسب ود بعض قادتهم، في محاولة منه إضعافهم، فيذكر ابن شداد أن السلطان جلس ذات مرة في شوال (578هـ/ 1191م) واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه، وكان المؤرخ المذكور حاضراً، وأكرم السلطان ضيوفه الصليبيين إكراماً عظيماً وحادثهم، وقدم بين أيديهم ما جرت العادة، ولما رفع الطعام اختلى بهم ثم تقرر أن يصالح السلطان المركيز مونتفرات صاحب صور، الذي انضم إليه جماعة من أكابر الفرنجة، منهم صاحب صيدا، واشترط صلاح الدين على المركيز المنشق أن يظهر عداوته للفرنج الذين انشق عنهم، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم إضافة إلى خلافه معهم بسبب الزواج، وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الإيقاع بينهم، على حد قول ابن شداد[5].

---

(1) بلدة حصينة تقع إلى الشرق من صور : معجم البلدان.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 210.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 210.

(4) الجيش الأيوبي، ص: 210.

(5) المصدر نفسه، ص: 211، الفتح القسي، ص: 560.

و ـ توطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع المدن الإيطالية:

ومن الإجراءات الحكيمة التي لجأ إليها صلاح الدين بصدد إضعاف العدو اقتصادياً، قيامه بتوطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الإيطالية مثل: (بيزا وجنوا والبندقية) فمنذ أن تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن إلى مصر، وراح يعقد الاتفاقات مع هذه الدويلات لتبادل السفراء معها، وقد انتفع صلاح الدين من هذه الاتفاقيات من ناحيتين :

1 ـ **ازدياد موارد دولته** بسبب النشاط التجاري، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع.

2 ـ **إضعاف تجارة الصليبيين**، لا سيما إذا عرفنا أن صلاح الدين كان يسيطر على البحر الأحمر، ولا شك أن هذه التجارة أدت إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول الإسلامي الأيوبي[1]، ففي خطاب وجهه صلاح الدين إلى الخليفة العباسي سنة (571هـ/ 1175م) قال: ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويون كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفّار يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهونة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما يزيد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون[2]. وهذه العلاقات بين مصر والمدن الإيطالية لم تكن بالأمر الجديد، بل هي استمراراً لما كانت عليها في العهد الفاطمي[3]، لكن صلاح الدين نجح في المحافظة عليها وتطويرها.

ز ـ تخريب المدن: ومما يذكر بصدد خطط صلاح الدين الحربية، أنه لجأ في سني صراعه الأخيرة مع الصليبيين الذين كان يقودهم ريتشارد قلب الأسد، إلى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة إلى مصر، وكان المسلمون يطلقون عليها عروس الشام لحسنها[4]، ولجأ السلطان إلى هذا الإجراء حين عجز

(1) الجيش الأيوبي، ص: 211.
(2) المصدر نفسه، ص: 212.
(3) المصدر نفسه، ص: 212.
(4) الفتح القسي، ص: 550، الجيش الأيوبي، ص: 212.

جيشه عن الدفاع عنها[1]، وخشي أن يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة ـ كما حصل لعكا ـ فيقطعوا بها طريق مصر[2]. ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس، واستشار صلاح الدين أخاه الملك العادل وأكابر أمرائه في ذلك فأقروه على رأيه وقال علم الدين سليمان بن جندر، أحد كبار مستشاريه: هذه يافا قد نزل العدو بها، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معاً، فاعمد إلى إشرافها وحصنها وهكذا تقرر تخريب عسقلان[3]، والواقع أن هذه المدينة لم تكن الوحيدة التي تعرضت لهذا المصير بل تقرر تخريب حصن الرملة كذلك[4]، وحصن النطرون الذي كان من أملاك الداوية[5]، وجزءاً من سور يافا وغزة واللد والداروم الواقعة في أقصى ساحل الشام الجنوبي، وقد خربها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة (584هـ) وهذا ما حصل لحصن سرمينية أيضاً، فبعد أن فتحه الملك الظاهري غازي في جمادى الآخرة سنة (584هـ/ 1188م) أخرج أهله منه ثم هدمه وسواه مع الأرض وعفى أثره[6]، وخرب حصن يازور بسواحل الرملة من أعمال فلسطين وخرب معه بلدة «بيت جبرين» قبيل عقد الصلح مع ريتشارد[7].

ح ـ تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام: ومما يدخل ضمن خطط صلاح الدين الإستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام والذي تبلغ المسافة بينهما مسيرة حوالي ثلاثين يوماً[8]، وشيد صلاح الدين القلاع والمنازل وأقام الحراسة على طول الطريق بين مصر والشام فأعاد الأمن والسلام إلى سيناء، وقد اعتاد صلاح الدين وقواده أن يسلكوا هذا الطريق في غدواتهم وروحاتهم إلى الشام[9].

ط ـ تحصين المدن والثغور: واهتم بتحصين مدينتي مصر والقاهرة وثغور الديار

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 212.
(2) المصدر نفسه، ص: 213.
(3) المصدر نفسه، ص: 213.
(4) وفيات الأعيان (7/ 199)، المصدر نفسه، ص: 213.
(5) شفاء القلوب، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 213.
(6) مفرج الكروب (2/ 264).
(7) الجيش الأيوبي، ص: 214.
(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 214.
(9) الجيش الأيوبي، ص: 214.

المصرية ومداخلها وأهمها في عهد صلاح الدين: الإسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتيس، وأدرك صلاح الدين مدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين، وكان ما حصل في دمياط حين حاصرها أموري براً وبحراً سنة (565هـ/ 1169م) جعله يولي هذا الثغر قدراً كبيراً من اهتمامه، فكان حريصاً على تحصينه وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الأحمر، وأما داخل مصر فأهم التحصينات التي أقامها كانت في مدينة القاهرة، فقد شرع السلطان في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً وولاه لقراقوش الخادم[1].

3 ـ موسم القتال:

كانت الاستعدادات للقتال تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع، أما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة، ووضع الكمائن وإرسال فرق الاستطلاع لمعرفة أحوال العدو، وإذا نظرنا إلى فترات المعارك نلاحظ أنها تقع خلال الثمانية أو التسعة أشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد وتنتهي مع قدوم الشتاء[2]، وإذا تابعنا اليوميات الخاصة بتحركات صلاح الدين التي دوّنها كل من العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما من المؤرخين المعاصرين واللاحقين، نرى أن القتال ووصول جيوش الأطراف إلى الميدان يتوقف في فصل الشتاء، ولكن ما إن ينتهي هذا الفصل القارس والموحل ـ لا سيما في بلاد الشام ـ حتى يدب النشاط في الجيش، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه، وتصل إلى ميدان القتال قوات الأطراف[3]، وبعد أن ينتهي موسم القتال تعود العساكر إلى بلدانها. يقول العماد أنه حين هجم الشتاء العنيف، وانحرف خريف الخريف، واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج، وحل الوحل المخيم، طلب الأمراء من صلاح الدين الإذن بالعودة إلى بلادهم للراحة والاستجمام، فسار صاحب سنجار، وتلاه صاحب جزيرة ابن عمر، وبعده ابن صاحب الموصل[4]، ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان :عود العساكر من الجهاد أنه: لما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصافاً، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها، أذن السلطان للعساكر الإسلامية في

(1) الجيش الأيوبي، ص: 216.

(2) المصدر نفسه، ص: 218.

(3) المصدر نفسه، ص: 219.

(4) المصدر نفسه، ص: 220، مفرج الكروب (2/ 246).

العودة إلى بلادها، لتأخذ نصيباً من الراحة، وتجم خيولها إلى وقت العمل[1]. وقد تكررت حوادث قدوم العساكر إلى ساحة المعركة لإنجاد الجيش الصلاحي المركزي، بعد انتهاء فصل الشتاء، ثم العودة إلى أوطانها بمجيء هذا الفصل[2]، وضمن أيام القتال كان صلاح الدين يستبشر بيوم الجمعة نظراً لمكانة هذا اليوم وقدسيته لدى المسلمين، وهذا لا يعني أنه كان يتوقف عن القتال في أيام الأسبوع الأخرى في انتظار يوم الجمعة، لكنه كان يتفاءل من نتيجة القتال إذا صادف وكان اليوم هو يوم جمعة، ففي وقعة حطين يُسَيِّر عساكره وسط نهار الجمعة من ربيع الآخر من سنة (583هـ). تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة[3]، ودخل جيش صلاح الدين عكا يوم الجمعة[4]، وفي فتوح قلاع الساحل الشمالي لبلاد الشام، أي القلاع المحيطة بأنطاكية، اتفقت أن جميعها فتحت في أيام الجمعة، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يَسَّر له الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات[5]، ولعل مجلس حرب صلاح الدين كان يخطط لجعل القتال يقع في يوم الجمعة وهذا يعني أن هذا اليوم كان له تأثيره الطيب على نفوس المقاتلين المسلمين واندفاعهم البطولي في القتال[6]، ونرى أن النصر والهزيمة لا علاقة لهما بيوم محدد وتأثير يوم الجمعة بالنسبة لجيش صلاح الدين كان نفسياً والانتصارات كانت تحصل حتى في غير أيام الجمعة ثم إن انتصاراته لم تقتصر على هذا اليوم إضافة إلى أنه لم يخلُ من هزائم ألحقت بجيشه[7].

4 ـ معاملة الأسرى:

لم يكن صلاح الدين يميل إلى سفك الدماء والانتقام من الأسرى الصليبيين على الرغم من أنهم جاؤوا في الأساس غزاة محتلين لبلاد المسلمين، فيما يروى عنه في هذا الصدد أنه منع أولاده من قتل الأسرى، لكيلا تنموا في نفوسهم غريزة سفك الدم، فلربما إذا اعتادوا

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 220.
(2) الجيش الأيوبي، ص: 221.
(3) المصدر نفسه، ص: 221.
(4) وفيات الأعيان (7/ 175).
(5) الفتح القسي، ص: 247، الجيش الأيوبي، ص: 221.
(6) الجيش الأيوبي، ص: 221.
(7) المصدر نفسه، ص: 222.

على قتل أسراهم، وهم صغار، فسيفعلون ذلك دون تفريق بين المسلم والكافر[1]، بل إنه حذر ولده الملك الظاهر ـ وهو ابن العشرين سنة ـ من إراقة الدم في آخر وصية له أثناء مرضه الأخير[2]، وبصورة عامة نجد أن معاملتهم كانت تتباين بين تشغيلهم في أعمال السخرة وحجزهم في دمشق، وعرضهم للبيع أو قتلهم. ولعل من الصواب أن نقول: إن صلاح الدين لم يشذ عن القادة أو الحكام السابقين في طريقة تعامله للأسرى كنور الدين محمود الذي سار صلاح الدين على نهجه في طريقة حكمه، وكان يجهز على الأسرى في بعض المناسبات، كما حدث في سنة (552هـ/1157م) حين جلب له الأسرى، فأمر بضرب أعناقهم وكذلك نور الدين محمود يسجنهم في أكثر الأحيان، لا سيما القادة الكبار منهم كما حدث لأرناط «رينودي شاتيون» صاحب أنطاكية ثم «الكرك» الذي حبسه خمس عشرة سنة، ثم أطلق الأمير كمشتكين، أحد أمراء نور الدين، سراحه بعد وفاته نكاية بصلاح الدين، وكان القصد من الإبقاء على حياة الأسرى ـ لا سيما الأمراء منهم ـ هو الاستفادة منهم في إجراء عملية التبادل مع الأسرى المسلمين. إذ أن المعروف عن نور الدين محمود حرصه الشديد على فكاك أسرى المسلمين، سواء بالتبادل أو بالفداء، ولاسيما الأسرى المغاربة منهم، لأنهم غرباء عن الشام، ولا أهل لهم فيها، فمما يذكره ابن جبير بهذا الصدد أن من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة في الشام، أن الملوك والأغنياء كانوا يخرجون مبلغاً من مالهم يخصصونه لافتكاك الأسرى المغاربة[3]، وحرص صلاح الدين على الاقتداء بنور الدين محمود والسير على منواله في هذا، بل إنه ما برح يطلق سراح الأسرى الصليبيين الفقراء دون مقابل، كما حدث لدى فتحه بيت المقدس، إضافة إلى قيامه بافتكاك الأسرى المسلمين وقد تحتم ذلك عليه بوصفه المسؤول عن حياة المحاربين، ولأن بتحريرهم من الأسر يطلق قوة إسلامية حبيسة في معسكر العدو، ومن ثم فإن ذلك عمل من أعمال البر والتقوى، وسار على هذا النهج بعض أمرائه، فمما يذكر عن مظفر الدين كركبري صاحب أربيل، صهر صلاح الدين، أنه كان يبعث برسله مرتين في كل سنة إلى بلاد الساحل «الشام» ومعهم المال الكثير لتحرير الأسرى المسلمين من أيدي الصليبيين[4]، حتى أن سبط ابن الجوزي يقول: إن أموال إمارته قد استنفذتها الصدقات، وقدر هذا المؤرخ عدد أسرى المسلمين الذين

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 224.

(2) النوادر، ص: 238، الجيش الأيوبي، ص: 224.

(3) رحلة ابن جبير، ص: 280، الجيش الأيوبي، ص: 2250.

(4) الجيش الأيوبي، ص: 226.

حررهم هذا الأمير بنحو ستين ألف أسير، ما بين رجل وامرأة[1]، ومن وقائع حسن معاملة الأسرى ما حصل سنة (587هـ/ 1191م) حين أحضروا إليه خمسين وأربعين نفراً صليبياً من بيروت، وكان بينهم شيخ طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس، ولدى إحضاره أمام صلاح الدين طلب من الترجمان أن يسأله عن السبب الذي حمله على القدوم في الشرق وهو في هذا العمر، وغيرها من الأسئلة، فأجاب الصليبي الهرم على أسئلة السلطان، فرق له السلطان، ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى معسكر العدو[2]. في حين كان صلاح الدين ينتقم من بعض الأسرى شر انتقام، لأنهم ارتكبوا جرائم شنيعة لا تغفر إلا بسفك دمهم، بل والتشهير بهم قبل الشروع بقتلهم[3]، كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله. ونجد أن صلاح الدين كان يرى أن من الأفضل الإبقاء على حياة الأسرى للاستفادة من طاقتهم في بعض الأعمال، فحين شرع ببناء حصن القاهرة «قلعة صلاح الدين» سخر هؤلاء الأسرى في القيام بالأعمال الشاقة، كنشر الرخام ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن، وكان خندقاً ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب ولا سبيل ـ كما يقول ابن جبير ـ أن يمتهن في ذلك البنيان سوى العلوج الأسارى من الروم[4]، وذكر مؤرخ مصري متأخر: أن قراقوش كان يستعمل في بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير صليبي[5].

5 ـ المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين:

كان أول المعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين في مستهل سنة (571هـ/ صيف 1175م)، أي في بداية استقرار صلاح الدين في بلاد الشام، ولا ريب أن ضغط الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، هو الذي دفعه إلى عقد هذه الهدنة مع الصليبيين، أيضاً حاجته إلى وقت إضافي لتصفية حسابه مع الجماعات الإسلامية المناوئة له، وكونه القائد الذي ينبغي قيادة الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، إضافة إلى قطع الطريق على الجماعات الإسلامية التي رغبت في التعاون مع الصليبيين على حساب صلاح الدين، لا

(1) الجيش الأيوبي، ص: 226.
(2) المصدر نفسه، ص: 227.
(3) المصدر نفسه، ص: 227.
(4) المصدر نفسه، ص: 237.
(5) الخطط التوفيقية، علي مبارك، ص: 70.

سيما أتابكة الموصل وحلب[1]، وهذه الأسباب جميعاً دفعت السلطان والصليبيين إلى إيقاف القتال وقيام فترة سلم بينهما، وحين تم عقد الهدنة، أمر السلطان العساكر المصرية بالعودة إلى مصر، نظراً لانتفاء الحاجة إلى وجوده في الشام بالإضافة إلى صعوبة الوضع الاقتصادي في الشام ـ كما قلنا ـ وكذلك حاجة مصر إلى جندها في موسم الحصاد، فيذكر العماد أن السلطان أذن لعسكر مصر بالانصراف والإقامة في مصر «ريثما يستوعب المغل»[2]، والواقع أن صلاح الدين لم يعقد هذه الهدنة أو غيرها إلا وهو حذر من الصليبيين مخافة أن ينقضوها، كما حدث فعلاً، فكان يتخذ لنفسه الحيطة من الشروط والبنود التي تقيد العدو، وتمنعه من القيام بالعدوان، وكذلك لم يكن يلقي السلاح ويركن إلى السلم مع عدو محتل، بل إنه كان يضع جيشه في حالة استعداد وترقب دائمين، ولا ينقطع عن القيام بمناوشته خشية غدره، وكذا كان صلاح الدين يستشير مجلس حربه حين يعزم على الاتفاق مع العدو لإيقاف القتال[3].

عاشراً: أسلحة الجيش الأيوبي:

إن استمرار حالة الحرب مع الغزاة الصليبيين التي عاشتها المنطقة، لا سيما بلاد الشام، أدى إلى قيام صناعات حربية نشطة خاصة وأن هذه المنطقة تتوافر فيها بعض موادها الأولية إلى جانب فئة من الصناعيين المهرة، فبلاد الشام عرفت بتوفر مادة الخشب فيها من غابات الجبال الكثيفة، لا سيما أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط والزان وغيرها، إلا أن المنطقة عرفت بقلة وجود الحديد فيها، وقد عوض المسؤولون ـ لا سيما صلاح الدين ـ عن هذا النقص باستيراد الحديد من إيطاليا وغيرها، واقتصر وجوده على بعض أجزاء الشام والموصل، ومن الراجح أن هذا الحديد ظل يستخرج من مناجمه في عهد الحروب الصليبية، سواء من قبل المسلمين أو من قبل الصليبيين حين احتلوا هذا الجزء. هذا إضافة إلى غنى منطقة الموصل بالحديد والقير والنفط الأبيض الضروري لقاذفات النار[4]، وكانت الموصل تمد صلاح الدين بين فترة وأخرى بما تجود به أرضها وأيدي صناعها، فكانت ترسل إليه أحمالاً من النفط الأبيض ومن التراس والرماح ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده[5]،

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 238.
(2) سنا البرق (1/ 195)، الجيش الأيوبي، ص: 239.
(3) الجيش الأيوبي، ص: 239.
(4) المصدر نفسه، ص: 264.
(5) الفتح القسي، ص: 350.

وأما مصر فقد كانت غنية بأنواع الخشب التي استخدمت في صناعة السفن[1]، وأما أنواع الأسلحة فهي:

1 ـ **الأسلحة الفردية**: أ ـ السيف. ب ـ الخنجر. ج ـ الرمح. د ـ الفأس. هـ ـ العمود والدبوس. و ـ القوس. ز ـ المقاليع[2].

2 ـ **الأسلحة الثقيلة**: أ ـ النفط وقاذفات النار. ب ـ الآلات الجماعية، كالمنجنيق والدبابة وملحقاتها.

3 ـ **أسلحة الجسم**: المغفرة والبيضة، والجوشن والتجفاف؛ أي حارس البدن وكان لباس يرتديه الفارس ويلبسه حصانه كذلك، للوقاية من الإصابة بالنار[3]، والمثلثات؛ آلة صغيرة تصنع من الحديد أو الخشب، ذات أطراف شوكية على هيئة مثلث مستدق الأطراف[4] وغيرها.

الحادي عشر: البحرية الأيوبية:

تغيرت إستراتيجية صلاح الدين بعد انتقاله من الشام إلى مصر حين وجد في الأخيرة نقاط ضعف فشرع في تحصين مدنها وقلاعها وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليها، وركز صلاح الدين على بناء قوات بحرية لأنه أدرك أن قوة الفرنج في البحر وضعفهم في البر، وأنه لا بد من بناء أسطول حربي لمنع القوافل الفرنجية البحرية التي كانت تعزز الممالك الصليبية في ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليها الضغط البري، وإلى ذلك اكتشف صلاح الدين أن بنية الدولة في مصر ضعيفة ومخلّعة وكان لا بد له من إعادة تنظيم أمورها الإدارية والشرعية قبل المباشرة في مواجهة الفرنج، وهنا لا بد من الانتباه إلى مسألتين أقدم عليهما صلاح الدين، إضافة إلى بناء أسطول حربي وتحصين الأسوار القلاع، وهما: **الأولى**: خطورة اتصال خطوط التجارة والمواصلات بين البحرين المتوسط والأحمر **والثانية**: اختلاف مصالح تجار مدن أوروبا المتوسطية عن طموحات أمراء الممالك اللاتينية في وسط أوروبا وغربها وشمالها، فأقدم على توقيع اتفاقات تجارية معهم مقابل فك

(1) الجيش الأيوبي، ص: 264.
(2) المصدر نفسه، ص: 266 ـ 290.
(3) المصدر نفسه، ص: 323.
(4) المصدر نفسه، ص: 324.

ارتباطهم مع ساحل الشام وفلسطين إلى البحر الأحمر واحتمال تهديد قوافل التجارة من الخلف إلى تعريض قوافل الحجاج المسلمين إلى الحجاز، فأمر بإرسال جيشه إلى اليمن لتأمين خطوط التجارة البحرية وقطع الطريق على أعمال القرصنة والاعتداءات ضد قوافل الحجاج[1].

1 ـ نشاط البحرية الأيوبية:

بوسع الباحث أن يلاحظ ثلاث مراحل مرت بها البحرية الأيوبية :

أ ـ مرحلة التمهيد: في هذه المرحلة، التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة الإعداد ووضع الأساس لقيام أسطول أيوبي في مصر، قام صلاح الدين بجملة إصلاحات، فأعاد تنظيم الأسطول جاعلاً إياه ديواناً مستقلاً تحت إمرة أخيه، ومنحه السلطة لأخذ ما يحتاج إليه من المواد وتجنيد كل الرجال الذين يحتاجهم فصار للدولة الفتية أسطول استطاع الدفاع ـ بدعم من قواته البرية ـ عن ثغور مصر اعتباراً من سنة (565هـ/ 1168 ـ 1169م) واستمر الأسطول ينمو نمواً مطرداً، فما إن حل عام (575هـ/ 1179م) إلا وتضاعفت عدته حتى بلغت ستين شينياً وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة، فدخلت البلاد الرومية ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى في قيد الأسارى، وقتلت الرفاق الكبار[2].

ب ـ مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر: تمتد هذه المرحلة من سنة (575هـ/ 1180م) وتنتهي مع بداية سنة (579هـ/ 1183م) أي دامت حوالي أربع سنوات، استطاع الأسطول الأيوبي خلالها أن يقوم بجملة أعمال حربية هجومية ضد الأسطول البحري الصليبي، والرد على الأعمال العدوانية التي قام بها العدو بعد أن تضاعفت عدة الأسطول وقويت واستفرغت فيها عزائم الجهاد[3]، وأول فعالية حربية قام بها الأسطول الأيوبي هي صدامه مع العدو في معركة بحرية في سنة (575هـ/ 1180م) وإحراز النصر عليه واستطاع أن يظفر ببطسة صليبية «مستصحباً فيها ألف رأس من السبي ورافق هذا الانتصار البحري إحراز الجيش الأيوبي النصر في موقعة «بيت الأحزان» فعم النصر وتساوى فيها البر والبحر»[4]، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يحرز الجيش الأيوبي هذين الانتصارين في وقت واحد، إذ أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته في سرعة بحيث لم يستطع الصليبيون معها ملاحقته، حتى أنه لم يكتف

---

(1) صلاح الدين الأيوبي وليد نويهض، ص: 94 ، 95.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 352.

(3) كتاب الروضتين، ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 353.

(4) المصدر نفسه، ص: 354.

بالانتصار على العدو وتدمير بيت الأحزان، والإغارة على صور وصيدا وبيروت، بل إنه أمر الأسطول بالخروج ثانية من ثغور مصر للهجوم على عكا «قسطنطينية الشام» حسب تعبير القاضي الفاضل واستطاع أسر مراكب صليبية عديدة، فنزل عليها «تحطيماً وتكسيراً ونطاحاً» وهذا مما لم يعهد من الأسطول الإسلامي مثله في سالف الدهر، لا في حالة قوة إسلام ولا ضعف كفر[1].

ولعل الانتصار الأكبر والأكثر صدى هو الذي أحرزه أسطول صلاح الدين في البحر الأحمر (بحر القلزم) ففي شعبان (578هـ/ خريف 1182م) استغل الأمير الصليبي المعروف أرناط «رينودي شاتيون» انشغال صلاح الدين بحصار الموصل، فأعد مشروعاً ضخماً وخطيراً قصد منه الوصول إلى أهداف عديدة منها:

ـ **السيطرة على البحر الأحمر**، باحتلاله أيلة على خليج العقبة، وعيذاب[2] على الساحل المصري الجنوبي الذي يشرف على هذا البحر، وكذلك احتلال جدة ورابغ على ساحل الجزيرة العربية ثم احتلال عدن، وبذلك تكون مياه هذا البحر تحت رحمة الصليبيين، ويسيطرون على طريقها على منافذ التجارة، ثم يصلون إلى مياه المحيط الهندي.

ـ **محاولة قطع الصلة بين الحرمين**: قلبي العالم الإسلامي، وبين بقية أجزاء هذا العالم، سواء في الاتصال البري أو البحري، وهذه المحاولة قصد بها استفزاز مشاعر كافة المسلمين وبعث موجة من الذعر والرعب فيهم، بل إن الصليبيين عزموا على دخول المدينة المنورة وإخراج رفات الرسول الأعظم ﷺ من ضريحه[3].

ـ **إقناع مملكة الحبشة المسيحية بالعمل على المشاركة في الحروب الصليبية**، وقد استعد أرناط لتنفيذ مشروعه البحري من كل الجوانب، فأمر بقطع غابات المناطق الخاضعة له، وقطع نخيل منطقة العريش، فصنع هياكل سفن من أخشابها، وقام بتجربتها في مياه البحر الميت[4]، كما عهد إلى صليبيي عسقلان بصنع مراكب أخرى، حتى صار لديه أسطول مكون من خمس سفن حربية كبيرة وعدد كبير من المراكب المتوسطة والصغيرة قام رجاله بنقل أجزائها مفككة إلى ساحل خليج العقبة على ظهر جمال مؤجرة يمتلكها بدو المنطقة بعد

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 354.

(2) عيذاب: بليدة وثغر مصر على بحر القلزم، وهي مرسى المراكب.

(3) ابن جبير، ص: 34، الجيش الأيوبي، ص: 357.

(4) الجيش الأيوبي، ص: 357.

أن أغراهم بالمال[1]، ثم أحضر أرناط جيشاً برياً وسيره إلى بلاد تبوك للحيلولة دون وصول أي مدد عسكري قد يطلبه نائب أيلة من الشام أو مصر، واتخذ أرناط سبيله في البحر وتوجه نحو أيلة التي سقطت في يده بعد مقاومة قليلة، إلا أن قواته عجزت عن احتلال جزيرة القلعة «جزيرة فرعون» ولمنع أهلها من الحصول على الماء «فنالوا شدة شديدة وضيق عظيم»[2]، على حد قول ابن الأثير. بينما انطلقت بقية سفن الأسطول للإغارة على الساحل الأفريقي وأخذو يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا إلى عيذاب واستولوا فيها على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من اليمن والجهات الأخرى كالهند وعدن، وقد فزع المسلمون حين شاهدوا مراكب الصليبيين تجوب عباب البحر الأحمر لأنهم: لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً[3]. وأحدث الصليبيون حوادث شنيعة فأحرقوا نحو ستة عشر مركباً للمسلمين، وأخذوا مركباً يحمل حجاجاً، وأحرقوا مواد غذائية كانت معدة لميرة مكة والمدينة، هذا فضلاً عن حوادث القتل والأسر والتنكيل التي ارتكبوها في البر والبحر[4]، ومن عيذاب توجه الصليبيون إلى ساحل البحر الأحمر الشرقي (أرض الحجاز) فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية «الحوراء وينبع» مينائي المدينة المنورة، ثم توغلوا إلى الجنوب حتى بلغوا «رابغ» من موانىء مكة وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقبلها الحجاج وتتجه نحو جدة[5]. وصلت هذه الأخبار في رسالة بعث بها مستحفظ قلعة أيلة إلى صلاح الدين وكان نازلاً على الموصل، فبعث السلطان إلى أخيه ونائبه على مصر الملك العادل أبي بكر، يحثه على اتخاذ ما يلزم للرد على المعتدين بالسرعة الممكنة، ويبدو أن الملك العادل استعد لتلك المهمة قبل أن يصله طلب أخيه السلطان[6]. فأوعز إلى قائد الأسطول الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالاستعداد للعملية العسكرية وعمّر أسطولاً من السفن في مدينة مصر والإسكندرية ثم فك أجزاءها وحملها على الجمال إلى ساحل خليج السويس فوصلت الأجزاء بصحبة محاربين مغاربة، قاموا بتركيب تلك الأجزاء. قسم الحاجب حسام الدين لؤلؤ سفن أسطوله إلى جماعتين، فسارت الأولى إلى قلعة أيلة واستولت على مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر من بها، إلا أن قسماً منهم استطاعوا الهرب والاختفاء في شعاب ووديان

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 357، رحلة ابن جبير، ص: 34.

(2) الخطط (2/ 86)، الجيش الأيوبي، ص: 358.

(3) تاريخ ابن خلدون (5/ 655)، الجيش الأيوبي، ص: 358.

(4) مفرج الكروب (2/ 127)، الجيش الأيوبي، ص: 358.

(5) الجيش الأيوبي، ص: 358.

(6) المصدر نفسه، ص: 359.

المنطقة فسلط عليهم الحاجب رجاله فعثروا عليهم، وانقضوا عليهم انقضاض العقاب على صيدها[1]، وأما الجماعة الثانية فوجههم نحو عيذاب ولم يجدوا فيها أحداً منهم فقاموا بتعقيب أسطول العدو فوجدوا قطعة راسية قبالة الحوراء، فنزلوا من المراكب وبدأوا بمقاتلتهم ومطاردة الفارين منهم وألقوا القبض عليهم وبلغ عدد من تم أسرهم (170) مائة وسبعين أسيراً وحرروا الأسرى المسلمين، ثم استولوا على مراكبهم وما فيها من بضائع[2]، عاد الحاجب بأسطوله المنتصر إلى مصر ومعه الأسرى وفي أرجلهم القيود وكان دخولهم الإسكندرية في 1 ذي الحجة 578هـ/ 1183م) يوماً مشهوداً وصادف ذلك اليوم وصول الرحالة الشهير ابن جبير إلى هذه المدينة، فشاهد مجتمعاً من الناس عظيماً لمعاينة الأسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابهم وحولهم الطبول والأبواق[3]، وأمر الملك العادل: بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف[4]، وتولى ذبحهم رجال الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة[5]، وكما جاء في رسالة القاضي الفاضل إلى الديوان الخليفي ببغداد: لم يكن في مقتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة.. فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها[6]. وتصادف أن كان الموسم موسم الحج فساق المسلمون معهم البعض من الأسرى إلى منى، لذبحهم كما تنحر البدن ـ الذبائح[7] وصار نجاح أسطول صلاح الدين في الرد على عملية الإنزال الصليبي تجربة قاسية للمغيرين، وأسهم أكثر من أي حادث آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين، وتقوية مركزه بين كافة المسلمين، وعزز أيضاً شهرة قائد أسطوله الحاجب حسام الدين لؤلؤ[8]. وأما مدبر الحملة الصليبية الأمير أرناط فقد استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنه بالكرك كذئب كسيح يلعق جروحه[9]، ليواصل خططه ومشاريعه العدوانية ضد المسلمين، إلا أن

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 359.

(2) المصدر نفسه، ص: 359.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 360.

(4) الجيش الأيوبي، ص: 360.

(5) المصدر نفسه، ص: 360.

(6) المصدر نفسه، ص: 360.

(7) المصدر نفسه، ص: 360.

(8) الفتح القسي، ص: 341، الجيش الأيوبي، ص: 360.

(9) الجيش الأيوبي، ص: 361.

صلاح الدين أعلن بأنه لن يغفر له محاولته في انتهاك الحرمين، ونذر نفسه للانتقام منه[1]. ولم يستطع هذا الأمير الصليبي ولا غيره من القادة الصليبيين، أن يعيد التجربة المريرة في البحر الأحمر الذي ظل بحراً إسلامياً، ولعل آخر نشاط قامت به بحرية صلاح الدين في هذه الفترة، خروجها في بداية سنة (579هـ/ 1183م) إلى غياهب البحر المتوسط للبحث عن سفن صليبية، فعثرت على بطسة عليها ثلاثمائة وخمسة وسبعون (375) مقاتلاً مع أسلحتهم[2]، وعليها أموال وأسلحة يسيرون بها إلى الساحل الشامي المحتل، فقاتلهم المسلمون، وصبر الفريقان، ثم ظفر المسلمون، فأخذوا أفراد البطسة الباقين أسرى وعادوا بهم وبالغنائم إلى مصر[3].

ـ مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة 583هـ ـ 588هـ : واصل جيش صلاح الدين انتصاراته بعد انتصار حطين الحاسم في جبهات القتال المختلفة، سواء في فتح ثغور وحصون شمالي الشام أو فلسطين وغور نهر الأردن، إلا أن نشاط الأسطول ظل دون المستوى المطلوب في العمل العسكري وظل دوره في التخفيف عن الأعباء القتالية الثقيلة الملقاة على عاتق الجيش البري في فتح المدن الساحلية محدوداً، وهذا الوضع لم يكن ناجماً عن ضعف البحرية الأيوبية بقدر ما كان راجعاً إلى قوة البحرية الصليبية، وكان صلاح الدين على علم بهذا الفرق، فلم يشأ أن يشترك أسطوله مشاركة جادة، ولخشيته من هجوم قد يقوم به العدو على الساحل المصري، إذا حشد كل قواته البحرية في الساحل الشامي، ولهذا نرى أن الجيش البري لم يقم بفتح القلاع والحصون الداخلية فقط، بل قام بفتح المدن البحرية كذلك كعكا وبيروت وعسقلان واللاذقية وغيرها.

إلا أن هذا لم يمنع أسطوله من أن يضطلع ببعض المهام لمعاونة جيشه، ففي صور ضاقت الحيل بجيش صلاح الدين وصار عليه أن يحارب في ثلاث جبهات، جبهة المدينة المحاصرة بسورها المتين، وفي الجبهة الشمالية، وكذلك الجنوبية المحيطة بالمدينة، حيث تلقفهم الصليبيون بالرمي من سفنهم الراسية في جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروح، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثر القتل والجراحات في المسلمين، ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد[4]، فما كان من صلاح الدين إلا وأرسل في إثر الشواني المصرية الراسية في

(1) مرآة الزمان (8/ 389)، مفرج الكروب (2/ 185).

(2) مضمار الحقائق، ص: 50، الجيش الأيوبي، ص: 361.

(3) الجيش الأيوبي، ص: 361.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 363.

مياه عكا التي تم فتحها حديثاً فوصلت هذه السفن في الوقت المناسب، فاستطاع المسلمون الاقتراب من سور البلد، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه، وكان من المتوقع أن تسقط هذه المدينة بعد هذا. وفي ضوء هذه الاعتبارات صار للعمل الذي كلف به الأسطول أهمية خاصة وثقيلة، فمن واجبه أن يحاصر الميناء وأن يحول دون قدوم مساعدة بحرية للصليبيين إلى صور ولم يكن في استطاعة الحامية بسبب هذه الأحوال أن تصمد طويلا[1]. إلا أن المسلمون تماهلوا في واجبهم والقيام بمهمة الحراسة للحيلولة دون اقتراب سفن الأسطول الصليبي من صور، فأثناء ما كانت خمس قطع من الأسطول الأيوبي تقوم بالحراسة ليمنعوا الصليبيين من الخروج من صور والدخول إليها تصوروا أنهم قد سيطروا على الوضع فأمن الحراس وناموا وقت السحر، فاستغل رجال البحرية الصليبية الفرصة للإيقاع بهم: فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم، وأدخلوهم إلى ميناء صور، وأفراد جيش صلاح الدين في البر ينظرون إليهم. وكان قائد الأسطول الإسلامي هو عبد السلام المغربي الذي يصفه ابن الأثير بالحذق في صناعته وشجاعته[2]، ومعه بدران الفارسي[3]، وقد استطاع بعض رجال الأسطول الذين أسروا في شوانيهم أثناء نومهم رمي أنفسهم في البحر، فمنهم من سبح ونجا، ومنهم من غرق أما الشواني الخمس الباقية فقد طلب السلطان من متوليها أن يتجهوا بها نحو بيروت «لعدم انتفاعه بها لقلتها» فسارت، لكن السفينة الصليبية تبعتها، فما كان من البحارة والمقاتلين المسلمين فيها، إلا وألقوا أنفسهم من شوانيهم إلى البر، فنجوا بأنفسهم تاركين شوانيهم، لكن صلاح الدين لم يدع هذه السفن تقع في أيدي الصليبيين فأوعز إلى جماعة من رجاله بالوصول إليها ونقبها ثم «عاد إلى مقاتلة صور في البر»[4]، وكما هو متوقع فقد: اغتم السلطان بسبب هذه النكبة، وفرح الكفار بتلك الضربة[5]، هكذا أخفق الأسطول الأيوبي في المشاركة في معارك إحدى المدن الساحلية التي كانت بيد الصليبيين وكانت هذه العملية هي الوحيدة التي قام بها هذا الأسطول في هذا المجال، ولم يكررها في فتح المدن الأخرى، ولكن يلاحظ أن الأسطول عاد إلى نشاطه ثانية أيام الحصار الصليبي الطويل لمدينة عكا، لإنجاح هذه المدينة وتزويدها بما تحتاج إليه من عتاد وذخيرة ومقاتلين[6].

---

(1) تاريخ البحرية الإسلامية، ص: 363.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 363.

(3) المصدر نفسه، ص: 363.

(4) المصدر نفسه، ص: 363.

(5) الفتح القسي، ص: 161.

(6) الجيش الأيوبي، ص: 363.

2 ـ أهم إصلاحات صلاح الدين البحرية:

من أجل إحياء البحرية في مصر قام صلاح الدين بجملة من الإصلاحات وهي:

أ ـ جعل غابات مصر ملكاً للدولة: ولا سيما غابات مناطق «بهنسا وسفط وأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص» وكانت قيمة العود الواحد تبلغ مائة دينار حسب قول المقريزي[1]، ولم يسمح بموجب هذا القرار لأحد بالتصرف بالأشجار، وذلك للانتفاع بأخشابها وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به إلى أواخر الدولة الأيوبية في مصر، على الرغم مما أصاب الأسطول من إهمال. وبهذا الصدد ذكر عثمان إبراهيم النابلسي المعاصر للدولة الأيوبية في مصر: أن الحراج ـ الغابات ـ حكمها حكم المعادن وهي لبيت مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص[2]، وصار مفعول هذا القانون يسري على المواد الضرورية التي تستوردها الدولة من الخارج أيضاً، لا سيما الحديد والخشب الضروريات لقيام صناعة السفن، فمما يذكر أن الدولة الأيوبية كانت لها صلات ومعاهدات تجارية مع جمهوريات المدن الإيطالية، حصلت بموجبها على حاجتها من هاتين المادتين[3]. ومما يؤكد سريان القانون المذكور على هذه المواد، ما يقوله المؤرخ النابلسي المصري المذكور في أن كل خشب وحديد ورصاص . . وغير ذلك من الأصناف التي ترد إلى الديار المصرية عن طريق البحر وإنما يبتاعه الديوان بكسب يسير، وذلك لصنع الشواني «سفن» وغيرها من المراكب والعمارات وخزائن السلاح[4]، وكان في الإسكندرية ديوان سمي بالمتجر السلطاني، عمله شراء البضائع المستوردة التي تحتاجها الدولة للأغراض العسكرية، لا سيما في بناء السفن، وكان المشرفون على المتجر يشترون هذه البضائع بأموال الخمس التي تفرض على التجار، وقد استفاد صلاح الدين في بناء أسطوله، إضافة إلى ما ذكرناه، من أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في غابات لبنان، وكذلك من معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبال لبنان بالقرب من بيروت[5]، وإذا صح هذا، فإن ذلك حصل بعد أن عادت تلك المناطق إلى المسلمين، أي بعد سنة (583هـ/ 1187م).

ب ـ أفرد صلاح الدين ديواناً خاصاً للأسطول: عرف بديوان الأسطول وخصص

---

(1) الخطط (2/ 193).

(2) الجيش الأيوبي، ص: 332.

(3) المصدر نفسه، ص: 333.

(4) المصدر نفسه، ص: 333.

(5) أحسن التقاسيم، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 333.

للصرف عليه خراج الفيوم وأعمالها وخراج البرين الشرقي والغربي، ويضم البر الشرقي نواحي بهتين والأميرية والمنيا، والبر الغربي يضم ناحية سفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة، وكذلك خصيص حصيلة النطرون التي بلغ مقدار ضمانها يومئذ ثمانية آلاف دينار في السنة مضافاً إلى ذلك ما يحصل عليه من مال الزكاة في مصر، والذي بلغ أكثر من خمسين ألف دينار، إلى جانب أجرة المراكب الديوانية «الحكومية»[1].

ج ـ اهتم صلاح الدين برفع المستوى المعاشي لرجال البحرية والعاملين في صناعة السفن وملحقاتها لتحسين أوضاعهم وتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية والعمل في الأسطول، وتقرر أن يكون دينار الأسطول نصف وربع الدينار (3/ 4 الدينار) بعد أن كان نصف وثمن الدينار (5/ 8) أي بزيادة (17,5%) من قيمة الدينار السابق[2].

د ـ عين صلاح الدين شخصيات عسكرية هامة على رأس الأسطول فعلى الرغم من أن المصادر لا تشير إلى أسماء الذين عملوا في إدارة شؤون البحرية الأيوبية في السنوات الأولى من تاريخ الدولة الأيوبية، سوى اسم القائد البارز حسام الدين لؤلؤ الذي اشتهر في حادث الرد على عدوان أرناط، الذي تحدثنا عنه وكذلك أسماء قادة السفن من أمثال: يعقوب الحلبي وجمال الدين محمد بن أرككز، وبدران الفارسي، ومحمد بن إسحاق وعبد السلام المغربي وغيرهم، إلا أن تعيين أخيه الملك العادل مسؤولاً عاماً لمؤسسة البحرية في السنوات المتأخرة، ليدل دلالة قاطعة على مدى اهتمام صلاح الدين بديوان الأسطول، وحين تسلم الملك العادل عمله: أقام في مباشرته وعمالته صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر[3]. أي أن العادل عين صفي الدين ليكون نائبه في الإشراف على إدارة الأسطول، وقد منح صلاح الدين صاحب الأسطول صلاحيات واسعة لتنفيذ المهمات الخاصة بالبحرية، فبعد أن أتم صلاح الدين إعداد الأسطول سنة (572هـ/ 1176م) كتب إلى سائر البلاد يقول: القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذه رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر[4].

هـ ـ اهتم صلاح الدين كثيراً بتحصين ثغور مصر، وقرر القيام بعمليات واسعة في

(1) الخطط (2/ 193)، الجيش الأيوبي، ص: 334.

(2) المصدر نفسه (2/ 194)، المصدر نفسه، ص: 334.

(3) الجيش الأيوبي، ص: 335.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 335.

أوقات مختلفة لتعمير أبراجها وأسوارها، وحفر الخنادق حولها، وخصص لهذه المهمة مبالغ طائلة وعين عليها رجالاً أكفاء لتنفيذها مثل بهاء الدين قراقوش، الذي أوكلت إليه مهمة تجديد وبناء الكثير من المباني العسكرية وغيرها[1]، وكان صلاح الدين يقوم بزيارات تفقدية للإشراف على عمليات التحصين والبناء الجارية في الثغور المطلة على البحر المتوسط لا سيما الإسكندرية ودمياط وكذلك تنيس، فإثر عودته من رحلته الأولى إلى بلاد الشام خرج في شعبان 572هـ/ 1176م ولداه الملك الأفضل علي والملك العزيز عثمان ومعهم العماد الكاتب المؤرخ المعروف وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر ومشاهداته الاحتياط[2]، وفي سنة (577هـ/ 1181م) رتب صلاح الدين المقاتلة على البرجين الواقعين على طرفي المدينة من جانب البحر، وأمر بشد المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها المدافعون عنها، إذا استطاع العدو من الدخول بين البرجين، وكذلك أمر في نفس السنة بترميم سور دمياط وسد الثلمات فيه، وفي وقت لاحق أمر صلاح الدين بحفر خندق دمياط، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها[3]، ثم غادر دمياط إلى ثغر الإسكندرية، وشاهدنا ـ كما يقول المؤرخ ـ ما استجده السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول[4]، وكانت هذه هي الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها إلى الإسكندرية، وقام بزيارة ثالثة وأخيرة للإسكندرية في سنة (577هـ/ 1181م) لمشاهدة الأسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام[5]، ومن التحصينات التي اتخذها صلاح الدين في الإسكندرية خلال هذه الزيارة أنه أمر فخر الدين قراجا بكسر أربعمائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري، وإلقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها، أو لكسر حدة الأمواج على سور الإسكندرية[6].

د ـ قام صلاح الدين بتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية: واستقدام العناصر الكفؤ من خارج مصر، وقد نجحت محاولته بسبب المغريات التي صار ديوان البحرية يوفرها

---

(1) وفيات الأعيان (4/ 91)، الجيش الأيوبي، ص: 335.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 336.

(3) المصدر نفسه، ص: 339.

(4) المصدر نفسه، ص: 339.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 337.

(6) الجيش الأيوبي، ص: 337.

لهم، أو ببث روح الجهاد في نفوس المسلمين وحثهم على التطوع وللعمل في الأسطول، حتى صار «خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس»[1]. وقد ضرب صلاح الدين نفسه مثلاً رائعاً في الجهاد فقد ذكر مؤرخه ابن شداد الذي شاهد الكثير من أهوال البحر أن صلاح الدين التفت إليه ذات يوم في نهاية حوار دار بينهما وقال له: في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت[2].

3 ـ دور المغاربة في الأسطول الصلاحي:

كان المغاربة أكثر من لبى نداء صلاح الدين للعمل في مجال البحرية وهم الذين عول عليهم في إعداد الأسطول المصري، حتى أصبح ذلك وقفاً عليهم على حد قول المقريزي، لمعرفتهم الجيدة بشؤون البحر[3]، ومعروف أن شهرة المغاربة في المشرق قد ذاعت بصفة خاصة في الجهاد البحري لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة، وفي فنون القتال البحري، ولهذا عرفوا بفرسان البحر منذ وقت مبكر، واستعان بهم الفاطميون، والأيوبيون والمماليك والعثمانيون في إدارة أساطيلهم البحرية، فالرحالة ابن جبير ينص على أن الحملات البحرية التي قادها حسام الدين لؤلؤ ضد الصليبيين في البحر الأحمر على عهد صلاح الدين كانت تضم عدداً كبيراً من أنجاد المغاربة البحريين[4]، ولعل أكبر دليل على اختصاص المغاربة بالأساطيل البحرية في ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين أرسل سفيره عبد الرحمٰن بن منقذ إلى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب منه مساعدة بحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه في رسالته بأمير المؤمنين أي لم يعترف بخلافة الموحدين، فقد ذهب المؤرخ المغربي السلاوي الناصري إلى أن المنصور أرسل إلى صلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع سفن الصليبيين من سواحل الشام[5]، وكانت مشاركة المغاربة في جهاد الصليبيين في مصر أو الشام في المجالين البري والبحري، ونجد في هذا الصدد مادة خصبة في كتب التراجم والرحلات التي تصف أعمالهم وبطولاتهم وتذكر أسماء من استشهد منهم

---

(1) الخطط (2/ 194)، الجيش الأيوبي، ص: 338.

(2) النوادر، ص: 22، الجيش الأيوبي، ص: 338.

(3) المصدر نفسه، ص: 22، المصدر نفسه، ص: 338.

(4) الخطط (2/ 189)، الجيش الأيوبي، ص: 338.

(5) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (2/ 163)، بحوث في تاريخ الحضارة، ص: 89.

ودفن هناك في فلسطين، وحسبنا أن نشير بصفة خاصة إلى الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار مصر والشام، فإن هذا الرحالة المغربي أعطانا معلومات قيمة عن نشاط المجاهدين المغاربة في الحروب الصليبية، فيشير مثلاً إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الصليبيون في الشام على التجار المغاربة فقط دون سائر تجار المسلمين، والسبب في ذلك يرجع إلى أن طائفة من إنجاد المغاربة حاربوا مع السلطان نور الدين محمود زنكي، واستولوا على أحد الحصون الصليبية بعد أن أبدوا شجاعة نادرة كانت مضرب للأمثال، فجازاهم الإفرنج على ذلك بأن فرضوا على كل تاجر مغربي يمر بمستعمراتهم في الشام ديناراً إضافياً عن سائر تجار المسلمين كعقاب لهم على شجاعتهم، وكذلك يشير ابن جبير إلى اهتمام ملوك المسلمين وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق بفداء الأسرى من المغاربة لبعدهم عن بلادهم. هذا إلى جانب الأوقاف الكثيرة التي خصصت للمقيمين من المغاربة في الشام[1]. ودور المغاربة الجهادي مشرف، فقد كانوا دائماً متواصلين مع إخوانهم في المشرق في السراء والضراء في ميادين العلم وفي ساحات الجهاد، وقد قدموا خبراتهم القتالية لإخوانهم المشارقة في عهد الزنكيين والأيوبيين ولم يبخلوا بقدراتهم العسكرية على الأيوبيين، بل وظفوها من أجل التصدي للأساطيل الصليبية، وهذا يبين لنا أن الشعوب الإسلامية دائماً تتفاعل مع بعضها وتنضوي تحت راية الإسلام الجهادية عندما تتعرض الأمة للخطر، ومن الدروس المهمة أن المسلمين تغلبوا بعقيدتهم ودينهم على دعاوى الوطنية الضيقة والقوميات، فنور الدين تركي وصلاح الدين كردي، ويوسف بن تاشفين بربري والخليفة العباسي عربي وكلهم كانوا في جبهة واحدة تحت راية أهل السنة والجماعة.

ويعتبر حماية الأماكن المقدسة من الاعتداءات الصليبية أهم ما قام به الأيوبيون خلال حكمهم[2]، ونستطيع أن نقول بأن صلاح الدين استطاع تكوين جيش بري وأسطول بحري مزود بكل متطلبات القتال من سلاح وعتاد ومؤن، بفضل تلك السياسة الحكيمة التي اتبعها لتنظيم جيشه، والتي قامت على بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم وتطبيق نظام الإقطاع الحربي في دولته ذلك النظام الذي تمكن بواسطته من ضمان الحصول على جيش منظم مزود بكل مستلزمات القتال، وقد ساهم هذا الجيش في تحقيق توحيد الجبهة الإسلامية، تمهيداً لبدء مشروع الجهاد الإسلامي لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام، ولم يعد أمام صلاح الدين أية مشكلات تعيقه عن التفرغ لجهاد الصليبيين واسترداد بيت المقدس[3]، إلا توحيد الجبهة الداخلية وهذا ما سنعرفه في المبحث القادم بإذن الله.

---

(1) بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص: 85.

(2) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف، ص: 44.

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 153.

المبحث السابع
جهود صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية

كانت وفاة نور الدين مفاجأة لم يكن أحد يتنظرها، فبينما دمشق تحتفل معه بختان ولده في عيد الفطر سنة (569هـ)؛ إذ البلاد الإسلامية كلها تفتقده بعد أسبوعين مرة واحدة، وما عرف الخبر حتى انطلقت من عقالها كل الأطماع لا في أسرة نور الدين الأقربين فقط، ولكن في أمرائه وقادته العسكريين أيضاً، وفي الفرنج المحتلين على السواء، كُلٌّ سعى ليستفيد أقصى الفائدة من غياب الرجل الذي كان يمسك حتى وفاته بمصير المنطقة والفرنج جميعاً بين يديه بمهابة وشجاعة وبتقى وبُعد نظر، ترك نور الدين دولة مترامية الأطراف تمتد من برقة واليمن إلى الشام والجزيرة والموصل، وإذا استعرضنا شريط الأحداث عقب وفاته مباشرة؛ وجدنا أن الصراع بين القوى قد بدأ، وأن مجموعات القوى تصرَّفت كل منها حسب قوتها[1].

ـ **فالأسرة الزنكية في الموصل:** كان ممثلها ونائب نور الدين فيها سيف الدين غازي ـوهو ابن أخيه ـ وكان قد جمع جيشه لمعاونته في حرب الفرنج، فإذا به يتَّجه إلى «نصيبين» فيملكها، ويرسل الشحن إلى «الخابور» فيملكه ويقطعه، ثم يسير إلى «حران» فيحاصرها أياماً، ويملكها بعد أن استسلم حاكمها «قايماز الحراني» مملوك نور الدين، ثم يحاصر «الرها» ويملكها من الخصي خادم نور الدين، ثم يرسل إلى الرقة من يتسلمها على الفرات، وإلى «سروج». وهكذا أضحت مدن الجزيرة بيده، عدا «قلعة جعبر»، فقد أعاد المكوس وتسامح في أمور اللهو والشراب[2].

ـ **والأمراء في دمشق تمسَّكوا بالطفل الملك الصالح الذي خلفه صلاح الدين وعمره** 11سنة واتفقوا أن يكونوا يداً واحدة، وجعلوا الأمير ابن المقدم كالرئيس على جماعتهم حين أعطوه أتابكية الطفل، أي الإشراف على تربيته[3].

ـ **والأمير شمس الدين ابن الداية مع أخويه كان يحكم حلب،** فبقي مقطوعاً ما بين الزنكيين في شرقه ومجموعة دمشق. وإن كان صديقاً لصلاح الدين وميله معه[4].

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 145.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 46، كتاب الروضتين (2/ 327).

(3) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 146.

(4) المصدر نفسه، ص: 146.

ـ وأما الفرنج فانتهزوا الفرصة فوراً، وهاجموا حصن بانياس عند مدخل الجولان الجنوبي «آخر شوال سنة (569هـ/مايو 1174م)» وأرسلت أرملة نور الدين ـ بشجاعة تفوق شجاعة معظم النساء ـ على قول وليام الصوري ـ تطلب رفع الحصار، ومنح البلد هدنة مؤقتة ودفع مبلغ كبير من المال، ورفض الملك واستمر يحاصر بانياس أسبوعين، ودمّر فيها آلاته، وأخيراً قبل المال مع إطلاق سراح الفرسان الصليبيين الأسرى وعاد ليموت بعد ذلك ويتولى بدلاً منه ابنه المجذوم الفتى بغدويه الرابع[1]. وهذه هي رواية الفرنج. أما المصادر العربية فتذكر أن ابن المقدم خرج إليهم بوصفه الأتابك وهادنهم على أن يؤدي مبلغاً ضخماً من المال، ويطلق الأسرى الفرنج ويهادنوه، ويبدو بوضوح أن زوجة نور الدين، وهي ابنة الأتابك أنر، كانت ذات نفوذ في دمشق وبمكان رئاسة بوصفها أم الملك، ولهذا كانت الرسالة باسمها والأتابك ابن المقدم هو قائد الجيش والمدبّر لأمور الدولة، وقد اتّفق مع الفرنج على: الهدنة وقطع مواد الحرب والفتنة[2].

ـ وأما صلاح الدين في مصر، فقد وصله الخبر عن طريق الفرنج، فلم يصدقه، وكتب إلى نور الدين يقول ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوّر بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر وضاق الصدر . . فإن كان العياذ بالله قد تم . . فما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها. فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها، ولا تنازعوا فتفشلوا فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، ولهذا البيت منّا ناصر لا نخذله، وقد كانت وصيته إلينا سبقت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبُلت وإلا فنحن لهذا الولد يد على من عاداه، وإن أسفر الخبر عن معافاة الغرض المطلوب[3]، فورد عليه الكتاب من أمراء دمشق بتوقيع الملك الصالح يقول: أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر السيد الأجل وعظّم الله أجرنا وأجره في والدنا، السيد العادل، وقد اجتمع أمراء الحضرة على البيعة المؤكدة والأيمان المغلظة للملك الصالح وما ها هنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله، فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل ﷺ إلا عليه (أي صلاح الدين) وسكونه إلا لمثل هذا الحادث الكارث، وقد أمّله ليومه وغده ورجاه لنفسه وولده[4]. . . وهل سوى السيد

---

(1) وليام الصوري (20/ 973)، صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 146.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن: صلاح الدين، ص: 146.

(3) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 147.

(4) كتاب الروضتين (2/ 587).

الأجل الناصر من ناصر[1]. وكان أمراء دمشق يريدون تطمين صلاح الدين من جهة ليبقى بعيداً وتحديد عمله بقتال الفرنج فقط من جهة أخرى، لأن نور الدين كلّفه ذلك وكانوا يعرفون قوته ويخشون تدخله. أما صلاح الدين فجلس للعزاء ثلاثة أيام، وكتب للملك الصالح يعزّيه وجاء في آخر الكتاب: وأما العدو ـ خذله الله تعالى ـ فوراءه من الخادم من يطلبه ليل نهار إلى أن يزعجه في مجاثمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم . . . وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، والله تعالى يخلد المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه ومضاعفة ملكه[2]. وقد جاء في كتاب آخر بعد ذلك: الخادم مستمر على ما بدأته من الاستشراف لأوامرها والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها والتحقق بخدمتها، والترقب لأن يؤمر فيمتثل ويكلف فيحتمل، وأن يُرمى به في نحر عدوه فيتسدد، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده[3].وضرب السكة باسم الملك الصالح، وأرسل له منها وخطب باسمه على المنابر[4].

ـ **مراقبة صلاح الدين للأحداث في الشام والعراق:** بقي صلاح الدين يراقب الأحوال في الشام والعراق، وحين سمع أخبارها وهو في مصر صار يكتب محتجاً تارة وناصحاً أو مشيراً تارة أخرى:

ـ **سمع بما اقتطعه سيف الدين غازي من مملكة عمه،** فأرسل إلى الملك الصالح يعاتبه، إذ لم يُعلمه بذلك ليحضر في خدمته ويرد سيف الدين عن مقصده[5].

ـ **وسمع بهجوم الفرنج على بانياس والهدنة التي اشتراها ابن المقدّم منهم بالمال الكثير؛** فاستنكر المعاهدة وكتب إلى جماعة من الأعيان وإلى ابن المقدم وإلى القاضي ابن أبي عصرون في دمشق: يقول: لما بلغني وفاة المرحوم خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر، فبلغني حادث الهدنة المؤذنة ببذل الإسلام . . وسيدنا الشيخ أولى من

(1) المصدر نفسه (2/ 586)، صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 147.

(2) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد، ص: 148.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن: صلاح الدين المجاهد، ص: 148.

(4) الباهر، ص: 162، 163، صلاح الدين المجاهد، ص: 148.

(5) الكامل في التاريخ (11/ 405، 406).

جرِّد لسانه في إنكار هذا الأمر، فإنه بلسانه تُغمد السيوف وتتجرّد الحقوق[1]. وأدرك صلاح الدين من هذا مبلغ ضعف أمراء دمشق .

ـ وسمع بالخلاف ما بين أمراء دمشق وابن الداية في حلب، ثم تمكّن القائد (شاد بخت) ـ قائد قلعة حلب ـ من التآمر مع ابن المقدّم، ونقل الملك الصالح إلى حلب، وتدبير مؤامرة قبضوا بها على ابن الداية غدراً ـ بعد أن وعدوه بأتابكية الدولة ـ وعلى أخويه وأودعوهم السجن بعد ضربه بالأيدي والأرجل، ثم غضب ابن المقدم أخيراً وهو بدمشق، فكتب إلى صلاح الدين يستدعيه للتدخل ومكث صلاح الدين ثلاثة أشهر ونصف الشهر في مصر بتربّص 15/ شوال حتى مطلع صفر سنة (571هـ)، ولم يكن يكلّ من المكاتبة، وهو مشغول بأمرين: حركة كنز الدولة في الداخل، والهجوم النورماندي الصقلي على الإسكندرية وكلاهما خطر كبير، وحين انتهى وجد أن حادثة القبض على ابن الداية دليل أخير على أن الأمراء في الشام سائرون مع أنانياتهم ومصالحهم وتنافساتهم ولم يرعوا رغبات نور الدين نفسه: وكان صلاح الدين يعتقد بأن ولد نور الدين يتولاه بعد أبيه مجد الدين ابن الداية، وإخوته في حلب وهم أصدقاؤه وحلفاؤه[2]، ويطمئن إليهم ولكنّ ضربهم واعتقالهم غدراً جعله يقول: أنا أحق برعي العهود والسعي المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرّقت الكلمة المجتمعة، وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام، وكتب إلى ابن المقدم وهو صاحب دمشق ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترؤوا على أعضاء الدولة، وأركانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضرُّه ضرُّهم وضرُّها، فكتب إليه ابن المقدّم يردعه عن هذه العزيمة ويقبح له (التفكير بذلك) ويقول: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت غرسك وربّاك وأسّسك، وأصفى مشربك وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دسته أجلسك فيما يليق بما لك ومحاسن أخلاقك وخلّانك غير فضلك وأفضالك[3]. ووقع صلاح الدين في حيرة بين الاستجابة لواجب الوفاء لبيت نور الدين وبين نار الاتهام بالطمع فيه، ويبدو أن كثرة المكاتبات التي وصلته من أكابر الشام ووجوهه من دمشق وشيوخها حسمت حيرته وقرر التدخُّل، ولو لم يفعل والناس قد نقلوا آمالهم من نور الدين بعد وفاته إليه، وعلّقوا عليه الآمال، لم يكن صلاح الدين اليوم شيئاً مذكوراً، وكان اسماً من أسماء الأمراء العابرين في عصره[4].

لم يكن صلاح الدين منذ أواخر عهد نور الدين مجرّد قائد بارز بين أمرائه، ولكنه

(1) كتاب الروضتين (2/ 589)، صلاح الدين المجاهد، ص: 149.

(2) سنا البرق (1/ 168)، صلاح الدين، ص: 149.

(3) المصدر نفسه (1/ 234)، المصدر نفسه، ص: 150.

(4) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد، ص: 150.

أضحى مؤسسة عسكرية تابعة له، وأسرة متعاونة من القادة؛ كان فيها أولاً شيركوه ونجم الدين أيوب، ثم صلاح الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ثم إخوته، وبرز منهم توران شاه وطغتكين وأبو بكر ـ العادل ـ وبوري، وبعض أبناء أخي صلاح الدين، ابن عمه، بالإضافة إلى بعض أولاد صلاح الدين: الأفضل علي والظاهر غازي والعزيز عثمان، فهم ثلاثة أجيال من القادة وضعوا أنفسهم في خدمة نور الدين وحملوا لواءه، وقد جمعهم نور الدين بنفسه بعضهم مع بعض ليتعارفوا بسبب رابطة القربى بينهم، وكان نور الدين واثقاً من صلاح الدين ومن تعاونهم معه وسيطرته عليهم كمجموعة في مصر، وواثقاً أيضاً من حسن تأتّيه للأمور[1].

ولم تكن قوة صلاح الدين في هذا وحده، ولكنها كانت أيضاً في غنى مصر ومواردها من الاقتصاد ومن البشر، وكانت الأرض التي صارت إقطاعه أوسع وأكبر في المدى والغنى من مملكة نور الدين الأصلية نفسها في الشام والجزيرة وكانت إمارته وحدها ولها من برقة إلى النوبة إلى اليمن، وهكذا كان وضع صلاح الدين لا يشبه وضع القادة الآخرين لنور الدين، ويفوقهم قوة وغنى ومكانة، وأولاد الداية الثلاثة لم يبرز منهم غير واحد، ولم تتح له الفرصة التي أتيحت لصلاح الدين؛ الذي كانت مصر بمثابة المجمع أو المختبر الذي برزت فيه قدرات الأسرة الأيوبية وكان صلاح الدين يدرك هذا جيداً كما يدركه الأمراء الآخرون[2].

وحين اجتمع أمراء دمشق على التعاون يداً واحدة ومنابذة صلاح الدين: الشيخ إسماعيل خازن المال، والحسين الجراحي، وشهاب الدين العجمي والطواشي حسام الدين ريحان، وعلى رأسهم ابن المقدم بحضور القاضي كمال الدين الشهرزوري، وقال القاضي: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة أن يشاور في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر .. أخرجنا وتولّى هو خدمة الملك الصالح .. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا[3]... وظنّوا أنه إذا دخل البلاد أخرجهم منها[4]، وتفرّغ صلاح الدين من مهامه في مصر بعد أن أساءه وأغضبه ما كان يجري، وبخاصة ما جرى بحلب من شقاق سنّي ـ شيعي، وغدرهم بصديقه ابن الداية، وكان

---

(1) صلاح الدين المجاهد والملك الزاهد، ص: 151.

(2) المصدر نفسه، ص: 151.

(3) كتاب الروضتين (2/ 589)، صلاح الدين، ص: 151.

(4) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 151.

قد كتب إلى ابن المقدم في دمشق وإلى الأمراء: لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي به مثل ثقته بي لسلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرَّدتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته وأُجازي أنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلًّا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده[1]. وهكذا اعتبر نفسه مسؤولاً عن دولة الملك الصالح وحسن حمايته وحمايتها[2]، وكتب إلى الأمراء بحلب ينذرهم بقدومه إلى الشام، فكتبوا إليه يسيئون الأدب[3]، ويبدو أنهم ظنُّوا أنه يغادر مصر. وكتبوا إلى صاحب الموصل يطلبون إليه الحضور إلى دمشق ليملكها قبل صلاح الدين، فظنَّ ذلك مكيدة منهم ولم يلبِّ طلبهم وألحَّ أهل دمشق على ابن المقدم ـ الذي عاد إليهم ـ بدعوة صلاح الدين لئلا يستولي كـ (مشتكين) الذي استأثر بحلب على دمشق أيضاً، وكثرت المكاتبات التي وصلته للحضور إلى الشام، فقرّر صلاح الدين ذلك[4].

أولاً: ضم دمشق:

بعد أن استتبَّ الوضع الداخلي في مصر، تجهز صلاح الدين للزحف نحو بلاد الشام بعد خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود، وقد خرج من القاهرة في «شهر صفر عام (570هـ)» شهر أيلول عام (1174م) على رأس سبعمائة جندي، ورافقه سيف الدين طغتكين وتقي الدين عمر، وعز الدين فروخ شاه، وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر أثناء غيابه، كما احتاط للمحافظة عليها، فوزَّع بعض عساكره على ثغورها ومداخلها[5] وقطع الطريق متمهلاً جداً في ثلاثة أشهر بين أول صفر ونهاية ربيع الثاني سنة (571هـ) وتوقف على الطريق في بلبيس، وتفقد حصن أيلة ربيع الثاني سنة (571هـ)، وتوقف على الطريق في بلبيس وتفقَّد حصن أيلة (العقبة)، هل كان يفكر في ما سوف يشيعه الأمراء والزنكيون في اتهامه بالعقوق وبالطمع الشخصي؟ أم كان يتأنى وهو يرسم الخطة لكسب أمراء نور الدين دون حرب أو نزاع؟ أم كان يقيس مدى شعبيته لدى الناس بهذا الجيش القليل، فيأتي الشام، كالأعزل وجيشه في مصر؟ أم كان يتحدَّى الذين يريدون عزله في مصر والانفراد بإرث نور

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 152.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 152.
(3) المصدر نفسه، ص: 152.
(4) المصدر نفسه، ص: 152.
(5) تاريخ الأيوبيين في مصر، ص: 56.

الدين وولده؟ أم كان يمهِّد بهدوء لدخول البلاد سلماً بالاستناد إلى محبته الشعبية[1]، أفكار كثيرة يمكن أن تَرِد إلى خاطره، ولعلَّ أشدَّها أن أعداءه سيظنون به الظنون ويركبونها، ويشنعون عليه بالمطامع الشخصية، فقد كتب كتاباً بالإنشاء الفاضلي قال فيه: إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة والمحبة تظهر آثارها عند تكاثر العداة وبالجملة فأنا في واد والظانون بي ظن السوء في واد ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولا لمن ألقى السلاح إنك جارح وما مرادنا إلا مصلحة تؤثر، لا فتنة تثار، فلو زدنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب، فلا يحمل أمرنا إلا على أحسنه ولا يظن بنا إلا الخير الذي طَبْعنا أخص بوجوده من معدنه[2]، وقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى الخليفة المستضيء يوضح فيها سبب زحفه على بلاد الشام وكان الهدف من الرسالة إضفاء الصفة الشرعية للعمل الذي يقوم به، وكذلك لإشعار الخلافة العباسية بولائه لها[3] فذكر :

1 ـ خطاب صلاح الدين الموجه للخليفة العباسي:

أرسل السلطان صلاح الدين الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلاد جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطبة العباسية بها يقول في أوله للرسول: فإذا قضي التسليم حقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فليعُد حوادث ما كانت حديثاً يفترى وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلَّه يشرح منا صدراً وليوضح الأحوال المستبِرّة فإن الله لا يُعبد سِراً.

ومن الغرائب أن تسير غرائبٌ ... في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس أقتل ما يكون لها الصَّدى ... والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصِّفاح بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصدير. ولا بد أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 153.

(2) سنا البرق الشامي، نقلاً عن: صلاح الدين الملك المجاهد، ص: 156.

(3) دور المدن الفلسطينية في مقاومة الغزو الصليبي، ص: 53.

القلوب. وما كان العائق إلا كُنَّا نتنظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق يشاكل إيجابنا للسَّبْق، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكُفَّار . . . متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا، فأي مدينة فُتحت أو مَعْقِل مُلك أو عسكر للعدوّ كسر أو مصاف للإسلام معه طُرب لم نكن فيه. فما يجهل أحدٌ صُنعاً ولا يجحد عدونا أنَّا نعطي الجمرة، ونملك الكَرَّة ونتقدم الجماعة ونُرتِّب المقاتلة، ونَدبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرُها، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دَوْلتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة، وإن كان مسماة فإنها متحاماة، وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعْبَدُ من دون الله وتعظَّم وتضخم، فتعالى عن شبه العباد، وويلٌ غُرَّة تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت همَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا، وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسُل باستنجاد الفرنج قطعت «و لكل أجل كتاب» ولكلٌ أمل باب. وكان في تقدير الله أنَّا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فَغَدرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتبَنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان بأنَّا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد، فسرنا بالعساكر المجموعة وأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهّد لنا بها أمران وتقرّر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكّ إسارهم، وإقالة عِثارهم[1]، ففعل الله ما هو أهله وجاء الخير إلى العدو فانقطع حَبْلُهُ وضاقت به سُبله وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره،

(1) أي: عثارهم.

وخفقت عليها صُلْبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من أن يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلماتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السِّرِّ فيهم من العزيمة في الجهر وبها راجل من السُّودان يزيد على مئة ألف، كلهم أغتام[1] أعجام «إن هم إلاَّ كالأنعام» لا يعرفون ربًا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلاَّ ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النَّصرانية موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تلطَّف في الضَلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتله، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النَّحل، ودوله قد كبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خَطرَات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل الفرائض على عادة جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكُفْر سُمي بغير اسمه وشرع يُتستَّر به ويُحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبادر للشّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قُدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بلبْيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدو المجهر[2] والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرًّا في مئتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصلِّبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من كل مكان قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظَّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم ومن ذُرِّية قد تفرقت شِيعُه وتمزقت بدعه وخفتت دعوته، وخفيت ضلالته، فهناك تمّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة والرفع للواء الأسود المعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر لهلاكه وفنائه، وبرأنا من عُهدة يمين ثم يمين كان إثم حِنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق

---

(1) أغتام، مفردها أغتم وغتمى ،الغتمة : عجمة في المنطق.

(2) كتاب الروضتين (2/ 361).

هلاك شخصه هلاك دولته، ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركبا وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً وملكنا رقابهم قهراً وقسراً[1]، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذ أُخذت من أيديهم ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذ ملكها أعاد بهم، فمنها ما حُكِّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولي على أصلها ومشاعر الله أن يسكنها غيُر أهلها، ومقام الخليل ﷺ، أن يقوم به من نَارُه غيرُ برد وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القَلعة وصارت مَعْقلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد وغيرهم من عُبَّاد العباد.

ثم قال: وكان باليمن ما عُلِم من ابن مهدي الضَّال الملحد المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالبُهُ النبي عليه الصلاة والسلام لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل مالا يقر المسلم عليه نفس، ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها[2]، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجح الله فيه القصد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية وإلى ما يقتضيُ الإسلام عُذرته متمادية. ولنا في المغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهَم قد أمر[3] وملكهم قد عُمر، وجيوشهم لا تطاق وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرنا إليها عسكراً بعد عَسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قَفصة، قسطيلية، تَوْزَر، كلُّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بأمر الله ـ أمير المؤمنين سلام الله عليه ـ ولا عهد للإسلام بإقامتها وينفُذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها. وفي هذه السنة كان عندنا وَفدٌ قد شاهده وفود الأمصار ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَعَ والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية، فأمَّا الأعداء المحدقون بهذه البلاد والكُفَّار

(1) كتاب الروضتين (2/ 361).

(2) أي أهلكها.

(3) أي قد تمّ.

الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشّداد، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدّهر وشربت، وقائم النصرانية التي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبتَ، جرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات[1] ظاهرة وبِرّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعة واحدة نوبتين، بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السّلاح والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّ ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها. ومن هؤلاء الكُفّار هذا صاحب صقلّية، كان حين علم بأن صاحب الشّام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغُلبا وقسرا وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوّته المستقلّة فعمّر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثّر عِدّته، وينتخب عُدّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثلُ حمله، ولا ملأ مدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا أقليم بل أقاليم نَقلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة والجنوية كلّ هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تُطاق ضراوة ضَرّهم، ولا تطفأ شرارة شَرّهم، وتارة يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصُر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المُسالمة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثرُ وَهُم لا يؤثرون. ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية وكنا في تلك السنة على نِيّة الغزاة والعساكر قد تجهّزت والمضارب قد برّزت ونزل الفرنج بانياس وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فُرصة مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد وتوافق إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمع إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية وأمراء الدولة النُّورية قد سجن كبارُهم، وعوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف[2]، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقّدس إن لم تتيسّر

(1) كتاب الروضتين (2/ 365).

(2) كتاب الروضتين (2/ 365).

الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتت عروقه واتّسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدّواب التي بها على الجهاد القوّة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة واليد قادرة، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأطحنا ما في الشام من عقائد مَعتلّة، وأمور مختَلّة وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فإنّا به أولى من قوم يأكلون الدّنيا باسمه ويُظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه. والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة ويحفظ الألفة ويضمن الرأفة ويفتح بقية البلاد وأن يطبّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه المهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن والمغرب والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولدٍ من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم من السمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه والبيت المقدّس ليس له قرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خَصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقرْنا لا يزال محرم السيف حتى يجلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كل مؤمن تحت بُرْده واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده[1]. ومن كتاب آخر فاضلي جاء فيه: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام؛ المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشّام وَوَعْره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الأمور أمور، واشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكّمت الآراء الفاسدة وفُورقت المحاجُ القاصدة، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكُفّار محمولة إليها جِزَى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرُّق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أنّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسيّروا الصّليب ومن كُسى مذابحهم بقمامة وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ونفّذوا البطارقة، والقسّيسين، برسائل صُوَرٍ من يصورونه ممن يسمُّونهم القِدّسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارطه وإن كلاً من صاحب قُسطنطينية، وصاحب صِقِلّيه، وملك الألمان وملوك ما وراء البحر،

---

(1) كتاب الدولتين (2/ 367).

وأصحاب الجزائر، كالبندقية والبيشانية والجَنوية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيل القوية، والإسلام يا أمير المؤمنين أعزُّ ناصراً، لا سيما وهم ينصرون باطلاً، وهو ينصر حقاً وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلقاً[1]، وقد استجاب الخليفة لمطالب صلاح الدين وأنعم عليه بحكم مصر والشام وأرسل إليه رسل دار الخلافة عندما كان يحاصر حماه في عام ((570هـ/ 1174م) تحمل التشريفات والتقليد والتمليك، والتفويض[2]. وهذا دليل على رغبة الخلافة العباسية في التعامل الصادق مع صلاح الدين الذي رأت فيه الشخصية التي سوف تملأ الفراغ الذي تركه نور الدين محمود، واعتراف له بالسلطنة، وأنه أصبح الشخصية المؤهلة للدفاع عن المسلمين، وقد أضفى هذا التقليد عليه المهابة أمام الأمراء المسلمين بعامة، والصليبيين بخاصة، والواقع أن صلاح الدين على الرغم مما توافر له من القوة، كان بحاجة إلى مساندة الخلافة في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين وبخاصة الزنكيين، لذلك كان يُطلعُ هذه الخلافة على تحركاته ومنجزاته ليكسب تأييدها[3].

2 ـ دخوله دمشق:

وصل صلاح الدين بجيشه إلى دمشق واستقبل استقبالاً طيباً وفتح له ابن المقدم في اليوم التالي، أبواب المدينة وسلّمها له، وامتنعت عليه القلعة وكانت بيد خادم اسمه جمال الدين ريحان، فاستماله صلاح الدين وأقنعه بتسليمها له، وهكذا ضمّ صلاح الدين دمشق وقلعتها بحجة حماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، والأمراء الطامعين، واستردَّ الأملاك التي استولى عليها سيف الدين غازي أمير الموصل والجزيرة[4]، واعتمد صلاح الدين في دمشق سياسة تأييد الناس له فأمر بإنفاق الأموال على الناس وإبطال الضرائب، وإزالة المكوس، وإطابة النفوس، وأكرم العلماء لما كان لهم من تأثير كبير على العامة حيث زار دار القاضي كمال الدين الشهرزوري وأزال سوء التفاهم بينهم[5]، وأجابه القاضي الشهرزوري بقوله: طب نفساً فالأمر أمرك والبلد بلدك[6]، فكانت كلمات القاضي إعلاناً للدمشقيين بالتسليم المطلق لصلاح الدين والانقياد له، فأعلنوا فرحتهم وسرورهم[7]، وسلموا مقاليدهم

(1) كتاب الروضتين (2/ 368).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام، ص: 84.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) المصدر نفسه، ص: 56.
(5) دور المدن الفلسطينية في مقاومة الغزو الصليبي، ص: 53.
(6) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (4/ 243).
(7) المصدر نفسه (4/ 243).

إلى صلاح الدين، وقابلهم بالإكرام والترحيب وأظهر السرور بهم[1]. وألقى صلاح الدين كلمة في أهل دمشق قال فيها: إن الله ملكنا دمشق عناية لا عنوة، ولم يكتب فيها بحمد الله إلى خطيئة خطوة ولا حدثت عثرة فيقال في أمرها لعله يقال ولا استعبدت حقه في ذكرها لعله يقال: . . فعلموا أن الهيثم تذره الرياح والصريم يمحوه الصباح والسيف أصدق إنباء والحق أعز بناء والباطل يضمحل عناء، والزبد يذهب جفاء، إلا وأنا رأينا العفو أقرب للتقوى وأمثل في سلوك الطريقة المثلى، فحفظنا الدماء في أهبتها وأرحنا القلوب من نصبها وأبقينا السلطنة في منصبها، ورددنا السيف عن قرب نقيضها في قربها وتركنا الرياح وأطرافها تضطرم وستضطرب وقداً، وقلنا لنار الغيظ يا نار كوني برداً، ونظرنا في أحوال البيت النوري أعلاه الله فإذا قد أطفأت مصابيح نوره، وكاد ذكره في الذهاب يلحق بمذكوره[2]. وبعد ضم دمشق أخذ صلاح الدين ينفِّذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام، فمصر، ليتمكن بعد ذلك من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكاً[3]. ولما حصل على دمشق وقلعتها واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان وعفى آثار الظلم والعدوان وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب والمحرمات[4]. ثم تابع تقدمه باتجاه الشمال لمناوأة كمشتكين في حلب، بعد أن عيَّن أخاه طغتكين والياً على دمشق، فضمَّ حمص وتقدم باتجاه حلب، بعد أن استعصت عليه[5] القلعة.

3 ـ مهاجمة حلب:

تولى الملك الصالح إسماعيل الحكم بعد وفاة والده، ولما كان صغيراً لا يفقه تدبير شؤون الحكم، لذلك كان وجوده على رأس السلطة اسمياً فقط، بينما تمكن أعوانه من التلاعب بمقدرات الدولة ونقلوا مركز الحكم من دمشق إلى حلب[6]، ومن حلب، بدأ كمشتكين، الوصي على الملك الصالح والمتفرد بحكم المدينة تنفيذ سياسة خاصة تقضي بتثبيت نفوذه، فاعتقل ابن الدايه وراح يخطط لإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل

(1) النجوم الزاهرة (1/ 25).
(2) سنا البرق الشامي، ص: 77، الفكر السوقي الأيوبي، ص: 77.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام، ص: 56.
(4) كتاب الروضتين (2/ 344).
(5) الكامل لابن الأثير، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 56.
(6) كنز الدرر (7/ 58-59).

فعندما تقدم صلاح الدين إلى حلب، بعث إليه كمشتكين كتاباً، اتهمه فيه بحبه للغزو والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح[1]. والواقع أن صلاح الدين وقف على نوايا كمشتكين وغاياته، فكان يراسل الملك الصالح لتوضيح الأمر له وإبداء النصح منعاً لتردي العلاقات بينهما[2]، ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله، كما كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه، وليس أدل على ضعف الملك الصالح وتلاعب كمشتكين بمقدراته أنه على الرغم من معارضته لاعتقال عز الدين جورديك، أمير حماه ورسول صلاح الدين إليه لعقد صلح بين الطرفين، إلا أن كمشتكين لم يأبه لهذه المعارضة، فقبض على جورديك وأثقله بالحديد وعذّبه ووضعه في الجب الذي وضع فيه أولاد ابن الداية[3]، ولذلك كان من الطبيعي أن يتوجه صلاح الدين إلى حلب لإنقاذ رسوله والملك الصالح من قبضة كمشتكين وضمِّ حلب إلى أملاكه، ونظراً لأهميتها في مخططه القاضي بتوحيد القوى الإسلامية أغلق كمشتكين أبواب حلب في وجه صلاح الدين الذي شرع في 3 جمادى الآخرة عام (570هـ/ 30كانون الأول) عام (1174م) في حصارها[4]. وكان أهلها يميلون إلى الإذعان له باستثناء الشيعة فيها. وناشدهم الملك الصالح أن يحافظوا عليه من رجل يريد أن يسلبه إرثه، فاشترطوا لمؤازرته أن:

- يخصَّص الجانب الشرقي من الجامع لهم.
- يُعاد الأذان بـ «حي على خير العمل» وأن يُذكر ذلك في الأسواق.
- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.
- يكبَّر على الجنازة خمساً.
- تعود عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني .

وافق الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين[5] حدث هذا في الوقت الذي لجأ فيه كمشتكين إلى الاستعانة بالحشيشة والصليبيين، لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب

---

(1) مرآة الزمان (8/ 327)، تاريخ الأيوبيين، ص: 57.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 57.
(3) زبدة الحلب في تاريخ حلب (2/ 520).
(4) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 57.
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 58.

استجاب سنان زعيم الشيعة الباطنية الإسماعيلية وبعث بجماعة من الفدائيين في جمادى الآخرة 570هـ/ كانون الثاني 1175م لقتل صلاح الدين متنكرين بزي الجند، فتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمته وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم ولكن انكشف أمرهم ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال[1]، وبعد أن فشل الشيعة الإسماعيلية في اغتيال صلاح الدين أرسل كمشتكين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من تعاظم قوة صلاح الدين، إذ لم يكن بوسع الصليبيين أن يمنعوا وحدة دمشق والقاهرة، غير أن حلب ما زالت على الأقل خارجة عن الاتحاد، وهكذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب وبقاءها في يد البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن[2]، وحاول ريموند الثالث الالتجاء إلى الوسائل السياسية فأرسل إلى صلاح الدين يرغِّبه في الصلح ويلوِّح له بأن: الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة. ولكن صلاح الدين لم يخشَ التهديد، وردَّ على ريموند الثالث بالإغارة على أعمال أنطاكية[3]. عندئذ لم يجد الحاكم الصليبي وسيلة لإبعاد صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص، فظهر أمامها وشرع يهاجم أسوارها، تسانده الحامية المرابطة في القلعة التي ظلت على وفائها للزنكيين، وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب وارتحل عن أسوارها لإنقاذ حمص غير أن ريموند الثالث لم يمكث ليلتقي به فعاد إلى حصن الأكراد بعد أن تأكد من تحقيق غرضه[4].

ولما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك وضمَّها إلى أملاكه في (4 رمضان 570هـ/ 30 آذار 1175م)[5]. كان أمراء حلب يعرفون أن صلاح الدين أقوى منهم مادياً ومعنوياً، فقد أخطؤوا بالتخطيط للتعامل معه، واعتمدوا على إمكان إثارة ثلاث قوى معهم ضده: الموصل، والفرنج، والإسماعيلية؛ ولذلك أرسلوا رسولاً هو قطب الدين ينال بن حسان المنجي برسالة تبرق وترعد، ومع أن صلاح الدين استقبل الرسول بنفسه بالترحاب ثلاثة أيام؛ إلا أنه أدّى الرسالة في النهاية قائلاً: إن السيوف التي ملّكتك

---

(1) مفرج الكروب (2/ 824).

(2) الحركة الصليبية (2/ 744)، تاريخ الزنكيين، ص: 58.

(3) كتاب الروضتين (2/ 350 أ 351).

(4) تاريخ الزنكيين في مصر وبلاد الشام، ص: 59.

(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 59.

مصر ما تزال في أيدينا والرماح التي حويت بها قصور الفاطميين على أكتافنا والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر؛ هي تردُّك، وعمّا تصديت له تصدّك فقد تعديت طورك وجاوزت حدك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده[1] ولم يُجبْه صلاح الدين على هذا كله، بل ضرب عنه صفحاً وَتغاضياً، وخاطبه بكلام رقيق؛ وقال: يا هذا اعلم أني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين؛ فقال ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك. ودون ما ترومه خرط القتاد، وإيتام الأولاد؛ فتبسم صلاح الدين وأومأ لرجال بإقامته من بين يديه، وتماسك بعد أن كان يسطو عليه؛ وقال له: والله ما جئت إلا لأستنقذ هذا الملك الصالح من يد أمثالك، فأنتم سبب زوال دولته عليه[2].

لقد رفض كمشتكين الانقياد لصلاح الدين وبذل ما في وسعه للتصدي له ومن العمليات الذكية التي استخدمها كمشتكين ضد صلاح الدين:

ـ لعب على الخلاف الطائفي وفاوض الفريق الشيعي في البلد، وتملّقهم، فاشترطوا عليه أمور تمّ ذكرها مما كان نور الدين قد منعه من قبل فسمح لهم بكل ذلك ليدافعوا عنه[3].

ـ لعب بعواطف الجمهور، فجمع الناس وكان فيهم الشيعة بالطبع وأخرج إليهم الملك الصالح الصبي، فخطب فيهم بما وضعه كمشتكين على لسانه: يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابُكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد... ثم خنقته العبرة وعلا نشيجه، فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم وضجُوا بالبكاء والعويل؛ وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه[4]. ولم يستطع الحلف الحلبي، والموصلي والإسماعيلي والفرنجي التصدي لمشروع صلاح الدين التوحيدي ولم يحل شهر نيسان حتى أضحى صلاح الدين يبسط سلطانه على كامل بلاد الشام حتى حماه شمالاً، فانصرف بعد ذلك للعمل على إضفاء الشرعية لوضعه أمام المسلمين، وقد بيّنا

(1) كتاب الروضتين (2/ 346).

(2) المصدر نفسه (2/ 346)، صلاح الدين الملك المجاهد، ص: 159.

(3) صلاح الدين الملك المجاهد، ص: 161.

(4) كتاب الروضتين (2/ 348، 349).

خطابه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ورسالته الطويلة بقلم القاضي الفاضل والتي عدد فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية وبخاصة إعادته الخطبة إلى العباسيين في مصر، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن، ثم أشار في رسالته، بأنه قدم إلى بلاد الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور وخدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامها تقليداً بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود، وكل ما يفتحه بسيفه[1].

4 ـ معركة قرون حماه:

كان سيف الدين غازي الثاني، صاحب الموصل، يراقب توسعات صلاح الدين في بلاد الشام، وضايقه انتزاعه دمشق وحمص وحماه وبعلبك وأثار غضبه حصاره لحلب في محاولة لضمِّها إلى أملاكه، ثم بدت له الصورة واضحة، فيما إذا استمر صلاح الدين في تقدمه ونجح في ضمِّ حلب، فإن ذلك يشكل تهديداً خطيراً للموصل التي تصبح، بعد ذلك، هدفاً سهلاً له. من هنا أدرك سيف الدين غازي الثاني ضرورة الارتباط مع حلب في حلف دفاعي ضده[2]، وحدث آنذاكَ أن تعرَّض الصالح إسماعيل لضغط صلاح الدين، فاستنجد بابن عمه صاحب الموصل وطلب منه إمداده بالجند، وتمكَّن وفده من إقناعه بضرورة تقديم المساعدة للوقوف في وجه صلاح الدين لأنه متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل[3]. ولم يكن سيف الدين غازي الثاني بحاجة إلى من يستحثه لمواجهة صلاح الدين فقد أدرك أنه متى غفل عنه استملك البلاد، واستقر قدمه في الملك، وتعدَّى الأمر إليه، فبادر إلى جمع العساكر من الموصل والجزيرة وأعدَّ العدة لعبور الفرات إلى حلب، وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني، صاحب سنجار، يطلب منه موافاته بعساكره، لكن هذا الأخير امتنع عن تلبية طلبه بعد أن استقطبه صلاح الدين، ونفخ في روعه أنه أحق من أخيه بالملك لأنه كبير البيت الزنكي، فاضطر صاحب الموصل أن يُخضع أخاه ويوجِّه في الوقت نفسه قوة عسكرية إلى حلب عهد بقيادتها إلى أخيه عز الدين مسعود[4]، عبر عز الدين مسعود الفرات متوجهاً إلى حلب، ولما وصل إليها انضم إليه من كان بها من العسكر، وسار إلى حماه وحاصرها وبعد تداول الأمور رأى الجانبان الأيوبي والزنكي أن المصلحة العامة تقتضي بضرورة التفاهم

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 357-366).

(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 60.

(3) المصدر نفسه، ص: 60، نقلاً عن: كتاب الروضتين (2/ 381).

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 60.

وحقن دماء المسلمين، فجرت مفاوضات بينهما تقرر بنهايتها:

- الإغضاء عن حركة الموصل المعادية لصلاح الدين.

- يتنازل صلاح الدين للصالح إسماعيل عن المدن والقلاع التي انتزعها في بلاد الشام لا سيما حمص وحماه مكتفياً بدمشق، على أن يكون فيها نائباً عنه، منتمياً إليه، والخطبة والسكة له.

- يعيد صلاح الدين كل ما أخذه من الخزانة[1].

أتاح هذه الاتفاق فرصة طيبة للزنكيين لاستعادة نفوذهم في بلاد الشام، وحِفظ هيبة البيت الزنكي. ثم إن قبول صلاح الدين لمبدإ التفاهم كان بهدف حفظ البلاد من التفكُّك والانقسام بعيداً عن المطامع الشخصية، لكن الزنكيين الذين اعتزُّوا بقوتهم وطمعوا في الحصول على مزيد من الامتيازات بعد أن علموا بقلّة عدد أفراد جيشه، طالبوه بالرحبة وأعمالها، فاعتذر عن إجابتهم بحجة أنها في يد ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل إليها[2]، وبذلك لم يسمح صلاح الدين لأي انشقاق يحدث داخل صفوفه، وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل، ففضّل الحفاظ على وحدة صفّه. ونتيجة لهذا الرفض قرّر الزنكيون استئناف العمليات العسكرية، على أن صلاح الدين هزم الجيش الزنكي في مكان يقع عند حدود حماه في وادي نهر العاصي يُعرف بـ (قرون حماه) إلى الشمال من المدينة وذلك في 19 رمضان عام (570هـ/ 23 نيسان عام (1175م، وأسر جماعة من أمرائه ثم أطلقهم، وطارد خصومه حتى أبواب حلب، وحاصر المدينة للمرة الثانية، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح، وأزال اسمه من السكة في المناطق الواقعة تحت حكمه[3]، ومع ذلك لم يشعر أن له من القوة ما يكفي لمواصلة القتال، ومن جهتهم فإن الحلبيين مالوا إلى الصلح[4]، ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الطرفين تقررت الهدنة التي قضت بأن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام وللحلفاء الزنكيين ما

(1) كتاب الروضتين (2/ 378).
(2) المصدر نفسه (2/ 379.
(3) تاريخ الزنكيين في مصر وبلاد الشام، ص: 61.
(4) المصدر نفسه، ص: 61.

بأيديهم، وأن تضاف إلى أملاكه بعض الأراضي الواقعة شمال حماه مثل المعرة[1]، وكفر طاب[2]، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب[3]. وقد ساعد الانتصار الذي حقَّقه صلاح الدين في «قرون حماه» على تثبيت مركزه تماماً في بلاد الشام، كما أضعف مركز مناوئيه ودفعه إلى أن يتلقَّب «ملك مصر والشام» ودُعي له على منابرها، كما سكَّ نقوداً ذهبية باسمه[4].

والواقع أن صلاح الدين كان صادق النية في التعامل الإيجابي مع الملك الصالح إسماعيل، وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقرُّب منه، وعدَّ الصالح من جهته هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة وهي واجبة عليه، وبهذا الرفض الإيجابي لكل محاولة للتفاهم لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يتحلَّل من هذا الولاء وفي هذه الظروف، لم يجد مبرراً لعدم الإقدام على أن يتلقَّب بلقب ملك[5].

كانت أصداء معركة القرون خطيرة بقدر ما كانت نتائجها خطيرة، فإن السلطان ما وصل حماه في طريق العودة حتى وصلته رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام عدا حلب؛ فأصبح السلطان الشرعي والأكبر والأقوى في المنطقة كلها، والوارث الحقيقي لنور الدين في مبادئه؛ وهذا ما أحفظ عليه الزنكيين المهزومين، وزاد في حقد الحلبيين والفرنج معاً، ودفع ذلك كله إلى تجدد القتال وكأنَّ الصلح مع حلب والأمان كان لغواً[6].

5 ـ معركة تل السلطان:

والمحاولة الأخيرة لطرد صلاح الدين. والواقع أن الخلاف بين الأيوبيين والزنكيين لم ينته بانتصار صلاح الدين في «قرون حماه». ذلك أن سيف الدين غازي الثاني لم ييأس عندما تناهى إلى أسماعه أخبار الهزيمة، وأثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة بحكم مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى سك النقود باسمه مما دفعه إلى التفكير بالانتقام ووضع خطة عسكرية تتيح له تطويقه، وتضمن له الفوز، وتصرف على أربعة محاور:

---

(1) المعرة: مدينة كبيرة بين من أعمال حمص بين حلب وحماه.

(2) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، الحموي (4/ 470).

(3) النوادر السلطانية، ص: 94.

(4) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 61.

(5) المصدر نفسه، ص: 61.

(6) صلاح الدين الفارس المجاهد، ص: 170.

- أرسل إلى أمراء حلب يعتب عليهم، ويلومهم على تسرعهم في إبرام الصلح ويحرّضهم على نقضه والتعاون معه في خوض المعركة المقبلة[1].

- أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرض مملكة بيت المقدس، يطلب منه أن يتحالف معه، ويسانده ضد صلاح الدين[2].

- حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين، فأرسل إليه رسولاً بحجة طلب الموادعة وأخذ العهد له، أما المهمة الحقيقية فهي التضليل وكشف ما عنده من نوايا، لكن الرسول أخطأ حين أخرج كتاب سيف الدين غازي الثاني إلى أمراء حلب، فقرأه صلاح الدين، وعرف ما يُبيِّته آل زنكي، مدركاً في الوقت نفسه، أن أمراء حلب قد نقضوا العهد الذي ارتبطوا به معه وأنهم يستعدون لاستئناف القتال[3].

- استقطب كل من صاحب حصن كيفا[4]، وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء التركمان، كما أبدى أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار استعداده للتعاون معه[5].

والواضح أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن هذا المناخ العدائي، وحتى يقطع الطريق على تعاون سيف الدين غازي الثاني، وصاحب طرابلس، عرض على هذا الأخير سلمه وصداقته، إذا وقف على الحياد، وأطلق سراح ما عنده من أسرى الصليبيين كدليل على حسن النية[6]. حشد سيف الدين غازي الثاني أعداداً كثيرة من الجند سار بهم إلى نصيبين[7] في شهر ربيع الأول (عام 571هـ/ شهر أيلول عام 1175م)، وأقام فيها حتى نهاية فصل الشتاء ثم عبر الفرات من البيرة[8]، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين، والملك الصالح إسماعيل، لمساندته. وفعلًا تمّ الاتفاق على أن يتقدم صاحب الموصل نحو حلب، ويجتمع بابن أخيه

---

(1) مفرج الكروب (2/ 36)، تاريخ الأيوبيين، ص: 62.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 62.
(3) المصدر نفسه، ص: 63.
(4) حصن كيفا: بلدة عظيمة مشرفة على دُنَيسر ودارا.
(5) زبدة الحلب (2/ 523).
(6) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 63.
(7) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام.
(8) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة.

ليقرروا معاً الخطوة التالية[1]، واجتمع الطرفان في مكان يعرف بـ «عين المباركة» وتقرّر انضمام جيش حلب إلى جيش الموصل، فبلغ عدد أفراد الجيشين عشرين ألف مقاتل، تحرّك هذا الجيش الضخم باتجاه دمشق في شهر رمضان عام (571هـ/شهر آذار عام 1176م) وتوقف في تل السلطان على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من حلب[2] وقرّر كمشتكين، في هذا الوقت التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يُضعف قوته، لذلك أطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب؛ وبخاصة رينولد شاتيون صاحب الكرك، وجوسلين صاحب الرها كبادرة حسن نية[3]، وتحرّك صلاح باتجاه خصومه، بعد أن تلقى إمدادات من مصر، فعبر العاصي عند شيزر[4] في (شهر شوال/شهر نيسان) ومرّ بقرون حماه حتى وصل إلى تل السلطان، ولم تمض عشرة أيام حتى فأجاه سيف الدين غازي الثاني بعساكره وقد تفرّق عسكره وهم يوردون أفراسهم الماء، حين تردّد حاكم الموصل في الهجوم، وقرّر تأجيل اللقاء إلى اليوم التالي[5]. ولما عبّأ عساكره في صبيحة اليوم التالي في (10شوال/ 12نيسان) لشن هجوم على معسكر صلاح الدين كان الوقت قد فات[6]. واشتبك الطرفان في رحى معركة شديدة، وكاد أول هجوم للقوات الزنكية أن يتكلّل بالنجاح، غير أن صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لرد الهجوم فحطم خطوط خصومه، ولم يحل المساء حتى أضحى سيد الموقف، ومُني الزنكيون بخسارة فادحة، ووقع بعض قادتهم في الأسر، ولكن صلاح الدين منّ عليهم، وأطلقهم[7]، مظهراً مرونة في التفكير السياسي، ويبدو أنه هدف إلى استقطاب هؤلاء وبخاصة أنه كان من بينهم أصحاب مراكز وتأثير، قنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة وقرّر العودة إلى بلاده[8]، ولم يكسب سوى عداء صلاح الدين، وما خلّفه من أموال في معسكره عند انسحابه بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة، وبهذا الانتصار الحاسم تمهّد السبيل أمام صلاح الدين لضمّ حلب ونواحيها إلا أنه لم يشأ في هذه الآونة أن يلاحق فلول العساكر الزنكية، ويحاصر حلب، واكتفى

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 63.

(2) مفرج الكروب (2/ 38)، تاريخ الأيوبيين، ص: 63.

(3) وليم الصوري (2/ 986)، تاريخ الأيوبيين، ص: 64.

(4) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرّة بينهما وبين حماه.

(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 64.

(6) المصدر نفسه، ص: 64.

(7) المصدر نفسه، ص: 65.

(8) النوادر السلطانية، ص: 95، تاريخ الأيوبيين، ص: 65.

بالقيام بشنِّ غارات على أملاك خصومه في المنطقة، بعد أن سيطرت عساكره على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً نتيجة لهذا التشتُّت في الصف الإسلامي، رأى الطرفان ضرورة الدخول في مفاوضات من أجل إحلال السلام، لقطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع، وخدمة لمصلحة المسلمين العامة، ولذلك قدَّم كل طرف بعض التنازلات، واستقر الرأي على الصيغة التالية:

ـ أن يكون الجميع يداً واحدة ضد الصليبيين.

ـ لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.

ـ إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه، فالباقون يداً واحدة عليه حتى يرجع إلى الوفاق.

ـ يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز[1] للملك الصالح.

ـ وعُقدت الهدنة في شهر محرم عام (572هـ/ شهر تموز عام 1176م)[2].

6 ـ وفاة سيف الدين غازي الثاني وتولية عز الدين مسعود الأول:

ويبدو أن تطورات الأحداث في الموصل اتخذت مساراً شدَّ مجدداً اهتمام صلاح الدين، ذلك أن سيف الدين غازي الثاني توفي في شهر صفر عام (576هـ/ شهر تموز عام 1180م)[3]، وقد حدث في عهده شيء عجيب وهو أن الناس خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خرج سيف الدين في موكبه، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمَّارين، وخرَّبوا أبوابها ونهبوها وأراقوا الخمور، وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحِلُّ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نُوّاب السلطان، وخصُّوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له: أبو الفرج الدَّقَّاق، ولم يكن له من الذي فَعَله الناس من النَّهب فعلٌ إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامَّة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شُكي أحضر بالقلعة وضُرب على رأسه، فسقطت عِمامتُه، فلما أُطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل وقال: والله لا غطيته حتى ينتقم الله لي ممن

(1) عزاز : بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما.
(2) مفرج الكروب (2/ 46)، تاريخ الأيوبيين، ص: 65.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 66.

ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدُّزدار المباشر لأذاه، ثم أعقبه مَرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً وكان من أحسن الناس صورة تام القامة، مليح الشمائل، أبيض اللَّون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السَّمين والدقيق، وكان عاقلاً وقوراً، قليل الالتفاف إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً، لم يُذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العِفَّة وكان غيوراً شديد الغيرة، لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إلا كَبُر، إنما يدخل عليهن الخدم الصِّغار، وكان لا يحبُّ سفك الدماء ولا أخذ الأموال مع شحٍّ فيه،[1] وبعد وفاته دخلت الموصل في دوامة صراع على البديل، فقد رأى سيف الدين غازي الثاني أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر وكان عمره آنذاك اثنتا عشرة سنة، إلا أنه خشي على الدولة من بعده من طموحات صلاح الدين بفعل صغر سن ابنه، كما أن أخاه عز الدين مسعود عارض هذا التوجه بحجة أنه أحق بالسلطة وأيَّده أمراء الموصل، وأوضح الأمير مجاهد الدين قايماز لسيف الدين غازي الثاني المخاطر التي ستواجهها الدولة الأتابكية من جراء تولية ولد صغير، في الوقت الذي تزداد فيه قوة صلاح الدين في بلاد الشام، ويبدو أن سيف الدين غازي الثاني اقتنع برأي أمرائه فعيَّن أخاه عز الدين مسعود خَلفاً له[2].

7 ـ وفاة الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود:

كانت وفاته في الخامس والعشرين من رجب من سنة (577هـ) بقلعة حلب ودفن بها وكان سبب وفاته ـ فيما قيل ـ أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سُمًّا في عنقود عِنب في الصَّيدِ، وقيل: بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب وقيل: في خشكنانجة، فاعتراه قولنج، فما زال كذلك حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو شاب حسن الصورة، بهيُّ المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، وكان من أعف الملوك ومن أشبه أباه فما ظلم، وصف له الأطباء في مرضه شُرب الخمر فاستفتى بعض الفقهاء في شُربها تداوياً فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شُربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال لا. قال: فوالله لا أشربها فألقى الله وقد شربت ما حرّمه عليّ، ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلّفهم لابن عمّه عز الدين مسعود صاحب الموصل؛ لقوة سلطانه وتمكنه، ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمّه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حِفظها من صلاح الدين، فلمّا مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين، صاحب الموصل،

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 66.

(2) الكامل في التاريخ (9/ 446، 447).

فجاء إليهم فدخل حَلَب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان، فتسلّم خزائنها وحواصلها، وما فيها من السلاح وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج، فهرب إلى حماه، فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق؛ لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية وأعلموه محبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي فقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا أغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وسار إلى الرّقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار وألحّ في ذلك وتمنع أخوه ثم فعل ذلك على كره منه، فسلّم إليه حلب، وسلّمه عماد الدين سنجار والخابور والرّقة، ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد، ولمّا سمع الملك صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى أتى الفُرات فعبرها وحاصر إليه بعض أمراء صاحب الموصل، فتقهقر عن لقائه، فاستحوذ صلاح الدين على بلاد الجزيرة بكمالها وهمّ بمحاصرة الموصل فلم يتفق ذلك، ثم جاء إلى حلب فتسلمها من عماد الدين زنكي[1].

8 ـ الحصار الأول للموصل:

دفعت التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة والموصل بعد وفاة الصالح إسماعيل صلاح الدين إلى مغادرة مصر، والتوجه إلى الشرق ليكون على مقربة من الأحداث الجارية هناك، ويتدخل عندما تقضي الظروف ذلك، وعدّ تصرف عز الدين مسعود الأول فيما يتعلق بسياسته في حلب، نقضاً للمعاهدة المبرَمة بين الطرفين الأيوبي والزنكي، لأن هذه المدينة وما جاورها من قلاع، تابعة له بحكم تفويض الخليفة، مما يؤدي إلى القضاء على مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى لتحقيقه، لذلك اتخذ عدة إجراءات وهو في طريقه إلى الشرق، لفك ارتباط حلب بما حولها:

أ ـ طلب من ابن أخيه تقي الدين عمر، صاحب حماه، وفروخ شاه، حاكم دمشق، وغيرهما من الأمراء بمهاجمة مناطق غرب الجزيرة، وضمُّها إلى الأملاك الأيوبية ومنع عبور جيش الموصل نهر الفرات، لكن تقي الدين عمر عجز عن منع عز الدين مسعود الأول من دخول حلب، كما كان فروخ شاه منهمكاً في التصدي لمحاولات رينولد شاتيون لاجتياح الجزيرة العربية انطلاقاً من حصن الكرك[2].

---

(1) البداية والنهاية (16/ 553).

(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 69.

ب ـ كتب رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575هـ ـ 622هـ) (1180م ـ 1225م) يشرح فيها بلاءه في الإسلام وجهاده، وما قدّمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية، وأوضح دوره في إسقاط الخلافة الفاطمية، وإعادة النفوذ العباسي إلى مصر، موضحاً له سوء الأوضاع في بلاد الشام، وتعرُّض حارم[1] لهجوم الصليبيين وغدر صاحب الموصل، واعتداء عسكر حلب على أملاكه، واستنجادهم بالصليبيين، ومراسلتهم بالحشيشية بهدف التعاون معهم ضد مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى جاهداً لتحقيقه، وذكّره بأن الخليفة المستضيء بأمر الله قلّده حلب وأعمالها، وأنه لم يتركها إلا من أجل ابن نور الدين محمود، ولا يسعه الآن إلا أن يطالب بحقه؛ وعبّر عن ذلك بقوله: والآن فليرجع كلّ ذي حق إلى حقه، وليقنع برزقه[2]، ومن جهته تحرك عز الدين مسعود الأول باتجاه الصليبيين لاستقطابهم وحثهم على مهاجمة الثغور الإسلامية، ليشغل صلاح الدين عن قصد بلاده، فأبقى هذا الأخير من غدر صاحب الموصل، فقرّر أن يولي اهتمامه لمناطق شمال الشام والجزيرة، ويمّم وجهه صوب حلب والموصل، وانضم إليه أثناء زحفه على حلب مظفر الدين كوكبوري صاحب حرّان، وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على البلاد الواقعة في شرقه قبل التوجه إلى حلب حتى لا تشغله عن غيرها، ووعده بالمساعدة[3].

والجدير بالذكر أن كوكبوري كان على خلاف مع صاحب الموصل ونائبه قايماز الذي كان قد أقصاه عن ولاية إربل[4]، واتجه صلاح الدين نحو حلب، متحصناً ببراءة الخليفة، وحاصرها مدة ثلاثة أيام في شهر «جمادى الأولى/أيلول»، رحل بعدها إلى الموصل لانتزاعها من آل زنكي مفضلاً ضمّ الجزيرة والحصون التابعة لها أولاً. فعبر الفرات عند البيرة، وكان صاحبها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي يدين بالطاعة، ودخل الأراتقة في حصن كيفا وماردين في طاعته، وانضموا إلى جيشه فهوى أمامه مدن الجزيرة، الرها وسروج[5]، نصيبين، والرقة، والخابور وغيرها، فأقطع كوكبوري الرها، وولّى حسام الدين أبا الهيجاء السمين نصيبين، ومنح جمال الدين خوشترين الخابور[6]. وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح في السيطرة على ديار مضر كلها، وتكوين حلف مناهض لإمارة الموصل،

---

(1) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب.

(2) مفرج الكروب (2/ 110-112)، تاريخ الأيوبيين، ص: 70.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 70.

(4) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 70.

(5) سروج : بلدة قريبة من حرّان من ديار مصر، الحموي (3/ 216).

(6) مفرج الكروب (2/ 119) تاريخ الأيوبيين، ص: 71.

ولم يبق أمامه سوى التوجه إلى الموصل لإخضاعها والواقع أن الموصل شكّلت مصدر قلق له، وحجر عثرة أمام تحقيق أهدافه فرأى أنه لا بد من إخضاعها أو على الأقل ضمان تأيدها له وتحالفها معه، وأدرك أنه لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بضم الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر[1]. وصل صلاح الدين إلى الموصل في شهر رجب عام (578هـ/ شهر كانون الأول عام 1182م) وضرب عليها حصاراً مركزاً، ثم ما لبث أن هاجمها، لكنه لم ينل منها، واستعصت عليه بسبب مناعتها، ومتانة أسوارها وبفضل الاستعدادات الضخمة، التي نفّذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز، حيث حشدا العساكر الكثيرة للدفاع عنها: وأظهرا من السلاح، وآلات الحصار ما حارت له الأبصار[2]، وقام صلاح الدين أثناء الحصار بجولة استطلاعية حول المدينة، تأكد له استحالة اقتحامها[3]، وتحرك صاحب الموصل في غضون ذلك يلتمس الحلفاء من كل جانب، فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى بغداد، مستنجداً بالخليفة العباسي لرد صلاح الدين عن بلاده، فكتب الخليفة إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، وكان بصحبة صلاح الدين، يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين[4]. والتمس مساعدة كل من قزل أرسلان صاحب أذربيجان[5]، وبهلوان بن إيلدكز أتابك همذان[6]، وبكتمر سقمان صاحب خلاط[7]، فلم ينجده سوى بكتمر الذي أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الشفاعة والكف عن الموصل[8]، وعلى الرغم من أن صلاح الدين ردَّ رسل بكتمر، إلا أن كل هذه العوامل، دفعته إلى إعادة النظر بخططه لضمِّ الموصل بالقوة المسلحة، ومال إلى استعمال الأسلوب السياسي، ويبدو أنه وجد نفسه في موقف حرج، وخشي أن يفقد مكانته، كمجاهد في سبيل الإسلام، بسبب ظهوره بمظهر الطامع في دولة الموصل، لذلك عرض على عز الدين مسعود الأول الصلح، فطلب هذا إعادة البلاد التي أُخذت منهم، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك بشرط عدم اعتراضه على ضمّ حلب، فرفض صاحب الموصل خيانة أخيه وحرص على التمسك بسيادته على حلب، وأعلن عن استعداده لمساعدته إذا تعرّض للخطر[9].

---

(1) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، الحموي (2/ 138).

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 71.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 71.

(4) مفرج الكروب (1/ 122) تاريخ الأيوبيين، ص: 71.

(5) أذربيجان: إقليم واسع قصبته تبريز، الحموي (1/ 128).

(6) همذان: أكبر مدينة في إقليم الجبال.

(7) خلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة.

(8) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 72.

(9) تاريخ الأيوبيين، ص: 72.

ـ ضَمُّ سنجار: نتيجة لفشل المفاوضات بين الطرفين، رأى صلاح الدين أن يضيِّق الخناق على الموصل وعَزْلها على حلب، وكانت سنجار هي المدينة التي توفر له هذه السياسة لذلك فكَّ الحصار عن الموصل وتوجه إلى سنجار في 16شعبان عام (578هـ/ 15 كانون الأول عام 1182م)، وأخطر الخليفة بما استقر عليه رأيه، فحاصرها مدة خمسة عشر يوماً حتى سقطت في يده[1].

ـ ذيول ضَمُّ سنجار: أثار ضَمُّ سنجار حفيظة أمراء الجزيرة، فتنادوا إلى عقد حلف دفاعي موجَّه ضد سياسة صلاح الدين، وقد أزعجهم توغله في إقليم الجزيرة، وضَمُّ سنجار، مما يهدِّد أمنهم، وتألف الحلف من شاه أرمن سقمان، صاحب خلاط، وقطب الدين بن نجم الدين ألبي صاحب ماردين، ودولة شاه صاحب بدليس[2]، وأرزن[3]، بالإضافة إلى عز الدين مسعود الأول[4]، وخرج الخلفاء للتصدي له مستغلين تفرق جيشه في أنحاء الجزيرة وعسكروا في حرزم من أعمال ماردين، ولما علم بمسيرهم جمع جيشه وسار إلى رأس العين[5]، لملاقاتهم، ويبدو أنهم خشوا الدخول في معركة، فتفرقوا عائدين إلى بلادهم[6]، وبذلك أخفق عز الدين مسعود الأول في مسعاه لإخراج صلاح الدين من منطقة الجزيرة على الرغم من تأييد بعض أمرائها له، ولم يعْد له من القوة ما يكفي لعرقلة مشاريعه في المنطقة[7].

ـ ضَمُّ آمد: استغل صلاح الدين تفرُّق خصومه، وضعفهم، فتقدم إلى آمد، بعد أن أستأذن الخليفة الناصر لدين الله بمهاجمتها، فأذن له. وكان نور الدين محمد صاحب حصن كيفا يلح عليه بمهاجمتها والاستيلاء عليها وتسليمها إليه، وفقاً للاتفاق الذي تمّ بينهما[8]. وصل صلاح الدين إلى آمد في 17 ذي الحجة عام (578هـ/ 15 نيسان عام 1183م) وضرب

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 72.

(2) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط، الحموي (1/ 358).

(3) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط.

(4) تاريخ الزمان ، غريغوريوس الملطي، ص: 199.

(5) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين.

(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 73.

(7) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 73.

(8) المصدر نفسه، ص: 73.

الحصار عليها وكان حاكمها محمد بن إيلدكز ضعيفاً لا يملك من السلطة إلا اسمها. أما حاكمها الفعلي فكان بهاء الدين بن نيسان، الذي اتصف بالشح وسوء السيرة، فمنع الذخائر والأموال عن أهل البلد، وأرسل صلاح الدين في غضون ذلك الرسائل إلى كبار أمراء آمد يعدهم ويمنيهم ويتهددهم إن هم أصرّوا على القتال[1]، إذن هذه الظروف التي أحاطت بالسكان أدّت إلى التخاذل والتهاون في الدفاع فاضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له ولأهله وأن يمنحه صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل أمواله وذخائره، وبعد انقضاء هذه المدة تسلمها صلاح الدين في 10محرم 579هـ/ 16 أيار 1183م، وسلّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد، وأمره بإقامة العدل، وقمع الجور، وأن يكون سامعاً مطيعاً للسلطان من معاداة الأعداء ومصافاة الخلاّن في كل وقت، وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان[2] .

ثانياً: ضمّ حلب:

أضحى صلاح الدين بعد سيطرته على مناطق الجزيرة مجاوراً لإمارة حلب فقرّر أن يضمها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل، فعبر الفرات ونزل على تل خالد من أعمال حلب، وحاصرها حتى استسلمت في شهر محرم عام (579هـ/ شهر أيار عام 1183م)، ثم سار منها إلى عينتاب[3] فقدّم صاحبها ناصر الدين محمد بن خمارتكين الولاء له، وطلب منه أن يبقيه على إمارتها، فوافق صلاح الدين، وتقدّم من عينتاب إلى حلب ونزل عليها في 26 محرم/ 21 أيار، إلا إنه لم يباشر بقتالها بل نزل بالميدان الأخضر ثم انتقل بعد عدة أيام إلى جبل جوشن، وأوهم عماد الدين زنكي الثاني بأنه يبني المساكن له ولجنده حتى يدفعه إلى الاستسلام تجنباً لإراقة الدماء[4]، واضطر عماد الدين زنكي الثاني إلى فتح المفاوضات مع صلاح الدين لتسليمه المدينة، وتولى الأمير حسام الدين طومان الوساطة بينهما وانتهت المفاوضات على الأسس التالية:

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب لصلاح الدين.
- يمنح صلاح الدين عماد الدين زنكي الثاني سنجار والخابور، ونصيبين وسروج.
- يمنح حسام الدين طومان والرقة.

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 73.

(2) المصدر نفسه، ص: 74.

(3) عينتاب : قلعة حصينة ورستاف بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك.

(4) تاريخ الأيوبيين في الشام، ص: 74.

ـ يضع عماد الدين زنكي الثاني قواته العسكرية بتصرف صلاح الدين متى طلب منه ذلك.

ـ دخل صلاح الدين مدينة حلب بعد إبرام الصلح في 17 صفر عام (579هـ/ 18 حزيران) عام (1183م) وسط ترحيب السكان[1].

1 ـ نتائج ضَمّ حلب:

ترتب على ضَمّ حلب من قبل صلاح الدين أن قوي مركزه، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكاً، وأضحى من القوة ما حمله على التفرغ لقتال الصليبيين، فاشتدت مخاوف هؤلاء، وعُدوا هذا الحدث أعظم نكبة حلّت بهم، بالإضافة إلى أنها أكّدت الروابط السياسية والعسكرية بين مصر وبلاد الشام، وغدت ممتلكاتهم في بلاد الشام محصورة داخل هذا المحور. فالتمس بوهيمند الثالث صاحب أنطاكية منه الأمان فوافق صلاح الدين على منحه هدنة ريثما يفرغ من استكمال خططه بتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى[2].

2 ـ الحصار الثاني للموصل:

ما لبث الأحداث التي استجدت في الموصل أن فرضت على صلاح الدين التدخل مرة أخرى في شؤونها، ففي شهر جمادى الأولى عام (579هـ/ شهر أيلول) عام (1183م) استمع عز الدين مسعود الأول إلى وشاية بعض كبار أمرائه ضد نائبه مجاهد الدين قايماز ممن تربطهم به عداوة مستحكمة، فقبض عليه، وسجنه وصادر أمواله، وكانت إربل، وجزيرة ابن عمر وشهرزور[3]، ودقوقاً[4]، وقلعة عقر الحميدية، تحت حكم قايماز، وبها نواب يحكمون باسمه فلما قُبض عليه، وشقّ هؤلاء الأمراء عصا الطاعة، وأرسل كل من زين الدين يوسف صاحب إربل ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، رسالة ولاء إلى صلاح الدين، وأضحت هاتان المدينتان تابعتين له. وبهذا التصرف اللامسؤول، ساهم عز الدين مسعود الأول في إضعاف موقفه أمام صلاح الدين، فمال إلى السياسة فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي في شهر شوال 579هـ/ شهر كانون الثاني 1184م، يطلب منه

---

(1) مفرج الكروب (2/ 142) تاريخ الأيوبيين، ص: 75.

(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 75.

(3) شهرزور: كورة كبيرة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.

(4) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد، الحموي (2/ 459).

التوسط من جديد في الصلح بينه وبين صلاح الدين، استجاب الخليفة إلى طلبه، وأرسل شيخ الشيوخ، وبشير الخادم إلى دمشق للتفاوض مع صلاح الدين لحل المشاكل القائمة بينه وبين صاحب الموصل، وانضم إليهما محيي الدين الشهرزوري ممثلاً عن صاحب الموصل ومعه القاضي ابن شداد[1]. تعثّرت المفاوضات ثم توقفت، لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميري إربل وجزيرة ابن عمر حرية الاختيار في الانضمام إليه أو إلى صاحب الموصل وهذا ما رفضه ممثل عز الدين مسعود الأول الذي تمسك بتبعيتهما لصاحب الموصل، وأصرّ على ذكر اسميهما في نسخة الصلح: ورجعت الرسل بغير ظفر بطائل[2]، أدرك عز الدين مسعود الأول، الذي أوقع نفسه في هذا المأزق، بحرج موقفه وندم على ما بدر منه بحق نائبه، فتدارك الأمر، وأخرجه من السجن، وأعاد إليه نفوذه السابق[3]. خرج مجاهد الدين قايماز من السجن في الوقت الذي شهدت فيه الموصل تراجعاً في قوتها، وانهياراً في معنويات حكامها، فعمل على إعادة القوة إلى أجهزة الدولة بما فيها الجيش، وطلب مساعدة من القوى المجاورة، ونجحت مساعيه في استقطاب قزل، صاحب أذربيجان، فأمده بثلاثة آلاف جندي[4]، وبعد أن وثق بقدرته على التحرك، قرّر إعادة المدن التي خسرتها الأتابكية، فهاجم إربل، لكنه فشل في اقتحامها[5] ولم يكن صلاح الدين بغافل عما يجري من أحداث، فعزم على التدخل لصالح حليفه زين الدين يوسف، صاحب إربل، والتوجه بعد ذلك إلى الموصل لانتزاعها من يد عز الدين مسعود الأول، ولم يلبث أن حشد قواته، وخرج على رأسها إلى حرّان في شهر صفر عام (581هـ/ شهر أيار) عام (1185م) ونزل برأس العين، ثم رحل إلى دنيسر[6]، حيث انضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان الأرتقي ومع عساكر أخيه نور الدين محمد، صاحب حصن كيفا وآمد وساروا جميعاً إلى نصيبين حيث وافاهم فيها معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الأول صاحب جزيرة ابن عمر[7] وتابع صلاح الدين

(1) النوادر السلطانية، ص: 111، 112، تاريخ الأيوبيين، ص: 76.
(2) مفرج الكروب (2/ 155، 156)، تاريخ الأيوبيين، ص: 76.
(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 76.
(4) تاريخ الأيوبيين، ص: .76 انظر : مجاهد الدين قايماز نائب إربد والموصل.
(5) المصدر نفسه، ص: 76.
(6) دُنَيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين.
(7) مفرج الكروب (2/ 166).

زحفه باتجاه الموصل، ونزل بالإسماعيليات الواقعة بالقرب منها، في شهر ربيع الأول 581هـ/ شهر حزيران 1185م .

وتدعيماً لمواقفه أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية أموره في الموصل، وأشار إلى أن أهلها يخطبون باسم طغرل السلجوقي سلطان العجم، المعادي للخليفة، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين، ويحرّضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وأنه لم يأت رغبة في توسيع ملكه أو التخلص من البيت الزنكي، وإنما قصد أن يردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام ومنعهم من ارتكاب الظلم وانتهاك الحرمات، وقطع صلتهم بسلاجقة العجم، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم[1]. كان الضغط شديداً على عز الدين مسعود الأول، الذي أسقط في يده، فمال إلى المهادنة وأرسل إليه وفداً ضمَّ دولته وابنة عمه نور الدين الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة لطلب الصلح والكفِّ عن حصار الموصل، وكان رأي صلاح الدين قبول الصلح لولا اعتراض الفقيه عيسى الهكاري والأمير علي بن أحمد المشطوب، اللذين حذّراه من الإقدام على قبول الصلح وقالا له: مثل الموصل لا يترك لامرأة، فإن عز الدين مسعود ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد[2]، فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل، ومضى يحاصر المدينة لكن اعترضته عدة صعوبات، اضطرته إلى فكِّ الحصار عن الموصل لعل أهمها:

ـ كان أهل الموصل يخرجون من الجانب الشرقي، فيقاتلون القوات الأيوبية ويعودون إلى داخل المدينة، مما ضايق صلاح الدين.

ـ لقد حصَّن قايماز البلد بالاستحكامات، وأصلح أوضاع الجيش، ليتمكّن من التصدي للهجمات الأيوبية، فاستبسل أفراده في الدفاع.

ـ حدث حصار الموصل في فصل الصيف حيث درجة الحرارة مرتفعة والحر شديد، فأمر صلاح الدين بوقف المناوشات العسكرية إلى أن يزول الحر.

ـ وصادف آنذاك أن خفت مياه نهر دجلة، فأشار المهندسون على صلاح الدين بتحويل

---

(1) مفرج الكروب (2/ 166)، تاريخ الأيوبيين، ص: 77.

(2) الكامل في التاريخ (10/ 5، 6)، تاريخ الأيوبيين، ص: 78.

مجرى النهر بعيداً عن الموصل، لقطع الماء عن أهلها فيصيبهم العطش ويضطرون إلى الاستسلام. لكن صلاح الدين رأى أن هذا المشروع قد يستغرق وقتاً طويلاً لا يتوفر له، ويأخذ مجهوداً شاقاً قد يُنهك الجيش.

ـ حدث أثناء الحصار، أن توفي كل من شاه أرمن، صاحب خلاط دون أن يترك ولداً يخلفه في الحكم، ونور الدين محمد، صاحب آمد وحصن كيفا[1]، فأراد صلاح الدين أن يرتِّب أوضاع الإمارات الأرتقية بشكل يخدم أهدافه[2].

3 ـ محاولة ضمّ خلاط:

استولى أحد مماليك شاه أرمن ويدعى سيف الدين بكتمر على الحكم في خلاط، بعد وفاة صاحبها، فتطلع صلاح الدين إليها لضمِّها واستشار أركان حربه في ذلك، فأشار بعضهم إلى مواصلة حصار الموصل في حين نصحه البعض الآخر بالرحيل إلى خلاط للسيطرة عليها بحجة أنها تشكل خطوة تمهيدية للسيطرة على باقي القلاع في المنطقة، نتيجة لهذا الاختلاف في وجهات النظر تردَّد صلاح الدين في اتخاذ قرار ما ولم يتحدد موقفه إلا بعد أن جاءته الكتب من أهل خلاط يستدعونه ليسلموا البلاد إليه[3]. والواقع أن شمس الدين بهلوان بن إيلدكز، صاحب أذربيجان وهمذان، طمع في تملك خلاط عندما علم بوفاة شاه أرمن، فخشي بكتمر أن يفقد منصبه، كما رفض أهل خلاط الخضوع له، وحتى يصدُّه عنها اتفق بكتمر مع أعيان البلد على مراسلة صلاح الدين والدخول في طاعته، وفي نيتهم ضرب الطرفين بعضهما ببعض حتى تبقى البلد بأيديهم، وسار صلاح الدين باتجاه خلاط دون أن يعلم بنوايا بكتمر وعلى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ومظفر الدين بن صاحب حرّان وغيرهما، ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وغرس الدين قلج أرسلان إلى خلاط لتقرير قواعد التسليم، وتوجه هو إلى ميا فارقين لضمِّها وأما البهلوان فقد تقدم نحو خلاط ونزل قريباً منها، ثم تردَّدت رسل بكتمر بين الطرفين، الذين هدَّدوا البهلوان، من أنه إذا هاجم خلاط، فإن بكتمر سوف يسلِّم البلد إلى صلاح الدين، ولكن البهلوان تمكَّن من استمالة بكتمر وزوّجه ابنته واعتذر هذا الأخير لرسل صلاح الدين الذين عادوا دون أن يحقِّقوا الهدف، وهكذا فشلت جهود صلاح الدين في تملك خَلاط[4]، ومن جهته فقد اعترف

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 78.

(2) المصدر نفسه، ص: 78.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 79.

(4) النوادر السلطانية، ص: 117، 118.

قطب الدين سقمان الذي خلف أباه في حكم آمد وحصن كيفا بالطاعة والولاء بعد أن خشي أن يسترد منه آمد[1].

4 ـ ضمُّ ميافارقين[2]:

كانت ميافارقين تحت حكم حسام الدين يولق بن قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين وله من العمر عشر سنوات، وفيها حامية لشاه أرمن صاحب خلاط وعلى رأس أجنادها أسد الدين يرنقش، وقد رفض الانضواء تحت راية صلاح الدين وأعلن عصيانه، فاضطر صلاح الدين إلى حصار المدينة إلا أنه لم يتمكّن من اقتحامها، فمال إلى استعمال أسلوب الدهاء السياسي، فاتصل بزوجة قطب الدين المقيمة فيها وأوهمها أن يرنقش اتفق معه على تسليم البلد، كما أرسل إلى هذا الأخير يخبره بميل الخاتون إليه، وبهذا الأسلوب السياسي ضمّ البلد إلى أملاكه في 29/ جمادى الأولى عام 581هـ/ 28 آب عام 1185[3]). ووصل إلى صلاح الدين آنذاك كتاب من الخليفة العباسي بتقليده النظر في أمر ديار بكر، ومصالح أيتام ملوكها، فخطب له في الولايات الأرتقية وضُربت النقود باسمه.

ثالثاً: حصار الموصل الثالث ودخولها في طاعة صلاح الدين:

عندما انتهى صلاح الدين من أمر ميافارقين عاد إلى الموصل ليحاصرها للمرة الثالثة وجعل طريقه على نصيبين، ووصل إلى كفر زحار في شعبان من سنة (581هـ) وأقام فيها لحين انتهاء فصل الشتاء، ثم جاء رسول عز الدين مسعود صاحب الموصل يطلب الصلح[4]، ومرض صلاح الدين في ذلك الوقت، فرحل إلى حرّان، فاغتنم عز الدين مسعود الأول هذه الفرصة، وجدّد محاولاته لتحقيق التفاهم معه، بعد أن يئس من مساندة الخليفة له، ووقوف سلطان العجم إلى جانبه، فأرسل بهاء الدين بن شداد وفوّضه بالتوقيع على الصلح[5]، وكانت اتفاقية الصلح بين الطرفين تنص على ما يأتي :

---

(1) آمد : أعظم مدن ديار بكر وأجلها وأشهرها ذكراً.

(2) النوادر السلطانية، ص: 117، 118.

(3) الكامل في التاريخ (10/ 8، 9)، تاريخ الأيوبيين، ص: 80.

(4) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 161.

(5) النوادر السلطانية، ص: 119، تاريخ الأيوبيين، ص: 80.

1 ـ يسلم عز الدين مسعود أتابك الموصل إلى صلاح الدين شهرزور وأعمالها، وولاية القرابي، وجميع ما وراء الزاب من أعمال مع ولاية بني قفحاق[1].

2 ـ يتخلى صلاح الدين عن الموصل وأعمالها إلى عز الدين مسعود زنكي وتكون إدارتها له على أن تكون تابعاً إلى صلاح الدين «حكماً ذاتياً» في ضمن إطار الدول الأيوبية.

3 ـ يجب على عز الدين أن يخطب باسم صلاح الدين على المنابر والبلاد التابعة له، وأن تقطع الخطبة السلجوقية عن تلك البلاد، كما وافق عز الدين مسعود على سك النقود باسم صلاح الدين في تلك البلاد.

4 ـ على عز الدين مسعود الالتزام بالحضور مع عساكره في خدمة صلاح الدين متى استدعاه، وأن يشترك الطرفان في مجاهدة الصليبيين، واسترجاع فلسطين.

5 ـ يتعهد الطرفان بالحفاظ على المعاهدة السابقة، ووضعت بنودها بالقول في ذي الحجة سنة (581هـ/ 3 آذار عام 1186م) واستمر العمل بهذه المعاهدة وصلاح الدين على ذلك الصلح لم يتغير حتى وفاته[2].

وبهذا الاتفاق استطاع صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية تحت زعامته وأصبح أقوى حاكم مسلم في المنطقة، وبهذا الإنجاز أصبح أمامه السعي لتحقيق الهدف الكبير وهو تحرير القدس وبقية الأرض الإسلامية من الغزاة الصليبيين[3].

5 ـ تعقيب على علاقة صلاح الدين مع الأسرة الزنكية: في الوقت الذي جرى فيه إبداء التشكيك في حقيقة دوافع صلاح الدين، وعلاقته بالأسرة الزنكية، من جانب بعض المؤرخين المعاصرين له، وبعض الباحثين المحدثين، فإن هذا الارتياب يفقد أهميته، ولا يستند إلى أي أساس صحيح بدليل:

ـ كان صلاح الدين حريصاً، بدقة شديدة، على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله في مراسلاته معه.

ـ إن الدوافع التي برَّر من خلالها أعماله، ترجع دائماً إلى جهاد الصليبيين وتحرير بيت المقدس، بالإضافة إلى الحاجة الماسة لتوحيد الصف الإسلامي، من أجل تطوير متابعة الجهاد بنجاح.

---

(1) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 162.

(2) النوادر السلطانية، ص: 163.

(3) الفكر السوقي الأيوبي، ص: 163.

ـ اتصف صلاح الدين أثناء تعامله مع الزنكيين بالكرم بصورة دائمة بعد هزيمته لهم في المعركة، وفي أساليب فرض الحصار عليهم.

ـ بعد تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام، وضمان تأييد الموصل، شرع صلاح الدين فوراً في تحقيق الهدف الثاني الذي يمثل اهتمامه الأساسي، وهو تدمير الجيش الميداني للمملكة اللاتينية، وفتح بيت المقدس، وسنرى أن الأمر الأول تحقق في معركة حطين التي تأثرت نتيجتها بقدرته على نشر قوة إسلامية كبيرة وموحّدة في الوقت الصحيح، وفي المكان الصحيح، في حين تحقّق الأمر الثاني بعد معركة حطين وجاء نتيجة للانتصار في هذه المعركة[1].

ومن الأخلاق التي تميز بها صلاح الدين في صلح الموصل أنه لم يغادر منطقة الموصل حتى أهدى صاحبها ووالدته وزوجته وابنة نور الدين وعدداً آخر من رجال الدولة هدايا عظيمة بما يزيد على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والتحف الغربية والثياب وتوجه بعد أن زال عنه المرض مع أخيه العادل أوائل سنة (582هـ) إلى حلب ثم دمشق وكتب إلى جميع عماله بالأقطار بإخراج الصدقات وقد تصدق في دمشق وحدها بخمسة آلاف دينار مصرية[2].

رابعاً: محاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء على صلاح الدين:

انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في عام (487هـ/ 1094م) إلى فرقين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالخلافة وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهاد في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصبّاح الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية وغلب على أتباعه اسم الحشيشية، أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية، أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر.

وتعمق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية[3]، وكان الحسن بن الصباح الحميري قد نشأ بالري في بلاد فارس وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية وزار مصر

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 81.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 230.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 96.

والتقى بالمستنصر[1] وظل الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشرة شهراً كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمده بالأموال وأمره بأن يدعو الناس على إمامته في بلاد العجم[2]. وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أبناء أبيه[3]، ولا شك بأن إقامة الحسن بن الصباح في مصر أتاحت له التعرُّف على أحوال الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي[4] صرف، وحين عاد إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار رافضاً البيعة للمستعلي معتبراً نفسه نائباً للإمام مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي[5] بعد أن رجع إلى فارس وبلغ أصفهان سنة (473هـ) وباشر دعوته السرية، ولما ضيق نظام الملك عليه الخناق رحل إلى قزوين واستولى على قلعة «الموت» الحصينة وجعلها مقراً له ولجماعته[6]، فتوسعوا وأكثروا الفساد في البلاد[7]، ولم يكد الحسن بن الصباح يستولي على قلعة الموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة فأطلق دعاته لتحقيق هذا المأرب[8]، ولم يمض وقت طويل حتى كان الصباح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوب قزوين برمتها بعد أن سيطر على القلاع المتناثرة في أرجائها، والتي تبلغ نحو الستين قلعة وكانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، وكانت القلعة تكون وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء[9]، واستطاع حسن الصباح في عهد نظام الملك السلجوقي أن يوجه أتباعه الشديدي الولاء له لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه وبخاصة الخلافة العباسية السنية، فقد تحدّى شرعيتها بالإضافة إلى بعض الأمراء المسلمين من

(1) الخلافة العباسية، فاروق فوزي (2/ 188).
(2) تاريخ الفاطميين، د.محمد طقوش، ص: 392 ، 393
(3) المصدر نفسه، ص: 393.
(4) المصدر نفسه، ص: 393.
(5) الخلافة العباسية (2/ 188).
(6) حركة الحشاشين، ص: 65 ، 66.
(7) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص: 32.
(8) دولة الإسماعيلية في إيران ، محمد السعيد، ص: 95.
(9) دولة السلاجقة، ص: 129.

السلاجقة وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال[1]، وقام أتباعه بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً، وكان الحسن الصباح وأتباعه من الإسماعيلية الشيعية شديد البغض لأهل السنة، وتوسعت الحركة الإسماعيلية الباطنية الشيعية وامتلكوا عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل القدموس والعليقة والكهف ومصياف وغيرها. والواضح أنهم ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام، وبخاصة أن نور الدين محمود كان قد قيّد توسعهم على الطريق الشرقي، من أجل ذلك أرسلت القيادة في قلعة الموت في عام (558هـ/ 1163م) رشيد الدين سنان البصري، المعروف بشيخ الجبل ليتولى إقليم النصيرية في بلاد الشام، فتوجه هذا إلى حلب متنكراً بزي الدراويش وبقي فيها عدة أشهر، ثم تنقَّل بين قلاع الحشيشية حتى استقر في مصياف[2].

1 ـ محاولة الشيعة الإسماعيلية الأولى لاغتيال صلاح الدين:

نقم الشيعة الباطنية (الحشاشون) على صلاح الدين لأنه أسقط الخلافة الفاطمية، وتقدم لبلاد الشام لتوحيده، وضمّه إلى مصر مما يشكل تهديداً لكيانهم، فتعاون راشد الدين مع كل من الصليبيين والزنكيين للقضاء عليه[3]. وراشد الدين، كبير الإسماعيلية وطاغوتهم وهو أبو الحسن سنان بن سلمان بن محمد البصري الباطني، صاحب الدعوة النزارية[4]، كان ذا أدب وفضيلة، ونظر في الفلسفة وأيام الناس وفيه شهامة ودهاء ومكر وغور[5]. وقال عنه الذهبي: وكان سخطة وبلاء متنسكاً متخشعاً واعظاً، وكان يجلس على صخرة لا يتحرك منه سوى لسانه، فربطهم، وغلوا فيه، واعتقد منهم فيه الإلٰهية فتنًا لهم ولجهلهم، فاستغواهم بسحر وسيمياء، وكانت له كتب كثيرة ومطالعة وطالت أيامه[6] ففي عام (570هـ/ 1174م) عندما توجه صلاح الدين الملك الصالح إسماعيل إلى رشيد الدين، يطلب مساعدته وبذل له أموالاً كثيرة، وعدداً من القرى، ثمناً لقتل صلاح الدين، والواضح أن مصلحة مشتركة قد جمعت

---

(1) دولة السلاجقة، ص: 97.
(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 97.
(3) سير أعلام النبلاء (21/ 183).
(4) المصدر نفسه (21/ 183).
(5) المصدر نفسه (21/ 185).
(6) تاريخ الأيوبيين، ص: 97.

الطرفين هي العداء لصلاح الدين، أرسل رشيد الدين سنان جماعة من أتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي فاكتشفهم أمير يدعى خمارتكين، فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين في جوف معسكره، وحمل عليه أحدهم ليقتله، فقتل دونه، واستبسل الباقون في الدفاع عن أنفسهم قبل أن يُقتلوا جميعاً، ومن المستبعد أن يكون تحريض كمشتكين هو الدافع الأساسي والوحيد لرشيد الدين، للقيام بتلك العملية، لأنه كان يعمل لأسباب خاصة به، وهو أن صلاح الدين منذ أن دخل بلاد الشام، أضحى العدو الرئيس للحركة، لأنه كان يعمل على توحيد أهل السنة هناك الذي من شأنه أن يهدد كيان حركته[1].

2 ـ المحاولة الثانية:

لم يتوقف رشيد الدين عن محاولات اغتيال صلاح الدين رغم فشل المحاولة الأولى، بل زاد تصميمه فأرسل في ذي القعدة عام (571هـ/ أيار عام 1176م) جماعة من أتباعه يتنكرون في زي الجنود، فدخلوا المعسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب مع جند صلاح الدين واختلطوا بهم يتحينون الفرصة لقتل صلاح الدين وفيما كان الجند مشغولون بحصار القلعة، مرَّ صلاح الدين بخيمة الأمير جادلي الأسدي لتشجيع الجند على مواصلة القتال، فهجم عليه أحد الإسماعيلية وضربه بسكينه على رأسه، إلا أن صلاح الدين كان يلبس خوذته الحديدية فوق رأسه، فعاد الرجل وضربه على خدِّه فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده وحاول تعطيله وهو مستمر في هجومه وضربه إلى أن أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثاني على صلاح الدين، فتصدى له داوود بن منكلان وقتله، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة، فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله وخرج رابع من الخيمة هارباً، فطارده الجند وقتلوه[2]. وقد تسبب هذا الحادث المفاجئ في اضطراب صلاح الدين حتى أنه فحص جنوده جميعاً، فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرّه، وحرص حرصاً شديداً واتخذ تدابير احترازية صارمة، وبالطبع فقد كان للحادث أثر في نفوس الجند، حتى أنهم توقفوا عن القتال أمام عزاز، وخاصة عندما أشيع أن صلاح الدين قد قتل، وعلى سبيل الاحتياط الشديد ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب. وقد أرسل القاضي الفاضل كتاباً ليطمئن الملك العادل أخا صلاح الدين فيها على أخيه، ويروي له تفاصيل الحادث الحقيقية[3].

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 97.

(2) المصدر نفسه، ص: 98.

(3) المصدر نفسه، ص: 98.

3 ـ أسلوب صلاح الدين في تأديب الإسماعيلية:

أرسل صلاح الدين إلى رشيد الدين سنان يتهدده فرد عليه زعيم الحشاشين بهذه الأبيات:

يا للرجال لأمر هالَ مقطعُهُ ... ما مرَّ قطُّ على سمعي توقُّعُهُ
فإذا الذي بقراعِ السيف هدَّدنا ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعُهُ
قام الحمَامُ إلى البازي يُهدِّدُهُ ... واستيقظت لأسود البَرِّ أُضبعُهُ

وقفت على تفصيل كتابكم وجُملِهِ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله، فبالله العَجَبُ من ذبابة تطنُّ في أُذن فيل، وبعوضة تُعَدُّ في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم فدمّرنا عليهم، وما كان لهم من ناصرين، أَلِلْحَقِ تدحضون وللباطل تنصرون ؟ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، ولئن صدر قولك في قطع رأسي، وقلعِكَ لِقِلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أمانيُّ كاذبةٌ، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أنَّ الأرواح لا تضمحل بالأمراض، وإن عُدْنا إلى الظاهر وعَدَلْنا عن الباطن فلنا في رسول الله أسوةٌ حسنة «ما أوذي نبي ما أوذِيْت»[1]. وقد علمت ما جرى على عترته وشيعته، فالحال ما حال والأمر ما زال، وقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفيَّة رجالنا، وما يتمنَّونَهُ من الفوت ويتقربون به من حياض الموت، وفي المثل: أو للبطِّ تُهدِّدُ بالشطِّ ؟ فهيِّئ للبلايا أسباباً، وتدرَّع للرَّزايا جلباباً، فلأظهرن عليك منك، وتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، وما ذلك على الله بعزيز، فكن لأمرنا بالمرصاد، واقرأ أوّل النّحل وآخر صّ[2].

بعد محاولات الاغتيال الفاشلة أخذ صلاح الدين بالاحتراز الشديد، حتى أنه ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب[3]، وكان للحادث أثر بالغ في نفوس الجند الذين اضطربوا وتوقفوا عن القتال أمام عزاز، واضطرب أمر الناس أيضاً، حين شاع في البلاد أن صلاح الدين قد قُتل، فاضطر صلاح الدين عندئذ إلى الطواف بين جنده ليشاهده الناس، كما أرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل، أخي صلاح الدين، يطمئنه فيه ويروي له حقيقة

---

(1) روي بأسانيد ضعيفة من حديث أنس وبريدة وجابر، الجامع الصغير.
(2) أول النحل: ﴿أتى أمر الله﴾ وآخر صّ: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.
(3) العماد الأصفهاني، ص: 98، تاريخ الأيوبيين، ص: 98.

الحادث[1]، وصمم صلاح الدين على أن يضع حداً لهذه الحركة التي وضح خطرها في بلاد الشام وجهز حملة عسكرية في شهر محرم عام (572هـ/شهر تموز عام 1176م)، فحاصر حصونهم ونصب المجانيق الكبار عليها وأوسعهم قتلاً وأسراً وساق أبقارهم وخرّب ديارهم، وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود تكشي صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم[2]، ودمّر قوتهم[3].

وقد اضطر الحشاشون إلى التفاهم مع صلاح الدين بعد فشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم قدرتهم على التصدي لقواته، لذلك فضّلوا وقوفه على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً لهم. ومهما يكن من أمر، لم تشر المصادر التاريخية بعد إبرام الصلح، إلى أي احتكاك بين الطرفين، وانفرد ابن الأثير برواية تشير إلى تعاونهما عندما طلب صلاح الدين من رشيد الدين سنان قتل ريتشارد قلب الأسد، وكونراد مونتفيرات صاحب صور، ووعده بدفع الأموال مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للحشيشة ويقضي عليهم، لذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد[4].

خامساً: علاقة صلاح الدين مع سلاجقة الروم:

كان عز الدين قلج أرسلان الثاني عام (550هـ ـ 585هـ/ 1155م ـ 1192م) سلطاناً على سلاجقة الروم، وكان بينه وبين البيزنطيين صراعاً انتهى بانتصاره على البيزنطيين في معركة ميريو كيفالون في عام (571هـ/ 1176م) وكان انتصاره مؤثراً على وجود الدولة البيزنطية حيث أنه تم في هذه المعركة تحطيم القوة الميدانية للجيش البيزنطي نهائياً، وذكر المؤرخون أن هذه المعركة، معركة ميريو كيفالون، قررت مصير آسيا الصغرى والشرق بصورة نهائية فلم يعد بوسع البيزنطيين تهديد بلاد الشام بعد ذلك[5].

1 ـ المواجهة الأولى بين صلاح الدين وقلج أرسلان:

فكر قلج أرسلان الثاني في بلاد الشام وأراد أن يؤمن له طريقاً إلى الفرات، فتظاهر

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 98.
(2) كتاب الروضتين (2/ 423).
(3) موسوعة تاريخ العرب: العصر الأيوبي، ص: 63.
(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 88.
(5) موسوعة تاريخ العرب: العصر الأيوبي، ص: 58.

بالسياسة والمداهنة وأرسل رسولاً إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين وطلب منه حصن «رُعبان» وحصن «كيسوم» وهما إلى جنوب قلج أرسلان، فرعبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة بالعواصم[1]، وكيسوم قرية من أعمال سميساط[2]. وجاء رسول قلج أرسلان ليطلب هذا الطلب بحجة أنهما كانا سابقاً من أملاك سلاجقة الروم وضمهما والده مسعود، ثم اضطر فتنازل عنهما لنور الدين محمود. وأغضبت هذه الرسالة صلاح الدين، وأثارت غيظه، فأغلظ القول لرسول أرسلان، بل وتوعّد قلج أرسلان الثاني، فعاد الرسول إلى قونية، وأخبر سلطانها بما جرى، فغضب قلج أرسلان وهاجم حصن رعبان في عام (575هـ/ 1179م). وكان يحكم هذا الحصن شمس الدين بن المقدم من قبل صلاح الدين فهاجمه قلج أرسلان بقوة كبيرة تساوي عدّة آلاف، وعندما علم صلاح الدين أرسل قوة عسكرية تقدر بألف فارس بقيادة المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماه[3]، فتقدم بقواته حتى اقترب من المعسكر السلجوقي ودار حوله مستكشفاً، فتبين له أن جيش أرسلان مسترخ غافل، فاغتنم هذه الفرصة، ووزع قسماً من قواته حول المعسكر، ومعهم الآلات الموسيقية، البوقات وغيرها واستعد هو من القسم الآخر للانقضاض على المعسكر وهيأ جوّ المفاجأة، وفي الوقت المحدد أعطى إشارة البدء للموسيقيين بإطلاق الموسيقى وإحداث جلبة مصطنعة، فلما سمع الجنود السلاجقة تلك الضجة من أصوات الموسيقى وجلبة الرجال، واصطكاك الحديد، وشدة وقع حوافر الخيل التي كانت تدور باستمرار حول المعسكر، هالهم ذلك، وتوهموا أنهم مطوقون بأعداد هائلة من الجنود فدبّ الذعر بينهم، وغرقوا في بحر من الفوضى ثم لاذوا بالفرار طالبين النجاة، تاركين وراءهم خيامهم وأثقالهم، وانقض عليهم في تلك اللحظة المظفر تقي الدين عمر بفرسانه، وأخذ يعمل فيهم قتلاً وأسراً، وهم هاربون لا يلوون على شيء، وغنم جميع ما تركوه، ثم منّ على الأسرى، وسرّحهم وعاد قلج أرسلان الثاني إلى ملطية يجر أذيال الهزيمة والعار، وملطية بلد من بلاد الشام المشهورة، والمتاخمة إلى بلاد الشام[4].

2 ـ المواجهة الثانية بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني:

وبعد مرور عام على هذه الأحداث، عاد النزاع مرة أخرى بين صلاح الدين وقلج

(1) معجم البلدان (3/ 51).
(2) المصدر نفسه (4/ 497).
(3) الكامل في التاريخ (9/ 148).
(4) معجم البلدان (5/ 192)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 59.

أرسلان، وكان سبب هذا النزاع مسألة عائلية، فقد أقام قلج أرسلان الثاني علاقات سياسية مع أصحاب حصن كيفا، ووثق هذه العلاقات بزواج ابنته سلجوقة خاتون بنور الدين محمد ابن قرا أرسلان، صاحب الحصن، ومنحه قلج أرسلان الثاني عدداً من الحصون التي تجاور بلاده كمهر، وبعد فترة من الزمن أحبَّ نور الدين محمد مغنية فمال إليها، وتزوجها وأعرض عن زوجته السلجوقية، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه، إما أن تحسن عشرتها وإما أن تفارقها، فلم يهتم به، عند ذلك قرر قلج أرسلان الثاني القيام بحملة عسكرية ضد نور الدين محمد لتأديبه والاستيلاء على بلاده، فاستجار هذا الأخير بصلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه أن يتخلى عن محاولته ضد إمارة كيفا، فأجابه بأنه أعطى نور الدين محمد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوّجه ابنته، وقد سلك سلوكاً سيئاً مع ابنته فقرر استعادة ما أعطاه من الحصون، ومن ثم ترددت الرسل بين الرجلين دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صلاح الدين إلى التوجه على رأس جيشه إلى بلاد الروم لإيقاف قلج أرسلان الثاني عند حدّه، والتحق به نور الدين محمد فتقدم إلى تل باشر وهي قلعة حصينة شمال حلب[1]، ثم عرج على رعبان، فلما علم قلج أرسلان الثاني بتقدم صلاح الدين خشي الهزيمة وأرسل على الفور أحد كبار مساعديه وهو الأمير اختيار بن عفراس، ليشرح له الموقف، وإنه لا بد من تأديب نور الدين محمد على تصرفه، وأسفرت الاتصالات عن اجتماع الأطراف الثلاثة: نور الدين وقلج أرسلان وصلاح الدين في شهر (جمادى الأولى 576هـ/ تشرين الأول عام 1180م)[2].

وبعد مداولات مستفيضة، تمسك صلاح الدين بوجهة نظره وهدّد بالزحف على ملطية وبلاد السلاجقة إن أصرَّ قلج أرسلان على تأديب نور الدين محمد، وكان الأمير السلجوقي قد شاهد أثناء إقامته في المعسكر الأيوبي شدة صلاح الدين، وقوته وكثرة سلاحه ودوابه، فهاله الأمر، لذلك بذل جهداً مضنياً في شرح القضية من الوجهة الدينية، فاقتنع صلاح الدين بكلامه وأخيراً تمّ الاتفاق على ما يلي:

- يُطلّق نور الدين محمد المغنية بعد سنة.
- إذا لم يفعل ذلك يتعاون صلاح الدين مع قلج أرسلان الثاني على حربه.
- يدخل جميع أمراء الموصل وديار بكر والأراتقة في هذا الصلح.

(1) معجم البلدان (2/ 40)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 60.

(2) موسوعة تاريخ العرب، ص: 60.

ويبدو أنه جرى اتفاق ثنائي على هامش المباحثات بين صلاح الدين والأمير السلجوقي بمساعدة الأول للسلاجقة في حربهم ضد الأرمن من كيليكيه الذين كانوا يهاجمون الأراضي السلجوقية، بدليل أنه هاجم بلاد الأرمن عقب توقيع الصلح مباشرة وقبل أن يعود إلى بلاد الشام[1]. ومهما يكن من أمر، فقد كان لهذا الاحتكاك الأيوبي السلجوقي انعكاسات سلبية إلى حد ما على العلاقات بين الطرفين في المستقبل، توضّحت في التحالفات التي قامت بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجليوس من جهة وبين قلج أرسلان الثاني والإمبراطور فريدريك بربروسا من جهة ثانية[2].

سادساً: علاقة صلاح الدين مع الخلافة العباسية:

لم تكن علاقة صلاح الدين مع العباسيين في يوم من الأيام سيئة أو لم تصل إلى درجة السوء والعداء، فلربما فترت أحياناً لكنها لم تصل إلى العداء، وإذا نظرنا إلى صلاح الدين نجده قد ارتبط بالخلافة العباسية نتيجة ارتباطه بالزنكيين، فزعيم الزنكيين نور الدين محمود كان محباً للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله لاقتناعه بعقيدته السنية، ولذلك فقد حرص على تأييده واحترامه، وبادله الخليفة مشاعره هذه بإرساله الخلع والتشريفات له، وحضّ أمراء الولايات على مساندته ضد الصليبيين[3]، من ذلك بدأ صلاح الدين علاقة جيدة مع الخليفة العباسي حينما كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد عام (567هـ/ 1171م) وخطا صلاح الدين خطوة هامة في علاقته بالعباسيين حينما قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للعباسيين على منابر مصر، مُعبراً عن طاعته وولائه للخليفة العباسي[4]، ولما مات نور الدين محمود، واستغل الصليبيون حالة بلاد الشام المضطربة وهاجموها، أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، يصور له الأوضاع في بلاد الشام السياسية، وهجوم الصليبيين على بلاد المسلمين، وبيّن جهوده في إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادة الخطبة للعباسيين وتصديه للصليبيين عندما هاجموا الإسكندرية في مصر، وأسباب ضمه لليمن، وبعد هذه الرسالة المطولة التي عدّد فيها إنجازاته التي تؤكد إخلاصه وولاءه للخليفة العباسي، طلب منه أن ينعم عليه بتقليد يشمل مصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه ولاية نور الدين، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا، وسيوف عساكرنا ولم نقيمه من أخ وولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة

(1) النوادر السلطانية، ص: 98، الكامل في التاريخ (9/ 447، 449).
(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 92.
(3) موسوعة تاريخ العرب، ص: 54.
(4) المصدر نفسه، ص: 54.

تخليداً مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك»[1]. كانت هذه الرسالة من صلاح الدين وما نتج عنها نقطة تصب في بناء صرح دولة صلاح الدين، فقد استجاب الخليفة لمطالبه وأنعم عليه بحكم مصر والشام، وقد رأى فيه الخليفة العباسي شخصية تملأ فراغ نور الدين محمود بعد وفاته، مما جعله يعترف له بالسلطنة لأنه أصبح في نظره الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تدافع عن المسلمين. وقد ساهم هذا التقليد وغيره ـ مثل إرسال دار الخلافة له عندما كان يحاصر حماه في عام (570هـ/1174م) تحمل إليه التشريفات والتقليد والتمليك والتفويض، ساهم كل هذا في إضفاء المهابة على صلاح الدين أمام أمراء المسلمين، وكذلك الصليبيين الذين أقلقهم صعود نجمه وهذه العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية، أفادت صلاح الدين في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين له والمتطلعين للسلطة وبخاصة الزنكيين، لذلك كان دائماً ما يطلع الخلافة على إنجازاته وانتصاراته ويحيلها إلى مفهوم حرصه على الخلافة وولائه وانتمائه لها والمحافظ على وجودها[2]، وكانت العلاقة في عهد الخليفة المستضيء متميزة.

1 ـ وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله عام 575هـ:

هو الخليفة أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدي الهاشمي العباسي، بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضُد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ وكان ذا حلم وأناة ورأفة وبر وصدقات، وقال ابن الجوزي في المنتظم: بُويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم نَرَهُ من أعمارنا، وفرق مالاً عظيماً على الهاشميين[3] وقال ابن الجوزي: .. وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر، وخُطب له بها وجاء الخير، فغلقت الأسواق للمسرّة وعُملت القباب وصنَّفتُ كتاباً سمَّيتهُ «النَّصر على مصر» وعرضته على الإمام المستضيء[4]، وخُطب له باليمن، وبرقة، وتوزر، وإلى بلاد الترك ودانت له الملوك وكان يطلب ابن الجوزي، ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعف بدولته الرّفض ببغداد وبمصر

---

(1) صبح الأعشى للقلقشندي (13/ 85- 90).
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن: موسوعة تاريخ العرب، ص: 55.
(3) المنتظم (10/ 233).
(4) سير أعلام النبلاء (21/ 70).

وظهرت السُّنةُ وحصل الأمن[1]. وكان ابتداء مرض المستضيء في أواخر شوّال من سنة 575هـ فأرادَت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوام دوراً كثيرة، وأموالاً جزيلة، فلمّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوّال خُطِبَ لوليّ العهد أبي العباس أحمد بن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخُطباء والمؤذِّنين ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر، وكان مرضه بالحمى ابتدأ فيها يوم عيد الفطر ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل في مرضه شهراً ومات سَلخ شوّال، وله من العمر تِسعٌ وثلاثون سنة ،وكانت مدّة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسّل وصُلّي عليه من الغد، ودفن بدار النّصر التي بناها وذلك عن وصيّته التي أوصاها وترك من بعده ولدين؛ **أحدهما**: وليُّ عهده وهو عُدّةُ الدين والدنيا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، **والآخر**: أبو منصور هاشم وقد وزر له جماعة من الرُّوساء، وكان من خيار الخلفاء، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكُوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمعايب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى وبلّ ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر[2].

2 ـ علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية بعد المستضيء:

توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله وخلفه ابنه أبو العباس أحمد، الذي تلقّب بلقب الناصر لدين الله، فبايعه صلاح الدين وأرسل رسولاً إلى بغداد للتعزية بوفاة والده والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة[3]. كما توفي، في هذه الأثناء، سيف الدين غازي الأول صاحب الموصل، وخلفه أخوه عز الدين مسعود الأول، فكتب صلاح الدين إلى الخليفة يطلب منه أن يفوّض إليه الأمور كما كانت أيام والده[4]، استجاب الناصر لدين الله لمطالب صلاح الدين، وأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين أبا القاسم عبد الرحمٰن، شهاب الدين بشير الخادم، بالتفويض والتشريف الجديد وذلك في (شهر رجب/شهر كانون الأول) ولقّبه بالألقاب السنية منها: الملك الأجلُّ السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين عن المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب، أدام الله علوّه، على هذه السجايا مقبلاً[5]. وأمره

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 70).

(2) البداية والنهاية (16/ 541).

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 85.

(4) كتاب الروضتين (3/ 60، 61، 65)، تاريخ الأيوبيين، ص: 85

(5) مآثر الإنافة في معالم الخلافة (3/ 87 ا 88).

بتقوى الله والحفاظ على الصلاة، وقصد المساجد الجامعة، ولزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات، وإحسان السيرة في الرعايا، وإظهار العدل في الرعية، وحفظ الثغور، ومجاهدة الكفار، والاعتماد في إدارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف، ثم أشار إليه بواجب شكر الخلافة على ما أسبغت عليه من التأييد والاحترام[1]. وأطمأن صلاح الدين لمساندة الخليفة له وتقبّل كتابه بقبول حسن، وكتب إليه يقول الخادم: ولله الحمد بعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها . . . فكسر الأصنام الباطنية بسيفه الظاهر[2] وكان يخطب له على المنابر في جميع الأراضي التابعة له، ويرتدي الخطباء في كل مناسبة شارات الدولة العباسية، ويرفعون أعلامها السوداء[3].

وفي المقابل، امتنع الخليفة عن منح الخلع السوداء والعمامة السوداء، لأحد المقربين أو الأمراء ممن يدخل في حكم صلاح الدين، وذلك احتراماً له وتقديراً لشخصه وتمييزاً له عن غيره، في ذلك أنه رفض في عام (578هـ/1182م) منح الأمير جمال الدين خوشترين الذي هرب من الموصل وأراد الالتحاق بصلاح الدين، خلعة سوداء وعمامة سوداء بناء على طلبه[4]، مما يدل على رغبة الخليفة الصادقة في الحفاظ على العلاقات الطيبة مع صلاح الدين[5]، إلا أن الخليفة العباسي لم يمنحه تقليداً بولاية الموصل، وكان صلاح الدين قد وجّه عدة رسائل إلى بغداد يوضح حاجته في الحصول على تقليد بإمارة الموصل، لكن طلبه لم يتحقق، برغم أنه أعطاه تقليداً بإمارة آمد في ديار بكر[6] وتعد الموصل قريبة جداً من حدود الخلافة، مما يثير مخاوف الخليفة، ويذكر المؤرخون أن السبب الذي حمل الخليفة الناصر على عدم إعطائه تقليداً بولاية الموصل ربما يكون الخوف من امتداد سلطان صلاح الدين إلى البلاد القريبة من الخلافة كالموصل والجزيرة، وفي خلاف صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل استجاب صلاح الدين لرغبة الخليفة وانسحب من سنجار، ولكن صلاح الدين تجاوز هذا الموقف بعتاب رقيق، ولكنه استمر في طاعته، ومراسلة الخليفة، وإطلاعه على إنجازاته وأعماله أولاً بأول وخاصة معركة حطين، وخاطبه قائلاً:

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 85.

(2) كتاب الروضتين (3-85، 86) تاريخ الأيوبيين ص85.

(3) رحلة ابن جبير، ص: 51، تاريخ الأيوبيين، ص: 85.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 86.

(5) المصدر نفسه، ص: 86.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 86.

الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم...[1] وثق الخليفة بصلاح الدين، وقدّر له هذا الإخلاص في صور هدايا أرسلها له بعد فتح بيت المقدس، ومن جملة هذه الهدايا لوحاً منقوشاً عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه على باب بيت المقدس قال فيه: أجري هذا الفتح على يد محيي دولته وسيف نصرته والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته، يوسف بن أيوب معين أمير المؤمنين[2]. وقد حاول الوشاه الإيقاع بين الخليفة وصلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين[3]، يأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله.

سابعاً: علاقة صلاح الدين بالدولة البيزنطية:

كان الإمبراطور مانويل كومنين من أكثر المعادين لصلاح الدين والمسلمين، وكان حليفاً للصليبيين، ولكن عندما تولى الإمبراطور أندروس نيقوسي كومنين في عام (578هـ/ 1182م)، تغيرت الأحوال وأقام علاقات قوية مع صلاح الدين نظراً لمصلحته المشتركة مع صلاح الدين فقد كان عدوّه الأول السلاجقة الذين دمروا الجيش البيزنطي في معركة « ميربو كيفالون» في أواخر عام (571هـ/ 1176م)، كما أن كراهية البيزنطيين للصليبيين اللاتين والإيطاليين لاستيلائهم على مقدرات واقتصاد بيزنطية جعلت أندرو نيقوسي كومنين، يتقارب أكثر من صلاح الدين، وكان هذا التقارب يَهْدف إلى المحافظة على مصالحهما المشتركة ضد «اللاتين» الصليبية بشكل عام والسلاجقة بشكل خاص، وقد نظر الغرب الأوروبي إلى هذا التقارب على أنه انتهاك لرابطة الدين من بيزنطة وتحطيماً للتقاليد، لأن الحروب بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي كادت تكون مستمرة منذ ظهور الإسلام، ومع ذلك فإن أندرو نيقوسي كومنين وخليفته إسحاق الثاني أنجيلوس، بدّلا هذه السياسة، وتقربا من صلاح الدين أكبر عدو للصليبيين، بل إنهما حاولا جاهدين أن يقضيا على الإمارات الصليبية في الشرق[4]، وسبق ذلك تقارب شخصي عندما نفي أندرو نيقوسي كومنين إثر عزله عن إمارة كليكلية بعد عام (1116م)، فقد لجأ إلى دمشق، فأحسن نور الدين محمود استقباله، وقد وضع أندرو نيقوسي كومنين أساساً لهذه العلاقة عندما أرسل سفيره إلى صلاح الدين في عام (581هـ/ 1185)م، يعرض عليه قيام تحالف بينهما على أسس أهمها:

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: موسوعة تاريخ العرب، ص: 57.

(2) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى تاريخ بني العباس، ص: 57.

(3) موسوعة تاريخ العرب، ص: 57.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 104، 105.

ـ يبذل صلاح الدين الولاء لأندرو نيقوسي كومنين نظراً لأنه إمبراطور.

ـ يتعاون الطرفان ضد السلاجقة وإذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى من السلاجقة تضاف إلى أملاك الإمبراطورية.

ـ يتعهد أندرو نيقوسي ببذل المساعدة لصلاح الدين في نضاله ضد الصليبيين في بلاد الشام. ولكن قبل أن يقرر صلاح الدين الرد على هذه الشروط خلع أندرو نيقوسي عن القدس في جمادى الآخرة عام (581هـ/ أيلول عام 1185م)، ثم قتل، وأصبح إسحاق أنجيلوس إمبراطور عام (1185 ـ1195م)[1].

وقد رغب صلاح الدين في استمرار التقارب مع الإمبراطور إسحاق الثاني استجابة لرغبة الثاني الذي رأى ضرورة الحفاظ على هذه العلاقة ليواجه أعداءه وهم: النورمان في صقلية الذين هددوا العاصمة القسطنطينية، والصليبيين في بلاد الشام والسلاجقة في آسيا الصغرى، فأقر المعاهدة السابقة مع أندرو نيقوسي بعد أن عدّل صلاح الدين في بعض شروطها بما يتفق وقوته ومكانته التي لا تضاهيها قوة البيزنطيين المنهارة[2]، وقد أغضب هذا الاتفاق الصليبيين في الشرق، فعهد ريمون أمير طرابلس الصليبي إلى إلقاء القبض على الكسيوس أخي الإمبراطور، وكان في طريقه من دمشق إلى القسطنطينية، حيث كان لا يزال ضيفاً على صلاح الدين، وذلك أثناء مروره بعكا في عام (582هـ/ 1186م) ثم قام بإيداعه السجن، واستنجد الإمبراطور إسحاق بصلاح الدين وحثه على مهاجمة الصليبيين والضغط عليهم لإطلاق سراح أخيه، وهاجم في العام التالي جزيرة قبرص كي يخفف الضغط عن صلاح الدين، غير أن القوات البيزنطية تعرضت للهزيمة، كما جرى تدمير الأسطول البيزنطي، أما صلاح الدين فقد هاجم في تلك الأثناء مملكة بيت المقدس الصليبية مستغلاً الأحداث لتحقيق هدفه الأول وهو ضرب الصليبيين، واستطاع صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس والمدن الساحلية، وأطلق ألكسيوس الذي عاد إلى القسطنطينية وبعد أن انتصر صلاح الدين على الصليبيين، أرسل رسلاً إلى الإمبراطور البيزنطي تحمل إليه الهدايا، وتخبره بما حققه من انتصارات ونجاحات فاستضاف الإمبراطور رسل صلاح الدين في قصر وسط العاصمة، وجدّد التحالف مع صلاح الدين[3]، ورد الإمبراطور برسالة مماثلة واستقبل صلاح الدين الرسولين البيزنطيين في ذي

---

(1) تاريخ الأعمال المنجزة، وليم الصوري (2/ 1035).

(2) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي، ص: 65.

(3) المصدر نفسه، ص: 65.

القعدة عام (583هـ) عام (1188م) بعد أيام من رفع الحصار عن صور، بحضور أبنائه وأمرائه وموظفيه، وقد أشاد إسحاق الثاني أنجيلوس في رسالته لصلاح الدين بما قام به من جهد في سبيل إطلاق سراح أخيه، أعرب عن امتنانه، وسأل صلاح الدين الرسولين عن أحوال الإمبراطورية، ولعل أهم خبر حملته البعثة، الإشارة إلى ما حدث في الغرب من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وقد كان صلاح الدين على علم بهذه الأنباء، فتبين له إخلاص إسحاق الثاني، وقد شعر صلاح الدين وإسحاق الثاني بالانزعاج من هذه الأنباء، وأراد صلاح الدين ضمان مساعدة إسحاق الثاني أنجيلوس أثناء اجتياز الحملة إلى بلاده التي تعد ممراً طبيعياً للحملات البرية، لذلك أرسل مع الرسولين البيزنطيين عند عودتهما رسلاً من قبله للتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين الأيوبية والبيزنطية للتصدي للغزو الصليبي، وكان من بين الهدايا التي أرسلها صلاح الدين إلى إسحاق الثاني أنجيلوس منبراً لتنصيبه في مسجد القسطنطينية مع اهتمامه بعمارته، والمحافظة على الشعائر الإسلامية في العاصمة البيزنطية، وأبدى إسحاق الثاني أنجيلوس رغبة في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس فلسطين[1]، وسيأتي الحديث مفصلاً عن العلاقة الأيوبية البيزنطية في الحملة الصليبية الثالثة لاحقاً بإذن الله.

ثامناً: علاقة صلاح الدين بالصليبيين قبل حطين:

كان صلاح الدين يهدف إلى توحيد مصر وبلاد الشام من أجل تحقيق النصر على الصليبيين، وفي نفس الوقت أدرك صلاح الدين أن مقاومة الصليبيين وإشغالهم لا يجوز أن ينتظر تحقيق الوحدة الشاملة، ولذلك اعتمد صلاح الدين في استراتيجية العمل على هذين الخطين، خط الوحدة، وخط مقاومة الصليبيين واستغلال كل ظرف يمكن أن يفيد منه في مقاومة الصليبيين، ولم يغفل صلاح الدين في خضم ذلك أن يتبع العديد من الإستراتيجيات وكان منها:

أ ـ العمل على زيادة تحصين مناطق سيطرته في مصر والشام، سواء أكان ذلك بزيادة قواته العسكرية والاهتمام بقسميها البري والبحري، أم بالعمل على بناء تحصينات وقلاع تؤمن له ولقواته حماية أفضل أو لجعلها مناطق مراقبة لتحصينات الصليبيين، فاهتم بتحصين القاهرة والإسكندرية ودمياط وبنى القلاع في بلاد الشام مثل قلعة عجلون، وفي نفس الاتجاه العمل في سبيل السيطرة على القلاع والحصون الواقعة تحت السيطرة الصليبية أو العمل على

(1) موسوعة تاريخ العرب العصر الأيوبي، ص: 66.

منع أو إعاقة العمل الصليبي لبناء قلاع وتحصينات يمكنها أن تهدد المناطق الإسلامية.

ب ـ العمل على عقد اتفاقيات مع قوى يمكن أن تؤثر على إمداد الصليبيين، كما يمكنها أن تؤثر على الجبهة الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً وكان التركيز في هذا المجال على المدن الإيطالية التجارية.

ج ـ اللجوء إلى عقد هدن مع بعض الأطراف الصليبية بهدف التفرغ لمحاربة طرف صليبي آخر مستغلاً في ذلك أوضاع الصليبيين وخلافاتهم، وخاصة ما كان بين مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس، كما كان يستغل هذه الهدن للتفرغ لإتمام تحصينات عسكرية أو للعمل على إتمام الوحدة منطلقاً في ذلك من أن طبيعة الأوضاع لا تتيح له المحاربة على أكثر من جبهة واحدة في نفس الوقت[1].

وقد استفاد صلاح الدين لتحقيق ذلك من ظروف كانت تميل لصالح الجبهة الإسلامية التي تسير إلى طريق الوحدة، في حين أن الجبهة الصليبية كانت تسير في خط الانحدار حسب تعبير المؤرخ روبرت باينه، كما استفاد صلاح الدين من الروح الجهادية التي بدأت معالمها بالوضوح منذ أيام عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين، وعند الحديث عن المعارك التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين في هذه الفترة علينا أن ندرك بأنها كانت معارك متعددة وفي أكثر من موقع، ولكنها لم تكن في هذه المرحلة لتصل إلى مرحلة خوض حرب شاملة مع الصليبيين[2] وأهم تلك المعارك هي:

1 ـ غارات الصليبيين على أملاك صلاح الدين: 570هـ ـ 572هـ :

كان أول ما التزم به ريموند الثالث من واجبات، بوصفه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من نمو قوة صلاح الدين ومنعه من ضمِّ حلب، لذلك لم يتوقف الصليبيون عن شن الغارات على أملاكه، خلال الصدام بينه وبين الزنكيين، وإن كانت هذه الغارات ضعيفة الأثر، محدودة النطاق، بسبب اضطراب أوضاعهم[3]، ففي شهر محرم عام (571هـ/ شهر آب عام 1175م) انتهز الملك الصليبي بلدوين الرابع فرصة انشغال صلاح الدين مضطراً لتهدئة الجبهة مع الصليبيين ليتفرغ لقتال سيف الدين غازي أمير الموصل، حتى لا

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 91.

(2) المصدر نفسه، ص: 92.

(3) تاريخ الأيوبيين ص119.

يحارب على جبهتين في وقت واحد: الزنكيين في الشمال والشرق، والصليبيين في الجنوب والغرب، فجدّد الهدنة مع مملكة بيت المقدس[1]، ونقض الصليبيون الهدنة في العام الثاني، في غمرة استمرار النزاع بين صلاح الدين والزنكيين، فهاجموا الأراضي التي يسيطر عليها صلاح الدين، فأغار ريموند الثالث صاحب طرابلس على إقليم البقاع، في حين زحف الجيش الملكي من الجنوب بقيادة الملك وهمفري سيدتبنين، ويبدو أن ريموند الثالث تعرّض للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك، غير أن الجيشين الصليبيين اجتمعا سوياً، واصطدما بشمس الدولة توران شاه، أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، عند عنجر في البقاع، وكان قد خرج لنجدة بعلبك غير أن اللقاء لم يكن حاسماً، ولم يكد صلاح الدين يُقدم من الشمال حتى انسحب الصليبيون من المنطقة، ولم يشأ أن يتعقّبهم، وإنما فضّل العودة إلى مصر تاركاً أخاه توران شاه في دمشق[2].

2 ـ الصليبيون يغيرون على حمص وحماه:

لا شك بأن الصليبيين أضاعوا من أيديهم فرصة ذهبية لضرب صلاح الدين في مصر، في الوقت الذي لم يُثبّت أقدامه في شمالي بلاد الشام، ذلك أن الظروف كلها كانت مهيأة لهم بعد أن وضع الإمبراطور البيزنطي كل ثقله لنجاح الحملة، وقد أثبتت الأيام أن تلك الفرصة لم تتح للصليبيين بعد ذلك[3]، وإذا كان مشروع الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على مصر قد باء بالفشل، فإن ذلك لم يمنع الصليبيين من الاستفادة من الحملة الفلمنكية لمهاجمة الأراضي الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين في بلاد الشام، ففي 4 ربيع الأول عام (572هـ/ 11أيلول عام 1176م) غادر صلاح الدين بلاد الشام إلى مصر، بعد أن عقد الصلح مع الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب[4]، فانتهز بلدوين الرابع الفرصة، وكرّر الطلب من فيليب الألزاسي بضرورة مواجهة القوات الإسلامية المتمركزة على الحدود الشرقية لإمارتي الرها وطرابلس، فوافق الأخير على طلبه ثم غادر بيت المقدس في شهر ربيع الآخر عام (573هـ/ نهاية شهر تشرين الأول عام 1177م) متوجهاً إلى الشمال لمساعدة كل من ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيمند الثالث صاحب أنطاكية بناءً على طلبهما، حيث بدا ممكناً إنجاز شيء ما في ظل غياب صلاح الدين، وأمدّه الملك بمائة فارس

(1) الكامل في التاريخ (9/ 422)، تاريخ الأيوبيين، ص: 119

(2) وليم الصوري (2/ 886)، تاريخ الأيوبيين، ص: 119.

(3) الحركة الصليبية (2/ 754)، تاريخ الأيوبيين، ص: 119.

(4) النوادر السلطانية، ص: 96، تاريخ الأيوبيين، ص: 122.

وألفين من المشاة[1]، وأغارت كتيبة من الجيش على بلاد حمص، فوقعت في كمين وفقدت كل ما حصلت عليه من غنائم، بينما أغار كل من فيليب وريموند الثالث بقواتهما على حماه، التي كادت أن تسقط لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنها، وارتدّا خائبين بعد حصار دام أربعة أيام دون أن يحقّقا[2] شيئاً، ويبدو أن الجدب الذي عمّ المنطقة في تلك السنة كان من بين أسباب هذه الغزوة، وفي الكتاب الفاضلي المرسل إلى بغداد بتوقيع صلاح الدين ما يدل على ذلك: خرج الكفار إلى البلاد الشامية، فاسخين لعقد كان مُحْكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقدِّرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلوا على ظاهرة حماه يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى[3].

3 ـ الإغارة على حارم :

كانت حارم مدينة تقع شرقي نهر العاصي على بعد اثني عشر ميلاً من أنطاكية، وقد طلب أمير أنطاكية بوهيمند الثالث من فيليب الألزاس أن يشن هجوماً على مدينة حارم ووعده ببذل المساعدة، فتوجه فيليب إليها بصحبة ريموند الثالث، وكانت آنذاك تحت حكم كمشتكين، الأتابك السابق للملك الصالح إسماعيل، وقد سادها الاضطراب الداخلي بسبب مساندة أهلها لكمشتكين الذي كان على خلاف مع الملك الصالح إسماعيل[4]. حوصرت حارم على يد الصليبيين في أوائل شهر جمادى الآخرة/ شهر تشرين الثاني فتناسى أهل حارم خلافاتهم وقاوموا الحصار، الذي استمر أربعة أشهر، وكانت مقاومتهم باسلة في الوقت نفسه أخذ الحلبيون يشنون غارات على الأراضي الصليبية القريبة، وأرسل الصالح إسماعيل فرقة عسكرية اجتازت خطوط الصليبيين، وانضمت إلى حامية المدينة[5]، وخرج صلاح الدين في هذا الوقت من مصر ليهاجم مملكة بيت المقدس الخالية ممن يحميها، فخشي الصليبيون أن يستنجد الحلبيون به كما عزموا على مساعدة مملكة بيت المقدس، لكن الملك الصالح إسماعيل فاوضهم على فك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال، كما أنذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين، فقاموا بفك الحصار، وفشلوا في الاستيلاء عليها[6].

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 122.

(2) الكامل في التاريخ (9/ 429 أ 430).

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 471).

(4) موسوعة تاريخ العرب، ص: 74.

(5) الكامل في التاريخ (9/ 431).

(6) تاريخ الأعمال (2/ 1005)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 76.

4 ـ معركة الرملة:

كانت هذه المعركة تجربة مريرة لصلاح الدين ولعله تعلم منها أن الخطأ مقارعة الصليبيين قبل أن يحقق توحيد الجبهة الإسلامية، فبتحقيقه لهذه الوحدة سيحصل على قوة زاخرة هائلة مستعدة للبذل في سبيل تحطيم قوة العدو المحتمل، إضافة إلى أنه سيكون بوسع جيشه التحرك في رقعة أوسع على الرغم من أن صلاح الدين قد ألحق جزءاً لا يستهان به من بلاد الشام بدولته في مصر، منذ أن توجه إلى دمشق عام (570هـ/ 1174م)، ثم ضم حمص وحماه، وحارم، إلا أن أجزاء واسعة ظلت خارج نطاق نفوذه[1]، وبعد أن عاد صلاح الدين إلى مصر سنة (572هـ/ 1176م) قرر أن يقوم بحملة ضد الصليبيين، فخرج من القاهرة في عشرين ألف مقاتل[2] في شهر جمادى الأولى 573هـ/ تشرين الثاني 1177م وخيّم بمدينة بلبيس المصرية الواقعة على بعد عشرة فراسخ من مدينة مصر على طريق الشام[3]، ثم توجه منها إلى الأجزاء الجنوبية من فلسطين، فنزل على عسقلان التي يحتلها الصليبيون، وتمكن من أسر بعض الصليبيين، فأمر بضرب أعناقهم[4]، ولم يجد صلاح الدين أية مقاومة تذكر من العدو، فتفرق جنده يكتسحون القرى مغيرين، وأخذوا يجمعون الغنائم، ثم جمع صلاح الدين بعض جنوده وتقدم بهم نحو بلدة الرملة القريبة من الساحل والتي كانت من أكبر المدن الفلسطينية يومئذ[5]، فاعترضهم نهر تل الصافية فتفرقوا يبحثون عن مكان يصلح لعبورهم، وبينما هم في هذه الحالة هجمت عليهم قوة صليبية، قبل أن يرتبوا أوضاعهم، والظاهر أن الصليبيين كانوا يراقبون تحركاتهم، فباغتوهم في الوقت المناسب، وكان يقودهم الأمير الشهير أرناط ويسانده في مهمته بلدوين الثالث ملك بيت المقدس[6]، ولم يكن مع صلاح الدين في تلك اللحظة سوى عدد ضئيل من أمرائه وجنده، لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة[7]، ثم بدأت المصادمات وتجمع جند صلاح الدين، واشتبكوا مع الصليبيين وقد أبلى بعض قادة صلاح الدين وأقاربه بلاء حسناً، لا سيما تقي الدين عمر وابنه أحمد، وكذلك ضياء عيسى الهكاري وأخوه ظهير الدين، وقد أسرا وبقيا في الأسر سنتين، فافتدى صلاح

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 411.

(2) مرآة الزمان، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 411.

(3) معجم البلدان (1/ 479).

(4) مفرج الكروب، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 411.

(5) يصفها ياقوت بأنها مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها سابقاً.

(6) تاريخ الجيوش، كاستلان، ص: 59، الجيش الأيوبي، ص: 412.

(7) مفرج الكروب (2/ 61)، الجيش الأيوبي، ص: 412.

الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار[1]، فقد تقدم تقي الدين عمر وباشر القتال ببسالة بين يدي عمه وقتل عدداً من الصليبيين، ثم تقدم ابنه أحمد، وأبدى ضروباً من الشجاعة، وقتل عدداً من أفراد العدو، وعاد إلى أبيه سالماً ثم أمره أبوه بالعودة إليهم ثانية قائلاً له: عد يا أحمد، فإن العود أحمد فعاد إليهم وقاتلهم فاستشهد[2]. إلا أن المسلمين لم يستطيعوا الصمود بوجههم وقد تحدث صلاح الدين عن الهزيمة، وكيف أدى تغيير مواقع الجنود وأجنحة الجيش إلى هذه النتيجة المؤسفة قائلاً: في وقت صار العدو على مقربة منهم رأى بعض الجنود أن يعبروا الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب ليكون التل الموجود بأرض الرملة خلف ظهورهم، وليس أمامهم فبينما هم مشغولون بهذه الخطة هاجمهم العدو[3].

ـ أسباب الهزيمة في معركة الرملة:

ـ مباغتة الصليبيين للجيش الأيوبي أثناء تفرق أفراده قبل أن يرتبوا أنفسهم في الوقت المناسب

ـ هذه المباغتة أثرت إلى حدوث خلل في صفوف وأجنحة الجيش الأيوبي وتفرق قادة الجيش، ولجوئهم إلى أسلوب المبارزة الفردية التي لم تجد نفعاً في مثل هذه الحالة.

ـ اختفاء صلاح الدين عن الأنظار حتى ظن أنه قتل.

ـ ابتعاد الجيش الأيوبي عن خطوط التموين وانقطاع الزاد والماء عنه[4]. ومما يؤكد فداحة الخسارة التي ألحقت بالجيش الأيوبي في هذه الموقعة قول المؤرخين إن الهزيمة: كانت وهناً لم يجبره الله إلا بوقعة حطين[5]. وقد قتل في هذه المعركة وجرح وأسر معظم من كان مع صلاح الدين[6]، وخرج هو من وسط المعركة سالماً بأعجوبة، فبعد أن تمت الهزيمة، حمل أحد الصليبيين عليه، فقاربه حتى كاد أن يصل إليه فقتل الصليبي بين يديه: وتكاثر الفرنج على صلاح الدين فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر، إلى أن

(1) سنا البرق الشامي (1/ 256)، الجيش الأيوبي، ص: 412.
(2) المصدر نفسه (1/ 256)، المصدر نفسه، ص: 412.
(3) كتاب الروضتين (1/ 703)، الجيش الأيوبي، ص: 413.
(4) مفرج الكروب (2/ 60، 61)، الجيش الأيوبي، ص: 413.
(5) النوادر، ص: 53، الجيش الأيوبي، ص: 413.
(6) الكامل في التاريخ (11/ 443)، الجيش الأيوبي، ص: 414.

دخل الليل، فسلك طريق البرية ومضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وقَلّ عليهم القوت والماء، وهلكت دوابهم جوعاً وعطشاً وسرعة سير[1]، وفي الطريق إلى مصر اختفى صلاح الدين عن الأنظار، فأوقع ذلك الرعب في الصفوف، فخرج القاضي الفاضل مع بعض رفاقه يلتمس مكانه، وبثهم وسط الصحراء حتى اهتدوا إلى مكانه، وأسعفوه بما كان معهم من الزاد ثم وصل الركب إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة (573هـ/ كانون الأول 1175م)[2]. إلا أن خبر سلامته قد وصل إلى مصر على الهجن السريع[3] قبل وصوله هو، لكي يضع حداً لكل من تسول نفسه التمرد على حكمه لا سيما من أعوان الفاطميين وليؤكد أنه ما زال على قيد الحياة، ولدى وصوله إلى القاهرة حمل الحمام الزاجل بطائر البشرى إلى أنحاء مصر، لتهدئة الخواطر[4].

كانت معركة الرملة تجربة قاسية لصلاح الدين تَعَلَّم منها الكثير في مواجهاته التالية، كما كانت أول هزيمة كبرى له ولقواته وآخرها أمام قوّاد الصليبيين، ومن ناحية أخرى فقد تحقق صلاح الدين من حقيقة أخرى تتعلق بهذه الجبهة مع الصليبيين، وهي طول خطوط الإمدادات والتموين بين مركزه في القاهرة وبين سهول فلسطين وصعوبتها وقلة الماء والعشب فيها. وهذه الحقيقة كانت معروفة لديه وأمرائه والقاضي الفاضل، إذ ضُمّنت في الكتاب الذي وجّهَه إلى دار الخلافة قبل هذه المعركة بثلاث سنوات طالباً التقليد على كل الشام إضافة إلى مصر[5]: «وإنّا لا نتمكن بمصر منه (العدو) مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة وكَلالِ الدّواب التي بها على الجهاد القوة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليُد قادرة، والبلاد قريبة، والعزوة ممكنة، والميرة (التموين) متسعاً والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة»[6]، فجاءت معركة الرملة لتثبت صحة هذا التفكير، ومنذ ذلك الوقت قرر صلاح الدين نقل مركزه الدائم، بعد إعادة بناء قوته العسكرية والسياسية إلى دمشق التي كان لقوتها العسكرية، والتي ورث بعضها عن نور الدين وأمرائها وأمرائه خبرة أطول في مواجهة قوات الصليبيين ومعرفة أفضل بجغرافيتها إضافة إلى قِصر خطوط

---

(1) مفرج الكروب (2/ 60)، الجيش الأيوبي، ص: 414.

(2) المصدر نفسه، (2/ 62)، المصدر نفسه، ص: 414.

(3) سنا البرق الشامي (1/ 260)، الجيش الأيوبي، ص: 414.

(4) رنسيمان (2/ 673) الجيش الأيوبي، ص: 414.

(5) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 212.

(6) كتاب الروضتين (1/ 213)، صلاح الدين القائد وعصره، ص: 213.

مواصلاتها وتموينها وطول هذه الخطوط بالنسبة للعدو. . . وإذ كان الهدف الأساسي في عملياته العسكرية في المستقبل هو تحرير القدس واستعادة الأراضي التي سيطر الصليبيون عليها، فإن دمشق هي القاعدة الأساسية الأكثر مناسبة لمثل هذه العمليات ولذلك جعلها صلاح الدين مركزه الدائم ولا يغادرها إلى مصر إلا لتفقد أحوالها[1].

5 ـ معركة تل القاضي:

ظل صلاح الدين في مصر عدة أشهر بعد معركة الرملة، حتى تحقّق له أن كل شيء أضحى تحت سيطرته ثم غادرها متوجهاً إلى دمشق، فوصل إليها يوم السبت في 24 شوال عام (574هـ/ شهر نيسان عام (1179م)، وأمضى بها بقية تلك السنة، وكل ما وقع من حروب آنذاك لم يتجاوز شنّ بعض الغارات وردّ بعض الهجمات، والواقع أن صلاح الدين انهمك بحصار بعلبك بعد أن رفض حاكمها محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، التنازل عنها لصالح توران شاه أخي صلاح الدين، لكنه لم يهمل أمر حصن مخاضة الأحزان، وصرّح لأمرائه أنه إذا أتم الصليبيون بناءه «نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس»[2]، وبعد أن فرغ من أمر بعلبك، التفت إلى الحصن، وطلب من الصليبيين أن يهدموه، فطلبوا مقابل ذلك النفقات التي بذلوها في تشييده، فعرض عليهم ستين ألف دينار، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف، ولكنهم رفضوا ذلك[3]، وحدث في شهر ذي القعدة عام (574هـ/ شهر نيسان عام (1179م) أن اعتدى بلدوين الرابع على بعض الرعاة المسلمين الذين خرجوا لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة من بانياس، وشاركه همفري دي تورون سيد تبين، فأرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة ابن أخيه عز الدين فروخشاه ليستطلع الأمر، فاشتبك مع العدو وبالقرب من شقيف أرنون[4]، وانتصر عليه، ولم يتمكن الملك من النجاة إلا بفضل بسالة همفري الذي جرح في المعركة، وتوفي بعد ذلك متأثراً بجراحه، وكانت وفاته خسارة كبرى للصليبيين[5].

وكان صلاح الدين قد خرج من دمشق عندما علم بنبإ الانتصار لحصار حصن بيت الأحزان، لكنه اكتفى بمهاجمة حاميته، إذ بلغت استحكاماته الدفاعية من المتانة ما حمله على الارتداد بعد مضي بضعة أيام، فعسكر عند تلك القاضي في سهل مرجعيون غربي بانياس،

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 213.
(2) مفرج الكروب (2/ 72).
(3) الكامل في التاريخ (9/ 439، 441)، تاريخ الأيوبيين، ص: 127.
(4) شقيف أرنون: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس.
(5) تاريخ الأيوبيين، ص: 128.

وأرسل العساكر للإغارة على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا[1] وبيروت. أثارت هذه الغارات حفيظة بلدوين الرابع، الذي رأى أنه لا بد من وضع حد لها، فجمع قواته، وخرج للتصدي للمسلمين، ودعا ريموند الثالث صاحب طرابلس لمساعدته، وعلم بأن فروخشاه عائد من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحرك نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن، غير أن صلاح الدين شاهد تحركه، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه كان ريموند الثالث والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، وعند مدخل الوادي فاجأوا صلاح الدين، فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور وصمد صلاح الدين في المعركة وبفضل ما طبّقه من خطط عسكرية أتاح له أن يقوم بهجوم مضاد، وتحقيقه الانتصار وولّى الصليبيون الأدبار لا يلوون على شيء، ولما وصلوا إلى الجيش الملكي، وساد الذكر صفوف أفراده، واضطروا إلى الارتداد، ثم لاذوا بالفرار، ووقع كثير منهم في الأسر، كان من بينهم أودو سانت أماند، مقدم الداوية وبلدوين سيد الرملة، وهيو صاحب الجليل[2]. وقد حدثت المعركة في أوائل عام (575هـ/ صيف عام 1179م) ولم يستثمر صلاح الدين انتصاره هذا بمهاجمة بيت المقدس، لأنه اعتقد أن باستطاعة الملك الصليبي، الذي ما زال طليقاً استدعاء العساكر من مختلف المناطق، فيلتقون من حوله، مما جعل مهمته صعبة وبخاصة أنه وصلت إلى المملكة آنذاك مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة هنري الثاني ذي شامبانيا، مما أنعش آمال الصليبيين ورفع من معنوياتهم[3]، واستعاض عن مهاجمة بيت المقدس، بمهاجمة حصن بيت الأحزان في شهر ربيع الأول/ شهر أيلول. واستطاع بعد حصار دام خمسة أيام من اقتحامه ودمّره عن آخره وسوّاه بالأرض، كما أغار على المناطق الساحلية: صور وصيدا وبيروت وهاجم أسطوله البحري مدينة عكا ودمّر السفن الراسية فيه[4].

6 ـ الهدنة بين صلاح الدين وبلدوين الرابع:

ارتفعت خسائر الصليبيين وانزعج بلدوين الرابع من هذه الانتصارات للمسلمين فلم يجد أمامه إلا طلب الهدنة، وبالفعل وافق صلاح الدين على طلب بلدوين بعقد هدنة بينهما لاعتبارات خاصة لديه ومنها أنه:

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 128.

(2) الكامل في التاريخ (9/ 439)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 128.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 128.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 129، وليم الصوري (2/ 1014 – 1015).

ـ أراد أن يضم حلب إلى سيطرته قبل أن يوجه ضربة حاسمة إلى الصليبيين، وفي الوقت نفسه يتقي شر هجمات الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب.

ـ ومن هذه الاعتبارات أيضاً رغبته في القيام بحملة على أرمينية.

ـ أن يبني علاقة مع قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم تجعله في معسكره أو على الحياد بينه وبين الصليبيين.

ـ أن يتفرغ لمهاجمة إمارة طرابلس، وقد وصلته أنباء بأن هناك اتصالات بين الصليبيين والبيزنطيين لتجديد التحالف بينهما، وقد هاجم أسطوله انطرخوس وهي بلد سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية[1]، وفتح جزيرة في البحر قرب القسطنطينية يقال لها: أرواد، فاضطر ريموند إلى عقد هدنة معه، وطلب الانضمام إليه وجعله من أتباعه، وذلك بسبب خلافاته داخل مملكة بيت المقدس والتي انتهت إلى إقصائه وطرده من حكم المملكة[2]، وأما بلدوين الرابع فقد أصبح منهكاً متعباً وكذلك جنوده بسبب كثرة الاصطدامات بينه وبين صلاح الدين، ولذلك سعى إلى الهدنة لحاجته إليها في تنظيم صفوفه، ومخاطبة حلفاء جدد، وقد تحددت مدة الهدنة بينهما بسنتين وتبين في ذلك أن الفترة التي سبقت الهدنة كان هدفها الإغارة على الصليبيين والموافقة على الهدنة لبناء الصفوف الإسلامية وتوجيهها[3].

7 ـ صلاح الدين والفارس اللص «أرناط»:

استفاد صلاح الدين من الهدنة التي وقعها مع حاكم مملكة المقدس لينتقل بنشاطه العسكري إلى مناطق التواجد الصليبي في شمال بلاد الشام حيث تمت غارات بحرية ناجحة ضد إمارة طرابلس كانت كفيلة بإجبار الصليبيين بقيادة ريموند الثالث على عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها خمس بسنوات (1180 ـ 1185م)[4] وقد أفاد صلاح الدين من إنجازاته العسكرية والسياسية تلك بالتفرغ لهدفه الأساس وهو توحيد بلاد الشام فبدأ بحملاته ـ التي أشرنا إليها ـ ضد مناطق الموصل وأتبعها بعد ذلك بحصار حلب والسيطرة عليها، وفي الوقت الذي كانت فيه قوات صلاح الدين تحاصر حلب كانت القوات الإسلامية في مصر

(1) معجم البلدان (1/ 270)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 82.
(2) الكامل في التاريخ (9/ 151)، موسوعة تاريخ العرب، ص: 82.
(3) صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة، ص: 282.
(4) الحركة الصليبية (2/ 753).

تقوم بعمل عسكري موفق على الجبهة الجنوبية في منطقة الداروم (ما بين غزة ومصر)، وقد أثبتت مجمل هذه المعارك أن الجبهة الصليبية في هذا الموضع أقصى ما يمكن أن تقوم به هو القدرة على الدفاع عن بعض مناطق سيطرتها، وفقدت ميزة القدرة على الهجوم مقارنة بأوضاعها قبل ظهور صلاح الدين الأيوبي والاستثناء الذي حصل هي الغارات التي كان يقوم بها حاكم الكرك الصليبي أرناط والذي يعتبر تابعاً لمملكة بيت المقدس[1]، وقد عرف أرناط بالفارس اللص حتى عند الفرنج، إذ لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية، بل كان لا يصلح إلا للنهب والسلب والغدر وشن الغارات على الأبرياء المسلمين، وقد وصفه بعض المؤرخين الأوروبيين أنه نموذج للفارس اللص في عصره، فقد اتصف بالجشع والغدر والوحشية والتعصب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب لتعديل سلوكه أو تهذيبه[2]، وأما المؤرخ أبو شامة فقد وصفه بأنه: أغدر الفرنجة وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المُبرمة[3].

وقد تناسى أرناط أمر هدنة معقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وخرج على رأس قوة من رجاله، وأوغل في صحراء العرب حتى تيماء[4]، وكان في نيته أن يزحف من تيماء إلى المدينة النبوية: للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة[5]. إلا أن فرخ شاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، أسرع إلى غزو الأردن وأعمال الكرك ونهبها، مما جعل أرناط يعود إلى إمارته للدفاع عنها، بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة[6]، ولذلك غضب صلاح الدين وأرسل إلى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ويطلب منه أن يلزم أرناط برد المسلوبات، والملك بلدوين الرابع كان مستاء من أرناط أيضاً، فأرسل إليه يطلب إعادة ما سلب من المسلمين وأسراهم، ولكن أرناط سخر من سيده ـ الملك المريض ـ ورفض أن يصغي إلى نصحه[7].

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 95.

(2) الحركة الصليبية ، عاشور (2/ 617)، الجهاد والتجديد، ص: 231.

(3) كتاب الروضتين (2/ 75).

(4) الجهاد والتجديد، ص: 231.

(5) الكامل في التاريخ، حوادث سنة 577هـ، الجهاد والتجديد، ص: 231.

(6) الكامل في التاريخ (9/ 153)، الجهاد والتجديد، ص: 231.

(7) الحركة الصليبية (2/ 606)، الجهاد والتجديد، ص: 231.

كانت حملات أرناط غير موفقة من حيث توقيتها فهي جاءت في وقت كانت فيه قوة صلاح الدين تتعاظم، في حين أن مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى تعاني من مشكلات داخلية عصية على الحل، فبذور الشك أصبحت متزايدة بين حاكم مملكة بيت المقدس بلدوين الرابع وبين بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس، كما جاءت في وقت تعاني فيه مملكة بيت المقدس من مشاكل حول صحة بلدوين الرابع ومشكلة وراثة العرش، وعلى الصعيد الخارجي كانت علاقات صلاح الدين تتوثق مع المدن الإيطالية ومع حاكم الإمبراطورية البيزنطية ألكيسوس كومنين الثاني، يضاف إلى ذلك أن حملات أرناط جاءت لتؤكد فشل مملكة بيت المقدس في السيطرة على المناطق التابعة لها إذ أن أرناط الذي يُفترض أنه تابع لمملكة بيت المقدس لم يلتزم بالهدنة الموقعة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، إضافة إلى أن حملات أرناط وما حملته من تهديد للأماكن المقدسة قد عاد بأثر إيجابي على الجبهة الإسلامية، حيث أن هذه التصرفات من قبل أرناط جعلت جميع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة تقف إلى جانب صلاح الدين[1].

ويدأ صلاح الدين يركز على معاقبة أرناط على كل أفعاله الإجرامية بحق قوافل التجارة والحجيج، واتجه لحصار الكرك في أكثر من مرة عام (580هـ/ 1184م) وعام (583هـ/ 1187م) إلى جانب عمليات عسكرية إسلامية على الجبهة الشمالية في مناطق طبرية في عام (583هـ/ 1187م). جرت هذه التطورات والجبهة الإسلامية الآن مكتملة الوحدة بعد الصلح الذي وقع مع حاكم الموصل، والجبهة الصليبية تعاني من مشكلاتها الداخلية التي ازدادت سوءاً بعد وفاة بلدوين الرابع وتسلم بلدوين الخامس للحكم سنة (1185م) وتوفي بعد ذلك بعام (1186م) لتدخل بعدها مملكة بيت المقدس في صراع على وراثة الحكم شارك فيه أمير طرابلس ريموند الثالث ،فثارت شكوك حول وفاة بلدوين الخامس أهي وفاة طبيعية أم أن الأطراف الطامعة في تاج مملكة بيت المقدس كانت وراء هذه الوفاة حيث يشار على أنه مات مسموماً[2]، ووصل الأمر إلى أن أصبح الصليبيون يشكلون معسكرين متعادين حول وراثة حكم مملكة بيت المقدس: فريق يؤيد جاي لوزجنان وحكمه للقدس، وفريق آخر معارض لهذا الحكم ويرأسه ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية[3]. في هذه الأوضاع المضطربة داخلياً على الجبهة الصليبية والتي يقابلها وحدة وقوة في الطرف الإسلامي، قام حاكم الكرك أرناط بإثارة مشكلات مع الطرف الإسلامي، حيث عاود أسلوبه

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 96.

(2) المصدر نفسه، ص: 97.

(3) المصدر نفسه، ص: 97.

غير الملتزم بالهدن والمواثيق واعتدى على قافلة تجارية ما بين دمشق والقاهرة وغنم ونهب ما في القافلة وأسر تجارها وحراسها، ولم تفلح جهود صلاح الدين بإقناع أرناط بتسليم الأسرى ورد الغنائم، كما لم تُفلح جهود حاكم مملكة بيت المقدس في إجبار أرناط على تسليم ما نهبه في القافلة أو إطلاق الأسرى، وقد قاد ذلك إلى رد فعل إسلامي قوي من جانب صلاح الدين قاد إلى معركة حطين ونتائجها التي سنشير إليها لاحقاً[1]، بإذن الله تعالى.

تاسعاً: اهم الدروس والعبر والفوائد ما بين وفاة نور الدين ومعركة حطين:

1 ـ المدة التي استغرقها صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية:

بعد 12 سنة من الجهاد المر أضحى صلاح الدين سيد مصر والشام والموصل وغيرها من بلاد المسلمين واستجمع في يده القوى الحربية طائعة في الغالب ومسايرة في بعض الأحيان، وقد تمثلت وسائله لإقامة الجبهة الموحدة بقيادته في عدة أمور بالإضافة إلى اعتماده على المؤسسة العسكرية الأيوبية التي أوجدها[2]:

أ ـ كان يصدر قرارات الأمان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط أن تكون العساكر واحدة عند النصرة على العدو الخارجي كما حدث ذلك لحصن كيفا مثلاً[3].

ب ـ كان صلاح الدين يلقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب إلى داخل الحصون الممتنعة لدفع أهلها إلى طلب الاستسلام بعدما يحدث في صفوفهم اضطراباً نفسياً.

ج ـ كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية الحصينة بأنه إنما جاء يسكن بقربها وأنه عازم على الاستقرار بجوارها، بعد أن يحاصرها دون أن يعمد إلى الهجوم المباشر عليها، مما يدفع بمن داخل الحصن أو المدينة إلى طلب الأمان أو السعي من أجل الوصول إلى الصلح لدفع قوات صلاح الدين الضخمة من قرب البلد، لأنها إن استمرت قرب البلد سوف تلحق أضراراً كبيرة به، وهذا هو الذي حصل فعلاً عند حصار الموصل في المرّة الثالثة سنة (581هـ)[4].

---

(1) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 97.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 231.

(3) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص: 160.

(4) المصدر نفسه، ص: 161.

د ـ وفي بعض الأحيان كان صلاح الدين يقدم تنازلات ويمنح الأموال الوفيرة لأمراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعاً للقتال، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميافارقين[1].

هـ ـ وأحياناً أخرى كان صلاح الدين يلجأ إلى الأساليب السياسية فيعمد إلى التحالف مع بعض الأمراء الآخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه إلى طلب الاستسلام، وقد جرب صلاح الدين هذا الأسلوب بتحالفه مع عماد الدين أمير سنجار أخيه عز الدين مسعود أمير الموصل[2]. وبالأساليب السابقة وباستخدام الحرب أحياناً أخرى تمكن صلاح الدين من أن يتم الوحدة ويعد العدة ليبدأ بمرحلة التحرير[3].

2 ـ السمات العامة لمواقف صلاح الدين في جهوده الوحدوية:

تتمثل السمات العامة في جهود صلاح الدين الوحدوية في عدة أمور منها:

أ ـ **الكرم بالمال واحتقاره**: ويظهر في كثرة ما وهب وأعطى لأتباعه وللوافدين عليه أو المستسلمين لحكمه، أو الموعودين منه بالعطاء، ومسامحته لجميع البلاد التي فتحها بديون الضرائب السابقة، وإلغاء المكوس والمظالم عدا الجبايات الشرعية، ولا شك أن ذلك لعب دوره في اجتيذاب الناس إلى صفوفه وفي إسكات خصومه.

ب ـ **خلقه السمح**: فكان يحارب المعادين لقيام الجبهة، فإذا هزمهم لم يسمح باللحاق بهم، ولا بقتل جرحاهم، ويطلق أسراهم ويتسامح أحياناً مع من يعرف أنهم أعداؤه ولا يظهر ذلك بل يغض على بصيرة؛ لأنه يريدهم أن يكونوا بعد الخصومة حلفاء له.

ج ـ **إيمانه الإسلامي العميق**: الذي كان لا يتمثّل في العبادات فقط، ولكن في الإيمان بأنّ الجهاد فريضة عليه أولاً وعلى الآخرين، فهو لا يرضى إلا بحملهم عليه.

د ـ **ترك الأمراء لإماراتهم**: أو إطعامها لقواده والمقرّبين أو للأعداء أحياناً، لأنه لا يريد

---

(1) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص: 161.

(2) المصدر نفسه، ص: 161.

(3) المصدر نفسه، ص: 161.

بعد ملك مصر وجنداً يقدمون له القوة اللازمة عند الطلب، وهذا ما يفسِّر تنازلاته ومفاوضاته الدبلوماسية ومنحه الأمان لمن يعاديه.

هـ ـ لم يظهر في البيت النوري خاصة ولا في أمراء نور الدين الآخرين شخصية سواه قوية قادرة على أن تحقق المبادىء الذي يعمل عليها نور الدين وأبوه من قبله.

و ـ محاولته بجانب كسب الجمهور الإسلامي كسب رضى الخليفة العباسي الذي ظلّ يؤمن أنه مصدر الشرعية الروحية لجميع المسلمين، فكان يواليه بالكتب تباعاً بمختلف المواقف يفسرها أحياناً، ويتهم خصومه أحياناً أخرى ويستأذن ثالثة ويُبشّر رابعة دون انقطاع، وتلخص من كل ذلك إلى أن قوة صلاح الدين إنما كانت بالتلاحم بينه وبين الجماهير الإسلامية من خلال أعماله وجهاده، وبوقوفه بالدفاع عن مطالب الجماهير المتمثلة في حماية دينها وعقيدتها والتصدي للغزاة، وإذا حارب صلاح الدين بعض حكام المسلمين، فإنما حارب فيهم مصالحهم الشخصية الخاصة وسيادتهم وأنانياتهم الصغيرة التي تدمر أحلام الناس لا أشخاصهم، وقد قضى في إقامة الجبهة الإسلامية الموحَّدة اثنتي عشرة سنة (570هـ ـ582هـ/ 1174 ـ 1186م) وكانت طموحاته خلالها أضخم بكثير من قوى جسمه وأمراضه، فهو عملاق حربي وكتلة أمراض جسدية، وكان حبه للجهاد هو الذي ينسيه آلامه ويجعله يتجاوزها[1].

3 ـ تكامل شخصيتين في التوحيد والتحرير:

مما تحدثنا به الأحداث والوقائع ندرك بسهولة ويسر أن شخصية نور الدين وشخصية صلاح الدين قد تكاملت جهودهما في توحيد الأمة على الجهاد والتحرير، وقد وفقهما الله لذلك وجاء صلاح الدين رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قائد من قادة نور الدين زنكي وأمير من أمرائه ليكمل مسيرة نور الدين محمود في توحيد الأمة الإسلامية وجمعها على الإيمان والولاء لله ولرسوله والذين آمنوا والبراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين وقتال الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين، ونهض بالأمة علمياً وشرعياً وجهادياً، فأقام الحدود والقصاص والتعزير وقضى على الظلم والفساد، ثم انطلق بعد أن هيأ الأمة الموحدة للجهاد في الشام ومصر والحجاز والعراق واليمن ليغزو الفرنجة ويطردهم من بلاد المسلمين، وكان صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ يعلن أنه أخذ كثيراً من أخلاق نور الدين وبخاصة عدله في الحكم وجهاده وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في عدل نور الدين وأخذه عنه تعقيباً على عدل نور الدين مع من أساء إليه: هذا هو الحق وكل

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 232.

ما ترى فينا من عدله فمنه تعلمناه[1]، وقال أبو شامة في تكامل الشخصيتين: فللّه درهما من ملكين قد تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل عي، نور الدين أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر جهاداً وأعم بلاداً، صبر وصابر ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح أنفسه وهو فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنهما أحقهما بقول الشاعر كم ترك الأول للآخر[2]، وقال عماد الدين الكاتب في نور الدين وصلاح الدين: فهما جددا الإسلام بعد دروسه وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين[3].

4 ـ توحيد الأمة عن طريق القوة:

إن الوقائع والأحداث جاءت بأن المسلمين عند بدء الحروب الصليبية كانوا متفككين، وكانوا دولاً متنازعة، وإمارات متحاربة، فجاء نور الدين زنكي يجمع الأمة على الجهاد ويوحدهما بمخاطبتها بالدليل الشرعي في الوحدة والاعتصام بحبل الله والاجتماع على قتال الصليبيين لتطهير المقدسات، وقد بينت الأحداث أن توحيد الأمة لا يقف عند أمنية الناس والشعوب، ولا عند رغبتهم فيها، بل يتعداها إلى وجود حكام مخلصين مؤمنين موحدين يرغبون من كل قلوبهم بتوحيد الأمة ويترجم هذه الرغبة جهود عملية مضنية من هؤلاء الحكام، وجهاد مستمر يبذل فيه الأنفس والأموال، بل ويتعدى ذلك إلى استخدام أسلوب القوة والحرب مع دعاة الانفصال والتمزق والتفرقة، وبغير هذا لا يقوم توحيد ولا وحدة، فلا غرو بعد هذه المقدمة الموجزة أن نجد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وأسرة زنكي إجمالاً وكذلك الأسرة الأيوبية وفي مقدمتها صلاح الدين الأيوبي قد حملوا راية التوحيد، توحيد الأمة لتكون صفاً في وجوه أعدائها الغازين، ووحدوها على الجهاد في سبيل الله، لقد وحدوها وحزموا كل الحزم في سبيل توحيدها فقاتلوا قتالاً مريراً وحاربوا حروباً كثيرة حتى فتحوا البلاد وطوعوها وطوعوا أمراءها للوحدة، كان الخطاب لهؤلاء الأمراء واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار وكان حازماً كل الحزم، لا هوادة فيه ولا تراجع، إما الاستجابة للوحدة وإما العزل عن الحكم والإمارة[4]، وقد وجه صلاح الدين

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 41).

(2) المصدر نفسه (1/ 26 أ 28).

(3) مفرج الكروب (2/ 193)، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 132.

(4) تأملات في الحروب الصليبية، ص: 136.

الأيوبي سنة (580هـ) قبل حطين وقبل تحرير القدس خطاباً إلى زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بإربل وما يجري معها من البلاد والقلاع وجاء فيه: إنّ الله مكن لنا في الأرض ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله، فنوضح سبيله، ونقبل على أعداء الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ونجمع كلمتهم في رفع العليا في أرضه على استنزال نصره في سمائه، فمن ساعدنا على هذه الفريضة واقتناه هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه فإن تاب ورجع قبلناه، وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه[1].

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه، فالمسلمون ليسوا أمة واحدة وليس لهم دولة واحدة تحكمهم وتدبر أمور حياتهم ولكنهم فرق تفرقوا شذر مذر، قد آلت الأحوال بهم إلى أسوإ مما كانت في الحروب الصليبية التي نتحدث عنها وأصبحت بلادهم نهبة لأعدائهم وخيراتهم ليست لهم، بل وفرضت عليهم مناهج الأعداء وقوانينهم.

إن الإسلام يوجب على دعاة الوحدة أن يجاهدوا دعاة الفرقة ويحملوهم على ذلك إلى أن يذهب بهم ويؤتي بغيرهم والله غني عن العالمين[2].

5 ـ الوحدة مطلب شعبي عام لا يقف أمامه حاكم انفصالي:

لما رفض حاكم دمشق استقبال صلاح الدين كارهاً للوحدة والجهاد ضد الصليبيين لم يقبل أهل دمشق منه هذا التخاذل واستقبلوا صلاح الدين وجيش صلاح الدين وأصبح النفوذ والحكم لصلاح الدين المجاهد ومن معه[3]، وها هو ذا المملوك سرخك حاكم قلعة حارم من أعمال حلب قد امتنع عن تسليمها لصلاح الدين الأيوبي وقد راسله في ذلك توحيداً لقوة المسلمين في جهاد الصليبيين، فأبى وأرسل الصليبيين ليحتمي بهم ضد صلاح الدين، فسمع من معه من الأجناد أنه يراسل الصَّليبيين، فخافوا أن يسلمها إليهم وقبضوه وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإقدام، فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلموا إليه الحصن[4].

6 ـ الوحدة بين مصر والشام وأهميتها:

إن الاتحاد بين مصر والشام له أثره الحسن على المسلمين، فهذا يشكل جبهة حربية

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 32، 33)، مفرج الكروب (2/ 163، 164).

(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 137.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: دروس وتأملات، ص: 138.

(4) المصدر نفسه، ص: 139.

وقاعدة شعبية عريضة وقوية في التصدي للصليبيين إذا أرادوا غزو أي بلد من البلاد في مصر وفي الشام، فكان إذا اعتدي على أي بلد في مصر هبت جيوش الشام بمساعدة المعتدى عليهم في مصر وذلك إما بإرسال الجيش الشامي للقتال جانب المسلمين في مصر أو بالقيام بالجيش الشامي بفتح جبهة أخرى ضد الصليبيين لتفريق قوتهم وتخفيف الضغط على إخوانهم، وهكذا إذا حدث العدوان على أي بلد من بلاد الشام، يهب الجيش المصري بنجدة إخوانهم على أرض الشام، وسيرة صلاح الدين وضحت كيف كان يتعاون الجيش المصري مع الجيش الشامي للتصدي للصليبيين وبخاصة في فتح عسقلان والمدن الساحلية أو الدفاع عنها[1]، وقد تمكن صلاح الدين من تحقيق الوحدة أحياناً بالدبلوماسية، وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى، وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأوقات، من تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات تحت سيادته وقيادته، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضد الصليبيين وأتمّ ذلك دون تعطيل الجهاد، إذا استمرت العمليات العسكرية الهجومية بقيادته هو بنفسه أو بقيادة أمرائه من القاعدة الرئيسة في دمشق[2].

7 ـ القاضي الفاضل وجهوده في التوحيد:

كان القاضي الفاضل العالم الكبير المؤثر في دولة صلاح الدين وكان صلاح الدين يشاوره ولا يقطع أمراً دونه ولا يُخفي عنه مكنونه ولا ضميره ولا مكنونه[3]، وكان قلم القاضي يحقق الانتصارات الإعلامية والسياسية والفكرية للدولة الأيوبية سواء في تواصله مع الخليفة العباسي، كما مرّ معنا أو التواصل مع الأمة الإسلامية من خلال موسم الحج، وكان صلاح الدين يسند إليه مهام إدارية واجتماعية واقتصادية وأمنية بمصر فيقوم بها على خير مقام وكان يراسله ويستفتيه في كثير من الأمور وهذه بعض فصول كتب وردت من القاضي الفاضل صلاح الدين وهو بالشام.

أ ـ سور القاهرة: وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شُرع فيه وظهر العمل وطلع البناء وسلكت به الطريق المؤدّية إلى السّاحل بالمقسم، والله يُعمِّر المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سَواراً يكون به الإسلام مُحلّى اليدين، مُحَلّا الضّدّين والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله[4].

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 203.

(2) البداية والنهاية (16/ 576).

(3) كتاب الروضتين (3/ 6).

(4) المصدر نفسه (3/ 6).

ب ـ في حق نقل القضاء من شرف الدين ابن أبي عصرون: ولما ذهب بصره إلى ولده: لن يخلو الأمر من قسمين ـ والله يختار للمولى خِيَرَة الأقسام ولا ينسى هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام ـ إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقي رأيه ومشاورته، فتياه وبركته ويتولّى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوّل زلّة، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصّالحة، وإما أن يُفوّض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه[1].

ج ـ ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدُّد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّةُ رُشده، وأليس الله العالم بعبده وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له ولكن عن النيّة لأنها محلُّ تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى « آخذاً» في أسباب الجهاد وتنظيف الطُرُق إلى المُراد فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمدها وهو منه على أمل في نُجح موعدها، والثّواب على قدر مشقّته، وإنّما عَظُمَ الحجُّ لأجل جُهده وبُعد شقّته، ولو أنّ المولى فتح الفتوح العظام في أقل الأيّام، وفصل القضيّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البرّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت[2].

د ـ في ذكر أولاد السلطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنبشّر بما جرت العادة به، لا قطع الله تلك العادة، من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا أولاده السّادة أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم، وعجّل لقاءه لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم . . . فهم بحمد الله ـ بهجة الدنيا وزينتُها وريحان الحياة وزهرتها، وإن فؤاداً وسع فراقهم لواسع وإن قلباً قنع بأخبارهم لِقانِع، وإن طرْفاً نام عن البعيد عنهم لهاجع، وإن ملكاً ملَكَ تصبُّره عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمةٌ بها العيش ناعم، أما يشتاق جيْدُ المولى أن يتطوّق بدُرَرِهم؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروّى بنظرهم ؟ أما يحنُّ قلبه على قلبه؟ أما يلتفظ هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه ؟ وللمولى ـ أبقاه الله تعالى ـ أن يقول:

وما مثلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةٌ ولكنّ قلبي في الهوى بقلوب

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كفالة العافية لا رَفَعت عنهم كفالتها وعليهم جلالة

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 6).

(2) المصدر نفسه (3/ 7) .

السلطنة لا فارقتهم جَلالَتُها، وكلٌّ من الموالي السّادة الأمراء الأولاد، والقِلادة كلُّها جوهر، وكلُّهم المقدَّم، وليس فيهم ـ بحمد الله ـ من يؤخرهم على ما عوَّد الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية . . . والله تعالى يمدُّ في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جَدُّهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أهل بيته من البطن الرّابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرة وتبابعة:

وما فيهم عِندَ العلاءِ صغير وصغارُ أبناءِ الكِبارِ كبارُ

نجوم الأرض، وذرية بعضها من بعض والخالف الصّالح المحض وهم في الدُّنيا والآخرة فُرسان القوّة والتُّقى يوم الحرب ويوم العرض[1].

هـ ـ ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظّاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل[2] مبتوتة من عصمة وتطهير كل موسومة بوصمة، فالله يثيب المولى ثواب من غَضِبَ ليُرضيه بغضبه وحمل الخَلْقَ على مِنهاج شرعه وأدبه[3].

و ـ في إسقاط الضرائب والمكوس على الحجاج: من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عهد لملك من ملوك الدّيار المصرية بالحُصول على فخرها وأجرها: انقطاع المكّاسين عن جُدَّة وعن بقية السّواحل ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم لحُجَّة، فقد كان الفُتيا على سقوطه مع وجود الجامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه أن يتوخّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَر فيهما على خير فأضاع فُرصتَهُ بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همَّة الفرنج بالقدس برًّا وبحراً، ومركباً وظهراً، وسِلْماً وحرباً، وبُعداً وقرباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مَرّ الأيام ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحقّ وتضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال[4] والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله يُعوِّل على السَّفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى والمولى شريك في أجرهم، فلَيهْنه أن الملوك عمرت بيوتها

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 8).

(2) المصدر نفسه (3/ 9)، المبتوتة المرأة المطلقة طلاقاً بائناً.

(3) المصدر نفسه (3/ 9).

(4) البرق الشامي (3/ 106)، كتاب الروضتين (3/ 11).

فخربت، وأنَّ المولى عَمرَ بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يَعمُر بيت المولى، وما أشدَّ خجل الملوك من النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة[1]، وكانت هذه حجة سنة (574هـ) وفي عام (576هـ) استأذن القاضي الفاضل صلاح الدين في الحج فوافق السلطان ورد على القاضي الفاضل وكتب إليه على رأس الرُّقعة في سطر البسملة: على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً[2].

وجاء في رواية أن السلطان صلاح الدين رد على طلب القاضي الفاضل كتاباً وجاء فيه على حجة الأول سنة (574هـ): وصلني كتاب القاضي الفاضل وهو يذكر أنه مصمِّمٌ على الحج، الله يجعله مباركاً ميموناً لا يركب بحر، يسير من العسكر إلى أيلة ومنها يتوجّه ويقيم العسكر على أيلة ليلة، وعلى إرَم ليلة ودون ليلة، وقاطع إرَم ليلة، هو قد بَعُدَ وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية: تأخذ يده وتحلفه أنه لا يجاور وثالثة: تُعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار وتقول له: لا بُدَّ ما تخرج هذا عني لا عنك في المجاورين بمكة والمدينة، وفي أهلها، هذا أمر لا بُدَّ منه، فإن النّاس لا بُدَّ لهم من الطّلب، ولا بُدَّ من العطاء وإن قال: إن الشيء قليل، فأنت تقرضني هذا المبلغ من مالك وتعطيه إياه، فلا بُدَّ، وإلا فلا إذن له في الرَّوَاح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتها وأما مجيئه فيجيء إلى الشام، فأنا ما بقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87]. وكتب القاضي الفاضل إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه: سقي الله الحجاز وحيًا كعبته، ويا طول ما ترشقني سهام الشّوق الذي أصبح الذكر جَعْبَتَهُ، آهاً على تلك المواقف، وتبًّا لمن رضي أن يكون مع الخوالف فَرَغياً ونُعمى وحسنة وحُسنى لمجاوري ذاك الحرم ولعامري أيامه التي هي الأيام لا أيام ذي سَلَم، فَيَا لَهفَ الصُدور وطول غَليلها إلى وُرودِ ماء زمزَمِهِ وطوبى لمن استضاء في مَضَالِّ الظُّلمَ بِعَلَمِهِ، ومهما نسيت فلا أنسى بَرْدَ الكَبِدِ بحرِّ صيفها، ومَوسم الأنس بثلاث مِنّاها وخَيْفها:

آهاً عليها ليالٍ ما تَرَكْنَ لنا ... إلا الأسى وعُدلاتٍ من الحُلُم

عسى الرِّياح إذا سارت مبلّغة ... توفي فقد غَدَرَ الأحبابُ بالذِّمَمِ

ثم قال: فأما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون وأحاديث كلها شجون، وكانت العقبى إلى سلامة ولما قاربنا الكَرك نهض العدوُ، فلم تمكنه الرجعة ولا التعريج

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 11).

(2) كتاب الروضتين (3/ 24)، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 73].

جانباً، ثم من الله تعالى بانجلاء النُّوبة ووصلنا إلى بلاد السلطان، ولقينا ذلك الوجه، فلا عَدِمنا بِشره وذلك الفضل فلا فارقت أعيُننا فجره ووجدناه في الغَزاة جاهداً وللعدو مجاهداً أوقاته مستغرقة، وعزماته محققة[1].

ز ـ رغبة صلاح الدين في الحج عام (576هـ): قال العماد: وفيها في رجب وصلت رُسُلُ الدِّيوان العزيز النّاصري صدر الدين شيخ الشيوخ، أبو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتّشريف الجديد فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي وعلى صفحاته بشائر الترقي، فلما تراءى الرُّسل الكرام، ووجب له الإجلال والإعظام، نزل وترجّل، وأبدى الخضوع وتوجّل، ونزل الرُّسُلُ إليه، وسلّموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبّل الفرض وقبّل الأرض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة[2]... وظفر السلطان من صدر الدين بصديق صَدُوق وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلوك طريق أيلة والبريّة، فحَسَّن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغّبه في زيارة قبر الشّافعي ﷺ فقال: قد عزمت في هذه السنة على الحج، فأَصِلُ معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشّافعية وأسير منها إلى بحر عَيْذاب[3]، فلعلي أدرك صوم رمضان بمكّة فالتزم له ذلك وأعاد أصحابه إلى بغداد، ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته ومعه رسوله ضياء الدين الشهرزوري وأنشأ العماد كتاباً في الجواب إلى الدِّيوان وفيه: وقد توجّه الخادِم إلى الديار المصرية لتجديد النّظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه[4]. وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن يُعلمهم أن ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة السُّلطان، وأنه عازم على القدوم على مصر وصوم رمضان بها، والحجّ إلى بيت الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزوار والخِلعَ مما تشتمل عليه تلك الأعمال[5]، وكتب القاضي إلى أمير مكة وأمير ينبع يعلمهما بذلك ليتأهّبا لقدومه[6]. وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين: جعل الله الملوك ذِمّة لسيفه وشرّد منام الأعداء منهم بطيفه، وأمّن أهل الإسلام

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 25، 26).

(2) كتاب الروضتين (3/ 66).

(3) هو البحر الذي يمتد من أرض العرب إلى جُدّة حتى اليمن.

(4) سنا البرق الشامي (1/ 353 أ 254).

(5) كتاب الروضتين (3/ 68).

(6) المصدر نفسه (3/ 68).

بعدله من جور الدهر وحَيْفه وأشهده موقف الحجِّ الأكبر، وزان بمحضره مشهد خَيْفِه[1]، وجعل وفده الأكرم وضيف بيته منتظمين[2] في هذه السنة في وفده وضيفه، ثم هنّأه بما فتح الله عليه من محبة الجهاد، وما أثّره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، وما تبع ذلك من نية الحج، بلّغه الله منه المراد[3]، ويبدو أن السلطان سنح له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له ما منعه[4] منه.

ح ـ مرض صلاح الدين وأثره على مجرى الأحداث: في عام (581هـ) واتفق أنه مرض مرضاً شديداً وهو يتجلد ولا يُظهر شيئاً من التألُّم حتى قوي عليه الأمر وتزايد الحال حتى وصل إلى حرّان، فَخيَّم هُنالك من شدة ألمه وشاع ذلك في البلاد فخاف الناس عليه وأرجف الكفرة الملحدون وخاف أهل البرّ والمؤمنون، وقصده أخوه أبو بكر العادل من حلب بالأطبّاء والأدوية، فوجده في غاية الضعف، وأشار عليه بأن يوُصِيَ ويعْهَدَ، فقال: ما أبالي وأنا أُتركُ من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ـ يعني أخاه العادِل صاحب حلبَ، وتقِي الدين عمَر صاحب حماه وهو إذ ذاك نائب مصر، وهو بها مقيم وابنيه العزيز عثمان والأفضل عليًا ـ ثم نذر لله تعالى لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفنَّ همته كلها إلى قتال الكفار ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن أكبر همِّه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الأموال والذخائر وليقتلنَّ البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لأنه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه فغدر بقافلة من تجار مصر، فأخذ أموالهم وضرب رقابهم صبراً بين يديه، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم؟ وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل رحمه الله وهو الذي أرشده إلى ذلك وحثّه عليه حتى عقد مع الله عز وجل، فشفاه الله عز وجل، وعافاه ممّا كان ابتلاه به من ذلك المرض الذي كان فيه، كفارة لذنوبه ورفعاً لدرجته ونصرة للإسلام وأهله، وجاءت البشائر بذلك من كل ناحية وزُيِّنت البلاد ولله الحمد والمنة[5]، وكتب القاضي الفاضل من دمشق وهو مقيم بها إلى المظفَّر تقيِّ الدين عمر نائب مصر لعمِّه الناصر، أن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وأنوارها وآثارها وولت العِلّة ولله الحمد، وأطفئت نارُها، وانجلى غُبارها وخمد شَرارُها، وما كانت إلا فلتة وقى الله

---

(1) الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء.

(2) كتاب الروضتين (3/ 68).

(3) كتاب الروضتين (3/ 68).

(4) المصدر نفسه (3/ 69).

(5) البداية والنهاية (16/ 570).

شرُّها، وعظيمة كفى الله الإسلام أمرها، وما كان الله ليُضيع الدعاء وقد أخلفته القلوب ولا ليُوقف الإجابة وإنَّ سدت طريقها الذنوب ولا ليُخلف وعد فَرَجٍ وقد أيِس الصاحبُ والمصحوب.

نِـعـيٌّ زاد فـيـه الـدهـر مـيـمـاً فـأصـبـح بـعـد بُـؤسـاه نَـعـيـمـا

ومـا صـدق الـنـذيـر بـه لأنّـي رأيـت الـشـمـس تـطـلـع والـنـجـومـا

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضّة جديدة والنشاط إلى الجهاد، والجنة مبسوطة البساط وقد انقضى الحساب وجُزنا الصِّراط وعُرِضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سَمِّ الخياط[1]. وقد وصف العماد مرض السلطان صلاح الدين فقال: . . . والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلّما بان ضعفُه قَوِيَ على الله توكُّله، وأنا ملازمه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وهو يُملي عليّ في كل وقت وصاياه ويُفرِّق بقلمي على عُفاته عطاياه[2] . . . وكان خِلقه أحسن ما كان في حال الصحة يخاطبنا بسجاياه السهلة السّمحة، ولا يخلو مجلسه من أولي فَضلٍ وذوي نباهة ونُبل، يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية وآونة في صناعات شِعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيَم الأمجاد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له والاستعداد، وينذر أنه إن خلّصه الله من نَبْوةِ هذه النوبة، وأعفاه الله من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصّافية الحُلْوة، اشتغل بفتح البيت المقدسي ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله وإنجاد أهل الإسلام والإقبال على قبيله، وأنه لا يترك شمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود وإنجاز الموعود، وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لإشارة الأطباء به لأجل التفريج والإمتاع ولقد كان ذلك المرض تمحيصاً من الله للذُّنوب وتنزيهاً، وتذكرةً موقظة من سِنَةِ الغفلة وتنبيهاً[3]. وكانت صادقاته الرّاتبة دارّة، وبالأبرار بارّة، على أن جوده مستوعب الموجود ولا يترك فضلاً للوفود[4] . . . فدفع بالصَّدقة البلاء، ورفع للصِّدق الولاء، ونظر الله إلى النيات[5].

(1) البداية والنهاية (16/ 571).

(2) كتاب الروضتين (3/ 238).

(3) المصدر نفسه (3/ 239).

(4) المصدر نفسه (3/ 240).

(5) المصدر نفسه (3/ 240).

8 ـ وفاة شخصيات مهمة في هذه المرحلة:

أ ـ وفاة عصمة خاتون: في عام (572هـ) تزوج السلطان صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أُنَر وكانت زوجة الملك نور الدين محمود، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرَّمة وَولي تزويجها منه أخوها سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومن معه من العدول، وبات صلاح الدين عندها تلك الليلة والتي بعدها[1]، وكانت من أحسن النساء وأعَفِّهِنَّ وأكثرهنَّ صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجُوانية بمحلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النَّصر في أوّل الشرف القبلي على بانياس ودُفنت بتُربتها في سفح قاسيون قريباً من قباب الشَّركسيَّة وإلى جنبها دار الحديث الأشرفية والأتابكية ولها أوقاف كثيرة غير ذلك وقد توفيت عام (581هـ)[2].

ب ـ وفاة الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن مُعين الدين: كان من الأمراء الكبار أيام نور الدين وصلاح الدين وهو أخو الست خاتون عصمة الدين، وحين تزوَّجها صلاح الدين زوّجه أخته السِّت ربيعة خاتون بنت أيوب، التي تنسب إليها المدرسة الصلاحية بالسَّفح على الحنابلة، وقد تأخرت مدّتها فتوفيت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة وكانت آخر من بَقي من أولاد أيوب لصُلبه وكانت وفاته بدمشق في جُمادى الآخرة سنة (581هـ) من جُرح أصابه وهو في حصار ميَّافَارِقين[3].

ج ـ وفاة توران شاه أخو صلاح الدين: في عام (576هـ) توفي أخو السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه صلاح الدين، فمكث فيها حيناً واقتنى منها أموالاً جزيلة، ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وقد كتب إليه من أثناء الطريق شِعراً عمله له شاعره ابن المنجّم وكانوا قد وصلوا إلى تيماء:

فهل لأخي بل مالكي علمٌ أنّني ... إليه وإن طال التردُّد راجعُ
وإني بيومٍ واحدٍ من لقائه ... لِمُلكي على عُظم المزيَّةِ بائع
ولم يبق إلّا دون عشرين ليلةً ... وتجنى المُنى أبصارُنا والمسامع
لدى مَلِكٍ تَعْنُو الملوك إذا بدا ... وتخشع إعظاماً له وهو خاشع

---

(1) البداية والنهاية (16/ 518).

(2) المصدر نفسه (16/ 573).

(3) المصدر نفسه (16/ 573).

كتبتُ وأشواقي إليك ببعضها … تعلَّمت النّواحَ الحمام السَّواجع
وما الملك إلّا راحة أنت زندُها … تضُمُّ على الدنيا ونحن الأصابع[1]

وكان قدومه إليه في سنة إحدى وسبعين فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على الإسكندرية فلم توافقه وكان يعتريه القولنج، فمات بها ودفن بقصر الإمارة فيها، ثم نقلته أخته ستُّ الشام بنت أيوب في تابوت إلى دمشق ودفن بالمدرسة الشامية[2] ومعنى توران شاه: ملك المشرق[3]. وكان الملك توران شاه كريماً جواداً ممدحاً شجاعاً باسلاً عظيم الهيبة كبير النفس واسع الصدر[4]. ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين وهو مخيم بظاهر حمص، حزن عليه حُزناً شديداً، وجعل يُنشدُ باب المراثي من الحماسة وكانت محفوظة[5].

د ـ وفاة الملك المنصور عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب: توفي في عام (578هـ) وهو صاحب بعلبك ونائب دمشق لعمِّه الملك صلاح الدين، وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك أيضاً بعد أبيه، وكان فرُوخ شاه شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً ذكياً فاضلاً كريماً ممُدَّحاً، امتدحه الشعراء لجوده وفضله وإحسانه وكان من أكابر أصحاب الشيخ تاج الدين أبي اليمن الكندي وله في الكندي مدائح، ومن مواقفه التي تدل على شهامته ومروءته أنه دخل يوماً إلى الحمّام فرأى رجلاً كان يعرفه من أصحاب الأموال، وقد نزل به الحال حتى إنه تستَّر ببعض يديه حتى لا يبدو جسمه، فرقّ له وأمر غلامه أن ينقل بقُجة وبساطاً إلى موضع الرجل وأحضر له بغلة وألف دينار وتوقيعاً له في كل شهر بعشرين ديناراً، فدخل الرجل من أفقر الناس وخرج وهو من أغنى الناس فرحمة الله على الأجواد الأكياس[6].

هـ ـ وفاة أحمد الرفاعي مؤسس الرفاعية: هو الإمام، القدوة العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد الرفاعي المغربيُّ ثم البطائحي، قدم أبوه من المغرب، وسكن البطائح، بقرية أُمّ عبيدة، وتزوج بأخت منصور

---

(1) البداية والنهاية (16/ 546).
(2) سير أعلام النبلاء (21/ 53).
(3) المصدر نفسه (21/ 53).
(4) البداية والنهاية (16/ 546).
(5) المصدر نفسه (16/ 546).
(6) المصدر نفسه (16/ 559).

الزاهد ورزق منها الشيخ أحمد وإخوته، وكان أبو الحسن مقرئاً يؤمُّ بالشيخ منصور، فتوفي وابنه أحمد حمل فربّاه خاله، فقيل: كان مولده في أول سنة خمس مئة، قيل: إنه أقسم على أصحابه إن كان فيه عيب يُنبِّهونه عليه فقال الشيخ عمر الفاروثيُّ: يا سيِّدي أنا أعلُم فيك عيباً. قال: ما هو؟ قال: يا سيِّدي، عيبُك أننا من أصحابك، فبكى الشيخ والفقراء، وقال: أي عمر: إن سَلِم المركب حمل من فيه، وقيل: إن هرة نامت على كم الشيخ أحمد، وقامت الصلاة فقص كُمَّهُ وما أزعجها، ثم قَعد، فوصله وقال: ما تغير شيء وقال: أقرب الطريق الانكسار والذُلُّ والافتقار؛ تُعظِّم أمر الله وتشفق على خلق الله وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ[1]، وكان لا يقوم للرؤساء ويقول: النَّظر إلى وجوههم يُقسِّي القلب وكان كثير الاستغفار، عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص، توفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة في جمادى الأولى[2].

9 ـ ما قيل من شعر:

أ ـ في وقعة مرج العيون: قال الشاعر ابن التّعاويذي في مدح صلاح الدين:

كاد الأعادي أن يُصيبك كيدُها ... لو لم تَكِدْك برَأيها المأفون

تُخفي عداوَتها وراء بشاشة ... فتَشِفُّ عن نظر لها مشفون[3]

دَفَنَت حبائل مَكْرِها فرددتها ... تدوي بغيظ صُدُورها المدفون

وعلمت ما أخفوا كأنَّ قُلُوبهُم ... أفضت إليك بسرِّها المخزون

كمنوا وكم لك في كمين سعادة ... في الغيب يظهر من وراء كمين

فهوت نجوم سُعُودِهِم وقضى لهم ... بالنحس طائرهم بمرج عيون[4]

وجاء في تلك القصيدة:

أضحت دمشقُ وقد حَلَلْت بجوِّها ... مأوى الطريد ومَوْئِل المسكين

لك عفةٌ في قُدرةٍ وتواضعٌ ... في عزة وشراسة في لين

---

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 79).

(2) المصدر نفسه (21/ 80).

(3) مشفون : من الشفن أن يرفع الإنسان طرفه ناظراً إلى الشيء كالكاره له أو المبغض.

(4) كتاب الروضتين (3/ 33).

وأريتنا بجميل صُنعِكَ ما روى ... الرّاوون عن أُمَمٍ خلت وقرون
وَضَمِنْتَ أن تُحيي لنا أيامهم ... بالمكرمات فكنت خير ضمين[1]

ب ـ ما قاله أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

جاء أسامة بن منقذ إلى دمشق في عام (570هـ) وقال:

حمدتُ على طول عُمري المشيبا ... وإن كنت أكثرت فيه الذُنوبا
لأني حَييتُ إلى أن لقِيتُ ... بعد العدوّ صديقاً حبيبا[2]

10 ـ موقف العلماء ممن يسب الصحابة:

في عام (574هـ) احتيط ببغداد على شاعر للرّوافض، يقال له: ابنُ قرايا. يقف في الأسواق ويذكر أشعاراً يُضَمِّنها ذمّ الصحابة ﷺ، وسَبَّهم وتجويرهم، وتهجين من أحبَّهم فعُقِد له مجلس بأمر الخليفة واستُنطق فإذا هو رافضي جلد داهية فأفتى الفقهاء بقطع لسانه ويديه فَفُعل به ذلك، ثم اختطفته العامّة فما زالوا يرمونه حتى ألقى نفسه في دجلة فاستخرجوه منها وقتلوه حتى مات، فأخذوا شريطاً وربطوه في رجليه وطوّفوا به في البلد يجُرجرونه في أكنافها، ثم ألقوه في بعض الأتونات مع الآجُرّ والكِلْس[3]، وعجز الشُرط عن تخليصه منهم[4].

11 ـ دخول صلاح الدين بلاد الأرمن:

في سنة (576هـ) وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج وتوجّه إلى بلد الرُوم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا وبين السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان واجتمعوا على نهر يُقال له: كوك سُو[5]، وكثرت ثم الهدايا والدّعوات، والأفراح والهبات[6] وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقلع ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاد بالأمان، ثم

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 34).
(2) المصدر نفسه (2/ 433).
(3) البداية والنهاية (16/ 531)، الكلس : ما طلي به الحائط.
(4) البداية والنهاية (16/ 531).
(5) هو النهر الأزرق من فروع الفرات في طرف بلاد الروم من جهة حلب.
(6) كتاب الروضتين (3/ 55).

صَبَّحهم بغدره وحَصَلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده، وأذلَّ أعوانه وأجناده ونصر الله المسلمين بالرُّعب، فأحرق من الخوف قلعة شامخة تُعرف بالما نقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغلّات فتقوّوا بها وتمموا هدمها إلى الأساس[1]، وأذعن الأرمني وذَلَّ وأطلق ما بيده من الأسارى ورجع السلطان مؤيّداً منصوراً ووصل إلى حماه في أواخر جُمادى الآخرة[2].

12 ـ المنجمون وهلاك العالم:

في سنة (582هـ)، كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوّفوا بذلك من لا وثوق له باليقين ولا إحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب وتوثيقها وسدّ منافسها على الرِّيح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد وكلّما سمعنا أخبارهم استغرقنا في الضحك من عقولهم، وصلاح الدين متنمّر من أباطيل المنجِّمين موقن أن قولهم مبنيٌّ على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عيَّنها المنجمون لمثل ريح عاد[3]، ووصف لنا العماد تلك الليلة فقال: وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع الزّاهرات جامع، وما يتحرك لنا نسيم ولا لسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مُسِيْمٌ، وما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها وهدوِّها وهدونها [4].

13 ـ مراعاة الخليفة العباسي لرعاياه من اليهود:

وفي سنة (573هـ). جرت فتنة عظيمة بين اليهود والعامّة ببغداد، وكانت بسبب أن مؤذِّناً عند كنيسة اليهود نال منه بعض اليهود بكلام، فشتمه المسلم فاقتتلا، فجاء المؤذّن يشتكي منه إلى الديوان وتفاقم الحال، وكثرت العوام وأكثروا الضَّجيج، ولمّا كان يوم الجمعة مَنعت العامة إقامة الخطبة في بعض الجوامع وخرجوا من فورهم، فنهبوا سوق العطّارين الذي فيه اليهود وذهبوا إلى كنيسة اليهود فنَهبوها، ولم يتمكن الشُّرطة من رَدِّهم فأمر الخليفة بصلب بعض العامة، فأخرج في الليل جماعة من الشُّطار الذين كانوا في الحبوس وقد وجب عليهم

(1) كتاب الروضتين (3/ 55).

(2) سنا البرق الشامي (1/ 347 أ 348).

(3) كتاب الروضتين (3/ 264).

(4) المصدر نفسه (3/ 264).

القتل فصُلبوا، فظنّ كثير من الناس أن هذا كان بسبب هذه الكائنة، فسكنت الفتنة ولله الحمد[1].

14 ـ مقتل وزير الخليفة عضد الدولة :

وفي سنة (573هـ) خرج وزير الخليفة عضد الدولة ابن رئيس الرُؤساء ابن المُسلمةِ قاصداً الحج وخرج الناس في خدمته ليَودّعوه، فتقدم إليه ثلاثة من الباطنية في صورة فقراء ومعهم قِصَصٌ فتقدم أحدهم ليُناوله القصة فضربه بالسكين ضَربات وهجم الثاني، وكذا الثالث فهبروه وجرحوا جماعة حوله وقُتل الثلاثة من فورهم وحَرّقوا، . ورجع الوزير إلى منزله محمولاً فمات من يومه، وهذا الوزير هو الذي قتل ولَدَي الوزير ابن هُبيرة وأعدمهما، فسلط الله عليه من قتله وكما تدين تدان، جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46][2].

15 ـ تعويض الله لخلقه:

استهلت سنة (577هـ) والملك الناصر صلاح الدين مقيم بالقاهرة مواظب على سماع الأحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرُوخ شاه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وأن الشام مُخصِبٌ بإذن الله جبراً لما كان أصابهم من الجدب والغلاء[3].

16 ـ ترتيب صلاح الدين لأموره الإدارية والعسكرية قبل حطين:

عاد صلاح الدين من شرق الفرات إلى دمشق يوم 2 ربيع الأول 582هـ فاستقبل استقبالاً كبيراً من عامة الناس وخاصتهم، العامّة احتفالاً بشفائه من المرض الذي كثرت حوله الأراجيف واشتد القلق، والخاصة احتفاءً بمثل ذلك وبتحقيقه الهدف الذي جمع كلمة المسلمين بتوحيد البلاد التي تُشَكّل قلب العالم الإسلامي بقيادة الخليفة العباسي في العراق وقيادة السلطان بتفويض الخليفة وعلاماته على كتبه في كل الجزيرة الفراتية والشام ومصر واليمن وغيرها، وكان أول من اجتمع به بعد أهله، وزيره الكبير ومستشاره الخطير وعقل دولته المُدَبّر، القاضي الفاضل[4] يذكر العماد: . . واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع

---

(1) البداية والنهاية (168/ 525).

(2) المصدر نفسه (16/ 525).

(3) المصدر نفسه (16/ 551).

(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 263.

المرجف عن جهله وحسنت الأحوال وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهد الفاضِليّة واجتمع السلطان به فَبثَّه أسراره واستذال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنّته وجنى ثماره، وزاره مرّة واستزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره[1].

فما الذي حقّقه صلاح الدين في حملته على البلاد الموصليّة؟ وما الإجراءات الإدارية والعسكرية التي قام بها بعد عودته إلى دمشق لترتيب دولته والاستعداد للمواجهة الكبرى؟:

أ ـ تمّ الصلح مع صاحب الموصل من آل زنكي، وقطعت الخطبة السلجوقية فيها وخطب للسلطان صلاح الدين بعد الخليفة العباسي وتنازل للسلطان عن كل ما وراء نهر الزاب «من البلاد والحصون والقلاع والضياع وشهرزور، ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة»، مقابل إبقاء الموصل وأعمالها بيده: على أن يكون بحُكْمِنا ويُنفذ عسكره إلى خِدمتنا وتكون الخطبة والسِّكة باسمنا[2].

ب ـ تمت الخطبة والسكة والطاعة لصلاح الدين في بلاد الجزيرة الأخرى، وديار بكر خاصة التي كانت بيد بني أرتق، وتقديم العساكر لمساعدة السلطان في الجهاد عند الطلب، لأن: العزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع[3].

ت ـ أضاف صلاح الدين الرّها وقلعتها وولايتها إلى إقطاع كُوكُبُري بن زين الدين علي كوجك الذي كان أول من سانده في عمليات شرق الفرات منذ البداية، وذلك لتوفره في الخدمة السلطانية على حفظ القوانين، وظهر منه ما حقق به الاستظهار وأوجب لأمره الإمرار[4]. وكان هو الأمير الذي عهد إليه قيادة كل القوات الشرقية في معركة حطين[5].

ث ـ ألغى السلطان المكوس (الضرائب غير الشرعية) في كل البلاد التي خضعت لسلطته المباشرة أو التي خضعت له بصورة غير مباشرة، فهذا هو: دأب السلطان في جميع البلاد واقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي: الخراج والأُجُور والزرع[6] وغيرها.

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 69).
(2) المصدر نفسه (2/ 64).
(3) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 264.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن: صلاح الدين القائد وعصره، ص: 264.
(5) المصدر نفسه، ص: 265.
(6) المصدر نفسه.

وأما أمور بيته الخاصة وبيت عمه فقد اتّخذ إجراءات أولى في حلب وصحب معه العادل إلى دمشق حتى يتقرر الأمر في التراتيب النهائية بعد التشاور مع القاضي الفاضل وغيره وفي الطريق رتّب أمور حمص التي توفي صاحبها ابن شيركوه، فعين ابنه مكانه وألزمه بحفظ الثغر الحدودي هناك كما ألزمه بالتقيد بالضرائب الشرعية. وأمضى صلاح الدين بقية سنة (582هـ/ حزيران 1187 ـ آذار 1187م) في استكمال التراتيب الإدارية والاستعدادات العسكرية في مصر وبلاد الشام.

ـ عين صلاح الدين ابنه الظاهر غازي على حلب مكان أخيه الملك العادل، والد زوجة الظاهر، باتفاق بين الأخوين، وولّى قلعة حلب الأمير بشاره والمدينة الأمير شجاع الدين عيسى بن بلاشو[1].

ـ استدعى الملك الأفضل، ابنه الأكبر، في مصر إلى دمشق ليعينه نائباً فيها، وعين ابنه العزيز عثمان نائباً في مصر ورتّب معه أخاه الملك العادل لإدارة مصر، وأقطعه إقطاعاً مناسباً فيها رضي به العادل عن طيب خاطر.

ـ وأثار هذا الإجراء الأخير تقي الدين عمر ابن أخيه الذي قرّر التوجه إلى المغرب والسيطرة عليه وإقامة ملك فيه، لكن ذلك سيؤثر حتماً على مخططات صلاح الدين العسكرية، إذ كان تقي الدين من أبرز رجال دولته وقادة عسكره ومشورته، فأرسل صلاح الدين إليه يسترضيه ومما يؤثر عن السلطان قوله: لعمري إن فتح المغرب مهم، لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة به أتمّ، والمصلحة منه أخصُّ وأعم وإذ توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرّجال وإذا فتحنا القدس الساحل طوينا إلى تلك المماليك المراحل[2]. ثمّ كتب إلى تقي الدين يأمره بالقدوم إلى الشام، كما كتب القاضي الفاضل إليه أيضاً وقول القاضي مسموع: سبب هذه الخدمة «الكتاب» ما اتصّل بالمملوك «القاضي الفاضل» من تَرَدُّدِ رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب يا مولانا ما هذا الواقع الذي وقع وما هذا العَريم من الهمّ الذي ما اندفع، بالأمس ما كان لكم في الدنيا إلا البُلْغةَ واليوم قد وهب الله هذه النِّعمة، وقد كان الشّمل مجموعاً والهمّ مقطوعاً ممنوعاً، أفتصبح الآن الدنيا ضيِّقة علينا وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت يا مولانا إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقة عيش أو في قلة من عَدَد؟ أو في عدم من بلاد؟ أو في شكوى من عدم؟ كيف تختار على الله وقد اختار لنا؟ وكيف نُدَبّر لأنفسنا وهو قد دبّر لنا؟ وكيف نتتجع الجَدْب ونحن في دار الخصْب؟ وكيف نَعْدل إلى حرب الإسلام

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: صلاح الدين القائد وعصره، ص: 265.

(2) المصدر نفسه، ص: 266.

المنهيّ عنها ونحن في المدْعُو إليها من حَزْب أهل الحرب؟ معاشر الخُدّام والجيش وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقَّب الرأي وانظر في أواخره فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يمضي الآراء الصائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولا خلت منه دار إن خلت، ولا عَدِمته أيام إنْ لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر[1]، فكيف يستطيع الأمير الكبير بعد هذه الحجج ألا يستجيب للأمر السلطاني فيتوجّه بجميع أهله وعساكره إلى دمشق فتلقاه السلطان في مرج الصُفّر في 23 شعبان 582هـ، 10تشرين الثاني 1186م ودخلا معاً إلى دمشق وأقطعه السلطان حماه وبلادها وأمره بحماية ثغورها فتوجه إليها حتى تأتيه أوامر السلطان، وبهذه التراتيب المحكمة تمكّن صلاح الدين والقاضي الفاضل من ترتيب أمور الدولة من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، وتفرّغ للاستعداد والتجهيز لحملته الكبرى التي كان ينتظر قدوم وقتها، وفي ذات الوقت كانت الأوضاع السياسية في مملكة الصليبيين تزداد سوءاً والخلاف بين حزب البارونات النبلاء وحزب الملك ومؤيديه يبلغ أوجه، ممّا دفع الكونت ريموند الثالث، الذي أُبعد عن وصاية العرش بتتويج غي دي لوزيجنيان زوج الملكة الوارثة للعرش، إلى مهادنة صلاح الدين عن بلاده (طرابلس) وبلاد زوجته (طبّرية) بحيث قيل عنه في المصادر العربية: . . . فالتجأ إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقوّاه وشدّ عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مُناصحته للمسلمين، وكان السبب الذي دفع ريموند إلى ذلك الاتفاق هو أن مقدّم الداوية نصح الملك غي بجمع القوات ومحاصرة ريموند وإجباره على الاستسلام، فنفذ الملك عملية جمع القوات، لكن باليان بن بارزان ـ صاحب نابلس ـ أقنعه بخطأ هذه الحركة ـ ففرق القوات وعاد إلى القدس وأقام صلاح الدين في دمشق ينتظر الفُرصة المناسبة لجمع العساكر والتوجّه إلى ميدان القتال، فكان الاستيلاء على القافلة القادمة من مصر إلى الشام وفشل المفاوضات بين السلطان وأرناط والملك في حَلّ المشكلة، وبدأ الجانبان الاستعداد والتجهز وكتب السلطان إلى العساكر في الموصل والجزيرة الفراتية وحلب وحماه ومصر طالباً منها القدوم: الشرقية والحلبية إلى الاجتماع برأس الماء، المخيم المعتاد لدى صلاح الدين ومركز الاجتماع للانطلاق والمصرية بقيادة أخيه العادل إلى بلاد الكرك والشوبك، أما السلطان فخرج إلى جسر الخشب وقام هناك حتى يتكامل تجمع قوّات دمشق لديه[2].

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 267.

(2) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 268.

الفصل الثالث

معركة حطين وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية

المبحث الأول
معركة حطين

تمكن صلاح الدين من تكوين جبهة إسلامية موحدة اتسمت باتساع رقعتها، لكن سيطرة الصليبيين على بعض مدن الساحل الشامي، فضلاً عن حصني الكرك والشوبك، كُلٌ يمثل عقبة كأداء في إمكانية الاتصال بين محوري دولته التي ضمت مصر ومعظم بلاد الشام، وجزءاً من أرض العراق، يُضاف إلى ذلك أن هذه المدن والموانىء الساحلية تمتعت بمكانة استراتيجية هامة لأن سيطرة الصليبيين عليها جعلتهم على اتصال دائم بوطنهم الأم الغرب الأوروبي[1]، لذلك اهتم صلاح الدين منذ بداية حكمه، بالإغارة على هذه المناطق، بل إن اهتمامه بذلك يرجع أيضاً إلى أيام وزارته في الدولة الفاطمية[2]، وفي الواقع أن صلاح الدين قد ألحق بالصليبيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد من جراء تلك الإغارات التي نظمها على مدن الساحل الشامي، الأمر الذي دفع الصليبيين ـ على ما يبدو ـ إلى التفكير في تخفيف الضغط على تلك المناطق بتحويل نظر صلاح الدين عنها وذلك بالإغارة على منطقة ساحل الأحمر، هذا فضلاً عن استغلال وجوده في تلك المنطقة وتهديد المقدسات الإسلامية لطعن الإسلام في أقدس بقاعه[3]، إلا إن الأحداث كانت تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين.

أولاً: مقدمات معركة حطين:

1 ـ وفاة بلدوين الخامس وتأثيرها على أوضاع الصليبيين:

توفي الملك بلدوين الخامس في شهر جمادى الآخرة عام (582هـ/ شهر آب) عام (1186م) بعد شهور من توليته، فبرزت من جديد مشاكل الصليبيين الداخلية إذ كانت وفاته

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 157.

(2) المصدر نفسه، ص: 157.

(3) المصدر نفسه، ص: 165.

إيذاناً بصراع حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش المملكة، وظل المعارضون لوصاية ريموند الثالث في حبك المؤامرات حتى نجحوا أخيراً في سحب الوصاية منه، وتحويل المُلْك من الطفل إلى أمه سيبيلا وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد، لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة، وسلَّمت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاي لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث[1].

2 ـ استفادة صلاح الدين من الظروف التي تمر بها مملكة بيت المقدس:

في الوقت الذي كان صلاح الدين يعمل جاهداً لتكوين قوة عسكرية مزودة بالمؤن والعتاد، واستعداداً لخوض معركة فاصلة ضد الصليبيين، كان يتجنب الاشتباك مع الصليبيين في أكثر من جبهة ـ واحدة ـ ولا يمكن عدوه من تعبئة قواه وتوحيد صفوفه رداً على تعبئة القوات الإسلامية، فأرسل في سنة (583هـ/1187م) إلى أهل حلب يأمرهم بمصالحة بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ليتفرغ لجهاد الصليبيين من جانب واحد[2]، كما عمد صلاح الدين الذي عرف بمهارته العسكرية أيضاً إلى استغلال تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها مملكة بيت المقدس عقب تتويج جاي لوزجنان الذي تنازلت له زوجه عن الحكم وأصبح ملكاً لبيت المقدس، بعد أن خلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة: زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر[3]. وفشل القومص ريموند الصنجلي أمير طرابلس في الفوز بذلك المنصب، ورفض فرسان الداوية استقلاله بالحكم وطالبوه بالعمل بالوصية التي كانت تقضي له بحق الوصاية فقط، الأمر الذي جعله يلقي بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالباً منه مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية، وأجاب صلاح الدين نداءه وأمده بالمعونه اللازمة، وبذلك استطاع أن يضم إليه حليفاً جديداً من الصليبيين، مكوناً بذلك ثغرة كبيرة في صفوف الصليبيين[4]. وبالفعل أوشك الصدام المسلح أن يحتدم بين الملك جاي وبين ريموند، حيث عسكر ريموند في طبرية، وأقام هناك في زي المتطاول المتفاخر بعد أن ضم حوله عدداً كبيراً من الصليبيين، وحث العزم السلطاني على قصدهم ليرد إليه الملك[5]. كما قام ملك بيت المقدس أيضاً بحشد جيش عظيم لمهاجمة طبرية لولا تدخل بعض الأمراء لتهدئة الموقف

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 140.
(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 175.
(3) الفتح القسي، ص: 67، 68، صلاح الدين والصليبيون، ص: 175.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 175.
(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 176.

ومطالبة الطرفين بالاتحاد لمواجهة ذلك الاستعداد الهائل الذي أعده صلاح الدين لهم، الأمر الذي اضطر الملك لوزينان إلى المسير بنفسه إلى القومص ريموند الصنجلي، لاسترضائه ومصالحته[1]. وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول بأن صلاح الدين قد جنى من جراء تدخله في شؤون الصليبيين بمساعدة أحدهما على الآخر، ثماراً، أهمها ذلك الاختلاف الكبير في وجهات النظر بين ريموند الصنجلي وبعض الأمراء الصليبيين وفي مقدمتهم أرناط صاحب حصن الكرك، ولعل هذا الأمر هو السبب الذي جعل المؤرخ ابن الأثير يصف هذا التحالف بين صلاح الدين وريموند الصنجلي رغم قصر مدته بأنه: من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدس منهم[2]. وهكذا عقد صلاح الدين مع بوهيمند الثالث أمير أنطاكية هدنة منفصلة معه إما بناء على طلب منه، وإما بدعوة من صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية ويتفرغ للقتال في الجنوب[3]، ووسع ريموند الثالث مدى اتفاقيته مع صلاح الدين مضيفاً إليها. حماية منطقة الجليل وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج بين الأردن وفلسطين[4].

3 ـ رينولد شاتيون ينقُض مجدداً الهدنة مع المسلمين :

أثار تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، غضب رينولد شاتيون الذي كان في هدنة مع صلاح الدين واشتهر بالتفكير المنفرد، وبفضل ما تنطوي عليه الهدنة من بذل الحماية، صارت القوافل التجارية تتردَّد بين مصر وبلاد الشام، مجتازة الأراضي الصليبية بأمان[5]، ولا شك بأن ذلك عاد بالفائدة على رينولد شاتيون نفسه، نظراً لما يفرضه من ضرائب ومكوس عليها كما يبدو أنه لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق، فقام بنقض هدنته مع صلاح الدين عام (582هـ/ أواخر عام 1186م) حين أوقف قافلة تجارية كبيرة مارَّة بأرض الكرك، في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها، فقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات وحملهم إلى حصن الكرك[6]، لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 176.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 176.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 142.

(4) المصدر نفسه، ص: 143.

(5) مفرج الكروب (2/ 185)، تاريخ الأيوبيين، ص: 142.

(6) الكامل في التاريخ (10/ 18 ، 19)، تاريخ الأيوبيين، ص: 142.

رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله، وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد، أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكياً ومطالباً بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال، لبّى جاي دعوة صلاح الدين لكنه أخفق في الضغط على رينولد[1]، وكان لهذا الأسلوب الذي استخدمه صلاح الدين في موضوع الأسرى الذين وقعوا بيد أرناط صاحب حصن الكرك ومطالبته إياه بإطلاق سراحهم ورد أموالهم دون استخدام القوة، كان له الأثر الأكبر في إدخال الخلاف وعدم الثقة بين ملك بيت المقدس وأرناط الذي لم يستجب لرجائه باحترام الهدنة المعقودة مع صلاح الدين، وأصبح الملك الصليبي يتشكك في نوايا أرناط وطمعه في الانفراد بحكم تلك المنطقة، وإن كلًّا منهما بات حذراً من الآخر[2].

كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين[3]، ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، أتاح له مجالاً للتدخل في السياسة الداخلية للصليبيين، وإن تجديد تحالفه مع كل من ريموند الثالث وبوهيمند الثالث حرما مملكة بيت المقدس من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية، وهكذا نجح صلاح الدين في شقّ الصف الصليبي، وفي المقابل فإنه نجح في توحيد الصف الإسلامي، فأعدّ الجيوش الإسلامية في مصر والجزيرة والموصل والشام معنوياً وعسكرياً للمعركة التي أرادها فاصلة[4]، وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق في شهر محرم 583هـ/ شهر آذار 1187م على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب فوصل إلى رأس الماء إلى الشمال الغربي من حوران[5]، ثم اتجه إلى بصرى[6] ليستقبل قافلة الحجاج التي كان من عدادها أخته وابنها، ويضمن في الوقت نفسه عدم تعرض رينولد لهم، لأن التقارير التي وصلت إليه أشارت إلى تربص حاكم الكرك بالحجاج[7]، وبعد أن اطمأن إلى وصول القافلة وسلامتها، شرع في مهاجمة الكرك، وإذ علم رينولد شاتيون (أرناط) بوجوده في

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 142.

(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 176.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 143.

(4) المصدر نفسه، ص: 143.

(5) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة.

(6) بصرى : من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران.

(7) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص: 58 – 59.

المنطقة تراجع إلى حصنه، وكان صلاح الدين قد ترك ابنه الأفضل نور الدين علي في رأس الماء ينتظر وصول العساكر التي استدعاها للجهاد[1]، وكانت حركة صلاح الدين باتجاه الكرك تحقق هدفين:

الأول: التمويه على هدفه الحقيقي، وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس .

الثاني: إخافة رينولد شاتيون (أرناط) ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس.

سرّح صلاح الدين عساكره في المنطقة فراحوا يعيثون فيها، ثم قصد الشوبك، وفعل فيها مثلما فعل بالكرك وظلَّ في الأردن شهر صفر ربيع الأول 583هـ/ شهر نيسان وأيار 1187م تغطية للحشود التي كانت تتجمّع حول ابنه الأفضل في رأس الماء[2].

4 ـ وقعة صفورية :

في الوقت الذي كان صلاح الدين فيه معسكراً بالقرب من حصن الكرك والشوبك لحماية الحجاج من اعتداءات الصليبيين، عمد إلى إرسال قوة استطلاعية انتخب أفرادها انتخاباً، وأسند قيادتها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، وبدر الدين دلدرم بن ياروق أمير عسكر حلب، وصارم الدين قايماز النجمي أمير عسكر دمشق، لتقوم بالإغارة على ممتلكات العدو، لإضعاف معسكراته وكشف مخططاته، فسارت هذه السرية المدججة بالسلاح والعتاد، باتجاه صفورية. وقد حرص قوادها على أن يكون مسيرها على قدر كبير من السرية والخفاء، فكان سيرهم إليها في الجزء الأخير من الليل، على أن يكون هجومهم عليها في الصباح الباكر، وبالفعل فقد نفذت تلك الخطة بدقة تامة «وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين[3]، وأما الصليبيون الذين كانوا ينعمون بنوم هادئ في ذلك الوقت فإنهم قد استيقظوا على أصوات السيوف والرماح وأسرعوا إلى لَمّ شعثهم وتجميع قواهم لمواجهة ذلك الهجوم الإسلامي المفاجئ، والتقى الجمعان، ودارت بينهما معركة رهيبة، انتهت بانتصار إسلامي مظفر، وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان من جملة القتلى: مقدم الإسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم، ونجا مقدم الداوية بصعوبة[4] بالغة، ومما زاد الطين بلة أنه عندما تجرأت قوة صليبية أخرى على الإسراع إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 143.

(2) المصدر نفسه، ص: 144.

(3) كتاب الروضتين (2/ 75)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 178.

(4) مفرج الكروب (2/ 187)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 178.

المعركة قد انتهت فأسر المسلمون تلك النجدة عن آخرها، وعاد المسلمون من هذه المعركة سالمين غانمين[1]. وكان انتصارهم في هذه المعركة؛ باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامين الحركات[2]. وهكذا كبد المسلمون الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وألقت هذه المعركة الرعب في قلوب الصليبيين، وجعلتهم يدركون خطورة ذلك التجمع الإسلامي الرهيب الذي أعده صلاح الدين لجهادهم[3].

5 ـ الاستعدادات التي سبقت معركة حطين:

استبشر صلاح الدين الذي كان آنذاك يعسكر بالقرب من حصن الكرك بذلك النصر الذي حققته تلك السرية الإسلامية في معركة صفورية، فترك الكرك والشوبك، وسار مسرعاً على رأس جيشه في اتجاه العدو وعسكرا في عشترا[4]، واجتمعت حوله العساكر الإسلامية بأعداد هائلة حتى «غص بها الفضاء» على حد قول ابن واصل[5] وفي عشترا قام بعرض عسكره، فكان في اثني عشر ألف مقاتل[6] ثم رتب جيشه طبقاً لنظام المعركة المعتاد، فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر في الميمنة ومظفر الدين كوكبوري في الميسرة وكان هو في القلب، وبقية الجيش فرقه على الجناحين، استعداداً للحرب[7].

أ ـ استعدادات الصليبيين: ورداً على ذلك التجمع الإسلامي العظيم، فإن الصليبيين لما سمعوا باجتماع كلمة الإسلام عليهم ومسير ذلك الجيش الإسلامي إليهم، علموا أنه قد جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وأن كيانهم زائل لا محالة، فاجتمعوا واصطلحوا، وحشدوا وجمعوا، وانتحوا. فصالح القومص الملك جاي، بعد أن دخل عليه ورمى بنفسه عليه[8]. ومن ثم أصدر الملك جاي الأمر بالتعبئة العامة، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يتقدم لحمل السلاح كل الرجال القادرين ولا يلجأ الملك إلى ذلك إلا عند الضرورة القصوى[9]. وحشد الصليبيون حشوداً كبيرة، ورفعوا صليب الصلبوت، لتجتمع الناس حوله، وقد

(1) مفرج الكروب (2/ 187)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 179.
(2) كتاب الروضتين (2/ 76)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 179.
(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 179.
(4) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق.
(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 179.
(6) كتاب الروضتين (2/ 86)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 180.
(7) وفيات الأعيان (7/ 174)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 180.
(8) كتاب الروضتين (2/ 76).
(9) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص: 84.

اكتملت عدة ذلك الجيش بعد أن تم توزيع الأموال التي بعثها ملك إنجلترا هنري إلى الملك جاي، والتي أمر بإنفاقها على الرجال، وأما بالنسبة لتقدير عدد الجيش الصليبي الذي ظل معسكراً في صفورية بعد هزيمته من تلك السرية الإسلامية فإن المؤرخين المعاصرين ذكروا أن عدده بلغ زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون[1]، وبعضهم رَجَّح أنه يبلغ عشرين ألفاً[2].

ب ـ اختيار صلاح الدين لخطة المعركة الفاصلة: لما علم صلاح الدين باجتماع الصليبيين في صفورية عقب هزيمتهم من السرية الإسلامية في هذا المكان، استشار قواده فيما يفعل، فأشار أكثرهم بترك اللقاء، واتباع الطريقة السابقة من إغارات متكررة، وتكبيد العدو خسائر حتى تضعف مقاومته ثم إنزال الضربة القاضية بالصليبيين، وأشار الفريق الآخر بالتوغل في بلاد الصليبيين والاشتباك معهم في معركة فاصلة[3].

وهنا تبدو لنا حنكة صلاح الدين العسكرية، إذ اختار الخطة الثانية القائمة على الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إذ يظهر أن صلاح الدين أدرك أن معظم القوات التي تجمعت عنده في ذلك الوقت جاءت من أماكن بعيدة من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها، وأن هذه العساكر القائمة على نظام الإقطاع الحربي ـ كما سبق أن رأينا ـ لها التزامات في إقطاعاتها ـ الأمر الذي قد يدفعها بعض الأحيان إلى طلب الاستئذان منه والعودة لقضاء حوائجها[4]، هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين ربما قصد باتباع تلك الخطة استغلال ذلك الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين، نتيجة وفاة الملك بلدوين الخامس، وتتويج الملك جاي لوزينان والذي عده أحد الباحثين سبباً حرمت من أجله مملكة بيت المقدس من معونة أقوى إمارتين صليبيتين بالشام هما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية[5]. وهكذا أصبح الموقف بين صلاح الدين والصليبيين على أشده، وبات الطرفان كل منهما يتوق إلى الاشتباك مع الصليبيين في معركة فاصلة، كان يدرك أن تمركزهم في صفورية يعطيهم مكانة عظيمة في القتال، وذلك أن صفورية تعتبر من أحسن المواقع الملائمة لإقامة المعسكرات وذلك لما يتوافر بها من المراعي والمياه وغيرها من الموارد الطبيعية اللازمة لذلك[6]، لهذا عمد إلى استدراج الصليبيين إلى المكان المناسب الذي يستطيع فيه إنزال

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 76).

(2) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص: 84.

(3) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 181.

(4) الحركة الصليبية (2/ 799).

(5) تاريخ الأيوبيين، ص: 182.

(6) الحركة الصليبية (2/ 804)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 182.

الهزيمة بهم، هذا بالإضافة إلى أنه على الرغم من ذلك كان يريد أن يجبرهم على المسير إليه حتى يصلوا متعبين، ويكون هو مدخراً جهده وجهد رجاله[1]، لذلك أخذ صلاح الدين يعد عدته للقيام بعمل يستطيع اجتذاب الصليبيين من معسكرهم في صفورية والنزول إلى المكان الذي يختاره، فأخذ كل يوم يرسل جماعة من رجاله لمباغتة الصليبيين والنكاية بهم، محاولاً بذلك استدراجهم إليه، غير أن تلك الغارات المتكررة لم تؤثر على الصليبيين، فلم يتركوا مركزهم في صفورية فرأى صلاح الدين الهجوم على طبرية ذاتها، لأن الصليبيين متى رأوا هجومه ذلك بادروا بالوصول إليه، وبذلك يكون قد تحقق له ما قصده[2].

ج ـ توجه صلاح الدين إلى طبرية: أدرك صلاح الدين بهجومه على طبرية، بأنه يمكنه إثارة ريموند أمير طرابلس المشهور بشدة الغيرة[3] بالإضافة إلى أن صلاح الدين كان يعلم أن نزوله في ذلك الموضع يستطيع أن يُوصد الطريق المؤدي إلى طبرية، ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية وتنتهي إلى الماء[4]. في حين يبقى الصليبيون عند خروجهم من صفورية، وتقدمهم إليه في منطقة وعرة لا تتوفر فيها المياه[5]. وفي يوم الخميس 23 ربيع الأول سنة (583هـ/ 2 يوليو 1187م) أصدر صلاح الدين أوامره إلى الجانب الرئيس من جيشه بالتقدم إلى طبرية ومهاجمتها إلى القلعة وامتنعوا بها[6]. وما كادت أخبار ذلك الهجوم تصل إلى أسماع الصليبيين، حتى جن جنونهم، ودعا الملك جاي إلى مجلس حرب[7]، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من التوغل في طبرية، في حين أشار ريموند صاحب طرابلس على الملك بالبقاء في موضعه بصفورية، قائلاً له: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقيت القلعة، وفيها زوجتي، وقد رضيت بأن يأخذ القلعة وزوجتي، وما لنا بها فيعود، فوالله لقد رأيت معسكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل ذلك العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية، لا يمكنه المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول

---

(1) الحركة الصليبية (2/ 804)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 182.

(2) كتاب الروضتين (2/ 76)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 182.

(3) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص: 87.

(4) المصدر نفسه، ص: 87.

(5) المصدر نفسه، ص: 87، صلاح الدين والصليبيون، ص: 182.

(6) الكامل في التاريخ (11/ 533)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 183.

(7) صلاح الدين والصليبيون، ص: 83.

الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها وتفتك من أسر منا[1]. وهنا يبدو أن سياسة صلاح الدين في إيقاع الخلاف في صفوف الصليبيين قد آتت أكلها، حيث لقي رأي ريموند هذا معارضة شديدة من كل من أرناط صاحب الكرك، وجيرار مقدم الداوية اللذين اتهماه بالخيانة والانحياز إلى المسلمين، حيث رد عليه أرناط قائلاً: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم. واستطاع أرناط وجيرار التأثير على الملك جاي الذي أصدر أوامره إلى الجند بالمسير إلى طبرية، وبدأ الجيش الصليبي زحفه من صفورية يتقدمه ريموند في ظروف سيئة للغاية، فروح الصليبيين المعنوية منحطة، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار التقدم نحو طبرية، فساروا مكرهين[2]. هذا بالإضافة إلى ما تعرض له ذلك الجيش الصليبي في طريقه من متاعب وخسائر بسبب الكمائن التي نصبها صلاح الدين لهم أثناء سيرهم، فضلاً عن حرارة الجو، ووعورة الطريق وانعدام الماء. وإزاء هذه الظروف القاسية حل بالجيش الصليبي أثناء سيره من صفورية إلى طبرية انفصال كبير، حيث لم تستطع مؤخرته مجاراة سير بقية الجيش والاتصال بالملك في الوسط، الأمر الذي اضطر الملك جاي إلى إقامة معسكره قبل الوصول إلى طبرية، على الرغم من تلك المحاولة التي قام بها ريموند أمير طرابلس الذي كان في المقدمة، لحث الصليبيين على التقدم للوصول إلى المياه. مما أدى إلى تذمر ريموند من ذلك التصرف، وإدراكه بأن الهزيمة حاصلة لا محالة[3].

والواقع أن هذه الأوامر اتصفت بالتهور، ودلّت على انعدام التفكير العسكري السليم لدى القادة الصليبيين الذين غلبت عليهم العاطفة الدينية المتزمتة، لأنها أوقعت الملك، والمملكة، والجيش الصليبي في فخ صلاح الدين، الذي علّق، عندما علم بتحركهم بقوله: قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحّت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما لنا دونها مانع ولا عن فتحها وازع[4]، ورتب صلاح الدين رجاله في تلك الليلة، وسار هو على رأس جيشه لملاقاة الصليبيين على سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهي منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليه اسم قرون حطين، وبوصول الصليبيين إلى

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 183.

(2) الحركة الصليبية (ج2/ 806).

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 184.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 77، نقلاً عن العماد الأصفهاني.

تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك والتعب، واشتد بهم العطش بعد أن حال جيش صلاح الدين بينهم وبين الوصول إلى الماء[1]. والتقى الجمعان على سهل جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل دون تصادمهما ذلك اليوم[2]، وفي صباح الجمعة 24 ربيع الآخرة 583هـ/1187م، تحرك الجيشان وتصادما بأرض تسمى اللوبيا، واستمر القتال إلى أن حجز الظلام بينهما، وبات كل فريق في سلاحه[3]. والواقع أن جيش صلاح الدين قضى تلك الليلتين ينعم بكافة الوسائل التي تعينه على القتال، فقد كان يعسكر في منطقة سهلة غنية بالمراعي والمياه. أما الجيش الصليبي، فقد ازداد بلا شك خلال تلك المدة شقاءً وإنهاكاً، بسبب إقامة معسكره على منطقة وعرة جداً عديمة المياه وفي جو شديدة الحرارة، ويبدو أن صلاح الدين، قد استغل توقف القتال تلك الليلة، ليكمل استعداداته لمهاجمة العدو الذي لجأ إلى سفح جبل حطين، ليعصمهم من المهالك ومن ثم المبيت في جو معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش، وعلى الرغم من أوامر الملك جاي التي كانت تقضي بأن يندفعوا إلى أسفل التل ليؤدوا واجبهم نحو الصليب والعرض، إلا أنهم اعتذروا بشدة العطش وإنهم لا يستطيعون الحرب، فاستغل صلاح الدين ذلك، ورتب جيشه ورسم له الخطط، وأحاط بهم: إحاطة الدائرة بقطرها، كما يقول ابن الأثير[4].

ثانياً: أحداث المعركة:

اكتشف الصليبيون في صباح يوم السبت 24ربيع الآخر/583هـ/ بأنهم محاصرون بعيداً عن المياه، فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة فقد تقدم الجيش الإسلامي الذي أكمل استعداداته للمعركة الفاصلة، وفي المقابل تحرك الجيش الصليبي واضعاً في ذهنه الوصول إلى طبرية لعله يَرد الماء، إلا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصودهم، ووقف بعسكره في وجوههم وأخذ صلاح الدين يطوف بين الصفوف يحرض الرجال على الجهاد ويأمرهم بما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم، وهم له طائعون[5].

1 ـ بداية الهجوم الإسلامي:

وبدأ الهجوم الإسلامي على الصليبيين فاستمات المسلمون في القتال وشددوا هجماتهم

---

(1) الكامل في التاريخ (11/ 534)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 185.

(2) النوادر السلطانية، ص: 76.

(3) كتاب الروضتين (2/ 81)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 185.

(4) الكامل في التاريخ (11/ 535).

(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 186.

على الأعداء مدركين: أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد الروم، وأنهم لا ينجيهم إلا الله[1]. وأمام ذلك الهجوم الإسلامي الرهيب، أدرك الصليبيون أن نهايتهم قد حانت، وأنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام، ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس الذي رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الإسلامي، فاتفق مع جماعة من أصحابه وحملوا على من يليهم من المسلمين، ففتح المسلمون لهم طريقاً يخرجون منه، وبعد خروجهم التأم الصف مرة أخرى[2]. ويبدو أن خروج ريموند تم بموافقة صلاح الدين، الذي أصدر أوامره إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، مقدم تلك الناحية التي حمل عليها ريموند، وقصد صلاح الدين بذلك إدخال الضعف واليأس في نفوس الصليبيين عندما يعلمون بهروب ريموند وجموعه، كما لا يستبعد أن يكون ذلك الأمر قد تَمّ باتفاق بين ريموند وصلاح الدين، بدليل أن بعض الصليبيين عندما تعرضوا لذلك الهجوم الشامل من المسلمين، ألقوا أسلحتهم، وجاؤوا إلى معسكر المسلمين مستسلمين[3]، ومما زاد الطين بلة، أنه في الوقت الذي تخلى فيه ريموند عن أبناء ملته، كان بعض المتطوعة المسلمين قد أشعلوا النيران في الأعشاب والأشواك اليابسة التي تكسو تلك المنطقة، وكانت الريح تهب بإتجاه الصليبيين، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وحر القتال. الأمر الذي اضطر معه الصليبيون إلى التراجع إلى أعلى الجبل، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات، ومنعوا عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة واحدة سوى خيمة الملك[4].

2 ـ الحرب النفسية عند صلاح الدين:

ويبدو أن صلاح الدين كان في تلك المعركة الحاسمة يعمد إلى القضاء على الصليبيين وإدخال الوهن في نفوسهم بكل الوسائل، ولم يكن همه مقصوراً على القتال المباشر فقط، بل كان يستخدم الحرب النفسية للتأثير على العدو، والدليل على ذلك أنه بعد أن حصر الصليبيين في أعلى جبل حطين، ركز اهتمامه على الاستيلاء على صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت والذي يذكرون: أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم[5]، لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه يعد أعظم سلاح لتحطيمهم نفسياً

(1) النوادر السلطانية، ص: 186.

(2) الكامل في التاريخ (11/ 535).

(3) مفرج الكروب (2/ 19)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 186.

(4) الكامل في التاريخ (11/ 535، 536)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 187.

(5) كتاب الروضتين (2/ 78).

ومعنوياً، وبالفعل فما أن تمكن من أخذه حتى حَلَّ بالصليبيين البوار وأيقنوا بالهلاك وتقدم المسلمون نحو قمة الجبل والصليبيون يتراجعون أمامهم، ويتساقطون أسرى وقتلى، حتى لم يبق مع الملك الصليبي الذي وصل إلى أعلى التل سوى فئة قليلة لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين الشجعان[1]، وذكر ابن الأثير على لسان الملك الأفضل ابن صلاح الدين أن الصليبيين لما تراجعوا على رأس ملكهم إلى أعلى التل حملوا حملة قوية على من بإزائهم من المسلمين، وكادوا يزيلونهم عن أماكنهم، إلا أن المسلمين عادوا فردوا على تلك الحملة، واستطاعوا إعادة الصليبيين مرة أخرى إلى أعلى الجبل، مما جعل الملك الأفضل يعبر عن فرحته بذلك النصر بقوله: «هزمناهم» وعاد الصليبيون مرة أخرى وحاولوا دحر المسلمين الذين ردوا عليهم بحملة أقوى أرجعتهم مرة ثالثة إلى أعلى التل، فعاد الملك الأفضل وعبر عن فرحته بذلك النصر مرة أخرى بقوله: هزمناهم: وهنا تبدو لنا مهارة صلاح الدين الحربية وخبرته في ميادين القتال، إذ كان يرى أن الهزيمة لن تتم على الصليبيين إلا بسقوط قيادتهم قتلاً وأسراً، فأجاب ابنه قائلاً: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، يقصد خيمة الملك. ثم أخذ في تشديد هجماته وما هي إلا لحظات حتى سقطت تلك الخيمة، فنزل صلاح الدين وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه[2].

3 ـ خسائر الصليبيين في حطين :

والواقع أن ما فقده الصليبيون في هذه المعركة من قتلى وأسرى يعتبر من أفدح الكوارث التي حَلّت بهم، ولم ينج إلا عدد قليل من المحاربين بالإضافة إلى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان أبلين، وريجنالد صاحب صيدا، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس[3] وتساقط معظم الجيش الرئيس بقيادة الملك جاي لوزجنان فقد تساقطوا في أيدي المسلمين قتلى وأسرى وكان على رأس الأسرى الملك جاي، وأرناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل، وهنفري بن الهنفري صاحب تبنين، وابن صاحبة طبرية، وجيرار مقدم الداوية، ومعظم من نجا من الإسبتارية، وغيرهم من أكابر الصليبيين[4].

---

(1) مفرج الكروب (2/ 191)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 187.

(2) الكامل في التاريخ (11/ 536)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 188.

(3) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص: 98، صلاح الدين والصليبيون، ص: 188.

(4) النوادر السلطانية، ص: 77 ، مفرج الكروب (2/ 192).

4 ـ صلاح الدين يصلي صلاة الشكر ويستقبل الملوك الأسرى:

أمر صلاح الدين بأن تضرب له خيمة، فتم له ذلك، فنزل فيها، وصلى لله تعالى شكراً على هذه النعمة التي درج الملوك من قبله على تمني مثلها، وماتوا بحسرتها[1]. ثم أحضر ملوك الصليبيين، ومقدميهم واستقبلهم استقبالاً حسناً، وأجلس الملك جاي إلى جانبه وأجلس البرنس أرناط صاحب الكرك إلى جانب الملك، وبادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلج للملك جاي، فشرب منه، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين من ذلك، وخاطب الملك مؤكداً له بأن أرناط لم يشرب الماء بأذنه فينال أمانه. ثم التفت إليه وذكَّره بجرائمه وخيانته وقال له: كم تخلف وتنكث؟ فقال الترجمان عنه أنه يقول: قد جرت عادة الملوك بذلك[2]. فأوقف السلطان صلاح الدين وقال: هأنذا أستنصر لمحمد. ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر[3]. وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، **إحداهما**: لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، **والثانية**: لما أخذ القوافل غدراً. ولما رأى ملك بيت المقدس جاي لوزينان ذلك المنظر، خاف وظن أن صلاح الدين سوف يثنّي به ولكن السلطان استحضره، وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى[4].

5 ـ موقف صلاح الدين من الأسرى:

أحضر صلاح الدين الداوية والإسبتارية، وعرض عليهم الإسلام فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله[5]، وقد بين أبو شامة سبب مقتلهم أن صلاح الدين قال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقطعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر وهما أخبث أهل الكفر[6]. ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادئ التي كرسوا حياتهم لخدمتها فخلعوا زيهم الديني الأسود واتشحوا بالوشاح العسكري

(1) مفرج الكروب (2/ 194).
(2) مفرج الكروب (2/ 195).
(3) النوادر السلطانية، ص: 78 – 79
(4) النوادر السلطانية، ص: 79، مفرج الكروب (2/ 195).
(5) مفرج الكروب (2/ 196)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 190 .
(6) كتاب الروضتين (2/ 79).

الأبيض والشارة الصليبية الحمراء، وأصبحوا في زمرة المحاربين، وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل، وغلاماً يتبعه، وصار منهم قادة يحملون الألقاب والرتب العسكرية، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين ونقض العهود والمواثيق، وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول والأسمى طعن الإسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلفهم ذلك من ثمن[1]. كان عدد الاسبتارية والداوية حوالي ثلاثمائة وستين رجلاً والأمر المؤكد: أن دورهم الحربي السابق ضد المسلمين كان دافعاً لقتلهم خاصة أنه عرف عنهم عدم احترامهم للعهود والمواثيق، كما أنه أدرك أنه في حالة إطلاق سراحهم سيعودون إلى قتال المسلمين بصورة أشرس من ذي قبل، كما لا نغفل أن منهم من شارك في حملة أرناط الآثمة على الحجاز، وأمام كافة تلك الاعتبارات لم يتردد صلاح الدين في الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين، وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا فيها بالآلاف المؤلفة من المسلمين، وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التي نجدها أحياناً تكيل بمكيالين وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها، ولا نغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحة بصفة عامة تجاه أعدائه[2]، وأما بقية الأسرى، فقد أمر صلاح الدين بأن يساقوا إلى دمشق حيث احتيط على الإمراء، وبِيعَ عامة الفرسان والجند الصليبيين في الأسواق بأثمان[3] زهيدة، ودخل القاضي ابن أبي عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكس بين يديه، وعاد السلطان إلى طبرية[4]. أما ريموند الثالث أمير طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قليلة، حيث مات بها غيظاً وخنقاً مما جرى على الصليبيين خاصة وعلى دين النصرانية عامة[5].

ثالثاً: أسباب الانتصار في معركة حطين:

1 ـ الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أن يوحِّد الأمة ويجمعها على كتاب الله وسنة

---

(1) التاريخ الحربي المصري، حسان سعداوي، ص: 186.

(2) الحروب الصليبية العلاقة بين الشرق والغرب، ص: 219.

(3) كتاب الروضتين (2/ 82)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 790.

(4) مرآة الزمان، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 190.

(5) الكامل في التاريخ (3/ 53-55)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 191.

رسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله، وتحرير البلاد الإسلامية، فأصبحت الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق تحت إمرته وقيادته، وحشد لهذه المهمة العلماء والفقهاء والجيوش والألوف من المجاهدين وفي مقدمتهم العلماء والفقهاء يُحَرِّضون المقاتلين على القتال وكَوَّن جيشاً برياً قوياً وأنشأ أسطولاً بحرياً مصرياً وأنفق عليه أموالاً طائلة[1]. قال ابن شداد: إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته، ولزومهم قانون خدمته، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهاد والاجتهاد من إقامة قانون الجهاد، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور 24 ربيع الثاني 583هـ ورتبهم واندفع بهم قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة. . . وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمَع لا سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة[2]. لقد كان جيِّد الإعداد والاستعداد فقد اختار الرماة، وزودهم بالنبال الكافية الكثيرة، فملأ حياتهم بها وقد بلغ ما فرقه على الرماة من نبال أربعمائة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة في ساحة القتال وميدان المعركة، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام، لمن تنفذ سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضماناً لاستمرار القتال والرمي وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله سبحانه وتعالى[3]، وقد خاض صلاح الدين المعركة بجيش قوي ومهارة حربية منقطعة النظير، فضلاً عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها، حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلاً بين العدو وبين الماء، كما أعلن جهاده في شهر يوليو الذي يعد أشد شهور السنة حرارة، وأقلها ماء في الصهاريج والغدران، حتى أصبح العطش من أقوى الأسلحة بين يديه[4]، لقد مارس صلاح الدين قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60]، فقد جمع الجيوش الإسلامية واستدرج الجيوش الصليبية واختار المكان المناسب للمعركة.

2 ـ سنة التدرج ووحدة الأمة:

فقد قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد ـ ربما رأى الكثيرون ـ في ذلك الوقت ـ استحالة تحقيقه

---

(1) صلاح الدين الأيوبي، علوان، ص: 121.

(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 75.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (3/ 280).

(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 191.

على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرُري، والذي حقق ابنه نور الدين جُزئه الأوّل وحقَّق صلاح الدين قسماً مُهمًا من جُزئه الثّاني ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرُري فلولا متابعة نور الدين لخُطى والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر[1]، الذي تمّ بفضل الله وجهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون أو طائفة وإنما جمعتهم الإخوة في الله التي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام قال الشاعر :

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ... الشام فيه ووادي النيل سيان

وأينما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لبّ أوطاني[2]

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى[3].

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين لكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم وظل المسلم محباً لأخيه المسلم ولسان حال كل منهم[4] يقول:

لو اشتكى مسلمٌ في الصين أرّقني ... أو اشتكى مسلم في الهند أبكاني

فمصر ريحانتي والشام نرجستي ... وفي الجزيرة تاريخي وعنواني

وفي العراق أكف المجد ترفعني ... عن كل باغ ومأفون وخوّان

ويسكن المسجد الأقصى وقبته ... في القلب لا شك أرعاه ويرعاني

أرى بخارى بلادي وهي نائية ... وأستريح إلى ذكرى خراسان

---

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 375).

(2) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة، ص: 9.

(3) البخاري، كتاب: الأدب، باب : رحمة الناس والبهائم.

(4) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ص: 23.

شريعة الله لمت شملنا وبنت لنا مقاماً بإحسان وإيمان[1]

3 ـ بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية:

من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبي كان يدرك أهمية العمل المزدوج في توحيد الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين، نظراً لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا أن عام (1186م/ 582هـ) شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعاً له، ولذلك استطاع أن يخضع الأربعة مدن الإسلامية الرئيسية التي تحكمت في الظهير البري وهي القاهرة، دمشق، حلب، والموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز في مشروع الجهاد[2]، من زاوية أخرى لا نغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، واتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام (1185م/ 581هـ) مدتها أربع سنوات ومن الملاحظ أن كلاً من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس، ومما يدل على بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية مهادنته لبعض القوى الصليبية من أجل المحافظة على قواته وعدم تبديد فعالياتها في عمليات حربية كبيرة مستمرة لا سيما مع الصليبيين ولذا نجده يتجنب طوال تلك الأعوام الدخول في معركة حاسمة معهم ولا يتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها في صفوفهم وكانت من أخطر قراراته السياسية قرار «السلام» المؤقت مع الصليبيين، ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدات عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التي من ثمارها معركة حطين، وكانت شرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أتت من الفارس الصليبي رينودي شاتيون أو أرناط وهو الفارس الذي أدخلته رعونته التاريخ من أوسع أبوابه، فقد خرق أرناط الهدنة واعتبرها صلاح الدين إعلان حربي صليبي وكان الرد الأيوبي سريعاً وحاسماً كما حدث في معركة حطين عام (583هـ/ 1187م)[3]، ومن بُعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية أنه قبل الدخول في معركة حطين قام بهذه الأمور:

أ ـ تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه: كان صلاح الدين بارعاً في تسوياته الرضائية وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع ،وكان يفوض غيره في أمر الإدارة وينشغل كلياً بالمهمات

---

(1) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ص: 24.

(2) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 215.

(3) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 217.

الحربية، وكان يسند الأمور إلى أهلها ويشترط على نوّابه وحكّامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوماً للقتال، وكان يهتم بالولاء المخلص من أتباعه وقال مرّة للقاضي ابن شداد: إنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر[1]. وقد كتب منشوراً في الرقة ذات مرة قال فيه: إن أشقى الأمراء من سمّن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم عن الحق مَنْ أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوّضه الله، ومَن أقرض الله قرضاً حسناً وفّاه ما أقرضه[2]، وقد تمّ ترتيب الدولة وإقطاعات أمرائه بعد حركة التوحيد التي استغرقت أكثر من عقد من الزمن.

ب ـ تنظيم أطماع أسرته وإرضاؤها: وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشاغله في وقت معاً، وكانت مطامع أفرادها متّفقة مع مفاهيم عصره، لكنها لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة، كانوا جديدين على عمليات الحكم، يفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم؛ لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها، ومفهومه أتاه ـ من تَتَلْمذه على يدي نور الدين محمود الشهيد ـ أمّا أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر، وقد عانى صلاح الدين من تباين الحالين، وعبّر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل ـ وهو يطلب عقد تملّك لحلب مقابل 150 ألف دينار اقترضها صلاح الدين منه: أظننت أنَّ البلاد تباع وتشترى، أوَمَا علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحرّاس لأموالهم؟[3] وقد انتهى الأمر بعد عدد من التغيرات والمبادلات في سنة (582هـ) كما يلي:

ـ أُعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة ولا إقطاع كامل؛ ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.

ـ عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين وديار بكر بعد أن تمرّد في مصر أو كاد يخرج عن الطاعة وعن مصر، وقد أقنعه القاضي الفاضل بعدم التهوُّر.

ـ وتمّ إعادة ابن صلاح الدين: الظاهر غازي لولاية حلب.

ـ بقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه بحمص لم يتغير[4].

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 218.

(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 253.

(3) كتاب الروضتين (2/ 52).

(4) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 255.

ج ـ العمل الدبلوماسي الخارجي: فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيراً خطيراً، وأن القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي ولا بدَّ من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم على القوى الخارجية، بل والمعادية أحياناً، فقد أقام في عام (577هـ) علاقات حسنة مع القسطنطينية وتمّ فتح الجامع الإسلامي فيها وإطلاق حوالي مئتي أسير مسلم عندها، وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص[1]، ومن جهة أخرى فإن الأساطيل الإيطالية ـ أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأمالفي ـ كانت متصلة الورود والتكاشف على السواحل الشامية، ولها امتيازاتها في المرافئ كلها، وهي تحمل الرجال والسلاح والمال إليهم دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب ودورها الفعّال هو الذي ساند الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن؛ ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع، لا يجر بها في البحر فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك، وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أنَّ مصلحة هؤلاء التُّجار تغلب تديّنهم وتجعلهم ينسون الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به البابا؛ كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافساتهم فيما بينهم، وبذل كثيراً من الجهود لاجتذاب تجّارهم إلى مرافئ مصر مما لا يؤدي إلى تأمين منافعهم، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجّار المصريين من وراء الفرنج وقد أقام مع البيازنه والبياشنة تجار بيزا ـ معاهدة سنة (569هـ) وثمّ فقرة في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد تؤكّد وجود اتفاق مماثل مع جنوا والبندقية: تقول الفقرة: ما منهم إلّا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ـ أسلحة ـ ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد تقرّرت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة[2].

د ـ قضية الجهاد: وهي القضية المركزية التي شغلته حتى وهو في صيده أو في خلواته مع أولاده، وكانت الأشهر الأخيرة من سنة (582هـ)[3] هي أشهر المكاتبات والرسائل

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 256.

(2) المصدر نفسه، ص: 257.

(3) المصدر نفسه، ص: 257.

لنوّابه وعمّاله والتابعين له في مصر والشام والجزيرة والاستعداد للحرب، وكان لا يجهل بالطبع ما يجري في مملكة بيت المقدس من منازعات، ويعرف معنى الهدنة التي منحها لريموند أمير طرابلس الغاضب على ملك القدس وعلى أية حال كانت جميع الخيوط في يد صلاح الدين في مطلع سنة (583هـ)، وساق الله له قانون الفرصة عندما نقض أرناط عهده ومواثيقه، فتعامل معه بسنة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ﷻ.

4 ـ لا تقاتلوا عني وقاتلوا في سبيل الله: إخلاصه العظيم لله ﷻ:

حين سمع صلاح الدين في غزوة حطين مسير الجيش الصليبي إليه قال: جاءنا ما كنا نريد، واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلّا بعد الجد والجهاد، وقال للجند: لا تقاتلوا عني ولكن قاتلوا في سبيل الله[1]، وهذا تطبيق عملي من صلاح الدين لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]. فقد خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين انطلاقاً من مبدأ القتال في سبيل الله[2]، فقد كان يحرص كل الحرص أن يكون القتال في سبيل الله وفي رفع راية الإسلام خفاقة، وتنكيس راية الشرك والمشركين من الصليبيين الذين عبدوا الصليب وقدسوه، فقد كان صلاح الدين مخلصاً في جهاده، ومخلصاً في طلب الشهادة، وكان يذكّر قواده وأمراءه بضرورة الإخلاص لله وإرادة وجه الله في قتال الأعداء حتى يثيبهم الله ثواب المجاهدين ويبلغهم منازل الشهداء الغرّ الميامين من أمة سيد المرسلين ﷺ ولقد وفقه الله في معاركه وفتوحاته لكثرة إخلاصه، كيف لا وهو إذا فتح بلداً من البلاد لم ينسب النصر له، بل نسبه إلى الله ﷻ، فهو واهب النصر، وناصر المؤمنين الموحدين، وهازم الكافرين المشركين، فما إن ينتصر المسلمون بقيادته إلّا وخرّ ساجداً لله تبارك وتعالى شاكراً له على نصره وهكذا حصل منه في حطين وغير حطين[3].

5 ـ تطبيق الشريعة وبركاتها في دولة صلاح الدين:

يخبرنا التاريخ أن صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما تولى الإمارة والسلطنة قد تاب إلى الله توبة

---

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك العادل، ص: 263، كتاب الروضتين (3/ 297).

(2) صلاح الدين الأيوبي، عبد الله علوان، ص: 113.

(3) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 178.

نصوحةً، وهجر أسباب المعاصي ووسائل اللهو المحرم وندم على كل ما وقع منه في مراهقته، فأقبل على الله تعالى بتوبة صادقة واشتغل بالطاعات فأكثر من العبادة، وقد عَلَّم جنوده وغيرهم ورباهم على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والوقوف عند حدوده وهجر معاصيه والإقبال على طاعته وكان يهتم بالشريعة وعلمائها، يطبق الأحكام الشرعية على الرعية ويسوسها بالعدل والسوية ويقمع أهل الضلالة والفساد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتواضع للناس ولا يحابي محباً ولا يظلم مبغضاً، بل كان يتجاوز عن المبطل إذا خاصمه بالباطل ويحيطه بكرمه وحسن أخلاقه، وكان يأمر أهله وقواده بتوثيق الصلة بالله وبكتابه تلاوة وحفظاً وتدبراً وعملاً، وكان يوصي أبناءه بتقوى الله وطاعته ويذكرهم بالموت وما بعده، وتأمل معي هذه الوصية لولد من أولاده الذين بلغوا سبعة عشرة ذكراً وهو الملك الظاهر: أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، أوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في الدولة وأكابرها، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى أحداً واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم[1].

إن للحكم بما أنزل الله آثاراً دنيوية وأخرى أخروية أما الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة صلاح الدين:

أ ـ الاستخلاف والتمكين: حيث نجد نور الدين وصلاح الدين من بعده حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام صلاح الدين شريعة الله في دولته، فمكّن له الله ﷻ ووطأ له سلطانه وهذه سنة ربانية نافذه لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة لإقامة شرع الله، وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ۝٥٥﴾ [النور: 55]. أي بدلاً عن الكفار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝٥٥﴾ [النور: 55][2]، فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمٰن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ۝٥٥﴾ [النور: 55]، فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين وهذا ما رأيته في دولة نور الدين وصلاح الدين.

---

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 180.

(2) تفسير الجلالين، ص: 466.

ب ـ الأمن والاستقرار: بعد أن أكرم الله صلاح الدين، بإزالة الدولة الفاطمية وفتح مصر وضم حلب ودمشق، والاتفاق مع الموصل في جبهة إسلامية عريضة تيسر لدولته الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها بشرع الله حيث نجد أن دولة صلاح الدين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها وهذه سنة جارية ماضية، ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذين ينشدون في أنفسهم وواقعهم فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله ما يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82]، فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب، وهذا ما حدث لصلاح الدين ودولته والمسلمين في عهده لما انقادوا إلى منهج رب العالمين.

ج ـ العز والشرف: إن عزّ صلاح الدين والأيوبيين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها، وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: 10]. قال ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم[1]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[2]، فعمر ﷺ كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذُلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ

---

(1) تفسير ابن كثير (3/ 170).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (1/ 62).

يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: 10] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله ﷻ[1] . . وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: 8] لقد انتصر صلاح الدين والمسلمون في حطين بفضل الله ﷻ الذي طبقوا شرعه.

د ـ **النصر والفتح**: لقد حرص صلاح الدين والمسلمون على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: 40-41].

6 ـ العدل:

إن العدل أساس الملك ولهذا أمر الله رسوله القيام به فقال تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: 15]، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴿١٣٥﴾﴾[النساء: 135]. وقال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: 8]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: 58]، والعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول ولهذا حرمه الله على نفسه وجعله محرماً بين خلقه فقال تعالى في الحديث القدسي: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا[2]. وقال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: 22] ، وقال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52].

ومن الحق أن نسجل أن الدولة النورية في عهد نور الدين زنكي والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي، قد سادها العدل في الرعية، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دولتهم[3]. قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين: لقد كان

---

(1) تفسير ابن كثير (2/ 526).

(2) مختصر صحيح مسلم للمنذري، رقم: 1828.

(3) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 205.

يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام (يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، وعجوز وهرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته[1]. لقد قام صلاح الدين بالعدل في دولته وترك لنا وقائع ملموسة وتطبيقات عملية مع الأمراء والرعية في المحافظة على حقوق الأفراد وحقوق الدولة، قامت هذه التطبيقات على العدل والإنصاف، وأرست هذه القاعدة: العدل أساس الحكم والظلم يؤذن بزوال الدولة[2]، كما أن العدل الذي أقامه صلاح الدين في دولته كان من أسباب انتصاره في حطين .

7 ـ جيل مقاتل في سبيل الله:

لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في حطين تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ ـ أنها على الحق: وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

ـ الاستقامة في الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ومجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السنة، وصلاح الدين والمسلمون الذين معه هم الذين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية.

ـ الاستقامة في الهدى والسلوك الظاهر على المنهج النبوي الموروث عن الصحابة ﵃ والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

---

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 13- 14.

(2) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 211.

ـ الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

ـ الاستقامة في الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية واستجماع المقومات التي يستنزل المؤمنون بها نصر الله، ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم للجادة المستقيمة من جهة، ولبذلهم الجهد الواجب في تحصيل أسباب النصر من جهة ثانية، وهذا ما قام به صلاح الدين والقادة الذين معه، وبَذْل الجهد في تحصيل تلك الأسباب هو في الحقيقة جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح، والتخطيط، والإدارة وغيرها، ولا يتوهم أن النصر يجيء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو مقتضيات الاستقامة على أمر الله[1].

ب ـ **أنها قائمة بأمر الله**: وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، واسمهم «الطائفة المنصورة»، فقد تميز صلاح الدين بحمل راية الدعوة إلى الله وإلى دينه وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السنة بين الناس بكل وسيلة ممكنة مشروعة ووظف إمكانات الدولة لذلك ولدفع الشبهات عن منهج أهل السنة، والرد على مخالفيه.

ـ كما كانت دولة صلاح الدين قائمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد، واللسان، والقلب، معارضة لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيًا كان نوعه: سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو علميا، أو اعتقادياً.

ج ـ **أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله**: والطائفة المنصورة، جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه «يقاتلون على الحق[2] أو يقاتلون على أمر الله»[3]. وكان صلاح الدين وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم.

د ـ **أنها صابرة**: فقد خصّ الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت وسوف ترى بإذن الله كيف تسلح صلاح الدين وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء

---

(1) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، ص: 473.

(2) أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: دوام الجهاد (3/ 11)، رقم: 2484.

(3) مسلم، كتاب: الإمارة، باب قوله: لا تزال (31/ 1524)، رقم: 176.

القوم بأنهم: لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم[1]. وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذي عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[2]. فهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة قد انطبقت على جيل صلاح الدين الأيوبي، وكان صلاح الدين يوصي جنوده بالوصايا النافعة فقد قال رحمه الله ذات يوم: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلّقة والله ﷻ، سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن البلاد والعباد غيركم، فإن توليتم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعبد الصليب في المساجد وعُزل القرآن منها والصلاة وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم أموال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم والسلام[3].

8 ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم في الحرب والإدارة :

كان صلاح الدين يلازم العلماء، ويجالسهم ويستشيرهم في الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها، وكان يعتمد على بعضهم في إدارة ممالكه وكان أكثرهم مرافقة له في السراء والضراء وفي حله وترحاله القاضي الفاضل، تأمل حديثه وتحليله لأهم أسباب النصر بعد توفيق الله تعالى حين يقول: ما فتحت البلاد بالعسكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل[4]، فالقاضي الفاضل كان يقدم له الرأي الحصيف، والقول السديد، والقرار الحكيم، وكان يصدقه في الرأي والحرب والمكيدة والسياسة والحكم، قال ابن كثير: وكان القاضي الفاضل بمصر يدبر الممالك بها ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية[5]. وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء، وكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم، وبعد انتصاره الكبير في حطين رأى صلاح الدين استكمال الجهاد ضد الصليبيين واستعادة المدن الشامية منهم مرّة أخرى، وقد شارك مجموعة من العلماء في

---

(1) رواه سعيد بن منصور، كتاب، الجهاد رقم: 2376، وله طرق تقويه.

(2) صفة الغرباء، ص: 205.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن: واقدساه (1/ 373).

(4) شذرات الذهب (4/ 327).

(5) البداية والنهاية، نقلاً عن: دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 198.

هذه الفتوحات يأتي ذكرهم في حينه[1] بإذن الله. فقد استعان صلاح الدين بالعلماء والفقهاء على إعداد الأمة جهادياً مُبيناً لهم غاية الجهاد في الإسلام وضرورة الالتزام بها والعمل لها وقد ساهم العلماء مساهمة جوهرية في رفع الروح المعنوية القتالية في حطين وغيرها.

9 ـ حسن الصلة بالله:

كان صلاح الدين كثير العبادة والدعاء والرجاء في نصر الله وعونه، وكان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحضهم على الطاعة والعبادة ويتقدمهم في ذلك ويهيء لهم الفرصة لتزكية النفوس والانشغال بتلاوة القرآن وتدبره وحفظه، وكان حريصاً على صلاة القيام وكثرة الذكر، ويحض أمراءه وجنده على ذلك، فكان رحمه الله يجلس إلى العلماء ويقرأ عليهم القرآن، ويستمع منهم إلى تفسيره، ويجلس إلى أهل الحديث يتفقه عليهم فقه الحديث ويستمع إلى الفقهاء والعلماء، وكان يحضر العلماء والفقهاء والمفسرين ليعلّموا الجيش كتاب ربهم ويُفَقِّهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم. وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا في الليل وأن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وكان يتفقد خيام الجند فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو[2].

10 ـ اللجوء إلى الله بعد الإعداد:

ومن أسباب النصر أنه كان بعد الأخذ بالأسباب يلجأ إلى الله تبارك وتعالى يطلب منه المد والعون، وكان رحمه الله كثير الدعاء واللجوء إلى الله في الملمات وكان في دعائه مخلصاً متضرعاً. قال القاضي العالم المصاحب له في أسفاره وجهاده عن دعائه وحاله في الدعاء: كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد فيقول: إلٰهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول[3]، فسرعان ما يستجيب الله دعاءه ويجعل أمر الصليبيين في اضطراب ويعودون شر مآب بالهزيمة من رب الأرباب، نعم إنه التوكل على الله حق توكله، والدعاء من سويداء القلب إلى ربه وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢

---

(1) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 143.

(2) المصدر نفسه، ص: 185.

(3) النوادر السلطانية، ص: 12.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝٣﴾ [الطلاق: 2-3] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: 3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾[البقرة: 186]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۝٦٠﴾ [غافر: 60].

11 ـ نجاح العمل الاستخباراتي لصلاح الدين:

استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً، فقبيل معركة حطين تمكن صلاح الدين من استمالة زوجة أمير أنطاكية بوهيمند الثالث السيد سيبل، فكانت لها اتصالات سرية مع صلاح الدين الأيوبي وكانت تطلعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أولاً بأول، وذلك في فجر يوم حطين، ويؤكد المؤرخ ابن الأثير هذه الحقيقة، فيقول أن أميرة أنطاكية كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي يؤثرها[1] علمها. أما أبو شامة فيقول: وكانت امرأة ابرنس أنطاكية وتعرف مدام سيبيلا في موالاة السلطان، عيناً له على العدو، وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا[2]، إن من أسباب الانتصار في حطين إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام وجنّب صلاح الدين المفاجآت العدوانية من الصليبيين، وقد كتب صن تزو، مشيراً لأهمية ذلك: إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة[3]، وقد انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبارهم تحركاتهم تصل إليه بسرعة، وباستمرار[4].

12 ـ الأسباب التي تعود إلى الصليبيين:

ـ كان الصليبيون منقسمين على أنفسهم في هذه المعركة، فبينما يرى القونص صاحب طرابلس عدم القتال في المكان الذي اختاره صلاح الدين ينبري له أرناط صاحب مملكة الكرك بالاتهام بالجبن والتواطؤ مع المسلمين، والدعاية لهم بقوتهم ويتهمه بأنه يلاين المسلمين لأن زوجته حاصرها صلاح الدين والمسلمون في قلعة طبرية، ولهذا نجده ما إن وجد فرصة للهروب هرب ومن معه من أرض المعركة وتركهم في أصعب ساعات القتال، كما ترك زوجه في هذا الوضع الحرج.

---

(1) دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية، ص: 67.

(2) حطين وقائع وعبر، عبد الفتاح عاشور، ص: 45.

(3) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: 311.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 153.

ـ لقد وقعوا في الحيلة التي وضعها صلاح الدين عن غباء وعلم بها، وقد نبههم إليها قونص طرابلس.

ـ الروح المعنوية التي انهارات من حرب الاستنزاف وفي بداية المعركة والمعارك السابقة التي وجدوا أنفسهم أمام المسلمين، أقوياء الشكيمة لا قدرة لهم على دفع الهزيمة والأذى.

ـ فُسْق هؤلاء الصليبيين وفجورهم وانتشار الدعارة فيهم، وأن قسماً كبيراً منهم جاء للنهب والسلب والسفك ظلماً إنهم لا أخلاق لهم، والنصر منهم بعيد على المؤمنين الموحدين المجاهدين.

وفي هذا يقول جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب». : ومما يلفت النظر هؤلاء الغزاة، لا أخلاق لهم وليس عندهم قيم بل كانوا فجرة أشراراً منحلين فاسقين، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها، إذ لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر[1].

13 ـ رأي أبي الحسن الندوي في سر انتصار صلاح الدين :

ألقى الشيخ الندوي كلمة في رابطة العالم الإسلامي جاء فيها: . . . إن الحل الوحيد لقضية فلسطين أن يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية وعلى مسرح الجهاد الإسلامي مرة ثانية، يقول الزركلي:

هاتي صلاح الدين ثانية فينا وجددي حطين أو شبه حطّينا

. . ماذا كان سرّ انتصار صلاح الدين الأيوبي الإنتصار الباهر الذي حيّر العالم، وغيّر مجرى التاريخ؟ إنما السّرُّ أنه كان مسلماً مؤمناً محمدياً لا يعرف غير لغة القرآن، ولا يعرف غير لغة الإيمان، ولا يعرف غير لغة الجنان والمسلمون ما زالوا ولا يزالون . . . إن المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت المادّية الرعناء، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن، إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومهما تعددت لغاتهم، ومهما فاق ذكاؤهم، ومهما فاقت ألمعيتهم، وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد عليه الصلاة والسلام الذي آمنوا به كنبيٍّ خالد وكرافع علم الجهاد المقدس، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة، أثيروا فيهم

(1) حضارة العرب، ص: 328.

الحنان، والإيمان، بكلمة الجهاد، بكلمة الحنين إلى الشهادة، إنهم لا يزالون يحسنون فهم هذه اللغة، إنما كان سر سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنّه فهم هذا السر. إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات، وضروباً وأنواعاً من الشعوب واستطاع أن يوحِّد كلمة العالم الإسلامي الممزّق المتشتت المنقسم على نفسه، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعدَّدت عناصره وتعدَّدت ثقافاته وتعدَّدت مذاهبه الفقهية، كيف استطاع أن يوحِّد العالم الإسلاميّ في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرفع راية القومية العربية، اسمحوا لي أن أقول: أنا هندي الأصل، أنا هندي الثقافة، أنا رجل ولدت ونشأت في الهند ولكن أؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وأؤمن بالقرآن، إنّ هناك قلوباً تعدُّ بالملايين تهفو وتصبو إليكم، وتستهين؟ في سبيلكم بأجسامها وحياتها وسلامتها، إن مذبحة كبيرة وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة، وماذا كان السبب؟ ذلك لأجل التجمع الإسلامي الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين، إنما وقعت هذه المجزرة ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار، وحيلولة البحار، وعدم معرفتهم للغة العرب، تجمعوا هذا التجمع الخالد التاريخي ليدافعوا عن قضية فلسطين، وذلك برهان ساطع على أن هنالك قلوباً مخلصة لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى قلوب مؤمنة صادقة لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف لغة اللباقة، إنما تعرف الإيمان، إنما تعرف الحنان إنما تعرف لغة القرآن، فأنتم تملكون ثروة لا تملكها أمريكا ولا تملكها روسيا، تلك ثروة الإيمان، تلك ثروة الإيمان الدافق، . . . إن هذه الثروة موجودة ولكنها تحتاج إلى إثارة، تحتاج إلى تحريك، تحريك صادق مؤمن[1].

رابعاً: ردود أفعال معركة حطين:

1 ـ فرحة القاضي الفاضل بنصر حطين:

كان القاضي الفاضل غائباً عن نصر حطين بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدِّين القيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مُسْلم، وأنه قد أقام به الدِّين القيِّم، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين: ملك الدنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها، والدموع لم تُمسح من خدودها وكلما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان

(1) محاضرات في الفكر والدعوة (2/ 227، 228).

الذي يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه واحد جَدَّد لله شُكراً تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جَفْنه، ....

تلك المكارم لاقَعْبَانِ من لَبَنٍ ... وذلك الفتح لا عَمَّان واليَمَنِ
وذلك السَّيفُ لا سيفُ ابن ذي يَزَنٍ

وللألسنة بعد في هذا الفتح سبح طويل وقول جليل[1].

2 ـ من شعر العماد الأصفهاني في حطين:

يا يوم حطين والأبطال عابسة ... وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبسَا
رأيت فيه عظيم الكُفر مُحتقراً ... مُعفَّرا خدُّهُ والأنف قد تَعَسا[2]
يا طُهْرَ سَيْفٍ برى رأس البرنس فقد ... أصاب أعظم من بالشِّركِ فد نُجسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه ... كأنه ضفدع في الماء قد غطس
عرّى ظُباه من الأغماد مُهرَقَةً ... دماً من الشِّرك ردّاها به وكسا
مَنْ سَيْفُه في دماء القوم منغمسٌ ... من كلِّ من لم يزل في الكُفْرِ مُنْغَمِسا
أفناهم قتلهم والأسرُ فانتكسوا ... وبيتُ كفرهم من خبثهم كُنسا[3]

3 ـ وقال الشهاب فتيان الشّاغوري:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم ... يتدامرون على متون الضُّمَّرِ
أوردت أطراف الرِّماح صُدُوَرهم ... فوَلَغن في علق النَّجيع[4] الأحمر
فهناك لم يُرَ غيرُ نجم مُقْبلٍ ... في إثر عِفريت رجيم مدبر
فمن الذي من جيشهم لم يُحترم ... ومن الذي من جمعهم لم يُؤسر
حتى لقد بِيْعَت عقائلُ أرهقت ... بالسَّبي بالثَّمن الأخس الأحقر
سقت المماليكُ الكرامُ ملوكهم ... كأساً به سقت اللَّئيم الهنفري

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 300، 301).
(2) المصدر نفسه (3/ 300، 301).
(3) المصدر نفسه (3/ 301).
(4) المصدر نفسه (3/ 301).

وَعَجَمت عُودَ صَليبِهم فكسرته وسواك ألفاه صَليب المَكْسَرِ

أغلى الأداهم[1] من أسرتَ وأرخصت بيض الصوارم من نِهاب العسكر

وجعلت شرق الأرض يحسد غربها بك فهو داعٍ دعوة المستنصر

لا يَعْدَمَنْك المسلمون فكم يدٍ أوليتهم معروفها لم يُنكر

أمَّنت سِرْبَهم وصُنت حريمهم ودرأت عنهم قاصمات الأظهُرِ

ما إن راك الله إلا آمراً فيهم بمعروف ومُنكِرَ ومُنْكَرِ

متواضعاً لله جلَّ جلاله وبك اضمحلَّت سطوة المتكبر

لم يخل سمعاً من هناءٍ مُهنِّئٍ للمسلمين ومن سماع مُبَشِّر

واستعظم الأخبار عنك معاشرُ فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر

مضتِ الملوك ولم تنل عشرِ الذي أوتيتَه من منجح أو مفخر[2]

4 ـ وقال أبو الحسن علي السّاعاتي في فتح طبرية:

قال الشاعر:

جَلتَ عزماتك الفتح المبُينا فقد قرّت عيون المؤمنينا

رددت أخِيذَةَ الإسلام لما غدا صَرفُ القضاء بها ضَمِينا

وهان بك الصليب وكان قِدما يَعُزُّ على العوالي أن يهونا

يقاتل كلُّ ذي مُلكٍ رياءً وأنت تقاتل الأعداء دينا

غَدَتْ في وَجْنَةِ الأيام خالاً وفي جِيْدِ العُلا عِقداً ثميناً

فيا لله كم سرَّت قلوباً ويالله كم أبكت عيونا

وما طبريةٌ إلا هَدِيٌّ ترفع عن أكُفّ اللامسينا

حصانُ الذَّيلِ لم تُقذَف بسوء وسل عنها اللَّياليَ والسّنينا

فَضَضْت خِتامها قَسراً ومن ذا يَصُدُّ الليث أن يَلِجَ العَرِينا

لقد أنكحتها صُمّ العوالي فكان نِتاجُها الحرب الزبُونا

منالٌ بذَّ أهلَ الأرضِ طُرّا سِوَاك ومَعقِلٌ أعيا القرونا

---

(1) الأداهم جمع، مفردها: أدهم.

(2) كتاب الروضتين (3/ 304).

قست حتى رأت كفؤاً فلانت ... وغاية كلِّ قاس أن يلينا
قضيت فريضة الإسلام منها ... وصدّت الأماني والظُّنونا
تَهُزُّ معاطف القدس ابتهاجاً ... وتُرضي عنك مكة والحَجُونا
فلو أن الجماد يطيق نُطقاً ... لنادتك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح أهليها ظلاماً ... وأبدلت الزَّئير بها أنينا
تَخال حُماة حَوزَتِها نساءً ... بِمَوْضُون الحديدِ مُقَنّعينا
لِبيْضك في جَماجمهم غِناءٌ ... لذيذٌ علَّمَ الطَّيْرَ الحنينا
تميلُ إلى المُثقّفةِ العَوَالي ... فهل أمست رماحاً أم غُصُونا
يكاد النَّقع يُذْهِلها فلولا ... بُرُوقُ القاضبات لما هُدينا[1]
فكم حازت قُدودُ قَناك منها ... قُدوداً كالقنا لوناً ولينا
وغيداً كالجآذر آنساتٍ[2] ... كغيد نداك أبكاراً وعُونا

وقال أيضاً:

فلا عَدِمَ الشامُ وساكنوه ... ظُبيَ تَشفي بها الداء الدَّفينا
سُهادُ جُفُونها في كلِّ فتح ... سُهادٌ يمنع الغُمضَ الجفونا
فألمِم بالسَّواحِل فهي صور ... إليك وألحق الهام المُتونا
فقلب القدس مسرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئباً حزينا
أذَرْتَ على الفرنج وقد تلاقَتْ ... جُموعُهُمُ عليك رحىً طحُونا
ففي بيسان ذاقوا منك بُؤساً ... وفي صفد أتوك مُصَفَّدينا
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً ... كأن صروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ولا مَلامٌ ... فلست بمُبغض زمناً خَؤُونا
لقد جَرّدت عزماً ناصريًّا ... له هَوَتِ الكواكبُ ساجدينا

(1) كتاب الروضتين (3/ 305).
(2) الجآذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشية، آنسات: جمع، مفردها: آنسة وهي الطيبة النفس التي تحب قربك وحديثك.

لقد أتعبت من طلب المعالي وحاول أن يسوس المسلمينا[1]

5 ـ رؤى عجيبة:

كانت والدة السلطان صلاح الدين تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى[2].

6 ـ فتوحات الساحل قبل فتح القدس:

بعد أن منّ الله على صلاح الدين الأيوبي بالنصر المظفر على الصليبيين في معركة حطين الخالدة، والتي كانت بمثابة «مفتاح الفتوح الإسلامية»[3] في المنطقة أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، إلا أنه لم يتوجه نحو مدينة بيت المقدس مباشرة، وإنما اختار التوجه نحو الساحل لفتح المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة هناك وذلك لعدة أسباب منها:

أ ـ أن قيامه بالهجوم مباشرة على المدينة المقدسة سيؤدي إلى استنفار كافة القوات الصليبية في المنطقة، فتجتمع في حربها ضده مما قد يصعب ويؤخر عملية التحرير.

ب ـ أن فتح المدينة من قبل صلاح الدين قد يحدث قلقاً شديداً لدى العالم الغربي الذي ربما يؤدي إلى اندفاعه بكل قوة[4] لمحاربته.

ج ـ كذلك لعلمه بقوة التحصين التي فرضها الصليبيون على هذه المدينة داخل الأسوار وخارجها.

د ـ أراد بتوجهه نحو مدن الساحل أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الأوروبي، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام.

هـ ـ كما أنه أراد أيضاً تسهيل الاتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة على الساحل المصري وبين تلك الموانىء المنتشرة في الساحل الشامي[5].

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 306).

(2) المصدر نفسه (3/ 307).

(3) مفرج الكروب (2/ 88).

(4) سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام، ص: 305.

(5) صلاح الدين وتحرير القدس، علية المهتدي، ص: 124.

لذلك كله قام صلاح الدين بالتوجه إلى المواقع الصليبية المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استنزاف قواتهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوروبا[1] .

في يوم الأحد 25 ربيع الآخر سنة (583هـ/ 5 تموز 1187م) نزل صلاح الدين على طبرية، واستولى على قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء يرتب أمورها، ثم ولاها لصارم الدين قايماز النجمي[2]. وفي يوم الأربعاء 8 تموز 1187م تقدم صلاح الدين نحو عكا[3]، وما إن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل، فدخلها الجيش الأيوبي، يوم الجمعة من جمادى الأولى 583هـ [4]، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر وأطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين، وكانوا أربع آلاف دون أن يلحقوا أذى بأهل البلد، أو بالتجار البنادقة والبيازنة[5]، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين فوائد كثيرة، حيث ساهمت في تسهيل مهمة فتح مدن الساحل دون مقاومة كبيرة نتيجة لما حدث في عكا، كما حافظت سياسته تلك على استمرار الحياة الاقتصادية في المدينة بعد ما لمسه التجار الغربيون من عدله وسماحته[6]، وأقام صلاح الدين في مدينة عكا لفترة من الوقت، حيث اتخذها مركزاً لانطلاق جيوشه لفتح المعاقل القريبة مثل: الناصرة، قيسارية، حيفا، صفورية، الشقيف، الفولة، الطور وغيرها من البلاد المجاورة[7]، حيث استولى عليها. ثم جرى الاستيلاء على مدينة نابلس، وتم إقرار أهالي البلدة على أموالهم وأملاكهم لأنهم كانوا مسلمين، وقد مكثوا في المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها[8]، كما تم فتح كل من صيدا وبيروت ومنطقة جبيل، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتح بيت المقدس ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان لأن أمرها أيسر[9]، ولأنها تقع في ملتقى الطرق، بين بلاد الشام ومصر[10]. وفي طريقه إلى عسقلان

---

(1) صلاح الدين وتحرير القدس، ص: 124.

(2) كتاب الروضتين (2/ 79)، مفرج الكروب (2/ 196).

(3) عكا: مدينة واسعة كثيرة الضياع ولها مرسى مأمون.

(4) النوادر السلطانية، ص: 79.

(5) سياسة صلاح الدين، ص: 297.

(6) صلاح الدين وتحرير القدس، ص: 125.

(7) مفرج الكروب (2/ 202).

(8) المصدر نفسه (2/ 202، 203).

(9) النوادر السلطانية، ص: 80، صلاح الدين وتحرير القدس، ص: 126.

(10) صلاح الدين وتحرير القدس، ص: 126.

استولى على الرملة وحصن تبنين وبيت لحم والخليل، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة (583هـ/ أيلول) سنة (1187م)[1]. كما فتح مدن غزة، والداروم وأرسوف والنطرون، وبيت جبريل، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشويك والكرك اللتان بقيتا على المقاومة، وهكذا دخل الساحل برمته تحت إمرة صلاح الدين، من بيروت إلى يافا ما عدا مدينة صور التي دخلها المركيز «كونراد دي مونتفران» في ذلك الوقت، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال، فشرع بتحصين المدينة، وتجديد حفر الخندق استعداداً لملاقاة صلاح الدين[2]، وخصوصاً وأن الجيوش الصليبية التي خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها في مدينة صور، بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل إلى بيت المقدس أو مدينة صور، فقصد معظمهم صور[3].

خامساً: نتائج معركة حطين:

1 ـ معركة فاصلة وحاسمة:

توصف معركة حطين بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها، والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكري الساحق للمسلمين ضد أعدائهم[4]، كما تهاوت القلاع الصليبية التي طالما أغارت على مناطق المسلمين[5] وأحالت حياتهم أحياناً إلى جحيم، ومن أمثلة القلاع التي تهاوت أما فعاليات الجيش الأيوبي نذكر: طبرية، صفد، هونين، تبنين، بغراس، دربساك، حجر شغلن، القصير، وغيرها كثير ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي[6].

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 80، 81، صلاح الدين وتحرير القدس، ص: 126.

(2) مفرج الكروب (2/ 208، 209).

(3) صلاح الدين وتحرير القدس.

(4) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 219.

(5) انظر: النوادر السلطانية، ص: 89 – 96.

(6) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 220.

2 ـ بداية النهاية للوجود الصليبي :

كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية حلّت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى، كما شكّلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي[1]، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى وأكدت أن قوة الفرنج يمكن أن تقهر، وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التي بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين لكنها لم تقتلع نهائياً وجود الفرنج، فهي استراتيجياً معركة فاصلة بين حدين أي أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات والتقدم، وشقت الطريق الطويل والصعب الذي شهد الكثير من الصعود والهبوط والهجوم والهجوم المضاد إلى أن تم خلخلة مواقع الفرنج وتفكيك ممالكهم وطردهم من المنطقة[2].

3 ـ ارتفاع قدر صلاح الدين:

من أسماء الله ﷻ «الرافع»، فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود[3]، وقد كان لهذا النصر صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة وأهالي دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله ومقرّه وفيها قضاته وكُتّابه، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه ولما علموا بالانتصار، عبَّروا عن فرحهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله[4].

4 ـ معركة حطين مفتاح بيت المقدس:

كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: كانت وقعة حطين

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر، ص: 53.

(2) المصدر نفسه، ص: 153.

(3) المصدر نفسه، ص: 154.

(4) مفرج الكروب (2/ 188).

مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس[1]، وعدّها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقاري منذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدّس روحه، فلم يؤيِّد الإسلام بعد الصحابة ﷺ برجل مثله ومثل نور الدين[2] محمود بن زنكي، رحمة الله عليهما، فهما جدّدا الإسلام بعد دوسه، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للملّة فبدّد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية[3].

5 ـ أهمية الوعي الجغرافي:

أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميْزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلّت أهمية أرض فلسطين التي تُعدُّ بمثابة الجسر أو المَعْبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر[4].

6 ـ هيبة صلاح الدين ممزوجة بالإعجاب والإجلال:

غدا اسم صلاح الدين بعد الانتصار من الرهبة في قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحات من النُبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم وحسن معاملته لأسراهم أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في ذلك الوقت، ففي معرض الحديث عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الصليبيين[5] كتب أرنول: لقد أعطاهنّ الكثير لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرن في الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين. كما أكرم إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها

---

(1) أين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

(2) مفرج الكروب (2/ 193)، مبالغة أين عمر بن عبدالعزيز.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 154.

(4) المصدر نفسه.

(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 155.

وسارت إلى طرابلس، وكان بالبان الإبليني من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده في بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة[1]. ولقد وقف الغرب الأوروبي وبخاصة فرنسا موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحوّل في المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطار التاريخ الواقعي والموضوعي[2]، وقد أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس وبخاصة بعد أن أُسر ملكها جاي لوزينان ونقص عن المعركة نقص ملموس في الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين، وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى: فمن شهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل[3].

7 ـ الجهود التراكمية التي سبقته:

لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على أكثر من قرن إلى أن بدا قطف ثمارها في عهدي عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي، والأخير يعتبر المؤسس الحقيقي للتحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام ثم مصر، فقد عرف نور الدين محمود بانتصاراته العسكرية وأعماله الإصلاحية الإحيائية وإنجازاته الشرعية، فقد اشتهر ببناء المدارس ومعاهد التربية والتعليم، واهتم بالقضاء وبتشييد المساجد والحصون ونشر العلم في حلب ودمشق ومختلف مدن الشام وفي عهده استعاد القضاء دوره الشرعي والتاريخي، وبنى دار للعدل وشجع العلماء والفقهاء على لعب دورهم في الإعداد النفسي للقوات وتبليغ الرسالة وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيوشه. وفي هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينيه فتعلم على يد المحدث أحمد بن محمد الأصبهاني، والواعظ علي ابن إبراهيم بن نجا ونجم الدين الحبوشاني، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذي كان له شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مئة سنة من المواجهات المتقطعة، فصلاح الدين لم يصنعه نفسه، بل وفقه الله تعالى ـ ثم هو نتاج تاريخي وموضوعي لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية[4] التي تزعمها نظام الملك في عهد السلاجقة والتي كان من رموزها الإمام

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 155.

(2) المصدر نفسه، ص: 115.

(3) المصدر نفسه، ص: 115.

(4) صلاح الدين الأيوبي وسقوط القدس وتحريرها، ص: 78، 79.

الجويني، وأبو إسحاق الشيرازي والغزالي وغيرهم، ولقد آتت تلك الجهود ثمارها والتي كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين.

المبحث الثاني
فتح بيت المقدس

تعتبر «حطين» معركة حاسمة في تاريخ الحرب الإسلامية الصليبية، إذ فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسة في هذه المعركة، كما تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي وأضحى القائد المنتصر في هذه المعركة، على الصليبيين: صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره[1]، وبعد حطين لم يعد للصليبيين في المملكة المقدسة خصوصاً قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه الذي أعاد جمعه من كل المنطقة في جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات ليستكمل توحيد بلاد الشام ،وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً نحو القدس لفتحها عنوة وبالسيف، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذي جاء يتحدى مناعتها وجبروتها بعد ثمانية وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها[2].

أولاً: استعدادات الصليبيين داخل بيت المقدس:

كان عدد المقاتلين الصليبيين في القدس «يزيد على ستين ألفاً» من الخيالة «عدا النساء والصبيان» حسبما ذكر«أبو شامة» في كتاب الروضتين[3]. ويبدو أن عدد سكان المدينة، وبالتالي عدد المقاتلين فيها قد ازداد بسبب توافد اللاجئين إليها من المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، والتي تعرضت للأخطار خلال الحرب الإسلامية الصليبية، ويذكر «رنسيمان»: أن معظم هؤلاء اللاجئين لم يكن يتقن فن القتال، وكان الرجال فيهم قلة ضئيلة إذ كان مقابل كل رجل «خمسون امرأة وطفل»، ولم يكن في المدينة سوى «فارسين اثنين» مما حدا بباليان إلى أن «ينصّب فارساً، كل صبي تجاوز السادسة عشر من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة» ثم جنّد كل الذكور الذين بلغوا هذه السن، ووزع الأسلحة على كل من استطاع أن يحمل السلاح[4]، ونشر المقاتلين على الأسوار وفي الحصون، .ونصب المجانيق، وحفر الخنادق،

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 94
(2) المصدر نفسه، ص: 94.
(3) كتاب الروضتين (2/ 92).
(4) رنسيمان (2/ 749).

يقول أبو شامة في ذلك: ونصبوا (الصليبيون) على كل نيق منجنيقاً، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب ركناً وثيقاً، وفرّقوا على كل برج فريقاً[1]. إلا أن ابن الأثير يخالف رنسيمان في عدد الفرسان الذين كانوا في القدس قبل تجنيد الصبية النبلاء وتنصيبهم فرساناً، فيذكر أنه كان في القدس «من خلُص» من فرسان الصليبيين «في حطين» وأن خلقاً كبيراً اجتمعوا في المدينة، من أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها، وقد صعد الجميع على الأسوار بحدّهم وحديدهم، حيث نصبوا المجانيق وحصّنوا تلك الأسوار، بما وجدوا إليه سبيلاً[2].

ثانياً: خطة صلاح الدين العسكرية:

1 ـ الخطوات التي سبقت فتح القدس:

تجلت مقدرة صلاح الدين الحربية في تلك الخطة العسكرية التي اتبعها في جهاده ضد الصليبيين لاسترداد بيت المقدس، وقامت تلك الخطة على تكوين جبهة إسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام وأجزاء من العراق، ثم منازلة الصليبيين في عقر دارهم، وإنزال ضربة قوية بهم، كما حدث في معركة حطين. وتلا ذلك مسيره إلى مدن الساحل الشامي لإضعاف الصليبيين مادياً ومعنوياً. ولو اتجه صلاح الدين عقب انتصاره في حطين إلى بيت المقدس لتمكن من دخوله بدون عناء، إلا أن استيلاءه على بيت المقدس قبل السيطرة على مدن الساحل لن يضمن له الاستقرار التام في بيت المقدس، إذ كان من المتوقع قيام الغرب الأوروبي بإرسال الجيوش الصليبية إلى موانئ الشام، ومجيء فرسانه زرافات ووحداناً، والدخول مع صلاح الدين في معارك حامية لاسترداد بيت المقدس الذي به كنيسة القيامة لاعتقادهم الباطل كما يقول العماد الأصفهاني أن: فيها صلب المسيح، وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت وقام الصليب[3]، وبفضل الله ثم تلك الخطة العسكرية التي نفذها صلاح الدين بسيطرته على الشريط الساحلي، عزل بيت المقدس ومنع وصول الإمدادات إليه وقطع كل أمل للصليبيين سواء في الغرب الأوروبي أو في بلاد الشام في الوصول إلى بيت المقدس، وإنقاذه من جيوش المسلمين، ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد، المحيطة ببيت المقدس، وضمن بذلك إحكام العزلة على مملكة بيت المقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد وعزم على قصد بيت المقدس، فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الإسلامية التي كانت متفرقة في الساحل[4].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 93).

(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 94.

(3) المصدر نفسه، ص: 96.

(4) النوادر السلطانية، ص: 81، صلاح الدين والصليبيون، ص: 208.

2 ـ البعد الإعلامي:

كانت تلك الحشود العسكرية الإسلامية قد شاركت صلاح الدين في معركة حطين، واستغل صلاح الدين تواجدها في الشام قبل عودتها إلى إقطاعاتها في السيطرة على مدن وموانئ الساحل، وحرص صلاح الدين على أن يسبق مسيره إلى بيت المقدس حملة إعلامية إلى كافة أطراف العالم الإسلامي بقصد استنفار المسلمين للجهاد، الأمر الذي ثارت معه عزائم المسلمين بالعزم على الجهاد والاشتراك في تطهير تلك البقعة المقدسة أُولى القبلتين وثالث الحرمين، ومسرى محمد ﷺ. وذكر أبو شامة وابن كثير أن المسلمين ما إن بلغهم ما منّ الله به على صلاح الدين من فتوح الساحل الشامي، ومن ثم قصده المسير إلى بيت المقدس، حتى توافدوا عليه، من كل مكان يتقدمهم العلماء والفقهاء، الذين قدموا للتطوع في الجهاد لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام[1].

3 ـ استدعاء القوات المصرية:

ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته في الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية، واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده، ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب، أثناء تقدمه إلى بيت المقدس، لذلك أمر الأساطيل المنصورة بالمسير للمشاركة في الجهاد، فسارت إليه من مصر يتقدمها الحاجب لؤلؤ وأخذت تجوب البحر وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم، في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات تصل من مصر إلى الشام براً وبحراً بكل سهولة، وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت المقدس قد أخذت قسطاً وافراً من التحصين، لما تتمتع به مكانة عظيمة في نفوس الصليبيين، حرص على إحضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الأبراج العالية[2]، فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والنفاطات والقطاعات وعدد النقوب وغيرها من الأدوات اللازمة لدك الأسوار ونقبها ثم حشو تلك النقوب بالحطب والنفط وإشعال النيران فيها، لفتح ثغرات في الأسوار يمكن من خلالها اقتحام الأسوار ودخول المدينة[3].

4 ـ الحصار والقتال:

كان الصليبيون قد بدأوا القتال قبل تمركز جيش المسلمين حول أسوار المدينة، أي قبل

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 209.

(2) وفيات الأعيان (7/ 184)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 210.

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 210.

20 أيلول، وذلك عندما تقدمت مفرزة من طليعة الجيش الإسلامي نحو الأسوار بقيادة الأمير جمال الدين شروين بن حسن الرازي فخرجت إليها مفرزة من حامية المدينة فقاتلتها وهزمتها، وقتلت أميرها[1]، وقد حدث هذا قبل أن يتمركز صلاح الدين بجيشه في الجانب الغربي من السور، ومهما يكن من أمر فقد بدأ صلاح الدين قتاله الفعلي ضد العدو المتحصن داخل أسوار المدينة في صباح 26 أيلول سبتمبر 1187م، 21 رجب 583هـ فتقدم بجيشه نحو الأسوار بغطاء كثيف من المدفعية التي كانت سائدة في ذلك العصر «وهي المجانيق» وكان عددها 12 منجنيقاً كبيراً ترمي الحجارة الكبيرة، وتقدم، تحت هذا الغطاء أيضاً، النقّابون الذين بدأوا ينقبون في السور ودار القتال عنيفاً بين الفريقين: حامية المدينة تحاول أن تنال من المسلمين، وتوقف تقدمهم، بسهامها ونبالها، ومجانيقها من على الأسوار، ومن التحصينات، وهي تقاتل بعنف وضراوة لا مثيل لهما، بينما كان فرسانها يخرجون إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، إلا أن ذلك لم يكن ليثني المسلمين عن تقدمهم ونقبهم للأسوار وتدميرها وتدمير التحصينات بمجانيقهم وقد قتل في هذه المعركة من الفريقين الكثير، وممن قتل: الأمير عز الدين عيسى بن مالك وكان والده صاحب قلعة جعبر[2]، واستمر القتال عنيفاً بعد ذلك، ويصف «غروسيه» المعركة التي دارت عند أسوار المدينة بأنها كانت من الضراوة، مالم يسمع بمثله، كما كانت عطشاً حقيقياً للشهادة. وهو يستطرد: لقد كانت: المعارك الأكثر ضراوة، كما لم يشهده إنسان، فكل رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعل ديني والتزام حتمي[3]. وقد كان تفوق صلاح الدين في المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السور[4]، وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجوم انتحاري على المسلمين خارج الأسوار إلا أن بطريقهم «هرقل» ردعهم عن ذلك بعد أن أقنعهم أن «عملهم البطولي» هذا لن يكون سوى التخلي عن النساء والأطفال للعدو بلا دفاع[5].

5 ـ الهجوم الحاسم:

بعد هذا القتال العنيف قرر صلاح الدين أن يشن هجوماً حاسماً على المدينة وكثف رمايات المجانيق، مغطياً تقدم المهاجمين بحجارتها، وسيل من السهام والنبال يطلقها الرماة نحو المدافعين عن السور والحصون لكي تشل مقاومتهم، مما جعل أولئك المدافعين

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 92).

(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 100.

(3) المصدر نفسه، ص: 100.

(4) المصدر نفسه، ص: 100.

(5) المصدر نفسه، ص: 101.

يتراجعون عن مراكزهم، بينما تقدم المسلمون واجتازوا الخندق الخارجي المحفور حول السور ثم التصقوا وعملوا به نقباً وتهديماً واشتد قصف المجانيق وتوالى رمي السهام والنبال من الرماة المتقدمين خلف المهاجمين يحمونهم، ونجح المهاجمون في فتح ثغرات عديدة في السور الذي أوشك أن يصبح ملكاً للمهاجمين، وفي وقت ما من تاريخ 29 أيلول/ سبتمبر، استطاع المهاجمون فتح «ثغرة كبيرة» في السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور، ورغم ذلك فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتماً إن هم استمروا في عنادهم[1]، وتزاحم الناس في الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم، وأخذوا يضربون أنفسهم بالحجارة ويرجون المدد والرحمة من الله، وقطعت النساء شعور بناتهن على أمل استثارة الرجال لحمايتهن من سبي المسلمين لهن[2].

6 ـ المفاوضات وتسليم القدس إلى صلاح الدين:

اتفق الصليبيون على إرسال الرسل بطلب الآمال مقابل تسليم المدينة لصلاح الدين، وامتنع صلاح الدين عن إجابتهم إلى ذلك وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها[3]، فلما أعاد صلاح الدين رسل الصليبيين خائبين محرومين اجتمع الصليبيون مرة أخرى داخل بيت المقدس، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين ولكن البطريرك هرقل اعترض على ذلك وأوضح لهم أنهم لو فعلوا ذلك فإنهم سيسوقون نساءهم وأطفالهم إلى العبودية، وحرضهم على طلب الأمان من صلاح الدين، فأرسل باليان دي ابلين إلى صلاح الدين طالباً الأمان لنفسه، ليحضر عنده للتفاوض، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحضر باليان عنده وسأله الأمان للصليبيين، فأصر صلاح الدين على فتح المدينة بالسيف، فلما يئس باليان من ذلك أراد أن يستثير عطف صلاح الدين بالتهديد بقتل النساء والأطفال وأسرى المسلمين، حيث قال له: أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير لا يعلمه إلا الله، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ولنحرقن أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل

---

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 101.

(2) مفرج الكروب (2/ 213)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 213.

(3) الكامل في الأثر، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 213.

من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء ونظفر كراماً[1] واستشار صلاح الدين أصحابه، فأوضحوا له أنه يكفي للبر بقسمه أن يستولي على بيت المقدس بحد السيف أن تستسلم المدينة بشروط كأنها سقطت بالقتال، وفي هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب[2]، فأجابهم صلاح الدين إلى الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ووافق على مغادرة الصليبيين المدينة مقابل فداء يدفعونه، فجعل على الرجل عشرة دنانير يستوي في ذلك الغني والفقير وعلى المرأة خمسة دنانير[3]. ويضيف كل من سبط ابن الجوزي والعماد الحنبلي أن صلاح الدين جعل على الصبي أربعة دنانير[4] أما بالنسبة للطفل فقد اختلف فيما فرض عليه فذهب البعض إلى أن فديته دينار واحد[5]، في حين يرى البعض الآخر أن فديته ديناران[6]، ويبدو أن الرأي الأول أرجح بدليل إجماع المراجع الصليبية على ذلك. أما الفقراء والمعدمون فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان مقابل إطلاق سراحهم، مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف دينار، وحدد صلاح الدين لباليان مدة أربعين يوماً، فمن أدى فديته خلالها أطلق سراحه، ومن بقي بعدها صار مملوكاً، وسلمت المدينة يوم الجمعة 27 رجب 583/ 12 أكتوبر 1187م[7] وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد في البرق الشامي أن الصليبيين عقب توقيع اتفاقية التسليم، شرعوا في إخلاء البيوت، وبيع ما ادخروا من الأثاث والأقوات بأرخص الأثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالمجان لا سيما ما تعذر نقله وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: 25-28].

ثالثاً: دخول صلاح الدين بيت المقدس:

تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين: يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ وذلك بعد أن أعطى بالباب الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام

---

(1) مفرج الكروب (2/ 214)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 214.

(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 214.

(3) النوادر السلطانية، ص: 81 - 82.

(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 214.

(5) كتاب الروضتين (2/ 95)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 214.

(6) النوادر السلطانية، ص: 82، صلاح الدين والصليبيون، ص: 215.

(7) المصدر نفسه.

الإسلامية على أسوار المدينة المقدسة، وقد استمر حصار صلاح الدين للمدينة اثني عشر يوماً، وبسقوط القدس، انهارت أمام صلاح الدين معظم المدن والمواقع التي كانت لا تزال تحت سيطرة الصليبيين في معظم أنحاء بلاد الشام، ودخل صلاح الدين القدس في 27 رجب وكانت ليلة الإسراء، فأمر بأن يوضع على كل باب من أبواب المدينة أمير من أمراء الجيش لكي يتسلم الفدية من الصليبيين الخارجين من المدينة ويحتسبها وكان في المدينة على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان[1]. ويستطرد ابن الأثير: ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها، والداروم ورملة وغزة، وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي[2]. وأما صلاح الدين فإنه بعد أن استقر له الحكم في المدينة المقدسة، أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل احتلالها من الصليبيين، وكان هؤلاء قد أقدموا على تغيير الكثير من المعالم الإسلامية للمدينة، فزرعوا صليباً كبيراً مذهباً على رأس قبة الصخرة، وأمر صلاح الدين بكشفها، وكان فرسان الداوية قد بنوا مباني لهم غرب المسجد الأقصى لكي يسكنوها، وأنشأوا فيها «هُري ومستراح وغير ذلك» وأدخلوا قسماً من هذا المسجد في أبنيتهم، فأمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، كما أمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، ثم عين إماماً للمسجد الأقصى وأقام فيه منبراً، ومحا ما كان فيه وفي الأبنية المجاورة من صور كان الصليبيون قد وضعوها أو رسموها، وأعاد المسيحيين الوطنيين من أهل القدس إلى مساكنهم كما سمح لهم بشراء ما أراد الفرنج بيعه من ممتلكات ومتاع وأموال[3].

1 ـ لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من المسلمين:

ووفى صلاح الدين بوعده فسمح لمن دفع القطيعة بالخروج وكان قد رتب على كل باب أميراً مقدماً كبيراً يحصر الخارجين، فمن دفع الفدية فقد خرج[4]. وبالرغم من تلك القطيعة الزهيدة التي فرضها صلاح الدين مقابل خروجهم من بيت المقدس، وتأمين وصولهم إلى مأمنهم، فإن كثرة كثيرة منهم، لم يستطع دفعها فداء لنفسه، وأصبح بعد مضي أربعين

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي، ص: 106.
(2) المصدر نفسه، ص: 106.
(3) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 108.
(4) كتاب الروضتين (2/ 95).

يوماً أسيراً في أيدي المسلمين، ولم يسهم أحد من أغنياء الصليبيين في فداء فقرائهم، فقد خرج البطريرك هرقل من بيت المقدس بخزائنه الضخمة دون النظر إلى غيره[1]، ويبدو أن ذلك كان سبب انعدام الروابط الأسرية وغيرها بين الصليبيين في ذلك الوقت، فالأسرى كانوا خليطاً من أجناس وشعوب أوروبية متباينة، وأجناد الغرباء المأجورين الذين رغبوا في السفر إلى الشرق تخلصاً من رق الأرض السائد وقتذاك في المجتمع الأوروبي[2].

والخلاصة أن ذلك الموقف المخزي من كبار الصليبيين، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الإنجليزي لين بول على إبداء إعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك: «إنها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح»[3]، وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلاف المدنيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى في يد صلاح الدين، فبعث الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يهب له ألفاً من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله، وأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحرّك ذلك العمل الإنساني الذي قام به الملك العادل مشاعر البطريرك وباليان فتقدما إلى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك، فأعطاهما صلاح الدين ما طلباه وأطلق سراحهم ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة في شوارع بيت المقدس، بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من الصليبيين لكبر سنه وأن على على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفي للمدينة يسمح لها بالخروج من طلوع الشمس إلى الليل. وما إن صدر ذلك الإعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى[4]، وطلب أمير البيرة إطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمني، ذكر لصلاح الدين إنهم من بلده، وإن قدومهم إلى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك، كما طلب أيضاً الأمير مظفر الدين علي كوجك إطلاق سراح زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك وأطلق سراحهم[5]، ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما قام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل وكبار الأمراء المسلمين، بل تعدى ذلك إلى عامة المسلمين، والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 216.

(2) جيش مصر، ص: 69.

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 216.

(4) المصدر نفسه، ص: 217.

(5) مفرج الكروب (2/ 215).

التسامح وكرم الأخلاق تجاه أسرى الصليبيين في بيت المقدس الشيء الكثير. وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين بما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين، فسأل عن حالهن وما يطلبن، فقيل له إنهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآباؤهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له[1].

أ ـ ملكة رومية متعبدة: كانت بالقُدس ملكة رومية متعبِّدة مترهِّبة، في عبادة الصليب متصلِّبة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّية وفي التمسك بملتها متصعِّبة متعصِّبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدِّرة تَحدُّر القطران من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياع، وأتباع، فعاذت بالسلطان، فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلِّ مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها مصوغات صُلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها، ورجالها وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قَرْحى[2].

ب ـ زوجة ملك مأسور: خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة أماري وكانت مقيمة في جوار القُدْس مع ما لها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلُس، موكلاً به ليوم وَعْدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها[3].

ج ـ الإبرنساسة أم هنفري: خرجت الإبرنساسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سفك دمه يوم حطين وهي صاحبة الكَرَك والشُّوبك وهي بنوَّابها محوطة وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعِدت أنها إن سمحت بحِصنها سمح لها بابنها، ثم أعفيت وأُطلقت وعُصمت واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقرَّ برؤيته عينيها، وسار معها من الأمراء والأمناء من تسلَّم منهم تلك المعاقل، فمضت إلى

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 218.

(2) كتاب الروضتين (3/ 343)، بيت المقدس أمام أحداث التاريخ، ص: 343.

(3) المصدر نفسه (3/ 343).

حصونها لتسلّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلّم تلك الحصون[1].

د ـ احترام صلاح الدين مشاعر المسيحيين: احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين، فعندما ما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة، وإزالة آثارها وقالوا: إذا هدمت بنايتها، وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت، انقطعت عنها إمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة. بينما أشار عليه البعض بأنه: لما فتح أمير المؤمنين عمر ﷺ القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان[2]، فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها[3].

هـ ـ بقاء بعض النصارى بالقدس: وتضرع بعض النصارى إلى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحداً، وأن يقوموا بالخدمة بالمدينة، فوافق صلاح الدين على ذلك واشترط عليهم شروطاً قابلوها بالالتزام والقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعوملوا معاملة أهل الذمة، فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم من الحقوق والواجبات[4]. وهكذا أبدى المسلمون الرحمة نحو المدينة التي سقطت في أيديهم وإذا استعاد الإنسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة (1099م) عندما نشر جودفري وتانكرد الموت في الشوارع وعندما أغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا وألقوا في بحار من الدماء، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى، فضلاً عما قاموا به من نهب وسلب وسبي[5] فإنه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين، إذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الإسلامية السمحاء وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان[6] يقول جيمس رستون: وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكاً مثالياً في احتلالهم للقدس سنة

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 344).
(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 218.
(3) مفرج الكروب (2/ 231)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 218.
(4) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص: 136، صلاح الدين، ص: 219.
(5) أعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشي، ص: 118 – 120.
(6) صلاح الدين والصليبيون، ص: 219.

(1187م) وقد نظر صلاح الدين لنفسه وسمعته بعد الانتقام لما فعله الصليبيون في الحرب الأولى سنة (1099م)، وبسبب حمايته لكنيسة القيامة وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقدَّسة للدين المسيحي ويبدو أن أفعاله اعتُبرت عَلَماً ونموذجاً على كيفية سلوك المسلك الصالح، فبسبب عفوه، ووجوه الخير المتعددة في طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة[1].

و ـ رأي ستيفن رنسيمان: والفضل ما شهدت به الأعداء، قال ستيفن رنسيمان وهو من المؤرخين الفرنجة: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، ومنذ ثمان وثمانين سنة، يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحلّ بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين ومن المناظر التي تدعو للحزن والأسى، ما حدث من التفاف العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة على خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌ بحسب حالته والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى[2].

ح ـ قال غروسيه ما نصه بالحرف أيضاً:

بعكس الصليبيين نفذ صلاح الدين وُعوده بشرف وبشعور إنساني، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين اللاتين الذين سردوا أحداث تلك الفترة .... ويستطرد «غروسيه»: طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين «المؤمنين بالثالوث المقدس» فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: لماذا

---

(1) مقاتلون في سبيل الله، ص: 137.

(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص: 108.

الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجي؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان لنفعل، إذن، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام. ويعلق غروسيه على ذلك بالقول: إن كل ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة[1] وصدق الشاعر الحيص بيص شهاب الدين أبو الفوارس المتوفى 574هـ عندما قال:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلمّا ملكتم سال بالدّم أبطح

وحلَّلتُمُ قتل الأسارى وطالما ... عدونا على الأسرى نمُنُّ ونصفح

وحسْبُكُمُ هذا التفاوت بيننا ... وكل وعاءٍ بالذي فيه ينضح[2]

لقد بهر صلاح الدين بأخلاقه الإسلامية ملوك الغرب وقوادهم، حيث كانوا يقودون جحافل جيوشهم في الشام حتى أن الفرنسيين كانوا يقولون: إن دماءه دماء فرنسية، والألمان والإنكليز والإيطاليون كلهم كانوا ينسجون قصصاً رائعة عن أخلاق صلاح الدين ويتحدثون عنها في قراهم ومدنهم ومسرحياتهم[3]، لقد كان صلاح الدين فعلا رجلاً إسلامياً بكل معنى الكلمة مقتدياً بالرسول محمد ﷺ في عفوه وحلمه وسماحته. ولقد قال عنه أحد المؤرخين الأوروبيين: سيظل في الذاكرة أن الزمان الدموي والقاسي مثل ذاك الزمان، لم يتمكن من إفساد إنسان ذي سلطة عظيمة، إنه صلاح الدين[4] وأكبر دليل على تقدير الإفرنج لهذه البطولة النادرة والسماحة السمحة اهتمام إمبراطور ألمانيا بزيارة قبر بصلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة (1315هـ / 1899م) وكانت معه الإمبراطورة، وقد خطب خطبة أشاد فيها صلاح الدين، وأرسلت الإمبراطورة إكليلاً من الزهر ليُوضع على ضريح البطل العظيم. ولم ينس أمير الشعراء ـ أحمد شوقي ـ أن يسجل هذه الذكرى فقال:

عظيمُ الناس من يبكي العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما

فهل من مبلغ غليوم عني ... مقالاً مُرضياً ذاك المقاما

رعاك الله من ملك همام ... تعهَّد في الثرى ملكاً هماما

أرى النسيان أظمأه فلمّا ... وقفت بقبره كنت الغماما

(1) حروب القدس في التاريخ، ص: 108.
(2) شذرات الذهب (6/ 410).
(3) الوجيز في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء، ص: 61.
(4) المصدر نفسه، ص: 61.

أتـــدري أيّ ســلــطــان تــحـيّــي وأيّ مُـمَـلَّـكٍ تـهـدي الـسـلامـا
دعـوت أجـلّ أهـل الأرض حـربـاً وأشـرفـهـم إذا سـكـنـوا سـلامـا[1]

رابعاً: أول صلاة جمعة في بيت المقدس:

لما نزه البيت المقدس ممّا كان فيه من الصُّلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وهرب الشيطان وقرِئ القرآن، وطُهِّر المكان، فكانت إقامة أوّل جمعةٍ في يوم الرابع من شعبان، بعدَ يوم الفتح بِثمانٍ فنصب المنبرُ إلى جانب المحراب المطهَّر وبسطت البُسُط الرفيعة في تلك العراض الوسيعة وعلقت القناديل وتُلِيَ التنزيل عِوضاً عمّا كان يقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء الحقُّ وبطلت تلك الأباطيل، وصُفّت السّجادات وكثُرت السّجدات، وتنوعت العبادات وأُديمت الدعوات ونزلت البركات وانجلت الكُرُبات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذّنون وغاب القسوس وطابت الأنفاس واطمأنت النفوس، وأقبلت السُّعود وأدبرت النحوس، وحضر العبّاد والزهّاد . . . وعبد الواحد وكثر الراكع والساجد والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقّة القلوب المدامع: هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم وسيم وهذا يوم تجاب فيه الدعوات وتُصبُّ البركات وتسيل العبرات وتقال العثرات، فأذّن المؤذّنون للصلاة وقت الزوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عيّن خطيباً، وقد تهيّأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يُدعى إليها أحدُهم فلا يكون نجيباً، فبرز للخطباء المرسوم السلطاني الصّلاحِيّ وهو في قبة الصخرة الغرّاء، أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً فلبس الخلعة السوداء وصعِد المنبر، وقد كساه الله البهاء وأكرمه بكلمة التقوى، وأعطاه السكينة والوَقار والسناء فخطب بالناس خطبة عظيمة سنية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات وما فيه من الدلائل والإمارات، وما منّ الله به على الحاضرين من هذه النعمة التي تعدِلُ الكثير من القُربات، وقد أوردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «الروضتين» بطُولها، فكان أوّل ما قالَ حين تكلّم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45] ثم أورد تحميدات القرآن كلّها، ثم قال:

---

(1) صلاح الدين الأيوبي، أحمد عبد الجواد، ص: 51.

1 ـ قدرة الله على تحقيق النصر:

الحمد لله مُذِلّ الشرك بقهره، ومصرّف الأمور بأمره ومديم النعَم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدَّره الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سرِّه وظاهر جهاره.

2 ـ الثناء على الرسول الكريم وعلى صحابته:

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكّ وداحض الشرك وراحض الإفك، الذي أسرِيَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعُرج به منه إلى السمٰوات العُلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصِّدِّيق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصُّلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان[1].

3 ـ رضي الله عن المجاهدين:

أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدَّرجة العُليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالة من الأمة الضَّالة وردِّها إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذَنَ الله أن يُرفع وأن يذكر فيه اسمه، وإماطة الشُّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رُواقه، واستقرّ فيها رسمه، ورَفْع قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتقوى فإنه أُسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه.

4 ـ مآثر المسجد الأقصى:

فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد ﷺ، وقبلتكم التي كنتم تُصلُّون إليها

(1) البداية والنهاية (16/ 590).

من ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء ومفرُّ الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تَنَزُّلِ الأمر والنَّهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه، عيسى الذي شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوّته، ولم يزحزح عن رُتبة عبوديّته، فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: 172]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]. وهو أول القبلتين وثاني المسجدين، وثالث الحَرمَين، ولا تُشَدُّ الرِّحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه.

5 ـ تهنئة صلاح الدين وجنده المسلمين بالنصر:

لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكان بلاده لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ ولا يباريكم في شَرفها مُبَارٍ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية، والعزمات الصِّدِّيقية، والفتوح العُمريّة، والجيوش العثمانية والفتكات العَلَوية، جِدَّدتُم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم إليه من مُهْرَاقِ الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

6 ـ شكر الله على النصر:

فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النِّعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النِّعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فُتِحَت له أبواب السَّماء، وتبلّجت بأنواره وجوه الظُّلماء وابتهج به الملائكة المقرَّبون، وقَرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدَّس في آخر الزمان، والجُند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء.

7 ـ فضائل الأقصى والقدس:

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]

أليس هو البيت الذي عظمته الملوك وأثنت عليه الرُّسلُ وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلٰهاكم ﷻ؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله ﷻ الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها لِيتيسَّرَ فتحه ويَقْرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟

8 ـ شكر الله وحمده:

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفَّقكم لما خُذِل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شَتَّى، وأغناكم بما أمضته «كان» و«قد» عن «سوف» و«حتى».

9 ـ الملائكة يشكرون الله للمجاهدين:

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم جنده، وشكركم الملائكة المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيْبِ التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتُم عن طُرُقهم فيه من أذى الشِّرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السمٰوات، وتصلِّي عليكم الصلوات المباركات.

10 ـ نهي عن الغرور وارتكاب المعاصي:

فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسَّك بها سَلِمَ ومن اعتصم بعُزوتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الرّدى، ورجوع القهقري والنكول عن العدى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغُصَّة وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من عباده.

11 ـ وما النصر إلا من عند الله:

وإياكم أن يستزلّكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيّل لكم هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجِلاد لا والله ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10].

12 ـ البعد عن المعاصي:

واحذروا عباد الله ـ بعد أن شرَّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا

الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين ـ أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

13 ـ دعوة للاستمرار في الجهاد:

والجهاد هو من أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، واذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جُدُّوا في حسم الدّاء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقيّة الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثُّوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثّارات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر فتح الله ونصر، غلب الله وقهر أذل الله من كفر.

14 ـ دعوة لتحرير ما تبقى من الأرض المقدسة:

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فُرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها، ومهمّة فأخرجوا لها هِمَمكم وَبَرّزُوها وسيِّروا إليها سرايا عزماتكم وجهِّزوهَا فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قُبالة الواحد منكم عشرون وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65]. أعاننا الله وإياكم على اتِّباع أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: 160].

15 ـ أدعية للسلطان صلاح الدين وللمسلمين في دينهم ودنياهم:

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللهم، وأدم سُلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدافع، والذابّ عن حرمك الممانع، السيِّد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين مطهِّر البيت المقدَّس أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

ـ اللهم عُمَّ بدولته البسيطة واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدِّين الحنيفيِّ جزاءه واشكر عن المِلّة المحمدية عزمه ومضاءه.

ـ اللهم أبقِ للإسلام مُهجته، ووقِّ للإيمان حَوْزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

ـ اللهم كما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظُنَّت الظنون، وابتلي المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملّكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلّا مَزَّقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلّا ألحقها بمن سبقها.

ـ اللهم اشكر عن محمد ﷺ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.

ـ اللهم ذلِّل به معاطس الكفار وأَرغم به أنوف الفُجّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار وابثث سرايا جنوده في سُبل الأقطار.

ـ اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

ـ اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام وتتخلد على مَرّ الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المتقين وأجب دُعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: 19] ثم دعا، بما جرت به العادة[1] وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن عليُّ بنُ نجا المصريُّ على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس، وكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً فلله الحمد والمنَّةُ واستمر القاضي محيي الدين بن الزّكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرّر السلطان للقدس خطيباً مستقراً وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذي كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يُؤمِّل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه بعد وفاته[2].

خامساً: منبر نور الدين في بيت المقدس:

وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عهده عَرفَ بنور فراسته فتح

(1) كتاب الروضتين (3/ 391).

(2) البداية والنهاية (16/ 592).

البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِبَ النّجارون والصُّناع والمهندسون فيه سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتّزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفاً، وكان لترديد النّظر فيه على الأيام أُلوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صِوان الحِفظ مقروباً، حتى أمر السُّلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنّذر النُّوري، ونَقْلِ المنبر إلى موضعه القُدْسي، فَعُرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده سنين، وكان من المحسنين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134][1]، وفي رواية للعماد الأصفاني: ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العبّاد وأعبد الزُّهاد، ومن الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جِدًا وتمدُّه بحياة الربانية مدّاً، قد طهَّره الله من العَيْب، وأطلعه على سِرّ الغيب[2]، ونزَّهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الإسلام بعده بركته وخُتمت بافتتاح مُلك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رَبّاه ولَبّاه وأحبه وحباه، وهو الذي سنَّ الفتح، وسنّى النُّجح واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنصب فَنُصِب ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرّقم، وشابه المحراب المنبر في الرّسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدسي الإحسان ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله وصَحَّ به في محراب الأقصى اجتماعُ شَملهِ، وظهر سِرُّ الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرتِ الألسن بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنُّصرة والنّعمة[3]. ويدل هذا العمل على مدى إخلاص صلاح الدين لنور الدين محمود زنكي الذي بذل الكثير لتحقيق الوحدة الإسلامية، تمهيداً لاقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام، كما أن ذلك يدل على أن صلاح الدين عندما قضى على دولة الزنكيين التي سادها الضعف والوهن عقب وفاة نور الدين محمود وتولى ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل، لم يكن يقصد بذلك سوى مواصلة المسيرة والاستعداد للجهاد ضد الصليبيين لإزالتهم واسترداد بيت المقدس[4].

سادساً: اصلاحات صلاح الدين في بيت المقدس:

قام صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار في بيت المقدس،

---

(1) كتاب الروضتين (3/ 394).

(2) لم يُطلع الله أحداً من خلقه على سر الغيب ولكنه الإيمان بنصر الله ﷻ بعد تكامل أسبابه.

(3) كتاب الروضتين (3/ 393).

(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 223.

فقد أقام فرسان الداوية غربي المسجد الأقصى أبنية للسكنى، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، وبنوا على وجه المحراب جداراً وتركوه مخزناً للغلة، وقيل: اتخذوه مستراحاً قاصدين بذلك طعن الإسلام والمسلمين[1]، كما بنوا على الصخرة في بيت المقدس كنيسة وستروها بالأبنية، وملؤوها بالصور، ونصبوا عليها مذبحاً، وعينوا بها مواضع الرهبان كما أقاموا على رأس قبة الصخرة صليباً كبيراً وغير ذلك حتى غيروا معالمها. وقام الطامعون منهم بقطع قطع منها وبيعها في أسواق القسطنطينية، وجزيرة صقلية بوزنها ذهباً[2]، فلما كان يوم الجمعة سبط شعبان 583هـ/9 أكتوبر 1187م وهي الجمعة التالية للجمعة التي دخل فيها المسلمون بيت المقدس، أمر صلاح الدين بإزالة ما استحدثه الصليبيون من الأبنية والأسوار وكشف الجدار الساتر للمحراب، كما أمر بإزالة ما استحدثوه على قبة الصخرة المقدسة من مبان وصور، ثم أمر الفقيه ضياء الدين الهكاري بأن يكون أميناً عليها، وأدار عليها شبابيك من حديد[3]، أما بالنسبة للصليب الذهبي الذي أقامه الصليبيون على قبة الصخرة، فيذكر ابن واصل أن المسلمين ما إن دخلوا البلد حتى تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة واقتلعوا الصليب الذي سقط، وعند ذلك صاح الناس كلهم صوتاً واحداً، من البلد ومن ظاهره. المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً[4]. ولما فرغ صلاح الدين من إزالة ما استحدثه الصليبيون داخل بيت المقدس بدأ بعمارة المسجد الأقصى، فبذل جهداً كبيراً في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضر له من الرخام ما لا يوجد مثله ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك من المواد للتزيين مالا يمكن وصفه، وشرع في عمارته، وتزيينه وإزالة ما على جدرانه من الصور والتماثيل[5]، وخص صلاح الدين المحراب باهتمام كبير، فعمل على ترخيمه وتزيينه[6]، وتقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العراص وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكنس ما في أرجائها من الأرجاس[7]، وأحضر الملك المظفر تقي الدين عمر إلى قبة الصخرة أحمالاً من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحتها وعراصها، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أفاض عليها ماء الورد، وطهر حيطانها وغسل جدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب وجاء الملك

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 222.

(2) مفرج الكروب (2/ 227 ـ 229)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 222.

(3) مرآة الزمان، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 222.

(4) المصدر نفسه، ص: 222.

(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 223.

(6) المصدر نفسه، ص: 223.

(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 224.

الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين؛ بكل نور جلي وكرم ملي، وبسط بها الضيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة[1]. كما قام المسلمون بكنس عراص المسجد وتنظيفها ثم فرشها بالبسط عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل وصفت السجادات[2]، وبعد أن أنهى صلاح الدين تطهير بيت المقدس مما علق به من آثار الصليبيين، رتب في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من المساجد داخل بيت المقدس الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة، وأحضر إليها المصاحف والربعات؛ كما قام صلاح الدين بإنشاء المدارس والأربطة فجعل كنيسة مدرسة للفقهاء الشافعية، وعين دار البطريك رباطاً للفقراء وأوقف على ذلك أوقافاً جليلة[3]، وكان لاسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين أهمية خاصة بالنسبة لصلاح الدين ومكانة بين أبطال المسلمين حتى أنه يمكن القول أنه إذا كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ قد طهر بيت المقدس من براثن الروم في السنة الخامس عشر للهجرة، فإن صلاح الدين أعاد تلك الذكرى في القرن السادس الهجري بعد أن تعرضت بيت المقدس لذلك الاعتداء الصليبي الذي استمر ما يقارب المائة عام ووضع صلاح الدين بذلك العمل الجليل الأساس لمن بعده من سلاطين المسلمين للقضاء على بقايا الصليبيين في بلاد الشام[4].

سابعاً: ارسال البشائر والوفود الى أنحاء العالم الإسلامي:

وصل صلاح الدين باسترداد بيت المقدس إلى قمة المجد السياسي والعسكري وأخذت أخبار ذلك الحدث تنتشر في أنحاء العالم الإسلامي، فقد سارع صلاح الدين بإرسال البشائر باسترداد بيت المقدس إلى الخليفة العباسي في بغداد وإلى مختلف الأمراء والحكام المسلمين، وذكر أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني الذي لم يحضر الفتح لمرض ألم به، أنه لما سمع وهو بدمشق نزول السلطان صلاح الدين على بيت المقدس شفي من مرضه، وتوجه إليه، فوصل عنده يوم السبت ثاني يوم الفتح، يقول العماد: وطلعت عليه صبحاً، فاستبشر بقدومي وخلع على البشير قبل رؤيتي وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا وهو يقول لهم لهذه القوس بار، ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته

(1) مفرج الكروب (2/ 230)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 224.

(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 224.

(3) مفرج الكروب (2/ 230)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 224.

(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 225.

بهذه الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55].

كما أرسل أيضاً إلى الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجليوس يبشره بذلك النصر العظيم[1]، واستقبل صلاح الدين رسل ووفود الملوك والأمراء المسلمين من سلاجقة الروم وخراسان والعراق، لتهنئته بما خصه الله به من نصر عظيم[2]، كما أن المسلمين عندما سمعوا باسترداد بيت المقدس، وفدوا للزيارة: من كل فج عميق وسلكوا إليه في كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق[3]. وجلس صلاح الدين بالمخيم ظاهر بيت المقدس للقاء الأكابر والأمراء والعلماء الذين أتوه من كل حدب وصوب لزيارة بيت المقدس، وتهنئته بما أفرده الله به من الفضيلة باسترداد بيت المقدس من الصليبيين[4].

ثامناً: اختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسي:

لقد بلي صلاح الدين، في شخص الخليفة الناصر، بخليفة قوي الشخصية يغار على المظاهر والألقاب أكثر من أي شيء آخر، ذلك أنه على الرغم من أن الناصر أرسل، عندما أصبح خليفة تقليداً جامعاً لصلاح الدين، إلا أنه بعد برهة أرسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على أمور بلغته[5]. وقد لخص ابن كثير الخلاف بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين بقوله: . . وكتب الخليفة يعتب عليه في أشياء منها؛ أنه بعث في بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعاً عندهم، لا قدر له ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب ولَقَّبَ نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر، فتلقَّى الرسول بالبشر واللطف ولم يُظهر له إلا السمع والطاعة، وأرسل يعتذر ممّا وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور، وأما لقبه بالناصر فهو من أيام الخليفة المستضيء ومع هذا فمهما لقَّبني به أمير المؤمنين فهو لا يُعدل عنه، وتأدَّبَ مع الخليفة غاية الأدب رحمه الله تعالى[6].

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 220.

(2) كتاب الروضتين (2/ 120)، مفرج الكروب (2/ 248).

(3) السلوك (1/ 97)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 221.

(4) كتاب الروضتين (2/ 96)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 221.

(5) دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي، ص: 264.

(6) البداية والنهاية (16/ 596).

تاسعاً: حضور العلماء في فتوحات صلاح الدين:

كان العلماء والفقهاء مع صلاح الدين ولاقى التأييد التام من جموعهم، وقد بدأ صلاح الدين فتوحاته بعد حطين بفتح عكا يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة سنة (583هـ/1187م) لأنها طريق الموصل إلى بيت المقدس من ناحية، وحتى يضمن بفتحها قطع الإمدادات التي تصل عن طريقها من أوروبا إلى الصليبيين ببيت المقدس من ناحية أخرى، وقد شارك في هذا الفتح عديد من الفقهاء والعلماء، يأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل، والفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، فبعد أن تم لصلاح الدين فتح مدينة عكا، قام القاضي الفاضل بتحويل الكنيسة العظمى بها إلى مسجد جامع، وأمر ببناء القبلة والمنبر ثم أقيمت به صلاة الجمعة، ويذكر ابن الأثير في هذا الصدد أنها: أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج[1]، وقد تولى آنذاك الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي أمر الخطبة والإمامة، ثم أسند إليه صلاح الدين بعد ذلك مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقوف في مدينة عكا[2]، وأما الفقيه عيسى الهكاري فقد كان ملازماً لصلاح الدين في غزواته وفتوحاته، ولهذا فقد خصص له السلطان بعد فتح عكا كل ما يتعلق بجماعة الفرسان الداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع تكريماً له واعترافاً بمكانته ومشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعاً لاستمراره في البذل والعطاء لهذه الفريضة[3]، فكان هذا التصرف من صلاح الدين بادرة لم يسبقه إليها غيره. وكانت هذه المنحة خلاف ما وزعه صلاح الدين على المجاهدين من أموال الفيء والغنيمة التي اغتنمها المسلمون من وراء هذا الفتح، وقد أجمعت المصادر الإسلامية على اشتراك أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين في فتح بيت المقدس على حد تعبير مؤرخيها: قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور[4]، وكان الشيخ أبو عمر بن قدامة المقدسي، وأخوه الشيخ موفق الدين ابن قدامة، ممن شاركوا هذا الفتح وكانا من العلماء الفضلاء ذائعي الصيت[5]. قال ابن كثير: وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 144.

(2) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 144.

(3) المصدر نفسه، ص: 144.

(4) المصدر نفسه، ص: 145، نقلاً عن: البداية والنهاية.

(5) المصدر نفسه، ص: 146.

وأخوه الشيخ العماد، لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها[1]، ولم ينس صلاح الدين في غمرة هذه الفرحة بهذا الفتح العظيم وزيره ومستشاره القاضي الفاضل الذي منعه مرضه من حضور فتح بيت المقدس وكان مقيماً بدمشق، فأرسل إليه صلاح الدين رسالة يبشره فيها بهذا الفتح ومن خلال كلمات هذه الرسالة يتضح مدى ما كان يكنه صلاح الدين من حب واحترام وتقدير لهذا القاضي الأجل، متمنياً لو أنه كان بحضرته في هذا الوقت حتى تتم فرحته بما منّ الله به عليه من نصر[2]، وبعد أن منّ الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس في يوم الجمعة (27 رجب سنة 583هـ/ أكتوبر 1187م)، قام بتفريق الأموال التي أخذت من الصليبيين نظير افتداء أنفسهم وأرواحهم على الأمراء والعلماء والفقهاء الذين حضروا معه هذا الفتح، وبلغت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار[3]. ثم جلس بخيمة ظاهر القدس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم لتلقي التهاني بعد بهذا الفتح العظيم[4]. وقد قام الشعراء من العلماء والفقهاء يهنئون صلاح الدين بهذا الفتح المجيد بقصائد من الشعر يعبرون من خلالها عن مدى سعادتهم بهذا النصر المبين، وكان منهم الشاعر المشهور القاضي ابن سناء الملك[5]، وجدير بالذكر أن القاضيين الفاضل ومحيي الدين الزكي كانا ضمن نخبة العلماء والفقهاء الذين تنبأوا واستبشروا خيراً بفتح بيت المقدس على أيدي المسلمين فأرسلا إلى السلطان صلاح الدين يبشرانه بذلك، وقد ورد ذلك في قصيدة ابن الزكي التي نظمها بمناسبة نجاح صلاح الدين في ضم حلب إلى الوحدة الإسلامية عام (579هـ/ 1183م) حيث قال:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر ... مبشر بفتوح القدس في رجب

ويعد هذا البيت من الاتفاقات العجيبة ومن الفأل الحسن نطق به القاضي ابن الزكي وبشر فيه بفتح القدس في رجب، وكانت إرادة الله أن يفتح بيت المقدس في رجب سنة (583هـ) بعد تلك البشارة بأربع سنوات ولعل تلك البشارات التي بشرت بفتح القدس، كانت دافعاً وإلهاماً لصلاح الدين أن يجتهد في فتح بيت المقدس في هذا التوقيت المبارك الذي

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء والمسلمين، ص: 146.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 147.

(3) المصدر نفسه، ص: 147.

(4) كتاب الروضتين (2/ 96).

(5) دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 147.

يوافق ليلة الإسراء والمعراج[1]، وقد قدم السلطان صلاح الدين القاضي محيي الدين بن الزكي بخطبة الجمعة بالمسجد الأقصى تكريماً له وتشريفاً على بيت الشعر الذي سبق أن مدح به صلاح الدين عند فتحه حلب، والذي بشره فيه بفتح القدس في رجب ولمكانته ومكانة أسرته العلمية وصرامته في الحق، وفضائله العديدة في الفقه والأدب، فضلاً عن أنه كان يتمتع بموهبة فريدة وأسلوب بديع في نظم الخطب وإثارة حماس المستمعين له[2].

وهكذا يتضح لنا مما تقدم مدى عظم الدور الذي قام به الفقهاء والعلماء عند فتح بيت المقدس، حيث انضموا إلى صفوف المجاهدين متطوعين بدافع من حميتهم الدينية، جاؤوا من كل مكان وحملوا السلاح وراء صلاح الدين لتحرير القدس الشريف يحدوهم الأمل في النصر أو الشهادة: وكلل الله جهودهم بالنصر وبعودة القدس والمسجد الأقصى إلى المسلمين ولم يتوقف دورهم بعد ذلك، وإنما كان هذا الفتح دافعاً قوياً لهم ورافعاً لروحهم المعنوية وهذا ما أدركناه في خطبة القاضي ابن الزكي الذي أخذ يحث المسلمين على مواصلة طريق الجهاد حتى يتم تطهير جميع البلاد الإسلامية من دنس الأعداء، كما أدركنا ذلك أيضاً في الوعظ الذي قام به الفقيه بن نجا[3]، ومن الأعمال الجليلة الأخرى التي قام بها الفقهاء والعلماء في بيت المقدس بعد فتحها ما قام به الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري من صنع شبابيك من حديد للصخرة المقدسة لصيانتها من أي عبث بعد أن أزال عنها السلطان صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها[4].

عاشراً: من قصائد الشعراء في فتح القدس:

على مثل هذه الغايات الجميلة تُوقف القصائد وفي دوحة الفتح الأعظم[5].

ويُذكر أن شاباً مسلماً كان مأسوراً في بيت المقدس وهو من أهل دمشق كتب إلى صلاح الدين أبياتاً يدعوه فيها إلى تحرير بيت القدس يقول فيها:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكّس

جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 149.

(2) المصدر نفسه، ص: 150.

(3) المصدر نفسه، ص: 153.

(4) دور الفقهاء والعلماء والمسلمين، ص: 153.

(5) واقدساه (1/ 342).

كـلُّ الـمـسـاجـد طُـهِّـرت وأنـا عـلـى شـرفـي مُـنـجَّـس[1]

1 ـ قال الشاعر الجيلاني:

أبا المُظهَّر أنت المحتبى لهدى أُخرى الزَّمان على خُبْرٍ بخُبْرتِهِ
فلو رآك وقد حُزْت العُلا عمر في قُلَّة التلِّ قَضَى كنْه عبرته
ورآك وأهل القدس في وَلَهٍ أبو عبيدة فَدًى من مَسَرَّته
غداة جزُّوا النَّواصي في قُمامته وأعولوا بالتباكي حول صَخْرتِهِ
دارت بك المِلَّة الحسنى فنحن على عهد الصحابة في استمرار مرَّته
وأنت كاسْمِك صدِّيق وصاحبه الملك المظفر سام في مَبَرَّته
وفي السُّلالة عثمانٌ يؤيِّده عُلا عليٍّ على إيثار نُصْرتِهِ
وكم لديك ذوي قربى رقوا وكم بعيد رأى الزُّلفى بهجرته
يُشَبِّه القُبْجُ[2] ما بين البُزاة لقى مَلْكَ الفرنج أخيذاً[3] بين عترته
أما رأيت معالي يوسف نُسقت حتى رمت كلَّ ذي مُلْك بحسرته
أضحى لنشر الهُدى في فتح منهجه وبات يطوي العِدَى في سَدِّ ثُغْرتِهِ
واستقبح الرِّجس ممنوًا بمشهده فاستفتح القُدس محشوًّا بزُمرته
لكنَّ بأس صلاح الدين أذهلهم بوقعة التَّلِّ واستشرى بِسَوْرَتِهِ
تعيا الجوارحُ والفُرسانُ وهو على بدء النشاط عشياً مثل بُكْرَتِهِ
يا فاتح المسجد الأقصى على بُهَمٍ وقانص الجيش لا يُحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مُطَّلع على البسيطة فتَّاح بشرته
حتى يكون لهذا الدِّين ملحمةٌ تحكي النبوةَ في أيام فَتْرَتِهِ[4]

---

(1) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص: 69.
(2) القُبَجُ: ويسكَّن: الحَجَل.
(3) أي: أسيراً.
(4) المبشرات القدسيات، نقلاً عن: واقدساه (1/ 343).

2 ـ أبو علي الحسن بن علي الجويني في فتح المقدس:

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعوان ... من شكَّ فيهم فهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشُّكرِ بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصِّيْد في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانُوا

كم من فُحول ملوك غُودروا وهُمُ ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان

هذا وكم ملك من بعده نظر إلى ... الإسلام يُطوى ويُحوى وهو سكران

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ ... والإسلام أنصاره صُمٌّ وُعميان

فالآن لبَّى صلاحُ الدِّين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان

للناصر ادُّخرت هذي الفتوح وما ... سمت لها هِمَمُ الأملاك مُذ كانوا

حباه ذو العرش بالنَّصر العزيز ... فقال الناس داود هذا أم سليمان

في نصف شهر غدا للشِّرك مصطلماً ... فطهرت منه أقطار وبلدان

فأين مَسلمةٌ عنها وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان

وَعدِّ عما سواه فالفرنجة لم ... يَبذُّهم من ملوك الأرض إنسان

لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبي لقد ... تنزلت فيه آيات وقرآن

يا قُبح أوجه عُبادِ الصليب وقد ... غدا يُبرقعها شؤم وخِذلان

خزنتَ عند إله العرشِ سائر ما ... ملكتهُ وملوك الأرضِ خُزانُ

فالله يُبقيك للإسلام تحرسه ... من أن يضام ويُلفى وهو حيران

وهذه سنةٌ أكرم بها سنةً ... فالكفر في سنةٍ والنصر يقظان

يا جامعاً كلمةَ الإيمانِ قامع مَنْ ... معبوده دون ربِّ العرش صُلبان

إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان[1]

---

(1) واقدساه (1/ 344).

3 ـ وقال الشاعر نقيب الأشراف بالديار المصرية النّسابة الجوّاني:

أتُرى مناماً ما بعينيَّ أبصُر — القدسُ يُفتَحُ والفرنجةُ تُكسَرُ
وقمامةٌ قُمّت من الرِّجس الذي — بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم — يُر قبل ذاك لهم مليك يُؤسرُ
قد جاء نصر الله والفتح الذي — وعد الرّسول فسبحوا واستغفروا
فُتِحَ الشام وطُهرَ القدس الذي — هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد — ماذا يقال له وماذا يُذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها — فاروقها عُمُر الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده — ولأنت في نصر النبوة حيدرُ
ملك غدا الإسلام من عجب به — يختال والدنيا به تتبخترُ
نشرٌ ونظمٌ طعنُهُ وضرابه — فالرُّمحُ يَنظمُ والمهنّد يَنشُرُ
حيث الرِّقاب خواضع حيث — العيون خواشع حيث الجباه تُعفّرُ
غاراته جُمَعٌ فإن خطبت له — فيها السيوف فكلُّ هامٍ منبرُ
إذ لا ترى إلا طُلَى[1] بسنابك — تُحذى نعالاً أو دماءٌ تُهدرُ
تمشي على جُثثِ العِدَى عُرجاً — ولا عَرج بها لكنها تتعثر[2]

4 ـ وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

عصفت به ريح الخطوب زعازعاً — فلقين طوداً لا تخفُّ أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما — طالت فما وجد الشفاء شُكاته
بيتٌ تأسس بالسكون وإنما — عند الزحافِ تحركات سكناته
أم شتّت الأعداء وهي جحافل — عن شمل دين جُمعت أشتاته
أُوتيت عزماً في الحروب مسدَّداً — لازيغه يُخشى ولا هَفَواته

---

(1) الطُّلى جمع: مفرده الطُّلاة: وهي العنق.

(2) واقداساه (1/ 345).

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ... ولك الفعال كثيرة حسناته

هذي سيوفك محرمات دونه ... لبكائهن تبسّمت جُحُراتُهُ[1]

5 ـ وقال نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة:

الوقت أضيق من سماع قصيدة ... موسومة بصفات أغيد أهيف

الجدُّ في هذا الزمان مُبينٌ ... والهزل فيه مع الغواية مُختفِ

بالناصر المهدي والهادي إلى ... سُبُل الجهاد أبي المظفر يُوسُف

المستعين بربِّه والواثق ... المنصور والمستظهر البرِّ الوفي

شُدت قوى أركان ملة أحمد ... وتجمّلت بجهاده في الموقف

ملكٌ إذا أمّ الملوك جنابه ... لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف

وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه ... وقفوا بأعظم من يعول وأرأف

مولى غدا للدّين أكرم والد ... حَدِب على أبنائه مترَفِّرِف

عزل الفرنجة ثم وَلَّى جَيشَهُ ... أعظِمْ به من صارف ومُصرفِ

قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأقام في الإنجيل حد المصحَف

مُغرًى بتجريح الرِّجال لأنه ... يَروي أحاديث العَوَالي الرُّعَّفِ

مَلِكٌ له في الحرب بَحرُ تَنفُّه ... وله غداةَ السلم زُهدُ تَصوف

وعليه أُنزلَ في الجهاد مُفَصَّلٌ ... فلذاك يقرؤه بسبعة أحرُف

عَزمٌ وحلْمٌ أنسيا ما كان من ... عزم ابن مرداس وحلم الأحنف

يا صاحِ قل للإنكتير الكلب دَع ... عنكَ الجنونَ وخُذ مقالة مُنصفِ

القُدسُ ما فيه لسرجك مطمعٌ ... كلا ولا نور الإله بمنطفي

والمسجد الأقصى فعنه تقصَّ مِنْ ... وَقع الذّبابيس الأليمة تَعرِف

واستفتِ نفسك فهي أخبث ناصح ... واترك متابعة اللجَاجِ المتلفِ

واعجب لرُمحٍ بالرؤوس مُعمم ... واطرب لسيف بالدِّماء مُغلفِ

(1) واقداساه (1/ 345).

يا أيها الملك الذي لطباعه وسيوفه خُلُقاً رضى وتعسُّفِ
لله يوم عَروُبة إذ أعربت ساعاته عن نصرك المتعرّف
سَنَّت سيوفك في الرؤوس ختانة ذهبت بمهجة كلّ عِلج أقلَفِ
آفاتهم وافت بأخذك منهم يا فافكم من حسرة وتأسُّف
أوَ ما رأى الأعلاج حين دَعوتها بلسان سَيف في الكريهة مُلحِق
لم تستطع عصيانَ أمرك بل أتت مُنقادةً طوعاً ولم تتخلف
فاستدعِ جارَتَها وثَنِّ بأختها وكذاك حتى الأربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظٌ بشبا سنان أو بصفحة مُرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحته فزها بثوبٍ من عُلاك مُسجفِ
أحييت دينَ محمد وأئمّتهُ وسَتَرتَهُ من بعد طُول تكَشُّفِ
وضبطت ديوان الجهاد بعامل من عاملٍ وبمشرف من مشرفي
وبجهبذِ العزم الذي لا ينثني وبناظر الرأي الذي لم يَطرِف
فخذ الخراج من البسيطة كلها واستأد فرضي جزيةٍ وموظف
واقبض على الدنيا بكفٍّ زهادة وابسُطْ لرحمتها جناح تعطّف
جاءت جنودُ الله تطلب ثأرها وصدورها بك عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاضى حقَّك موقناً أن الإله بما تؤمله حَفِي
هم فتية الأتراك كلُّ مجفجف يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحِمامَ شجاعة لا ينظرون إليه من طرف خفي
إن صبَّحوا الأعداء في أوطانهم تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنُصرة ديننا لله درُّ المصطفى والمصطفي[1]

6 ـ وقال الرّحالة ابن جبير قصيدة:

أطلّت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا يُمدُّ إلى سيفك الباترِ

(1) واقدساه (1/ 351).

وكم لك من فتكة فيهمو حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة فلله درُّكَ من كاسر
وأمضيتَ جدك في غزوهم فتعسا لجدِّهم العاثر
وأدبر ملكهمو بالشام وولّى كأمسهم الذّابر
جنودُك بالرُّعب منصورة فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غرِقٌ هالك بتيّار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائر
وقمتَ بنصر إله الورى فسمّاك بالملك الناصر
تبيتُ الملوك على فُرشهم وترفل في الزرد السابري
وتؤثر جاهدَ عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حقِّ من سَيُرضيك في جفنك الساهر
فتحتَ المقدّس من أرضه فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلّصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخر الله هذي الفتوح من الزمن الأول الغابر
وخصّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر
محبَّتكم أُلقيت في النفوس بذكرٍ لكم في الورى طائر[1]

وروعة هذه القصيدة ليست في سهولتها السَلِسَة، وخواطرها الصادقة، وعاطفتها الحارة فحسب، فهي مع ذلك كله تُصَوِّر وجهة نظر المسلمين في المغرب الإسلامي نحو صلاح الدين، وتُنبِئ أن العالم الإسلامي حينئذ كان جسداً واحداً، وأن الحدود المصطنعة سياسياً بين دوله لا تمنع الامتزاج العاطفي بين من يَدينون بنعمة الإسلام فهم في كل مكان يتحدون في الآمال والآلام[2].

---

(1) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص: 285.
(2) المصدر نفسه، ص: 286.

الحادي عشر: حصار صور:

حقق صلاح الدين في سنة (583هـ/1187م) انتصارات عظيمة ضد الصليبيين، سيطر خلالها على معظم أنحاء مملكة بيت المقدس، ما عدا مدينة صور التي وصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج[1]. فضلاً عما كانت تتمتع به من أسوار منيعة وأبراج عالية قد امتلأت بالصليبيين الهاربين إليها بسبب الأمان الذي منحه صلاح الدين للصليبيين، مقابل تسليم مدنهم له[2] وإذا كان الصليبيون فقد فقدوا في معاركهم ضد صلاح الدين معظم زعمائهم وقادتهم وقعوا بين قتلى وأسرى فإنه قد ظهر بينهم بعض القادة الأكفاء الذين تولوا مهام أمورهم خاصة كونراد مونتفرات[3] الذي وصفه ابن شداد بقوله: أنه كان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة[4]، ووصفه سبط ابن الجوزي بأنه: كان شجاعاً حازماً[5] وكونراد هذا أو المركيس ـ كما تسميه المصادر العربية ـ أصبح زعيماً للصليبيين وقبل من بداخل المدينة من الأمراء وفرسانهم أن ينضووا تحت لواء كونراد ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحمايتهم من هجمات المسلمين، كما تقرّر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط أثناء المفاوضات وسارع في إرسال الوفود لطلب المدد والعون من الغرب الأوروبي وحمل عبء الدفاع عن ما تبقّى من الكيان الصليبي في بلاد الشام حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة[6]، واضطر صلاح الدين لرفع الحصار الأول لصور قبل فتح بيت المقدس، وعمل كونراد على تقوية استحكامات المدينة وإعدادها للمعركة المنتظرة، فحفر خندقاً في الجانب الشرقي وهو الجانب الوحيد الذي يربط المدينة بالبر، فأضحت المدينة كالجزيرة، وحصّن أسوارها مما زاد في مناعتها[7]. ولما عاد صلاح الدين إلى حصارها في 22 رمضان/من تشرين الثاني وبدأ الحصار بضرب أسوار المدينة بقذائف المنجنيق، واستعمل المسلمون مختلف أنواع الأسلحة لاقتحامها، لكن دون جدوى، فقد

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 119)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 229.
(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 229.
(3) المصدر نفسه، ص: 229.
(4) النوادر السلطانية، ص: 98.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 230.
(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الأيوبيين، ص: 170.
(7) المصدر نفسه، ص: 170.

صمدت المدينة في وجه الضرب والهجمات الإسلامية البرية والبحرية، عندئذ لجأ صلاح الدين إلى الأسلوب السياسي لإقناع كونراد بالتسليم، إذ كان والده وليم الثالث أسير في قبضة صلاح الدين، فحاول أن يستغله كورقة ضغط في التأثير عليه وهدَّد بإعدامه، لكن هذه المحاولة فشلت أمام تصلب كونراد الذي ردَّ على صلاح الدين بأنه يفضل أن يُذبح هو وأبوه عن أن يسلم جزءاً من المدينة، وتجاه هذه التطورات السياسية والعسكرية اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن صور في آخر شوال (583هـ/ أول كانون الثاني 1188م) وكان ذلك أول فشل يتعرض له في أعماله العسكرية ضد الصليبيين منذ معركة حطين[1] ولقد تضافرت عدة عوامل دفعت صلاح الدين إلى فك الحصار عن صور من أهمها:

ـ كان الوضع النفسي للجيش الأيوبي حرجاً بعد أن جابهته صعوبة في فتح المدينة، وقد أشار بعض قادته بأن العساكر بحاجة إلى الراحة.

ـ دعاء الأمراء الأغنياء والممولين للجيش إلى فك الحصار عن صور، لأنهم خشوا أن يقترض صلاح الدين منهم ما ينفقه على أفراد الجيش إذا استمر الحصار، في حين كان رأي صلاح الدين متفقاً مع رأي بعض قادته الآخرين، القاضي باستمرار مرابطة الجيش أمام صور، مع الاتجاه باقتراض الأموال من الأغنياء، لكن هؤلاء ألحوا عليه برفع الحصار.

ـ انفتاح صور على البحر بعد فشل الحصار البحري الذي ضربه الأسطول المصري عليها، فاستمرت المؤن والعتاد في الدخول إليها.

ـ تساهل صلاح الدين مع صليبيي المدن المفتوحة، والسماح لهم بالتجمُّع في صور، مما رفع معنويات هؤلاء، فتكتلوا للدفاع عن المدينة.

ـ أدَّت العوامل الطبيعية دوراً آخر في فشل الحصار، إذ جاء شتاء ذلك العام مطيراً، والبرد شديداً، كما تفشَّى المرض في المعسكر الأيوبي[2].

ويُبدي المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين في فتح صور وأما المؤرخ ابن الأثير ـ الذي عرف بتحامله على صلاح الدين ـ حمّل صلاح الدين مسؤولية ما حدث للمسلمين على صور وذكر أنه لم يكن لأحد ذنب في أمر صور غير صلاح الدين،

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 138.

(2) الحركة الصليبية (2/ 841) عاشور.

فإنه هو الذي جهز جموع الصليبيين وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغيرها، وذلك بسبب إفراطه في التسامح مع الصليبيين[1]. أما سبط ابن الجوزي فيرى أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين بنقل الصليبيين إلى صور ولم ينظر في عواقب الأمور، وأنه كان من الواجب عليه عرضهم على الإسلام وإلا ضرب رقابهم بالسيف، كما أنه شبه تلك الأحداث بما حدث في معركتي بدر وأحد، ويبدو أن ابن الأثير تحامل على صلاح الدين، لأنه كان ربيب البيت الزنكي، ولم ينس أن صلاح الدين قضى على ملكهم في الشام، ولا يستبعد أن يكون سبط ابن الجوزي قد تأثر بابن الأثير في ذلك[2].

والواقع أن تلك الخطة التي اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين والتي تقوم على تأمينهم مقابل تسليم المدن والحصون له، أتاحت لصلاح الدين فرصة الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس في شهور قليلة، ما عدا أماكن قليلة منها مدينة صور، وصلاح الدين لم يكن أمامه غير اتباع هذه الخطة، إذ لو عمد إلى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس عن طريق القوة والمصابرة لطال أمر القتال، هذا بالإضافة إلى أنه قد اختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملاً بالشريعة الإسلامية السمحاء[3].

لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان، وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية، ولم يكن هدفه إبادة المسيحيين[4].

لقد أثرت تصرفات صلاح الدين المستمدة من هدي الإسلام العظيم في الساسة الأوروبيين وشعوبهم، لما رأوا من عفوه الكريم وتسامحه النبيل، فكان أسوة حسنة[5]، ومثلاً يضرب للناس، وكسب للإسلام بقلبه وسيفه، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه: إنه من أعظم ملوك الدنيا، ودفع الكاتب الإنكليزي ريدر هجارد إلى القول بأنه: أعظم رجل على وجه الأرض[6].

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 138.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 335.
(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 235.
(4) المصدر نفسه، ص: 236.
(5) صلاح الدين الأيوبي، قلعجي، ص: 280.
(6) المصدر نفسه، ص: 282.

الثاني عشر: استكمال الفتوحات:

1 ـ فتح الكرك والشوبك:

كانت ستيفاني، صاحبة إقطاع ما وراء نهر الأردن، المجاور لمملكة بيت المقدس من بين الأسرى الذين تمّ افتداؤهم بعد فتح بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها همفري صاحب تينين: وافق صلاح الدين على طلبها لكنه اشترط، مقابل ذلك، تسليمه الحصنين الكبيرين، الكرك والشوبك، التابعين لهذا الإقطاع ويبدو أن ستيفاني وافقت على شرط صلاح الدين، فأفرج هذا الأخير عن ابنها، وفي حين أوعزت هي إلى حاميتي الحصنين بالاستسلام غير أنهما رفضا ذلك، مما دفعها إلى إعادة ابنها إلى الأسر، تجاه هذا التصرف النبيل، بادلها صلاح الدين بتصرف أنبل، فأطلق سراح ابنها بعد عدة أشهر وحاصر الحصنين، واستمر حصار الكرك والشوبك ما يزيد على السنة، تعرض المدافعون عنهما إلى الجوع والعطش، ولم يستسلموا إلا بعد أن نفدت ذخائرهم، وأكلوا دوابهم، ويئسوا من وصول نجدة تساعدهم على الصمود، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال وكان ذلك في شهر ربيع الأول عام (584هـ/شهر أيار عام 1188م).

2 ـ الالتفاف نحو الشمال:

بعد فتح المناطق الجنوبية لبلاد الشام واتصالها ببقية المناطق الإسلامية من أيلة في العقبة في الجنوب حتى بيروت في الشمال، باستثناء صور، التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى الشمال لفتح مناطق السيطرة الصليبية في إمارتي طرابلس وأنطاكية، وكان ريموند الثالث صاحب طرابلس، قد توفي كمداً بعد فراره من معركة حطين بوقت قصير، ولم ينجب ذرية، فأوصى بأن يخلفه الابن الأكبر لبوهيمند الثالث أمير أنطاكية، ولكن هذا الأخير كان بحاجة إلى ابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن إمارة أنطاكية بابن آخر هو بوهيمند[1] اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد أن جاءته إمدادات من سنجار وهاجم حصن الأكراد في شهر (ربيع الآخر/ حزيران) وكان بحوزة الداوية، لكنه جوبه بقوة استحكاماته ومناعته فتجاوزه إلى شواطئ طرابلس وأنطاكية وهاجم أنطرطوس في شهر «جمادى الأولى/تموز» ودخلها، لكن استعصت عليه القلعة، فأمر بوضع النار في البلد وأحرق جميعه[2] وحاصر حصن المرقب، فامتنع عليه أيضاً، فاتجه إلى بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس، وفتحها، ثم أوغل في إمارة أنطاكية، فأذعنت له القلعة الساحلية جبلة، واستسلمت اللاذقية، وهي أكبر موانئ إمارة

---

(1) مفرج الكروب (2/ 271)، تاريخ الأيوبيين، ص: 172.

(2) النوادر السلطانية، ص: 129.

أنطاكية وقد غادرها الصليبيون بعد أن عجزوا عن الدفاع عنها، وفتح حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماه مقابل جبلة[1]. وتحوّل صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل، واصطحب مع ابنه الظاهر غازي صاحب حلب، فهاجم قلعة صهيون التابعة للإسبتارية، وفتحها عنوة، واستسلمت له حاميتا بكاس والشغر الواقعتان في الشمال الغربي، على نهر العاصي، سرمين وبرزية، وهي آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر العاصي[2].

وبهذه الفتوح، تمت السيطرة على جميع المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية، ولم يبق من حصون تابعة لهذه الإمارة سوى بغراس ودربساك في الشمال، فهاجمها صلاح الدين فأذعنت له دربساك الواقعة في جبال الأمانوس، وكانت تابعة للداوية، واستسلمت قلعة بغراس، التابعة للداوية أيضاً وكانت تتحكم في الطريق المؤدي من أنطاكية إلى كيليكية[3]، وهكذا أصبحت إمارتا طرابلس وأنطاكية مقصوصتي الجناح، ولم يبقَ سوى مدينتي طرابلس وأنطاكية، فضلاً عن ميناء السويدية، واحتفظ الإسبتارية بحصني المرقب والأكراد، واحتفظ الداوية بأنطرطوس، ونتيجة لما آلت إليه أوضاع إمارة أنطاكية، التمس بوهيمند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة، يعترف فيها بكل فتوحاته، وكانت العساكر الإسلامية قد أصابها الإرهاق نتيجة القتال المتنقّل والمتواصل، لذلك وافق على التماسه وعقدت الهدنة بينهما ثمانية أشهر[4] وأتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين الالتفاف مجدداً نحو الجنوب، وبعد أن سرّح قسماً من جيشه، هاجم حصني الداوية في صفد والإسبتارية في كوكب، وفتحهما في شهري (شوال وذي القعدة عام 584هـ/ كانون الأول عام 1188م) وكانون الثاني عام (1189م)[5].

الثالث عشر: انّا لم نخلق للمقام في دمشق وانما خلقنا للعبادة والجهاد في سبيل الله:

في سنة (584هـ) دخل صلاح الدين دمشق بعد رجوعه من بعض غزواته وكان دخوله في ربيع الأول، ففرح به المسلمون ودقّت البشائر وزُيّن البلد، ووجد الصفيّ بن القابض وكيل الخزانة قد بنى داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبليّ، فغضب عليه وعزله من

---

(1) النوادر السلطانية، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 173.

(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 173.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 173.

(4) المصدر نفسه، ص: 173.

(5) النوادر السلطانية، ص: 152 ـ 154، تاريخ الأيوبيين، ص: 174.

وظيفته وقال: إنا لم نُخلَقْ للمقام بدمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد[1]. وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له[2]، لقد كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تعلمتها الأمة من رسول الله ﷺ هي المهيمنة على حركات صلاح الدين وتصرفاته واختياراته في الحياة ولذلك قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب، «إنما خلقنا للعبادة والجهاد»، وقبلها في حطين قال لقادة أركانه: «لا تقاتلوا من أجلي ولكن في سبيل الله»، لقد طهر التوحيد من نفسه ما يعلق بها من أهواء وفتن ونزغ الشيطان، فقد تحدى بإيمانه العميق وفهمه الدقيق لدينه ادعاء المنجمين الذين حذروه من فتح القدس وقالوا له: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، فافتتحها بعد أن كانت بأيدي الفرنج أكثر من تسعين سنة[3]، وأبطل تخرصات المنجمين، فقد كان يصغى فقط لنداء الله ورسوله ﷺ[4] وكان لسان حاله قول الشاعر:

وممـا زادنـي عـزاً وتـيـهـاً ... وكـدت بـأخـمـصـي أطـأ الـثـريـا
دخـولـي تـحـت قـولـك يـا عـبـادي ... وإن صـيّـرت أحـمـد لـي نـبـيـا

الرابع عشر: وفاة أسامة بن منقذ:

توفي عام (584هـ) الأمير الكبير العّلامة، فارس الشام، مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة ابن الأمير مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانِيُّ الشَّيْزَرِي[5] قال الذهبي: عاش سبعاً وتسعين سنة ومات بدمشق في رمضان سنة (584هـ)[6] وله أشعار في مدح السلطان صلاح الدين منها قوله:

والـنـاصـر الـمـلـك الـمـتـوّج نـاصـري ... وعـلاه قـد خـطـت كـتـاب أمـانـي
قـد كـنـت أرهـب صـرف دهـري قـبـلـه ... فـأعـاد صـرف الـدهـر مـن أعـوانـي
أنـا جـاره ويـدُ الـخـطـوبِ قـصـيـرة ... عـن أن تـنـال مـجـاورَ الـسـلـطـان
مـلـك يـمـنُّ عـلـى أسـارى سـيـبـه ... فـيـعـيـدهـم فـي الأسـر بـالإحـسـان

---

(1) البداية والنهاية (16/ 604).
(2) حياة صلاح الدين، محمود شلبي، ص: 111.
(3) الحروب الصليبية مواقف وتحديات، ص: 99.
(4) المصدر نفسه، ص: 99.
(5) سير أعلام النبلاء (21/ 165).
(6) المصدر نفسه (21/ 165).

خضعت له صيدُ الملوك فمن يُرى ... أقلامه غررٌ على التيجان
ملأ القلوب محبة ومهابةً ... فخلت من البغضاء والشنآن
لي منه إكرام علوت به على ... زُهر النجوم .. ونائل أغناني
قرن الكرامة بالنوال مواليا ... فعجزت عن إحصاء ما أولاني
فنداه أخلف ما مضى من ثروتي ... وبقاؤه عن أسرتي أسلاني
فلأهدينّ إلى علاه مدائحاً ... تبقى عن الأحقاب والأزمان
مِداحاً أفوق بها زهيراً مثلما ... فاق المليك الناصر ابن سنان
يا ناصر الإسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعزّ الله حزب جنوده ... وأذلّ حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم ... الشيطان بالإلحاد والعصيان
جرّدت سيفك في العدا لا رغبة ... في الملك، بل في طاعة الرحمٰن
فضربتهم ضرْبَ الغرائب واضعاً ... بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذي أعطاك ... فصل الحكم غضبة ثائر حرّان
فقتلتَ من صَدقَ الوغى ووسمت ... من نجّى الفرار بذله وهوان
وبذلت أموال الخزائن بعدما ... هرمت وراء خواتم الخُزّان
في جمع كلّ مجاهد ومجالد ... ومبارز ومنازل الأقران
من كل من يردُ الحروب بأبيض ... عضبٍ ويصدُرُ وهو أحمر قان
ويخوضُ نيرانَ الوغى وكأنه ... ظمآنُ خاض موارد الغدران
قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى ... ماذا أتى بالأسد من خَفّان[1]
لو أنهم صدعوا الجبال لزعزعوا ... أركانها بالبيض والخرصان
فهمُ الذخيرةُ للوقائع بالعداء ... ولفتح ما استعصى من البلدان
والسعد بشهر الصوم فهو مبشر ... لعلاك بالتأييد والغفران

(1) خفّان : موضع قبل اليمامة أشب الغياض كثير الأسد.

في دولة عمّت بنائلها الورى ... فدعا لها بالخُلد كل لسان[1]

وقال أيضاً في صلاح الدين:

حمدتُ على طول عمري المشيبا ... وإن كنت أكثرتُ فيه الذنوبا
لأني حييت إلى أن لقيت ... بعد العدو صديقاً حبيبا

وقال أيضاً في صلاح الدين:

سمعت صروف الدهر قول العاتب ... وتجنَّبت حربَ المليك الحاربِ
وتجافت الأيام عن مطلوبه ... ومراده أكرم به من طالب
هو من عرفت فلو عصاه نهاره ... لرماه نقع جيوشه بغياهب
وإذا سطا أضحت قلوب عُداته ... تُلوى كمحراق بكفي لاعب
من ذا يناوي الناصر الملك الذي ... في كفِّه بحرا ردى ومواهب
وإذا سرى خلت البسيطة لجّة ... أمواجها بيض وبيض قواضب
ملك القلوبَ محبة ومهابة ... فاقتادها طوعاً بهيبة غاضب[2]

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة (583هـ):

تهنّ يا أطول الملوك يدا ... في بسط عدل وسطوة وندى
أجراً وذكراً من ذلك الشكر ... في الدنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وحُبست أرض العداء وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من ... الملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة ... الأبرار تلقاك ملتقى حُمِدا
فهو فقيرٌ إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة ... النصر كما في كتابه وعدا

---

(1) أسامة بن منقذ، محمد عدنان قيطاز، ص: 246، 247.
(2) أسامة بن منقذ، ص: 108.

فما حباك الورى وألهمك ... العدل وأعطاك ما ملكت سدى

وله من قصيدة يمدح صلاح الدين:

فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل ... على مصر ظلماءُ الضلالة سرمدا

وكان بها طغيان فرعون لم يزل ... كما كان لما أن طغا وتمرّدا

فبصَّرتهم بعد الغواية والعمى ... وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى[1]

ومن قصيدة يمدح الملك الناصر صلاح الدين:

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة ... العلياء للملك الهمام الناصر

يعطي الألوف ويلتقيها باسماً ... طلق المحيَّا في القنا المتشاجر[2]

وأسامة ابن منقذ من المعمرين عاش عمراً مديداً، حافلاً بالمكارم والمآثر، والرزايا والخطوب، فقد شهد الحملات الصليبية على بلاد الشام، وشارك في حركة الجهاد والاستشهاد من أجل تحرير أراضي المسلمين من غزاة الغرب في شيزر وما حولها، وتحت لواء الزنكيين، وساهم في الحياة السياسية أيام السلم والحرب على حد سواء إبان العهد الزنكي، وفي أواخر العهد الفاطمي الذي انهارت قواعده على يد الناصر صلاح الدين فجمع مصر والشام في ظل دولة واحدة تمهيداً لتحرير القدس من غاصبيها، وقد تم ذلك بحمد الله، وبموت أسامة بن منقذ طويت آخر صفحة من صفحات تاريخ آل منقذ في بلاد الشام وصفه ابن العديم بأنه من الأمراء الفضلاء والأدباء الشعراء الشجعان الفرسان له مصنفات عديدة، ومجاميع مفيدة ومواقف مشهورة ووقائع مذكورة وفضائل مسطورة، وقال ابن تغري بردي: كانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر وكان فارساً عاقلاً مدبراً، يحفظ عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية[3].

الخامس عشر: من أهم الدروس والعبر والفوائد:

من خلال عرض الأحداث السابقة تظهر للباحث عدة دروس وعبر وفوائد في حياتنا المعاصرة منها:

---

(1) أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره، ص: 135.

(2) المصدر نفسه، ص: 160.

(3) المصدر نفسه، ص: 30 ـ 32.

1 ـ أهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة :

إن الأمة في أشد الحاجة لمن يوقظها من نومها، ويخرجها من جهلها وينبهها من غفلتها، فالخير الذي تمّ على يدي صلاح الدين كان من أسبابه: حركة العلماء في التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد، فالدور الأكبر الذي ينتظر العلماء الربانيين تصفية عقيدة الأجيال القادمة مما شَابَها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافات والشركيات، وتصفية السنة مما شابها، وتصفية التاريخ الإسلامي مما شابه من الفتن لإبراز لآلئ تاريخ أمتنا العظيم ولاستخلاص العبر، وتصفية الفقه مما شابه من الآراء والمحدثات المخالفة، وتصفية الوعظ مما شابه من الإسرائيليات والخرافات وأحاديث القُصَّاص، وتربية الجيل على هذا، هذا هو أسس أي إصلاح لإقامة أي نهوض، وينبغي على العلماء أن يوجّهوا المربين إلى إصلاح مناهج التعليم والتربية لإعداد النشء على حب الجهاد وأن يضع نصب عينيه تاريخ القادة العظام الذين دوّخوا الكافرين، أمثال الخلفاء الراشدين، وأبي عبيدة ومعاذ وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، ونور الدين وصلاح الدين وقطز وبيبرس، وأن يدرّس لهذا النشء معارك الإسلام الفاصلة وإلهاب عاطفتهم من الصغر على حب البذل والعطاء لدينهم، وعلى العلماء أن يأمروا بالمعروف وينهوا على المنكر ويواجهوا الشر وهبوط العزائم، ويصونوا الأمة أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة، ولا بد أن يصلح العلماء اعوجاج الأمة وقادتهم وفيهم الجبار الغاشم والمتسلط وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، والمسترخي الذي يكره الاشتداد والمنحل الذي يكره الجدّ، والظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولن تعود القدس إلا بعد أن يقود العلماء الربانيون مسيرة الأمة ويوجهوا الحكام إلى الخير[1].

2 ـ تربية الجيل على عقيدة أهل السنة والجماعة:

الدعاة إلى الإسلام والناشدون لتحرير القدس والأقصى لا بد لهم من تربية جيل النصر المنشود على العقيدة التي كان عليها الرسول وأصحابه، وتصفية العقيدة مما شابها من العقائد الباطلة والفاسدة والخرافيات والشركيات والبدع، ولله در الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة القائل: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما أجمل قول القائل: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم. وما سقطت القدس إلا على أيدي أهل البدع الفاطميين، وما ضاعت إلا لما ضاع الولاء، وتحالف رجال الثورة العربية مع

(1) واقدساه (3/ 521 ـ 523).

الإنجليز ضد المسلمين من الأتراك، وما سقطت القدس إلا بعد انحراف الناس عن الجادة وصار ربان السفينة ممن يغيّب الإسلام في الصراع، ومحال أن تعود القدس على أيدي أناس يسبون صحابة رسول الله ويكفرونهم ويطعنون في الثوابت من هذا الدين، وهم ومن على شاكلتهم كانوا الخناجر التي طُعنت بها الأمة، والله يفتح مغاليق الأمور لمن علم في قلبه الصدق والعزيمة وسلامة النهج وصفاء التوحيد والولاء[1].

3 ـ تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين:

وهذا بيت القصيد لا بد أن يعلمه القاصي والداني، الصغير والكبير من هذه الأمة، وبغض لهؤلاء اليهود والنصارى لكفرهم أولاً، ولأنهم اغتصبوا ديارنا ثانية، وتصريحات زعماؤهم تدل على أن الحرب بيننا وبينهم دينية، فمثلاً حكام أمريكا حبهم وولائهم لإسرائيل من منطلق ديني توراتي بحت فهم يقدسون التوراة «العهد القديم» مثلما يقدسون الإنجيل «العهد الجديد» وقيام إسرائيل وحمايتها قام على أساس التزام ديني من إنجلترا وأمريكا، فعار على الأمة أن تسلم رقابها ورقاب أبنائها وثرواتها وأراضيها إلى أعدائها، وعار على الأمة أن تتنكر لإسلامها وتتسوّل نفايات الفكر اليوناني الروماني العفن، عار على الغني أن يتسوّل[2]، وقد تحدث الرؤساء الأمريكيون عن ماذا تعني إسرائيل بالنسبة لهم، فقد أصدرت جريدة هيرالد تريبيون الدولية تقريراً خاصاً في عددها رقم 35818 بتاريخ 29/ 04/ 1998م ونشرت فيه كلمات لعشرة رؤساء لأمريكا، على مدى خمسين عاماً منذ نشأة إسرائيل حتى الآن ويؤكدون في كلماتهم ضمانهم لأمن إسرائيل، وذكرت الجريدة في تعليقها: منذ تحقيق الاستقلال سنة 1948م، كان لإسرائيل مكان خاص في قلوب الأمريكيين وفي قلوب رؤساء أمريكا، ففي كل إدارة كان الرئيس يعترف بأهمية أمن إسرائيل بالنسبة للأهداف القومية الأمريكية[3].

قال بيل كلينتون: أمريكا وإسرائيل يربطها ميثاق خاص وعلاقتنا فريدة من نوعها بين كل الأمم، فكما هو الحال في أمريكا، فإن إسرائيل تتمتع بديمقراطية قوية كرمز للحرية وهي واحة للاستقلال، وملجأ للمظلومين والمضطهدين.

ـ **جورج بوش:** لقد تمتعت الولايات المتحدة وإسرائيل لأكثر من أربعين سنة بصداقة مبنية على احترام متبادل، والتزام بمبادئ الديمقراطية، ويبدأ استمرارنا بالبحث عن السلام في

---

(1) واقدساه (3/ 526).

(2) المصدر نفسه (3/ 494).

(3) المصدر نفسه (3/ 491).

الشرق الأوسط بإدراك أن الروابط التي تُوحّد بين دولتينا لا يمكن أن تنفصم.

ـ **رونالد ريجان**: يثبت الرجال والنساء الأحرار بإسرائيل كل يوم قوة الشجاعة والإيمان، وبالرجوع لسنة (1949م) عندما وُجدت إسرائيل، ادّعى النقاد أن الدولة الجديدة لا يمكن أن تستمر، والآن لا يشك أحد أن إسرائيل هي أرض الاستقرار والديمقراطية في منطقة الطغيان والاضطرابات.

ـ **جيمي كارتر**: بقاء إسرائيل ليس مجرد قضية سياسية ولكنه التزام أدبي، وهذا هو إيماني العميق الذي ارتبط به، وهو الإيمان الذي يشاركني فيه الأغلبية العظمى من الشعب الأمريكي، فإن إسرائيل القوية الآمنة ليست مجرد اهتمام الإسرائيليين ولكنه اهتمام الولايات[1] المتحدة والعالم الحر كله.

ـ **جيرالد فورد**: التزامي بأمن ومستقبل إسرائيل مبني على مبادئ أساسية، وهو اهتمام شخصي، كإنسان متنور «مثقف» كما أن دورنا في مساندة إسرائيل يُشرّف تراثنا الوطني[2].

ـ **ريتشارد نيكسون**: الأمريكيون يعجبون بالشعب الذي يحفر الصحراء ويحوّلها لحدائق، لقد أثبت الإسرائيليون بدلالات يقبلها الأمريكيون أن لديهم الشجاعة والوطنية والمثالية، والولع بالحرية، لقد رأيت ذلك وأومن بذلك[3].

ـ **جون كندي**: إسرائيل لم تُخلق لتختفي، بل ستبقى، وتزدهر، إنها وليد الأمن والوطن للشجعان ولن تنكسر بالافتراءات، أو بإفساد معنوياتها؛ إنها تحمل درع الديمقراطية، وتشهر سيف الحرية[4].

ـ **دوايت أيزنهاور**: لقد أنقذت قواتنا بقايا الشعب اليهودي بأوروبا من أجل حياة جديدة، وأمل جديد في الأرض المتجددة ونحن مع كل الرجال ذوي العزيمة الصادقة وأحيي الدولة الصغيرة، وأتمنى لها الفلاح[5].

ـ **هاري ترومان**: لدي إيمان بإسرائيل قبل تأسيسها كما أن لدي إيماناً بها الآن وأعتقد

---

(1) واقدساه (3/ 492).
(2) المصدر نفسه (3/ 492).
(3) المصدر نفسه (3/ 492).
(4) المصدر نفسه (38/ 493).
(5) المصدر نفسه (3/ 493).

أنه سيكون لها مستقبل متألق أمامها، ليس لمجرد أمة مستقلة جديدة ولكن تجسيد للمثاليات العظمى لمدنيتنا[1].

4 ـ وحدة الأمة على أساس من وحدة العقيدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: 4] الأمة المتراصة أقوى عند النزال من جبهات تلتقي وتفترق وتسير وتقف، تجمعها مصالح آنية، إنها سنة الله في الحياة عندما تكون الأمة متوحدة على أساس من العقيدة تكون أقوى وأعزّ، حتى ولو قلّ العدد وهذا واضح من حركة التاريخ، فشتان بين مسيرة يدفعها هوى وتصورات بشرية، وبين مسيرة تدفعها قواعد ربانية، شتان بين أمة تنير منهاج الله دربها وأقوام يعطيهم الهوى بصيصاً من نور ثم ينطفئ، فاللقاء في المعارك الفاصلة مع الرافضة لا يمكن ذلك، فصلاح الدين تخلص من الدولة الفاطمية ثم استطاع بعد ذلك تحرير بيت المقدس بعد القضاء على الفكر الرافضي، فالتاريخ يعلمنا دور الباطنية والشيعة الرافضة في خيانة الأمة، وقتل مجاهديها وعرقلة الحركات الجهادية ضد الصليبيين على مدار التاريخ الإسلامي، وفي التاريخ الحديث تحالفوا مع أمريكا على حساب أفغانستان والعراق، ومصالحهم المذهبية فوق كل شيء.

إن أصحاب البدع مثل العقارب يدفنون رؤوسهم وأبدانهم في التراب، ويخرجون أذنابهم فإذا تمكّنوا لدغوا وكذلك أهل البدع، هم مختفون بين الناس، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون[2].

5 ـ الراية الإسلامية للمعركة:

إن راية الإسلام هي حياتنا وأملنا، نور أبصارنا وبصيرتنا، وهي الراية الوحيدة لمعاركنا القادمة، إن اليهود والنصارى يحاربوننا بالتوراة حرباً دينية تحت شعار الصليب والنجمة فلا نحاربهم إلا بالقرآن، وإذا رجعوا إلى تعاليم التلمود رجعنا إلى البخاري ومسلم، وإذا قالوا: نعظّم السبت، قلنا: نعظّم الجمعة، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: الأقصى، وإذا قاتلونا تحت راية اليهودية والنصرانية قاتلتهم تحت راية الإسلام[3]، يقول جمال حمدان: قبل الإسلام لم يكن عرب الجزيرة أمة، ولا كان لهم تاريخ، حتى أمة بلا تاريخ لم يكونوا، بل مجرد حفنة

---

(1) واقدساه (3/ 493).

(2) المصدر نفسه (3/ 490).

(3) المصدر نفسه (3/ 495).

أو شرذمة من القبائل المتحاربة المتعاركة المتطاحنة المتعددة اللهجات وأحياناً اللغات، وهي إن لم تكن تقع خارج الجزيرة فإن لها تاريخ فولكلوري على أكثر تقدير[1]. ويقول: لقد خرج العرب من الصحراء ودخلوا التاريخ بفضل الإسلام وما كان لهم هذا ولا ذاك بدونه، لم يكن الإسلام بالنسبة للعرب رسالة من السماء فقط، ولكن نَجْدة من السماء[2] ويقول: الإسلام جاء ليبقى. ويقول: عودة الإسلام ليقود من جديد[3]. ويقول الإسلام جاء ليبقى. ويقول: عودة الإسلام ليقود من جديد[4]، كانت راية نور الدين وصلاح الدين في معاركهم هي الإسلام وانضوت تحتها الشعوب الإسلامية من عرب وترك وأكراد وفرس وغيرهم فحققت تلك الانتصارات الرائعة.

6 ـ إستراتيجية إسلامية بعيدة المدى وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً:

إن تحرير القدس على يدي صلاح الدين يعلمنا أن المسيرة لتحريره من جديد لها خططها ونهجها، ولها أهدافها ووسائلها وكلها أهداف ووسائل شرعية، ولكنها لا يمكن أن تسير دون نهج مفصَّل واضح، يسمح لأفرادها أن يعرفوا ماذا يريدون، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60]. ولا بد من توضيح جملة من الحقائق:

أ ـ من هم أعداؤنا؟

ب ـ كيف يفكر كل عدو من أعدائنا، وما هي إمكانياتهم؟

ج ـ ماذا أعدّ كل عدو من أعدائنا؟

د ـ هل أعددنا أنفسنا لمواجهة التحديات؟ لماذا نجح العدو في تحقيق أهدافه؟

هـ ـ لماذا نجح العدو في تكبيل الأمة بالأغلال؟ وإجبارها على التسليم له وقد اغتصب مقدساتها وأرضها وثرواتها وسَخِر من عقيدتها؟

---

(1) واقدساه (3/ 496).

(2) المصدر نفسه (3/ 496).

(3) المصدر نفسه (3/ 496).

(4) المصدر نفسه (3/ 496).

و ـ لماذا تقف الأمة موقف السلبية تجاه هذا الخطر الماحق الذي يتهدّد وجودها؟

إن السبب يكمن في جهل الأمة بدينها، وبرسالتها التي من أجلها خُلقت واستُخلفت في هذه الأرض، فترتب على ذلك فساد عقائدي وسياسي وسلوكي وأخلاقي ووقعت في الحرام، وأكل الحرام وتعطيل فرائض الله، وعدم تحرير الولاء والبراء[1]. والحل ممكن مع صدق النية واللجوء إلى الله ﷻ، ويمكن الاستفادة من التجارب التاريخية لإعداد خطة إستراتيجية طويلة المدى في مواجهة هذه التحديات المعاصرة[2]، إستراتيجية مستمدة من «هوية الإسلام» التي ضِعْنا يوم أن ضيّعناها، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: 138].

7 ـ توبة الأمة الإسلامية وعودتها إلى الله ﷻ وبُعْدها عن المعاصي:

إن نصر الله ﷻ لا يتنزل على أمة ماجنة عابثة لاهية غافلة شاردة بعيدة عن الله ورسوله، لا ينزل نصر الله على أمة تغوص في مستنقع المعاصي الآسن وتتمرد على منهج ربها أمة، تَقْلب الموازين وتسير ضد السنن الربانية، إنما ينزل النصر على أمة صابرة تعلم أنها إنما تُنصر على عدوها بطاعتها لله ومعصية عدوها له وتعلم أن الله أعزها بالإسلام، فإن ابتغت في غيره العزة أذلها الله ﷻ، فالنصر يحتاج إلى تبتل ودموع وقنوت وضراعة إلى الله ﷻ، فسلوا ليلة بدر عن بكاء النبي ﷺ وصلاته وسلوا ليلة الأحزاب وكل معارك الأمة[3]، فالرجوع إلى الله من أسباب النصر العظيم.

8 ـ الجهاد في سبيل الله الطريق الوحيد لإعادة القدس:

إن الطريق الوحيد لتحرير الأراضي المحتلة هو طريق الجهاد في سبيل الله الذي يمثل جوهر الأمن في أمتنا وذروة سنام ديننا، إنه باب من أبواب الجنة، إنه انطلاق من قيد الأرض وارتفاع من ثقلة اللحم والدم، وما كانت الأمة قادرة أن تحمي وجودها ومقدساتها إلا بعبادة الجهاد في سبيل الله، هذه العبادة التي مارسها نور الدين وصلاح الدين كانت من الأسباب للتصدي للغزو الصليبي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: 10-13].

---

(1) واقدساه (3/ 510).

(2) كيف نفكّر استراتيجياً، نقلاً عن: واقدساه (3/ 512).

(3) واقدساه (3/ 485).

ومن الدروس والعبر والفوائد أهمية التوكل على الله والثقة فيه واليقين بنصره للمؤمنين، والتعامل مع سنن الله واستيعابها وفهمها كسنة التغيير للنفوس، وسنة التدافع وسنة الله في النصر والهزيمة ومعرفة الأسباب المعنوية للنصر، كالإيمان بالله وتقواه، وإرادة الجهاد، والإخلاص، والتوكل، والصبر والوحدة والشورى والذكر والدعاء، والطاعة والشجاعة والثبات، والأسباب المادية للنصر، كالإنفاق وإعداد العدة والسلاح، وإعداد المجاهدين عسكرياً والرباط، والتخطيط والأخذ بمبادئ الحرب، كاختيار المقصد وإدامته، وحشد القوى، والاقتصاد بالقوة، وادخارها، المباغتة، والتعرض والمرونة والأمن والتعاون والمطاردة، وكسنة الله في إظهار الحق وإزهاق الباطل، والصراع بين الحق والباطل وسنة الله في عقاب الأمم ومعرفة أسباب العقاب الإلهي للأمم بالاستئصال، كالكفر بالله ﷻ، وإنكار يوم الجزاء، وإسناد شركهم ومعصيتهم لمشيئة الله اتباعاً للظن، وإيذاء الرسل بشتى أنواع الإيذاء وتكذيب الأمة بعد مجيء الآيات التي تطلبها، واستعجال العذاب، والجدال بالباطل والاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، الإسراف، الترف، البطر، الاستكبار، المكر، الصد عن مساجد الله والذنوب . . . إلخ.

المبحث الثالث
الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين

أولاً: الصليبيون يستغيثون بالغرب:

ما كاد القتال ينتهي في حطين وتتحقق خسارة الصليبيين حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس، والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدث رد فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذُعر لنبإ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب بأنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السّنوات الأخيرة، وأدرك من اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها، ولم يلبث كونراد دي مونتفيرات أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غرب أوروبا في منتصف عام (583هـ) وآخر صيف عام (1187م)، ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها النجدة العاجلة، وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثاني الذي استجاب لهذه الدعوة بعدما راعه ما سمعه من جوسياس من أنباء

الكارثة التي حلّت بالصليبيين في الشرق، ولما كان في حالة حرب مع بيزنطية فقد عقد صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي، إسحاق أنجيلوس في شهر محرم 584هـ/ شهر آذار عام (1188م) ليتفرغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من الفرسان، إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلي مرجريت البرنديزي وقد نجح في منع صلاح الدين من فتح طرابلس[1].

ثم انتقل جوسياس من صقلية إلى روما ترافقه بعثة صقلية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفي كمداً في 14 شعبان 583هـ تشرين الأول 1187م على أن خليفته جريجوري الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكي إنكلترا وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين، وإذا كان البابا جريجوري الثامن قد توفي هو الآخر في 13شوال/ 17 كانون الأول) قبل أن يرى ثمرة جهوده، فإن خليفته كليمنت الثالث (583هـ ـ 587هـ/ 1187 ـ1191م) أسرع بالاتصال بالإمبراطور الألماني فريدريك الأول بربروسا وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتجه إلى الشرق، وحدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكي فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني، واجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا وأقنعهما بتناسي خلافاتهما التي كانت حادة وشجّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك، فإنهما تباطآ في التنفيذ، وتجدّدت الحرب بينهما، ثم توفي هنري الثاني ملك إنكلترا في عام (585هـ/ 1189م) وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق[2].

ويتضح دور رجال الدين المسيحي في الأزمات من خلال ما قام به جوسياس والبابا، وهنا نستخلص درس مهم وهو أن على العلماء والفقهاء والدعاة والمفكرين والأدباء والساسة من أمتنا تجاوز مرحلة الشعور بالحسرة والحوقلة في الملمات والنكبات التي تمر بها الأمة، والسعي الدؤوب للعمل الصحيح الذي يحبه الله ورسوله من توظيف المهارات القيادية والقدرة على الإقناع وحسن التخطيط وتقديم رؤية حضارية نهضوية ... إلخ، من أجل إعزاز دين الله تعالى والتصدي للغزاة.

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة، ص: 176.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.

قدم الصليبيون إلى بلاد الشام بأعداد كبيرة لا تحصى، يدلنا على ذلك الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد في سنة (586هـ/ 1190م) يخبره بذلك والتي قال فيها: وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبين والأوطان وهجروا المألوفين والأهل والديار، وركبوا للحج ووهبوا المهج، كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم[1]. وخرج المسيحيون على اختلاف فئاتهم وأجناسهم ومن عجز عن الخروج بنفسه جهز بعدته وثروته من يقدر على السفر[2]، وخرجت النساء للإسهام في الحملة الصليبية الثالثة، فمنهن من خرجن وبصحبتهن الفرسان وقد تكفلن بجميع ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد، وعلى سبيل المثال ذكر أبو شامة وغيره أنه في سنة (585هـ/ 1189م)، وصل في البحر إلى بلاد الشام امرأة مسيحية جليلة القدر وفي صحبتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وقد تكفلت بكل ما يحتاجون إليه، فهم يركبون لركوبها، ويحملون لحملاتها ويثبون لوثباتها[3]، ومنهن من خرج وقد لبسن الدروع وكن في زي الرجال للاشتراك في المعارك بأنفسهن لاعتقادهن بأن عملهن هذا عبادة[4]، ومنهن من خرج لإسعاف الغرباء وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن لهم للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين[5]، وأما وليم الثاني ملك صقلية فقد بادر بإرسال أسطول في سنة (585هـ/ 1189م) يشتمل على ستين قطعة بها عشرة آلاف مقاتل أسند الأسطول إلى مدينة صور ثم رجع إلى طرابلس ولم ينفع الصليبيين بشيء لأنه ما به من الميرة لم تكن تكفي ما عليه من الرجال[6].

ثانياً: الإمبراطور الألماني في طريقه إلى الشرق:

تناسى ملوك وحكام الغرب الأوروبي ما بينهم من خلافات وحزازات وأحقاد وعقدوا العزم استجابة لدعوة البابا على تسيير حملة صليبية إلى بلاد الشام، وكان أول من استجاب لهذه الدعوة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا[7]. ففي ربيع سنة (585هـ/ 1189) بدأت

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 176.

(2) كتاب الروضتين (2/ 161-162)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 238.

(3) مفرج الكروب (2/ 308)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 238.

(4) كتاب الروضتين (2/ 149)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 238.

(5) المصدر نفسه (2/ 149)، المصدر نفسه، ص: 238.

(6) مفرج الكروب (2/ 558)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 239.

(7) صلاح الدين والصليبيون، ص: 240.

الجيوش الألمانية في التجمع عند مدينة «راتسبون» استعداداً للمسير إلى بلاد الشام، وكان ذلك الجيش بالرغم من كثرته العددية يتمتع بنظام عسكري دقيق، فكان من يجني منه جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح «مثل الشاة»[1]، وسار ذلك الجيش يتقدمه الإمبراطور فردريك بربروسا وبصحبته أحد أبنائه سالكاً الطريق البري باتجاه القسطنطينية، حتى واجه عداءً شديداً من الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني إنجليوس الذي بعث إلى حليفه صلاح الدين يخبره بمسيرة الألمان ويعده بأن لا يمكنهم من عبور بلاده، إلا أن المصادر تذكر أن الإمبراطور البيزنطي لم يستطع منعهم من العبور، ولكنه لم يسعفهم بشيء من المؤن والعتاد، فَقَلَّت عليهم الأقوات، وعبروا خليج القسطنطينية «البسفور» وقد اشتدت ضائقتهم وحل بهم كرب شديد[2]، ولما عبروا إلى آسيا الصغرى تعرضوا لمتاعب كثيرة بسبب جهلهم بتلك الأماكن، لذا سلكوا الأودية على غير هدى، فكانوا يقطعون الفرسخ الواحد في يومين، فوقعوا فريسة للخطف من جانب التركمان سكان المناطق، كما كان لدخول الشتاء أثره البالغ على سيرهم، حيث تراكمت الثلوج، فاحتاجوا إلى أكل الدواب وأحرقوا عددهم لنقص الحطب عندهم، كما عدموا العلف فأنهكوا وأنهكت دوابهم حتى عجزوا عن حمل عددهم، فاضطروا إلى دفن ما عجزوا عن حمله[3]، ولما قاربوا الوصول إلى سلطنة سلاجقة الروم التي كان على رأسها السلطان قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي، نهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه، واشتبك معهم في معركة كبيرة هزموه فيها، فتراجع إلى الوراء إلى مدينة «قونية» عاصمة السلطنة، فتعقبه الألمان، ودخلوا المدينة وأحرقوا أسواقها، ثم أرسلوا إلى والده أرسلان يقولون له: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما نزلنا لنثأر لبيت المقدس[4]، وبعثوا إليه الهدايا وطلبوا منه الهدنة فهادنهم، فبعث هو وابنه إلى صلاح الدين يعتذران من تمكين الألمان في بلدهما ويخبرانه بأنهما غلبوا على ذلك. ومكث الجيش الألماني مدة من الزمن في بلاد قلج وتقووا خلالها بما أرادوا من العدد والأزواد ثم واصلوا سيرهم[5]، وأشار ابن شداد وأبو شامة إلى روابط الصداقة بين السلطان قلج أرسلان والإمبراطور فردريك بربروسا، وأن قلج عندما أرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الألمان في بلاده، إنما قصد بذلك التظاهر أمام صلاح الدين بالشقاق لملك الألمان، وهو في الباطن يضمر له الوفاق، وأنه أنفذ معه الأدلاء

(1) النوادر السلطانية، ص: 126، صلاح الدين والصليبيون، ص: 240.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 241.

(3) مفرج الكروب (2/ 318)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 241.

(4) صلاح الدين والصليبيون، ص: 242.

(5) المصدر نفسه، ص: 242.

وأعطاه الرهائن حتى يضمن له العبور بسلام[1]. هذا بينما يذكر ابن الأثير أن أسباباً دفعت الملك قلج أرسلان إلى السماح لملك الألمان بعبور أراضيه، منها حالة الضعف التي كانت تتعرض لها بلاده بسبب المشاكل الداخلية نتيجة تقسيمه ملكه بين أبنائه[2]. يضاف إلى ذلك ما كان يتعرض له قلج أرسلان من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين من ناحية والإمبراطور البيزنطي من ناحية أخرى[3]، وعلى كل فتلك التسهيلات التي منحها قلج للإمبراطور فردريك بربروسا لم تنفع الجيوش الألمانية بشيء إذ تعرضت أثناء عبورها لبلاده لهجمات عديدة، الأمر الذي أغضب ملك الألمان فقبض على الأدلاء والرهائن الذين سيرهم قلج معه وقيدهم بعد أن أخذ ما معهم ووضعهم في الأسر[4].

1 ـ دخول الألمان بلاد الأرمن :

واصل الألمان سيرهم رغم تلك المتاعب الشديدة التي تعرضوا لها، حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن، فرحب بهم أميرها ابن لاون، وقدم لهم ما يحتاجون إليه من المؤن والأزواد والعلوفات وأرشدهم إلى أسهل الطرق[5]، وكان أمير أرمينية يأمل في أن يتوج ملكاً على أرمينية الصغرى حتى لا يبدو في مكانة أقل من مكانة الأمراء الصليبيين المقيمين ببلاد الشام من جهة، وليبعد عنه أطماع الإمبراطور البيزنطي من جهة أخرى، ويبدو أن أمير أرمينية قد علق آمالاً كبيرة على كل من البابا والإمبراطور الألماني في تحقيق هدفه هذا[6].

2 ـ وفاة إمبراطور الألمان:

لم يطل مقام الألمان ببلاد ابن لاون بل واصلوا سيرهم بعد أن هداهم الطريق، ونزلوا بطرسوس[7]، وقد أنهكهم السفر بسبب ما تعرضوا له من متاعب في طريقهم، فأرادوا الإقامة هناك أياماً ليريحوا أنفسهم إلا أن القدر خبأ لهم خلاف ذلك، فحدث لهم حدث مفاجئ قلب الموازين رأساً على عقب، حيث مات الإمبراطور فردريك بربروسا غريقاً في أحد الأنهار

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 123.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 242.

(3) الحركة الصليبية (2/ 847) سعيد عاشور.

(4) مفرج الكروب (2/ 319)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 243.

(5) المصدر نفسه (2/ 319)، المصدر نفسه، ص: 243.

(6) صلاح الدين والصليبيون، ص: 243.

(7) المصدر نفسه، ص: 243.

وذلك سنة (586هـ/ 10يونيو 1190م) واختلفت آراء المؤرخين في تعليل أسباب وفاته، فذكر العماد وابن واصل أن الألمان عندما عبروا نهر سالف التطم الموج بهم، فطلب الملك موضعاً يعبر فيه وحده، فدخل في مخاضة قوية فاختطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجب رأسه، فاستخرجوه وهو في آخر رمق وهلك بعد قليل[1]، وأشار ابن شداد وغيره إلى أن فردريك بربروسا نزل على شط أحد الأنهار، واستحم في ماء ذلك النهر، فأصابته برودة ذلك الماء بمرض مات على أثره بعد أيام قلائل[2]. أما ابن الأثير، فقد ذكر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق[3]، ومهما يكن من أمر، فإن الذي يهمنا هو أن الإمبراطور فردريك بربروسا قد هلك دون أن يحقق هدفه في المشاركة في استعادة بيت المقدس من يد صلاح الدين، فضلاً عن أن ذلك الحدث المفاجئ كان له أثر كبير على فشل الحملة الصليبية الثالثة، إذ أن جزءاً كبيراً من الجيش الألماني قد عاد عقب وفاته إلى أوروبا[4]. بالإضافة إلى أن الصليبيين قد فقدوا بوفاته شخصية كبيرة مخلصة للمشروع الصليبي لو أنها وصلت إلى عكا لوجد منها صلاح الدين متاعب كثيرة[5].

3 ـ تفرق الألمان بعد موت ملكهم:

وبموت الإمبراطور فردريك بربروسا حلت بالألمان كوارث كثيرة، فقد اختلفوا منذ البداية حول من يخلفه في قيادة الحملة الصليبية الألمانية، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابي، بينما مال بعضهم إلى تولية أخ لفردريك السوابي أكبر منه[6]، وما إن رأى الملك الأرمني ما حل بالألمان من التفكك والضعف بعد موت فردريك بربروسا حتى آثر أن لا يلقي بنفسه بينهم، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم إفرنج وهو أرمني، فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة[7]. وتفرق الألمان بعد موت ملكهم فمنهم من عاد إلى أوروبا، ومنهم من سار مع الأمير فردريك السوابي الذي خلف والده في قيادة الجيش الألماني، وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكية حل بهم وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالهم ووصلت

---

(1) مفرج الكروب (2/ 319)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 244.
(2) كتاب الروضتين (2/ 155)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 244.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 244.
(4) المصدر نفسه، ص: 244.
(5) التاريخ الحربي المصري، ص: 239.
(6) تاريخ ابن خلدون (5/ 322)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 244.
(7) النوادر السلطانية، ص: 124، صلاح الدين والصليبيون، ص: 244.

البقية الباقية إلى أنطاكية؛ وكأنهم قد نبشوا من القبور على حد قول المؤرخ ابن الأثير[1]. وما إن وصل الألمان إلى أنطاكية حتى تبرم بهم صاحبها بوهيمند الثالث وثقلت وطأته عليهم، وطمع في الاستيلاء على أموالهم وعتادهم، فأشار عليهم بالمسير إلى حلب وحسّن لهم طريقها. إلا أن فردريك السوابي لم يستجب لمشورة بوهيمند وإنما طلب منه أن يعطيه قلعة أنطاكية ليودع بها ماله وخزائنه وأثقاله فوافق بوهيمند على ذلك على أمل أن يفوز بما يودع فيها من الأموال والعتاد، وكان الأمر على ما أراد، فإن الألمان لما فارقوا أنطاكية لم يعودوا إليها ثانية، ففاز بوهيمند بكل ما أودعوه فيها[2]. وفي الوقت نفسه تعرضت فرقة من الألمان لكارثة أخرى كان لها أثر كبير في إضعاف نفسياتهم، فقد اتجهت هذه الفرقة الألمانية صوب بغراس وهم يظنون أنها لا تزال في أيدي إخوانهم الصليبيين، وما إن وصلوا إليها حتى فتحت أبواب القلعة وهجم المسلمون على الألمان فاستولوا على ما معهم من الأموال والأسلحة والعتاد، وقتلوا منهم وأسروا العدد الكثير، كما خرج أيضاً بعض سكان حلب وتفرقوا في طريق الألمان وأخذوا يتخطفونهم، فأسروا منهم أعداداً باعوهم في الأسواق بأثمان زهيدة[3]، كما أن ذلك يدلنا أيضاً على مدى تلك العزلة التامة التي فرضها صلاح الدين على الصليبيين ببلاد الشام، بعد إحكام سيطرته على مدن الساحل، حتى أن الصليبيين في الغرب الأوروبي لم يكن في مقدورهم التمييز بين المدن والقلاع التي استولى عليها صلاح الدين وبين التي لا تزال في أيدي إخوانهم الصليبيين في الشرق[4]، وأخيراً قرر فردريك السوابي بعد تلك الكوارث التي حلت لجيشه الاتجاه إلى عكا، ففي يوم الأربعاء 25 رجب سنة (586هـ/ أغسطس 1190م) سار على رأس جيشه إلى عكا عن طريق جبلة واللاذقية، وانتهز المسلمون في اللاذقية فرصة مرور شراذم الألمان، فخرج رجالها عليهم، فقتلوا وأسروا منهم أعداداً كثيرة، ولما وصل الألمان إلى طرابلس أقاموا بها للراحة، فنزل بهم وباء شديد مات على أثره أكثرهم ولم يبق منهم سوى حوالي ألف رجل ركبوا في البحر يتقدمهم فردريك السوابي قاصدين عكا للانضمام إلى بني جنسهم هناك لمؤازرتهم في حصارها، فوصلوا إلى عكا في 16 رمضان سنة (586هـ/ أكتوبر 1190م)[5].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 156)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 245.

(2) مفرج الكروب (2/ 322)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 245.

(3) المصدر نفسه (2/ 323)، المصدر نفسه، ص: 245.

(4) تاريخ ابن الفرات، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 246.

(5) المصدر نفسه.

4 ـ موقف صلاح الدين من الحملة الألمانية:

لم يهمل صلاح الدين أمر الحملة الألمانية منذ علمه بمسيرها إليه، فقد استنفر الناس للجهاد، فبعث رسولاً في رمضان من سنة (585هـ/ 1189م) من قبله وهو القاضي بهاء الدين ابن شداد إلى الخليفة العباسي في ذلك الوقت الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء لإعلامه بمسير الألمان إلى بلاد الشام، وأمر صلاح الدين القاضي ابن شداد بالمسير في طريقه إلى أمراء الموصل وسنجار والجزيرة وإربل لاستدعائهم للجهاد، فأجابوا إلى ذلك وتأهبوا للمسير إلى صلاح الدين، كما وعد الخليفة العباسي «بكل جميل» وأمد صلاح الدين بالمال والعتاد[1]، وتابع صلاح الدين في الوقت نفسه تقدم الألمان إليه عن طريق إرسال العيون (الجواسيس) لكشف أخبارهم، كما أرسل نوابه في البلاد الشامية عساكرهم لكشف أخبار العدو واعتراض طريقه، فوقعوا على فرقة من جيش الألمان، قد خرجت لطلب العلوفة للدواب فقتلوا وأسروا منهم زهاء خمسمائة نفس[2] ولما تحقق صلاح الدين من وصول الألمان إلى بلاد الأرمن وقربهم من البلاد الإسلامية، جمع أمراء دولته وشاورهم فيما يصنع، فاتفق رأيهم على تسيير عسكر كبير لملاقاة العدو في طريقه وحماية بعض المدن، فسارت تلك الجموع الإسلامية يتقدمها عدد من أمراء المسلمين، فكبدت العدو الألماني في طريقه خسائر جسيمة[3]. كما أمر صلاح الدين بهدم أسوار طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل وذلك لأنه خشي سيطرة الصليبيين عليها واستخدام تلك الأسوار في محاربة المسلمين[4]، والحقيقة أن حملة الألمان الصليبية فشلت عندما غرق قائدها الإمبراطور فردريك بربروسا في أحد أنهار آسيا الصغرى، وتشتت جموع الألمان في الشام مما حال دون وصولهم إلى بيت المقدس، وتحقيق هدفهم باسترجاعه من أيدي المسلمين، وأخيراً فإذا كان فردريك بربروسا قد عجل الخروج إلى المشرق على رأس حملته الصليبية، واختار لها الطريق البري إلى بلاد الشام فإن فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا لم يتركا الغرب الأوروبي في حملة صليبية إلا في صيف 586هـ/ 1190م واختارا الذهاب إلى عكا بحراً[5].

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 115، صلاح الدين والصليبيون، ص: 247.

(2) مفرج الكروب (2/ 323)، صلاح الدين والصليبيون، ص: 247.

(3) صلاح الدين والصليبيون، ص: 247.

(4) المصدر نفسه، ص: 247.

(5) المصدر نفسه، ص: 248.

ثالثاً: الصليبيون يحاصرون عكا:

كان الفرنج المتجمعون في صور قد وردتهم الكثير من الإمدادات من الرجال والسلاح وأهم من ذلك وصلتهم الوعود البابوية بأن ملوك أوروبا قادمون لنجدتهم، وهذا ما جعل مقاومتهم أشد ضراوة وعنفاً لصلاح الدين حين عاد إليهم، وفيما كانت أوروبا كلها تضطرب حماسة للهجوم على المشرق واسترجاع القدس، كان صلاح الدين يحاول فتح صور، وكان روح المقاومة فيها هو الكونت «كونراد دي منتفرات» الطامع بعرش المملكة، ولهذا لم يقبل أن يسمح لجاي لوزينان ملك القدس حين أطلقه صلاح الدين من الأسر أن يدخل المدينة، فبقي ستة أشهر في نواحي طرابلس بمعسكر بعيد عنها يجمع بعض القوى حوله ليقف بوجه الزعيم الجديد مونتفرات، ثم اصطلح الاثنان على الاشتراك في قتال صلاح الدين وترك مسألة القرار بالعرش للبابوية وملوك أوروبا القادمين، وهكذا قرروا الخروج من صور التي ضاقت بهم لحصار عكا، وكان صلاح الدين قد عهد بإعادة تحصين عكا وتزويدها بالسلاح والمؤن إلى خادمه بهاء الدين قراقوش، الذي جعلها مع قلعتها وسورها تحفة معمارية منيعة، وجلب بأمر صلاح الدين ـ المقاتلة إليها، والأسطول من مصر إلى مينائها. وقد خرج الفرنج في رجب سنة (585هـ/ أغسطس سنة 1189م) وسارت مراكبهم معهم بحذائهم في البحر، ولم يؤخذ صلاح الدين على غرة بمقصدهم إلى عكا، فقد كان اليزك (الطلائع والحرس) التي تركها عند صور قد نبهت حامية عكا لتكون على استعداد، ونزل الفرنج على عكا من البر والبحر يحاصرونها بأعداد كبيرة في رجب سنة (585هـ/ أغسطس 1189م) وكان رأي صلاح الدين مقاتلة الفرنجة أثناء تحركهم نحو عكا، لأنهم إن وصلوا إليها لصقوا بأرضها، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم إلا إذا وصلوا إلى عكا بحجة أن الطريق التي سلكها الفرنجة وعرة وضيقة ولا يسهل قتالهم فيها، للإجهاز عليهم دفعة واحدة، ورغم ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة كمائن على شكل عصابات من البدو تتخطفهم أثناء سيرهم، لكنهم تابعوا المسير حتى عسكروا أمامها من البر والبحر وانقطع اتصال الجيش الإسلامي بها، وكان صلاح الدين قد كتب يستدعي عسكره المتفرق أمام أنطاكية وطرابلس وصور وعلى سواحل مصر في الإسكندرية ودمياط مع أخيه العادل، فجاءه منهم الأعداد الغفيرة ثم جاء جند الشام والجزيرة وطوّق بهذا الجند الطوق الفرنجي لعكا؛ فكان الفرنج بين حامية المدينة وبين الجند الصلاحي[1]. يقول العماد: وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب فإنّ نزالهم عند نزولهم صار أصعب، وقد نزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر. وقامت المعارك

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 285.

سجالاً مع الفرنج كل يوم، وقد كانت تحتدم في بعض الأيام احتداماً كبيراً، ومن أهم المعارك تلك التي أراد المسلمون فيها إدخال المدد من الرجال والعتاد إلى عكا، فحملوا على الفرنج حتى أزاحوهم عن الأسوار وأدخلوا بعض الأمراء وأعداد كبيرة من الجيوش القادمة من مصر إليها تشد أزرها، وبالمقابل قام الفرنجة قبل وصول بقية الأمداد من مصر بهجمة على المسلمين هزموهم في أولها حتى وصلوا إلى خيام الملك العادل وإلى خيمة صلاح الدين وقتلوا من حولها، ولكن السلطان صاح في عسكره: يا للإسلام وكرّ معهم على الفرنج الذين هُزموا وتناولتهم حامية عكا بالسهام من خلفهم فتشتتوا متراجعين، ويؤكد العماد الأصفهاني أن قتلاهم في تلك الوقعة كانوا بالألوف وقد عُرفت هذه الوقعة بالوقعة الكبرى[1].

1 ـ العلماء الذين شهدوا الوقعة:

كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يتولى مقدمة القلب في جيش صلاح الدين[2]، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد والفقيه العماد الأصفهاني مشاركين أيضاً في هذه المعركة، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً كشاهدي عيان لها[3]، دون أن يوضحا دورهما في المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في نهاية هذه المعركة وتكبد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح قدرت بعشرة آلاف قتيل[4] وقد استشهد في هذه المعركة الفقيه ظهير الدين الهكاري أخو الفقيه عيسى الهكاري، وكان والياً على بيت المقدس، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين[5]، وعندما علم الفقيه عيسى الهكاري بنبإ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً: هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء[6]، كما استشهد أيضاً في هذه المعركة الفقيه أبو علي بن رواحة، عند خيمة صلاح الدين مع جماعة، ويبدو أنه كان ممن يدافعون عن خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيين إلى الخيمة يريدون الفتك بالسلطان[7]، وكان ضمن القضاة الذين شاركوا في القتال ضد الصليبيين المحاصرين لعكا في سنة (586هـ/ 1192م)

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد، ص: 286.
(2) مفرج الكروب (2/ 296).
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 163.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن: دور الفقهاء والعلماء، ص: 163.
(5) دور الفقهاء والعلماء، ص: 164.
(6) المصدر نفسه، ص: 164.
(7) المصدر نفسه، ص: 164، النوادر السلطانية، ص: 164.

القاضي المرتضى بن قريش، فكانت له مواقف عديدة في مشاركة المسلمين محاولاتهم في فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على عكا، ولكنه استشهد في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة (586هـ/ 1190م)[1].

2 ـ الأثر المعنوي للعلماء على المقاتلين:

لم يكن دور الفقهاء أثناء حصار الصليبيين لعكا في الحملة الصليبية الثالثة يقتصر على حمل السلاح ومقاتلة الصليبيين لدفعهم عن عكا، وإنما كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند يبثون الشجاعة في نفوسهم، فالقراء يقرأون القرآن ويحذرون الجند من الفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم ويستشهدون في ذلك بآيات الله الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدوا من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد، وذلك شأن كل المعارك والفتوح التي كان صلاح الدين يخوضها، وكان للقاضي بهاء الدين ابن شداد دور عظيم في هذا الشأن، فعندما بلغت صلاح الدين الأخبار بخروج الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا بجيوشه إلى بلاد الشرق لنجدة الصليبيين بالشام، واشتد ذلك عليه ورأى حث الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة[2]، فعهد إلى القاضي بهاء الدين بن شداد بالمسير للخليفة العباسي الإمام الناصر أبو العباس أحمد، وإلى كافة الأمراء الحكام حتى يقوم الخليفة بدوره في حث وتحريض المسلمين في مختلف الأقطار والبلاد للنفير للجهاد ومساعدة المسلمين بالشام، ويقول ابن شداد: فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة. وكان مسيري في ذلك المعنى في الحادي عشر من رمضان، ويسّر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا بنفوسهم. . . ، بكل جميل، وعدت إلى خدمته رحمه الله وكان وصولي يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير، فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً[3]، ونلاحظ قدرة صلاح الدين على متابعة حركة الأعداء والحصول على المعلومات الدقيقة عنهم فأسعفهم الوقت للإعداد والتجهيز والاستنفار العام.

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 167.

(2) كتاب الروضتين (2/ 150، 151).

(3) النوادر السلطانية، ص: 98 ـ 99، دور الفقهاء، ص: 168.

ولعلنا نستنتج مما ذكره ابن شداد أهمية وخطورة المهمة التي كلف بها إلى بغداد، خاصة في تلك الظروف العصيبة والصليبيون يهددون عكا تهديداً شديداً وتكاد أن تقع في أيديهم، لذلك عرض صلاح الدين على الخليفة الحضور بشخصه لتحميس المسلمين، على أن يتنازل له عن جميع بلاده[1]، ولكن الخليفة لم يكن متحمساً للانتقال من قصوره ليعيش في ميادين القتال، فلم يرد على دعوة صلاح الدين واكتفى بأن أرسل إليه عدة أحمال من النفط وتوقيع بمال له عند بعض التجار، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرفه[2]، وكان من المفروض على الخليفة أن يقود الصراع مع الصليبيين رغبة في الجهاد بنفسه وماله في سبيل الله، ومحاولة منه لإعادة دور منصب الخلافة في واقع الأمة، مما يترتب عليه من أثر معنوي على المجاهدين، كما أنه حافز كبير لكل المسلمين للمشاركة في الحملة ضد الغزو الصليبي الكبير، ومما يسجل لصلاح الدين عظمة نفسه المترفعة عن الدنيا والمطامع حيث عرض على الخليفة التنازل عن كل البلاد التي يملكها.

3 ـ صلاح الدين يعقد مجلس شورى:

دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء المعركة لعقد مجلس الشورى، حضره أرباب المشورة والأمراء، أمثال القاضي ابن شداد، والعماد الأصفهاني الكاتب، وذلك للبحث في أمر عكا، وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم، قال فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطئ الإسلام وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا المجتمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك[3]. وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين فقد أيد الفريق الأول السلطان في استمرار القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد، بينما نادى المعارضون باتجاه العسكر إلى الخروبة[4] حتى يستجم قائلين: وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمعنا لطارق طيف غمضاً، وقد كلت الضوامر وفلت البواتر وملت العساكر، وهذا الشتاء قد أقبل، والعدو قد استقتل وهؤلاء

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 168.

(2) المصدر نفسه، ص: 168.

(3) مفرج الكروب (2/ 304)، دور الفقهاء والعلماء، ص: 165.

(4) حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا، معجم البلدان (2/ 262).

لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم، والسيل لا يغلبه غير الخضم، والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة، ونستجد لنا ولخيلنا القوة ونتأخر عن هذه المنزلة، لتحصيل هذه المصلحة المؤملة ... والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط، ومكاتبة دار الإسلام بالشام، فإن المسلمين لا شك ينجدون، ويقومون بالنصرة ولا يقعدون، فحينئذ ينتهي أمد المصابرة، ونصمم على المكابرة مع المكاثرة، ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر، وننسفهم ولو أنهم جبال[1] تغلب (أي المعارضين)، واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأيهم وانتقل العسكر إلى الخروبة في رابع شهر رمضان 585هـ/ 1189م، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أدى إلى وفاته وهو في ركاب صلاح الدين مستعداً كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله[2] وقد جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها وأحكموا حصارهم حول عكا، وحصنوا أنفسهم، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من صلاح الدين[3]، وقد نتج عن هذا ضياع عكا في النهاية بعد حصار دام عامين كاملين في سابع عشر جمادى الآخرة سنة (587هـ/ 12يوليو 1191م)[4].

4 ـ طلب العون من ملك المغرب (الموحدين): أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدي :

ولكن هذا السلطان كان غاضباً من صلاح الدين، لأن أحد مماليك ابن أخيه واسمه قراقوش التقوي هاجم برقة وطرابلس الغرب ثم تونس، وكان تقي الدين عمر مولاه يأمل في إقامة ملك له هناك، وفشل المشروع[5]، فقد أرسل صلاح الدين إلى ملك المغرب هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[6]، وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً جاء فيه: الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 165.
(2) المصدر نفسه، ص: 166.
(3) المصدر نفسه، ص: 166.
(4) المصدر نفسه، ص: 166.
(5) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الفارس، ص: 287.
(6) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (4/ 216).

النافلة والفرض، وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، ويذكر السلاوي أن أبا يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين وأنه أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً، وقد قيل: إن المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة وحال دون وصولها استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[1] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[2] على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس[3]، كما أن للموحدين تصريحات تدل على رغبتهم في الرحلة إلى المشرق وضمه لدولتهم وقد أشار الذهبي عن رغبة السلطان المنصور برغبته من قصد مصر[4]، وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره، كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب بن منصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا

أعلى المراتب من بعد النبوة قد ... حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا[5]

لقد كان الموحدون يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح السلطان الموحدي برغبته في غزو البلاد المصرية، وذكر ما فيها من المناكر والبدع وقال: نحن إن شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رَحِمَهُ اللهُ[6]، إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله ولا شك أن أمراء

---

(1) تاريخ ابن خلدون (6/ 490).

(2) تاريخ الإسلام (4/ 216)، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (2/ 518).

(3) المصدر نفسه (2/ 519).

(4) المصدر نفسه (2/ 519).

(5) دراسات في تاريخ المغرب، ص: 115.

(6) المصدر نفسه، ص: 115.

الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم، فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها[1]، لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم[2].

ولقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين شمس الدين بن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً[3]: ومن القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عُباب قطعته ... إلى بحر جُود ما لنعماه ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

إليك أمير المسلمين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تُزجى الرّواحل

قطعت إليك البَرَّ والبحر موقناً ... بأنَّ نداك الغَمْرَ بالنجح كافل

فما راعني من وجبة البَرِّ رائعٌ ... ولا هالني من زاخر البحر هائل

ومن كان غايات المعالي طِلاَبَهُ ... يهون عليه كلُّ أمر يحاول

رجوتُ بقصدِك العُلا فبلغتها ... وأدنى عطاياك العُلا والفضائل

فلا زِلت للعلياء والجود ثانياً ... تُبلِّغك الأيّامُ ما أنت آمِلُ[4]

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدي ولم يخاطبه بلقب أمير

(1) سقوط دولة الموحدين، ص: 198.

(2) المصدر نفسه، ص: 198.

(3) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (2/ 520).

(4) كتاب الروضتين (4/ 206).

المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ، وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة، وهذا ما بيّنه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: . . . بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحلُّ طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته[1].

ولو التقى صلاح الدين مع السلطان الموحدي في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها، نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة، ولكن الله غالب على أمره ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين صلاح الدين وملك الموحدين لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين[2]. إن صلاح الدين سعى للاستفادة من الموحدين ضد الحملة الصليبية الثالثة وهذا يدل على مرونته السياسية الكبيرة، فقد أدى ما عليه، أما سلطان الموحدين فكان يمكنه أن يتجاوز الخلافات المنهجية ويساهم مع صلاح الدين في الدفاع عن الأمة الإسلامية إلا أنه فشل في هذا الاختبار.

5 ـ دور القاضي الفاضل أثناء حصار الصليبيين لعكا:

كان للقاضي الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا، وكان متواجداً بمصر آنذاك يدبر شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من خلال موقعه هذا يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً ومسلياً وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً[3]. وكانت مكاتباته تتواصل إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لعكا بصفة مستمرة،

---

(1) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (2/ 521).

(2) المصدر نفسه (2/ 521).

(3) كتاب الروضتين (2/ 165)، دور الفقهاء والعلماء، ص: 169.

مليئة بالعبارات الصادقة بكل مشاعر الحب والإخلاص للتخفيف عنه من صعوبة هذا الحصار ومشاركته أحزانه وآماله، فكان يشجعه فيها ويحثه على الصبر ويقوي من عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله وكرمه، ويدعوه للتمسك بالأمل في نصر الله، وكانت هذه العلاقة مبنية على الأخوة في الله ووحدة الهدف، وليست قائمة على تابع ومتبوع وسيد وخادم، فجاء في إحدى هذه الرسائل: ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه بولده وبخاصته وبعامة جنده[1]. وكان من ضمن الرسائل الأخرى التي كان يرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين تلك التي أوضح فيها اعتذاره عن تأخر وصول الأسطول المصري إلى الشام بالإمدادات التي طلبها صلاح الدين من مصر، موضحاً أن ذلك مرجعه اشتداد الرياح المعاكسة وليس تقصيراً منه[2]. ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة تعتبر تأكيداً للدور الذي كان يقوم به في مصر هذا القاضي الأجل وغيره من الفقهاء والعلماء لمساعدة صلاح الدين، وتأمين مستلزمات وتموين الجند المحارب معه بعكا[3]، وجدير بالذكر أن القاضي كان يحاول بكل الطرق والوسائل الممكنة أن يساعد صلاح الدين والمسلمين أثناء هذا الحصار، فأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد كتاباً يستحثه فيه بأقوى العبارات وأوقعها على النفس والقلب، مهيباً به أن يقف بجانب صلاح الدين والمسلمين في هذا الموقف الصعب، نصرة لدين الله ولرسوله ﷺ وإعلاء لشأن المسلمين، ولعل أقوى العبارات التي أوردها في هذا الكتاب قوله مناشداً الخليفة: فيا عصبة محمد ﷺ، اخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفِّه الحق فينا، فأنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبَّل ترابها خاشعاً وناجاها بالقول صادعاً، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يُبكي العُيون وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب[4]، وعلى ذلك تجاوز القاضي الفاضل بالسلطان صلاح الدين تلك المحنة القاسية، التي مرت بها عكا، وكان وحده بمثابة جيش ثان يحارب جنباً

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 169.

(2) المصدر نفسه، ص: 169.

(3) المصدر نفسه، ص: 169.

(4) المصدر نفسه، ص: 170.

إلى جنب مع صلاح الدين[1]، ومما جاء في رسائل القاضي الفاضل لصلاح الدين من النصح والإرشاد قوله: .. وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نُصر بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أرباب نيّات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخَلفُ لذلك السلف ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، واشتدي أزمة تنفرجي والغَمرَات تذهب ثم لا تجي، والله تعالى يُسمع الأُذن ما يُسرُّ القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب[2] وجاء في كتاب آخر له: إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقناه لعجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدِرُ عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُم إلا نفسه ولا يَرجُ إلا ربَّه ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النَّصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها والنَّصر به، واللُّطف منه، والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق[3]، ومن كتاب آخر: وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً إنما يشكو منه ضجراً والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حدٌ والأقدارُ الإلهية لها قصد، وكلُّ ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حَدِّها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] يا مولانا، أليس الله تعالى اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر، ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره، وحفظ قبلة موحّديه إلا أنت؟ هذا وفي الأرض من هو أحق للنُّبوَّة قَرَابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك، وحَبَّبَ الدنيا إليهم، وبَغَّضها إليك وصعَّبها عليهم وَهوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وَجرَّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبَّطهم وسيّرك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46]. نعم، وأخرى أهمُّ من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب

---

(1) دور العلماء والفقهاء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 170.

(2) كتاب الروضتين (4/ 179).

(3) المصدر نفسه (4/ 181).

الشمس ومزخر البحر، ما تأخّر منهم متأخّر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم مهطعين[1] إلى الدّاعي، ساعين، وهم من كل حَدَب يَنسلُون: ومن كل بَرّ وبحر يقبلون ـ أبقاك الله ـ كما قيل:

ولست بَمـلْكِ هازم لنظيره ... ولكنك الإسلامُ للشِّرك هازم

وهذا وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوة ولا مجاهد معك بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، فدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة تكلفهم النّافلة، وتعرض عليهم الجنّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم[2]، وقال في كتاب آخر: . . ولنا ذنوب قد سَدّت طريق دُعائنا فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَرٌ لا سلاح لنا في دفعِهِ إلا أن نقول: لا حول ولا قُوّة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]، وقد جمع العدوُ لنا وقيل لنا: اخشوه، فقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، متنجّزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دلنا الله في الشدائد إلا على الدُّعاء له وعلى طروق باب كَرمه وعلى التضرع إليه، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43]. ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرّحمة، ومن اليأس من الفَرَج فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرّشَد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قصدُ من تمضي أقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى، إن علم الله من جند مولانا أنّهم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة أو قصّروا في نُصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله[3] والمملوك يذكّرُ المولى بصبيره، وبرحب صدره وبفضل خلُقه وبتقواه لربه، وبمداراة مِزَاجه وببرء القلوب الإسلامية ببرء جسمه ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: 35] الآية إلى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35] والمولى أولى بهذا البيت:

لا بَطِرٌ إن تتابعت نِعَمٌ ... وصابرٌ في البلاءِ مُحْتَسِبٌ

قيل للمهلب: أيسرُّك ظفرٌ ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز، ولا بُدّ أن تنفذ

(1) كتاب الروضتين (4/ 182).

(2) المصدر نفسه (4/ 182).

(3) المصدر نفسه (4/ 186).

مشيئة الله في خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه فلا يتسخَّط مولانا بشيء من قَدره؛ فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خيرٌ من أن يجري وهو ساخط موزور، فيعطي نار الشِّدة أعاذه الله منها ـ ولا يجُد راحة الثَّواب منها، وفُر الله حظه منه من شكا بَثَّه وحزنه إلى الله شكا إلى مُشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاءً خفيًا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفيَّة عَنّا ولا يقطع الظهور التي لا تشتد إلا به ولا يضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرّد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا . . . فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدّهر إلا بربِّ الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر:

قد قلت للرجل المُقَسَّم أمره فوِّض إليه تنم قرير العين[1]

كل مقترح يُجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم أو بلد يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم. يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسَهِرْت فيها والعيون هاجعة وهذه الأيام التي يُنادى فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشَّيب في الرؤوس، وهذه الغمراتُ التي تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها، هي نعمة الله عليك وغراسُك في الجنة، ومجملات محضرك، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: 30]، وهي مُجَوِّزاتك الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان[2]، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بليتُ أيهما ركبتُ، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغُبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحقِّ إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى في سير الأوّلين وفي أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيه ﷺ أن يهتدي بهُداهم، وأن يسلك سبيلهم ويقتدي بأولي العزم منهم، وَما تغلو الجنّة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر وإنما يقظاتُ العينِ كالحُلْم، أهم الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يُضعفُ به جسْمَه ويُغيّر مزاجه، والأمة بنيان وهو ـ أبقاه الله ـ قاعدته والله يثبِّتُ تلك القاعدة في نصرة الحق. ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس فيه حيلة ـ والعياذ بالله ـ فلا تجزع، وربَّ واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهمّ به

(1) كتاب الروضتين (4/ 187).
(2) المصدر نفسه (4/ 187) .

بالتدبير مع مقدور الله لانصرف همُّه وكُفي خطبه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]. هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلتِ الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلاً على قوة إلا على قوّته، فهنالك الفرج ميعاده واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل: «متى نصر الله» وليصبر فإنما خلق للصَّبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافي، وليرضَ عن الله سبحانه، فإنّ الرَّضِيَّ عند الله هو المسلم الرّاضي فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عمّا لاح له من أمارات النَّصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها، فكتب إليه الفاضل: فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه مُحيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيتَ، فيكفي مستغفراً ليسانُ السَّيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سَعَتْ في مِنْهاجك، وطوبى لوجه تَلَثَّم عَجَاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتِلَت، وأن الخواطر بُشكر الله فيك عن شُكرها لك قد شغِلَتْ[1].

وهذا هو القاضي الفاضل العالم الرباني، صاحب البيان البديع، والفهم العميق لسنن الله في تحقيق النصر ولا نستغرب بعد هذه المكاتبات من قول صلاح الدين: ما فتحت بلداً بسيفي، ولكن بقلم القاضي الفاضل. إن وجود نوعية القاضي الفاضل بجوار القيادات السياسية والعسكرية لها أثره المعنوي فيها يفتح الله أبواب الأمل للقيادات وتحرص على الثواب فيما عند الله وتكون سبباً في صبرها وثباتها.

6 ـ جهود صلاح الدين في فك الحصار عن عكا:

استنفر صلاح الدين المسلمين وأمراءهم للجهاد في سبيل الله، ووقف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجموع المسلمين يكرون على الأعداء، والحرب بينه وبين الصليبيين سجال، كلما دمّر لهم كتيبة استبدلوا بها كتائب، وأوروبا هناك تقف وراء جيوشها تدعمها وتمدها بالمال والسفن والرجال في كل حين، والحقد على المسلمين يملأ قلبها، ولما اشتد الحصار على عكا أصبح همّ صلاح الدين الكبير أن يمدّ المحاصرين بالمال والنفط والرجال؛ لأن إمدادات الصليبيين تصل

---

(1) كتاب الروضتين (4/ 190).

إليهم بسهولة وإمدادات المسلمين المحاصرين لا تصل إلا بصعوبة شديدة فلم تبق حيلة أو خدعة حربية يفكر بها القادة، إلا وقد استخدمها صلاح الدين الأيوبي[1] ومن هذه الحيل:

أ ـ اختراق الحصار البحري على عكا: كان صلاح الدين رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسة وعمّرها، وأودعها أربع مئة غِرارة من القمح ووضع فيها من الجبُن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسة ببيروت جماعة من المسلمين، وتزيُّوا بزي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تُرى من بُعد، وعَلّقوا الصُّلبان، وجاؤوا قاصدي البلد من البُعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم، واعترضوهم من الحَرّاقات والشّواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا: أوَ لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لا لم نأخذ البلد بعد. فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدّت البطسة الإسلامية في السّير، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرجاً عظيماً، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[2].

وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قَرَاقُوش وهو والي البلد، والمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفي البلد إلى ليلة النّصف من شعبان لا غير، فأسَرّها يوسف في نفسه ولم يُبدْها لخاص ولا عام، خشية الشّيوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولجّجت في البحر تتوخّى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من السّاحل والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثّكلى يشاهد القتال، ويدعو ربّه بنصره وقد علم من شِدّة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته، ولم يزل القتال

(1) كتاب الروضتين (4/ 154).

(2) المصدر نفسه (4/ 154).

يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتد، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد وتلقّاهم أهل عكا تلقي الأمطار عن جَدْب[1].

ب ـ عيسى العوام يخترق الحصار: ومن نوادر القتال على عكّا، أن عوّاماً مسلماً كان يُقال له: عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُب والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّةٍ من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذاتَ ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتبٌ للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمرٌ أهلكه، وأبطأ خبره ـ عن المسلمين ـ وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرف المسلمون بوصوله فأبطأ الطائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا النَّاس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه، فوجدوه عيسى العوّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومُشمَّع الكُتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رُئي من أدّى الأمانة في حال حياته وقدّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل[2].

قال العماد: فَعُدِمَ ـ يعني عيسى ـ ولم يُسمع له خبر، ولم يظهر له أثر، فظنَّت به الظُّنون، وما تيقنت المنون، وكانت له لا شك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجملة محتملة فوجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرّأه الله مما قالوا، فذهب حق اليقين من الظُّنون بباطلها[3].

ج ـ استهداف المسلمين آلات الحصار وأدوات الدفاع: اشتد طمع الصليبيين على عكا ونصبوا المنجنيقات من كل جانب، وتناوبوا على رمي البلد بها ليلاً ونهاراً، ولما رأى من بداخل عكا من المسلمين ما تلحقه تلك المنجنيقات بهم من الضرر، حركتهم النخوة الإسلامية، وعزموا على فتح أبواب المدينة ومهاجمة الصليبيين خارجها ففعلوا ذلك وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب وهاجم المسلمون الصليبيين في خيامهم، فاشتغلوا بحماية خيامهم وتركوا المنجنيقات، فصوبت إليها شهب الزراقين واشتعلت فيها النيران وأحرقت عن آخرها[4].

د ـ محاصرة الصليبيين لبرج الذبان: وفي شعبان من نفس السنة (586هـ) حاصر

---

(1) كتاب الروضتين (4/ 154، 155).

(2) كتاب الروضتين (4/ 160).

(3) المصدر نفسه (4/ 161).

(4) النوادر السلطانية، ص: 134.

الصليبيون برج الذبان الذي وصفه ابن شداد بأنه برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكا لحراسة الميناء لأن المركب متى عبره أمن غائلة العدو، كما أن الاستيلاء عليها يجعل الميناء تحت سيطرتهم فيمنعون السفن المحملة بالميرة من الوصول إلى البلد، وأحضر الصليبيون سفناً جعلوا على صواريها برجاً عالياً ملأوه بالحطب والنفط، على أن يسيروها وقتل من عليه من الجنود، وعبوا سفينة ثانية ملأوها حطباً ووقوداً على أن يدفعوها إلى أن تدخل بين سفن المسلمين، ثم يشعلوا النيران منها إلى سفن المسلمين فتحرقها مع ما فيها من المير، كما شحنوا سفينة ثالثة بالجنود، وجعلوا عليها حاجزاً على هيئة قبو يمنع عنهم سهام المسلمين، فإذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا ذلك القبو، وبالرغم من أن تجاه الرياح كان بادئ الأمر يسير على ما يريدون، فإن قدرة الله شاءت بعد أن أشعلوا النار في البرج الذي أقاموه على صواري السفن، وكذلك السفينة التي كانوا يزمعون إرسالها بين سفن المسلمين، أن انعكس اتجاه الريح عليهم فاحترقت سفنهم الأولى التي عليها البرج وكذلك الثانية، ثم امتدت النيران التي بها الجنود وعليهم القبو، فانزعج من بداخلها من الصليبيين، ولم يستطيعوا الخروج من القبو فهلكوا جميعاً[1]، وبالرغم من تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين عند محاولتهم الاستيلاء على برج الذبان، فإنهم لم ينقطع أملهم في أخذ ذلك البرج، حيث عادوا مرة أخرى، ووضعوا آلة عظيمة على هيئة دبابة[2] لها رأس عظيم برقبة شديدة من الحديد تسمى كبشاً ينطح بها السور فتهدمه بتكرار نطحها، كما استخدموا آلة أخرى هي عبارة عن قبو فيه عدد من الجنود ورأسه محدد على شكل السكة التي تستخدم في الحرث تسمى سنوراً، فرأس الكبش مدور يهدم بثقله ورأس السنور يهدم بحدته، كما استخدموا أيضاً الستائر والسلاليم الكبار الهائلة، وأعدوا في البحر سفينة عظيمة أقاموا بها برجاً إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه فتمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه من برج الذبان فيأخذوه، ولما اكتملت استعداداتهم شرعوا في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وهم في خلق لا يحصى وأهملهم المسلمون بادئ الأمر حتى نشبت مخاليب أطماعهم في عكا، وسحبوا آلاتهم تلك وقربوها من الأسوار، وعندما أصبحوا على تلك الحالة، صاح المسلمون عليهم صيحة واحدة، وفتحوا الأبواب، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها كما يقول المؤرخ ابن شداد وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوه في الخنادق، ولما رأوا ما نزل بالصليبيين من الخذلان والهزيمة وهجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من إحراقه هرب المقاتلة منه، ثم

(1) النوادر السلطانية، ص: 138 ، 139، صلاح الدين والصليبيون، ص: 260.

(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 260.

سرت النار كذلك في السنور وأحرقته ثم علق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديدية وسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد وكان هذا الكبش يتألف من عدد من الآلات وألقى عليه الماء حتى برد حديده بعد أيام وكان هذا في رمضان من سنة (586هـ/ أكتوبر 1190م)[1].

هـ ـ سيطرة المسلمين على الموقف: ومما مضى يظهر لنا مدى سيطرة المسلمين على الموقف وكذلك مدى ما وصل إليه الصليبيون من الهلع والخوف حيث لم يكتف المسلمون بإلحاق الضرر بآلات الصليبيين، بل عمدوا إلى الاستفادة منها في جهادهم لتصفيتهم، ولما كان يوم الأربعاء منتصف شهر رمضان خرج المسلمون على ظهور سفنهم وباغتوا تلك السفينة الصليبية التي كانت قد أعدت لأخذ برج الذبان، فضربوها بقوارير النفط وباءت محاولة الصليبيين لأخذ البرج بالفشل الذريع[2].

و ـ شجاعة فائقة: وفي جمادى الأولى من سنة (587 هـ/يونيو 1191م) هاجم الصليبيون سفينة إسلامية كانت قد سيرت من بيروت بعد شحنها بالآلات والأسلحة والمير والرجال، وكان مقدمهم رجلاً شجاعاً، فما إن رأى أمارات الغلبة عليهم حتى أشار على أصحابه بإغراق سفينتهم بأيديهم لئلا يتمكن العدو من الظفر بها، فوقعوا في جوانبها بالمعاول حتى دخل الماء إليها فغرقت وغرق جميع ما فيها من الآلات والمير، ولم يظفر العدو بشيء منها[3].

ز ـ هجوم إسلامي على دبابة عظيمة مكونة من أربع طبقات: عزم المسلمون إذ كانوا داخل عكا على مهاجمة الصليبيين وتكبيدهم خسائر أكثر لكي يثبتوا لهم أن غرق السفينة لم يؤثر عليهم، وحدث في ذلك الوقت أن اصطنع العدو دبابة عظيمة هائلة مكونة من أربع طبقات، الطبقة الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكان ارتفاعها أكثر من ارتفاع السور، وشحنوها بالمقاتلة وقربوها من السور لمهاجمة المسلمين في الداخل، إلا أن المسلمين بادروا بضربها بالنفط، واستمر ضربهم ليلاً ونهاراً حتى تمكنوا من إشعال النار فيها وإحراقها[4]، وعلى الرغم من تلك الخسائر التي ألحقها المسلمون بالصليبيين، فإن الغرب الأوروبي لم تنقطع إمداداته عن الصليبيين ببلاد الشام، الأمر الذي مكّن

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 261، النوادر السلطانية، ص: 140.

(2) النوادر السلطانية، ص: 143، صلاح الدين والصليبيون، ص: 261

(3) المصدر نفسه، ص: 161، المصدر نفسه، ص: 261.

(4) النوادر السلطانية، ص: 162، صلاح الدين والصليبيون، ص: 262.

الصليبيين من مواصلة حصارهم لعكا، ففي الوقت الذي كان صلاح الدين قد فيه حقق انتصارات عظيمة على الصليبيين سواء في المعارك أو في تحطيم آلاتهم وأدواتهم، وصل إلى المشرق الإسلامي أعظم ملوك أوروبا في ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشادر قلب الأسد ملك إنجلترا، اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك، ولا شك أنه كان لوصولهما أثره البالغ في رفع الروح المعنوية للصليبيين[1].

ح ـ إخراج عسكر عكا، وإدخال البدل عنهم إليها: ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوُّ من أن يضرب مصافٌ وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذِن السلطان للعساكر في العود إلى بلادها ليأخذوا نصيباً من الرّاحة.... ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحَلْقة الخاصة[2]، واشتغل السلطان بإدخال البَدَل إلى عكا، وحمل الميرَ والذخائر، وإخراج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهَم من طول المقام بها، ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وكان مُقَدّم البَدَل الدّاخل من الأمراء سيف الدِّين المشطوب دخل في سادس عشر المحرّم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدّم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خَلْق من الأمراء وأعيان من الخلق وتقدم إلى كلّ من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة[3].

ط ـ بلاء عظيم على المسلمين: انتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على شاطئ النّهر، وهو الموضع الذي تُحمَلُ منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم أخذ يحثُّ الناس على الدخُول، ويحرس المير والذُّخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرضها، وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقّي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خلْقٍ عظيم وزحفوا على البلد من جانب البَرّ زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصَعِدوا في سلّم واحد، فاندق بهم السُّلّم كما شاء الله تعالى، وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 262.

(2) النوادر السلطانية، ص: 231.

(3) كتاب الروضتين (4/232).

وعادوا خائبين خاسرين[1]، وأما البطس، فإن البحر هاج هيجاناً عظيماً، وضرب بعضها ببعض على الصَّخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق عظيم، قيل كان عددهم ستين نفراً وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفتِ البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وحَرِجَ[2] السلطان لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد[3].

ي ـ إسلام بعض الفرنج: استأمن من الإفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلى معسكر السلطان صلاح الدين وقالوا: نحن نخوض البحر في براكسن[4] ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم وأعطاهم بركوساً ـ وهو المركب الصغير ـ فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان، فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه[5]، فلما أُكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المُنعمة، وأسلم منهم شطرهم وأحضروا مائدة فضة عظيمة، وعليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً، فما أعارها طرفه احتقاراً[6].

ك ـ استشهاد جمال الدين محمد بن أركز: والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأحرقت للكفر شواني برجالها وكان عند العود تأخر شيني، مقدّمه الأمير جمال الدين محمد بن أركز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملّاحوه إلى الماء وسلّموه إلى البلاد فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدّمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء إليه المقدم الكبير، وظنّ أنه قد حصل له الأسير فعاقره وعانقه وقوّى عليه وما فارقه، ووقعا في البحر وغرقا وترافقا في الحمام واتّفقا، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا[7].

ل ـ وصول القاضي الفاضل إلى معسكر السلطان صلاح الدين: وصل

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 233).

(2) المصدر نفسه (2/ 233).

(3) حَرِجَ: ضاق صدره.

(4) براكسن : مراكب صغيرة.

(5) كتاب الروضتين (4/ 236).

(6) المصدر نفسه (4/ 236).

(7) المصدر نفسه (4/ 236).

القاضي الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجة، وكان السلطان متشوقاً إلى قدومه وطالت مُدّة البين لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبّة وقد جمع للملك العزيز بمقامه هيبة ومحبّة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرُّد بالقضايا والأحكام، وكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره والنّجابون متردّدون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمّات، فوصل إلى القدس واعتاق بتوالي الأمطار . . . ورجع الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره[1].

م ـ وفاة قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالموصل: في هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد أثنى العماد الكاتب عليه في «الخريدة» ثناءً كبيراً وأنشد له أشعاراً حسنة منها في التوحيد:

قامت بإثبات الصّفات أدلّة ... قصمت ظهور أئمة التعطيل

وطلائع التنزيه لما أقبلت ... هزمت ذوي التشبيه والتمثيل

فالحق ما صِرنا إليه جميعنا ... بأدلة الأخبار والتنزيل

من لم يكن بالشرع مقتدياً فقد ... ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة ﷺ:

لائمي في هوى الصحابة ... ارجع إلى سقر

لا بلغتَ المُنى ولا ... نِلتَ من رفضك الوطر

كيف تنهى عن حب قوم ... هم السمع والبصر

وهم سادة الورى ... وهم صفوة البشر

فأبو بكر المقدم ... من بعده عمر

ثم عثمان بعده ... وعليٌ على الأثر

أيها الرافضي حسبك ... فالحق قد ظهر[2]

(1) كتاب الروضتين (4/ 238).

(2) المصدر نفسه (4/ 239).

7 ـ الملكان الفرنسي والإنكليزي في عكا:

وصل إلى المشرق الإسلامي أعظم ملوك أوروبا في ذلك الحين، وهما: الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك، ولا شك أنه كان لوصولهما أثره البالغ في رفع الروح المعنوية للصليبيين حيث أبحر ملك فرنسا من مدينة جنوا وأبحر ملك إنجلترا من مرسيلا وتقابلا في جزيرة صقلية، وهناك قضيا ومعهما جيوشهما نحو ستة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء في الوقت الذي كانت فلول الصليبيون ببلاد الشام، المتجمعة أمام عكا تنتظر حضورهما في قلق بالغ[1]، ثم أبحر فيليب أغسطس من مسينا في (2 ربيع الأول 587هـ/ 31 آذار 1191م) ووصل إلى صور حيث رحُب به قريبه كونراد مونتفيرات ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين وذلك في (23 ربيع الأول 587هـ/ 31 آذار 1191م)[2] وفي المقابل ازداد موقف المسلمين في داخل عكا وخارجها صعوبة، فضجر العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل[3] ويبدو أن فيليب أغسطس لم يشأ أن ينتظر وصول ريتشارد قلب الأسد، وإنما بدأ على الفور بتشديد الحصار على عكا، بعد أن نظّم صفوف الصليبيين وجدّد الآن الحصار وشيّد لهم الأبراج، وراح هؤلاء يقذفون المدينة بشكل متواصل، كما عملوا على ردم الخندق المحيط بها، فقد تأجلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل ريتشارد قلب الأسد وأتباعه[4]، وكان ريتشارد قلب الأسد قد عرّج على جزيرة قبرص، بعد مغادرته «مسينا» وكانت تحت حكم إسحاق دوكاس كومنين الذي اشتهر بكراهيته للاتين، فوصل إليها في 10 ربيع الآخر عام (587هـ/ 8 أيار عام 1191م) واستولى عليها وأسر إسحٰق ثم غادرها إلى بلاد الشام فوصلت سفنه إلى الشاطئ في (10 جمادى الأولى/ 5 حزيران) ونزل هو إلى البر قرب صور، فرفضت حامية المدينة السماح له بالدخول، وذلك بناء على تعليمات كونراد دي مونتفيرات عندئذ واصل بحراً إلى عكا على رأس خمس وعشرين سفينة فوصل إليها في (13 جمادى الأولى/ 8حزيران) وكان وصوله باعثاً للأمل في نفوس الصليبيين الذين يحاصرون عكا على الرغم من فتور العلاقات بينه وبين الملك الفرنسي[5]، وفي المقابل ازداد موقف الحامية

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 262.

(2) النوادر السلطانية، ص: 237؛ تاريخ الأيوبيين، ص: 183.

(3) المصدر نفسه، ص: 230؛ المصدر نفسه، ص: 183.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 183.

(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 184.

الإسلامية في المدينة سوءاً أمام ضغط تلك الجموع الهائلة من الصليبيين التي شدّدت من حصارها على المدينة وكثّفت هجماتها عليها[1].

رابعاً: سقوط عكا:

كان صلاح الدين يراقب تطورات الموقف من مراكزه عند شفعمر ثم عند الخروبة ثم العياضية، وتلقى في نهاية (جمادى الأولى/حزيران) إمدادات جديدة من الجزيرة، وعندما نفّذ عدة هجمات مضادة على الصليبيين، لجأ هؤلاء إلى مهاجمة عسكره ولكنهم فشلوا في تحقيق أي هدف، بعد أن ثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً وصبروا صبر الكرام[2]، وكان الهدف من القتال الوقوف على قوة الخصم، فقد أراد صلاح الدين أن يثبت لريتشارد قلب الأسد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه ملاقاته، وأما ريتشارد قلب الأسد، فإنه أراد من جانبه أن يتأكد مما إذا كان بوسعه أن يفرض إرادته على صلاح الدين بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات بعد أن يُلحق بالمسلمين هزيمة تجبرهم على الموافقة على شروطه، مدركاً في الوقت نفسه أن الظروف العسكرية مهيأة لتحقيق ذلك[3]. لم تفلح الهجمات المتعددة التي شنّها المسلمون ضد الصليبيين المحاصرين لعكا لكن صمودهم في وجه الهجمات المضادة، دفعت ريتشارد قلب الأسد إلى طلب المفاوضات وأعلن عن رغبته في الاجتماع بالسلطان، وكان يأمل بالتوصل إلى تسوية سلمية غير أن صلاح الدين أجاب بحذر: «ليس من الحكمة أن يجتمع ملكان متعاديان حتى تنعقد بينهما هدنة»، ومع ذلك فإنه أعرب عن استعداده لأن يسمح لأخيه العادل أن يجتمع بالملك الإنكليزي وتقرر وقف القتال مدة ثلاثة أيام، وتم الاتفاق أن يُعقد الاجتماع في السهل الذي يفصل المعسكرين الإسلامي والصليبي غير أنه حدث أن خرّ ملكا إنكلترا وفرنسا مريضين فجأة، واشتدت العلة على ريتشارد قلب الأسد، لكن ذلك لم يؤثر على معنويات الصليبيين الذين ازدادوا إصراراً وعتواً[4].

1 ـ مفاوضات على تسليم عكا :

والواقع أن الهجمات التي شنّها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تفلح، وكانت

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 184.

(2) النوادر السلطانية، ص: 241 ، 242، تاريخ الأيوبيين، ص: 184.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 184.

(4) المصدر نفسه، ص: 185.

عكا قد ضعفت ضعفاً شديداً واشتد الخناق بالمسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً من سورها وتخلخل جزءاً آخر، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة أعمالهم وفي (7 جمادى الآخرة/2 تموز) أرسلت الحامية رسالة جاء فيها: إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلِّم البلد ونشتري مجرد رقابنا[1]. كان هذا الخبر من أعظم ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزناً كبيراً لسلاح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، وبهاء الدين قراقوش[2]. ثم إن الحامية اتخذت فعلاً قراراً بوقف القتال، وذهب سيف الدين علي المشطوب بنفسه إلى المعسكر الصليبي لمقابلة الملك الفرنسي والاتفاق معه على شروط التسليم. وذكر أن المسلمين كانوا إذا أخذوا بلداً منهم، وطلب من بذلك البلد الأمان على أنفسهم أعطوهم وعرض عليه تسليم البلد له بشرط أن يعطيهم الأمان على أنفسهم. إلا أن ملك فرنسا الذي كان بعيداً كل البعد عن صفات الشهامة والمروءة التي كان صلاح الدين يتحلى بها، امتنع عن إجابة طلبه ورد عليه رداً دل على وحشيته الأمر الذي أثار نخوة سيف الدين المشطوب، فأغلظ له في القول، وكان مما قال له: إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى نقتل خمسين نفساً من كباركم. ثم انصرف عنه المشطوب ودخل عكا يستشير الناس للجهاد وبذل أرواحهم في سبيل الله[3].

وعلى الرغم من ذلك التعنت من ملك فرنسا، فإن الصليبيين كانوا بلا شك يحسبون للقوة الإسلامية حساباً كبيراً، بدليل ما ذكره ابن الأثير من أن الصليبيين لم يكتفوا بالتفاوض مع قادة الحامية الإسلامية بعكا، بل إنهم اتجهوا كذلك إلى مفاوضة صلاح الدين نفسه، حيث أرسلوا إليه في أمر التسليم، فأجابهم إليه على أن يطلقوا من بعكا من المسلمين، ويطلق هو من أسراهم بعدد من في البلد[4].

2 ـ صلاح الدين يحث المسلمين بعكا على الصبر:

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين لما رأى ذلك التعنت من الصليبيين أرسل إلى من

(1) النوادر السلطانية، ص: 185، تاريخ الأيوبيين، ص: 185.

(2) المصدر نفسه، ص: 252، المصدر نفسه، ص: 185.

(3) النوادر السلطانية، ص: 168، صلاح الدين والصليبيون، ص: 265.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: صلاح الدين والصليبيون، ص: 266.

بعكا من المسلمين يحثهم على الصبر ويأمرهم بأن يخرجوا من المدينة يداً واحدة بعد أن يحملوا على العدو حملة رجل واحد، ووعدهم بأن يتقدم هو إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الصليبيين حتى يتمكنوا من الخروج إليه، إلّا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب سيطرة الصليبيين على البلد[1]، وهنا أدرك من بداخل عكا من المسلمين أنه لم يعد أمامهم سوى الجهاد والاستبسال في قتال الأعداء، فكتبوا إلى صلاح الدين يذكرون لهم أنهم قد تبايعوا على الموت، وأنهم قد عزموا على الاستمرار في القتال وأنهم لن يسلموا ما داموا أحياء[2]، وعلى الرغم من تلك التضحية الكبرى من أهل عكا وحبهم للاستشهاد في سبيل الله فإنه يبدو أن صلاح الدين وأمراءه الذين كانوا بالداخل أمثال الأمير سيف الدين المشطوب وغيره، كانوا حريصين كل الحرص على سلامة أرواح المسلمين، يدلنا على ذلك ما ذكر من أن سيف الدين المشطوب عندما رأى الموقف، خرج إلى الصليبيين للمرة الثانية، وقرر معهم تسليم البلد مقابل خروج من به من المسلمين بأموالهم وأنفسهم، وأن يدفع لهم فدية قدرها مائتا ألف دينار وخمسمائة أسير، فضلاً عن إعادة صليب الصلبوت ودفع مبلغ من المال إلى كونراد مونتفيرات صاحب صور، وهنا يذكر له تلك الشروط، أنكر ذلك إنكاراً شديداً[3].

3 ـ غدر الصليبيين ونقضهم للعهود:

قبل الصليبيين تلك الاتفاقية، وحلفوا لسيف الدين المشطوب فسلم لهم البلد، ودخلوه سلماً، ولما دخل الصليبيون عكا نقضوا عهودهم كعادتهم وغدروا بمن فيه من المسلمين، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم وذلك في (17 جمادى الآخرة 587هـ/ يوليه 1191م) متظاهرين بأنهم فعلوا ذلك حتى يصل إليهم ما اتفقوا عليه من الفدية والأسرى. وهنا شرع صلاح الدين في جمع الأموال، واجتمع عنده مبلغ كبير من المال، واستشار أصحابه في تسليمه للصليبيين فأشاروا عليه بأن يعود مرة أخرى فيستخلف الصليبيين على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل تدين ووفاء إلا أن الداوية امتنعوا عن ذلك، وقالوا: «لا نخلف ولا نضمن، لأننا نخاف غدر من عندنا؟»[4]. عند ذلك علم صلاح الدين غدرهم فلم يجبهم إلى ذلك[5]، كانت ألوية الصليبيين ترفرف في ذلك الوقت فوق أبراج عكا واستطاع

---

(1) مفرج الكروب (2/ 358) صلاح الدين والصليبيون، ص: 266.

(2) النوادر السلطانية، ص: 196، صلاح الدين والصليبيون، ص: 266.

(3) النوادر السلطانية، ص: 170، 171، صلاح الدين والصليبيون، ص: 267.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون، ص: 267.

(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 267.

الصليبيون دخول عكا بعد أن حاصروها قرابة عامين، الأمر الذي أثار موجة من الأسى والحزن عبّر عنها المؤرخون المسلمون، ويبدو أن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً رفضوا عندها أدرك عزمهم على الغدر ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى[1]، ولما رأى ريتشارد قلب الأسد توقف صلاح الدين عن بذل المال والأسرى وصليب الصلبوت لهم لم يعاود الاتصال بصلاح الدين، بل دفعه تهوره وحمقه إلى أن ساق أسرى المسلمين الذي بعكا وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم إلى تلك العياضية وأوثقهم بالحبال ثم حمل الصليبيون عليهم حملة واحدة وقتلوهم عن آخرهم وذلك في (27 رجب 587هـ/ 20 أغسطس 1191م)[2] ولا شك أن ذلك التصرف الوحشي الذي اتخذه ريتشادر مع أسرى المسلمين في عكا لم تكن له نتيجة سوى إثارة النخوة الإسلامية في صفوف المسلمين، الذين استشعروا ذلك الخطر الصليبي، فهبوا من كافة الأقطار الإسلامية للجهاد ضد الصليبيين، وبالفعل فإن الجيوش الإسلامية قد منعت الجيوش الصليبية من تحقيق أي انتصار عقب دخولهم عكا، وذلك لتفاني الجيوش الإسلامية في ميادين القتال لشعورها بزيادة الخطر الصليبي، فضلاً عما أعقب دخول الصليبيين عكا من خلاف وشقاق بين قادتهم أدى إلى اختلاف كلمتهم وعجزهم عن تحقيق انتصار آخر غير دخولهم عكا، ذلك الانتصار الذي لا يقاس في حد ذاته بما لحق بالصليبيين من خسائر[3]، وشتان بين السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد مع أسرى المسلمين بعكا، وبين ذلك السلوك الإنساني الذي كان صلاح الدين قد اتبعه مع الصليبيين في مواقف كثيرة، منها ما فعله بأسراهم عقب انتصاره في حطين ثم عقب استيلائه على بيت المقدس، إذ حرص دائماً على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين[4]، ومن المواقف الإنسانية الإسلامية الصلاحية التي ظهرت من صلاح الدين وهو في حصار عكا:

4 ـ المرأة النصرانية التي تبحث عن ابنها الرضيع:

كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم حتى الرِّجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فقدته أُمُه باتت مستغيثة بالويل

---

(1) صلاح الدين والصليبيون، ص: 267.

(2) المصدر نفسه، ص: 268.

(3) المصدر نفسه، ص: 268.

(4) المصدر نفسه، ص: 268.

والثبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنه رحيم القلب، وقد أذِنا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرد عليك، فخرجت تستغيث لليزك الإسلامي، وأخبرتهم بواقعتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تَلّ الخرّوبة، وكان القاضي ابن شداد في خدمته وهو الذي روى القصة ـ وكان في خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً ومرّغت وجهها في التُّراب، فسأل عن قِصّتها، فأخبروه، فَرقّ لها، ودَمِعت عينه وأمر بإحضار الرّضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع في السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المُشتري، وأخذه منه، ولم يزل واقفاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى أحضر الطِّفل، وسُلِّم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمّته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة، ثم أمر بها، فَحُملت على فرسٍ، وألحقت بمعسكرهم مع طفلها، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس الإنسان[1].

5 ـ معاملته لملك إنكلترا:

تكررت الرّسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أن ملك الإنجليز طلب الاجتماع به، ثم فَتَر بعد أياماً، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر أنها قد ضَعُفَت وتغيّرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى، ثم تُهدى ففهم أنه محتاج إلى ذلك لنفسه، لأنه حديث عهد بمرض، ثمّ نفّذ أسيراً مغربياً عنده، فأطلقه السلطان صلاح الدين، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج، فأرسل إليه ذلك[2].

خامساً: أسباب سقوط عكا:

كان ثمة أسباب عديدة تجمعت وأدت إلى سقوط عكا المريع، بعد أن دافع عنها المسلمون قرابة السنتين ولعل من أبرزها:

1 ـ وصول قوات أوروبية جديدة:

حسم الموقف لصالح الصليبيين فعلى الرغم من كثرة من قتل منهم، إلا أن البحر كان يزودهم بإمدادات جديدة، حتى أضحوا في أعداد لا تحصى من أمم كثيرة تلك التي اشتركت في هذه الحملة الصليبية الضخمة، فتجهز لها الأمراء بما أعدوه من الأموال والأدوات وبما تكلفت به المدن الإيطالية من بذل المساعدة والاشتراك في نقل العساكر والمعدات، وعدم

(1) كتاب الروضتين (4/ 245).

(2) المصدر نفسه (4/ 253).

السماح للسفن الإسلامية بإيصال المؤن والمعدات اللازمة إلى المدينة المحاصرة، فكان تفوقهم البحري واضحاً[1]. لقد قاومت المدينة حصار الصليبيين سنتين كاملتين وشهدت خلالهما أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي وامتاز الصليبيون خلال هذا الحصار بأسطول قوي وآلات حربية ضخمة[2].

2 ـ استخدام الصليبيين لأسلحة جديدة ومتنوعة:

استعمل الصليبيون في قتال عكا أنواعاً كثيرة من الأسلحة والمعدات الحربية القديمة منها أو التي أدخلوا إليها التحسينات سواء الهجومية منها لدك أسوار المدينة أو لحماية أنفسهم خلف الجدران والخنادق التي أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين إليهم، واستطاعوا بعد مرابطتهم الطويلة بين أسوار عكا وقوات صلاح الدين، إحداث الخلل في الأسوار[3] ففي رسالة حررها القاضي الفاضل بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي أعلن فيها أن الصليبيين: قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرايات، طوراً بطم الخنادق وآناً بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار وأحياناً في البحر بالمراكب[4]، وكان رجال ريتشارد يستطيعون أن يتسلقوا جدران السور بواسطة آلة جديدة مستحدثة سموها: «الهر» ومجانيق تستطيع رمي الحجارة الضخمة التى تزعزع الجدران وتحدث الهزات حيث تقع في المدينة[5].

3 ـ طول مدة الحصار البحري والبري:

ولّد تعباً أصاب المسلمين وسَبَّبَ ذلك ضجراً، رغم ما كان يحدثه صلاح الدين من تبديل بين المحاربين بإرسال البدل إلى داخل المدينة، إلا أنه لم يستطع الاستمرار على ذلك، لا سيما حين شدد الصليبيون من حصارهم عليها، وكذلك لم تجد نفعاً النجاحات التي أحرزها الجيش الصلاحي الذي يحاصر الصليبيين ـ بين فترة وأخرى ـ ولاسيما في بداية الحصار الصليبي[6]، وكانت النتيجة الحتمية هي التواني في بذل المجهود الحقيقي، ثم إبداء

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 184)، الجيش الأيوبي، ص: 465.

(2) صلاح الدين الأيوبي ، قدري قلعجي، ص: 204.

(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 465.

(4) كتاب الروضتين (2/ 185)، الجيش الأيوبي، ص: 466.

(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 466.

(6) المصدر نفسه، ص: 466.

الأمراء التذمر من صلاح الدين، فلم يلبث التذمر حتى صار عادة وتطور إلى نقد ثم إلى معارضة، أضعفت الصف الإسلامي[1]، وقد روى السلطان للخليفة العباسي في رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن: المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، فالبرك (الثياب) قد أقضوه، والسلاح قد أحفوه والدرهم قد أفنوه في حين أن البحر يمد الإفرنج بمراكب أكثر عدة من أمواجه . . . فإذا قتل المسلمون واحداً من البر بعث عوضه ألفاً، وإذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً[2]. إلا أن السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن أخيه تقي الدين عمر الذي ذهب إلى إمارته في الجزيرة على أن يعود في أقرب قوت، فشغلته أحداث الإمارة عن العودة السريعة، وقد رأى صلاح الدين في غياب تقي الدين أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى سقوط عكا[3].

4 ـ ضعف المؤسسة المالية في جيش صلاح الدين:

كشف الصراع الطويل مع الصليبيين، وسقوط عكا عن مواطن الضعف المادية في جيش صلاح الدين، ومعروف عن صلاح الدين أنه لم يولِ اهتماماً كافياً بالإدارة المالية ولم يدخر المال ليوم الحاجة، ويفسر بذل المال الذي عرف عنه، بأن ظروف الجهاد اقتضت ذلك: فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل[4]. وسرعان ما لقي نفسه بحاجة شديدة إلى المال، لسد نفقات الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند، وكذلك لم يقدر على التخفيف من الضائقة المالية عن العساكر المرابطين على عكا، والذين اضطروا على الاستدانة، وكذلك إحلال خيول وأسلحة جديدة بدلاً من المستهلكة، فالخيول: أجهدها الجهاد.. والعدد فقدت بالكلية وعدمت وتكسرت، وتحطمت وأما النشاب فقد فني ونفضت الكنائن[5]. ويضيف العماد إلى كلامه أنه: احتيج في هذه السنين إلى أحمال كثيرة لا يفي بها الصناع ولا يرفعها العمال[6].

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط عكا.

---

(1) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 466.
(2) صلاح الدين الأيوبي قلعجي، ص: 300.
(3) المصدر نفسه، ص: 300.
(4) كتاب الروضتين (2/ 177)، الجيش الأيوبي، ص: 467.
(5) الجيش الأيوبي، ص: 467.
(6) الجيش الأيوبي، ص: 467، الفتح القسي، ص: 553.

5 ـ بعد عكا:

كان لسقوط عكا تأثيره الكبير على وضع المسلمين وعلى الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، إلا أن هذا الحدث أضعف المسلمين كثيراً بحيث ركنوا بعده إلى الدفاع السلبي، والذي من مظاهره تخريب بعض القلاع والحصون لكي لا تقع بيد العدو ثم يجعل منها مرتكزاً للهجوم على المناطق الإسلامية، صحيح أن فشل جيش صلاح الدين في حصار صور يعتبر بداية لخط الانكسار الإسلامي، إلا أن هذا الفشل يوضع في التحليل الأخير ضمن إخفاقات جيش صلاح الدين، وليس ضمن انتصارات الصليبيين، والقصد من ذلك أن ما حصل في صور هو عدم نجاح حصار المسلمين لإحدى المدن، أما في عكا فقد هزم المدافعون عنها وانتصر الصليبيون[1].

سادساً: وقعة أرسوف:

وضع ريتشارد قلب الأسد خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان قبل أن يتوجه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس، فغادر عكا يوم الخميس في (29 رجب 587هـ/22آب 1191م) على رأس الجيش الصليبي متخذاً الطريق الساحلي حيث يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي، لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عانى الصليبيون من شدة الحر وقلة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم[2]، والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرك ريتشارد قلب الأسد نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الاتصال بينه وبين بيت المقدس ومصر التي تمده بالقوة الضاربة، وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية، ولما اقتربوا منها في (7 شعبان/ 30 آب) أضحى الالتحام بين الجيشين وشيك الوقوع، تمتّع المسلمون بميزة حرية الحركة في الوقت الذي حصر الصليبيون أنفسهم بينهم وبين البحر[3]، وكان القتال الحاد ينشب بينهم كل يوم وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى الداخل حتى ينحرفوا عن خط سيرهم بمحاذاة الساحل، فيفقدوا ميزة دعم الأسطول، إلا أن ريتشادر قلب الأسد الذي اتصف بالبراعة القتالية لم يقع في فخ

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 468.

(2) النوادر السلطانية، ص: 189.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 189.

صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية، مفوّتاً فرصة طالما كان صلاح الدين توّاقاً إليها[1]، واستولى الصليبيون على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خرّبها المسلمون ولم يستفيدوا منها بزاد أومال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف وتحركوا باتجاه غايتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان من السهل الاتساع ما يكفي لنشوب اشتباك[2]، وقرّر صلاح الدين الذي سبق العدو إلى الغابة، أن يصطدم به في هذا المكان فعبّأ قواته استعداداً للمواجهة، وحين علم ريتشارد قلب الأسد بخطته تصرف على محورين:

ـ أرسل بطلب نجدة صليبية من عكا.

ـ حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية.

والراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض وأناب عنه أخاه العادل الذي اجتمع بريتشارد قلب الأسد (في 12 شعبان/ 5 أيلول) لكن المفاوضات تعثرت بسبب تصلب ريتشارد قلب الأسد في موقفه، إذ أصرّ على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس، فبادر العادل على الفور إلى قطع المفاوضات ولم يبق أمام الطرفين سوى القتال[3]. ووصلت، في هذه الأثناء، نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين فتعبّآ للقتال وبدأت المعركة في ضحى (يوم السبت 14 شعبان 587هـ/ 7 أيلول) أحاط الفرسان المسلمون في بدايتها بالصليبيين وأوشكوا أن يقضوا عليهم، لكن ريتشارد قلب الأسد ثبت في القتال، وأعاد تنظيم صفوف قواته بسرعة، فمال ميزان المعركة إلى صالحه ولم تلبث صفوف المسلمين أن تداعت[4]، ولما رأى صلاح الدين ما نزل بالمسلمين صاح فيهم وحرضهم على الجهاد في سبيل الله، وبقي هو ثابتاً في المعركة، فلما رآه الناس على تلك الحالة من الشجاعة والصبر توافدوا عليه، وقاتلوا الصليبيين قتال الأبطال حتى تمكنوا من دحرهم وإجبارهم على التراجع إلى منزلتهم[5].

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 189.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: تاريخ الأيوبيين، ص: 190.

(3) النوادر السلطانية، ص: 273 ـ 275، تاريخ الأيوبيين، ص: 190.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 190.

(5) صلاح الدين والصليبيون، ص: 270، النوادر السلطانية، ص: 184.

سابعاً: خراب عسقلان:

بعد معركة أرسوف، توجه ريتشارد نحو يافا وأخذها دون مقاومة إذ لم يكن بها أحد من المسلمين ليدافعوا عنها، على حد قول ابن الأثير[1]، وشرع في إعادة بناء استحكاماتها، أما صلاح الدين فتوجه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان بن جندر بإخلاء عسقلان ومن ثم تخريبها، لأن هدف العدو بعد عكا ويافا هو عسقلان ومن ثم القدس، ولأن يافا التي نزل عليها ريتشارد تتوسط القدس وعسقلان ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معاً[2]، وقد أعلن الأمراء الداعين إلى تخريب عسقلان أن الدفاع عن هذه المدينة يتطلب وجود حامية كبيرة فيها، تعدادها ثلاثون ألف مقاتل، أو عشرون ألفاً[3]. وأعلنوا لصلاح الدين: قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها، فينزلوا عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستنجد غيرها، فاعترض صلاح الدين هذا الرأي وطلب من بعض أمرائه الدخول إلى عسقلان، وتنظيم الدفاع عنها، فامتنعوا، بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة، اعتادوا عليها من الآن فصاعداً، كما يظهر من رواية العماد وابن الأثير وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا[4]، ولم يستطع صلاح الدين إقناع الأمراء ولذلك حزن كثيراً، وبات ليله مهموماً، يقول ابن شداد إنه: ما نام الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً، فحضرت وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في الأمر. ثم قال: والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليّ من أن أهدم من عسقلان حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع[5]. واضطر أخيراً إلى الانصياع إلى قرار أمرائه، ووافق على تخريبها، فأمر والي المدينة بأن يتولى ذلك بنفسه، فوضع الوالي المعول عليها فجر (19شعبان 587هـ/ 12أيلول 1191م)، ثم استنفر الناس، وقسم سور المدينة عليهم،

---

(1) الجيش الأيوبي، ص: 476، نقلاً عن: الكامل في التاريخ.

(2) المصدر نفسه، ص: 477.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 477.

(4) الجيش الأيوبي، ص: 478.

(5) المصدر نفسه، ص: 478.

وجعل لكل أمير وطائفة جزءاً من السور واشترك هو وولده في تخريبها وأرسل إلى أخيه العادل الذي كان نازلاً على بلدة يبني بالقرب من الرملة ويافا وطلب منه أن يسوف القوم ويطول حديث الصلح معهم، ريثما نتمكن من خراب البلد[1]. وقد تألم الناس على ما يفعلونه ووقع فيهم الضجيج والبكاء، لأن عسقلان كانت مدينة نضرة خفيفة على القلب، محكمة الأسوار، عظيمة البناء، مرغوبة في سكناها حتى سميت عروس الشام لحسنها[2]. وبعد إكمال تخريبها أمر بإضرام النار فيها، وهاجرها أهلها وتفرقوا بين مصر والشام واستمرت أعمال التخريب والحرق إلى مستهل رمضان 587هـ/ نهاية أيلول 1191م. ولم يكد الجيش يفرغ من تخريب عسقلان حتى سار إلى يبنى مقر قيادة العادل، ثم مضى إلى الرملة[3]، أما ريتشارد فإنه انشغل بإقامة التحصينات في يافا، ولم يخاطر في الهجوم على بيت المقدس، لأنه إذا غامر بالمسير نحو هذه المدينة، فثمة احتمال قوي أن يقوم جيش صلاح الدين بقطع طريق الاتصال بينه وبين البحر، فكان من الحكمة والتعقل أن يتأكد من مناعة يافا قبل أن يشرع في مغامراته، لأن الخسارة تكون أشد وجعاً لسمعة الصليبيين إذا استولوا على المدينة ثم يضطرون إلى تركها ثانية[4]. ومع ذلك فإن التمهل والإرجاء أضحيا بالغي الطول، فتهيأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة، وتنظيم صفوف جيشه للجولة التالية في وقت كان الصليبيون ينعمون بأسباب الراحة في يافا، فاهتمام ريتشارد بيافا وتعميرها لم يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان، لأن القائد الصليبي أدرك أنه يتعذر عليه أخذ بيت المقدس دون إحكام سيطرته على يافا لا سيما وأن عسقلان قد تم تخريبها[5].

ثامناً: تنظيم الدفاع عن القدس:

لم يعد صلاح الدين إلى القدس إلا متأخراً، أي في آخر ذي القعدة 587هـ، إلا أنه أرسل إليها الملك العادل لتفقد أحوالها والنظر في عمارتها[6]. وفضل أن يقيم في المناطق القريبة منها التي خربها الجيش، أي بالقرب من الرملة. وقصد من ذلك أن يكون قريباً من

(1) النوادر السلطانية، ص: 188.
(2) معجم البلدان (4/ 122)، آثار البلاد، ص: 222.
(3) النوادر السلطانية، ص: 189، كتاب الروضتين (2/ 192).
(4) الجيش الأيوبي، ص: 479.
(5) المصدر نفسه، ص: 480.
(6) النوادر، ص: 192، الجيش الأيوبي، ص: 480.

العدو، ومن القدس معاً، حتى إذا فكر العدو بالإغارة على القدس منعهم وتصادم معهم في لقاء مكشوف، وفي 6 شوال جمع صلاح الدين أكابر أمرائه وأرباب الأمراء في دولته وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي، فاتفق الرأي على أنهم يقيمون في منزلتهم، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم[1]، وفعلاً وصل اثنان من الصليبيين المستأمنين إلى معسكره وأخبراه أن العدو عزم على الخروج بعد غد، ثم وصل أحد المسلمين الذين كان أسيراً لديهم، وهرب من معتقله، وأخبر أنهم ينوون الخروج. عندها بدأ صلاح الدين بتحصين القدس، وأرسل إلى البلاد يطلب رجالاً يقومون بهذه الأعمال، وعمل السلطان وأولاده وأمراؤه فيها، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء[2].

ووصل من الموصل جماعة كبيرة تقدر بخمسين رجلاً من الحجازين برسم قطع الصخور، لتقوية أسوار القدس وخندقها[3]، وحين انتهى من هذا العمل أمر الجاووش أن ينادي بالعسكر حتى يتجهز وشدت الرايات، للوقوف بوجه العدو، وفي هذا الوقت نكب الجيش الأيوبي بوفاة أبرز قواده هو تقي الدين عمر في منطقة الجزيرة وقد تألم له السلطان كثيراً، إلا أنه أخفى الخبر عن العسكر لكي لا يصل الخبر إلى العدو في تلك اللحظة الحرجة[4]. وكذلك توفي القائد الشجاع الأمير حسام محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، لمرض اعتراه، يوم وفاة تقي الدين عمر، وهو 19 من رمضان 587هـ/ خريف 1191م[5]، ويحتمل أن خبر استعدادات الجيش الأيوبي وصل إلى ريتشارد، فلم يشأ أن يلتقي معه في مصاف، إضافة إلى إلحاح هذا الملك على مبدإ المفاوضات، لتكون الأساس للعلاقات بين الطرفين كما أظهرت أحداث الأيام التالية، ما إن حل الشتاء 587هـ/ 1191م إلا وتوقف الطرفان ولم يحصل أي صدام أو لقاء بينهما، فرحل صلاح الدين حين اشتدت الأمطار إلى القدس، وعاد الصليبيون إلى يافا، وذهب قسم منهم إلى عكا لكن ريتشارد ما انفك يبعث برسله إلى صلاح الدين ويحثه على الصلح، ونجد أن صلاح الدين كان غير متحمس في عقد الصلح، لكنه كان يبغي الاستفادة من جو المفاوضات في هذا الفصل الذي رحلت عنه جيوش أمرائه وقفلت راجعة إلى أوطانها، لذا طلب من الملك العادل ـ مرة أخرى ـ أن يماطل ريتشارد إلى أن تصل عساكر الأطراف، فغادر الملك العادل القدس في

---

(1) النوادر، ص: 196 ـ 197 الجيش الأيوبي، ص: 480.

(2) مفرج الكروب (2/ 375)، كتاب الروضتين (2/ 194).

(3) مفرج الكروب (2/ 375)، الجيش الأيوبي، ص: 481.

(4) النوادر السلطانية، ص: 198.

(5) الجيش الأيوبي، ص: 480، كتاب الروضتين (2/ 195).

بداية ربيع الأول سنة (588هـ/آذار 1192م)[1]. إلا أن المفاوضات لم تثمر، عندها قامت جماعات من الصليبيين باحتلال بعض المدن والحصون التي كان دفاعها ضيقاً، مثل مدينة عسقلان التي أعاد ريتشارد تعميرها[2]، وجعلها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطيني[3]، وكذلك احتلوا حصن الداروم الذي أمر صلاح الدين بتخريبه في وقت سابق وحين احتله ريتشارد نَكَّل بالمدافعين عنه[4]، واحتلوا حصوناً ومواقع أخرى صغيرة على الساحل الفلسطيني[5].

تاسعاً: طبيعة المفاوضات بين العادل وريتشارد في هذه المرحلة:

بدأت المباحثات في (18 شوال سنة 588هـ/ 9 تشرين الثاني سنة 1192م) عندما أرسل ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين من معسكره قرب بازور، يطلب منه الدخول في مفاوضات من أجل الصلح بحجة أن القتال أهلك كثيراً من قوى الطرفين وخربت البلاد[6]. لكن هذه المفاوضات، الذي أناب فيها صلاح الدين أخاه العادل، لم تلبث أن تعثَّرت بسبب إصرار ريتشارد قلب الأسد على استعادة بيت المقدس والإقليم الواقع غرب الأردن بما فيه من حصون، وصليب الصلبوت، بالإضافة إلى تمسّكه بعسقلان وكلها شروط رفضها صلاح الدين وعرض ريتشارد قلب الأسد بعد بضعة أيام مقترحات جديدة تقضي:

1 ـ بأن يتزوج الملك العادل، أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا، أخت ريتشارد قلب الأسد وأرملة ملك صقلية.

2 ـ يُعطي صلاح الدين أخاه كل ما بحوزته من أراضي في فلسطين، ويمنح ريتشارد قلب الأسد أخته ما بحوزته من المدن الساحلية، بما فيها عسقلان التي احتلها مؤخراً.

3 ـ يقيم العروسان في بيت المقدس، ويتردّد النصارى على كنيسة القيامة.

4 ـ يستعيد النصارى صليب الصلبوت.

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 205، الجيش الأيوبي، ص: 482.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 482.
(3) النوادر، ص: 210.
(4) الجيش الأيوبي، ص: 482.
(5) تاريخ الأيوبيين، ص: 193.
(6) النوادر السلطانية، ص: 292، تاريخ الأيوبيين، ص: 194.

5 ـ يُطلق سراح الأسرى من الجانبين.

6 ـ تُردُّ إلى الداوية والإسبتارية بعض القرى في فلسطين دون الحصون[1].

رحّب العادل بهذا العرض، ورأى في ذلك «عين الصواب» ولعله هدف إلى توحيد المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت حكمه، وإقرار الأمور في تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الطرفين[2].

ورأى صلاح الدين في هذا العرض نوعاً من المزاح، لكنه أبدى سروره للموافقة عليه، ويبدو أن قبوله بهذا المشروع سببه الاعتقاد بأن ملك إنكلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه وأن هذا منه هزء ومكر[3]، وسرعان ما ظهر أن العقبة في سبيل تنفيذ ذلك المشروع جاءت من جوانا نفسها التي ارتاعت عندما سمعت بهذا العرض وقالت بأنه ليس ثمة ما يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم، مما دفع بريتشارد قلب الأسد أن يطلب من العادل أن يعتنق النصرانية لتذليل تلك العقبة، فرفض العادل ذلك[4].

والحقيقة أن قبول المسؤولين الثلاثة بهذا المشروع، إنما يدل على التقارب السياسي والحضاري في بلاد الشام بعد مرور قرن على بداية الحروب الصليبية بالإضافة إلى روح التسامح التي أخذت تنمو بوضوح في بعض تصرفات الفريقين ،بدليل أن الملك ريتشارد قلب الأسد اجتمع مع العادل على وليمة فاخرة أقيمت في 18 شوال 588هـ ثم افترقا بعد أن تحقّقت بينهما أواصر الصداقة، وقد أبدى الملك الإنكليزي رغبة في الاجتماع بصلاح الدين، لكن العادل رفض طلبه وقال: إن الملوك إذا اجتمعوا تصبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر، حسن الاجتماع[5]. ثم شُغل ريتشارد قلب الأسد بحلّ مشاكل الصليبيين وبخاصة الخلاف الحاد بين كونراد دي مونتفيرات وجاي لوزينان[6].

عاشراً: فقه سياسي صلاحي مواكب للحرب:

في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد، استقبل صلاح

---

(1) الحركة الصليبية، عاشور (2/ 882).

(2) النوادر السلطانية، ص: 293، تاريخ الأيوبيين، ص: 194.

(3) الجيش الأيوبي، ص: 482.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 194.

(5) النوادر السلطانية، ص: 300، 301، تاريخ الأيوبيين، ص: 194.

(6) تاريخ الأيوبيين، ص: 195.

الدين رينولد صاحب صيدا رسولاً من قِبَل كونراد دي مونتفيرات، عرض عليه التحالف مقابل حصوله على صيدا وبيروت، بل إنه اقترح أن تعود عكا إلى المسلمين وقد هدف إلى تحويل مسار المفاوضات لصالحه الخاص[1]. وعندما علم ريتشارد قلب الأسد بتحركات كونراد دي مونتفيرات، بذل جهوداً في إعادته إلى الصف الصليبي، غير أن جهوده باءت بالفشل، وكرَّر دي مونتفيرات محاولة التفاهم مع صلاح الدين وعقد صلاح الدين مجلساً لأركان حربه ليقرِّر أيَّ جانبي الصليبيين يمضي معه في المحادثات، فرأى الملك العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضي في المحادثات مع الملك الإنكليزي لأنه سوف يغادر الشرق، في حين أن كونراد دي مونتفيرات كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين، فتقرر قبول مقترحات ريتشارد قلب الأسد من حيث[2] المبدأ، ومهما يكن من أمر محاولات التفاهم بين المسلمين والصليبيين وما وقع في تلك الأثناء من قتال بينهما، وإن كان محدوداً، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التقارب ووصلت في غضون ذلك إلى مسامع ريتشارد قلب الأسد أخبار سيئة من الغرب إذ أن أخيه يوحنا قام بثورة ضده، مما تطلب منه العودة إلى بلاده بسرعة، لكنه لم يشأ مغادرة الشرق قبل أن يحل مشاكل الصليبيين الداخلية ويتفاهم مع المسلمين، وأما المشاكل الداخلية فقد حُلَّت باغتيال كونراد دي مونتفيرات على يد الحشيشية في 13/ربيع الآخر عام (588هـ/ 28 نيسان) عام (1192م)[3]، فتخلص ريتشارد قلب الأسد من خصم عنيد وتحكَّم في صور واختار هنري دي شامبانيا لعرض مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من إيزابيلا أرملة كونراد ووريثة عرش المملكة[4]، وأما المشاكل مع الجانب الإسلامي، فقد تطلبت حلاً من نوع آخر يقوم على القوة وتطلع إلى استعادة بيت المقدس، فاستولى على قلعة الداروم في (9 جمادى الأولى/ 23 أيار)، بعد مقاومة من جانب حاميتها، لكنه فشل في الاستيلاء على مجدل يافا، فاتجه إلى عسقلان، ومنها شرع بالزحف نحو بيت المقدس، فوصل في 27 جماد الأولى/ 11 حزيران إلى بيت[5] نوبة، واستعد صلاح الدين من جهته لمقاومته فسار إلى بيت المقدس.

الحادي عشر: تدابير صلاح الدين للدفاع عن القدس:

قام صلاح الدين بتدابير آتية للدفاع عن المدينة المقدسة منها:

1 ـ قسَّم أسوارها على أمرائه وجهَّزهم بما يحتاجون إليه للمقاومة.

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 285، 286، 297.

(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 195.

(3) النوادر السلطانية، ص: 31، تاريخ الأيوبيين، ص: 195.

(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 195.

(5) المصدر نفسه، ص: 196.

2 ـ أفسد مصادر المياه المحيطة بالمدينة بحيث لم يبق حول بيت المقدس ما يُشرب أصلاً، مما سيجعل العدو في حالة عطش شديد إذا حاول الهجوم عليها.

3 ـ استدعى القوات من الأطراف، فجاءه الملك الأفضل مع العساكر الشرقية وبدر الدين دلدرم الياروقي من التركمان وعز الدين بن المقدم[1].

4 ـ قيام فرسان المسلمين بشن غارات مفاجئة وخاطفة على معسكر الصليبيين[2].

ثم عقد صلاح الدين في (19 جمادى الآخرة/ أول تموز) اجتماعاً في بيت المقدس، مع أركان حربه للتشاور في أفضل السبل للدفاع عن المدينة في وجه الحشود الصليبية، وطلب السلطان من القاضي ابن شداد أن يفتتح الجلسة، فتحدث هذا في بداية كلامه عن فضل الجهاد، ودعاهم إلى الاقتداء بالرسول الأعظم، فاستحسن الجميع كلامه، ثم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير، وبعد هنيهة شرع صلاح الدين في الكلام وضمن ما قاله: إن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، طوى البلاد كطي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم، فإن أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام[3]، فانتدب لجوابه الأمير سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن يموت. ووافق على كلام المشطوب بقية الحضور، فسر بذلك السلطان، لكن الأمراء سرعان ما تراجعوا عن موقفهم في اليوم التالي، كما أخبر بذلك أبو الهيجاء فقد أعلنوا أن من الخطأ أن يحصروا أنفسهم داخل القدس لأنهم يخافون أن يجري عليهم ما جرى على أهل عكا، وأنهم يرون أن يكون لقاؤهم خارج أسوار القدس، وقالوا: إن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى ـ أي الهزيمة ـ سلم العسكر ومضت القدس[4]، لم يقتنع صلاح الدين بجواب الأمراء لأن أمر القدس عنده أمر عظيم لا تحمله الجبال، بل إنهم ردوا عليه بخشونة اعتادوا عليها منذ أمد كما ذكرنا، ويبدو أن الصراع بين عناصر جنده وأمرائه من الأكراد والتركمان قد ذر قرنه، وبلغ مستوى خطير وظهر ذلك من كلامهم حين قالوا: إنك إن أردتنا فتكون (داخل

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 196.

(2) المصدر نفسه، ص: 196.

(3) مفرج الكروب (2/ 386)، الجيش الأيوبي، ص: 485.

(4) مرآة الزمان (8/ 416)، الجيش الأيوبي، ص: 485.

القدس) معنا، أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك والأتراك لا يدينون للأكراد[1]، والواقع أن صلاح الدين صار في وضع لا يحسد عليه، وقد أحس ابن شداد بهذا العجز بوضوح حين طلب منه أن يفوض أمره إلى الله، وأن يعترف بعجزه أمامه فيما تصدى له، لعل الله يستجيب لدعائه، وقد رآه المؤرخ وهو يصلي، ودموعه تتقاطر في مصلاه حين يسجد ومر يوم الجمعة الثقيل، ثم جاء رجال استخباراته ليعلنوا أن الصليبيين قرروا إيقاف زحفهم تجاه القدس[2]. يقول ابن الأثير إن ريتشارد طلب من الصليبيين القدامى «الفرنج الشاميين» أن يصوروا له وضع مدينة القدس، والاستحكامات التي أقامها صلاح الدين حولها، فصوروا له كل ما طلب وحين دقق في وضع المدينة قال: هذه مدينة لا يمكن حصارها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة[3]. وهذا الموقف جعل الصليبيين ينقسمون بين من يطالب بالهجوم على القدس وبين من ينادي بالتوقف، وكان ريتشارد مع الفريق الثاني. في حين كان الفرنسيون مع الرأي الأول حين قالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونها. ورد عليهم ريتشارد: إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ فقالوا: نشرب من ماء نقوع[4]. ـ الواقعة بالقرب من القدس بمقدار فرسخ ـ ونكتفي بالشرب في اليوم مرة واحدة[5] وقد لجأ الصليبيون إلى مبدإ الانتخاب، وأخذ الأصوات، لتحكيم رأي الأغلبية، فكان القرار هو إيقاف الهجوم فرحلوا نحو الرملة[6]، وسر بذلك السلطان كثيراً[7].

الثاني عشر: معركة يافا:

تُعد معركة يافا وما نتج عنها آخر صدام مسلح بارز وقع بين المسلمين وصليبيي الحملة الثالثة، وكان ريتشارد قلب الأسد قد اتخذ من هذه المدينة قاعدة لجيشه إثر انتصاره على صلاح الدين في أرسوف، نظراً لقربها من بيت المقدس[8]، وفي الوقت الذي كانت المفاوضات دائرة

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 217، الجيش الأيوبي، ص: 485.

(2) الجيش الأيوبي، ص: 486.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: الجيش الأيوبي، ص: 486.

(4) نقوع : قرية من قرى بيت المقدس.

(5) النوادر، ص: 217، 218، الجيش الأيوبي، ص: 486.

(6) شفاء القلوب، ص: 175، الجيش الأيوبي، ص: 487.

(7) الجيش الأيوبي، ص: 487.

(8) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة، ص: 199.

بين الطرفين الإسلامي والصليبي بشأن عقد الصلح، غادر ريتشارد قلب الأسد يافا إلى عكا، وقد أعدَّ خطة للإقلاع إلى بلاده إذا لم يتم، حتى وقتذاك، توقيع معاهدة مع المسلمين وتقضي هذه الخطة بالزحف نحو بيروت، ثم يبحر منها إلى أوروبا[1].

وقد هيأ هذا التحرك فرصة لصلاح الدين استغلها في تنظيم حملة على يافا ومن المحتمل أنه استهدف تحقيق أربعة أهداف :

- أنه أراد الحصول على يافا في غياب الملك الإنكليزي.

- أمِل في تحقيق انتصار حاسم على الصليبيين في يافا.

- محاولة رفع معنويات جنوده.

- منع ريتشارد قلب الأسد من احتلال بيروت[2].

وما كان صلاح الدين يقترب من يافا في (15 رجب 588هـ /27 تموز 1192م) حتى توجهت رسالة عاجلة إلى ريتشارد قلب الأسد تحمل إليه نبأ الهجوم على يافا، فبادر إلى النهوض لنجدتها متخذاً في تقدمه طريق البحر، يسانده البيزيون والجنويون، بينما أرسل جيشاً بطريق البر، غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل، ولم يشأ أفراد الجيش البري أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم، لذلك تمهلوا في سيرهم[3]، وقد أتاح هذا التطور العسكري فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا، وفعلاً دخلوا المدينة يوم الجمعة في (18 رجب/30 تموز) بعد قتال مرير مع حاميتها وضربوا حصاراً على قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح، وفي الوقت المحدّد لتسليم القلعة إلى المسلمين هبط ريتشارد قلب الأسد إلى البر وشن هجوماً مضاداً واستطاع دخول المدينة وحمل المسلمين على الخروج منها، وسحب صلاح الدين جيشه من المدينة [4]، وكان المرض قد اشتد على ريتشارد واستمر في إرسال الرسل تتردد على صلاح الدين في طلب الفاكهة والثلج كما أوقعه مرضه في شهوة الكمثرى والخوخ، وكان صلاح الدين بتسامحه يمده بذلك[5]، وجدّد ريتشارد قلب الأسد عرض الصلح على صلاح الدين مدفوعاً بعدة عوامل منها:

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 199.

(2) المصدر نفسه، ص: 199.

(3) المصدر نفسه، ص: 200 .

(4) المصدر نفسه، ص: 200.

(5) المصدر نفسه، ص: 200.

ـ لقد ألمّ به المرض واشتد عليه، فتدهورت صحته بشكل ملحوظ حتى عجز عن قيادة قواته، والتخطيط السليم.

ـ وردت إليه أخبار أخرى مزعجة من إنكلترا تفيد بأن أخاه يوحنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلب عودة عاجلة.

ـ انقطاع النجدات العسكرية من أوروبا.

ـ يئس من استرداد بيت المقدس.

ـ ما حلَّ بالصليبيين من الإرهاق وما أظهره كل من ابن أخته هنري والطوائف الدينية والعسكرية من عدم الثقة في سياسته[1].

وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التي دعته إلى قبول الصلح ومنها:

ـ النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.

ـ سآمة العساكر ومظاهرتهم بالمخالفة.

ـ ازدياد قوة العدو.

ـ خشيته من حدوث الخلاف بعد وفاته داخل أسرته، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة[2].

الثالث عشر: المفاوضات وصلح الرملة:

استمرت المفاوضات مع الفرنج خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً ومفاوضة تتقطع وتتصل، وكان البادئ في طلبها دوماً ملك الإنكليز ريتشارد[3]، وأهم هذه المراحل التي مرت بها المفاوضات حتى توجت بالصلح:

المرحلة الأولى: بعد عشرة أيام فقط من وصول الملك الإنجليزي ريتشارد بادر بإرسال رسول إلى صلاح الدين وقد سمح للرسول بالتوجه إلى الملك العادل أولاً، فاستصحبه إلى صلاح الدين، وكان موجز الرسالة التي أرسلها ريتشارد تتلخص في أن ملك الإنجليز يطلب

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 201.

(2) المصدر نفسه، ص: 201.

(3) صلاح الدين المفترى عليه، ص: 325.

الاجتماع بصلاح الدين، ولما علم صلاح الدين بذلك أجاب دون تردد، وقال: إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة أي هدنة، وإذا أراد ريتشارد الاجتماع بصلاح الدين فلا بد من تقرير الهدنة قبل الاجتماع ولا بد من ترجمان موثوق به بين الطرفين يفهم كل ما يقوله الطرف الآخر، وإذا تقررت الهدنة تم الاجتماع بالملك الإنجليزي.

عاد الرسول إلى ريتشارد وعاد مرة أخرى وكان حديثه مع الملك العادل، وانتهى الأمر بالاتفاق على اجتماع العادل مع الملك ريتشارد في مرج عكا والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان، وعاد الرسول، ولكنه تأخر عدة أيام بسبب المرض، والراجح أن ريتشارد هو الذي كان مريضاً وليس الرسول وفي رواية أخرى أن القادة الصليبيين أنكروا فكرة الصلح مع المسلمين وقالوا: هذه مخاطرة بدين النصرانية، وقد عاد الرسول مرة أخرى واعتذر عن التأخير بسبب المرض. ومما قاله الرسول أن «الملوك» إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وأضاف: عندي ما يصلح للسلطان، وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه، فوافق الملك العادل بشرط إرسال هدية في المقابل للملك الإنجليزي، فرضي الرسول وقال: الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر، وقد ضعفت فيحسن أن تقدموا لنا طير ودجاج حتى نطعمها فتقوى ونحملها إليكم. فداعبه الملك العادل وقال: الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة، فانقطع الحديث عدة أيام، ثم عاد الرسول ومعه إنسان مغربي مسلم قد أسره الصليبيون من مدة طويلة هدية إلى السلطان فقبله وأطلقه، وأعاد الرسول مكرماً[1]. وقد بلور المؤرخ ابن شداد الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء تبادل الرسل، فقال: وكان غرض الصليبيين بتكرار الرسائل تعرّف قوة النفس وضعفها عند المسلمين وكان غرض المسلمين بقبول الرسائل تُعرف ما عند الصليبيين من ذلك[2].

المرحلة الثانية: ففي التاسع من جمادى الآخرة عام (587هـ/ الرابع من يوليو 1191م) أثناء القتال في عكا بين المسلمين والصليبيين عندما قررت حامية عكا الإسلامية التخلي عن القتال وأرسلت إلى ريتشارد رفض عرض حامية المدينة، إلا أنه أرسل في اليوم نفسه ثلاثة رسل إلى صلاح الدين يطلبون فاكهة وثلجاً، وقد ذكر الرسل أن مقدم الإسبتارية جارنيه سيحضر في اليوم التالي للتحدث في معنى الصلح، وقد أكرم صلاح الدين الرسل وأدخلهم سوق العسكر وشاهدوه، وعادوا في اليوم نفسه إلى عسكرهم، وقد أعقب ذلك استلام مدينة عكا للصليبيين واستقبال صلاح الدين لسفراء الصليبيين حول تسليم عكا، وهو جانب يتعلق

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، ص: 175.

(2) المصدر نفسه، ص: 175.

بمدينة عكا فقط، وقد سبق أن أوضحناه ولا يمس جوهر قضية الصلح العامة التي نناقشها على هذه الصفحات[1].

المرحلة الثالثة: وكانت المرحلة الثالثة من المفاوضات في المرحلة السابقة لمعركة أرسوف، ففي الحادي عشر من شعبان 587هـ/ الثالث من سبتمبر 1191م أتت بعض رسل الصليبيين تطلب التحدث إلى الملك العادل، فسمح لهم وكان حاصل حديث الرسل: إنا قد طال القتال، وإنه قتل من الجانبين الرجال والأبطال وإنما نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكل منا يرجع إلى مكانه. وعلم صلاح الدين بمضمون أفكار الرسل فكتب إلى أخيه العادل يطلب منه إطالة الحديث مع الرسل حيث تصل النجدات الإسلامية، وفي اليوم التالي اجتمع الملك العادل بالملك الإنجليزي ريتشارد، وتولى الترجمة همفري سيد تبنين وسأل العادل ريتشارد عن شروطه حول عقد الصلح، فذكر له القاعدة «أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفون إلى بلادكم» ومعنى ذلك عودة الحال إلى ما قبل معركة حطين، ولم يقبل الملك العادل مثل هذه الشروط فأخشن للملك الإنجليزي الجواب، وجرت منافرة اقتضت رحيل الملك الإنجليزي ورفاقه، ثم كانت معركة أرسوف التي انتصرت فيها القوات الصليبية، وإن كان نصراً غير حاسم، وبعد ثمانية أيام وأثناء إقامة القوات الصليبية بقيادة ريتشارد في مدينة يافا، وقيام صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان وصل في التاسع عشر من شعبان 587هـ/ الحادي عشر من سبتمبر 1191م إلى صلاح الدين من أخبره من جانب الملك العادل أن الصليبيين تحدثوا معه في أمر الصلح وأن شروطهم إعادة جميع البلاد الساحلية، فطلب صلاح الدين من أخيه العادل فتح باب المفاوضات لما رآه في نفوس المسلمين من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة، كما طلب منه أيضاً إطالة أمد المفاوضات حتى يتم تخريب عسقلان.

وفي خلال الأيام التالية وقع حادث له مغزاه في تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، ففي الثاني عشر من رمضان 587هـ/ الثالث من أكتوبر وصلت رسل من جانب كونراد الذي تصفه المصادر العربية باسم المركيس، قد استشعر كونراد أن الصليبيين يريدون الاستيلاء على صور، فانحاز عن قوات الحملة الصليبية الثالثة، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح مقابل إعطائه صيدا وبيروت، مقابل مجاهرة ريتشارد بالعداوة والسير بقواته إلى عكا ومحاصرتها والاستيلاء عليها والمعروف أن كونراد كان خبيثاً ملعوناً، لذلك أراد صلاح الدين معرفة حسن نواياه، فطلب منه في بداية الأمر القيام بحصار عكا والاستيلاء عليها، وإطلاق

(1) تاريخ الحروب الصليبية، ص: 177.

سراح الأسرى المسلمين في عكا وصور، ثم يقوم صلاح الدين بعد ذلك بتسليمه صيدا وبيروت، وفي عشية اليوم نفسه وصلت رسل الملك ريتشارد للحديث مرة أخرى في مسألة الصلح وعلم ريتشارد بالسفارة التي أرسلها كونراد إلى صلاح الدين، فعاد إلى عكا للعمل على فسخ فكرة المصالحة التي شرع فيها كونراد، والعمل أيضاً على ضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية، ومما لا شك فيه أن ما حدث جعل صلاح الدين يدرك مدى الشقاق بين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة، كما أدرك ريتشارد أن ما حدث من كونراد يعتبر ضربة موجهة إليه وإلى قوات الحملة الثالثة التي عانت وتكلفت الكثير للدفاع عن الصليبيين المحليين، وكان لذلك كله أكبر الأثر على سير المفاوضات وشروطها في المراحل المقبلة[1].

المرحلة الرابعة: وفي الرابع والعشرين من رمضان 587هـ/ الخامس عشر من أكتوبر 1191م جرى وصول رسول من قبل الملك الإنجليزي ريتشارد ومعه حصان هدية إلى الملك العادل في مقابل هدية كان قد أرسلها إليه الملك العادل، وكان ذلك مقدمة لمفاوضات المرحلة الرابعة، وبعد يومين أرسل ريتشارد يطلب من الملك العادل إيفاد رسوله للتحدث في أمر الصلح، فأجابه العادل إلى طلبه وذهب رسول العادل واجتمع بالملك ريتشارد ومما قاله الملك في طلب الصلح: أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم.

وعندما بلغ الملك العادل ما يطلبه ريتشارد، قام العادل بدوره بإبلاغه إلى صلاح الدين الذي قال في رد الجواب للملك الإنجليزي: القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها[2]. وبعد ثلاثة أيام عاد رسول الملك ريتشارد من يافا بمقترحات جديدة، وموجز هذا العرض أن يتزوج الملك

(1) تاريخ الحروب الصليبية، ص: 177.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، ص: 178، كتاب الروضتين (4/ 286).

العادل من جوانا ملكة صقلية السابقة أخت الملك ريتشارد، وأن يكون مستقر ملكهما القدس الشريف، وأن يقدم لها ريتشارد بلاد الساحل التي فتحها من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن يعطي صلاح الدين أخاه العادل جميع بلاد الساحل ويجعله ملكاً عليها بالإضافة إلى ما في يده من البلاد والإقطاع، وأن يسلم إليه صليب الصلبوت وتكون القرايا للداوية والإسبتارية والحصون لهما، وإطلاق سراح أسرى الجانبين ويرحل ملك إنجلترا إلى بلاده، ولما أبلغ صلاح الدين بمقترحات الملك الإنجليزي، بادر بالموافقة معتقداً أن ريتشارد لا يوافق عليه، وأن هذا منه هزو ومكر، أي نوع من المزاح، ولما علمت جوانا باقتراح أخيها زواجها من الملك العادل غضبت وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك. لذلك عرض ريتشارد دخول العادل في الديانة المسيحية ولكن العادل رفض قبول ذلك، وترك باب المفاوضات مفتوحاً[1].

المرحلة الخامسة: وسارت المرحلة الخامسة من المفاوضات في خطين متوازيين، الخط الأول يتعلق بالمفاوضات مع رسل كونراد والخط الثاني مرتبط بالمفاوضات مع الملك الإنجليزي ريتشارد، وبدأت هذه المرحلة في الخامس عشر من شوال 587هـ/ الخامس من نوفمبر 1191م عندما وصل رينالد جارنيه حاكم صيدا كرسول من جانب كونراد ويفهم من النصوص التاريخية أن المحادثات مع كونراد لم تنقطع، وقد أحسن المسلمون استقبال المبعوث حتى يتم تدبير اللقاء مع صلاح الدين، وبعد أربعة أيام استقبل صلاح الدين رينالد جارنييه وأكرمه إكراماً عظيماً، وتصف المصادر الإسلامية كونراد بأنه كان أشد الصليبيين بأساً وأعظمهم في الحرب مراساً، وأثبتهم في التدابير أساساً، وكان عرض كونراد يتلخص في تنازل المسلمين له عن صيدا، ويتحالف مع المسلمين ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة ويجاهرها بالعداوة، وقد استمع صلاح الدين إلى هذه المقترحات من المبعوث ووعده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد، وفي اليوم الذي استقبل فيه صلاح الدين مبعوث كونراد، وصل في المساء همفري سيد تبنين كرسول من الملك الإنجليزي ريتشارد فاستقبله صلاح الدين وقدم المبعوث الصليبي مقترحاته، والملاحظ أن الحرب ظلت قائمة طوال هذه المشاورات وفي الرابع من ربيع أول عام (588هـ/ العشرين من مارس 1192م) خرج العادل من القدس ومعه عرضاً للصلح محدداً يقضي بأنه يمكن للصليبيين أن يضموا إليهم مدينة بيروت إذا أصروا على طلبها بشرط أن تظل خراباً ولا تعمر وكذلك الباقون، ويسلم لهم صليب الصلبوت، وأن يعيّن قسيساً من الفرنجة لكنيسة القيامة، ويفتح للصليبيين أبواب مدينة القدس

(1) تاريخ الحروب الصليبية، ص: 179.

للزيارة بشرط عدم حمل السلاح[1]، وكان الدافع لهذه المقترحات الجديدة ما عاناه المسلمون من تعب في مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان، وزادت رغبة الملك ريتشارد في عقد الصلح والعودة إلى وطنه، عندما وصل إلى معسكره مبعوثاً قادماً من إنجلترا يخبره أن الأمير يوحنا شقيق الملك ريتشارد يتطلع إلى السلطة والسيطرة على إنجلترا ويطالبه باسم كبير وزراء إنجلترا بالعودة إلى البلاد، وقد أقلقت هذه الأخبار ريتشارد يضاف إلى ذلك أنه في حوالي العشرين من مارس 1192م/ الرابع من ربيع أول 588هـ قام هيودوق برجانديا الذي كان يتولى قيادة ما تبقى من القوات الفرنسية باستدعائها من معسكر ريتشارد لأن الملك لا يمد هذه القوات بالمواد الضرورية اللازمة للقتال. وفي الشهر التالي اغتيل كونراد كما سبق أن أوضحنا لتبدأ مرحلة أخرى من المفاوضات في ظروف تختلف عن الظروف السابقة، فقد اختفى كونراد عن مسرح السياسة الصليبية، والحالة في إنجلترا أصبحت حرجة وعلى الملك الإنجليزي إنهاء الحرب والعودة إلى بلاده[2].

المرحلة السادسة: كانت المرحلة السادسة والأخيرة من المفاوضات طويلة ومعقدة فقد استمرت حوالي خمسة شهور[3]. وفي 22 شعبان عام (588هـ/2أيلول عام 1192م) حمل رسل صلاح الدين العرض النهائي فوقعه ريتشارد قلب الأسد وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة التي تنص على ما يلي:

ـ يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوباً بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.

ـ تكون عسقلان بأيدي المسلمين، على أن يجري تخريبها.

ـ يتقاسم المسلمون والصليبيون، اللد والرملة، مناصفة.

ـ يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحرّية.

ـ للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.

ـ مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية، ص: 181.
(2) المصدر نفسه، ص: 182.
(3) المصدر نفسه، ص: 182.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التي شملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس[1].

ولما تمت الهدنة أذن صلاح الدين للصليبيين بزيارة بيت المقدس واختلط عسكر المسلمين بعسكر الصليبيين وذهبت جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، كما وصل خلق عظيم من الصليبيين إلى القدس للحج، وأنفذ صلاح الدين الخفراء يحفظونهم وغرضه من ذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم[2].

ـ نتائج الحملة الصليبية الثالثة وأهم الأحداث قبل وفاة صلاح الدين:

1 ـ برحيل ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده، بعد صلح الرملة بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامي مرة أخرى، هذا الحشد من الملوك والأمراء، ومع أن أوروبا الغربية اتحدت في ذلك العمل، وجهِّزت حملة كانت من أكبر الحملات الصليبية، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دي مونتفيرات، ومن نجدة طرابلس من قِبل الأسطول الصقلي، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعدَّ الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا، فضلاً عن جزيرة قبرص، على أن أمراً واحداً قد تحقَّق هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح[3].

2 ـ يُعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم فضلاً عن أنها لم تنجح في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

3 ـ شاركت الظروف السياسية والعسكرية التي واجهت هذه الحملة وأحاطت بها في هذه النهاية الفاشلة، إذ ليس في استطاعة جيش تجرَّد من القيادة الموحدة، وفرّقته المنازعات السياسية، وقاتل في أرض أجنبية، أن يحرز النصر على جيوش جمع بينها وحدة الصف

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 202، الدبلوماسية الإسلامية، ص: 394.

(2) صلاح الدين والصليبيون، ص: 280.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 204.

والهدف، وانضوت تحت قيادة رجل واحد مثل صلاح الدين.

4 ـ كان من بين عوامل الفشل أن ملكيْ إنكلترا وفرنسا حملا معهما إلى الشرق ما بينهما من منازعات سياسية محلية، على الرغم من اتفاقهما على التغاضي قبل أن يتحركا من أوروبا الغربية.

5 ـ اختلف الطابع الروحي للحملة، إذ لم يكن للبابا دور كبير في توجيهها، كما حدث في الحملة الصليبية الأولى، وطغى عليها الطابع السياسي بما يحمل من خلفيات متناقضة[1].

6 ـ استمرار تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت المنازعات الدينية والسياسية على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب، إذ تحتّم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة مدة ثلاث سنوات وفي ظروف غير عادية، بالإضافة إلى ما حصل من تشنجات سرعان ما امتصها صلاح الدين بحكمته، نذكر منها النزاع الذي حصل بين العناصر التركية والعناصر الكردية في جيشه[2]، ولولا رحمة الله ثم قيادة صلاح الدين لكانت الخسائر كبيرة وبشكل غير متصور، ولكن حسن قيادة صلاح الدين وصمود المسلمين في وجه هذه الحملة الشرسة أربك ملوك أوروبا وأفشل مخططاتهم ولم يستطيعوا إرجاع بيت المقدس، وهذا يعتبر انتصاراً عظيماً لصلاح الدين على الرغم من الخسائر التي لحقت بالمسلمين.

7 ـ تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة، وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته[3]، وكان من هذا الاختلاط في حياة الفرنج ما يأتي:

أ ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بينهم في تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع قوانين في هذه العلوم[4].

ب ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة

---

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 205.

(2) المصدر نفسه، ص: 205.

(3) المصدر نفسه، ص: 205، الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، ص: 299.

(4) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، ص: 218.

والميناء والمعادن والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية، يقول جوستاف لوبون: ولم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك... ثم يقول: وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة.. ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوروبا تحولاً تاماً[1].

ت ـ تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها، ولولا الحرب الصليبية لتأخر نمو الحضارة في أوروبا لمدة لا يعلمها إلا الله، ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين[2].

يقول لوبون: ولكنا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية، تجلت لنا أهمية تلك النتائج، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين ـ أي مدة التواجد الصليبي في بلاد المسلمين ـ من أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوروبا، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التي نشدتها، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين ـ وأما الغرب، فكان غارقاً في بحر الهمجية[3].

ذالكم هو ما أفادته أوروبا من الحروب الصليبية، وهي، وإن منيت بخسائر فادحة وهزائم قاتلة، لم تحقق الهدف الذي جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، إلا أنها كسبت من وراء ذلك هذه المكاسب العظيمة التي نهضت بأوروبا وأسرعت في إيصال الحضارة إليها[4]، وأما المسلمون فإنه لم يكن لدى الصليبيين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون، فقد كانوا في سلوكهم وحوشاً ضارية، وكانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على حد سواء[5]. ولقد وصف أسقف عكا الصليبي (جاك دوفيتري) الغزاة بقوله: وكان لا يُرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين، والمهرجين والرهبان والدّعار والراهبات العواهر[6]، وكان مع الحملة الصليبية جيش العواهر الذي جلب خصيصاً للترفيه عن المقاتلين، لم يقتصر على جنود الصليبيين، ولكنه تعدى ذلك إلى صفوف الفجرة والفسقة من المسلمين[7]، يقول ابن كثير:

(1) حاضرة العرب، ترحمة عادل زعيتر، ص: 336، 337.
(2) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، ص: 219.
(3) حضارة العرب، ص: 223، 224.
(4) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية، ص: 219.
(5) المصدر نفسه، ص: 220.
(6) المصدر نفسه، ص: 222.
(7) المصدر نفسه، ص: 222.

وأمداد الفرنج تصل من البحر من كل وقت حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء، لينكحوها في الغربة، فيجدون راحة وخدمة وقضاء وطر، فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة، حتى إن كثيراً من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم من أجل هذه النسوة، واشتهر الخبر بذلك[1]، وذكر المؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا: أن وصل مركب فيه ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعت من جزر البحر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وزعمن أن هذه قربة، ما فوقها قربة، ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزوبة[2]، ويقول أيضاً: وخرجت النساء للإسهام في الحملة الصليبية الثالثة فمنهن من خرج، وقد لبسن الدروع، وكنّ في زي الرجال للاشتراك في المعارك بأنفسهن، لاعتقادهن أن ذلك عبادة[3]، ومنهن من خرجن لإسعاف الغرباء، وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين[4].

8 ـ فقه المصالح والمفاسد: جاء صلح الرملة بسبب ظروف عسكرية واقتصادية جعلت صلاح الدين يقبل به، مع علمه بأن الموقف الفرنجي كان ضعيفاً، فقد كانت تقديرات رجاله ومستشاريه بأن مغادرة القوى العسكرية الفرنجية إلى بلادهم هي من صالحهم، وإن بقاءهم سيؤدي إلى قدوم قوات أوروبية جديدة ستحدث الضرر بالمعسكر الإسلامي[5]. وإذا نظرنا في تاريخ المعاهدات والاتفاقات والهدن التي عقدها المسلمون مع الفرنج، كعماد الدين ونور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين نلاحظ أنها كانت محددة الأهداف وهو إعطاء فرصة للقوات الإسلامية للاستعداد وزيادة إمكاناتها القتالية للقيام بجولة أو جولات قادمة ضد الفرنج، ومعظم هذه الاتفاقات كانت بطلب من الفرنج أنفسهم، ولم يكن الزعماء المسلمون يتوانون عن عقدها، لما فيها من مصلحة لهم، إما لمحاربة إمارات أخرى لم تعقد معهم المعاهدات، أو للتسهيل على المسلمين وحرية تنقلهم وسفرهم بين مصر وبلاد الشام، ولتسهيل مهمة تنقل القوافل التجارية عبر المنطقة العربية أو لتوفير الأمن والاطمئنان لقوافل الحجاج لأداء مناسك الحج دون خطر، وأما الصلح الأخير وهو صلح الرملة، فقد حدد

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن: أسباب الضعف في الأمة، ص: 222.

(2) كتاب الروضتين (2/ 149)، الجهاد والتجديد، ص: 281.

(3) الجهاد والتجديد، ص: 281.

(4) المصدر نفسه، ص: 281.

(5) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص: 43.

بثلاث سنوات، ووجد صلاح الدين ومستشاروه أن المصلحة في عقده بسبب سوء الأحوال الصحية التي ألمَّت بجنده بالإضافة إلى الإرهاق والتعب الذي عانوه، فكانوا يرون أنها فرصة للاستعداد لجولات ومعارك قادمة[1]، فابن شداد يقول: ورأى السلطان ذلك مصلحة لما غشي الناس من ضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان . . . فرأى أن يجمهم مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التي صاروا إليها ويعمر البلاد، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة ويتفرغ لعمارته[2]، ويذكر ابن شداد كذلك أن صلاح الدين لم يكن راضياً عن هذا الصلح، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، ويرى ابن شداد أن الصلح كان في مصلحة المسلمين، لأن صلاح الدين توفي بُعيد عقده؛ ولو اتفقت وفاته أثناء المعارك المحتدمة بين المسلمين والفرنج، لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة[3].

9 ـ **مقتل ريتشارد قلب الأسد:** بعد صلح الرملة أبحر ريتشارد من عكا عائداً إلى بلاده وغرقت سفينته في البحر واستطاع أن يصل إلى الشاطئ سالماً، ثم توغل في أرض النمسا متنكراً، حتى اكتشف أمره في إحدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا في 11 كانون الأول (ديسمبر) 1192م فاقتيد إلى ليوبولد دوق النمسا الذي اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشرائه إلا أنه ما لبث أن سلمه هنري السادس إمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفع فدية كبيرة[4]، وقد أطلق سراح ريتشارد قلب الأسد في آذار (مارس) 1194م، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل فقضى نحبه في 26 آذار عام (1199م)[5].

10 ـ **طلبات من ديوان العزيز:** وبعد خراب عسقلان وصل من دمشق كتاب من النواب بها وفي طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي يتضمن فصولاً ثلاثة: **الأول:** الإنكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر، **والثاني:** الإنكار على مظفر الدين في مسك حسن ابن قفجاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني. **والثالث:** فيه الأمر بإحضار القاضي الفاضل إليهم ليقال له أشياء: فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك وعن الثاني بأن ابن قفجاق لا

---

(1) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص: 57.
(2) النوادر السلطانية، ص: 233.
(3) النوادر السلطانية، ص: 235، معاهدات الصلح والسلام، ص: 58.
(4) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، ص: 329.
(5) المصدر نفسه، ص: 329.

يخفى ما تصدى له من الفساد في الأرض، وعن الثالث بأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة[1] إلى العراق. وكتب القاضي الفاضل في الاعتذار بالحضور إلى الدِّيوان تمثل في كتابه بهذين البيتين :

مـا كـنـت أول سـارٍ غـرّه قَـمَـرٌ ... ورائـد خـدعـتـه خُـضْـرَةُ الـدِّمَـنِ

مَـثِّـلْ لـنـفـسـكَ شـخـصـي إنـنـي رجـل ... مِـثْـلَ الـمُـعَـيْـدِي فـاسـمـع بـي ولا تَـرَنـي[2]

11 ـ ما قاله الرشيد ابن النابلسي في قصد الفرنج للسلطان بالقدس:

من جملة قصيده:

ويـح الـفـرنـجـة بـل امّـهـم أوَمـا ... فـيـهـم لـبـيـب عـلـى الـعِـلات يـعـتـبـر

فـكـم نَـثَـرْتَـهُـمُ ضـربـاً إذا انـتـظـمـوا ... وكـم نـظـمـتـهـم طـعـنـاً إذا انـتـثـروا

كـم قـد سَـقَـيْـتَـهُـمُ ذُلاً فـلا عـجـب ... إن عـربـدوا سـفـهـاً بـالـقـوم قـد سَـكِـرُوا

إن يـمّـمـوك فـلا بِـدعٌ لـجـهـلـهـم ... تـسـعـى إلـى الأسـد فـي غـاباتـهـا الـحُـمرُ

زاروا نـمـوراً ولا تُـغـنـي وقـاحـتـهـم ... إذا أُسـودك فـي أبـطـالـهـم زأروا

فَـحَـامِ عـن حـوطـة الـبـيـت الـمـقـدس لا ... خـوفٌ وحـاشـاك مـن خـوف ولا ضـرر

هـو الـشـريـف وقـد نـاداك مـعـتـصـمـاً ... فـمـا عـلـى مـجـده مـن بـعـدهـا حـذر

وسـوف تـسـتـغـفـر الأيـام هَـفْـوَتـهـا ... وتـحـصـد الـفـئـة الأوغـاد مـا بَـذَرُوا[3]

12 ـ وقال أبو الحسن ابن الساعاتي في مدح صلاح الدين:

مُـنِـعـتْ ظـبَـاءُ الـمُـنـحـنـى بـأسـوده ... وأشـد مـا أشـكـوه فَـتـك ظِـبـائـه

فَـعَـلـت بـنـا وهـي الـصَّـديـق لـحـاظُـهـا ... كُـظـبَـى صـلاح الـديـن فـي أعـدائـه

سَـلْ عـنـه قـلـب الإنـكـتـار فـإنّ فـي ... خـفـقـانـه مـا شـئـت مـن أبـنـائـه

لـولاك أمّ الـبـيـتَ غـيـر مُـدافـع ... ولـسـال سـيـل نَـدَاك فـي بـطـحـائـه

---

(1) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (24/ 205)

(2) كتاب الروضتين (4/ 285).

(3) المصدر نفسه (4/ 290).

وبكت جفون القدس ثانية دماً ... لترنُّم النّاقوس في أفنائه[1]

13 ـ تحصين القدس وتفقد أحوالها بعد الصلح: قال العماد: عاد السلطان بعد السِّلم إلى القدس لتفقُّد أحواله، وعرض رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرس سوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان وأدار سور القدس على قبة صهيون، وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمَّم العزم على الحج، فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد أن قدّم مقدّماته وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان، وفوّض ولاية القدس وأعمالها إلى عزّ الدين جُرْديك حين استعفى منها حسام الدين سياروخ، وولّى مملوكه علم الدين قيصر مادون القدس، كعمل الخليل وغزّة والدّاروم وعسقلان[2].

ـ اعتراض القاضي الفاضل على صلاح الدين في رغبة الحج: ولما بلغ القاضي الفاضل من قِبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله، إنّ الفرنج لم يخرجوا بعد من الشّام ولا سَلُوا عن القدس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سُلطاننا سفراً مقدراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلة فيصبِّحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه ـ والعياذ بالله ـ ويَفْرُطُ من يد الإسلام ويصيُر الحج كبيرة من الكبائر التي لا تُغفر، ومن العثرات التي لا تُقال ثم قال: وحجاج العراق وخراسان أليس هم مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثأر وسَفْكِ دم وتشويش موسم، فاقْعُدوا، فيكون تاريخ سوءٍ، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السخيفة... يا مولانا، مظالم الخلق كَشْفُها أهم من كل ما يُتقرّب به إلى الله، وما هي بواحدة، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُستغرب معه وقوع القَطْرْ، ومن تسلط المُقطَعين على المنقطعين من لا ينادي وليدُه وفي وادي بَرَدى والزّبَدّاني من الفتنة القائمة والسيف الذي يَقْطُر دماً ما لا زاجر عنه، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمّات إقامة وجوه الدّخل وتقدير الخرْج بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير، وعَرضَت للمولي شواغلٌ دونه ومشت الأحوالُ مشياً على ظلْعٍ، فلما خَلَتِ

---

(1) كتاب الروضتين (4/ 329).

(2) المصدر نفسه (4/ 332).

النُّوَب ـ أعاذ الله من عودها ـ كان خلو بيتِ المال أشدَّ ما في الشدة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحصَّل، إنما يطلب تمشية من حيث تستقر[1]. وهذه الرسالة تدل على عمق فهم القاضي الفاضل بمقاصد الشريعة كما تبين أهمية وجود العلماء الربانيين بجانب القادة السياسيين والعسكريين. وقد استجاب السلطان صلاح الدين لنصيحة القاضي الفاضل فسمع منه وشكر نصحه وقبله، وعزم على ترك الحج عامه ذلك، وكتب به إلى سائر الممالك واستمر السلطان مقيماً بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة وقرآن، وكلّما وفد أحدٌ من رؤساء النصارى للزيارة أَوْلاه غاية الإكرام والإحسان؛ تأليفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القُمامة متنكراً ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم، بحيث لا يرى والسلطان يعلم ذلك جملة لا تفصيلاً، ولهذا يعاملهم بالإكرام، ويُرِيهم صفحاً جميلًا وبرًا جزيلًا وظلًا ظليلًا[2].

14 ـ رجوعه إلى دمشق: ولما كان خامس شوّال سنة (588هـ) ركب في عساكره وجحافله فبرز من القدس الشريف قاصداً دمشق المحروسة، واستناب على القدس عز الدين جُرديك وعلى قضائها بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي فاجتاز على وادي الجيب[3]، وبات على بركة الدَّاوِيَّة، ثم أصبح في نابلس فنظر في أحوالها وأمورها، ثم ترحّل عنها، فجعل يمر بالمعاقل والحصون والبُلدان للنظر في الأحوال والأموال وكشف المظالم والمحارم والمآثم وترتيب المكارم، وفي أثناء الطريق جاء إلى خدمته بوهيمند صاحب أنطاكية فأكرمه وأحسن إليه وأطلق له أموالاً جزيلة وخلعاً جميلة وكان العماد الكاتب في صحُبته، فأخبر عن منازله منزلة منزلة ومرحلة مرحلة إلى أن قال: وعبر يوم الاثنين عين الجَرّ[4] إلى مرج يَبُوس[5]، وقد زال البُوس، وهناك توافد أعيان دمِشق وأماثِلُها وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء على العرّادة[6]، جرى المتُلَقُّون بالطرق والتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء ـ يعني سادس عشر شوّال بكرة ـ إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لولا أننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها

---

(1) كتاب الروضتين (4/ 334).

(2) البداية والنهاية (16/ 646).

(3) حصنان يقال لهما: الحبيب الفوقاني والتحتاني من أعمال فلسطين.

(4) عين الجر: موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق.

(5) مرج يبوس: يبوس جبل بالشام بوادي التيم من دمشق.

(6) العرادة: قرية على رأس تل شبه القلعة بين رأس عين ونصيبين.

وأبرزت نساءها ورجالها وكان يوم الزينة وخرج كل من في المدينة وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، واجتمع بأولاده الكبار والصغار، ووفد عليه رسل الملوك من سائر الأقطار، وأقام بقية عامه في اقتناص الصيد وحضور دار العدل للفصل والعمل بالإحسان والفضل، ولما كان عيد الأضحى امتدحه بعض الشعراء بقصيدة يقول فيها:

وأبيها لولا تغزُّلُ عينيها ... لما قلت في التغزُّل شِعرا
ولكانت مدائح الملك الناصر ... أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبَّقَ الممالكِ عدلاً ... مثل ما أوسع البريَّة بِرّا
فيحلُّ الأعياد صوماً وفطراً ... ويَلْقَ الهناء برّا وبحرا
يا مُسِرُّ الطاعات لله إن ... أضحى مليك على الهَنَاتِ مُصِرّا
نِلْتَ ما تبتغي من الدين والدنيا ... فتيها على الملوكِ وفخرا
قد جمعت المجدين أصلاً وفرعاً ... وملكت الدارين دنيا وأخرى[1]

15 ـ **اتهام أمير الحج بمكاتبة صلاح الدين ضد الخليفة:** في سنة (588هـ) اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين ـ وقد كان على إمرة الحجيج من مدّة عشرين سنة، وكان في غاية حسن السيرة ـ بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يرده أحد، وقد كان مكذوب عليه في ذلك ومع هذا حُبس وأُهين وصودِر[2].

16 ـ **وفاة الشاعر أبو المرهف نصير بن منصور النميري:** توفي في عام (588هـ) أبو المرهف النميري، فقد سمع الحديث واشتغل بالأدب، وكان قد أصابه جُدَرِيٌّ وهو ابن أربع عشرة سنة فنقص بصره، فكان لا يُبصِرُ الأشياء البعيدة ويرى القريب منه، ولكنّه لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق لمداواة عينيه فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين والزهاد فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن، وقد سئل مرّة عن مذهبه واعتقاده فأنشأ يقول:

أُحبُّ عليّا والبَتُولَ وُولْدَهَا ... ولا أجْحَدُ الشيْخَينِ فضْلَ التقدم
وأبرأ ممّن نال عثمان بالأذى ... كما أتبَرّا من وَلاءِ ابن مُلجم

---

(1) البداية والنهاية (16/ 647).

(2) المصدر نفسه (16/ 648).

ويعجبني أهلُ الحديث لصِدقهم ... فلستُ إلى قوم سِوَاهم بُمنتَهي[1]

ومن شعره قوله:

وزهّدني في جميع الأنام ... قِلّة إنصاف من تَصْحَبُ

هم الناس ما لم تُجَرِّبهُمُ ... وطُلْسُ الذِّئاب إذا جُرِّبوا

وليتك تَسْلم عند البعاد ... منهم فكيف إذا تَقْرُبُ[2]

الرابع عشر: مرض صلاح الدين ووفاته: عام (589هـ)

1 ـ الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين:

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه والضيوف في فيوض إنعامه عائمون والفقراء في رياض صدقاته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لإسداء الجود، وإبداء السعود، وبث المكارم، وكف المظالم وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً واستصحب معه أخاه العادل وأبعد في البرية وظهر عن ضَمير ضُمَير إلى الجهة الشرقية وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر، ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتَّلقِّي وسعادته في التَّرقِّي ولما لقي الحُجَّاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمنّاه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصَلَهم من غَلّات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين ورواتبها وإدراراتها، وسُرَّ سلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولدُ أخيه سيف الإسلام، فتلقاه بالأكرام[3].

2 ـ مرض صلاح الدين:

لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حُمّى صفراوية كانت في بطنه أكثر منها في ظهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صَفَر عليه أثرُ الحُمّى ولم يظهر ذلك للناس، لكن حضر عنده القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل ودخل ولده

(1) البداية والنهاية (16/ 650).

(2) كتاب الروضتين (4/ 356).

(3) المصدر نفسه (4/ 357).

الأفضل، قال القاضي ابن شداد: وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطَّعام في خدمة ولده الأفضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك، فانصرف ودخلت إلى الأبواب القِبْلى، وقد مُدَّ الطعام وولده الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت، وما كان لي قوة للجلوس استيحاشاً وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردُّد في طَرَفي النَّهار، وأدخل إليه وأنا والقاضي الفاضل في النَّهار مراراً، ويُعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خِفَّة، وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مِزاجه سفراً وحَضَراً، ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرّابع، فاشتدَّ مرضه، وقَلَّت رطوبات بدنه وكان يغلبه النَّفس غلبة عظيمة، ولم يَزَل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدَّة وأُحضر ماء فاتر يشربه عقيب شراب يُلَيِّن الطبع، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شِدَّة حرِّه فغيّر وعُرض عليه ثانياً، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله لا يمكن لأحد تعديل الماء. فخرجت أنا والقاضي من عنده، وقد اشتدَّ منّا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب القدح رأس من أحضره. واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل متزايداً وتغيّب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثُلثُهُ، أو قريب منه ثم نحضر من باب الدار، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا تعرَّفنا أحواله وانصرفنا وكُنَّا نجد الناس يرتقبون خروجنا من بيوتنا حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا[1]، ولما كان العاشر من مرضه حُقن دفعتين وحصل من الحُقنة راحة وحصل بعض الخفّ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا باب الدّار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّدة، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظّم توران شاه يقول: إن العَرَق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ويخبرنا بحاله في العرق، فافتقده ثم خرج إلينا، وذكر أن العَرَقَ سابغ، فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا طيِّبة قلوبنا ثم أصبحنا في الحادي عشر من

(1) النوادر السلطانية، ص: 419.

مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب، وسألنا عن الأحوال، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفَرش، ثم في الحُصْر وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً، وخارت القوّة واستشعر الأطباء[1].

3 ـ تحليف الملك الأفضل الناس:

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده، وتحقّق اليأس منه، وشرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة، وعُمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصِّلة للمقاصد، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، وله بعد وفاته، واعتذر للنّاس بأن المرض قد اشتدّ وما نعلم ما يكون، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك[2]، وكانت نسخة اليمين المحلوف بها وفضولها: إنني من وقتي هذا قد أصفيتُ نيّتي، وأخلصت طويّتي للملك الناصر مدة حياته، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذّب عن دولته، بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه ثم من بعده لولده الملك الأفضل عليّ، ووالله إنني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل[3].

4 ـ وفاته رحمه الله:

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وهي الليلة الثانية عشر من مرضه ـ رحمة الله عليه ـ اشتدّ مرضُه وضعفت قوّته ووقع في أوائل الأمر من أول الليل، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزّكي، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلّاسة، وهو رجل صالح يبيت في القعلة حتى إن احتضر ـ رحمة الله عليه ـ بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذُكّر بالشهادة وذكر الله تعالى، ففعل ونزلنا وكل منا يودّ فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة ـ رحمة الله عليه ـ على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، ولا يكاد يفيق إلا في الأحيان. وذكر الشيخ أبو

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 419.

(2) المصدر نفسه، ص: 420.

(3) المصدر نفسه، ص: 421.

جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۝٢٢﴾ [الحشر: 22]. سمعه وهو يقول رحمة الله عليه: «صحيح»؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به فللّه الحمد على ذلك[1]، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع وعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح وفاته ـ رحمة الله عليه ـ ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد: 30] تبسّم وتهلّل وجهُهُ وسَلَّمها إلى ربه[2]، وكان يوماً لم يُصَبِ الإسلام والمسلمون بمثله منذ فُقِد الخلفاء الراشدون وغِشيَ القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله[3]، قال القاضي بن شداد: وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فِدَاء من يعزُّ عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبِلَ الفداء لفُدِيَ بالنفس[4].

5 ـ الجلوس للعزاء ودفنه:

ثم جلس ولده الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحُفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين، وكان يوماً عظيماً قد شغل كلَّ إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحُفِظَ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فصّال[5]، أوَ وعَاظ وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تُزهق لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظُّهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكّنّا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبّة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التِّبن الذي يُلَتُّ به الطِّين وغَسّله الدّولعي الفقيه ونُدبت إلى الوقوف على غُسْله فلم يكن لي قوّة تحمُّل ذلك المنظر، وأخرج بعد صلاة الظُّهر في تابوت مُسَجًّى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حِلّ عَرَفَه وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضَّجيج حتى إن العاقل يتخيّل أن الدّنيا كلها تصبح صوتاً واحداً، وغِشيَ الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصَّلاة، وصلّى عليه الناس أرسالاً وكان أول من أمّ الناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدار التي في البستان التي كان

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 422.

(2) المصدر نفسه، ص: 422.

(3) المصدر نفسه، ص: 422.

(4) المصدر نفسه، ص: 422.

(5) الفصال : مدح الناس ليصلوه.

متمرضاً بها ودفن في الضفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النّهار ولده الظّافر، وعزّى النّاسّ فيه وسكّن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنّهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزين، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يَعُدْ منا أحد في تلك الليلة إلا أنّا حضرنا وقرأنا وجدّدنا حالاً من الحُزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته وعمّه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً، وأطلق باب القلعة للفقهاء، والعلماء، وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر، ثم انفضّ المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رَحِمَهُ اللهُ[1].

وقال ابن كثير: .. ثم عمل عزاؤه بالجامع الأُمويّ ثلاثة أيام، يحضره الخواص والعوام والرعية والحكام وقد عمل فيه الشعراء مراثٍ كثيرة من أحسنها ما عمل العماد الكاتب في كتابه «البرق الشامي» وهي مائتان واثنان وثلاثون بيتاً[2].

6 ـ سيف صلاح الدين في قبره:

ويقال: إنه دُفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد وذلك عن أمر القاضي الفاضل أحد الأجواد الأمجاد، وتفاءلوا بأنّه يكون معه يوم القيامة يتوكأُ عليه، حتى يدخل الجنّة، لما أنعم عليه من كسر الأعداء ونصر الأولياء وأُعظم عليه بذلك المنة[3].

7 ـ وصية صلاح الدين لابنه الملك الظاهر:

أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أمين وأمين الناس عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء، وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم[4].

---

(1) النوادر السلطانية، ص: 423.

(2) البداية والنهاية (16/ 653).

(3) المصدر نفسه (16/ 653).

(4) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (16/ 216).

8 ـ ما خلّف من التركة:

لم يترك في خزانته من الذهب سوى ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً وقيل سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك[1]، وإنما لم يُخلِف أموالاً ولا أملاكاً؛ لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه حتى إلى أعدائه وقد كان متقلّلاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ولا يُعرَفُ أنه تخطّى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همُّه الأكبر ومقصوده الأعظم نصرَ الإسلام وكسر الأعداء اللّئام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده مع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وجهاراً وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد، في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وختامها وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة ولم تَفتْه الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرضِ موته، كان يدخل الإمام فيُصلّى به، فكان يتجشّم القيامَ مع ضعفه[2].

9 ـ من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين:

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: 21]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: 1] . كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمي وداعاً لا تلاقي بعده وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب جنود مجندة، والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء، ولا يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرْضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما فقدتم إلا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام[3].

---

(1) البداية والنهاية (16/ 655).

(2) المصدر نفسه (16/ 656).

(3) النجوم الزاهرة (6/ 52، 53).

10 ـ رؤيا مبشرة:

قال أبو شامة في كتابه الروضتين: ووجدت في بعض الكتب الفاضلية أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأنَّ قائلاً يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الأثر النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1]. وما كان يوسفنا ـ رحمة الله عليه ـ في الدنيا بالإضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة، فهو آخر ما كان يرجو من الفتوح[2].

11 ـ قصيدة العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين:

شَمْلُ الهُدى والمُلكِ عَمَّ شَتاتُهُ ... والدَّهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مُذْ لم يَزَل مخشيَّة ... مرجوَّة هِبَاتُهُ وَهِبَاته
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولربِّهِ طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نيّاتُهُ
أين الذي ما زال سُلطاناً لنا ... يُرجى نَدَاه وتُتَّقى سَطَواتُهُ
أين الذي شَرُفَ الزَّمان بفضله ... وسَمَتْ على الفُضَلاء تشريفاته
أين الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسه ... ذُلاً ومنها أدركت ثاراته
أغلالُ أعناقِ العِدَى أسيافه ... أطواق أجياد الورى مِنَّاتُهُ
لم يُجْدِ تدبيرُ الطَّبيب وكم وكم ... أجدت لطبِّ الدَّهر تدبيراته
مَنْ في الجهاد صِفَاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أُغمدت صفحاته
من في صدور الكفْر صدرُ قَناتِهِ ... حتى توارث بالصَّفيح قَنَاتُهُ
لَذُّ المتاعب في الجهاد ولم تكن ... مُذ عاش قَطُّ لِذاتِهِ لَذَّاتُهُ
مسعودةٌ غدواتُهُ محمودةٌ ... روحاته ميمونة ضَحَواتُهُ
في نصرة الإسلام يسهر دائماً ... ليطول في روض الجنان سُبَاتُهُ
لا تحسبوه مات شخص واحدٌ ... فممات كلِّ العالمين مماته

---

(1) مسلم، رقم: 2956.

(2) كتاب الروضتين (4/ 370).

مَلِكٌ عن الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمته حُمَاتُهُ
قد أظلمت مُذ غاب عنها دُوره ... لما خلت من بدره دَارَاتُهُ
دُفن السَّماحُ فليس تُنشَرُ بعدما ... أودى إلى يوم النشور رُفاتُهُ
الدين بعد أبي المظفَّر يوسف ... أقوَت قُواه[1] وأقفرت ساحاته
جبلٌ تضعضع من تَضَعضع رُكنه ... أركانُنا تَهُدُّنا هذاتُهُ
ما كنت أعلم أنّ طوداً شامخاً ... يَهوي ولا تَهوِي بنا مَهوَاتُهُ
ما كنت أعلم أنَّ بحراً طامياً ... فينا يُطَمُّ وتنتهي زَخَراتُهُ
بحرٌ خلا من وارديه ولم تَزَل ... محفوفةً بوفوده حافَاتُهُ
من لليتامى والأرامل راحم ... متعطِّفٌ مفضوضة صَدَقَاتُهُ
فعلى صلاح الدين يوسُفَ دائماً ... رضوانُ ربِّ العرش بل صَلَوَاتُهُ
لضريحه سُقْيا السَّحابِ فإن يَغِبْ ... تحضُر لرحمة ربه سُقْيَاتُهُ
وكعادة البيت المقدَّسِ يحزُنُ ... البيت الحرامُ عليه بل عرفاته
من للثغور وقد غدَاها حِفظُهُ ... من للجهاد ولم تَعُدْ عاداتُهُ
بكت الصَّوارمُ والصَّواهلُ إذ خلت ... من سَلِّها وركوبها غزواته
وبسيفه مداً لحُزن مصَابه ... إذ ليس يُشفى بعده صَدَيَاتُهُ
يا وحشةً للبيض في أغمادها ... لا تنتفيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن رَوْعَاتُهُ
يا حسرتا من يأسِ راجيه الذي ... يُقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه ... أسدٌ وإنّ بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ... فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السَّبت وهو لما به ... يُبدي الشَّبات وقد بَدَتْ غشياتُهُ
والبِشرُ منه تَبلَّجَت أنوارُهُ ... والوجه منه تلألأت سُبُحاتُهُ

---

(1) من أقوى الرجل: إذا نفذ طعامه وفني زاده.

ويقول لله المهيمن حكمةُ ... في مرضةٍ حصلت بها مَرْضاتُهُ
وقف الملوكُ على انتظار ركوبه ... لهمُ ففيم تأخّرت رَكَباتُهُ
كانوا وقوفاً أمسِ تحت ركابه ... واليوم هُمْ حَوْلَ السّريرِ مُشاتُه
وممالك الآفاق ساعية له ... فمتى تجيءُ بفَتْحِهنّ سُعَاتُهُ
هذي مناشيُر الممالك تقتضي ... توقيعه فيها فأين دَواتُهُ
هذي الجيوش من البلاد تواصَلَت ... فعلام لا تسمو لها راياته
قد كان وعدُك في الرّبيع بجمعها ... هذا الربيع وقد دنا ميقاتُه
والجندُ في الديوان جُدِّدَ عَرْضُهُ ... وإذا أمرت تجدّدت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه ... عَجِّلْ فقد طَمَحَت إليه عُداتُهُ
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوه ... حتى نفيءَ إلى هُداك بُغاتُهُ
والشّرق يرجو غَرْبَ عَزمِكَ ماضياً ... في مُلكه حتى تطيع عُصاتُهُ
مُغرىً بإسداء الجميل كأنّما ... فُرِضَت عليه كالصَّلاة وصِلاتُهُ
هل للملوك مَضَاؤه في مَوقفٍ ... شُدّت على أعدائه شَدّاتُهُ
وإذا الملوكُ سَعَوْا وقصَّرَ سَعْيُهُم ... رَجَحت وقد نَجَحَتْ به مَسْعاتُهُ
كم جاءه التّوفيق في وقعاته ... من كان بالتوفيق توقيعاتُهُ[1]

وقال أيضاً:

يا راعياً للدين حين تمكّنَتْ ... منه الذئاب وأسلمتهُ رُعاتُهُ
ما كان ضَرّك لو أقمت مُراعياً ... ديناً تَولّى مُنذ رَحَلْتَ وُلاتُهُ
أضجرت مِنّا أم أنِفت فلم تكن ... ممن تصابُ لشدَّةٍ ضَجَراتُهُ
أرضيت تحت الأرضِ يا من لم تَزَلْ ... فوق السماء عليّة درجاته
فارقت مُلكاً غيرَ باق مُتعبا ... ووَصلت مُلكا باقيا راحاتُهُ
أعزِز على عيني برؤية بهجة الدنيا ... ووجهك لا تُرى بهجاتُهُ

(1) كتاب الروضتين (4/ 373).

أبني صلاح الدين إنّ أباكم ... ما زال يأبى ما الكرامُ أباتُهُ
لا تقتدوا إلا بسُنَّةِ فضلِهِ ... لتطيب من مهد النّعيم سِنَاتُهُ
وَرِدُوا موارد عَذْلِهِ وسماحِهِ ... لِتُرَدَّ عن نهج الشَّمَاتِ شُمَاتُهُ
ولئن هوى جبلٌ لقد بنيت لنا ... ببنيه من هَضَبَاتِهِ ذُرَوَاتُهُ
وبفضل أفضل وعزّ عزيزه ... وظهور ظاهره لنا سَرَواتُهُ
الأفضل الملكُ الذي ظَهَرت على الدنيا ... بزهر جلاله جَلَواتُهُ
والدين بالملك العزيز عِمَادُه ... عثمان حالية لنا حالاته
والمَلْك غازي الظّاهرِ العالي الذي ... صَحَّت لإظهار العُلَى مغزاتُهُ
ولنا بسيف الدِّين أظهرُ نصرةٍ ... بالعادل الملك المُطَهَّرِ ذاته[1]

وقال أيضاً:

من للعُلا من للذُرى من للهُدى ... يحميه مَنْ للبأس من للنائل
طلب البقاء لملكه من آجل ... إذ لم يثق ببقاء مُلك العاجل
بحرٌ أعاد البَرَّ بحراً بِرُّه ... وبسيفه فتحت بلاد الساحل
مَنْ كان أهلُ الحَقِّ في أيامه ... وبعزِّه يُرْدُون أهل الباطل
وفتوحُهُ والقُدسُ من أبكارها ... أبقت له فضلاً بغير مساجل
ما كنت أستسقي لقبرك وابلاً ... ورأيتُ جُودَكَ مُخْجِلاً للوابل
فَسَقاك رِضوانُ الإله لأنني ... لا أتقي سُقيا الغَمَام الهاطل[2]

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا على صلاح الدين وأشادوا بعدله ويقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وأما مكانة صلاح الدين فستظل عظيمة أبد الدهر، إذ يكفي ما قام به في سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم، ثم مواصلة الجهاد في صورة لا تعرف الملك لطرد

(1) كتاب الروضتين (4/ 374).
(2) المصدر نفسه (4/ 374).

الغزاة الدخلاء[1]. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءاً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة[2]، ولا شك أن وفاة صلاح الدين جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين أبناء البيت الأيوبي والذي سنتحدث عنه تفصيلاً بإذن الله تعالى في كتابنا الرابع من سلسلة موسوعة الحروب الصليبية والذي عنوانه «الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين».

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الثالثة فجراً بتاريخ 05/ 05/ 1428هـ ـ22/ 05/ 2007م والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلٰهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فللّه خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين وإلٰهي العظيم هو الموفق فله الحمد على ما منّ به عليّ أولاً وآخراً وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي هذا لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: 10] وبقول الشاعر ابن الورديّ لابنه:

---

(1) الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص: 718.

(2) النوادر السلطانية، ص: 43، 44، الحركة الصليبية عاشور، ص: 718.

اطلبُ العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل

احتفل للفقه في الدِّين ولا تشتغل عنه بمال وَخَوَلْ

واهجر النوم وحصله فمن يعرف المطلوب يَحْقِر ما بَذَل

لا تَقُل قد ذهبت أربابه كلُّ من سار على الدَّرب وَصَلْ

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك»

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mai: abumohamed2@maktoob.com

الخلاصة

1 ـ يختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية والذي نميل إليه هو عام (569هـ / 1174م) أي بعد وفاة نور الدين محمود.

2 ـ تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي برصيد أخلاقي كبير ساعده على تحقيق أهدافه العظيمة والتي من أهمها: تقواه وعبادته، وسلامة عقيدته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه بالجهاد، وحلمه، ومحافظته على أسباب المروءة وصبره واحتسابه ووفاؤه، وتواضعه.

3 ـ كانت العودة إلى هوية الأمة المسلمة وإلى عقيدة أهل السنة والجماعة من أبرز معالم التجديد في العهد الزنكي والأيوبي ولقد طال الانحراف وانتشرت البدع وتحميها دولة ظالمة وهي الدولة الفاطمية العبيدية بمصر، فكانت العودة إلى تحكيم الكتاب والسنة من أضخم منجزات الدولتين النورية والصلاحية، فقد أقيم العدل وقمعت البدع، وصبغت الدولة بالصبغة الإسلامية الصافية وقد سار صلاح الدين الأيوبي على نهج نور الدين زنكي بتطبيق الشرع في سائر أمور الدولة.

4 ـ استطاع صلاح الدين أن ينفذ المخطط الذي وضعه نور الدين زنكي للقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية الرافضية، وعمل على محاربة العقائد الفاسدة في مصر، وإعادة الفكر الإسلامي الصحيح إليها.

5 ـ استفادت الدولة الأيوبية من الجهود العلمية والوسائل الدعوية من الدولة السلجوقية والزنكية والغزنوية.

6 ـ اهتم صلاح الدين الأيوبي بالمحافظة على أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة.

7 ـ اهتم صلاح الدين بحركة الإحياء السني في دولته وذلك عن طريق إنشاء المدارس وجذب العلماء والفقهاء لدولته والإحسان إليهم.

8 ـ كانت عناية صلاح الدين الأيوبي والسلاطين الذين جاؤوا بعده للتمكين لمذهب أهل السنة في البلاد التي حكموها عناية شاملة ومكثفة في المدن التابعة لهم كالقاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب وغيرها، ومن أهم عناصر الثقافة والعلوم الشرعية التي اهتم بها الأيوبيون، القرآن الكريم، والحديث الشريف، والدراسات الفقهية والأدبية واللغوية.

9 ـ استطاعت الدولة الأيوبية إحياء النفوذ السياسي لدولة الخلافة العباسية في أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامي.

10 ـ كان فتح اليمن على يدي الأيوبيين خطوة إستراتيجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية وقد حرص الأيوبيون على إدخال الكتب السنية مع جيوشهم ونشرها في بلاد اليمن.

11 ـ يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعي السلاجقة والزنكيين والأيوبيين.

12 ـ داوم ملوك بني أيوب على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي الممثل لسيادة الخليفة العباسي على العالم الإسلامي.

13 ـ استخدم صلاح الدين وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها.

14 ـ كان للقاضي الفاضل دور بارز في رسم هذه الإستراتيجية واتخاذ الوسائل المناسبة للقضاء على الدولة الفاطمية، كإذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانة القصر الفاطمي، وقطع الجمعة الجامعة من جامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين ومحو

رسوم الدولة وعملاتها، وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام ومصر . . إلخ.

15 ـ من العوامل التي ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السني، أن المذهب الشيعي الإسماعيلي لم يكن راسخ القدم في الشعب المصري، وكانت المدارس السنية تعبىء الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، كما أن مصر أصبحت منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً في العودة بمصر إلى رحاب السنة، وذلك عن طريق التدريس في المدارس التي أنشئت أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التي تنتصر للسنة.

16 ـ كان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين في جهودهم على مستوى المسؤولية التي ألقيت على عاتقهم: علماً وخلقاً وديانة، كما كان للكثير منهم مشاركة في الحياة السياسية، والاجتماعية، كالقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين بن أبي عصرون والعز بن عبد السلام بل كان لبعضهم مشاركة فعالة في ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه عيسى الهكاري وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة في مواجهة الحكام والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً.

17 ـ كانت الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين تعيش في سعة من الرزق وبحبوحة من العيش، ذلك لأن مواردها كثيرة، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة، وقد اهتمت الدولة بالزراعة والتجارة، والصناعات وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية.

18 ـ اهتم صلاح الدين بالمستشفيات وقد قام ببناء مجموعة من أشهرها، المستشفى الناصري في القاهرة وبيمارستان الإسكندرية، والصلاحي بالقدس، وغيرها، كما اهتم ببناء أماكن للصوفية، للتربية والتعليم والعبادة وقد أحسن للصّوفية، وساهموا معه في حركة الإحياء السني، وأُدمجوا في المشروع الجهادي ضد الصليبيين.

19 ـ كانت الحياة الاجتماعية في عهده تتسم بطابع الجدية والجهاد ومناهضة الفرنج ومكافحة العدو، وكانت حياته الخاصة بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة والعظمة الزائفة والبذخ المفرط.

20 ـ كان لظهور الدولة الأيوبية أثر كبير في إحداث تطورات إدارية رئيسية تخالف تقاليد الجهاز الإداري الفاطمي، إذ أن قدوم الأيوبيين من مشرق العالم الإسلامي حمل معه روحاً جديدة في الإدارة كان مصدرها النظم السلجوقية والزنكية والعباسية.

21 ـ كان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم، وكانت سياسته في القاهرة حكيمة وحازمة في إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته، إلّا بالإشاعات وتشويه السمعة حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» وهي الإشاعات التي يرددها معاصرونا دون معرفة لمصدرها.

22 ـ شرع صلاح الدين في تحصين المدن وبناء القلاع وتنظيم الجيش لصد احتمال هجمات عليها، واهتم آنذاك ببناء قوات بحرية لأنه أدرك أن قوة الفرنج في البحر وضعفهم في البر، وأنه لا بد من بناء أسطول حربي لمنع القوافل الفرنجية البحرية التي كانت تعزز الممالك الصليبية في ساحل الشام بالمؤن والسلاح والرجال كلما اشتد عليهم الضغط البري.

23 ـ استغرق الجهد الذي بذله صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية 12 سنة من الكفاح المرير، وأضحى بعد ذلك سيد مصر والشام والموصل وغيرها من بلاد المسلمين، وقد تمكن صلاح الدين من تحقيق الوحدة أحياناً بالدبلوماسية وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأوقات.

24 ـ القاضي الفاضل العالم الكبير كان مؤثراً في دولة صلاح الدين وكان يشاوره ولا يقطع أمراً دونه ولا يخفي عنه شيئاً من أمور الجهاد، فقد كان سياسياً بارعاً وإدارياً متميزاً، ومفكراً متفوقاً، وعلماً متبحراً وأديباً تصدر الصادرة في زمانه بقلمه السيال الذي وظفه لخدمة الإسلام والمسلمين.

25 ـ كان انتصار صلاح الدين في معركة حطين تاريخياً ومن أسباب ذلك الفوز الكبير، الأخذ بسنة الأسباب ومراعاة سنة التدرج في الصراع، وبُعد نظره وحِنْكته السياسية وإخلاصه العظيم لله تعالى، والحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية في دولته التي كان من ثمارها: الاستخلاف والتمكين والأمن والاستقرار والعز والشرف والنصر والفتح.

26 ـ لم يظهر جيل صلاح الدين من فراغ، وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في حطين تنطبق فيه

كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها: أنها قائمة على الحق، وأنها قائمة بأمر الله ومجاهدة في سبيله .. إلخ.

27 ـ كان صلاح الدين يلازم العلماء ويجالسهم ويستشيرهم في الحروب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها، وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء.

28 ـ استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتياً وكان له جهاز سري في جمع المعلومات عن الأعداء متميزاً.

29 ـ كانت معركة حطين بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى كما شكلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي.

30 ـ أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميِّزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلت أهمية أرض فلسطين التي تُعدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذي يصِل بين بلاد الشام ومصر.

31 ـ لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت على أكثر من قرن، ساهم في تلك الجهود العلماء الربانيون والساسة والعسكريون والشعراء، والمربون .. إلخ.

32 ـ إن الطريق الوحيد لتحرير الأراضي المحتلة هو طريق الجهاد في سبيل الله الذي يمثل جوهر الأمن في أمتنا وذروة سنام ديننا، إنه باب من أبواب الجنة إنه انطلاق من قيد الأرض وارتفاع عن التثاقل إلى الدنيا وما كانت الأمة أن تحمي وجودها ومقدساتها إلا بعبادة الجهاد في سبيل الله، هذه العبادة التي مارسها نور الدين وصلاح الدين كانت من الأسباب للتصدي للغزو الصليبي وتحرير بيت المقدس.

33 ـ يُعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم فضلاً عن أنها

لم تنجح في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

34 ـ تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك عقد صلح الرملة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور صلاح الدين لمعالجته، وكان من آثار هذا الاختلاط في حياة الفرنج ما يأتي:

أ ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بينهم في تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع قوانين في هذه العلوم.

ب ـ نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصناعة والمعادن والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية، يقول جوستاف لوبون: ولم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك . . ثم يقول: وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة . . ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوروبا تحولاً تاماً.

ت ـ تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها، لولا الحروب الصليبية لتأخر نمو الحضارة في أوروبا مدة لا يعلمها إلا الله، ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين.

35 ـ تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا على صلاح الدين وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه، واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة وفي ظني أن أعظم في ذلك العصر نور الدين محمود.

36 ـ كان حب صلاح الدين للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلّا فيه ولا نظر إلّا في آلاته، ولا كان له اهتمام إلّا برجاله ولا ميل إلّا لمن يذكره ويحثه عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة.

37 ـ جاءت وفاة صلاح الدين خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين أبناء البيت الأيوبي.

38 ـ إن هذا العمل المتواضع قابل للنقد والتوجيه، وما هو إلا محاولة جادة هدفها معرفة عوامل النهوض، وفقه المقاومة الذي مارسه الأيوبيون وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تـجـد عـيـبـاً فـسـد الـخـلـلا　　　جـلّ مـن لا عـيـب فـيـه وعـلا

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: 10].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أهم المراجع والمصادر

1 ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي دار الفكر العربي، 1367هـ ـ 1948م.

2 ـ أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، د.عبد الله بن عبد الرحمٰن الربيعي، الرياض، 1415هـ.

3 ـ أسامة بن منقذ، والجديد من آثاره وأشعاره، محمد عدنان قيطاز، وزارة الثقافة في الجمهورية السورية، 1998م.

4 ـ أسباب الضعف في الأمة الإسلامية د.محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، السعودية، الطبعة الأولى.

5 ـ أصول الشيعة الإمامية، ناصر عبد الله بن علي القفاري، دار الرضا للنشر والتوزيع، الجيزة بمصر، الطبعة الثالثة 1418هـ ـ 1998م.

6 ـ أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 1977م.

7 ـ أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي د.جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1210هـ ـ 2001م.

8 ـ أعمال الفرنجة ترجمة حسن حبشي.

9 ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق، الطبعة الثانية 2001م.

10 ـ الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي السلامة مناصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1412هـ ـ 1991م.

11 ـ الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي.

12 ـ الاعتبار لابن منقذ، حرّره فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

13 ـ الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، د. فيصل بن جعفر بن عبد الله بالي، مكتبة التوبة السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ ـ 1999م.

14 ـ الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة، عماد الدين خليل.

15 ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، 1413هـ ـ 1992م.

16 ـ البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار هجر، الطبعة الأولى، 1419هـ ـ 1998م.

17 ـ البطولة والفداء عند الصوفية دراسة تاريخية، أسعد الخطيب، مطبعة الشام، الطبعة الثانية.

18 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذاري المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال.

19 ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي.

20 ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة 1963م، للمؤرخ ابن الأثير.

21 ـ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، نظير حسان سعداوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.

22 ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن

الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، الطبعة الثانية 1408هـ ـ 1988م.

23 ـ التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عباس العزاوي، طبع ببغداد 1376هـ/ 1957م.

24 ـ الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، د. الأمين الصادق الأمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 2004م.

25 ـ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، د. فايد حامد محمد عاشور، دار الاعتصام، الطبعة الأولى.

26 ـ الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى، 1406هـ ـ 1986م.

27 ـ الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى، 1419هـ/ 1998م.

28 ـ الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د.محسن محمد حسين مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1406هـ ـ 1986م.

29 ـ الحافظ أبو طاهر السلفي، د.حسن عبد الحميد صالح، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1977م.

30 ـ الحرب الصليبية حسن حبشي، طبعة القاهرة، 1958م.

31 ـ الحركة الصليبية، سعيد عاشور، الطبعة الرابعة 1986، مكتبة الأنجلو المصرية.

32 ـ الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب محمد مؤنس، الطبعة الأولى 1999/ 2000م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.

33 ـ الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، د. علية الجنزوري، الهيئة العامة المصرية للكتاب.

34 ـ الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري، د. ممدوح حسين، دار عمار، طبعة 1989م.

35 ـ الحروب الصليبية، مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة، الطبعة الأولى، 1243هـ ـ 2003م.

36 ـ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد.

37 ـ الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى اللغة العربية د.السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.

38 ـ الحروب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ.

39 ـ الخطط، للمقريزي.

40 ـ الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبد الله، طبعة القاهرة 1987م.

41 ـ الدبلوماسية الإسلامية، عبد الرحمن محمد عبد الرحمن، دار اليقين، مصر المنصورة، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر الشريف.

42 ـ الدولة الأيوبية، سمير فراج بن الشاطئ، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، طبعة أولى 2005م.

43 ـ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب، د.علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

44 ـ الدولة الفاطمية العبيدية، الصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ.

45 ـ الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية.

46 ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، طبعة القاهرة، 1317هـ.

47 ـ الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، هادية دجاني، مؤسسة الدّراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، 1994م.

48 ـ الطائفة المنصورة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، الطبعة الأولى، 1425هـ ـ 2004م.

49 ـ الطريق إلى بيت المقدس، د.جمال عبد الهادي، د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية، طبعة ثان،ية 1422هـ ـ 2001م.

50 ـ العدوان الصليبي على العالم الإسلامي صلاح الدين، نوار.

51 ـ العرب والروم اللاتين في الحروب الصليبية الأولى، دكتور جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية بيروت، طبعة ثالثة، 1981م.

52 ـ العمارة العربية في مصر الإسلامية.

53 ـ الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د.علي عبد الحليم، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1993م.

54 ـ الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م.

55 ـ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، د.عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، 1418هـ ـ 1997م.

56 ـ الفرق بين الفرق، تأليف عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة بيروت.

57 ـ الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، د. عبد العزيز صلاح الدين سالم، مركز الكتاب للنشر، 1420هـ ـ 2000م.

58 ـ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، هادية دجاني شكيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية بيروت، 1999م.

59 ـ القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها، د. شفيق جاسر أحمد محمود، مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى، 1409هـ ـ 1989م.

60 ـ القدس تناديكم أحمد عبد ربه بصبوص، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، 1415هـ ـ 1995م.

61 ـ القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي د. وائل عبد الرحيم عبيد، الطبعة الأولى، 1426هـ ـ 2005م.

62 ـ القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، أرشيالد لويس.

63 ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

64 ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أحمد بن قاضي شهبة، تحقيق، محمود زايد، طبعة بيروت، 1971م.

65 ـ المدارس العصرونية في بلاد الشام، د. صادق أحمد داوود جودة، مؤسسة الرسالة، دار عمار، الطبعة الأولى، 1406هـ ـ 1986م.

66 ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث، للحاكم أبي عبد الله النيسابوري.

67 ـ المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العُثماني، عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الفياء عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 1408هـ ـ 1987م.

68 ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 1426هـ ـ 2005م.

69 ـ الملل والنحل، تأليف محمد عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني ـ جمع مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1387هـ/ 1967م.

70 ـ الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، د.سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى.

71 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

72 ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين بن شداد، تحقيق أحمد أبيبش، دار الأوائل سوريا، الطبعة الأولى، 2003م.

73 ـ الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين بن أيبك الصفدي ـ تحقيق: هملوت ريتر ـ طبع: دار النشر فرانز ستانير (ألمانيا)، 1381هـ/1962م.

74 ـ الوجير في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء منير عدور، دار الفارابي للمعارف، دمشق، الطبعة الأولى 1420هـ ـ 2000م.

75 ـ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة، طبعة 1425هـ ـ 2004م، مطبعة الزهراء الحديثة.

76 ـ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة، طبعة 1425هـ ـ2004م، مطبعة الزهراء الحديثة.

77 ـ الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، فاروق عمر فوزي، د.محسن محمد حسين، دار الشروق.

78 ـ إمارة الرها، علية الجنزوري.

79 ـ أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور.

80 ـ أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبدة، الطبعة الثالثة، 1419هـ ـ 1999م.

81 ـ بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري عام (1976م)، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

82 ـ بغية الطلب في تاريخ حلب.

83 ـ بيت المقدس أمام أحداث التاريخ، وديع تسلحوق.

84 ـ بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، د. عبد الجليل حسين عبد المهدي، دار البشير، الطبعة الثانية 1415هـ ـ 1995م.

85 ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة محمد محمد حسن شُرّاب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.

86 ـ تاريخ ابن خلدون.

87 ـ تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة عشر 1411هـ ـ 1991م.

88 ـ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى، لبنان 1400هـ ـ 1999م.

89 ـ تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د.السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة 1413هـ ـ 1993م.

90 ـ تاريخ الحروب الصليبية، سعيد عبد الله البيشاوي محمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، طبعة عام (2004م).

91 ـ تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د.محمد سهيل طقّوش، دار النفائس، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1999م.

92 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة 14عام (2000م).

93 ـ تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوس، دار النفائس الطبعة الأولى.

94 ـ تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.

95 ـ تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د.محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة طبعة، عام 1998م.

96 ـ تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، خاشع المعاضيدي، سوادي عبد محمد، دريد عبد القادر نوري، الطبعة الثانية، 1986م.

97 ـ تاريخ اليمن الإسلامي د.محمد عبده السروري، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء، الطبعة الثانية، 2003م.

98 ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د.علي الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

99 ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى، 1423هـ ـ 2002م.

100 ـ تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، د.أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي، طبعة 2002م.

101 ـ فقه النصر والتمكين، علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة بيروت، طبعة أولى.

102 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض، تحقيق د.أحمد بكير محمود، طبع مكتبة الحياة ـ بيروت.

103 ـ تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبدالعزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.

104 ـ تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي والمحلّي.

105 ـ تنظيم صفة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، د.جميل عبد المجيد عطية، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2002م.

106 ـ جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، د.فرست مرعي، صنعاء، 2003م الطبعة الثانية المنتدى الجامعي.

107 ـ جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د.فايد عاشور: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1405هـ.

108 ـ جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د.إبراهيم التهامي، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى 1426هـ ـ 2005م. لبنان، سوريا.

109 ـ حاضرة العرب، ترجمة عادل زعيتر.

110 ـ حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، اللواء الركن، د. ياسين سويد، دار الملتقى للطباعة والنشر، طبعة عام (1997م) بيروت، لبنان.

111 ـ حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، د.محمود إبراهيم، دار البشير عمان، الطبعة الأولى 1407هـ ـ 1987م.

112 ـ حطين وقائع وعبر، عبد الفتاح عاشور.

113 ـ حُكم قراقوش، الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش، دار البيارق، عمان، سمير عزام الطبعة الأولى 1420هـ ـ 1999م.

114 ـ حياة صلاح الدين، محمود شلبي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة، 1409هـ ـ 1989م.

115 ـ خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د.عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ ـ 1997م.

116 ـ دراسات تاريخية د.عماد الدين خليل.

117 ـ دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. نعمان محمود جبران د. محمد حسن العمادي، الطبعة الأولى 2000م.

118 ـ دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دكتور السيد عبد العزيز سالم، د. سحر عبدالعزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة 1992م، الإسكندرية.

119 ـ دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، محمد مؤنس عوض.

120 ـ دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ ـ 1983م.

121 ـ دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي ومصادرة من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، محمد ماهر حماده، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1408هـ.

122 ـ دروس وتأملات في الحروب الصليبية، لأبي فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن.

123 ـ دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان، 2002م.

124 ـ دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية، د.سلامة محمد الهرفي البلوي، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1994م.

125 ـ دور نور الدين في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد بوصيني رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.

126 ـ دول الإسلام، للذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م.

127 ـ دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1427هـ ـ 2006م.

128 ـ ديوان ابن الخياط.

129 ـ ذيل دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، تحقيق أميدروز، طبعة، بيروت 1908م.

130 ـ رجال الفكر والدعوة، أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

131 ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي تحقيق بشير البكوش ـ طبع: دار الغرب الإسلامي 1403هـ ـ 1983م.

132 ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق سامي الدهان، طبعة، دمشق 1954م.

133 ـ سقوط دولة الموحدين، د. مراجع عقيلة الغناي، 1409هـ ـ 1988م منشورات جامعة قاريوس.

134 ـ سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين.

135 ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.

136 ـ سنن الترمذي الجامع تأليف: محمد عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى 1356هـ.

137 ـ سنن سعيد بن منصور.

138 ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذهبي مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1990م.

139 ـ شجرة النور الزنكية في طبقات المالكية: تأليف محمد بن محمد مخلوف، طبع دار الكتاب العربي، بيروت.

140 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.

141 ـ شرف الدين مودود، عبد الغني رمضان.

142 ـ شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين د. فؤاد حسن حسين أبو الهيجاء، دار المناهج للنشر والتوزيع عماد الأردن، الطبعة الأولى 1424هـ ـ2004م.

143 ـ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام د.محمد علي الهرفي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1400هـ ـ 1980م.

144 ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، طبعة عام 1996م ـ 1415هـ.

145 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة 1989م.

146 ـ صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1991م.

147 ـ صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1991م.

148 ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية القاهرة، الطبعة الأولى (1374هـ ـ 1955م).

149 ـ صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية 1412هـ ـ 1991م المملكة العربية السعودية.

150 ـ صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، د.علي محمد الصّلابي، مؤسسة إقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى 1428هـ ـ 2007م.

151 ـ صلاح الدين الأيوبي أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار القلم، دمشق ـ بيروت، الطبعة الثالثة 1400هـ ـ 1980م.

152 ـ صلاح الدين الأيوبي الأتقى في الإسلام، البيرشاندور ترجمه عن الفارسية سعيد أبو الحسن، الطبعة الثانية 1993م.

153 ـ صلاح الدين الأيوبي بطل الإسلام الصالح، مجموعة من الأخصائيين التربويين،

مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 1408هـ ـ 1988م.

154 ـ صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، طبعة ثانية جديدة، طبعة 2000م.

155 ـ صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، محمد بيومي دار القلم، دمشق.

156 ـ صلاح الدين الأيوبي ورقة عمل لقادة الدعوة الإسلامية، دار الإيمان، د. بسام الزرقا.

157 ـ صلاح الدين الأيوبي وسقوط القدس وتحريرها.

158 ـ صلاح الدين الأيوبي، أحمد عبد الجواد، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت الطبعة الأولى، 1424هـ ـ 2004م.

159 ـ صلاح الدين الأيوبي، السير هاملتون. آ. ر. جب مكتبة بيسان.

160 ـ صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، الطبعة الثالثة 1997م، المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان.

161 ـ صلاح الدين الدين الفارس المجاهد والملك المفترى عليه، شاكر مصطفى، دار القلم دمشق.

162 ـ صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحيارى، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1415هـ.

163 ـ صلاح الدين المفترى عليه، شاكر مصطفى، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ ـ 1998م.

164 ـ صلاح الدين سقوط القدس وتحريرها، قراءة معاصرة، وليد نويهض، دار ابن حزم لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ ـ 1997م.

165 ـ صلاح الدين والصليبيون استرداد بيت المقدس، عبد الله سعيد محمد الغامدي، دار الفضيلة، بيروت ـ لبنان، 1405هـ ـ 1985م.

166 ـ صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، د. أحمد الشامي، الطبعة الأولى، 1991م مكتبة النهضة العربية، القاهرة.

167 ـ صلاح الدين وتحرير القدس، علية المهتدي، الزبدة، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1994م وزارة الثقافة الأردنية.

168 ـ صلاح الدين، عبد الله علوان، دار السلام، مصر.

169 ـ طبعة العامة في مصر في العصر الأيوبي، شلبي إبراهيم الجعيدي، الهيئة المصرية للكتاب 2003م.

170 ـ عصر الدولة الزنكية، د. علي محمد الصَّلَّابي مؤسسة اقرأ، القاهرة ـ مصر.

171 ـ عماد الدين زنكي، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق ـ سوريا.

172 ـ عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، د.عدنان محمد فايز الحارثي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

173 ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين، شهاب الدين أبو شامة، حققه أحمد البيسومي وزارة إحياء التراث العربي، دمشق 1991م.

174 ـ فن الصراع الإسلامي الصليبي ـ السياسة الخارجية للدولة النورية، د.محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى، 1998م.

175 ـ في التاريخ الأيوبي والمملوكي د. أحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة.

176 ـ قصة الحضارة: ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957م.

177 ـ كتاب التوحيد لمحمد عبد الوهاب.

178 ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1418هـ ـ 1997م.

179 ـ لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى وإحباط المؤامرة العالمية على الأمّة الإسلامية، د. مجاهد مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1994م.

180 ـ ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قريونس بنغازي، الطبعة الثالثة، 1994م.

181 ـ ماهية الحروب الصليبية: الإيديولوجية، الدوافع، النتائج، قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، 1993م.

182 ـ مجاهد الدين قايماز نائب إربد الموصل، د. صادق أحمد جودة، مؤسسة الرسالة، ودار عمار، الطبعة الأولى، 1406هـ ـ 1985م.

183 ـ محاضرات في الفكر والدعوة، للندوي، أبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2001م.

184 ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

185 ـ مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، اختصار وتعليق د. محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، 1418هـ ـ 1997م.

186 ـ مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1411هـ.

187 ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط بن الجوزي، حيدر آباد الدكن، 1951م.

188 ـ مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، محمود

محمد الحويري الطبعة 2002م، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.

189 ـ مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت.

190 ـ مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي، د. أسامة أحمد حمّاد، مركز الإسكندرية للكتاب، الطبعة الأولى، 1425هـ ـ 2004م.

191 ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تأليف عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري الدباغ، تحقيق إبراهيم سبوح ـ طبع مكتبة الخانجي بمصر ـ الطبعة الثانية.

192 ـ معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران.

193 ـ معاهدات الصلح والسلاح بين المسلمين والفرنج.

194 ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1979م.

195 ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل.

196 ـ مقاتلون في سبيل الله، جيمس رستون الابن، نقله إلى العربية رضوان السيد، مكتبة العبيكان، طبعة 2002م.

197 ـ مقومات النّصر في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت الطبعة الأولى، 1420هـ ـ 1999م.

198 ـ مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.

199 ـ من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حُسني أدهم جَرّار، مؤسسة الزيتونة، الطبعة الأولى، 1419هـ ـ 1998م، دار البشير.

200 ـ موسوعة المغرب العربي للغنيمي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، مكة 1979م.

201 ـ موسوعة تاريخ العرب، العصر الأيوبي عبد المنعم الهاشمي، دار البحار، بيروت، الطبعة الأولى.

202 ـ موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية الليبية، جامعة الفاتح، 2000م.

203 ـ نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريس دار المنارة، جدة السعودية، الطبعة الأولى، 1405هـ ـ 1985م.

204 ـ نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د.عبد الهادي محمد رضا محبوبة الدار المصرية اللبنانية.

205 ـ نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزي، المطبعة النورية.

206 ـ نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوي، دار البشير، عمّان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 1411هـ ـ 1990م.

207 ـ نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي.

208 ـ نور الدين محمود، الرجل والتجربة، عماد الدين خليل، دار القلم 1400هـ ـ 1980م.

209 ـ نور الدين محمود، حسين مؤنس، الدار السعودية، الطبعة الثالثة 1408هـ ـ 1987م.

210 ـ هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل مكتبة النور، الطبعة الأولى 1407هـ ـ 1986م.

211 ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين، د.ماجد عرسان الكيلاني، دار القلم، الإمارات العربية، الطبعة الثالثة 1423هـ ـ 2002م.

212 ـ هموم داعية، محمد الغزالي، دار القلم.

213 ـ واقدساه، د. سيد حسين العفّاني، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفاني، الطبعة الأولى 2001م ـ 1421هـ.

214 ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حماده الطبعة، بيروت 1986م.

215 ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

فهرس المحتويات

المؤلف في سطور

علي محمد محمد الصَّلَّابي

ـ ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (1383هـ/ 1963م).

ـ حصل على درجة الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز. وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ ـ 1414هـ/ 1992م ـ 1993م).

ـ نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية. كلية الأصول. قسم التفسير وعلوم القرآن. عام (1417هـ/ 1996م).

ـ نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام (1999م). وكانت الرسالة العلمية: فقه التمكين في القرآن الكريم.

ـ البريد الإلكتروني abumohamad2@maktoob.com.

كتب صدرت للمؤلف ـ من إصداراتنا:

(1) السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

(2) سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ شخصيته وعصره.

(3) سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ شخصيته وعصره.

(4) سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ شخصيته وعصره.

(5) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ شخصيته وعصره.

(6) سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ شخصيته وعصره.

(7) الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

(8) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

(9) تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

(10) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

(11) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

(12) الوسطية في القرآن الكريم.

(13) الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

(14) معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره ـ الدولة السفيانية.

(15) عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

(16) دولة السلاجقة.

(17) الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

(18) الإمام الغزالي.

(19) نور الدين زنكي.

(20) عماد الدين زنكي.

(21) فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

(22) حقيقة الخلاف بين الصحابة.

(23) عصر الدولة الزنكية.

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١\٤٥٠٤٥٤ ـ ٠١\٤٥٠٤٦٧ ـ بيروت، لبنان

صلاح الدين الأيوبي



د. الصلابي

مؤلف جديد يضيء شمعة أخرى في الموسوعة التاريخية التي نسعى لإخراجها، وهو امتداد لما سبقه من كتب درست الحروب الصليبية. ويتناول الدكتور الصلابي في هذا الكتاب صراع المشاريع: المشروع الصليبي، والمشروع الإسلامي، ولخص الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية، والرصيد الخلقي لصلاح الدين وصفاته، وتوسعه في إنشاء المدارس، ومكانة العلماء والفقهاء عنده، ثم أفرد المؤلف فصلاً كاملاً لمعركة حطين وفتح بيت المقدس، وأسباب الانتصار في تلك المعركة الفاصلة والحاسمة. ثم الحملة الصليبية الثالثة وردة فعل الغرب الأوروبي من تحرير بيت المقدس والتعبئة الشاملة التي حدثت، وأخيراً وفاة صلاح الدين وتأثر الناس بوفاته حتى المؤرخون الأوروبيون أشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة. وستظل سيرته تمد أبناء المسلمين بالعزائم الصلاحية التي تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية وبهاءها.


ISBN 9953-85-151-4


دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com